

على يحيى نعمته

الإصطبر من كتاب الفلاح

الإصطبر من كتاب الفلاح

مكتبة مؤلفيها

مطبعة دار الفلاح في القاهرة

القاهرة - مصر

١٩٠٦

على يحيى معمر

الأباضيون في موكب التاريخ

الحلقة الرابعة

الأباضيون في موكب التاريخ

يطلب من: مكتبة وهبة

١٤ شارع الجمهورية - عابدين

القاهرة - تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

جميع الحقوق محفوظة

مطبعة الدعوة الإسلامية
١ شارع الرفاعي بالحرة الجديدة
خلف مساكن الزاوية الحمراء بالقاهرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ، ونستغفره ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلله فلا هادي له .

« وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

« أوصيكم عباد الله بتقوى الله ، وأحسبكم على طاعة الله ، وأستفتح بالذي هو خير .

« أيها الناس : إنما المؤمنون إخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفسه . ألا هل بلغت . اللهم فاشهد ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض . فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وسنتي ... ألا هل بلغت . اللهم فاشهد .

« أيها الناس : إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، ليس لعربي على أعجمي فضل إلا بالتقوى ألا هل بلغت . قالوا : نعم . قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . »
(أجزاء من خطبته صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع) .

تمهيد

الجزائر

الجزائر هو الاسم الذي اختاره التاريخ ليدل على عاصمة من العواصم الإسلامية الكبرى ، واقعة على البحر الأبيض المتوسط ، كما يدل على قطعة مجيدة عزيزة من الوطن الإسلامي الفسيح ، الذي يمتد مستعرضاً على صدر الكرة الأرضية يحتل منها أجمل الأجزاء وأنبهها : جزء الصدر من الجسم ، الجزء الذي يمور بالحياة والإيمان والحب .

وإذا كانت الجزيرة العربية تمثل القلب من العالم الإسلامي ، فإن المشرق الإسلامي يكون الجانب الأيسر بيده الفايضة ، والمغرب الإسلامي يكون الجانب الأيمن بيده الباطشة .

وإذا كانت كلمة الجزائر إنما أطلقت على هذه العاصمة ثم على هذه الحلقة من السلسلة الرابطة بين أجزاء وطن أمة محمد ﷺ ، في عصور متأخرة . فإن مواقف الإسلام فيها في هذا العصر ومحاربه للبغي والعدوان والاستعمار قد أكسب هذا الاسم مجداً قلما ناله بلد في العصر الحاضر ، ولا غرابة في ذلك فإن الجزائر تمثل الساعد اليميني الباطشة للأمة الإسلامية الناهضة .

ومن أجل ذلك فمن تمصيل الحاصل أن يقوم اليوم كاتب ليعرف بالجزائر ، ويقول للناس : إنها البلاد الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط وشرق المغرب الأقصى وغرب تونس وليبيا وشمال الصحراء الكبرى فإن الكفاح الذي قامت به الجزائر في سبع سنوات متلاحقات حطمت فيها أسطول أعظم دول العالم مجتمعة في ميثاق الحلف الأطلسي جعلها تحتل مكان الصدارة في تاريخ النضال للعصر الحديث . وجعلها على موضع من العظمة يراها فيه كل الناس ويعرفونها .

ولقد رأيت أن أفتتح هذا الكتاب بهذا العنوان ، لا لأني أريد أن أتحدث عن الجزائر العاصمة فإنها غنية عن حديثي ، ولا عن تاريخ الوطن الجزائري في العصر الحاضر ، فقد كتبه أهله بالدم والرصاص في حين تكتب بعض البلاد الأخرى تاريخها الحاضر بالزور والبهتان وبالدهوى العريضة الكاذبة . وبالتهرب من مجابهة المسئولية في وضوح وبالفرار من تحمل تبعاتها تحمل الصبور الواصل المستعد .

في هذا الوطن الإسلامي المجيد عاشت مجموعة من الطوائف الإسلامية في مختلف العصور ، منبظمة تحت لواء واحد ، ودولة واحدة حيناً ، ومنفرقة تحت عدد من الدول أحياناً ، ومتعاونة متفاهمة متحدة في فترات ، وقد يقع بينها أو بين بعضها ، ما يقع بين الإخوة من حدة النقاش وسوء التفاهم ، وبواعث الخصومة ، ولسكنها في جميع تلك الأحوال بدوها المختلفة ، وبمذاهبها المختلفة ، وبما يقع فيها من أحداث الاختلاف والاتفاق ومظاهرها ، كانت تمثل الأمة المسلمة الحريضة على إسلامها المعزة بدينها المحافظة عليه في إخلاص وحرص واعتزاز .

وفي هذه الحلقة من هذا الكتاب أريد أن أتحدث عن فرقة من الفرق الإسلامية عاشت في هذه المغانى التي نسميها اليوم الجزائر وكانت تسمى - المغرب الأوسط - بما فيها من مد وجزر إلى الشرق أو الغرب . ولا تزال تلك الفرقة تعيش وتسكون عنصراً هاماً من عناصر الأمة المسلمة التي نرجو أن يتاح لها العودة إلى مكانها الطبيعي من قيادة البشرية إلى سلوك المنهج الذي اختاره الله لها ودعاها إلى السير فيه .

هذه الفرقة هي فرقة الإباضية وقد يسر الله - وله الحمد والمنة - لي أن

تحدثت عن الإباضية في ليبيا وفي تونس بما قد يكون القارىء الكريم قد رآه وقرأه . وفي هذا الجزء سأحاول - بحول الله وقوته - أن أتحدث عن الإباضية في الجزائر ، سالكا نفس المسلك الذى سلكته من قبل . محاولا أن أضع أمام القارىء الكريم صوراً واقعية لحياة مجتمع إسلامي نظيف مستشهداً عليها بأحداث تاريخية من مصادر مختلفة خلال عشرة قرون ، غير مهم بالارتباط الزمني للأحداث ، لأننى كما ذكرت غير مرة لست كاتب تاريخ يتقصى الأخبار والأحداث والوقائع في تتابعها الزمني وإنما أنا أعرض صور حياة متكاملة لمجموعة من الناس كانت تعيش مع امتدادها الزمني . ولذلك فقد استدعيت عرض صورة من الصور أن أعرض بعض ما يتعلق بها من أشخاص أو أحداث من عدة جوانب فيظنها بعض الناس إعادة وتكراراً . وقد أهمل بعض الأحداث والأشخاص الذين أعتقد أن الصور التي أردت عرضها تم بدونهم فيرى بعض الناس ذلك تقصيراً وإهمالاً . ويحسبون أننى أطنب في مكان لا يحتاج إلى الإطناب وأوجز في مكان ينبغي فيه الإسهاب . وليس ذلك كما ظنوا لأن المهم عندي أن تكون الصورة التي أردت عرضها - عن واقع حياة زاخرة - واضحة من جميع جوانبها وزواياها ، وأن تكون الحقيقة التي درستها وعرفتها ، واقتنعت بصحتها جلية مفهومة .

ولقد قسمت الكتاب إلى خمسة أبواب كل باب تجتمع فيه مجموعة من الصور يضمها إطار واحد لمشهد من المشاهد التي أردت عرضها على القارىء الكريم .

وفي الباب الأول عرضت مجموعة من الصور عن الدولة الرستمية تكون

لها مشهداً عاماً في إطار واحد يبرز سيرة تلك الدولة وأسلوب حياتها كما يبرز سيرة وأسلوب حياة الإباضية في تلك الفترة .

وفي الباب الثاني عرضت مجموعة من الشخصيات العلمية والاجتماعية ونماذج من نشاطهم لأعطى مشهداً عاماً في إطار واحد لحياة علمية واجتماعية استمرت مترابطة عشرة قرون أو ما يزيد ينبنى بعضها على بعض .

وفي الباب الثالث رأيت أن أجمع صوراً مختلفة تصور جوانب مختلفة أضعتها تحت إطار واحد ينتقل فيها النظر بين مشهد ومشهد وهي بالنظرة الجزئية تبرز مناظر متعددة منفردة ولكنها بالنظرة الفاحصة الكلية تبدو منسجمة مع الصورة الكاملة التي وضع من أجلها الكتاب . وتملاً الفراغات التي بقيت بين الفصول وتربط بين الصور والمشاهد . ولا يتم المنظر العام الذي نريد رسمه للإباضية في الجزائر خلال وجودهم بها منذ الفتح الإسلامي إلى اليوم إلا بهذه الصور المتناثرة التي جمعناها في مشهد واحد من الباب الثالث .

وفي الباب الرابع تحدثت عن عدد من المدن التي كانت أو لا تزال عامرة بالإباضية محاولاً أن أعرض صورة قريبة من الحقيقة لتلك الحياة الزاخرة بما فيها من مرارة أحياناً ، وإشراق وهناء أحياناً أخرى على أساس المبدأ الذي اتخذته وأعلنته في غير مكان من أن تاريخ الأمم والشعوب ليس هو ما تحققه أو تقوم به رغبات السلاطين والحكام والجيوش وإنما هو سلوك الأفراد النابع من ذواتهم دون سياط تلهب ظهورهم أو عطايا يتحلب عليها ريتهم . ولا يلتقي تاريخ الأمة والدولة إلا في حالة واحدة وذلك عندما

تكون الدولة سائرة في المنهج الذي رسمته شريعة الله سيرا حقيقيا لا مكر فيه ولا خداع .

وفي الباب الخامس أوردت مجموعة من النقود والملاحظات - مما قيل في صراحة ووضوح أو في نوع من الغمغمة والخفاء - عن بعض أنواع سلوك المجتمع الإباضي في جانب من جوانب الحياة أو في فترة من تاريخهم بالجزائر . وأوردت إلى جانب تلك النقود صوراً من الرد على النقد المغرض ، أو تصحيحاً لفهم النقد الخطيء ، أو تبريراً للمسلك الذي اتخذته ذلك المجتمع حسبما يراه . وجميع هذه الصور المتعارضة من النقد والرد تعطى مشهداً متكاملًا يقوم مقام الرتوش الجانبية التي تكتمل بها الصورة أو التشطيبات الأخيرة التي يتم بها البناء كما يقول المهندسون والمقاولون .

وبعد هذا كله لا يخجلني أبداً أن أقول إنما قدمت جهد الضعيف ودراسة القاصر ، ولبنة متواضعة في بناء صرح شامخ . وإنني أعتذر إلى القارئ الكريم لما أخذت من وقته الثمين :

على أني أضع ثقل المسؤولية الكاملة على شبابنا الناهض الذي أتاحت له وسائل الدراسة الحاضرة كل الإمكانيات ، فاستطاع أن يستكمل دراساته الجامعية ، وتخصصاته في الميادين العلمية ، وعرف طرق البحث العلمي ، والتأليف المنهجي . وزودته الدول والجامعات بكل ما يحتاج إليه من مصادر البحث والتنقيب ، ووسائل الانتقال والاتصال . فلم يبق له عذر . وقد توافرت لديه الدراسة التخصصية والمنهجة العلمي للبحث وفتحت له أبواب المكتبات بمختلف اللغات . وزود بما يحتاج إليه من وسائل الحصول على المواد العلمية من مصادرها المتفرقة .

وإلى أن يقوم شبابنا الناهض بهذا العبء الثقيل على أسلم الوجوه نرى
- نحن الذين تسلمنا أمانة الدين والتاريخ من الجيل الذي سبقنا - أنه من واجبنا
الحتي أن نزود القارئ الكريم المتعطر ، بمجهوداتنا الهزيلة ، ترطيباً
للمهجة وإن لم نرو الغليل ، ومساعدة في إحضار الدواء وإن لم نشف العليل ،
وإفادة بما عندنا من نزر قليل ، حتى يحضر ما عندهم من جم جليل .

والله للمستعان وهو نعم الوكيل ؟

الباب الأول

الدولة الرسمية

عزيزى القارىء : فى هذا الباب أحاول أن أعرض عليك داخل إطار واحد مجموعة من الصور عن الدولة الرسمية . وأنا فى هذا العرض لا أسلك المنهج الذى اعتاده المؤرخون . وإنما أحاول أن أعرض عليك المشاهد كما أراها أنا ، وكما يتناولها رسام أو مصور ، لا كما يتناولها كاتب أو مؤرخ . وسوف تجدىنى أطيل فى بعضها وأختصر فى البعض الآخر . وذلك تبعاً لما يحكم به ذوقى الخاص فى تصور وتصوير الأشياء . وقد تجدىنى أطلت كثيراً فى قضية أبى بكر بن أفلح ورجائى أن تقرأ ذلك بإمعان وأن تستمعين بمصادر أخرى إن شئت ثم تقرر حكمك فى القضية فإن انتهيت إلى ما انتهيت إليه فالحمد لله على التوافق وإن خالفتنى فى رأى فالله أعلم بالحقائق وهو وحده علام الغيوب . واختلاف الرأى لا يفسد للود قضية .

ابن الصغير يرسم صورتين

رسم ابن الصغير صورتين إحداهما للإمام الرستمي والأخرى للدولة الرستمية . فحينما أراد أن يرسم صورة للإمام في الدولة الرستمية قال :

« هو رجل جالس على حصير فوقه جلد وليس في بيته شيء سوى وسادته التي ينام عليها وسيفه ورمحه وفرس مربوط في ناحية من داره » .

« رميت له وسادة من آدم فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات » .
« وكان إذا جلس الناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامه ترفع إليه وكان زاهدا ورعانا سكا سكيننا » .

« نسا ربهم سيرة جميلة حمدها أولهم وآخرهم، ولم ينقموا عليه في أحكامه حكما ولا في سيره سيرة ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان » .

هذه الصورة التي رسمها ابن الصغير لبعض الأئمة في الدولة الرستمية يصح أن تعبر عن كل واحد منهم مع تغيرات بسيطة لا تتناول جوهر الصورة ولكن الخطوط الجانبية .

أما حينما أراد أن يرسم صورة للدولة الرستمية فقد قال :

« قوى الضعيف، وانتعش الفقير، وحسنت أحوالهم وخافهم جميع من اتصل به خبرهم، - وأمنوا ممن كان يفرزهم، ثم شرعوا في العمارة والبناء وإحياء الموات وغرس البساتين وإجراء الأنهر واتخاذ الرِّحَاء^(١) وغير ذلك،

(١) الرِّحَاء جمع رحا وهي آلة طحن الحبوب قال شاعر الجزائر وشيخ صحافتها رحمه الله ... هم اخترعوا الرحوات بحافة ينما غازوا الظفر .

واتسعروا في البلد وتفسحوا فيها ، وأتتهم الوفود والرفاق من كل الأمصار وأقاصى الأقطار . ليس أحد ينزل بهم من الغرباء إلا استوطن معهم ، وابتنى بين أظهرهم ، لما يرى من رخاء البلد وحسن سيرة إمامه وعدله في رعيته . وأمانه على نفسه وماله ، حتى لا ترى دار إلا قيل هذه لفلان الكوفي وهذه لفلان البصري ، وهذه لفلان القروي ، وهذا مسجد القرويين ورحبتهم ، وهذا مسجد الكوفيين . وهذا مسجد البصريين .

« والبلد زائدة عمارتها في ذلك كله والسيرة واحدة وقضاته مختارة وبيوت أمواله ممتلئة وأصحاب شرطته والطاءئون به قائمون بما يجب ، وأهل الصدقة على صدقاتهم ، يخرجون في أو ان الطعام فيقبضون أعشارهم في هلال كل موسم . »

« ومن أهل الشاة والبعير يقبضون ما يجب على أهل الصدقات لا يظلمون ولا يُظلمون . »

« ثم أمر قومًا في نفوسة يمشون في الأسواق فيأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، فإن رأوا قصابًا ينفخ في شاة عاتقوه ، وإن رأوا دابة حمل عليها فوق طاقتها أنزلوا حملها وأمروا صاحبها بالتخفيف عنها ، وإن رأوا قذرًا في الطريق أمروا من حول الموضع أن يكتسه ولا يمنعون أحدًا من الصلاة في مساجدهم ولا يكشفون عن حاله ولو رأوه رافعًا يديه . »

« وكانت خطبهم على المنابر خطب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب . »
« إن قضاته وأصحاب بيت أمواله وأصحاب شرطته ومن بالبلد من فقهاء الإباضية وغيرهم لم يطالب بعضهم بعضًا ولا سعى بعضهم ببعض وكانت مساجدهم عامرة وجامعهم يجتمعون فيه ، وخطيبهم لا ينكرون عليه شيئًا . »

إلا أن الفقهاء تناجت بالمسائل فيما بينهم وتناظرت ، واشتهت كل فرقة أن تعلم ما خلفتها فيها عاقبتها ومن أتى إلى حلق الإباضية من غيرهم قربوه ، وناظروه أطف مناظرة ، وكذلك من أتى من الإباضية إلى حلق غيرهم كان سبيله كذلك .

أحسب أن هاتين الصورتين اللتين رسمهما ابن الصغير بقلمه البليغ ، كافتان لإيضاح ما نرمى إليه أوروبما كانتا خلاصة هذه المباحث الطويلة في هذا الكتاب الثقيل فلمستعجل أن يكتفى بهما عن باقي الفصول . وابن الصغير كما يعلم القارئ الكريم معاصر لهذه الدولة وهو مخالف لها في المذهب وقد صرح في كتابه أنه يبغضها لأنها على غير مذهبه ، ولكنه مع بغضه لها لا ينكر الحقائق التي يعرفها وشاهدها وهو يقول ذلك بصراحة وقوة فاستمع إليه :

« وأنا أتحمى فيها الصدق ، ولا أحرفها عن معناها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوى المروءات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين » .

دخول المذهب الإباضى إلى الجزائر

في صيف سنة ١٩٦٥م تمت بجولة سريعة في الجزائر . وكنت يوماً في مجلس محاضرة العلامة الشيخ يوسف العطاوى ، وكنت أتحدث عن المذهب الإباضى فقلت :

« إن المذهب الإباضى دخل إلى الجزائر في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى مع تلاميذ الإمام جابر بن زيد نفسه ، ومنهم سلمة بن سعد الذى طاف جميع بلاد المغرب الإسلامى واستطاع أن يكون بعثة علمية في المغربين الأدنى والأوسط تحمل العلم من العراق وتسير به مع الشمس » .

وصبر الشيخ حتى أتممت كلامى ثم قال : إن هذا الكلام غير صحيح فإن المذهب الإباضى إنما دخل الجزائر مع الفاتحين ، لأن الإباضية ليس فيها شىء غير ما فى الإسلام الذى جاء به الفاتحون الأولون الصادقون .

وعندما تقول إن المذهب دخل بتاريخ كذا فإن قولك هذا يشعر بأن المذهب شىء آخر غير الإسلام ، أو إنه يحمل شيئاً لم يكن فى الاندفاع الأولى التى حملت الإسلام إلى هذا المغرب بصفائه وتقاؤه .

والحقيقة إن الإباضية هى الإسلام حافظ عليه من تسموا بهذا الاسم . فلما انحرف منحرفون عن الإسلام ، إما بالقول ، وإما بالعمل ، وإما بالعقيدة ، وإما بها جميعاً ، وقف أولئك الناس يردون ما يراد إدخاله إلى دين الله من الأباطيل ، فنصورتهم السياسة الماكرة بصورة حزب أو مذهب أو كتلة أو ما شئت من أسماء ، وحاولت أن تجعلهم حركة منفصلة قائمة بنفسها ،

بينما هي في الواقع مازالت تلك الاندفاعية المشرقة الأولى التي جاءت تحمل دين الله كما بلغه رسول الله ﷺ .

وصمت الشيخ الوقور بعد أن أبدى لي هذه الملاحظة القيمة . فكرت في ملاحظة الشيخ فوجدت فيها كثيراً من الحق والواقع ، فلاشك أن حملة الإسلام في اندفاعتهم الأولى كانوا يدعون الناس إلى اعتناق الإسلام ، وكانوا هم أنفسهم يمثلون الإسلام . فلما انحرف بعد ذلك منحرفون بدين الله تفرقت جهود الأمة الداعية إلى دين الله وسلك الدعاة سبلاً مختلفة . فمنهم من استمر يدعو البعداء عن الإسلام إلى الدخول في الإسلام لا يبالي ما عليه الناس داخل الأمة ، ومنهم من رجع يدعو المنحرفين ويطالبهم باللاح - أن يتقيدوا بالمنهاج الذي رسمه دين الله . وأن يلتزموا بأحكامه وشرائعه ، ومنهم من اشتط في هذه الدعوة ، فعلا حتى سلك المنحرفين بدين الله في سلك واحد مع الخارجين عليه ، وجاء المؤرخون الذين يسرون في ركاب الحكام المنحرفين ، يعملون لهم عمل الصحافة الموجهة فأخذوا يسبغون الأسماء والألقاب على كل من جهر بالدعوة إلى التمسك بالحق والعمل في سبيله ، ويسبغون إليهم كل ما من شأنه أن يثير عليهم الناس ، ويظهرهم بظهور طائفة شاذة منفصلة عن الأمة ، منعزلة بنفسها .

وجاء من بعدهم السكتاب ، سواء كانوا كتاب الفقائد أو كتاب المقالات التاريخية فاعتمدوا على أولئك المؤرخين ، واعتبروهم حجة ومنصداً . وسهل لديهم أن يقال إن الطائفة الفلانية تعتقد كذا ، وتدين بكذا ، وعملت كذا وكذا . دون الرجوع إلى تلك الطائفة وأصول مذهبها . وقد يعمد بعضهم إلى سلوك فرد أو أفراد في طائفة من الطوائف ، فيعتبرونه أمثلاً ورأيًا

لتملك الطائفة ، ولو كانت تلك الطائفة غير راضية عنه ولا عاملة به ، لاسيما وأن آراء المخالفين للحكام ، والداعين لهم إلى التزام الإسلام في الأحكام ، لم يتح لها الانتشار بصورتها الحقيقية المجردة . وإنما قلبت فيها الحقائق ، وأضيف إليها كثير في الأباطيل ، لكي تصل إلى الناس مكروهة أما كتبهم التي قد تكون صورة صحيحة أو قريبة من الصحة ، فقد حوربت بدون هوادة ، وحيل بينها وبين البلوغ إلى الناس بكل وسيلة ، وأحرق منها الكثير ، وحرف منها البعض وكان يكفي في نظر الحكام الظالمين ، أن يقوم الناس بنقد سلوكهم ، أو مطالبتهم بالعدل والاستمسك بدين الله . حتى توضع لأولئك الناس أسماء فرقة تعزلهم عن المجتمع الإسلامي ، وتصورهم بشناعة ، وتظهرهم بمظهر من يشق عصا الطاعة ، ويحدث في الدين ما لم يكن منه ، وينشق عن الأمة ويفرق كلمتها ، وحتى يجد أولئك الحكام سنداً لمحاربتهم والقضاء عليهم ومبرراً يحمل جمهور الأمة على كراهتهم دون أن يعرف من حقيقتهم أو الدوافع إلى كراهيتهم ومحاربتهم شيئاً .

وقد استمر الإباضية إلا النزر اليسير - على المنهاج الإسلامي النظيف يحافظون عليه في أنفسهم ، ويأملون من غيرهم أن يحافظ عليه ، ويدعون أولياء الأمر ممن في أيديهم شئون الأمة أن يراعوا حق الله فيها ، وأن يؤدوا الأمانة التي جعلها الله في أعناقهم كما أرادها الله .

ونستطيع أن نعتبر مسلك الإباضية في الجزائر سائراً على منهجين واضحين :

١ - الأول : استهساكهم بالواضح من دين الله والعمل به والحرص عليه ، والتزام سيره وآدابه في تشدد يبلغ الجمود أحياناً . ودعوة المسلمين إلى تلك (٢ - الإباضية)

المحافظة ووطالبة الفاتحين على الحكم منهم ومن غيرهم ، بمراعاة شريعة الله
فما يفعلون وفما يذرون .

٢ — الثانى : الحرص على الجهاد المقدس ، والكفاح فى سبيل الله .
سواء كان ذلك الجهاد لتأمين الدعوة فى البلاد التى يفتحها المسلمون . أو فى
الدفاع عن البلاد الإسلامية التى يحاربها المشركون .

والشواهد على هذين الاتجاهين فى تاريخ الإباضية كثيرة متعددة ،
ويستطيع القارئ الكريم أن يجد صوراً من ذلك فى الحلقات السابقة من هذا
الكتاب وفى غيره من الكتب ، وقد نعرض فى هذا الكتاب صوراً لكلا
الاتجاهين فى حياة الإباضية فى الجزائر .

ولعل مسلك الأمة فى هذين الاتجاهين هى الصورة التى نجدتها للأمة
المسلمة عندما بدأ فيها الانحراف عن سبيل الله ، فبينما كانت جموع منها توالى
الفتوح إلى الشرق والغرب لتأمين الدعوة كانت أصوات كبار الصحابة
والتابعين تنتقد الانحراف عن دين الله وتطالب بالرجوع إلى ما عرف من
سيرة المؤمنين الصادقين .

وهذا المعنى هو ما حمل الشيخ يوسف العطاوى على إبداء
ملاحظته السابقة .

فإذا كان الإباضية يستمسكون بدين الله كما عرف عن رسول الله ﷺ
وكانوا يسرون بسيرة خير الترون يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر
داخل أمة الإجابة ، ويجاهدون بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله لتبليغ رسالة
الله ، فإن تاريخ دخولهم إلى الجزائر يكون ذو تاريخ دخول الإسلام إليها .

وعلى هذا فيكون دخول المذهب الإباضى إلى الجزائر ما بين الخمسين والستين من الهجرة وهو التاريخ الذى بدأت فيه الفتوح الإسلامية الدخول إلى الجزائر. وهذا بناء على ملاحظة الشيخ يوسف السابقة أما بالنظر إلى ما يراه أكثر المؤرخين وكتاب مقالات العقائد ، وباعتبار أن الإباضية مذهب إسلامى كغيره من المذاهب له قواعده وأصوله وفروعه المختصة به فإن دخوله إلى الجزائر يكون فى أواخر القرن الأول الهجرى وأوائل الثانى ، وأظهر الشخصيات التى ظهرت على مسرح الدعوة له فى ذلك الحين هو سلمة بن سعد كما ذكرنا غير مرة ومن بعده حملة العلم .

ويذكرهم عبد الحميد بن مغطير وربما غيره ممن لم نعرفه .

بعثة علمية

لقد اخترت أن أستعمل في هذا العنوان كلمة (بعثة علمية) وإن كان هذا الاستعمال إنما حدث في هذه العصور المتأخرة التي تعنى فيها الدول والهيئات بإرسال طلاب العلم إلى مكان العلم. أما في ذلك العهد الذي أكتب عنه فلم يكن هذا الاستعمال المعروف. ذلك أن الرغبة في طلب العلم هي أمنية كل نفس في ذلك الحين. وكان الارتحال في طلب العلم هو الفرض الثاني للشباب المسلم في عملية الجهاد في سبيل الله، ولهذا فقد اختار القرآن الكريم لهذا المعنى كلمة تدل على الصبر والكفاح والجلد. تلك الصفات التي يتطلبها الجهاد في كلا الميدانين. فقد قال تعالى في سورة التوبة ما يلي:

﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾^(١).

فقد استعمل كلمة نفر في الاستعداد والاندفاع إلى الحرب كما استعملها في الاستعداد والارتحال إلى طلب العلم. والذي يدفع المسلم في ذلك الحين إلى ميدان القتال، أو إلى معاهد العلم إنما هو الباعث النفسى للقيام بالواجب في حماية الدعوة وتأمينها من عدوان السلاح أو حمايتها وتأمينها من عدوان الجهل. فالجهاد في سبيل الله إنما يقوم بواجب لا ينتظر عليه أجراً يدفع إليه من الناس، وطالب العلم لا ينتظر نفقة تصرفها دولة أو تمددها جمعية أو هيئة.

ولهذا الفرق بين طلاب العلم أمس واليوم رأيت أن أوضح للقارىء الكريم أن اختياري لاستعمال كلمة بعثة علمية على طلاب العلم في ذلك الحين فيه كثير من التجوز والذي يترلى أن أسمى الطلاب الذين سافروا من المغرب الإسلامى إلى المشرق الإسلامى لطلب العلم بمجهودهم الخاصة - بعثة علمية - ليس هو التشابه في الحياة التى تحياها البعثات العلمية التى ترعاها الدولة والهيئات اليوم . بحياة البعثات العلمية التى تقوم على الجهود الفردى فى ذلك الحين ، وإنما لأن هذه البعثة تكونت بأسلوب شبيه بأسلوب تكوين البعثات اليوم ولبيان ذلك يحسن بنا أن نعود إلى إعادة بعض ما سبق أن تحدثنا عنه فى الحلقات السابقة فى هذا الكتاب .

كان سلامة بن سعد الذى تحدثنا عنه غير مرة فيما مضى ، من أنشط الدعاة إلى الاستمسك بدين الله ، كما أخذه من كبار التابعين أو بعض تلاميذهم . وكان يندد بأعمال الظالمين والمستبدين ، لا يفتر ولا يسكت ولا يقرب فى مكان ، ولم يكن سلامة الرجل الوحيد الساخط على الوضع .

فقد كانت النعمة على الانحراف بالحكم ، تعم العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه غير فئة قليلة من المنتفعين بالوضع ، والمعتزين بالجاه والمنصب ، وكان علماء الأمة فى هذا الصدد ينقسمون إلى ثلاثة أقسام :

١ - قسم غير راض عن الوضع فهو ينتقد ، وينقم عليه ، ولكنه فى نفس الوقت يقف منه موقفاً مسالماً ، لا يجهر بالنعمة ؛ ولا يدعو إلى الثورة ، خوفاً من فتنة تضر بالأمة أكثر مما تصلح ، وتشتت منها أكثر مما تجمع .

٢ - وقسم هو الآخر غير راض عن الوضع فهو ينتقد الانحراف ،

ويطالب بتنفيذ أحكام الله ، والاستمسك بشريعته ، ولكن دون دعوة إلى ثورة تؤدي إلى فتنة جامعة .

فإن من جانب الفتنة وتأكيد الدعاة أن الثورة تكون في مصلحة الأمة ، وأن نتائجها الحسنة مضمونة فإنهم حينئذ يطالبون الأمة بالثورة والقضاء على الفساد وإلا فإنهم يكتفون بأن يقفوا موقف الناقد الصريح الذي لا يسكت عن منكر ولكنه لا يرفع سيفاً ، وهذا رأى الإباضية ولذلك سموا أنفسهم أهل الدعوة فهم لا ينفكون عن الدعوة إلى الحق مهما اختلفت الظروف ولا يتجاوزونها إلى حمل السلاح إلا إذا كان ذلك لا يؤدي إلى فتنة تضر بالأمة .

٣ — أما القسم الثالث فقد كان ينتقد الانحراف ويدعو إلى الثورة غير ناظر إلى نتائجها وما تسفر عنه ، ولا مقدر لعواقبها وما ينبنى عليها .

ولعل علماء الأمة يكادون يجمعون على أن الحكم بعد الخلافة الرشيدة قد انحرف عن مجراه الطبيعي في النظام الإسلامي ، باستثناء خلافة سيدنا عمر بن عبد العزيز .

ولكنهم رغم اتفاقهم أن الحكم قد انحرف ، فقد اختلفوا في معالجة هذا الانحراف حسب شخصياتهم وقربهم وبعدهم من الحكم وفهمهم للإسلام ، وحرصهم على وحدة الكلمة ومتانة الصف واهتمامهم بمال الأمة ودمها ثم بحسب أخلاقهم ونفسياتهم وتصوراتهم لما يحدث وكيف يحدث . فمنهم من يرى وجوب الخضوع للأمر القائم والبر له . حتى تتبدل الأمور ومنهم من يرى وجوب الإسراع بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتشدد في النقد ، والدعوة إلى الاستعداد على المدى الطويل حتى يصلح الحال أو يأتي الظرف

الذى لا تخشى فيه الثورة ولا تؤدى إلى الإضرار بمصالح الأمة ومنهم من يرى المسارعة إلى الضرب على أيدي العابثين وكف المعتدين بثورة عاجلة دون مصابرة أو انتظار ودون تقدير للنقائج ولا نما ينال الأمة بعد ذلك .
وكان سلمة في الفريق الثانى من أولئك الذين يرون أنه يجب على المساهين أن ينتقدوا الانحراف وأن ينهوا عن المنكر ، ولكنه لا يتمجّل بالثورة ولا يدعو إلى رفع السلاح إلا حينما يكون ذلك فى مصلحة الأمة بالتأكيد . ولا ينجم عنه شر أكبر .

وكان يرى أنه لى تفهم جماهير الأمة هذا فلا بد من وجود نوابغ من العلماء الذين يفهمون أسرار الشريعة فلا يخذعون بالطمع فى مظاهر الدنيا ، ولا تجوز عليهم الحيل التى يلجأ إليها أنصار الحكم القائم ، وصنّفه بالشرعية القائمة ووجوب الطاعة ، بتحريف معانى نصوص كريمة . ولذلك فلم يكن يدعو إلى الثورة وهو يحوب البلاد من العراق إلى المغرب الإسلامى . وإنما كان يتصر عمله على ناحيتين :

الناحية الأولى : أن يبين للناس - لاسيما فى المغرب الإسلامى حيث لم يستقر كبار العلماء ، ولم يتمكنوا بعد من إيضاح دين الله - أن ما يرون فى سلوك الأفراد الحاكين ليس هو ما جاء فى دين الله ، وأن هؤلاء الحكام قد خالفوا أمر الله فى عباد الله وأموالهم ودمائهم ، وأنه يجب على أفراد الأمة أن يستمسكوا بدين الله وأن يعملوا به فى أنفسهم ، فإن صانوه فى أنفسهم صانهم فى نظامهم .

الناحية الثانية : كان يتخير الشباب الذين يتوسم فيهم الصفاء والذكاء والنبوغ ويدعوهم إلى السفر إلى المشرق لاستكمال دراساتهم على كبار تابعى

التابعين الذين كانت تمتلئ بهم العواصم الإسلامية في المشرق وقد استطاع أن يرسل الفوج الأول من تلميذ واحد إلى البصرة ، ثم استطاع أن يكون بعثة من أربعة طلاب أحدهم من ليبيا واثنان من تونس والرابع من الجزائر .

واستمر سلمة يدعو إلى التفقه في دين الله وفهمه فهما صحيحاً من المؤمنين الصادقين وكان يدعو الناس إلى السفر إلى منازل الوحي وإلى مرابع الإسلام حيث ثبت واستقر في قلوب المؤمنين وانعكس على سلوكهم فكانوا مظهرًا حقيقياً له .

ونجحت البعثة العالمية التي كونها سلمة بن سعد فأخذت العلم والدين واخلق عن كبار تلاميذ التابعين ، وفهموا الإسلام بنظمه وقوانينه وشرائعه لحياة الإنسان وتنظيماته لسلوكهم أفراداً ومجتمعات .

ورجع أفراد تلك البعثة إلى بلدانهم ، وكان عاصم السدراتي يمثل الجزائر في هذه البعثة التي رجعت إلى أوطانها فبدأ الكفاح في سبيل الله في جميع الميادين .

الدولة الرستمية

من أراد أن يقرأ أخبار الدولة الرستمية وتاريخها انفصل ، فعليه أن يرجع إلى ما ألف عنها خصيصاً في القديم والحديث ، كتاريخ ابن الصغير المالكي في القديم والأزهار الرياضية للباشا الباروني ، وتاريخ المغرب للأستاذ دبوز ، أو يرجع إلى ما كتب عنها ضمن الأبحاث التاريخية في الكتب العامة .
أما في هذا الكتاب فليست أتناولها إلا بمقدار ما تكتمل به الصورة التي أريد أن أعرضها على القارئ الكريم في تاريخ الإباضية في الجزائر .
على أن عملي في هذا المقام لا يتجاوز عمل الحامل التي توضع فيه الصورة والاتجاه الذي توجه إليه عند العرض . أما رسم الصورة نفسها وتلوينها فسوف أتركها لغيري من المؤرخين الذين يرسمون أحداث التاريخ ووقائعه بدقة وبراعة .

يقول الأستاذ عثمان الكعاك في كتابه القيم موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ١٧٠ ما يلي : « فكانت دولة قوية عزيزة ، ذات بأس وسلطان عاصرت بني الأغلب بإفريقيا والأدارسة بالمغرب الأقصى ، وكانت هي الآمرة الناهية في بلاد المغرب الأوسط » .

ويقول الأستاذ الكعاك في نفس الكتاب صفحة ١٨٠ ما يلي :

« يرأس الدولة الرستمية إمام يلقب بأمر المؤمنين ، بيده مقاليدها وتصريف أمورها وله ترجع السلطات الزمانية والروحية ، وينتخبه وجوه المدينة وزعماء المذهب وشيوخ الدين بحرية من غير مبالاة ولا تقاليد ، ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان ، يراعون فيه المعرفة والدراية والتجنيك

والدعاء والعدل والإنصاف يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته ، وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية أو عموم السكان . وإن هم رأوا اءوجاجاً قاوموه بالسيف لا بالرفق واللين وأنزلوه من أريكته فى غير وجل ولا أسف أو اعتبار .

فنظام الإمامة نظام الجمهورية فى أحسن ما يكون فى عهد عنقوانها وشبابها ، وأيام ازدهار أصولها وأحكامها .

وكان الإمام لا يقدم على أمر من أمور الدين إلا بعد مراجعة الشراة وهم زعماء المذهب ، يستشيرهم ويعمل بما قرروا له أن يعمل وإن رأى فى ذلك خطأ - وحسبه أن يرفع التبعة عن نفسه بإلقاء المسئولية على عاتقهم خاصة .

وأما فى الأمور العامة فى الاجتماع والاقتصاد فكانت المراجعة فيها للخاصة فى المدينة ورؤساء القبائل ذات الشأن تستشار فى المسائل والأمور بالمساجد بعد الفراغ من الصلاة » .

ويقول الأستاذ الكعك فى نفس الكتاب صفحة ١٨٢ ما بلى :

« كانت السلطة العدلية منفصلة عن السلطة المركزية فيما عدا المظالم ، وهى المجلس الأعلى للقضاء ، يجلس لها السلطان لمراجعة القضايا المتظالم فيها وسماع الشكوى حتى من القضاة أنفسهم ، فهى من هذه الوجهة ذات صبغة إدارية أكثر منها عدلية .

يعين الإمام القاضى بعد أخذ رأى الشراة فيه ، وللقضاة دار خاصة بهم تعرف بدار القضاء يجلسون فيها للأحكام . ويتخذون الكتاب والأعوان والقماطر والخواتم . وكانوا على نزاهة تامة وانصاف لا ينازعهم فيه منازع ، وذمة بريئة من كل شائبة من الشوائب .

وقد وردت نوادر في شأنهم في كتب تاريخية مالكية مما يدل على عدم التعصب في ذكر الرواية وصحة النقل .

ويقول الأستاذ السكعك في صفحة ١٨٤ من نفس الكتاب ما يلي :

« ومن كان قد أمعن النظر في شكل الحكومة يرادها على أحسن ما يرغب من حيث الأسلوب والنظام . ولو أن التراتيب الإسلامية قد أهملت البلديات التي هي خير كفيل لرقى المدن في دوائرها لأنها مقصورة النظر على منطقة محددة ، تهتم بمصالحها من إنشاء المدارس وبسط الطرقات وإقامة المعامل إلى غير ذلك .

وكان النظام الرسمي خير ما أخرج لتسيير البربر ، وتدير سياستهم بالحزم والعزيمة والرفق والأناة .

وبهذه الطريقة تمكن بنو رستم من ناصية البلاد فجاروا البربر في أهوائهم الجنسية ، ثم لطفوا من شدتها بعوامل إسلامية لينة ، وأظهروا لهم الصلابة كلما اقتضت الأحوال ، على أن لا يتجاوزوا الحدود ، فكانت النتيجة أن البربر نالوا رغباتهم القومية من جهة ودخلوا في الإسلام وحسن إسلامهم إلى حد ما من جهة أخرى حتى أمكن ادماجهم في العائلة الإسلامية الكبرى فيما بعد من غير هضم أو ابتلاع .

ويقول المؤرخ الجزائري الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه القيم كتاب الجزائر صفحة ٢٠ ما يلي :

« فقد كانت الدولة الرستمية أول دولة إسلامية بربرية نشأت في هذه الديار وازدهرت ونمت ، ونالت شهرة عالمية واسعة . »

ويقول في نفس الكتاب ما يلي :

« وأصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية بأسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ما عدا ناحية الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية ، وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضى » .

ويقول في نفس الكتاب :

« أما الدولة فقد كانت مؤسسة على سنن الجمهورية الإسلامية في أيام الخلفاء الراشدين رئيسها يدعى أمير المؤمنين ، ينتخبه القوم في أول الأمر انتخاباً حراً وهو يستشير في كبار الأمور « الشراة » أى عظماء المذهب وعلماءه وفي الأمور العامة يستشير وجوه القوم والقبائل ، والإمام يعين القضاة بعد استشارة « الشراة » وكان قضاة الرستميين على أكبر نصيب من الاستقامة والنزاهة .

وكان الضبط على نوعين : فهناك فرقة الشرطة التى تقوم بالحراسة والسهر على الأمن وهناك فرقة الحسبة التى أسسها الإمام أبو اليقظان وهى مختارة من وجوه القوم وصالحهم تطوف المدينة آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر ، حائفة على الرفق بالحيوان .

وكانت مداخيل الدولة من أموال الزكاة وحدها ، وتصرف فى مصالح الدولة العامة .

وخلاصة القول إنه يحق للجزائر أن ترفع رأسها مفتخرة بهذه الدولة الوطنية التى قلما شاهدت بلاد الإسلام قاطبة مثلها بعد دولة الراشدين . . .

ويقول الأستاذ يحيى بو عزيز فى كتابه الموجز فى تاريخ الجزائر

« ولقد كان نظام الحكم في هذه الإمارة شورياً ، يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة ، وسعوا جهدهم لإصلاح الأوضاع ، فانتشرت الثقافة العربية بشكل ملحوظ ، كما راجت الأعمال التجارية والفلاحية والعمرانية . وغدت مدينة تيمرت التي جددوا بنائها ووسعوا عمرانها ملتقى القوافل التجارية ، ووفود طلاب العلم » .

الدولة الرستمية صورة للخلافة الرشيدة

في الفقرات التلميلة التي نقلناها في الفصل السابق عن بعض المؤرخين الذين تحدثوا عن الدولة الرستمية يستطیع القارئ الكريم أن يستخلص صورة قريبة من الحقيقة لتلك الدولة . ولكي نساعد القارئ الكريم على استخلاص تلك الصورة وحصرها في إطار محدود تبدو فيه واضحة المعالم ، نقدم له الخطوط العريضة لذلك كما يلي :

- ١ — يرأس الدولة الرستمية إمام يلقب بأمر المؤمنين .
- ٢ — ينتخب الإمام وجوه المدينة وزعماء المذهب وشيوخ الدين بحرية ، من غير مبالاة ولا تقاليد ، ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان .
- ٣ — يراعون فيه المعرفة والدراية والتحنك والدهاء والعدل والإنصاف يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته ، وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية أو عموم السكان .
- ٤ — إن هم رأوا فيه اعوجاجاً قاوموه بالسيف لا بالرفق واللين ، وأنزلوه من أريكتهم من غير وجل أو أسف أو اعتبار .
- ٥ — كان الإمام لا يقدم على أمر من أمور الدين إلا بعد مراجعة « الشراة » وهم زعماء المذهب يستشيرهم ويعمل بما قرروا له أن يعمل .
- ٦ — في الأمور العامة : في الاجتماع والاقتصاد كانت المراجعة فيها لخاصة من المدينة ورؤساء القبائل ذات الشأن .
- ٧ — الاستشارة في المسائل والأمور بالمساجد بعد الفراغ من الصلاة .

٨ — كانت السلطة العدلية منفصلة عن السلطة المركزية فيما عدا المظالم وهي المجلس الأعلى للقضاء يجلس لها السلطان لمراجعة القضايا المتظلم فيها ، وسماع الشكوى حتى من القضاة أنفسهم .

٩ — يعين الإمام القاضى بعد أخذ رأى الشراة فيه .

١٠ — للقضاء دار خاصة يجلس فيها القاضى للأحكام ويتخذ لذلك الكتاب والأعوان والقباطر والأختام .

١١ — كانوا على نزاهة تامة وإنصاف لا ينازعهم فيه منازع وذمة بريئة من كل شائبة .

١٢ — كان النظام الرسمى^(١) خير ما أخرج لتسيير البربر ولتدبير سياستهم بالحزم والعزم والرفق والأناة .

١٣ — أما الدولة فقد كانت مؤسسة على سنن الجمهورية الإسلامية فى أيام الخلفاء الراشدين ، رئيسها يدعى أمير المؤمنين ، ينتخبه القوم فى أول الأمر انتخاباً حراً وهو يستشير فى كبار الأمور « الشراة » .

١٤ — والإمام يعين القضاة بعد استشارة « الشراة » وكان قضاة الرستميين على أكبر نصيب من الاستقامة والنزاهة .

١٥ — كان الضبط فيها على نوعين :

(١) ليس للرستميين فضل فى إخراج النظام وإنما فضلهم فى اتباعه والعمل به والتقيد بأحكامه لأن النظام جاء به الإسلام ووضع الخالق سبحانه لتسير به البشرية جمعاء فلم يكن خاصاً بالبربر أو العرب أو غيرهم من الأجناس ، وكلما سارت عليه دولة واتبعت فى أجزائه وتفصيله كانت حرية أن ترضى الله ، ويرضى عنها الناس ، وتسعد الأمة التى تسيرها ولو استمسكت به الدول الإسلامية فى مختلف عصورها وأمكنها لما نزلت عن مكانها فى قيادة البشرية فى النهج القويم .

- (١) فرقة الشرطة وتقوم بالحراسة على الأمن .
- (ب) فرقة الحسبة تطوف المدينة أمرة بالمعروف ناهية عن المنكر .
- ١٦ — مداخيل الدولة من الزكاة وحدها .
- ١٧ — يحق للجزائر أن ترفع رأسها مفتخرة بهذه الدولة الوطنية التي قلما شاهدت بلاد الإسلام قاطبة مثلها بعد دولة الراشدين .
- ١٨ — من كان قد أمعن النظر في شكل الحكومة يراها على أحسن ما يرغب من حيث الأسلوب والنظام .
- ١٩ — فكانت دولة قوية عزيزة ذات بأس وسلطان .
- ٢٠ — أصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية بأسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ماعدا ناحية الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضي .
- ٢١ — لقد كان نظام الحكم في هذه الإمارة شورياً يطبق أئمتها أحكام القرآن والسنة وسعوا جهدهم لإصلاح الأوضاع .
- هذه خطوط عريضة لرسم صورة للدولة الرسومية تعاون عليها ثلاثة من المؤرخين ليسوا من الإباضية هم الأساتذة عثمان الكعاك وتوفيق المدني ويحيى بوعزيز . وواضح في هذه الصورة في هذا الإطار أن هذه الدولة كانت صورة ثانية لدولة الخلفاء الراشدين كما قال المدني لأن نظام الحكم فيها شورى يطبق فيه أئمتها أحكام القرآن والسنة كما قال بوعزيز ، بحرية دون مبالاة ولا تقاليد ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان كما قال الكعاك .
- ولو رجع القارئ الكريم إلى دراسة سيرة الأئمة الحارث بن تليد

وأبى الخطاب وأبى حاتم الذين كونوا إمامتهم في ليبيا لوجد أن أولئك الأئمة في سيرهم كأئمة الدولة الرستمية كانوا حراساً على العدالة والنزاهة . فما السبب في ذلك ؟ إذ لا شك أن النظام الإسلامي للحكم واحد في الشرق وفي الغرب ولكل دولة مسلمة . فلماذا امتاز أئمة هذه الدول بهذا الاستمسك بالنظام الإسلامي والحرص عليه أكثر مما تستمسك به الدول الأخرى وتحرص عليه ؟

لا شك أن لذلك سبباً . وقد أوضح الأستاذ عثمان الكعاك ذلك السبب فقال :

« ينتخب الإمام وجوه المدينة وزعماء المذهب وشيوخ الدين بحرية ، من غير مبالاة ، ولا تقاليد ولا ولاء في قرابة أو صداقة أو سلطان ، يراعون فيه المعرفة والدراية والتحنك والدهاء والعدل والإنصاف يجريهما على نفسه قبل ذوى قرابته وعلى ذوى قرابته قبل الحاشية أو عموم السكان ، وإن هم رأوا فيه اعوجاجاً قوموه بالسيف لا بالرفق واللين وأنزلوه من أريكته من غير وجل أو أسف أو اعتبار » .

فالأسباب التي تفرض على أئمة الإباضية أن يلتزموا السير في النهج الذي وضعه الإسلام تخلص في أمرين :

الأول : حسن اختيار الإمام ومن يساعده في القيام بأعباء الدولة .
الثاني : دوام مراقبته ومحاسبته على أخطائه فإن الإباضية استناداً على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقاعدة الولاية الشخصية والبراءة الشخصية . لا يمكن أن يسكتوا للإمام إذا هو انحرف عن سبيل المؤمنين . بل عليه أن يرجع عن خطئه ويعلمن توبته ، ويتحمل تبعه أعماله ونتائجها ، وإلا أنزلوه من أريكته دون وجل أو أسف أو اعتبار .

فالإمام لا بد أن يكون في ولاية المسلمين ليتعاونوا معه وإذا جاز لهم أن يتفوا موقفاً سلبياً مع الأئمة والحكام الذين يخالفونهم في المذهب ويختلفون معهم في قاعدة الولاية والبراءة فما يجوز لهم أن يتفوا هذا الموقف السلبي مع الأئمة أو الحكام في مذهبهم فإن أولئك الأئمة إما أن يكونوا على رضا واستقامة وتجب لهم المساءة والمؤازرة وإما أن يكونوا على غير ذلك فيجب أن يبتعدوا عن مصالح المسلمين وتصريف شئونهم ولو بالعزل إلا إذا تغلبوا بالقوة الغاشمة فيحق البقاء تحت حكمهم تقيية مع مواصلة الإنكار .

الثورات في الدولة الرستمية

ربما تكون القلاقل والثورات هي الدليل الحى على انحراف الدولة لاسيا في العهود الأولى من الحكم الإسلامى والشعوب بطبيعتها إذا لم تحكم على أحد نمطين فلا بد من أن تهتاج وتثور وتعلن السخط . أما نمطا الحكم اللذان تسكت معهما الشعوب فهما إما العدالة والنزاهة والاستقامة بالمقدار الكامل الذى يرضى عنه الناس وإما الحكم بالحديد والنار الذى تقطير فيه الرؤوس وتقطع الرقاب لأوهى الأسباب .

والحكم في الدولة الرستمية بإجماع المؤرخين ليس من هذا النوع . ولذلك رأينا أن نعود إلى تاريخها نستخرج منه عدد الثورات في عهد هذه الدولة وأسبابها لنعلم أين نضعها في الدول الإسلامية التى حكمت المسلمين برسم الخلافة .

وإلى القارىء الكريم تلك الثورات حسبما لدينا من مصادر التاريخ الموثوق بها .

أمضى عبد الرحمن بن رستم إحدى عشرة سنة في الإمامة ولم تقم عليه ثورة ولم يرتفع صوت بالإنسكار في أى حكم من أحكامه بل كانت جميع الألسنة تلهج بالثناء عليه والرضا عنه وعن جميع عماله وموظفيه .

وتولى من بعده عبد الوهاب ببيعة جماعية ولم يمض على إمامته سنة حتى كانت الثورة الأولى .

١ - الثورة الأولى : اشتهرت في كتب التاريخ بثورة النسكار لأن

الذين قاموا بها هم قوم أنكروا إمامة عبد الوهاب وذلك أنه لم تمض على إمامة عبد الوهاب سنة حتى قامت دعوة معارضة تطالب بتكوين مجلس للشورى يكون أعضاؤه أشخاصاً معروفين محدودين . وقد تزعم هذه المعارضة في مبدأ الأمر أبو يزيد بن فندين اليفرنى ثم التحق به شعيب المصرى وكان الأول من أوائل من بايع الإمام ومن أشد المتحمسين له ، وكان يطمع أن تسند إليه بعض المهام فى الدولة .

ولكن عبد الوهاب لم يسند إليه شيئاً من ذلك فوجد فى نفسه وأراد الانتقام .

أما شعيب فقد كان يعتبر عالماً فاضلاً جليلاً من علماء مصر ممن ينظر الناس إليه ويقتدون به ويرجعون إليه فى أمور الدين . فلما سمع بحركة ابن فندين سافر من مصر إلى الجزائر ليزيد من لهيب الفتنة عسى الناس يعزلون عبد الوهاب أو يقتلونه فىكون هو الشخصية الأولى المرشحة للإمامة عند الثوار وهذا فى ظنه طبعاً - فصبر عبد الوهاب على دعاة الفتنة حتى أغراهم تساهله معهم وزين لهم الأمانى والأحلام . فدبروا مكيدة لقتله ، ولكن المكيدة لم تنجح ، فافتضح بها أمرهم ، وانكشف سرهم ، فأعلنوا الثورة ، وأقدموا على الحرب ، وذلك أنهم تحمينوا حتى علموا أن الإمام عبد الوهاب خرج من المدينة لشأن من الشئون فهجموا عليها فجأة ودون إنذار . ولكن أهل المدينة دافعوا عن أنفسهم ، وانتصروا على دعاة الفتنة . ولما رجع الإمام عبد الوهاب وكان وصوله بعد نهاية المعركة وجد على باب المدينة جيشاً ملقاة ، ودماء مراكاة ، وظلوا عر تنبىء مما حصل ، وأخبره الناس بما وقع فأمر بالتقلى من الفريقين . فجمعوا ثم جعلوا فى صفوف وصلى على الجميع اقتداءً بأمر المؤمنين على من أبى طالب فى وقعة الجمل ، ثم أمر بدفن الجميع .

قال الباشا البارونى فى الأزهار صفحة ١١٢ ما يلى :

« ثم عاد الإمام من سفره ، ووجد القتلى فى أماكنها ، والناس على أثر حرب مهولة فى رعب وانزعاج ، فاستغرب السبب وسأل عنه فأخبر بالواقع ، فأمر بجمع قتلى الفريتين وصفت صفوفاً وصلى على الجميع صلاة الجبازة ، تطيباً لنفوس بقية أتباع ابن فندين وتأنيساً لهم ، وتأليفاً لقلوبهم » .

لم يكن يزيد بن فندين وأنصاره ينتقدون شيئاً على عبد الوهاب فى سيرته وأحكامه ولكنهم استندوا فى الإنكار عليه والدعوة إلى عزله أو قتله بعده بايعتهم له على نقطتين :

الأولى : أنه يبيع له بالإمامة وفى رجال الدولة من هو أعلم منه ، فإمامته فى دعواهم باطلة ، وهم قد حضروا البيعة - ماعداً شعيباً - وعقدوها وكان ابن فندين حسب أقوال المؤرخين أحرص الناس على إمامة عبد الوهاب

الثانية : أنهم طالبوه أن يعين مجلساً للشورى من أفراد محدودين محدودين معروفين ، لا تتجاوزهم الشورى إلى غيرهم ولا تمضى الأمور دون اتفاقهم ، ولا يتصرف الإمام بغير رأيهم .

وقد أخذت مناقشة هاتين النقطتين بين الدعاة والمعارضين لها كثيراً من الجهد والوقت ولم تقتصر على علماء المغرب ، وإنما تجاوزتهم إلى علماء المشرق ، وقد اهتم بها أولئك العلماء أيضاً ، وبحررها على ضوء ما عرفوا فى سنة النبى ﷺ وسيرة الخلفاء الراشدين .

وقد أجيبت عن النقطة الأولى أن المسلمين أجازوا عقد الإمامة لرجل وفى الأمة من هو أعلم منه ، استناداً إلى ما فعله أصحاب رسول الله ﷺ .

فقد بايعوا أبا بكر بالخلافة وزيد بن ثابت أفرض منه وعلى بن أبي طالب أقضى منه ، ومعاذ بن جبل أعلم منه . بشهادة رسول الله ﷺ . ولا خلاف بين الأمة في هذا مع إجماع الأمة على إمامة أبي بكر إلا ما يذكر عن بعض الغلاة في بعض فرق الشيعة وأولئك الغلاة لا يعتقد برأيهم ، ومثل ما وقع في خلافة أبي بكر وقع في خلافة بقية الخلفاء الراشدين وحسب المسلم أن يهتدى بأولئك النجوم الذين قال فيهم رسول الله ﷺ « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي » .

وقد أجب عن النقطة الثانية: أن هذا المجلس لم يكن في خير القرون وأن الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم لم يحددوا للشورى ناساً بأعيانهم ، لا تتجاوزهم الشورى ، ولا تقضى الأمور بدونهم ، ثم أن تكوين مجلس للشورى على هذا الوصف يكون سبباً لتمطيل الأحكام ، والحيلولة دون تنفيذ الحدود ، وقد يحول دون إمضاء الإمام لمهام الأمور التي يقع الضرر على الأمة أو على الدولة بتأخيرها .

وهكذا وقفت الدولة دون مطالب ابن فندين وآزرها في ذلك جميع العلماء والأئمة ولكن ابن فندين تشدد في تلك المطالبة حتى استحل بها الدماء وأشعل نار حرب ذهب هو ضحيتها .

٢ — الثورة الثانية : إنما كان الدافع إليها تعصب مذهبي محض فقد كانت الجزائر في ذلك الحين موطناً لعدد من المذاهب الإسلامية ، وكان بجوار تاهرت وتحت حكمها أعداد وافرة من القبائل القوية الغنية على مذهب الواصية من المعتزلة وكانوا أصحاب علم ومال وفروسية . فأنفوا من البقاء تحت حكم الدولة الرستمية والرضا بسلطانها عليهم رغم أنهم لا ينتقدون

عليها شيئاً في سيرة أو حكم. وكانوا يفضلون أن يكون أئمة الدولة من رجال المعتزلة وأن تسير الدولة تحت رعايتهم فعملوا لقلب نظام الحكم كما يقال اليوم. وكانوا جيوشاً جرارة دربوها على القتال تدريباً متقناً ثم دعوا إلى الثورة فوعدت بينهم وبين الإمام عبد الوهاب مناوشات ثم مقاتلات عنيفة حتى توجس منها خيفة ثم انتصر عليهم في موقعة حاسمة وقتل في المعركة رؤساء الثورة ودعاة الفتنة وهدأ بقية الناس وسكن المشاغبون وساد الأمن واستقرت أوضاع الدولة.

٣- الثورة الثالثة: كان الدافع إليها هو الجهل والغرور. فقد كانت بعض القبائل البدوية الكبيرة، ذوات العدد الوافر في الرجال والأنعام، تعيش على تربية المواشى تتبع مواقع الغيث ومواطن الخصب، وكانت في إبان الربيع غالباً، تقترب من تاهرت، واقتربت في سنة من السنوات كالعادة من العاصمة، ونزات بمضاربها وأنعامها على بعض التلال والأودية المحصنة المحيطة بالمدينة. وكان وجوهها وأعيانها يدخلون إلى العاصمة لقضاء مصالحهم ويرتادون أسواقها لعمليات البيع والشراء، وكانوا يحضرون إلى المسجد ويصلون وراء الإمام ويستمعون إلى دروس وعظه وإرشاده، ويشاركون في بعض ما يعن من الأمور. ويعرض من الشئون في المسجد، لتجرى فيها مشاورة العامة والخاصة.

وكانوا يرون تواضع الإمام ولينيه وقبوله للنصيحة. فيعجبهم منه ذلك ويفرهم بإبداء الآراء له، وتوجيه النصيحة إليه. حاسبين أنهم يخدمون بذلك الدولة ويقدمون خدمة للأمة والوطن. وكان في المدينة بعض من يصلطون في الماء العكر ويضربون بأيدي غيرهم من يريدون ضربه، فأرادوا

أن يستغلوا سداجة هؤلاء وأن يستخدموهم في مآربهم ، فاتصلوا بهم وأوحوا إليهم أنهم يحترمونهم لمساعدتهم في الخير ، وأن الإمام أيضاً يستمع إليهم ويأخذ برأيهم ، ثم أوهموهم أن بعض الموظفين في الدولة مفسدون يحتاجون إلى تغيير وأنهم بطلبهم ذلك من الإمام وهم لهم لإبعادهم أولئك الموظفين يقدمون خدمة للأمة يستحقون عليها الأجر من الله والشكر من الناس ، وصدق أولئك البداة وسوسة هؤلاء فذهبوا إلى الإمام وطلبوا أن يخلي لهم المجلس فأخلاه لهم وقدموا إليه كشفاً بأسماء بعض الموظفين والقضاة يطلبون عزلهم وتعيين آخرين مكانهم فشكرهم على إخلاصهم ، ونصحهم واهتمامهم بأمر المسلمين ثم طلب منهم أن يعودوا إليه في الغد ووعدهم أن ينظر في الموضوع بينه وبين رجوعهم ، وتحرى الإمام عن الموظفين والقضاة المطلوب عزلهم فلم يجد ضدهم شيئاً ولما رجع القوم إليه في اليوم الثاني لمعرفة النتيجة أخبرهم الإمام أنه هو لم يجد شيئاً يدين به أولئك الموظفين ، وطلب منهم إيضاح الأسباب إذا كانت لديهم أسباب ، ويبدو أن « أصحابهم » الذين استغلوهم لم يزدوهم بشيء ، فلم يجدوا ما يبررون به طلبهم ولكنهم أصرروا عليه فلما لم يستجب لهم الإمام خرجوا من مجلسه . وبدلاً من أن يغيظوا على أولئك الذين استغلوا سداجتهم وضحكوا على ذقونهم وسخروهم للانتقام دون سبب . بدلاً من ذلك غضبوا على الإمام لأنه رد وساطتهم ولم يأخذ بجاههم ويستجيب لطلبهم . وكانت الأيدي الخفية لا تزال تنفخ في أوداجهم وتحرك فيهم نكرة الجاهلية حتى يبتوا أمراً فأبعدوا منازلهم عن العاصمة قليلاً . ثم بدأوا يستعدون لضرب العاصمة ، ويعدون القتالين لذلك ، وكانت أخبارهم تصل إلى الإمام عبد الوهاب فكان يتلصكاً ويصبر عساهم يدركون خطأهم ويرجعون عن ذنبهم حتى تأكد لديه عزمهم على مهاجمته في المدينة فخرج إليهم وصفحهم

صفحة أدب ردت إليهم أحلامهم وأفهمتهم أن الدعوة إلى الفتنه ليست من أخلاق المؤمنين .

٤ — الثورة الرابعة : هذه الثورة كان الدافع إليها عاطفة شخصية محضة ، وأذانية همياء بغيضة . وكان لرئيس قبيلة كبيرة بنت اشهرت بالعقل والأدب والجمال .

وذكرها الناس في مجلس الإمام وذكروا مزاياها فخطر له أن يخطبها أولاً لفضائلها وثنائياً لتوثيق الصلة بينه وبين قومها وتقدم فعلا لخطبتها وتزوج بها ، وكان هناك رئيس قبيلة أخرى يحلم بالزواج من تلك الفتاة ويذكر ذلك في مجالسه الخاصة بين أصدقائه ولكنه لم يتخذ الخطوة العملية ولم يتقدم إلى الخطبة فلما سبقه الإمام حسب ذلك تعدياً عليه ومراغمة له وتحدياً لمركزه . فأظهر الغضب وأكثر النقد وخرج من العاصمة يدعو إلى الثورة فاستجاب له ناس ممن يستجيبون لكل دعوة ويتبعون كل ناعق في كل عصر . ووقف الإمام معه موقف الصبر والأناة معتقداً أن الزمان كفيل بإرجاعه إلى منهج الرشده ولكن الرجل التزم طريق الغي وأوغل فيه وكان يزيد كل يوم شدة وتمادياً حتى بلغ به وبمن معه خداع النفس والاستهانة بأحكام الله أن استحلوا لأنفسهم استعراض الناس وقطع الطريق والولوغ في الدماء فلما بلغوا إلى هذا الحد خرج إليهم الإمام فصفعهم على أفتيتهم صفعات ردت إليهم رشدهم وعرفتهم أن الحق أحق أن يتبع .

٥ — الثورة الخامسة : كان الدافع إلى هذه الثورة هو حب الرئاسة والرغبة في التحكم فقد كان الإمام عبد الوهاب ولي وزيره السمع بن أبي الخطاب على حيز طرابلس وجبل نفوسة فلما توفي السمع وثب ولده خلف

إلى كرمى الولاية مكان أبيه وأيده جماعة من الطامعين الذين يلتفون حول كل حاكم ويزمرون في كل موكب ولم يكن خلف مرضياً عنه من أهل العلم والفضل والرأى فبعثوا إلى الإمام يخبرونه بوفاة عامله ويعزونه فيه ويخبرونه بوثوب خلف إلى مكانه دون رأى منهم وأنه ليس أهلاً لذلك المكان فبعث إليه الإمام أمراً باعتزال أمر الناس . وأخبره أنه وليّ أبا الحسن أيوب بن العباس مكان السمع بن أبي الخطاب فاستكبر خلف عن العزل واستنكف عن قبول أمر الإمام ودعا إلى فصل ليبيا عن الجزائر وبعث رسائل إلى علماء المشرق يطلب إليهم أن يفتوا له بجواز الانفصال ولكن الأجوبة جاءت مخيبة للآمال وأوجبت عليه السمع والطاعة ما لم يكن هناك مبرر شرعى لعزل الإمام عن الإمامة جملة فأعرض عنها وجعل يستعد لإقامة دولة مستقلة في ليبيا ثم قام بعدة حملات إرهابية في الجبل ارتكب فيها ما يخالف الإسلام ويتعمد به عن سيرة الإباضية الذين لم يستحلوا في يوم من الأيام أموال المسلمين ولادمائهم ولم يجيزوا أبداً الاستعراض والاعتقال والغدر ووقعت منه عدة مناوشات ومهاجمات وقد انتهت تلك الثورة التي ذهبت بكثير من الأموال وأراقت كثيراً من الدماء على يد العباس بن أيوب الذي لم يتوقف عن مطاردة خلف حتى انتهى منه وأراح منه الناس .

٦ — الثورة السادسة : هي في الحقيقة فتنة وليست ثورة وذلك أن بعض الأيدي الآثمة دبرت اغتيال زعيم يسمى ابن عرفة ثم نسب الاغتيال إلى الإمام ووقفت مجموعات من الناس تطالب بالثأر من الإمام ووقعت عدة معارك ذهب فيها دماء وأموال ثم اعتزل الإمام الحكم وتم اختيار إمام جديد وبذلك انتهت تلك الثورة .

٧ — الثورة السابعة : بعد تولى أبي حاتم الإمامة بفترة قصيرة قام دعاة

يخرضون على الفتنة ويدعون إلى الفرقة ويشيعون قالة السوء وجدوا في إفساد قلوب الناس ، وأكثروا من النجوى فرأى الإمام أن ينفيعهم من العاصمة حتى يتل نشاطهم ويحد من حركتهم ، وقد فعل غير أنه خيرهم في المنفى فاخترأوا أصلح مكان لحركتهم ، واستطاعوا أن يجمعوا حولهم عدداً من الأتباع في أقل مدة وتظاهروا بأنهم مظلومون مضطهدون وجهزوا جيشاً وهجموا على العاصمة في سرية تامة وعلى حين غفلة . وبدلاً من أن يلاقيهم الإمام بالقلعة التي معه فتقع مذبحه فضل أن يخلى لهم المدينة نخرج حتى سمع به الناس والتحقوا به وتكامل لديه جيش قوى يستطيع أن يردع به المعتدين ورجع بجيشه وحاصر العاصمة وكان جيشه يزداد قوة كل يوم وكان عدد البغاة ينقص كل يوم حتى يئسوا من موقفهم وسلموا فرجعت الأمور إلى نصابها وسار الإمام بالدولة في النهج القويم الذي عرفناه لأسلافه .

٧ — الثورة الثامنة : نشأ لايقظان أخى الإمام ولدان يبدو أنهما حقدا على الإمام وأضمرأله الشر زمنًا طويلاً إلا أن ذلك لم يعرفه عنهما أحد وواتهما فرصة في يوم من الأيام فوثبا على الإمام فقتلاه ، ونصبا والدهما إماماً على الدولة ولكن فرحتهما لم تتم فقد أعرض عنهما الناس وتبرأوا منهم ثم لم يلبث أن قدم عليهم أبو عبد الله الحجازى فقتل الوالد والولدين وبقية أفراد الأسرة وانتهت الدولة الرستمية بذلك والله الأمر من قبل ومن بعد .

هذه أهم الثورات التي قامت خلال قرن ونصف من حكم الدولة الرستمية حسب المصادر التي بين يدي لم أترك منها شيئاً إلا بعض مناوشات أو مخالقات لا تبلغ أن تسمى ثورة كمواقف فرج النفوسى المشهور بنفاث

وهي مواقف لم تبلغ إلى حمل السلاح أو دعوى العصيان أو الخروج ،
وكحماية بعض القبائل لقتلة ميمون وعدم تسليمهم إياه للدولة حتى أرغمتهم
الدولة على التسليم واقتضت ممن يجب عليه القصاص .

وكلماوشة الخفيفة التي قام بها ابن خلف فلحق به أبو منصور في جربة
وأخذه معه إلى الجبل فتاب وصلاح أمره حتى أصبح يسمى الطيب بن الخبيث
ابن الطيب .

وإذا رجعت أيها القارئ الكريم إلى تأمل الثورات السابقة ومعرفة
أسباب اندلاعها فإنك لن تجد فيها مبرراً واحداً لقيامها أو على أقل تقدير
لا تجد فيها سبباً واحداً متصلاً بسيرة الأئمة أو يكون وسيلة للطعن عليهم
في عدالتهم ونزاهتهم للحكم فابن فندين يريد أن يفرض نفسه على الدولة ولما
لم يجد مكاناً تدرع بإدخال شرط في الإمامة فلما لم يوافق عليه أحد ثار حتى
قتل . والمعتزلة حملهم على ذلك تعصب مذهبي وهي حركة قامت وتقوم في
كل مكان ولكنها ليست على كل حال طعنًا في سلوك الإمام . والبداة
الذين خيل إليهم غرورهم أن الإمام أهانهم بعدم استجابته لمطالبهم تدل
ثورتهم على كفاءة الإمام ونزاهته ، أما العاشق الوهاني فهو نموذج من النماذج
الموجودة في الدنيا والتي لا يدل تصرفها إلا على الإغراق في الخيالات
والأحلام . أما خلف فقد خطر له أن يجعل الولاية وراثية ولكن الإمام
وقف له بالمرصاد ، أما المؤامرة التي ذهب ابن عرفة ضحية لها فقد مس رشاشها
الإمام ولكنها في الواقع جريمة دبرت في الخفاء وهي دليل على براعة مدبرها
في الإجرام لا على إدانة الإمام . أما الثورة التي قمعها أبو حاتم فهي لم تقدر
بانهاام الإمام بأي شيء وإنما كانت تزعم أنها حرة التصرف . .

أما الثورة الأخيرة فهي ليست ثورة وإنما جريمة اغتيال تدين القائم بها فقط .

وإذا كان رؤساء غيرها في الدول - من أجل إقرار السلام - يقتلون بال عشرات - ويسجنون بالآلاف لأسباب سياسية محضة لا تبيح القتل أو السجن فإن أئمة هذه الدولة قد سلمت من التلوث بالدماء البريئة .
والصادر التاريخية التي بين أيدينا لم تذكر لنا حادثة قتل واحدة في عهد الدولة كما ما عدا ابن عرفة الذي لا يستطيع أحد أن يجزم بمعرفة قاتله حتى الآن وحتى دعاة الثورة أو الفتنة أو دعاة الشغب لم يكن أئمة الدولة الرستمية يتناولونهم بالعقوبة حتى يبدأواهم بالعدوان وحينئذ تقابلهم الدولة في صف القتال فإذا انتهت المعركة بانتصار الدولة على المشاغبين تروقت الدماء وتوقف التبع ولم يسع الانتقام لما سبق الحرب من أعمال ضد الدولة أو ضد رجالها اللهم إلا أن تكون العقوبة حداً من حدود الله فإنهم حينئذ لا يتأخرون عنها مهما كانت العواقب .

الحروب في عهد الدولة الرستمية

لعل الدولة الرستمية كانت أقل حروباً مع الدول الإسلامية الأخرى من جميع الدول التي قامت في المغرب الإسلامي . وإليك أيها القارئ الكريم جميع الحروب التي وقعت بين الدولة الرستمية وغيرها من الدول المجاورة بإيجاز واختصار .

١ - الحرب الأولى : هي مناوشات صغيرة وقعت بين الدولتين الرستمية والأغلبية في طرابلس . وسببها أن بعضاً من جند الأغلبة خرج إلى التبتائل البدوية الضاربة في سهل الجفارة والتابعة للدولة الرستمية فارتكب ما يرتكبه مثله من أخذ الأموال وقتل من يحول دونها فذهب أولئك الناس إلى الإمام عبد الوهاب - وكان حينئذ في جبل نفوسة - يشتكون إليه ويستجيرون به فجهز جيشاً وذهب به إلى طرابلس وسمع إبراهيم بن الأغلب بالحركة فجهز جيشاً بقيادة ولده عبد الله وأرسله للمحافظة على ممتلكات الدولة الأغلبية في طرابلس . وقد وصل الجند الأغلب إلى طرابلس قبل أن يصلها الجند الرستمي فلما وصل عبد الوهاب ووجد الجيش الأغلب في المدينة حاصره حصاراً شديداً وكانت تقع بين فرق من الجيشين مناوشات صغيرة لا تلبث أن تنتهي وأخيراً طلب عبد الله من عبد الوهاب أن يعقدا بينهما صلحاً يتوقف فيه المدوان وبسود فيه بين الدولتين السلام على أن تكون طرابلس والبحر للأغلبة وما عداها للرستميين فوافق عبد الوهاب وتم الصلح على ذلك واحترمه كل من الطرفين .

٢ - الحرب الثمانية : هي أيضاً مناوشة صغيرة وذلك أنه لما أرسل

الإمام عبد الوهاب عامله قطفان بن سلمة الزواعي إلى قابس عارضه بعض جند الأغالبة واحتك به ووقعت بين الفريقين مناوشات صغيرة انتهت بتسليم جند الأغالبة . وتمكن قطفان من ضبط شئون قابس ورعاية مصالحها وإدارة أمورها للدولة الرستمية .

٣ — الحرب الثالثة : كان العباس ولد أحمد بن طولون صاحب مصر ، عاصياً لأبيه نافعاً عليه وخرج أبوه ذات يوم من عاصمة المملكة لشأن من الشئون فانتهز العباس فرصة غياب والده وأخذ ما بالخزانة من أموال وأخذ معه ثمانمائة فارس وعشرة آلاف راجل من عبيدان أبيه . واتجه إلى الغرب قاصداً القيروان ، ليبنى هنالك ملكاً له - فيما يحسب - بعد أن يقوض ملك بني الأغلب . ولما وصل إلى لبدة تحرش بالإباضية وبعث برسالة تهديد إلى أبي منصور إلياس عامل الدولة الرستمية في جبل نفوسة فغضب أبو منصور وجهاز جيشاً في اثني عشر ألف مقاتل وزحف عليه فطحنه وقتل أغلب من معه وفر العباس منفرداً على فرسه حتى رجع إلى حضن أمه وتناثرت تلك الأموال التي سرقها من خزانة مصر ليبنى بها ملكاً في القيروان في ساحات القتال وبقيت هناك لم تمسسها يد من جند أبي منصور حتى جاءها بنو الأغلب والتقطوها من الأرض ومن أيدي الناس أما أبو منصور فعند ما تم له النصر كف يده ويد جنده عن الدماء والأموال ورجع إلى مركز حكمه دون أن تتدنس جيوبه وجيوب أصحابه باستحلال أموال صانتيها كلمة التوحيد وحفظتها شريعة الله .

٤ — الحرب الرابعة : قرر إبراهيم بن الأغلب وهو إبراهيم الأصغر الانتقام من ابن طولون باحتلال مصر وإضاقتها إلى دولته فجهز جيشاً لجباً واتجه به إلى الشرق . وسمع أتباع الدولة الرستمية بما عزم عليه ابن الأغلب

وتوقعوا منه شراً فهو — ولا شك — سيمر في أراضهم ولا بد أن يحاول احتلال ما يكون له طريقاً مأموناً بين القيروان ومصر وتوقعوا أنه سينالهم الشيء الكثير من الأذى فقررروا اعتراضه والوقوف في وجهه ورده إلى موطنه كما ردوا ابن طولون من قبله وبعثوا إليه يخبرونه بأنهم لا يسمحون له بالمرور في أراضهم ولو في شريط ضيق واستمسك كل من الفريقين برأيه فجهز جيشه وبدأ المسير وجهزوا هم أيضاً جيشاً زحفوا به إلى لقاء أبي العباس ابن الأغلب والتقى الجيشان وكانت معركة حامية الوطيس لقي فيها كل من الجيشين عنقاً وكتب النصر لبني الأغلب ولكن الضربة التي أصابته كانت قاضية فلم يتمكن من مواصلة سيره وتنفيذ قراره ثم أصيب باختلال في قواه العقلية بعد هذه المعركة العنيفة بقليل .

٥ — الحرب الخامسة : كانت الدولة العبيدية قد كونت نفسها وبدأت تكتسح المغرب الإسلامي بلداً بلداً ، وتقوض أركانها دولة دولة حتى بلغت إلى تاهرت فابتلعها في سهولة ويسر كما ابتلعت غيرها من العواصم ونحن حين نسمى استيلاء الدولة العبيدية على تاهرت حرباً نكون قد تجاوزنا كثيراً في التعبير لأن تاهرت في ذلك الحين لم يبق بها من آثار الدولة الرستمية إلا الرماد متمثلاً في اليقظان قابلاً على كرسى وعلى جانبيه ولداه أما عدا ذلك فقد انقض عنه ، لأن سحق الناس عليه بلغ نهايته فتركوه وتركوا نصره في حكمة وكانوا ينظرون إليه في تشف وسيوف الحجاجي تقطع أوصاله .

وعلى كل حال فتدهمت الدولة العبيدية بجيوشها على تاهرت التي كانت عاصمة للدولة الرستمية فخربت المدينة ، وأحرقت مكتبة المعصومة وقتلت من بقي بها من السكان وطاردت من تشرد منهم في الآفاق .

هذه هي كل الحروب التي قامت بين الدولة الرستمية وبعض الدول الأخرى ولقد رأى القارىء الكريم أن حربين منها كانتا مناوشات صغيرة سببها سوء تصرف الجند الأغلبي وأنهما سرعان ما انتهت حينما اتفقت الدولتان على وضع حد لتلك المشاحنات فهي ليست سوى مناوشات مما يقع عادة على أطراف حدود الدول والممالك بين الجند والناس .

أما الحربان الأخريان فلم تسكن فيهما الدولة الرستمية مقصودة بالذات بالحرب ولا كانت هي قاصدة للعدوان على غيرها وإنما طبيعتها الجغرافية التي جعلتها تفصل بين دولتين متعاديتين كانت السبب في أن تقع الحرب في أرضها وأن تضطر للمشاركة فيها فعملت في المرة الأولى على رد ابن طولون عن أرضها وحاولت في المرة الثانية أن ترد ابن الأغلبي عن ذلك .

أما الحرب الخامسة فلم تسكن حرباً بالمعنى الصحيح وإنما كانت عبارة عن خلع باب مخلوع ونجر بو^(١) محشو^(٢) بالقبن .

(١) البو هو جلد الحرار يسمى تبناً ويقرب إلى الناقة فتجن عليه وتدر بالبن فتجلب وفي المثل : (فلان أخدع من بو) لأن البو تخدع به الناقة فتظنه ولداها حياً فتدر عليه .
(٢) الإياضية .

الدولة الرستمية بين الحرب والسلام

لو رجع القارئ الكريم إلى دراسة تاريخ الدول المجاورة لبني رستم لوجدها - ما عدا الدولة الرستمية - في حالة حرب مستمرة فهى إما مشغولة بحروب داخلية تعمل على تهدئتها وإطفاء نيرانها ، وإما مشغولة بالدفاع عن نفسها لأن دولا أخرى مجاورة تهاجمها وتريد القضاء عليها وتروم الاستيلاء عليها واحتلال بلادها ، وإما أن تكون هى التى ترغب فى التوسع والسيطرة . وتوزع هجماتها على ما تستضعفه من البلاد والدول .

ويندر أن تمر بها فترة سلام . ولذلك فإن تلك الدول كانت قد اتخذت جنداً كثيفاً تدفع لهم المرتبات . ومهمتهم الوحيدة هى القتال فى الدفاع أو الهجوم .

وكان يهمها أن يكون ذلك الجند مشغولاً دائماً بالقتال أو بالتفكير والتخطيط له فهم حين يستقرون يأسون من الفراغ . ويشغلون أنفسهم بتدبير المؤامرات . مستجيبين لدعاة الانقلابات الذين يتحينون الفرص وينتظرون اللحظات المناسبة .

أما الدولة الرستمية فقد كانت تعتمد - فى جميع حروبها سواء كانت مع هجوم خارجى أو فوران داخلى - على التطوع فعندما تحتاج إلى جيش من المقاتلين يعلن الإمام ذلك ويدعو الناس إلى حمل السلاح لرد عدوان أو حفظ أمن . فيندفع الناس إليه متطوعين بأزوادهم وأولادهم دون إكراه ودون طمع فى أى مكسب لأن الدولة لا تدفع لهم أى أجر على قتالهم ولا تسمح لأحد منهم أن يأخذ شيئاً من الغنائم والأسلاب ما دام القتال

بين طائفتين من المسلمين . ولا شك أن كثيراً من الناس يفضلون عدم الاشتراك في الحرب أو في المعركة الدائرة إما لانشغالهم بأعمالهم الخاصة أو لعدم اقتناعهم بأهميتها أو غير ذلك من وجهات النظر فيمتخلفون عن تلبية الدعوة والدولة لا تلومهم على ذلك ولا تحملهم على استجابة الدعوة بالقوة .

فالدولة الرسمية هي الدولة الوحيدة في ذلك الحين التي ليس لها جند قابع في الشككات ينتظر التعليمات ويحلم بالمكاسب والمغانم من وراء الحرب والغارات .

وقد نتج عن هذا الوضع الذي كانت عليه الدولة الرسمية في عدم وجود جند معد للقتال مستعد على الدوام تديجتان واضحتان في جميع المعارك والحروب التي وقعت بين الدولة الرسمية وخصومها سواء كانوا ثواراً في الداخل أو دولاً مهاجمة من الخارج .

النتيجة الأولى : أن الدولة الرسمية غالباً ما تصاب بالخسائر في الهجمة الأولى وقد تخرج من العاصمة في بعض الأحيان حتى يتسامع الناس ويتلاحقون ويتأهبون لرد العدوان أو وقع الثورة ثم يتقدمون على ذلك فتكون لهم الكرة وذلك لأن الهجوم المفاجيء لا يقابله جند مستعدون للحرب على جميع الأحوال يجدهم في مقابلته متى حضر ، وإنما يقع الهجوم المفاجيء والناس في أعمالهم الحرة موزعين في مختلف الميادين . وبعد أن يهجم ويسمعون به يتجهون ثم يدفعونه .

النتيجة الثانية : ما يكاد يتجمع المتطوعون ويمطفون على مقاتليهم حتى ينتصرون عليهم بسهولة لأن المتطوع إنما جاء بحارب عن حرمة بمبدأ أو

عقيدة فهو يستعيت في دفاعه ، ويبذل في الثبات ما يملك من جهد وقوة .
أما الجندي المأجور فهو إنما يحارب امتثالاً لأمر قائد ، وانهظاراً لمنفعة
عاجلة من سلب أو غنيمة فإذا خشى على نفسه ، أو علم أنه لن يكسب
شيئاً من وراء القتال سهل عليه الانهزام وبرر في نفسه سبب الإدبار .
فذلك كان الجيش المتكون من المتطوعين الذين يحاربون عن عقيدة ومبدأ
أبسل وأشجع وأصبر وأقوى دائماً من الجند المرتزق الذي يتخذ القتال مهنة
والجندي حرفة يعيش بها فالجندي المتطوع جاء بالدافع النفسى يطلب الموت أما
الجندي المرتزق فقد جاء يطلب ما يتمتع به في الحياة وشتان بين من يقدم على
الحرب طلباً لما بعد الموت ومن يقدم عليها طلباً للمتاع والحياة والسلامة
ولهذه المعاني كانت الجيوش الإسلامية منذ حملت الدعوة متطوعة لا تعرف
الانهزام فلما دخلها الجند النظامى كما يسمى وأصبحت الجندي مهنة للارتزاق
بدأت تفشل في مواصلة الفتوح ثم فشلت في حماية نفسها أيضاً .

والدارس لتاريخ الدولة الرستمية يبدوله في وضوح أنها لم تكن دولة
توسع ترغب في امتلاك البلاد وأن الأقطار التي كانت تحت لوأنها إنما
انضمت إليها برغبة الجماعة أو برغبة الأغلبية الساحقة ، وهي تقتصر على
هذه الرغبة في مدح حكمها . فمن أوى إليها أوتته ومن ازور عنها تركته .
وقد كان على حدودها في بعض الأحيان دول صغيرة ضعيفة يسهل احتلالها
والسيطرة عليها وكان في بعض الجهات من حدودها بلاد لا تخضع لأية دولة
وإنما تقيم على نظام عشائرى خاص بها وكان من اليسور على الدولة الرستمية
ابتلاع تلك البلاد وقبائلها ولكن الدولة الرستمية لم تحاول أن تضم إليها
تلك الولايات الصغيرة وتلك القبائل المتناثرة في جوارها وإنما كانت تبنى
معها علاقات المودة والصداقة وحسن الجوار .

وأحسب أن السبب في ذلك إنما هو ما التزمته من السيرة التي تسير عليها ، فهي تسكره إراقة الدماء وتخشى أن تلوث سيوفها بالدماء الحرام ، وأيديها بالمال الحرام ويهملها أن يأوى إليها أتباعها راضين راغبين . على أنه ليس لها أية فائدة تجنيها من الاستيلاء على غيرها بالقوة . ما دامت لا تفرض عليهم ضرائب ولا تأخذ منهم غرامات ، ولا تجمع في حروبها معهم غنائم ، ولا تضع في خزائنها المالية شيئاً من أموالهم المنصوبة أو المصادرة ، ولا تكون منهم جنداً مرتزقاً ينتظر الأوامر بالزحف كما كانت تفعل الدول التي تطلب التوسع وتسعى للسيطرة على أكثر ما يمكن من البلاد لأجل ما تحصل عليه من المكاسب المادية بالغنيمة والضرية والغرامة والمصادرة .

وكانت الدولة الرستمية من القوة بحيث لا يطمع فيها الطامعون . وهكذا كفت يدها عن الغير وكف الغير يده عنها . فقد مر عهد عبد الرحمن كله دون أن تتعرض الدولة للحرب دفاعاً أو هجوم و مر عهد عبد الوهاب كله ولم تتعرض الدولة للحرب دفاعاً أو هجوم ما عدا حادثتين بسيطتين مما يقع على الحدود بسبب الاحتكاك ، ومر عهد أفلح كله وعلى طوله دون أن تتعرض الدولة لحروب دفاعاً أو هجوم ومر عهد أبي بكر دون أن تتعرض الدولة للحرب دفاعاً أو هجوم . ومر عهد أبي اليقظان الطويل السعيد دون أن تقع حرب ما عدا واقعة واحدة على أطراف الحدود الشرقية قام بها مغامر جرىء هو العباس بن أحمد بن طولون فلحقه عامل الإمام أبو منصور درساً حين حاول أن يخترق الحدود الرستمية رجع به دون جيش أو مال إلى أبيه في مصر . ثم يمر عهد أبي حاتم دون أن تتعرض الدولة للحرب ما عدا واقعة واحدة حاول فيها ابن الأغلب أن يخترق الأراضي الرستمية

في جهاتها الشرقية فاعترضه عامل الإمامة واصطدم الجيشان فتحطما معاً واختل بسببه عقل ابن الأغلّب . ثم يجيء اليقظان فيلوث يديه بالدم البريء قبل أن يصل إلى منصب الإمامة فتسخط عليه الأمة ويقدم عليه أبو عبد الله الحجاني فينجره كما تنجر الجزور دون أهل وتنتهي الدولة الرستمية عند مقتل أبي حاتم ولا تعترف بمحاولة اليقظان لبناء العرش والصمود عليه .

ومما يدل أن الدولة الرستمية لم تكن تنوى الهجوم على أحد ولم تكن تتوقع أن يفزوها أحد . أنها لم تشبك في أية معركة بقوتها الكاملة زاحفة من العاصمة أو قلب الدولة وإنما كانت تنع لها المناوشات على أطراف الحدود فيقف لها الجانب القريب منها .

فعندما خرج جند الأغالبة من طرابلس إلى بعض السهول القريبة من العاصمة يروع البداة الآمنين ، ويمتز منهم أموالهم زحف إليه عبد الوهاب بمن حضره من رجال الجبل فأصلحوا الفساد ، وعقدوا المعاهدة مع ابن الأغلّب دون أن يحرك قلب العاصمة ويطلب منها المدد أو حتى الاستعداد للمدد . وعندما جاء العباس بن طولون منتفخ الأوداج وهو ينشد في غرور :

لله درى إذ أعدو على فرسى إلى اللقاء ونار الحرب تستعر
وفي يدي صارم أفرى الرؤوس به في حده الموت لا يبقى ولا يذر
إن كنت سائلة عنى وعن خبرى فما أنا الليث والصمصامة الذكر
من آل طولون أما إن سألت فما فوق لمفتخر بالجود مفتمخر
لو كنت شاهدة كرى بالبنده إذ بالسيف أضرب والهجمات تبتدر
إذاً لشاهدت منى ما تناقله منى الأحاديث والأنباء والخبر

فزحف إليه أبو منصور بمن حضره من تلك الجهات دون أن يزعجوا

الإمام ولا مركز الدولة بالاستئذان أو طلب المعونة . وحقق للعباس بن طولون ما افتخر به من الجود فقد تسكروا بعشرة آلاف من عبدان أبيه وبثمانمائة حمل من الذهب بعثها في ميدان القتال وعاد إلى أبيه يعدو على فرسه بعد أن استفاق من حلم لذيذ على واقع مرير . وواجه قطفان بن سلمة الرواغي عريدة الجند الأغلب في قابس بمن كان معه في ذلك الحين .

وجهر أفلح بن العباس من استطاع تجهيزه من ليبيا لملاقاة ابن الأغلب في مانو ، دون الرجوع إلى مركز الخلافة ولا طلب المدد منها .

أما الدولة العبديية حين هجمت على الدولة الرستمية في تاهرت فقد جاء هجومها متأخراً لأن الدولة الرستمية كانت قد انتهت ولم يبق فيها من يقوم للقتال .

وهكذا ترى أيها القارئ الكريم أن هذه الدولة التي عاشت نحو قرن ونصف لم يحدث فيها أن عبات قوتها الكاملة لحرب دفاع أو هجوم مما يدل على أنها كانت تعيش آمنة مطمئنة لا تخاف ولا تخيف بل إن من يتتبع أحوال اضطراب الأمن فيها بسبب الأحداث الداخلية أو الخارجية يجدها لا تتجاوز ثلاثة عشر أو أربعة عشر حدثاً طيلة مدة حكمها وبعث هذه الأحداث يقع في سنة واحدة في دول أخرى مجاورة لها بل في شهور . ويكفي هذا لمعرفة السلوك الذي كانت تسير به تلك الدولة .

كيف وصل الأئمة الرستميون إلى الحكم

في هذا الباب أحاول أن أعرض على القارئ الكريم الصور التي تم فيها اختيار الأئمة في الدولة الرستمية ليستطيع مقارنتها بالأسس التي وضعها الإسلام لاختيار الحكم من جهة ، وبطرق وصول الحكام إلى الحكم في الدول المجاورة من جهة أخرى .

يبدو أن أئمة الإباضية في المغرب الإسلامي جميعاً - ما عدا اليقظان الذي تبرأ منه الإباضية ولم يعتبروه إماماً - قد وصلوا إلى الحكم بالأسلوب الذي وصل به الخلفاء الراشدون إلى الحكم ، وتم اختيارهم على إحدى الصور التي تم فيها اختيار أحد الخلفاء ولم يكن لولاية العهد أى اعتبار أو نظر بل لم يكن لهم فيها أى تفكير ولا عنها أى حديث وفيما يلي سوف نعرضهم واحداً واحداً بالترتيب :

الأول : إن أول إمام للإباضية في الدولة الرستمية هو عبد الرحمن بن رستم الفارسي وقد وصل عبد الرحمن إلى الإمامة بطريقة الاختيار العام قال ابن الصغير المالكي فيما نقله عنه الباشا الباروني في الأزهار الرياضية صفحة ٨٤ ما يلي :

« ثم نهضوا إليه بأجمعهم وقالوا : يا عبد الرحمن رضيك الإمام (أبو الخطاب) في ابتدائنا فنحن الآن نرضى بك ونقدمك على أنفسنا ، فقد علمت أنه لا يصلح أمرنا إلا بإمام نلجأ إليه في أمورنا ، ونحتكم عنده فإن ينوب من أسبابنا . فقال لهم :

إن أعطيتموني عهد الله وميثاقه على الطاعة فيما وافق الحق وطابقه

قبلت ذلك منكم ، فأعطوه عهد الله وميثاقه على ذلك . وشرطوا عليه مثل ما شرط عليهم وقدموه على أنفسهم وألقوا إليه بأيديهم ، فسار فيهم سيرة جميلة حمدها أولهم وآخرهم ، ولم ينقموا عليه في أحكامه حكماً ولا في سيره سيرة ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان .

قضى عبد الرحمن بن رستم في الإمامة إحدى عشرة سنة كاملة كانت كأنها فترة من الخلافة الرشيدة قبل أن تثور الفتن ، وعندما أحس بدنو أجله جمع إليه الأعيان والوجهاء والعلماء والصالحين وأوصاهم بما يوصى به المؤمن وهو يترك الدنيا ويستقبل الآخرة ، ثم رشح الإمامة من بعده سبعة أشخاص حسب اجتهاده ليختاروا واحداً منهم يتولى الإمامة ، وقد كان في هذا الترشيح مقتدياً بأمير المؤمنين الفاروق .

الثاني : توفي الإمام عبد الرحمن مرضياً عنه مأسوفاً عليه ، وبدأت المناقشات في اختيار الإمام الجديد الذي يخلفه ، وتدافعها خيار المرشحين في بادئ الأمر بينما رغب فيها غيرهم ، وطال أمد النقاش مدة شهر تقريباً انبض منه أن أولى المرشحين بها وأكثرهم رصيماً من محبة الناس ورغبتهم اثنان : هما مسعود الأندلسي ، وعبد الوهاب الرستمي ، وأن الناس يفضلون مسعوداً على الجميع ويفضلون عبد الوهاب على الباقي وقرروا أن يبايعوا مسعوداً وحددوا موعداً فلما بحثوا عنه لم يجدوه وذهبت جهودهم في البحث هباء فقد اختفى . وتشاور القوم من جديد وقرروا على مبايعة الرجل الثاني عبد الوهاب الفارسي ، فعرضوا عليه الأمر بعد امتناع مسعود وخفائه فأظهر لهم الرضا واستعد لتحمل أعباء هذه الأمانة الثقيلة التي يفر منها من يخشى من نفسه الضعف والخور ولسان حاله يقول ما قاله عبد الله بن وهب في

موقف مشابه : هاتوها فوالله ما آخذها رغبة في الدنيا ولا أَدعها خوفاً من الموت .

وما علم مسعود أن الناس قد تركوه واتجهوا إلى عبد الوهاب وأن عبد الوهاب رضى ووافق حتى ظهر بين الناس وكأنما انشقت عنه الأرض وكان أسرع الناس إلى مبايعة عبد الوهاب واتباع الناس حتى تمت البيعة بالإجماع . وشمر عبد الوهاب للقيام بمهام منصبه الجديد فكان عند ظن المؤمنين به استقامة ونزاهة وعدلا مع ذكاء نادر وغزارة علم وحرص على الدراسة والتدريس ، كانت طريقة انتخاب عبد الوهاب شبيهة جداً بطريقة انتخاب أمير المؤمنين ذى النورين وقد سلك عبد الوهاب بالناس المحجة وسار على النهج الذى اتبعه المدول من أمة محمد ﷺ وفى آخر مدته استقرت الأمور وانتشر الأمن وسأوى العدل بين الناس فرأى أن يؤدى فريضة الحج فأناب عنه ولده أفلح فى رعاية الدولة وسار متنقلا بين القرى والبلدان حتى بلغ جبل نفوسة وهيباك وقف فى وجهه جماعة من كبار العلماء ومنعوه من الحج خوفاً عليه من العباسيين وأقنعوه أن الطريق بالنسبة إليه غير مأمونة^(١) فأناب عنه من قام بالحج ومكث بالجبل سبع سنوات يلتقى الدروس فى مسجده المعروف إلى الآن . وفى هذه السنوات السبع كلها كانت أمور الدولة على أحسن ما يرام . سلام دائم ، وعدل شامل ، واستقرار تام ، وبعد ذلك رجع إلى عاصمة الإمامة (تاهرت) فلبث هناك أربع سنوات أخرى يشتغل بالتدريس والتأليف وكانت الدولة تسير سيرتها الطبيعية آمنة مطمئنة مستقرة .

(١) وقد أثبت التاريخ صدق ظنهم فقد حج حفيده أبو اليقظان ولم يكن حينئذ أميراً ولا ولياً للعهد ولكنهم مع ذلك اعتقلوه وبقي فى السجن سنتين ولم يطلق سراحه إلا لأن الخليفة الذى اعتقل فى عهده توفى وتولى من بعده خليفة جديد فأطلق المساجين لهذه المناجبة .

ولما أحس بدنو الأجل لم يهتم بمن يتولى الإمامة من بعده . فإن حالة الأمة حينئذ كانت لا تدعو إلى الخوف من فتنة أو نزاع وكان في موقفه هذا مقتدياً بالرسول ﷺ .

الثالث : عندما توفى الإمام عبد الوهاب وأتم الناس تشييع جنازته إلى مقبره الأخير اجتمع العلماء والأعيان وأصحاب الشورى وناقشوا موضوع الإمامة فاتفقوا بالإجماع على اختيار أفلح بن عبد الوهاب وقد كان أفلح من الظهور والبروز والتميز في حال لا تسمح لظهور منافس له في هذا الموضوع كما أنه كان قد تدرب على تصريف الأمور وإدارتها والتمرس على حل مشاكل السياسة ومعالجتها في عهد والده لمدة طويلة ولذلك فقد استمرت أمور الدولة كأنها لم تنتقل من يد إلى يد أخرى وإنما جرت على نفس الوتيرة وبنفس الأسلوب واستمرت الدولة على حالها من السلام والاطمئنان والعدل إلى نهاية إمامة أفلح وعندما أحس بدنو الأجل لم يهتم بموضوع الخلافة من بعده وإنما تركها شورى بين المسلمين يختارون لها من يشاءون كما تركها أبوه من قبل . وكما تركها رسول الله ﷺ .

الرابع : بعد وفاة الإمام أفلح اجتمع الناس اجتماعاً سريعاً وتداولوا في أمر الإمامة وكانت الأكرية الغالبة مائلة إلى أبي بكر بن أفلح وإن كانت قد ارتفعت بعض الأصوات المعارضة أثناء المناقشة ولكنها ذابت واختفت وسط الأغلبية وتمت بيعة أبي بكر في صورة إجماع كامل وسار الإمام أبو بكر بالإمامة على النهج السابق فترة من الزمن ثم حبكت مؤامرة قتل فيها شخصية من الشخصيات البارزة في الدولة هو ابن عرفة ونتج عن هذه المؤامرة فتنة عارمة استبدت بالدولة والأمة زمنًا . تنازل بعدها أبو بكر

عن الإمامة بإشارة من أصدقائه حقناً للدماء على الأرجح أو من نفسه عزوفاً عنها واعتزل السياسة وما يتصل بها فلم يظهر له أثر فيها فيما بعد .

الخامس : عندما وقعت الفتنة بمؤامرة قتل ابن عرفة وتنازل الإمام أبو بكر عن الإمامة اجتمعت الأطراف المتخالفة ودرسوا موضوع الإمامة بعد أبي بكر وبعد تلك الفتنة العارمة ووقع اختيارهم على أبي اليقظان محمد بن أفلح فكونوا فيما بينهم لجنة أرسلوها تعرض الموضوع عليه فقبل من اللجنة بشرط أن لا تثار مشا كل الفتنة السابقة وكانت اللجنة أيضاً تحب ذلك فقبلت وبلغت الأطراف بقبول أبي اليقظان وتمت بيعة هذا الإمام بالإجماع فسار بالدولة أحسن سيرة مدة أربعين سنة ولما أحس بدنو الأجل لم يهتم أيضاً بموضوع الخلافة لأن الدولة كانت على أحسن ما يكون من الازدهار والسلام والأمن وكانت الأمة على أحسن ما يكون من الازدهار والانسجام والوفاق فتركها شورى بين المسلمين يختارون لها من يشاءون .

السادس : بعد وفاة الإمام أبي اليقظان سارع الناس إلى ترشيح أبي حاتم وارتفعت الأصوات من الساحات والشوارع تدعو إلى بيعته وكان غائباً في مهمة بعثه إليها الإمام السابق فلما رجع تلففته جماهير الناس خارج المدينة يعزونه في الإمام ويبايعونه بالإمامة وكانت الجموع تتهافت عليه حتى غصت بهم الحارات والأزقة وقصدوا به إلى المسجد الجامع حيث صلى بهم الظهر وتمت له هناك البيعة بالإجماع تقريباً - وقلت تقريباً لأن عمه يعقوب بن أفلح كان موجوداً فلم يبايع ولم يعارض ويبدو أنه وجد في نفسه ولذلك فقد وقف موقفاً سلبياً واعتزل في زواغة بعيداً عن مجرى الأمور ثم حدثت أحداث وقعت فيها فتنة دعا فيها الساخطون على الإمام: عمه يعقوب وعرضوا

عليه البيعة فقبلها منهم ثم أدرك خطأه فاعتزل ورجع إلى زواغة وأطفأ الإمام نار الفتنة فهدأت الأمور واستقامت السيرة ورجعت الحال إلى ما ألفه الناس أيام الازدهار ، وعلى حين غفلة وثب ولدان لليقظان على عمهما أبي حاتم فقتلاه ونصباً أباهما على الإمامة ولكن الأمة التي ألفت العدل والاستقامة والنزاهة والشورى غضبت على اليقظان وتبرأت منه ومن ولاه وساعده ، ثم اجتنبوه فبقي منفرداً هيكلاً على كرسي كأنه تمثال من القش ولم يتمكنوا من إنزاله وإقامة إمام بدله حتى قدم أبو عبد الله الحجاني مولى أبي عبيد الله الشيعي فوجد اليقظان أمامه أعزل من كل سلاح قد سيخط الناس عليه وعلى من شايعه وتبرأوا منه وأسلموه ؛ فقتله بسهولة ويسر مع أهله وأولاده واحتل تادرت وتعقب أفراد الأسرة الرسمية حتى قضى عليهم ولم ينج منهم إلا أبو يوسف يعقوب بن أفلح . فقد فرّ هو وأهله وأتباعه إلى وارجلان .

هؤلاء هم أئمة الدولة الرسمية الذين تولوا الحكم قرابة قرن ونصف وهذه هي الطرق والأساليب التي جرى عليها أصحاب رسول الله ﷺ في زمن الخلافة الرشيدة وفي خير القرون فقد اختير كل من عبد الرحمن وأفلح وأبي بكر وأبي اليقظان وأبي حاتم بطريق الشورى والاختيار العام دون عهد أو وصاية أو إيعاز على الأسلوب الذي اختير به الصديق وأبو الحسن وتولى عبد الوهاب بطريقة الترشيح على الأسلوب الذي اختير به ذو النورين عثمان . وقد اقتدى عبد الرحمن بالفاروق فرشح لها سبعة من الناس واقعدى بتيمة الأئمة برسول الله ﷺ ، وبأبي الحسنين فلم يرشحوا لها أحداً . هذا بقطع النظر عن اليقظان الذي اغتصب الإمامة فلم يعترف به أحد من الإباضية كإمام وأسلموه فلم ينصروه .

ولو أن جميع الدول الإسلامية الأخرى سلكت نفس النهج وسارت على سنة رسول الله وأصحابه فلم تحول الخلافة إلى ملك عضوض تقطع فيه الرؤوس بغير حساب لوفرت على الأمة الإسلامية كثيراً من الدماء والفن والاعتداء على حدود الله .

على أن هناك ثلاثة أشخاص آخرين وصلوا إلى الحكم في الدولة الرسمية ولكن الأمة لم تعترف بحكمهم . والتاريخ الإباضى لم يسلكهم في مسلك أئمتهم الذين رضى طريقة بيعتهم وطريقة حكمهم وسيرتهم في مدتهم وهؤلاء الثلاثة هم :

١ - محمد بن مسالة الهوارى : كان رجلاً غنياً كريماً محبوباً من الناس مسموع الكلمة فلما خرج أبو بكر من تاهرت نتيجة للمؤامرة التي ذكرنا تفاصيلها في فصول أخرى دخل محمد بن مسالة إلى العاصمة وصار مرجع الأمر والنهى فى المدينة وكان ناس يميلون إليه . فاستمتع بالحكم مدة الفتنة إلا أنه لم يطالب بالبيعة لنفسه ولا طلبها له الناس ولا عرضها عليه أحد فلما انتهت الفتنة وتنازل أبو بكر وأجمعت الأمة على مبايعة أبى اليتظان استسلم لرغبة الناس ودخل فيما دخلوا فيه . وبما أنه تولى الحكم على جزء فقط من أرض الدولة وفى أيام فتنة وبغير شورى ولم يطالب أحد بالبيعة ولم يدع لنفسه الإمامة فإنه لم يحسب من أئمة الدولة الرسمية ولم يسلك فى نسقهم .

٢ - أبو يوسف يعقوب بن أنلح : عندما ثار بعض الناس على أبى حاتم دعوا يعقوب بن أنلح فبايعوه بالإمامة ودخل تاهرت وتقبل البيعة ووقعت بينه وبين أبى حاتم عدة حروب ثم أدرك خطأه وندم على عمله وسلم للإمام الشرعى وبما أنه تقبل بيعة فئة باغية. ورضى أن يكون على رأسها ،

وقام على إمام شرعى ثبتت إمامته بالبيعة العامة ولم يرتكب ما يدعو إلى خلعه وأنه لم يتغلب على البلاد ولم يصل إلا إلى حكم جزء من أرض الإمامة لوقت قصير .

وبما أنه أدرك خطاه وندم على عمله ، وسلم لأهل الحق حقهم . فلم يحسب في عداد الأئمة الذين تولوا الحكم في الدولة الرستمية . وقد انتقده الناس في حركته تلك على إعجابهم به . ويقول المؤرخون : إن يعقوب لم تكن له هفوة غير تلك وقد تاب منها . غفر الله له . وهو معدود في أئمة العلم والدين لا أئمة الحكم والسياسة .

٣ — اليقظان بن محمد : تأمر ولداه على أبي يوسف فقتلاه ليمتولى هو الإمامة فسخط عليه الناس وتبرأوا منه واعتزلوه وأعرضوا عنه . ولم يرد مؤرخو الإباضية أن يلوثوا بأيام حكمه عهد أئمتهم النظيفة الزاهرة . ولذلك فهم يؤرخون لانتهاء الدولة الرستمية بمقتل أبي حاتم يوسف ولا يعترفون بأيام اليقظان وكانوا يزجرون من بعده في الأئمة وإنما يعدونه في الملوك الظالمين والسلاطين الجورة ، وكانوا يبرأون ممن دخل تحت طاعته ورضى بحكمه واعترف بإمارته .

أئمة الدولة الرستمية

لقد وضعت بين يديك أيها القارىء الكريم صوراً مختلفة للدولة الرستمية ، التقطتها لها من جميع جوانبها ، ثم ذكرت لك الطريقة التي وصل بها كل إمام من أئمتها إلى الحكم ، وفي هذا الفصل أريد أن أعرض عليك صورة شخصية لكل إمام منهم حتى يكمل المشهد لديك ، وتتضح الحقائق بين يديك .

١ — الإمام الأول للدولة الرستمية هو عبد الرحمن بن رستم الفارسي ، وربما قرأت عنه في الحلقات السابقة والذي أريد أن أعرضه عليك هنا إنما هو صورة شخصية له بعد أن أصبح أمير المؤمنين في تاهرت ، بايعه الناس بالإمامة سنة ١٦٠ للهجرة وتوفي سنة ١٧١ منها ، فكانت مدة إمامته إحدى عشرة سنة .

قال عنه الباشا الباروني في كتابه الأزهار الرياضية صفحة ٩٨ ما يلي :

« كان رحمه الله مشهوراً بالعلم معدوداً في فحول العلماء الراسخين . له تفسير جليل القدر ، تكلم عليه المؤرخون ولا وجود له الآن ، وله ديوان خطب نفيسة .

ذكر العلامة الوارجلاني رحمه الله أنه رآه وله رسائل متعددة وجوابات كثيرة مفيدة في فنون من العلم ، بعضها موجود وبعضها مفقود . وبالجملة فقد كانت مدة هذا الإمام بالمغرب أيام سكون وراحة وعدل ، ولا حرب ولا شقاق ، وكان محبوباً عند الجميع مهيّباً ، مطاع الأوامر والنواهي » .

ونقل الباشا البارونى عن ابن الصغير المالكي فى نفس الصفحة ما يلى :

« فلم تزل أموره كذلك وعلى ذلك ، والكلمة واحدة ، والدعوة مجتمعة ولا خارج يخرج عنه ولا طاعن يظعن عليه إلى أن اخترمته منيته وانقطعت أيام مدته » .

ونقل عنه أيضاً فى صفحة ٨٤ ما يلى :

« فسار فيهم سيرة جميلة ، حمدتها أولهم وآخرهم ، ولم ينقموا عليه فى أحكامه حكماً ولا فى سيره سيرة ، وسارت بذلك الركبان إلى كل البلدان ، وكانت له قصص حكوها عنه لا يمكن ذكرها إلا على وجهها ، وأن أنحوى فيها الصدق ولا أحرفها عن معناها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ، إذ النقص فى الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوى المروءات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم مبغضين ، ولسيرهم كارهين » .

ونقل عنه فى صفحة ٨٥ ما يلى :

« لما ولى عبد الرحمن بن رستم من أمور الناس ما ولى ، شمر منزره ، وأحسن سيرته وجلس فى مسجده للأرملة والضعيف لا يخاف فى الله لومة لائم » .

بعث إباضية المشرق وفداً إلى تاهرت ليتعرف على أحوال هذا الإمام ، قال الباشا البارونى فى الأزهار الرياضية صفحة ٨٦ ما يلى :

« فوجد رجلاً جالساً على جلد فوق حصير وما فى البيت سوى سدة ينام عليها وسيف ورمح وما أشبه ذلك من السلاح والعدة ، وفرس ، فسلموا عليه وبلغوه سلام إخوانه فحياهم بأحسن تحية وأمر الغلام فأحضر مائدة عليها (٥ - الإبانة)

قرص سخنة وشيء من سمن وملح فهشم القرص في السمن وقال : على اسم الله ادنوا فكلوا ، فتقدموا وأكل معهم إكراماً لهم ، وهضموا لنفسه .

وقال الأستاذ عثمان الكعاك في موجز التاريخ العام للجزائر ص

١٨٧ ما يلي :

« إلا أن عبد الرحمن لم يقبغ الذوق العام في الترف والبذخ بل كان لم يزل على ما كان عليه من التقشف الزهد . »

وقال الأستاذ الكعاك صفحة ١٨٦ ما يلي :

« فاستمر في عمله فرتب البلاد ، واستمر فيها بالعدل والإنصاف متبعاً أحكام الدين ومتبعاً لأوامره ، واقفاً عن نواهيها ، فدانت له الرقاب خاضعة لعدله ، ووفدت الأقوام إلى مملكته داخلة تحت رايته لما لها من كفالة في حكمه ، ومن طمع في الارتزاق تحت ظل الأمن والرعاية . »

هذه صورة مصغرة جداً للإمام الأول في الدولة الرستمية تعاون على وضعها أقلام ثلاثة من المؤرخين النزهاء هم : ابن الصغير والباروني والكعاك .

وليس لي فيها من يد غير وضعها على لوحة عرض الصور أمام القارئ

البحر .

٢ — الإمام الثاني للدولة الرستمية هو عبد الوهاب بن عبد الرحمن بن

رستم الفارسي . بايعه الناس بالإمامة بعد وفاة أبيه عبد الرحمن ، أخذ العلم عن حملة العلم ، وأكثر ما أخذ عن والده وعن أبي داوود القبلي وكان في عهد الإمامة والده عبد الرحمن يشغل بالتجارة مع الشرق والجنوب حتى أثرى وأصبح من أغنياء الدولة . وعندما حماه الأمة أمانة الإمامة ورئاسة الدولة ،

استعد لملها بإخلاص وتصميم ، فقامت في طريقه عقبات ، وثار زوابع ، ولكنه استطاع بما أوتي من علم وصبر ، وما اتبعه من حكمة وعدل وشورى أن يهد تلك العقبات ، وأن يسكن تلك الزوابع .

قال عنه الباشا الباروني في الأزهار الرياضية صفحة ١٣٧ ما يلي :

« ولما رأى الإمام رحمه الله من سائر أتباع دولته كمال الانقياد ، واستيلاء الأمن والعافية على البلاد ، وانقطاع دواعي الفساد ، وجرثومة العتو والعناد ، حن متشوقاً إلى زيارة ضريح أفضل الخلق على الإطلاق نور الوجود . ونبراس اليوم المشهود سيدنا محمد ﷺ وعلى آله الأبرار ، وإلى تلك الديار المقدسة الطاهرة وقد علم نفسه رحمه الله أنه ممن تعين في حقه القيام بأداء فريضة الحج المعظم لما لديه مما أتاه الله من فضله من الثروة الواسعة ، إذ كان رحمه الله قبل تحمله أعباء الإمامة من أعظم أولى الأموال الوافرة في عصره ، فكانت تجارته في أشهر المدن والجهات كالسودان . .

على أنه لم يتمكن من تنفيذ عزمه هذا على الحج فتعد أن صمم وأخذ زوجته معه وسار إلى الشرق منعه مانعون .

قال الباشا الباروني في الأزهار صفحة ١٤٠ ما يلي :

« ولما نشأ خبر توجه الإمام إلى الحج اجتمع العلماء وأصحاب الرأي من نفوسة وغيرهم وانفقوا على منعه والتعريض له ، خوفاً من غدر ملوك الشرق به ومن قبضهم عليه لأن الملك في تلك الأقطار لهم . .

واستجاب عبد الوهاب لنفوسة بعد تردد وتمنع ، وأتاب عنه شخصاً ليقوم بالحج عنه ، استناداً إلى اختلال شرط أمن الطريق بالبيعة إليه ،

وبدلاً من أن يعود إلى مركز الإمامة وعاصمة الحكم بقي في جبل نفوسة سبع سنوات كاملة . قام فيها بهوايته المفضلة : الدراسة والتدريس . فكان يلقى دروس العلم على طلبة العلم من الشباب . ويلقى دروس الوعظ على العامة وكان أحياناً يلقى العلم عن بعض كبار العلماء والشايخ أمثال ابن مغطير الذي سبق حملة العلم إلى الدراسة على أبي عبيدة في البصرة وطال به العمر حتى أدرك إمامة عبد الوهاب وهو قوى البنية سليم الذهن حاد الذكاء .

وبعد سبع سنوات رجع الإمام إلى عاصمة إمامته فوجدها على أحسن حال . الأمن منتشر ، والعدل قائم ، والاقتصاد مزدهر ، وفرص الحياة متساوية ، ورغد العيش قد شمل الناس جميعاً . فاشتغل هناك أيضاً بهوايته المفضلة : الدراسة والتدريس تاركاً الشؤون السياسية بين يدي من هي عندهم تسير في نظام واستقرار .

قال عنه الباشا الباروني في الأزهار صفحة ١٤٣ ما يلي :

« وبالجملة فقد نشر في تلك المدة من درر البيان وجواهر التبيان ، ما امتدى به كل جاهل واستضاء به كل مظلم ، وتنبه به كل غافل من علوم زاهرة ومواعظ زاجرة ، وأحاديث فاخرة عطفت عليه الأبواب ، وأخضعت له الرقاب ، فانتسعت حلقة مجلسه المهيب وانتظم في سلك عقدها العلماء الراسخون ، وأمها من الفقهاء والعلماء والأدباء والعباد وأهل الصلاح من نفوسة وغيرهم من يثلج ذكركم الصدور .

ويملاً حديث مفاخرهم ومزاياهم الدفاتر والسطور .

وقال الباشا الباروني في نفس الكتاب صفحة ١٦٣ ما يلي :

« وكان له عدة رسائل وأجوبة مفيدة جداً في فنون شتى ، بعضها موجود وبعضها مفقود ، قال ابن الصغير: وكان لعبد الوهاب كتاب يعرف بمسائل نفوسة الجبال كتبت إليه في مسائل أشكلت عليها فأجابها عن كل مسألة مما سألت عنه ، وكان هذا الكتاب في أيدي الإباضية ، مشهوراً عندهم معلوماً يتداولونه قرناً عن قرن إلى أن لحق الفضل فأخذته من بعض الرستميين فدرسته ، ووقفت عليه ، وله أقوال مشهورة معتمدة في كتب الفقه وغيرها . »

ولعل القصة الآتية تعطينا صورة أوضح عن شغفه بالدراسة فقد ، ذكر غير واحد من المؤرخين أن الإمام عبد الوهاب بعث ألف دينار إلى أعوانه بالمشرق ليشتروا بها كتباً ويرسلوها إليه ، فانفق رأيهم على أن يشتروا بها كلها ورقاً وأن ينسخوا له فيها كتباً وقد فعلوا ، ولما بعثوها إليه وكانت مكتبة عظيمة قيمة سهر لدراستها والاطلاع عليها حتى فلاحها كتاباً كتاباً وورقة ورقة فقال الحمد لله الذى علمنى جميع ما فيها إلا مسائل ، ولو سئلت عنها لأجبت قياساً كما قررت فى السكتب .

أحسب أن ما تقدم يكتفى لإعطاء صورة عن الإمام عبد الوهاب واضحة المعالم ، والحقيقة أن غياب الإمام عن عاصمة الدولة ومركز الحكم مدة سبع سنوات دون أن يخاف هو على مركزه ودون أن يحدث أى شغب يستدعى حضوره ودون أن يحدث ما يعكر الأمن والسلام ، ودون أن يتمتع هو بلذة الحكم المباشر ومظهر السلطان الذى لا تتم الأمور بدونه ، ويكتفى أن يعيش كما يعيش أى مدرس فى قرية نائية من أطراف الدولة دليل كاف على ما تتمتع به تلك الأمة من حكم رضيت عنه وسعدت به ، وما يتمتع به موظفو

الدولة من نزاهة واستقامة وعدل . ولا شك أن صلاح الرعية إنما يتم
بصلاح الراعى .

٣ — الإمام الثالث للدولة الرستمية هو أفلح بن عبد الوهاب بن
عبد الرحمن : بايعه الناس بعد وفاة أبيه بالاختيار العام دون استخلاف أو وصية
أو ترشيح وقد بايعه مباشرة بعد وفاة الإمام دون تردد أو منافسة من
أحد فقد كانت شخصية أفلح وعظمته وتفوقه في جميع الميادين أدعى إلى
أن تتجه إليه جميع الأنظار ، وأحق بأن تتضاءل أمامها كل المواهب
والكفاءات . ولذلك فقد تمت له البيعة في يسر وسهولة ، لأن أحداً لم تحدته
نفسه بأنه أو غيره يحلم أن تسند إليه الإمامة وأفلح موجود .

وأفلح نفسه لم يشعر بهذا الانتقال من شخص عادى بين الناس إلى إمام
يرجع إلى أمره ونهيه جميع الناس . ذلك لأن عظمته وكفاءته ، وقوة
شخصيته ومحبة الناس له والتفافهم في حوله وإعجابهم بكل أحواله جعله
يتقدم إلى منصب الإمامة متئداً مطمئناً متطامناً .

أخذ العلم عن أبيه وجدته ومن عاصرها من كبار العلماء حتى بلغ
درجتهم وتفوق على بعضهم ، وأصبح من الأئمة المعدودين والعلماء المشهورين ،
انفرد بأقوال في علم الكلام اعتبر من أجلها إماماً .

وعندما وثقت به الأمة وأسلمت إليه مقاليد الدولة ، وشرفته بالبيعة
تلقى الأمانة كما يتلقاها المؤمن الحريص ، وكان لحظه العظيم قد تركها له الإمام
السابق كأحسن ما ترك دولة مسلمة على أمة مسلمة ، دولة عادلة على أمة مطيعة ،
تخشى الله ، وتخضع للحق ، مستقرة في كنف العدل ، آمنة في حكم يقدر
المسئولية ويتحمل أعباءها ، ومهال وموظفين أمناء نزهاء ، يخافون الله

أكثر مما يخافون القانون ويخشون حساب ضمائرهم أكثر مما يخشون حساب الناس ، ويفرون من حر جهنم أكثر مما يفرون من سوط الجلاد .

لهذه الأسباب لم تعترضه أية صعوبة ، ولم تقم في وجهه أية مشاكل ، فضى بنفس السيرة وعلى نفس الطريقة : مساجد عامرة ، ومدارس غاصة ، وأسواق مزدهرة ، وأرض معمورة ، ودور قضاء مهجورة ، فإن الظلمة والمعتدين - على قلتهم - بردون الحقوق قبل أن تصل الشكاوى إلى رجال القضاء ، لأهم يعرفون أن رجال القضاء في تلك الدولة أذكى من أن يخذعوا ، وأقنع من أن يطمعوا ، وأعدل من أن ينحازوا ، وأخشى لله من أن يجوروا وأعظم في نفوسهم من أن يداهنوا أو يسكتوا وهكذا مرت على الأمة خمسون سنة تحت إمامته في عهد يمثّل الحكم الإسلامى النظيف حق تمثيل .

قال الباشا البارونى فى الأزهار الرياضية صفحة ١٦٦ ما يلى :-

« فبادروا فى يوم وفاته إلى ابنه أفلح الذى كان مترشحاً للإمامة بأعماله العالمية ، وعلومه ومداركه الواسعة ، فبايعوه وسلموا له مقاليد الأمور بدار الإمارة ، قطعاً للخلاف ، على أن يسير فيهم بالكتاب والسنة وآثار السلف الصالح فقبل منهم ذلك » .

وقال الباشا البارونى فى الأزهار صفحة ١٨٠ ما يلى :

« فبسط العدل فى الرعية ، وسار فيهم سيرة مرضية ، واستقامت له الأحوال ، وساعدته الأقدار ، فاقتنى سيرة أبويه ، ولم ينقم عليه أحد فى شىء من أحكامه ، وكان من المهابة والفروسية وغزارة العلم والحلم والكرم والإقدام والورع بمنزلة يكل عن وصفها اللسان » .

ونقل الباشا الباروني في الأزهار عن ابن الصغير ص ١٨١ ما يلي :
« فلما ولي أفلح أخذ بالعزم والحزم ، ونشأ له من البنين ما لم يكن
لغيره من قبله ، وطاوله الصيت ، وأنته نفوسة الجبل يسألونه أن يقدم عليهم
من يتولى أمرهم ولم تكن الشراة تطعن عليه في شيء من أحكامه ،
ولا في صدقانه ، ولا في إشاره » .

وقال الأستاذ الكماك في كتابه القيم : موجز التاريخ العام للجزائر ص
١٢٤ ما يلي :

« لما تولى شمر عن ساعد الجد ، وأظهر من العزيمة والحزم ما قطع به
دابر المتطلعين ، واستعمل السيف في مقام السيف ، واللسان في مقام اللسان ،
واستمال القلوب بالمعروف والقول الحسن ، والعمل البار ، والعدل والإنصاف ،
وكان إذا وعد وفى ، وإذا قال عمل ، وإذا أمر بالإحسان ائتمر ، يقف عند
نواهي الدين ، ويقيم الحدود ، ولا تأخذه في الله لومة لأثم ، وقد وردت في
كتب التاريخ مناقب في شأنه تدل على علو كعبه في السياسة وحبه
للإنصاف والعدل ، وإجرائها حتى على ذويه . ناهيك أنه تمكن من تأليف
القلوب بعد افتراقها ، والتوفيق بين مصالح المذاهب المتنافرة ، والقبائل
المتشاكسة ، وإرجاع الدولة إلى ما كانت عليه من العوران والحضارة » .

أحسب أن الصور السابقة لا تعطينا كامل الخطوط التي تحدد معالم
صورة هذا الإمام العظيم . ولعل الإمام أفلح يعتبر أعظم من تولى الإمامة
في المغرب الإسلامي وأنا حين أطلق هذا الحكم أضع في الاعتبار مراعاة
تطبيق أحكام الإسلام وتنفيذها مع طول المدة وإقبال الدنيا . وفيضان
الثروة بين جميع الطبقات . وبناء على هذه الأسس فإن الدارس لتاريخ الحكم

في المغرب لا يجد من جمع — بين غزارة العلم ودقة الفهم ، والاطلاع الواسع على التشريع الإسلامي والبراعة في النقد والأدب ثم الشجاعة التي تضرب بها الأمثال . وقوة الإرادة والتصميم . وحضور الذهن عند الأزمات ومراعاة العدل والإنصاف ومراقبة الله في جميع ما يأتي وما يذر ، مع طول مدة في الحكم بلغت نصف قرن أو يزيد والأمة في رغد ورفاهية وأمن وسلام داخلاً وخارجاً — مثل ما جمع أفلح بن عبد الوهاب .

٤ — الإمام الرابع في الدولة الرستمية هو أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب .

بايعه الناس بعد وفاة أبيه على شيء من الاستعجال والتسرع ويبدو أن الاستشارة لم تكن كاملة . فقد كان بعض الناس غير راضين ، إلا أن أصوات المعارضة القليلة قد ذابت في الكثرة الغالبة وصمتت بسرعة ، ودخلت فيما دخل فيه الناس فوافقت الأغلبية في اتجاهها وبايعت . كان أبو بكر مع علمه الغزير . ومعرفته بالأدب وفنونه وشغفه بمجالسة العلماء والأدباء — جم الحياء مع دين وورع وتقى ، متواضعاً سريع الثقة بالناس . ودوداً عطوفاً محبباً لجميع الناس . ولعل هذه الصفات والأخلاق الكريمة هي التي جعلت الأكثرية الغالبة تميل إليه وتجنبه وتسارع إلى مبايعته بالإمامة . وهي أيضاً نفس الصفات والأخلاق التي جعلت بعض الأصوات ترتفع بالمعارضة خشية على الدولة من هذه الأخلاق الكريمة نفسها .

وكافق لأبي بكر صهر يعرف بابن عرفة يملك كثيراً من صفات الزعامة فهو جميل وقوي وغني وكريم حسن التصرف ذو لباقة في الحديث ومعرفة بأساليب الدهاء والسياسة يحسن استمالة قلوب الجماهير . وكان ابن عرفة

يعتقد أنه إذا آتت الإمامة إلى أبي بكر فسوف يكون الرجل الأول في الدولة يتصرف فيها وفي شئونها كما يرى ويحب .

وفكر في تنفيذ ذلك بالفعل فقد حاول أن يعزل أبا بكر عن الناس وأن يحيطه بالمظاهر التي يحاط بها الملوك فيبتعد عن شعبه ويبتعد عنه شعبه ، ويكون هو الواسطة بين الجميع ، غير أنه لم يقدر له النجاح في هذا المسعى . واستمسك الإمام بإدارة الإمامة في حزم ، وبأشر اختصاصاته ورقابته ورعايته للدولة باهتمام ، فلما فشل ابن عرفة في حمل الإمام على هذا المسلك ولم يتحصل لنفسه على هذا المركز في الدولة . عاد إلى نفسه فأضفى عليها مظهر العظمة واتخذ لنفسه حشماً وأتباعاً وطلاب حاجات وكان إذا تحرك تحرك في موكب عظيم ليظن الناس ومن لا علم له أنه بلغ مبلغاً كبيراً في الدولة .

وفي هذه الأثناء رجع أبو اليقظان من المشرق فوجد الأمور على أحسن ما يرام والدولة في استتقرار والأمن مستتب فسر بذلك وانشرح له واستعد للقيام بواجبه في إعانة أخيه على مهام الدولة وقد فعل ولما رأى الإمام أبو بكر ما يتحلى به أبو اليقظان من خبرة ودراية وكفاءة ومقدرة على حل المشاكل ، وأساليب اقتبسها من أنظمة الدول في المشرق وثق به وأسند إليه كثيراً من الأمور فكان يقوم بها في كفاءة وجدارة مستحقاً التقدير ، وأصبح الإمام وأهل الشورى والناس جميعاً يلهجون بالثناء على أبي اليقظان ، فقد تحصل على المكان الذي كان يحلم به ابن عرفة وهكذا ثارت عوامل الغيرة عند ابن عرفة وصار يميل إلى الشقاق ، ويظهر النقد على الإمام ويدعو إلى الفتنة وكان الإمام لا يرى في ذلك كبير بأس ، فهو يعرف أخلاق صهره وغرامه بالمظاهر . ولكن بعض أهل الصلاح والإصلاح في الدولة رأوا أنه يجب أن

يصلح هذا الانحراف قبل أن يتسع وأن يسترضى ابن عرفة حتى لا تكون فتنة وعقدت اجتماعات تمهيدية للموضوع فتشدد ابن عرفة في موقفه أولاً واستمسك ثم لان .

وكان هناك دعاة فتننة يعملون في السر وكانوا يحاولون توسيع شقة الخلاف بين الإمام وابن عرفة فلما تحررت يد الصلح وبداهم أن ابن عرفة سوف يستجيب امتدت منهم يد آئمة في غلس الظلام فاغتالت ابن عرفة واحتضنت أتباعه واتهمت أبا بكر باغتياله ودعت إلى المطالبة بثأره . وفشل بطبيعة الحال كل مجهود يرمى إلى الصلح ووقف الناس في القضية الناجمة على ثلاثة مواقف :

١ - أتباع ابن عرفة وقد احتضنهم دعاة الفتننة الذين كانوا يعملون في السر وتبنوا المطالبة بثأر ابن عرفة وقادوا المعارك في ذلك .

٢ - أنصار أبي بكر وهم الذين وثقوا في أبي بكر وصدقوه في براءته ولم يصدقوا - وهم أعرف الناس به - أنه يقنازل إلى تدبير المؤامرات ومباشرة الاغتيال .

٣ - المحايدون وهم الذين لم يتضح لهم الموقف فوقفوا بين الفريقين موقفاً حيادياً لفترة طويلة حتى اتضح لهم الموقف فانضموا إلى فريق أبي بكر .

لم يتخل أبو بكر عن الإمامة ولم يتغلب عليه دعاة الفتننة ولكنه مع ذلك لم يستطع أن يقوم بأعبائها في ذلك الجو المشحون بالبغضاء والحقد والاستعداد للقتال حتى قدم أحد الزعماء فعمل على إصلاح الأمر ودعا أبا بكر إلى أن يعتزل الإمامة وأن يتولاها أبو اليقظان فاستجاب أبو بكر لدعوة

الصلح والإصلاح ورضى أبو اليقظان بالبيعة مع اشتراطه على الجميع أن لا يثأر بالأحداث السابقة وأن لا يطالب فيها بثأر أو دم .

وستجد أيها القارئ الكريم بعد هذا الفصل مناقشة طويلة لأحداث هذه القضية تحليلاً لأسبابها ودوافعها ونقائجها والفاثمين بها وغفلة المؤرخين فيها عن الحق ولاشك أن الموضوع فيه جوانب غامضة لم تتضح بعد .

٥ - الإمام الخامس للدولة الرستمية هو أبو اليقظان محمد بن أفلح: ذهب لأداء فريضة الحج في عهد والده أفلح فاعتقلته الدولة العباسية ونقلته إلى بغداد أو حيث سجن . ولما أطلق سراحه ورجع إلى وطنه وجد أباه قد لحق بالله والناس قد بايعوا أبا بكر والأمور هادئة راضية فاستبشر خيراً واستعد للقيام بواجبه وكان قد عرف كثيراً من الأساليب الجديدة في نظم الإدارة والحكم وهو في العراق فأحب أن تستفيد الإمامة بتلك التجارب القيمة وأسند إليه الإمام أبو بكر كثيراً من المهام صار يشرف عليها ويباشر العمل فيها ويعرض نتائج جهده على الإمام مرتين في اليوم إلى أن وقعت فتنة ابن عرفة التي سنتقرأ تفاصيلها فيما بعد واتهم فيها أبو بكر فتوقف أبو اليقظان في الموضوع واتخذ جانب الحياد لمدة طويلة وتبعته نفوسة في ذلك الموقف حتى استبان الحق وعرف أنها مكيدة يراد بها القضاء على أبي بكر والدولة فانضم إلى أبي بكر ثم جرى صلح اعتزل فيه أبو بكر الإمامة واختار الناس أبا اليقظان فقبل منهم البيعة واشترط عليهم أن لا يثأر الخزازات السابقة . ودخل المدينة وشر عن ساعد الجد والنشاط والعمل وطال عهد أبي اليقظان . وكان عهداً مزدهراً شبيهاً بعهد أبيه أفلح وجده عبد الرحمن استقرت فيه الأمور واستراح الناس وكثرت الثروة ، وهرمت البلاد وتوفرت مجالات الحياة لجميع الطبقات

وقد طال همر أبي اليمتظان حتى قارب المائة وعندما كان أجله كان أكبر أولاده اليمتظان في الديار المقدسة لأداء فريضة الحج ، وكان ولده يوسف على رئاسة جيش يحرس قافلة تجارية كبرى آتية من المشرق فتوفي الإمام وأكبر أولاده غائبان .

قال عنه الباشا الباروني في الأزهار الرياضية صفحة ٢٣٩ ما يلي :

« وثابر رضى الله عنه على إصلاح ما انتم في أثناء تلك الحروب حتى عادت الناس إلى خطة سيرها القديم في سبيل العبادة والتجارة والبنيان ، واشتغلوا بطلب العلوم وقضاء ما فاتهم في فترة السنين القاسية التعيسة - من العبادة ، نادمين على ما اجتروه من السيئات ، وما أضاعوه من الأموال ، وما سفكوا من الدماء » .

ويقول الباروني في الأزهار صفحة ٢٤٠ ما يلي :

« وأسرع السير في التقدم في الإصلاح ديناً ودنيا ، حتى أجمع الناس قاطبة على حبه ، وولايته ، والرضا بأحكامه ، وبلغ في الفضل والعدل والورع والزهد مع حسن السيرة ، مبلغاً عظيماً استحق به تشبيهه ولايته بولاية جده الإمام عبد الرحمن رضى الله عنه ، إذ كان كمثلته في الاتفاق على ولايته ، واشتغل رحمه الله بتجديد ما اندرس من الدين بكمال جد واجتهاد - يباشر إلقاء الدروس وتعليم العلوم للطالبين بنفسه طلباً للأجر وقياماً بالواجب ، وترغيباً للغير ، فشدت إليه الرحال من كل الأقطار فقلد الواردين عليه من جواهر فنونه ، وغرائب علومه ، العقود الثمينة ، وكانت من اليد الطولى والمدح المعلى في سائر الفنون حتى صاروا قادة ومصايح يهتدى بهم في الاتفاق في دجى المشكلات ، ويلجأ إليهم في العضلات وامتلأت بهم ولايته

بالعلم والعلماء والزهاد وأصحاب الكرامات ، خصوصاً جبل نفوسة كما هو مبسوط في كتب السير كلها ، ومع ذلك لا يفتر عن الانشغال - وإقامة حكومته واستراحتة في التعليم ومصالح دولته - بالتأليف والتحرير ومكاتبة العمال والولاة وجموع الرعية . بالنصائح المرشدة والحكم النفيسة والرد على المخالفين في سائر الفرق والمذاهب حتى أنه ألف في الاستطاعة وحدها أربعين كتاباً » .

ونقل الباروني عن ابن الصغير في الأزهار صفحة ٢٤٢ ما يلي :

« وكان أبو اليقظان عاش من السنين مائة أو نحوها وكان عمره في إمارته نحو أربعين سنة ، ولحقت أنا بعض إمارته وأيامه ورأيت وحضرت مجلسه » . ويقول ابن الصغير بعد أسطر : « وكان إذا جلس للناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامه ترفع إليه » .

وكان زاهداً سكيناً ورعاً ، ناسكاً ، ويقول بعد أسطر : « وكان إذا ضرب سرادقه وأنته وفودهم - أي وفود نفوسة - لا يناجون الليل حول فسطاطه شأنهم التهليل والتكبير من أول الليل حتى الفجر فإذا صلوا الفجر معه ضربوا بأنفسهم إلى الأرض فناموا » .

قال الأستاذ عثمان الكعاك في موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ١٩٨

ما يلي : -

« بويح أبو اليقظان بالإمامة فارتسم لنفسه خطة مثلى أساسها العدل وقرارها الحزم والعزيمة فإنه داوى الجروح بتقديم من هو أهل بالوظائف العليا ، وأحدث إصلاحات ذات شأن في نظام المدينة ، وسير الأمور بليغ

عليه سمة الاعتزام ، ومن مناقبه التي تذكر فذكر أنه كان ينتصح لاصحاب الناصحين ، إن رأى فيها صلاحاً ، ورآها بعيداً عن الأغراض ، غير مشوبة بالغايات . وبعد أسطر يقول : « كذلك استقامت أحوال الحكومة ، ونهضت الأمة نهضة شاملة ، وباتت ترفل في حلال العز والسيادة والأمن والسلم وال عمران والحضارة . ومناقب أبي اليقظان كثيرة لا يسعنا المقام لذكرها واحدة واحدة وقصدنا الإيجاز لا الإحاطة ، وحسبنا أن نقول إنه لما توفي كانت تركته سبعة عشر ديناراً » .

إنني أحسب أن خير ما يصور لنا أبا اليقظان ذلك الإمام العظيم الذي لا أستطيع أن أضعه في صف مع الخلفاء الراشدين إجلالاً لخيرة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفقاً لمرتبته عن مراتب جميع الناس مهما كانوا لشرف الصحبة وإنما أستطيع أن أعده في نسق من خيار الأمة الذين تولوا الحكم فنهجوا به الطريق السميحة التي دعا إليها الإسلام .

لقد نقل المؤرخ الصادق ابن الصغير المالكي وهو معاصر لأبي اليقظان هذه القصة التي سبها أولئك الذين ملأت المادية أذهانهم وشغلت أفكارهم وعقولهم فاختلت عندهم الموازين والقيم وذابت في نظرهم السدود والحدود بين الحلال والحرام .

قال ابن الصغير^(١) « قال لي أحمد بن بشير قال لي سابق خرج أبو اليقظان يوماً إلى منزله الذي كان اختصه (بنبلونت) يتفقد سائمته وعبيده وأبطاً في انصرافه إلى أن دخل الليل . قال أبو سابق فخطت عن

(١) انظر الأزهار الرياضية صفحة ٢٥٠ .

الفرس وربطته على ماردة ، وخرجت لآتى له بعاقبة من عند حريف له ، فألفيته
وقد أخلق حانوته ، فملت إلى بيت المال ففتحتته وأخذت منه علف الفرس
وأغلت عليه ، ثم رجعت إلى موضعي في القصر ، وإذا بأبي اليقظان قد
افتقدني مرة بعد أخرى ، فلما رأيته صعد إليه خادم فأخبره بمجيئي ، فقال له :
اصعده إلي . وكان يستريح إلى ويسأني عن أخبار الناس ، فقال : وما حبسك ؟
وما أبطأ بك ؟ فأعلمته خبر الحريف وغيبته ، وفتحت بيت المال وأخذت العلف
منه ، وتعلمتني إياه الفرس ، فقال : آه يا أبا سابق ؟ والله لانا محمد ولا آكل
ولا أشرب حتى تمضي وتردني بيت المال ما أخذت منه . قال : فضيت والله
في ليلتي تلك حتى أتيت حربي . وأخرجته من داره وأخذت منه علف
الفرس ، ثم مضيت وانتزعت المخلاة عن الفرس فكلت ما بقي وأتممت
ما أخرجته من بيت المال ، ورددته فيه وعلقت ما بقي على الفرس ومضيت
إليه ، فأصبته جالساً ينتظرنى .

فقال : ما وراءك يا أبا سابق ؟ فأعلمته بما صنعت فقال لي : أحسنت ؟
أما الآن فاجلس . فأت أبو اليقظان فكل شيء وجد له من العين في تركته
سبعة عشر ديناراً . وكان لأبي اليقظان في إمارته وقائع صارت تاريخاً
لموالد الناس .

ويعلق الباشا الباروني على هذه النصبة فيقول في الأزهار صفحة ٢٥١

ما يلي :

« هذه حاله ، وقد حكها من تاعرت بالمغرب إلى أراضى سرت بالمشرق .
فهكذا والله العدل ، وهكذا الزهد والورع ، وهكذا كان الخلفاء الراشدون
من أصحاب النبي ﷺ أهل الإنصاف والفضل . »

إن رجلاً يحكم ما بين تاهرت وسرت مدة أربعين عاماً لا يميز لنفسه أن يستعير من بيت المال صاعاً من شعير عشاء للفرس على أن يرده في اليوم التالي ثم عندما يتوفاه الله ويحصي الناس التركة التي خلفها إبان حكمه لأغنى منطقة في المغرب الأوسط مدة أربعين سنة يجدون أن تلك الثروة لا تتجاوز سبعة عشر ديناراً .

لا شك أن أي إنسان ولو كان يحترف المسألة يعيش أربعين سنة في ذلك العهد المزدهر يستطيع أن يوفر أكثر من هذا المبلغ الذي لا يمكن أن يعتبر تركة لحاكم أبداً اللهم إلا أن يكون حاكماً مسلماً حريصاً على الإسلام .

إن رجلاً بهذا الوصف حقيق أن يضرب به المثل في حياة البشرية الطويلة وأن يجعل قدوة لمن تسند إليهم الأمم أمورها وتكل إليهم رعاية مصالحها وتوجيه سياستها .

٦ — الإمام السادس للدولة الرستمية أبو حاتم يوسف بن محمد .

في أواخر أيام أبي اليقظان خرج اليقظان إلى المشرق حاجاً أما أبو حاتم يوسف فقد كلفه أبوه بالخروج إلى ملاقاته قافلة كبيرة آتية من المشرق ليتولى حراستها حتى تصل سالمة وفي غيابهما ، اليقظان في الحج ويوسف في حراسة القافلة ، توفي الإمام رحمه الله فتشاور الناس فيمن يتولى الإمامة بعده فالت الأغلبية إلى أبي حاتم ، ونادى الناس بإمامته وهو غير موجود فلما رجع لاقته الجماهير بالبيعة على أبواب المدينة إلى المسجد ، وتسامع الناس بذلك فبادروا إليه ، وأجمعوا على بيعته من كل أنحاء البلاد التابعة للدولة الرستمية . وعزم الرجل أن يقتني أثر سلفه الصالحين وأن يسير في النهج القويم الذي ساروا عليه . غير أن زوابع حدثت فقد سعى بعض المفسدين

إلى الفتنة . ودعوا إلى الثورة وهجموا على العاصمة على حين غفلة . فاضطر الإمام إلى الخروج منها ثم استغل دعاة الفتنة عم الإمام فدعوه إليهم وعقدوا له البيعة مع أن بيعة أبي حاتم في أعناقهم وفي عنق عمه أيضاً . وعندما استفاق أبو حاتم من ذهول المفاجأة وجمع أنصاره حوله كرم بهم على المدينة ووقعت بين الإمام وبين دعاة الفتنة عدة وقائع ذهبت فيها دماء وأموال ثم بدأت كفة الإمام ترجح وبدأت تظهر الحقيقة للذين انجروا وراء الفتنة دون وعى فصاروا ينفصلون عنها ويعودون إلى الإمام وأخيراً دعا دعاة الصلح فاستجاب له الطرفان وبقيت الإمامة بيد صاحبها الشرعى وذهب عم الإمام إلى زواغة وخضع أصحاب الفتنة لنظام الدولة - ودخل الإمام أبو حاتم إلى عاصمة الإمامة وقد أجمعت عليه الأمة بعد الفتنة كما أجمعت من قبل واجتمعت على محبته القلوب وعرف الناكثون فضله عليهم . فسار بالدولة كما سار بها أسلافه الصالحون . قال الباشا البارونى فى الأزهار صفحة ٢٦٦ ما يلى :

« فلما وصل إلى باب المدينة ازدحم الناس من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره فبايعوه فما وصل المسجد الجامع إلا وقت الظهر فأصعدوه المنبر وبايعوه وكبروا حوله » وبعد أسطر يقول : « فتمت له البيعة وخلصت له الإمامة ، بدون إنكار ولا معارضة من أحد ، إلا ما كان خفياً » .

وبعد أسطر يقول : « فشم أبو حاتم لمباشرة أموره عن ساق الجذ وسار سيرة أسلافه الصالحين ، واستقام له الأمر ، وأجمع الناس على ولايته وسلمت بواطن العامة من جهته » ..

وقال الأستاذ عثمان الكعاك فى موجز التاريخ العام للجزائر صفحة ٢٠١

ما يلي : « لما رجع أبو حاتم إلى مدينة تيهرت اقتنى سيرة أبيه خطوة خطوة ،
فقدم للوظائف من يستحقها ، فرجعت الأحوال إلى أحسن حال ، ورتبت
الأمور ، واستتب الأمن وانتصب النظام ، وكان قد لحق المدينة شيء من
الفساد في الأخلاق فشمّر صاحب الشرطة عن ساعد الجد ، وقمع عمل
المفسدين ، وقطع دابرهم ، واستأصل جرثومتهم وأقام لفضيلة صروحها
العوالي ، وتبع قطاع الطرق والفتصبين للسابلة ودمرهم تدميراً وقضى عليهم ،
وكان القضاء جارياً على أحسن حال ، والعدالة مشرحة الصدر ، وضاعة
الجبين ، والناس قد عادوا إلى ما كانوا عليه من أسباب الراحة والحضارة .
ولم يزل أبو حاتم على ذلك إلى أن غدر به بعض أبناء أخيه فقتلوه لحاجة
في أنفسهم » .

لعل القارئ الكريم يرى أن الصورة التي وضعها أقلام المؤرخين لهذا
الإمام تناسب مع الصور التي عرضناها من قبل لأسلافه الأئمة السابقين
وتتلاءم معها تلاؤماً تاماً .

ويكاد الإباضية يجمعون على أن هؤلاء هم الأئمة المعترف بهم في الدولة
الرستمية ويتوقف بعضهم في أبي بكر . أما غير هؤلاء الأئمة ممن تولى الحكم
فيها فلا يزيد عن أن يكون مدعياً للحكم لا يجرؤ أن يدعى لنفسه الخلافة
كابن مسالة ، أو في موقف البغاة كيعقوب ثم ندم وتاب ، أو يكون في حكم
السلطين والملوك كاليقظان آخر حكام الدولة الرستمية .

الإمام أبو بكر بن أفلح

بعد أن تحدثت عن أئمة الدولة الرسومية أحببت أن أخصص فصولا
أناقش فيها مع القارئ الكريم بعض الأحداث التي نسبت إلى هذا الإمام
العظيم والتي أعتقد أن فيها كثيراً من الحوادث والوقائع يغلب الشك في
صحتها أو صحة نسبتها إليه .

لقد علمت أيها القارئ الكريم أن أبا بكر وصل إلى مركز الإمامة
بطريق البيعة العامة والأغلبية الساحقة والمصادر التاريخية التي بين يدي متفمنة
على ذلك وهي تذكر أصواتاً قليلة خافتة قد عارضت ولكنها ذابت في وسط
الكثرة الغالبة وتمت له البيعة العامة .

ولم يتحدث التاريخ عن أصحاب تلك الأصوات فيما بعد ، ولم نجد لهم
أى ذكر في أحداث المؤامرة التي دبرت فيما بعد للقضاء على أبي بكر ، وعلى
الدولة الرسومية من ورائه .

يقول ابن الصغير المالكي عن هذا الإمام :

« كان سمحاً جواداً ابن العريكة يسامح أهل المروءات ، ويشايهم على
مروءتهم ويحب الآداب والأشعار وأخبار الماضين » .

ويبدو لي أن هذه الصفات هي التي جعلته محبوباً من الجهادير ، وهي
نفس الصفات التي جعلت بعض المتشددین يعارضون بيعته خوفاً عليها وعلى
الدولة منها .

وعلى كل حال فقد تمت البيعة وأسندت إليه الإمامة وبدأت عماله التنظيم .
وهنا تذكر المصادر التاريخية شخصية أخرى تربطها بالإمام علاقات .

فقد ذهبت بعض تلك المصادر تقول : إنه كان يوجد في تاهرت رجل اسمه محمد بن عرفة وأنه كان وسيماً جميلاً سمحاً جواداً وأنه وفد على بعض ملوك السودان فأعجبوا به وأطروه وأنه كان ذا هيئة وفروسية وأنه كانت له أخت أجمل منه تزوجها الإمام أبو بكر وأنه لذلك كان لا يحب عنه وأن الإمارة أصبحت بالاسم لأبي بكر وبالفعل لابن عرفة ، وأن ابن عرفة إذا ركب من داره يريد أبا بكر مشى بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن يساره أمم من الأمم ، وأن أبا بكر كان لا يرى شيئاً ولا يعرف شيئاً فغارت قلوب الحاشية وحقنوا على ابن عرفة وأصبحوا ينتظرون فرصة للوصول إلى أبي بكر ، وذات يوم حانت تلك الفرصة فقد استدعاهم للمشاورة في أمر من الأمور فأوغروا صدره على صهره ابن عرفة ، وذكروا له المواقف التي يسير بها ابن عرفة والعظمة التي يستمتع بها بين الجماهير ، وأنه في إمكانه أن يراقب ذلك من قصره ليتأكد من حقيقة الحال ، ونقب أبو بكر فتحة في قصره لينظر منها إلى موكب ابن عرفة في مجيئه وذهابه ورأى ذلك بنفسه ، فاستشار أصحاب المؤامرة في الخطوة التالية فأشاروا عليه أن يدعوهم إلى نزهة منفردين وأن يبقيا هناك يوماً كاملاً حتى إذا جاء وقت صلاة المغرب وقام ابن عرفة إلى الصلاة أشار إلى عبد من عبده يقتل الرجل وتمت المؤامرة على ما خطط هذا المستشار . فلما قتل ابن عرفة زمله العبد في ثيابه . وذهب به مع الإمام إلى مكان فأخفوا فيه الجثة ، ورجع الإمام كأن شيئاً لم يقع ، وتحير أهل ابن عرفة حين أبطأ عنهم في أول الليل فبعثوا جراسيسهم إلى قصر الإمام فعلموا أن الإمام موجود وأن ابن عرفة ليس معه ، فباتوا على هم وقلق وفي الصباح تفرق الناس للبحث عن ابن عرفة حتى وجدوا أثر الدم وتبعوه حتى أخرجوا الجثة من المغارة التي خبئ فيها وأركبوه فرسه وجاءوا به إلى المدينة يمسكه بعضهم ويدعون إلى الأخذ بثأره من أبي بكر .

هذا ملخص القصة وقد انساق إلى تصديقها بعض من عنى بالكتابة عن الدولة الرستمية في هذا العصر ، أمثال الزعيم الكبير الشيخ سليمان باشا الباروتى ، والأستاذ محمد على دبوز — ويبدو لى أن كلا الكاتبين قد أخذوا القصة مسلمة وإن كان كل واحد منهما كان فى تصديقها وتعليقها وروايتها متأثراً بجانب معين من ظروف الحياة التى يعيشها .

فالزعيم الباروتى وقد كان قريباً من قصور السلاطين فى تركيا وذا معرفة بما يدور فيها من مؤامرات ويحاك من دسائس ويمجرى من أحداث ، وبكثرة ما يسمع من ذلك كان سهل عليه تصديق أمثال هذه المؤامرات وغيرها ولذلك فهو لم يناقشها بحس المؤرخ الذى يحاول أن يعيش ظروف الفترة التى يؤرخ لها . وإنما ناقشها بالإحساس الذى يعيش به فعلا فى تركيا فى ذلك الحين .

وقد كانت المكائد تجرى من حوله فى كل لحظة . فرواها متأثراً بما يعرفه من تدبير السلاطين لاغتيال من يخشونه على عروشهم ويعلمها بنوعية الأحداث التى تقع فى قصور تركيا وما يشاهدها من القصور الملكية المستبدة الباطشة فى حال القوة ، والمكائد فى حال الضعف .

أما الأستاذ محمد على دبوز فقد كان يفتش عن المرأة فى هذه القصة كما هو شأنه فى كثير من أحداث التاريخ وقد تناول بقلمه الغزل أم أبى بكر ودخل إلى مخادع أفلح ؛ وسهر مع حريم ذلك الإمام العظيم وعزا مسئولية فشل أبى بكر فى الحكم حسب نظره — إلى تلك الأم التى حاول أن يجعل منها دمية يلعب بها أفلح فى بيته عندما يتجرد من مهام عمله العظيم فى الليل أو فى النهار ، ولا شك أن دور تلك الأم — التى لا نعرف عنها إلا القليل الذى

لا يعطى عنها أية صورة - ليس بذى أثر كبير في شخصية أبي بكر .
ويعزو أيضاً جانباً من فشل أبي بكر - حسب نظره - إلى البيئة الثرية الرخية
التي عاش فيها أبو بكر وأغفل أن تلك البيئة نفسها هي البيئة التي عاش فيها
أخو أبي بكر : أبو اليقظان وأبو يوسف يعقوب . عندما كتبت أراجع
مصادر التاريخ ، وأجد هذه القصة في بعضها كانت تساورني كثير من
الشكوك في جملتها وتفصيلها - فلما عزمت على الكتابة في الموضوع سنة
١٩٦٧ كتبت رسالة إلى المؤرخ الكبير شيخنا أبي اليقظان إبراهيم
للاستفهام وهذا نص الرسالة بعد الديباجة :

« لقد أطلت التفكير في إمامة أبي بكر بن أفلح من أئمة الدولة
الرسومية وفي قضية قتله لصهره ابن عرفة غيلة ، حسبما هو مذكور فيما بين يدي
من المصادر ، وقد سيطرت على في القصة كثير من الشكوك ، وأجدني في
دخيلة نفسي غير مصدق بها رغم أني لا أملك دليلاً على هذه الشكوك ،
ويبدولي أن القصة دخيلة على سيرة الأئمة ، وإنها صورة لوقعة البرامكة
الشهيرة قيست عليها ونسجت على منوالها وجعل أبطالها من الدولة الرسومية ،
فإن الذي يُعرف من أخلاق أبي بكر إنما هو اللين والعطف ومتانة الدين ،
فكيف يسمح لنفسه بالاغتيال لأعز صديق ، ولأقرب الناس إليه ، وعلى كل
حال فأنا أشك في الحادثة وأحسب أنها إما أن تكون أدخلت في تاريخ
الدولة الرسومية بطريق الخيال ، وإما أن يكون الذين اغتالوا ابن عرفة هم
بعض حساده والناقين عليه ، وأن يكونوا هم الذين سعوا في نسبتها إليه حتى
يثور الناس ، وقد نجحوا في مكيدتهم ، ولمدم تحقق نسبتها إليه وقفت
نفوسة وأبو اليقظان في القضية موقف الحياد ، وإلا فكيف يحق لهم السكوت
عن الانحراف بدين الله .

على كل حال أنا الآن في تحرير هذا الموضوع ، وأرجو أن تبعثوا الى برأيكم ورأى أفلح^(١) في الموضوع حتى أطمئن إلى ما أعتدده من الآراء ، فإذا كان رأيكم متفقاً مع هذه القصة التاريخية فإنني سوف أبعده هذه الشكوك عن نفسي وأستسلم إلى ما قاله المؤرخون ، والله سبحانه وتعالى هو المطلع على الخفايا .

وقد أجبني الأستاذ الجليل الشيخ أبو اليتظان رحمه الله برسالة مؤرخة ٢١ من المحرم سنة ١٣٨٧ (١ مايو سنة ١٩٦٧) وهذا نصها بعد الديباجة :

« وبكل سرور تسلمت رسالتكم الكريمة مؤرخة في ١٦/٤/١٩٦٧ المؤرخ ٤ المحرم ١٣٨٧ ، وفيها تسألون عن قضية الإمام أبي بكر وابن عرفة الشائكة . نعم لقد وقعت في نفسى الحيرة بها منذ القديم ما وقعت لكم هذه الأيام ، وقد عظم هذا الأمر على قلبى ، ورمت أن أسأل منها الإمام الأديب أبا بكر من بين الأئمة العظام - سل الشعرة من العجين - فكان سؤالكم هذا مدعاة للبحث عنها ، فأحدث لدى وصول الرسالة سؤالكم إلى الأخ الأستاذ أفلح ، وسلمت إليه بعض المراجع التى لدى موثوق بها ليجول فيها جولات الفارس المغوار فكان - حفظه الله - جوابه وافيًا بالغرض كما تراه داخل هذا ، وقد سل الإمام أبا بكر كما أروم من الشبهة التى ألصقها به دعاء الفتنة من ذوى الأحقاد ضد الإباضية ، فتأملوا جوابه بإمعان تجدوه مسرأً مبهجاً فى آن واحد .

ولك الفضل أنت إذ حركتنا بأبحاثك القيمة فزدنا من هذا أمدك الله بعونه وتوفيقه . »

(١) أفلح هو الاسم الذى اختاره أستاذنا الفاضل العلامة الشيخ بيوض إبراهيم حفظه الله لنفسه فكان يوقع به المجلات التى ينشرها فى المجلات والجرائد . وقد أحب جميع طلابه هذا الاسم . فكنا فى جميع الأحوال لانتاديه إلا به ولا نستعمل فى رسائلنا ومكاتباتنا فيما بيننا وبينه غير هذا الاسم .

ولكن مع هذه الرسالة رسالة أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض حفظه الله
ومعها النص الذي نقله عن طبقات الدرجيني . وإلى القارئ الكريم نص
الرسالة بعد الديباجة :

« أحال على الشيخ أبو اليقظان حفظه الله جواب كتابك في قضية الإمام
أبي بكر وصهره ابن عرفة ، لاشتغال الشيخ - أمد الله في عمره - بإتمام بعض
تأليفه التي لا تقبل التأخير . وليس لدينا مصدر لرواية الاغتيال إلا الأزهار
الرياضية وطبقات الدرجيني ، وبينهما خلاف كبير من أهمه أن الاغتيال -
عند الدرجيني - كان قبل قدوم أبي اليقظان من المشرق ، وأنه نسب إلى
أبي بكر لمنع الاتفاق ، وأن الخلاف بين أبي بكر وابن عرفة قد اشتد إلى
حد القطيعة بل إلى الحرب قبل الاغتيال ، وأنه أصبح قتيلا والناس
يجمعون ، والناس ينظرون في هذه الفتنة وإطفاؤها وأن أبا اليقظان قدم في
هذه الأثناء ، وأن الخلاف ارتفع بقدمه فاعزل أبو بكر وتولى الإمامة
محمد ، ودان له الناس بالسمع والطاعة . فالدرجيني رحمه الله لا يثبت نسبة الاغتيال
إلى أبي بكر ، ونحن معه ومعك في الشك في ذلك ، واشتداد النزاع والشقاق
واستعلانه بين الرجلين إلى الحد الذي ذكره الدرجيني يقضى على صورة
المؤامرة ويحتملها من أصلها على أن كل جزء من أجزاء الصورة يعلن صارخا
بالتلفيق المغفل والصنعة البليدة - وهل يبلغ السخف والسفه والبلادة بأبي بكر
إلى حد حبك المؤامرة على تلك الصورة الصبغانية المفضوحة هذا ما
لا نظنه ولا نتصوره بقطع النظر عما وصف به الرجل من متانة دين - وسماحة
خلق ، وإن أباح له دينه دمه ، فإن بيده الأمر ، ولن يعجزه تنفيذه بصورة
أشرف وأحزم . والله أعلم .

وقد يكون عندك من المصادر أكثر مما عندنا ، ومع هذا فقد بعثنا

إليك نص كلام الطبقات احتياطاً وأنت بعد أدري بالصيغة التي تروى بها الحادث بعد التروى وإنعام النظر ثم بما تعقبه وتعلق عليه ، أخذ الله بيدك ، وسدد خطاك ، وأعانك على إتمام ما أنت بصدده من عمل جليل ، ترجو الأمة عاجل نفعه وترجو أنت آجله .

ولتكتمل الصورة التي أردت أن أضعها أمام القارئ الكريم من هذه المراسلات أضع بين يديه نص الطبقات الذي أرسله أستاذنا الفاضل حفظه الله مع رسالته ، وإليك النص :

« وصل أبو اليقظان إلى تاهرت فوجد أهلها مجتمعين في أمر أبي بكر لما بينه وبين ابن عرفة ، وذلك أن ابن عرفة رجل من أعيان أهل تاهرت فكانت بينه وبين أبي بكر موقعة أفضت إلى حرب . وكاد الافتراق يقع ، والفتن لا ترتفع بينهما ، فبينما الناس في ذلك أصبح ابن عرفة قتيلاً فنسب إلى أبي بكر في هذا ما منع من وقوع الانفاق على طاعته فلما يسر الله بقدم محمد كان رفعاً للخلاف . وقطعاً لقبائح الأوصاف ، فاعتزل أبو بكر الولاية وانسلخ منها ، ولم يجد الناس لمحمد محيداً عنها ، فعقدوا له البيعة ، والتزموا سماعه وطاعته . »

ويعلق الأستاذ الفاضل على هذا فيقول : « هذا هو النص الحرفي في النسخة التي بين أيدينا . »

أبو بكر بن أفلح وروايات ابن الصغير

لا شك أن المؤرخين الكبارين : الباشا الباروني ، ومحمد علي دبور قد اعتمدا على ابن الصغير اعتماداً كلياً فيما كتبه كلاهما عن أبي بكر وأنهما قد أخذوا ما وجداه عنده قضية مسالمة لا يقرب إليها الشك ولا تستدعي أي نقاش . وهما معزوران في ذلك فإن رسالة ابن الصغير تعتبر من أوثق المصادر عن تاريخ الدولة الرستمية ولكن مع ذلك أستطيع أن ألاحظ ما يلي :

نحن نفترض الصدق والنزاهة في ابن الصغير ولا نتهمه بالكذب والتلفيق بدليل قوله في رسالته عن تاريخ الدولة الرستمية : « وأن أتم الصدق فيها ، ولا أحرفها على معانيها ، ولا أزيد فيها ولا أنقص منها ، إذ النقص في الخبر والزيادة فيه ليس من شيم ذوى المروءات ، ولا من أخلاق ذوى الديانات ، وإن كنا للقوم مبغضين ولسيرهم كارهين ، ولما هبهم مستقلين ، فنحن وإن ذكرنا سيرهم على ما اتصل بنا وعدلهم فيما ولوه فلسنا بمن تعجبهم طلاوة أفعالهم ولا حسن سيرهم » .

ولاشك أنه يتضح للقارئ الكريم في هذا أن ابن الصغير كان مبغضاً لأئمة الدولة الرستمية ولبغضه لهم كان لا يعجبه العدل وحسن السيرة منهم ولكنه يقرر أنه رغم ذلك فهو ينقل سيرهم الحسنة وأخبارهم الدالة على الاستقامة والعدل كما تبلغ إليه ولا يغيرها لأن تغيير الأخبار ليس من شيم ذوى المروءات ، وواضح من هذا أن الأخبار والأحداث التي وقعت في عهد أبي بكر لم يحضرها ولم يشهد بها وإنما بلغته عن طرق أخرى غير المعرفة الشخصية اليقينية الجازمة .

إن الأخبار وصلت إليه عن غير واحد فنقل ما وصل إليه وسجله في رسالته التي تعتبر اليوم من أهم الوثائق في تاريخ الدولة الرستمية فإذا أردنا أن نتأمل فيما جاء في هذه الرسالة عن الأحداث والوقائع والأخلاق في عهد أبي بكر فإننا نجد كثيراً من التناقض الذي يهدم بعضه بعضاً ، وأن الرؤوس التي دبرت المؤامرة واتهمت بها أبا بكر وألصقتها به لا تزال إلى عهد ابن الصغير توالى جهودها في نفس الاتجاه . وأن الأخبار التي بلغت إلى ابن الصغير إنما بلغت من هذا الجانب الذي كان يعمل على تحطيم أبي بكر والدولة الرستمية من ورائه .

وإنه لا يزال مستمراً في جهوده لتحقيق مراميه ولعله مما يساعد القارئ الكريم على دراسة هذه القضية وتفهم حقائق أحداثها أن نستعرض معاً الصور التي رسمها ابن الصغير لأبطال تلك الأحداث ثم ما نسب إلى كل منهم من أعمال ، وهل تتناسب تلك الأعمال مع تلك الصور ؟ وإلى القارئ الكريم هذه الصور :

١ — أبو بكر بن أفلح بن عبد الوهاب يقول عنه ابن الصغير : « فلما ولى أبو بكر لم تسكن فيه من الشدة في دينه ما كان فيمن قبله من آبائه ولكن كان سمحاً جواداً لئب العريكة ، يسامح أهل المروءات ويشايهم على مروءاتهم ، ويحب الأدب والأشعار وأخبار الماضين » .

فأنت ترى أن الإطار العام لهذه الصورة يبرز أبا بكر في صورة عالم وأديب ومؤرخ لئب الجانب متسامح ، جواد ، محب للمروءة مساعد عليها . فهل يمكن أن تصدق أيها القارئ الكريم أن رجلاً هذه أخلاقه يمكن أن ينقلب بوشاية في جلسة واحدة إلى متآمر يفتال الأنفس البريئة .

هل تستطيع أن تصدق أن هذا الرجل الوديع الهادىء الودود يمكن أن ينتقل إلى وحش يبلغ في الدم ، بل إلى رجل توضع بين يديه مؤامرة لاغتيال صهره وأعز صديق، لديه - حسب رواية ابن الصغير - بجميع تفاصيلها وتحديد مكانها وزمانها - وطريقة تنفيذها فيقوم بدوره فيها وينفذه بدقة وإحكام حسبما خططوا وضعا المؤامرة له .

إن الفكر السليم والمنطق الصائب لا يمكن أن يصدق هذا .
ولو كان أبو بكر من عتاة المجرمين اليوم ومن تعود أن يقوم بأدوار الإجرام لاحتاج إلى مزيد من الوقت ومزيد من التفكير فكيف بذلك الرجل الحى الودود؟! .

٢ - محمد بن عرفة يقول عنه ابن الصغير : « كان وسيماً جميلاً جواداً سجعاً وكان قد وفد على ملك السودان بهدية من قبل أفلح بن عبد الوهاب فأعجب ملك السودان مارآه من ديبته وجماله وفروسيته إذا ركب الخيل ، فهز يديه وقال : أنت حسن الوجه ، حسن الهيئة والأفعال ، وكان محمد ابن عرفة إذا ركب من داره يريد أبا بكر مشى بين يديه ومن خلفه ومن يمينه ومن يساره أمم من الأمم » .

« وفي كل ذلك محمد بن عرفة في دوى وصيت عال » .

الإطار العام للصورة التي وضعها ابن الصغير لمحمد بن عرفة تبرزه في صورة رجل غنى كريم جميل محبوب محب لمظاهر العظمة يسعى للظهور .

ولا شك أن هذه الصفات تجمع حوله الناس ، وتجعله بمن يحدث نفسه بالوصول إلى أكبر المراکز في الدولة فإذا عاقه عائق اتخذ للوصول جميع

الوسائل حتى وسائل العنف وسلك كل السبل التي تناسب مع خلقه ومركزه في نفسه وأمثال هذا الرجل غالباً يسلكون مسالك العنف ولا ينحدرون إلى تدبير المؤامرات والمكائد .

٣ — البطل الثالث من أبطال هذه الرواية هو أبو اليقظان وقد قال عنه ابن الصغير ما يلي :

« وقد لحقت أنا بعض أيامه وأمارته ، وحضرت مجلسه وقد جلس للناس خارج المسجد الجامع مما يلي الجدار الغربي » . « ورأيت يوماً ثانياً في مصلى الجنائز ، وقد رميت له وسادة من آدم فجلس عليها ينتظر فراغ دفن رجل مات من وجوه الناس ، وكان مربع القامة أبيض الرأس واللحية وكان إذا جلس الناس وأمرهم بالجلوس لم ينطق أحد بين يديه إلا أن تكون ظلامه ترفع إليه ، وكان زاهداً ورعاً ناسكاً ، سكتياً » .

فأنت ترى أن الإطار العام لهذه الصورة يبرز أبا اليقظان في صورة رجل زاهد ورع ناسك وقور ملتزم للصمت مهيب ، هل يمكن أن يصدق إنسان أن رجلاً في هذه الصورة ينحدر إلى صفة واشٍ متآمر يضع خطة للاغتيال بأدق تفاصيلها ثم يدفع أخاه إلى تنفيذها ويفريه بالقيام بأدوارها الخزية وفي نفس الوقت تكون موجهة إلى صهر هذا الأخ وخال أطفاله .

بعد هذه الصور التي وضعتها مختصرة بين يديك للأبطال الثلاثة الذين أسندت إليهم فصول هذه المؤامرة باعتبار أبي اليقظان مخططاً وأبي بكر منفذاً وابن عرفة ضحية يهمني أن تلاحظ معي موقف ابن الصغير راوي القصة فإن في أسلوبه في رواية هذه القصة ما يدعو إلى التأمل .

يبدو لي أن ابن الصغير وهو يستمع إلى رواية أحداث المؤامرة كانت

تعلق في نفسه كثير من الشكوك وعدم التصديق ، وكان كأنه يخشى أن القارىء يتهمه بعدم التحرى في نقل هذه الأخبار ، ولذلك فقد بدا شديد الاحتراس ، كثير الاحتياط يكرر بمختلف الأساليب أنه إنما ينقل ما بلغه ، وأنه ربما كان يشك في صحة ما بلغه ولكنه مع ذلك لا يملك إلا أن ينقله مع الاحتراس ، والعهد على الراوى كما يقولون ، ومن المهم أن نتأمل احتراساته ، فانظر إليه كيف يصوغها :

« أخبرنى جماعة » ، « أخبرنى غير واحد » ، « قالوا » ، « قالوا » وكان محمد بن عرفة هذا قد تزوج بأخت أبى بكر ، « قالوا فكانت الإمارة بالاسم لأبى بكر وبالْحَقِيقَةُ لِمُحَمَّدِ بْنِ عَرَفَةَ » ، « قالوا المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر إخوته وأعمامه » ، « فإله أعلم أى ذلك كان » .

هذه أمثلة من احتراسات واحترازات ابن الصغير ويبدو منها أن الرجل كان يحس بمسؤولية تلقى على كاهله فهو يعمل جاهداً لكي يتنصل منها ، ولو لم يكن يشك فيها لما حاول التنصل منها بهذا الإلحاح .

أما الأسباب التى دعت ابن الصغير إلى نقل هذه الأخبار مع الشك في صحتها فلربما عدم وصوله إلى الحقيقة في ذلك الحين ، ثم إن الحزب الذى دبر المؤامرة ونفذها لا يزال يعمل إلى ذلك الحين وهو يسعى إلى إثبات الجريمة كما خططتها المؤامرة ولعل الرواة الذين نقلوا أخبار المؤامرة إلى ابن الصغير كانوا من هذا الحزب ولعله كان يعرف ذلك أيضاً ولذلك فهو يشك فيهم ولكنه لم يجد مفرأ من النقل عنهم .

وبالجملة فإن القارىء إذا كان يقرأ ما كتبه ابن الصغير عن هذه الأحداث يتبين له بوضوح أن ابن الصغير نفسه كان يروى تلك الأحداث

وهو يشك في صحتها وصدق روايتها فكان يخشى أن يتهم بالكذب أو التلفيق فحرص أن يخبر أنه إنما بلغه ما يرويه عن جماعة أو قالوه له ، ولعل القارئ الكريم يلاحظ في هذا الفصل أن نوعاً من الارتباك أصاب ابن الصغير وهو يتحدث عن هذه الفترة من تاريخ الدولة الرسومية فهو لم ينقلها لنا بلسانه ويسرد علينا أحداثها سرداً عادياً وإنما كان يشير إلى أن مبلغين بلغوها إليه وهو رغم ذلك قد فاته شيء مهم لأنه لم يذكر أسماء المبلغين على الطريقة الروائية المعروفة التي تلتقي فيها العهدة على الراوى الأول للحدث وهكذا رغم احتراسه الشديد فإن مهمة خفيفة تقع عليه بأنه قصر في التحرى والتحقيق والنقل من الأحزاب المتعارضة وهي كثيرة - في تلك الفترة . أو أنه عمد إلى إغفال ذكر أسماء من نقل عنهم لأنهم ليسوا في المرتبة التي تسلم من النقد .

التناقض في أخبار ابن الصغير

يذكر ابن الصغير أن محمداً بن عرفة تزوج أخت أبي بكر ، وأن أبا بكر تزوج أخت ابن عرفة ويقول إن ابن عرفة كان لا يُحجب عن أبي بكر سواء كان في مجلسه أو كان في حرمة . وهذا شيء طبيعي إذ كانت زوجة أبي بكر هي أخت ابن عرفة فلا داعي لحجبه عن بيت أبي بكر أو بعبارة أوضح عن الدخول على أخته وزيارتها متى يشاء . كما أنه لا يحق لغيره ممن ليس له حرمة القرابة أن يدخل إلى بيت أبي بكر بدون استئذان فإن له حرمة مصنونة كما لجميع بيوت المسلمين .

ويبدو أنه يحسن بنا أن ننقل نصوص ابن الصغير لتأملها ونعرف ما تشتمل عليه .

١ - قال ابن الصغير : « وكان محمد بن عرفة إذا أتى باب أبي بكر لم يُحجب كان أبو بكر في مجلسه أو في حرمة ، وكان أبو اليقظان وجميع إخوان أبي بكر وأعمامه لا يدخلون على أبي بكر إلا باستئذان إذا كان في مجلسه وإلا انصرفوا » .

وقبل هذا الكلام مباشرة يقول ابن الصغير وهو يتحدث عن أبي اليقظان :

« فإذا كان آخر النهار أتى باب أخيه أبي بكر فإن وجده جالساً دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر وحكم ، وإن لقيه مشغولاً قال لمن (٢ - الإيضاح)

علم أنه يصل إلى حرمة أقرأ على الأمير السلام وقل له أصبحت مدينتك اليوم هادئة وأمت هادئة .

تأمل أيها القارئ الكريم هذه العبارة تجدها مناقضة كل التناقض للعبارة الأولى فهو يقول في الأولى إن ابن عرفة لا يُحجب عن أبي بكر سواء كان في مجلسه أو في حرمة وأن بقية الناس ومنهم أبو اليقظان كانوا يُحجبون عنه ولا يصلون إليه سواء كان في مجلسه أو في حرمة إلا بإذن، وفي العبارة الثانية يقول إن أبا اليقظان يمر يومياً على أبي بكر فإن وجدته في مجلسه دخل وأخبره بأحداث اليوم وإن وجدته عند حرمة أوصى من يجوز له الدخول فيبلغه الأخبار وهذا هو الموقف الطبيعي لأن زوجة أبي بكر لم تكن محرماً لأبي اليقظان فيدخل متى يشاء كما يدخل ابن عرفة . والمقارنة بين القصتين مع دراسة طبيعة الأحداث والسلوك في ذلك العصر المحتشم الملتزم تكشف عن هذه التلفية الأخيرة التي دبرت لتجيبك بها فصول المؤامرة فزعمت أن أبا اليقظان كان يحجب عن مجلس أبي بكر ، ومن يكن في مجلسه إذا لم يكن فيه أبو اليقظان ؟ ! .

ولست أدري والله كيف فأت هذه الملاحظة ابن الصغير فأثبت الخبر دون ترو أو نقاش ، كما لست أدري كيف لم يلتفت إليها كل من المؤرخين الكبارين البارونى والديبوز وقد اعتمدا فيما يبدو على رسالة ابن الصغير لإعتماداً كلياً .

هذه صورة من التناقض الذى ورد في رسالة ابن الصغير عن أحداث المؤامرة التي نسبت إلى أبي بكر .

وإليك صورة أخرى يبدو لي أنها أوضح وأحق أن تستجلب اهتمام القارئ ثم المدارس والباحث ، يقول ابن الصغير :

٢ - « قالوا : فكانت الإمارة بالاسم لأبي بكر وبالْحَقِيقَةُ لِمُحَمَّدِ
ابن عرفة » .

ويقول : « إلى أن قدم أبو اليقظان من العراق فوجد أخاه أبا بكر
أميراً ، والعجم على أحوالهم ، والنفوسة على مراتبهم ، وسائر الناس على
ما هم عليه فلم يغير شيئاً ولم ينكره ، ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أخاه .
بل يظهر له القيام له ، والحسبة بين يديه ، - وكان أبو بكر يحب اللذات ،
ويعيل إلى الشهوات - فصرف النظر في المدينة وأحوالها إلى أخيه
أبي اليقظان مع ما ظهر له من الكفاية مع أدب المشرق ، والأخذ بالحزم فيمراه
من ولاية بني العباس وسيرهم . وكان أبو اليقظان يركب إلى أعلى مسجد
في المدينة فيجلس فيه فن تسكلم إليه من الناس بين العمال والقضاة وأصحاب
الشرطة نظر في ذلك نظراً شافياً ، وأجرى الحق على من رضى وسخط ، عظم
قدره أو صغر ، ولم تأخذه في الله لومة لائم ، فحمد له الشراة ذلك ، وحمد له
أخوه فعله ، فإذا كان آخر النهار أتى باب أخيه أبي بكر فإن وجده جالساً
دخل عليه وأعلمه بما حدث في يومه من خبر أو حكم ، وإن تقيمه مشتغلاً
قال لمن علم أنه يصل إلى حرمة اقرأ على الأمير السلام وقل له أصبحت
مدينتك اليوم هادئة وأمست هادئة ، وإذا كان في الليل ركب وطاف في
المدينة حتى أقصاها ويحكم في الأمر الضروري ، ويأمرهم إذا حدث حادث
أن يوافوا داره ، فإذا أحكم جميع ذلك انصرف إلى داره فإذا كان بالغداة
غداً إلى باب أخيه فإن وجده جالساً أعلمه بما كان في المدينة من حدث إن
كان حدث ، أو هدوء ، إن كان هدوء ، فلم يزل كذلك حتى جاب
قلوب الناس والشراة إليه ومالت نحوه » .

إذا صرفنا النظر عن موقف أبي بكر في الحكم فأى الرجلين كان هو
الأمير على الحقيقة ، محمد بن عرفة أم أبو اليقظان محمد بن أفلح ؟ .

ذكر ابن الصغير أن الإمارة كانت بالحقيقة لابن عرفة هكذا على الإجمال . ولكنه وهو يتحدث عن أبي اليقظان قد فصل سيرته اليومية ، ومباشرة لأعمال الإمارة وسهره عليها ليلاً ونهاراً ، وتولية مشاكل الناس واتخاذ الحلول لها حتى أحبه جميع الناس ثم إنه كان يعرض نتيجة عمله على الإمام أبي بكر مرتين في اليوم فإذا وجده في مجلسه عرض عليه ذلك مباشرة ، وإن وجده في حرمة كلف من يبلغ إليه ذلك عند حرمة ممن يجوز له الدخول عليه مباشرة فما هي السلطة التي كانت بيد ابن عرفة ؟. ألا ترى أيها القارئ الكريم في هذا تناقضاً واضحاً !! .

إن كل ما أستطيع أن أفهمه في هذه الروايات وأن أصدقه لقربه من الواقع أن أتصور أن محمداً بن عرفة صهر أبي بكر هو رجل له مركزه في الأوساط الشعبية كما يقال اليوم فهو عندما يريد أن يزور الإمام يلتف حوله مجموعة من طلاب الحاجات والطامعين تسير حوله فإذا بلغ إلى باب أبي بكر دخل سواء كان الأمير في مجلسه الذي يستطيع أن يدخله كل أحد أو كان في حرمة الذي لا يستطيع أن يدخل إليه إلا من كانت له العلاقة الشرعية البيعة . ويرى أولئك الأتباع أن ابن عرفة يدخل إلى منزل أبي بكر كما يدخل إلى مجلسه دون استئذان فيظنون أن ذلك لارتفاع مقامه وتصرفه في أمور الدولة ، يضاف إلى ذلك أنه ربما يقضى بعض المآرب لبعض الناس فيطلقون له ألسنة الدعاية .

بعد هذا أود أن يتأمل القارئ الكريم معي ما يأتي :

إن أحداث المؤامرة في اغتيال ابن عرفة صورت على أساس أن ابن عرفة كان يتمتع بكل شيء في إمامة أبي بكر ، وأنه كان الإمام الفعلي

ولذلك فقد غار منه وحسده أقارب الإمام وإخوته ولا سيما أبو اليقظان وأنه من أجل ذلك حبك أبو اليقظان تلك المؤامرة ونسج خيوطها ، ودفع أخاه أبا بكر إلى ارتكابها ولكنك بقراءتك لما نقلناه لك عن ابن الصغير تجد أن الحاكم الفعلي في ذلك الحين إنما هو أبو اليقظان فهو الذى ترك له التصرف المطلق وأنه كان يتولى ذلك بكفاءة ونزاهة وحزم .

فعلى أى شيء يغار أبو اليقظان من ابن عرفة ؟ وعلى ماذا يحسده ؟ والأمور كما ذكر ابن الصغير كلها بيده ، وأخوه عنه راض والشرارة عنه راضون والشعب له محب . إن ابن الصغير وهو يتحدث عن ابن عرفة رسم له ثلاث صور :

الأولى - صورة شخصية : مال وجمال وجرد وفروسية .

الثانية - خلقية : تعاضم ، ومحبة للظهور والمظاهر ، واصطناع للحواش والأتباع .

الثالثة - عملية : وقد كانت باهتة جداً لا تتضح فيها خطوط ولا ملامح لأن ابن الصغير اكتفى فيها بجملة واحدة هى قوله : « كان الأمير بالحقيقة » .

وكما رسم لابن عرفة ثلاث صور فقد رسم لأبى اليقظان وهو يتحدث عنه ثلاث صور أيضاً :

الأولى - صورة شخصية : دين وورع ونسك وعلم ووقار .

الثانية - خلقية : جد فى معالجة المشاكل وتصريف الأمور ، وحزم فى إجراء الأحكام مع عدالة ونزاهة ، وكفاية ومقدرة ، وخبرة وأدب مسكتسبان من أنظمة الحكم فى الدولة العباسية ، واقتباس للأساليب الصالحة فى تسيير دفة الحكم وتنظيم الرعايا .

الثالثة - عملية : وهي صورة واضحة لمخطط عمله اليومي ، وسلوكه في تصريف جميع شئون الدولة بما لا يبقى لغيره شيئاً منها ، وإحكام ذلك وتنفيذه بالسرعة التي لا يعقبها ولا تتخللها شكوى .

ومقارنة هذه الصورة بالصورة الثالثة التي وضعت لابن عرفة ، تجعل ما قيل عن ابن عرفة في هذا المجال لا يمكن بحال من الأحوال أن يستقيم أو يثبت اللهم إلا إذا كان دخول ابن عرفة على صهره دون حجاب ، أو اتباع بعض الطامعين أو المتزلفين له طمعاً في المال أو في الجاه يعتبر هو حقيقة الإمارة . وهذا أبعد شيء عن منطلق الواقع .

وإنه لا يمكن لأى عقل يحترم نفسه أن يصدق أن أبا اليقظان بدينه وأخلاقه وسلوكه وما أسند إليه من مهام الدولة وتصريف لشأنها - يمكن أن ينحدر إلى الوشاية وتدبير المؤامرات ، وأنه ليس له أى دافع أو مصلحة في ذلك ، وابن الصغير نفسه عندما قال : « قالوا : المنفرد بهذا الكلام أبو اليقظان خاصة دون سائر إخوته وأعمامه » ، لم يصدق ذلك وهو الرجل الذى عرف أبا اليقظان عن كذب ، وحضر مجلسه ، ولذلك عقب على تلك الجملة بقوله : « فالله أعلم أى ذلك كان » ، بعد ما تنصل من تبعة الرواية - حسب طريقته المعهودة - بقوله في أول الجملة : « قالوا » .

٣ - يقول ابن الصغير : « وكان محمد بن عرفة إذ أتى باب أبى بكر لم يُحجب كان أبو بكر فى مجلسه أو فى حرمة ، وكان أبو اليقظان وجميع إخوان أبى بكر وأعمامه لا يدخلون على أبى بكر إلا باستئذان » ، ويقول : « جمعهم يوماً إلى نفسه لأمر أراد شوراهم فيه فلما ظفروا بالخلوة قالوا... » . ويقص بعد ذلك وشايتهم بابن عرفة وحبسكهم للمؤامرة .

والذى يلفت النظر فى هذه القضية أن أبا بكر جمع خاصته ليستشيرهم فى أمر هام ولم يحضر معهم محمد بن عرفة . فإذا كانت منزلة ابن عرفة فى الدولة كما يصورها ابن الصغير فكيف ينعقد مجلس شورى فى أمر هام من أمور الدولة ولا يحضره ابن عرفة ، وكيف يدعو أبو بكر ناساً لاستشارتهم ولا يكون ابن عرفة فى مقدمتهم ، ثم إن ابن عرفة لا يستأذن ولا يُجيب عن مجالس الإمام فكيف غاب عن هذه المجالس وقد تعددت - كما يقول ابن الصغير ؟ - . لاشك أن فى هذا تناقضاً واضحاً .

٤ - يقول ابن الصغير : « قالوا : المنفرد بهذا الكلام - أى الوشاية وتفصيل المؤامرة - أبو اليقظان خاصة دون سائر إخوته وأعمامه » . ويقول فى موضع آخر من كتابه ما يلى :

« واعتزل أبو اليقظان الفريقين وصار إلى عدوة نفوسة » .

ألا تحس معنى أيها القارىء الكريم بشيء من الغرابة والتناقض فى هذا الكلام فهذا أبو اليقظان كما يقول ابن الصغير يظفر بخلوة مع الإمام فينتهز هذه الفرصة ويشى له بصهره ابن عرفة ثم يخطط له جريمة اغتيال ويدعوه إلى ارتكابها فيستجيب الإمام إلى كل ذلك كأنما هو منوم تنويماً مغناطيسياً وعندما تنكشف المؤامرة ويثور الناس على أبي بكر يقف أبو اليقظان متفرجاً من بعيد قد اعتزل الفريقين وجد فى عدوة نفوسة . كيف لا ينصر أخاه فى أخرج اللحظات وهو الذى دفعه إلى هذا الموقف لاسيما وأن أبا بكر ثبت ولم يسقط ؟ ، أما كان من واجب أبي اليقظان وهو يعرف كل أسرار القضية باعتباره مخططاً لها أن يقف إلى جانب أبي بكر بكل ما لديه من قوة على الأقل ليحقق رغبته فى القضاء على ابن عرفة وأنصاره ؟

بل أليس من واجبه أن يكون قد أعد العدة لاستقبال هذا الموقف وغيره .

٥ - يقول ابن الصغير عن أخلاق أبي بكر : « كان سمحاً جواداً لين العريكة » .

ويقول : « وكان أبو اليقظان وجميع إخوان أبي بكر وأعمامه لا يدخلون على أبي بكر إلا باستئذان » .

ألا ترى معي أيها القارئ الكريم أن هذا غير مقبول أن الرجل السمع الجواد اللين العريكة ، يكون كذلك مع أهله وأقاربه أكثر مما يكون مع الناس ، وهذا النوع من الرجال غالباً ما يكون ضعيفاً أمام الشخصيات القوية من ذوى القرابة ، فكيف أمكن لأبي بكر وهو السمع الجواد اللين أن ينقلب إلى غليظ شديد نفور ، يجب عنه أقاربه ويردهم عن مجلسه ولا يوقر حتى إخوته الأكبر منه وأعمامه فيجسبهم على بابه في انتظار الإذن !! إنها لو كانت حاله مع فرد منهم لأمكن ذلك ، أما أن تكون حاله مع جميعهم كذلك ، وهو بالأوصاف السابقة ، لما يدعو إلى الشك والارتياب فيما قيل !! .

أحسب أن هذا يكفي لإيضاح أن مؤامرة اغتيال ابن عرفة يستحيل أن تكون صادرة من بيت الإمارة ، من أبي بكر أو من أبي اليقظان ، أو من يفكر بتفكيرها ويسلك سلوكهما ، وإنما دبرتها أفكار تريد أن تضرب أبا بكر وأبا اليقظان معاً وربما ابن عرفة أيضاً ، والأطماع إذا انفتحت أبوابها فإنها لا تنغلق - ولم تجد خيراً من أن تشعل الخلاف القائم فتحدث فتنة بقتل ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر لتستريح من الاثنيين .

هل كان أبو بكر ضعيفاً

أود أن يعرف القارئ الكريم أنني في هذا الفصل أحب أن أناقش صفة أطلقها بعض المؤرخين على أبي بكر فقالوا إنه كان ضعيفاً ووصفه بعضهم بأنه الحلقة الرخوة في سلسلة الأئمة الرستميين الذهبية وأنتى في مناقشتي هذه سوف أعمد على ما ورد في رسالة ابن الصغير فقط وهي أقرب المصادر من عصره .

ذكر ابن الصغير استناداً على ما بلغه أن أبا بكر لم تكن له من الشدة ما كانت في أسلافه ، وأنه كان لين العريكة ، سهل الخلق ، يحب الأدب والشعر والتاريخ وأنه كان يميل إلى طيبات الحياة ، ولأجل هذه الصفات والأخلاق اعتبره ضعيفاً .

وجاء الأستاذ محمد على دبور فانساق في هذا التيار وصب جام غضبه على أم أبي بكر التي كان يتخيلها ولا يعرف عنها شيئاً . فهل كان أبو بكر ضعيفاً حقاً ؟

إن الأحداث التاريخية القليلة التي وقعت في عهده والتي ذكر المؤرخون أكثرها بعد أن حرقها الأهواء ، وشوحتها الدعاية ، وأذاعها في الغالب الجانب المعادي لأبي بكر وللدولة الرستمية - لا تدل على ضعف أبي بكر وإنما تدل على قوته ، وسعة مداركه ، وتفهمه لمجرى السياسة في عصره ، وقوة إرادته وحزمه وصبره .

ولكى يتضح لنا هذا يجب أن نستعرض بعض الحقائق الثابتة في تاريخ تلك الفترة ثم نتأمل دلالاتها وما تؤدي إليه .

١ - الحقيقة الأولى : عندما أعلنت البيعة لأبي بكر وسارع إليها الناس ارتفع صوت عبد العزيز بن الأوز بالمعارضة وكان يصيح في الشوارع معلناً معارضته وينتقد الدعاة إلى بيعة أبي بكر في صراحة ووضوح ولكن البيعة تمت بالأغلبية التي تعتبر المعارضة في جانبها كأنها غير موجودة . فما هو موقف أبي بكر من هذا الرجل الذي يصيح في الشوارع معارضاً لبيعته ؟ لو كان أبو بكر ضميماً كما يظن بعض المؤرخين لسلك في هذا الحادث مسلك الحكام الضعفاء . لسارع إلى الانتقام من الرجل ليجعل منه عبرة لغيره ، لأن الضعيف يخشى على منصبه أن ينال منه النقد أو تؤثر عليه المعارضة ، ولأن هذا المسلك هو الذي سار عليه الحكام الضعفاء ، لا يثبتون مراكزهم إلا بإسكات أصوات المعارضة وخنق حريات الشعوب والأفراد ، أما الحاكم القوي الواثق من نفسه ومن محبة الشعب له فهو لا ينظر إلى أصوات المعارضة إلا نظرتة إلى شيء طبيعي يقع خلال حكمه سيستفيد من حقه ويهمل باطله ولا يهتم به إلا إذا تجاوز المعارضة القولية على مستوى النقد إلى المعارضة الفعلية على مستوى إشعال نار الفتنة أو تفريق صفوف الأمة ، أو ارتكاب أسباب الجريمة ، وحينئذ يتخذ القوى موقف القوة فيضرب الضربة التي تحسم الشر وتطفىء النار المشتعلة وتلم شتات الصفوف المتفرقة أو تحول دون ارتكاب الجرائم المتوقعة وهي في كل ذلك لا تتجاوز الحق والعدل

إن سكوت أبي بكر على عبد العزيز بن الأوز الذي يصيح في الشوارع بالمعارضة حتى بعد تمام البيعة دليل من أدلة قوة أبي بكر .

٢ - الحقيقة الثانية : يقول ابن الصغير : « إن الكلمة مجتمعة والدعوة واحدة ، والناس مقيمون على أحوالهم . إلا أن الضغائن بين القبائل وأهل

الخواص في الصدور على ما كانت في أيام أبيه ، وبين القبائل حروب تهيج ثم تسكن والبلد زائدة في العمارة .

ويقول : « إلى أن قدم أبو اليقظان من العراق فوجد أخاه أميراً والعجم على أحوالهم والنفوسة على مراتبهم ، وسأر الناس على ما هم عليه ، فلم يغير شيئاً ، ولم ينكر شيئاً ، ولا ادعى إمارة ولا نازع فيها أخاه . »

هذه صورة حالة البلاد في الفترة التي تولى فيها أبو بكر الحكم ما بين بيعته بالإمامة ومجيء أخيه أبي اليقظان من العراق حسب رواية ابن الصغير طبعاً .

وقد ذكر ابن الصغير أن هذه الحالة هي نفس الحالة التي كانت عليها الدولة في عهد أبيه ، والمؤرخون مجمعون — فيما أحسب — أن أفلح يعتبر أقوى شخصية في الدولة الرستمية . ومحافظه أبي بكر على المستوى الذي كانت عليه الدولة في حكم أقوى أئمتها واستمرار تلك الحالة طيلة فترة حكمه دليل على أن أبا بكر يتمتع بالقوة التي يتمتع بها أفلح فإن لم يكن مثله فهو سائر في ركابه ومتأثر بخطواته .

ثم إن هذه الصورة التي ذكرها ابن الصغير للدولة الرستمية في عهد أبي بكر تدل أن أبا بكر سار بالدولة في منهجها القويم الذي كانت تسير عليه من قبل كما تدل هذه الصورة أن محمداً بن عرفة كان موجوداً ولكن أبا بكر لم يسند إليه شيئاً من أعمال الدولة ولم يعتمد عليه في تصريف أمورها وإنما كان يقوم بها بنفسه حتى جاء أبو اليقظان فأسندت إليه كثير من المهام فقام بها بكفاءة وجدارة وبقظة تستحق الإعجاب . ولاشك أن هذه

الصورة تنسف خرافة أن ابن عرفة كان هو الأمير الفعلي والأمير بالحقيقة من أساسها ولا تبقى لها ظلالاً أو نسبة ظل .

لو كان أبو بكر ضعيفاً لتفرقت الكلمة وتغيرت أحوال الناس وتضاربت القبائل وخرجت الضغائن من الصدور وتوقفت العمارة في البلد ، واستولى عشاق الحكم على مناصب الدولة وتصرفوا فيها على حسب أهوائهم . ولكن القضية كانت بخلاف ذلك ؛ كان أبو بكر يمسك الأمور بحزم ودراية فلم يستطع أحد أن يلعب بأموار الدولة فلما وصل أبو اليقظان اختبره أبو بكر ووثق به فاستعان به على تصريف الشئون وأسند إليه كثيراً من المهام . وهذا التصرف نفسه دليل على القوة والثقة بالنفس وقد جرى تاريخ السياسة والحكم من هذا كثير ، ولا نذهب بالقارىء بعيداً فلقد ترك عبد الوهاب الأمور لأفلح زمناً غير قصير ولا يستطيع أحد أن يزعم . أن عبد الوهاب كان ضعيفاً ، على أن أبا بكر كانت تعرض عليه نتائج أعمال أبي اليقظان مرتين في اليوم وهذا منتهى الحزم والقوة .

٣ - الحقيقة الثالثة : عندما دبرت مؤامرة اغتيال ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر لم يتخاذل ولم يضعف وإنما وقف بين الأعاصير موقف القوى الشامخ وعندما زحفت عليه الجماهير الغاضبة التي حركتها يد الفقنة مطالبة بقتله - وتخلي عنه حسب روايات ابن الصغير حتى أقرب الناس إليه أبو اليقظان ونفوسة - تصدى وردّها عن أعقابها وثبت في مكانه حتى تمت المفاهمة وتنازل عن الإمامة غير آسف عليها وهو مؤمن أنها سوف تكون في يد أمينة . فاعتزل السياسة اعتزالاً كاملاً بعدها ولم يجر له فيها ذكر .

لقد كان الرجل قوياً في شخصه وخلقه ونفسه وإرادته وتفكيره متحكماً

في أعصابه ولو لم يكن كذلك لكانت له مواقف أخرى من الذلة والهوان .
٤ - الحقيقة الرابعة : عندما جاء أبو اليقظان من الشرق واختبره أسند
إليه القيام بأعمال هامة ولو كان الرجل ضعيفاً لترك له الأمر يتصرف دون
علمه كما يفعل أكثر الناس والحواشي مع الملوك والسلاطين ولكن
أبا اليقظان كان يعرض نتائج أعماله على أبي بكر مرتين في اليوم ولا دليل على
اليقظة والاهتمام والقوة أقوى وأوضح من هذا . ودارس التاريخ السياسي
قد يجد أئمة وملوكاً أو سلاطين يثقون في أشخاص فيتركون لهم تسيير
أعمالهم في الدولة مع المحاسبة أو مع عدمها ، ولكن ينذر أن تجد بينهم من
يطلب أن تعرض عليه النتائج مرتين في اليوم وأن يدق بابه مسئول مفوض
في الصباح والمساء ليذكر له ما عمل وما رأى وما يقترح ، فإذا لم يكن هذا
المسلك من أبي بكر هو الحزم والقوة فما أعرف كيف تكون القوة
ويكون الحزم !! .

هذه بعض الجوانب التي تظهر شخصية أبي بكر في تصرفه ومدى قوته
وحزمه في معالجة المشاكل وتصريف الأمور والوقوف بين الأعاصير التي
هيجها دعاة الفتنة ومدبرو المكائد . وإنني أحسب أنه كلما ازداد الإنسان
اطلاعاً ودراسة لتاريخ هذه الفترة كلما ازداد اقتناعاً بقوة أبي بكر ونزاهته
وحسن تصرفه إذا لم ينساق وراء ظاهر تيارات الروايات التي نقلها المؤرخون
دون تمحيص ولكن بكثير من الشك والريبة لأنها كما قلت سابقاً رويت
عن الطرف الذي كاد لأبي بكر والدولة الرستمية .

أبو بكر وابن عرفة

كان ابن عرفة صديقاً حميماً لأبي بكر قبل أن يتولى الإمامة ، وزاد من صداقتها وتوثق العلاقة بينهما تلك المصاهرة المزدوجة . وقد كانا يتشابهان في كثير من الأخلاق والصفات والميول . ويختلفان في قليل منها ، ومما كانا يتشابهان فيه : الجمال والمال والجود ورواية الأشعار والأدب والأخبار ، وحسن المسامرة والحديث ، والأخذ بنصيب من طيبات الحياة الحلال . ومما كانا يختلفان فيه أن محمداً بن عرفة كان محبباً للظهور ، مغرماً بالمظاهر ، يهوى العظمة ، يصطنع الأتباع ، ويستكثر من الحواشي . ويسعى إلى قضاء مصالح الناس لتلطف حوله القلوب وتسير وراءه الجموع ، أما أبو بكر فقد كان يحب أن يعيش على النسق الذي عاش عليه في عهد أبيه ، يميل إلى البساطة ، ويبتعد عن المظاهر ، ولا يهتم بكثرة الحواشي والأتباع ، ولا يتخذ المواكب الحافلة التي تملأ الشوارع من ورائه بالهتاف والدعاء . تتحرك إذا تحرك وتسكن إذا سكن .

وكان ابن عرفة لا يرى من أبي بكر إلا الجانب الأدبي الشعري ولذلك فقد كانت نفسه تحدته بآمال طوال عراض عندما يصل أبو بكر إلى الإمامة . فقد كان يعتقد أنه يستطيع أن يملأ أوقات أبي بكر بالسمر الخلو والحديث العذب والشعر الرائق والأخبار الحسان وأن يشغله بالأدب وأخبار الماضين عن قضية السياسة والحكم ومشاكله وبذلك يتاح له أن يتصرف في الدولة تصرف الوزير الخبير . وجعل يسعى إلى هذا برفق ويأمل أن يصل إليه بقليل من الأناة والتبصر .

وقد كان أبو بكر يرى في ابن عرفة صديقاً كريماً ، وصهرراً عزيزاً ومحدثاً لبقاً بارع النكتة لطيف المعشر عذب الحديث ، ولكنه كان يرى فيه أيضاً حبه للظهور وميوله للسيطرة والتحكم فأبقاه في منزلته التي كان عليها قبل أن تصل إليه الإمامة - صهرراً كريماً ، وصديقاً حميماً ، ولم يمكنه من أى شىء من أعمال الدولة فلما وصل أبو اليقظان من المشرق عهد إليه أبو بكر بكثير من مهام الدولة التي كان ابن عرفة يتوق إليها فلم يصل ورأى أن مساعيه قد فشلت وأن آماله تحطمت وأن وسائل المصاهرة والصدقة لم تؤثر على تفكير أبي بكر السليم المتزن ، فامتلاً قلبه حقداً على أبي بكر وحسداً لأبي اليقظان وأظهر النعمة والنقد على أبي بكر وجهر بذلك وتحدث بين الناس وانضمت إليه أصوات من أتباعه ومريديه وأصوات تريد توسيع شقة الخلاف وإيقاع الفتنة بين الناس ، فاجتمع ناس من أصحاب الفكر والرأى ، ومن يحرص على مصلحة البلد وأهله للنظر في الموضوع وقرروا أنه يجب تدارك القضية قبل أن يفلت الزمام ، وأن تطفأ النار قبل أن تشتعل الفتنة . وبينما كان أولئك المصلحون من الأعيان والوجهاء ، في اجتماعاتهم ومشاوراتهم ودراساتهم للمشاكل من جميع وجوهها . بينما كانوا كذلك تحركت يد أخرى في الظلام ، لقد كانت هناك يد إجرامية آثمة يهيمها أن تشتعل الفتنة ، وأن تتحطم الدولة وأن تتفرق الجماعة . فلما رأت مساعي الصالح تبذل خافت من فشل المؤامرة فأسرعت تتخذ الخطوة التي لا يمكن أن تلتئم الجروح ، ولا تجتمع الصفوف بعدها فدبرت اغتيال ابن عرفة واتهمت به الإمام أبا بكر .

ونجحت المؤامرة في اغتيال ابن عرفة كما خططته نجاحاً كاملاً . كما أن أشاعة إلقاء التهمة على أبي بكر لقيت رواجاً كبيراً . فصدقها البعض

وأحب البعض تصديقها ووقفت مجموعات من الناس على الحياد لم يصدقوا ولم يكذبوا وكذبت جماعة كبيرة تلك الأشاعة فوقفت إلى جانب أبي بكر .

ومع ذلك فإن الغاية التي سعت إليها المؤامرة قد تحققت . فقد وقع الخلاف وانقسمت الأمة على نفسها ، وأصبح البعض منها يستعد لضرب البعض . بل يبدو أن المؤامرة قد نجحت أكثر مما كان يطمع فيه مدبروها . وبالرجوع إلى ابن الصغير يتضح ذلك . اقرأ إن شئت قوله :

« ثم جلسوا حلقاً يذكرون أمرهم إلى أن بعث رجل يعرف بمحمود بن الوليد رجلاً من خاصته يتعرفون أحوال الناس وما هم عليه . فرجعت رسالته إليه فقالت له : قد حمى الوطيس ، وإنما ينتظرون محرماً ، فصعد إلى أعلى موضع المدينة يعرف بالكنيسة فضرب الطبل فبادر الناس إليه وأمرهم بأخذ السلاح والزحف إلى أبي بكر » .

ومفهوم من هذه الصورة التي نقلناها عن ابن الصغير وعن صور أخرى وردت موزعة في الكتاب أن منظمي المؤامرة قد استعدوا لها استعداداً دقيقاً . وحسبوا لنتائجها كل حساب ، فهم بعد اغتيال ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر ، كانوا يخشون أن تنفض المؤامرة وتعرف الحقيقة كما أنهم كانوا يخشون أن لا يجدوا الغضب السكافي على أبي بكر والنقمة عليه . ولذلك فقد انبثوا بين الصفوف واندسوا في المجتمعات وتوزعوا في المجالس . يؤججون النار ويبثون الحماس ضد أبي بكر ويشحنون النفوس سخطاً عليه . فلما علموا أن النار قد اشتعلت وأن نفوساً تهيأت وأن الفتنة فتحت أبوابها تدعو إلى من يخوضها ظهروا على السطح وانكشفوا للناس وبادروا إلى قيادة الجماهير للدخول في حرب تراق فيه الدماء وبتعد الناس

بعضهم عن بعض وتموت فكرة الصلح والإصلاح في مهدها . فضربوا الطبول وجمعوا الحاقدين وهجموا على أبي بكر .

أما أبو بكر فقد وجهت إليه - في الحقيقة على حال غفلة - طعنتان حادثان سببتا له شيئاً من الارتباك والذهول في أول الأمر ثم تغاب على ذلك ووقف موقفه الذي يحتمه الوضع من غير أن يكون له في ذلك اختيار :

الطعنة الأولى : هي اغتيال ابن عرفة وهو كما يعرف الفارسي الكرمي صديق قديم ثم هو أخو زوجته وزوج أخته ومهما يثر بينهما من خلاف فإنه لا يصل إلى استباحة الدم ، ولا ينحدر بالكريم إلى وهدة تدبير المؤامرة والاضغتيال ويبدو أنه أصيب بنوع من الذهول عندما سمع لأول مرة باغتيال ابن عرفة فلم تصدر عنه أية حركة لامن حيث الاستعداد لرد الفعل ولامن حيث البحث والتحري . ولعله كان يفكر فيما بينه وبين نفسه من عساه يقدم على اغتيال ابن عرفة وهو رجل محبوب لا ينقم عليه أحد . وقبل أن يستفيق أبو بكر من الذهول والحيرة والارتباك فاجأته المؤامرة بالطعنة الثانية وكانت أكثر إيلاماً وأشد إيذاء من الأولى وأبعد من أن تخطر على بال إنسان وهكذا لم يستفق من حيرته ؛ جاءت الأنباء تنهيه باغتيال ابن عرفة وتلقى عليه اللوم وتطالب بالثأر منه ذلك أن المؤامرة في الواقع إنما كانت تستهدف أبا بكر والدولة الرسومية ولم يكن ابن عرفة مقصوداً لذاته وإنما كان الضحية المناسبة التي اختارتها المؤامرة لتحقيق أهدافها .

فلما بلغ خبر الاتهام أبا بكر بدأ يستفيق ويدرك موقفه الحرج وبدأ يفكر في الخطوة التي ينبغي له أن يخطوها ولكن المؤامرة سارت إلى تحقيق نتائجها بأسرع مما كان يتوقع أبو بكر وبقية الناس ، وقبل أن يحضر العقل الواعي والتفكير القويم .

فشغلت الناس بإشغال الفتنة وإعلان الحرب والمهجوم على أبي بكر وقد استعد أبو بكر لذلك الهجوم وردده .

لقد نال أبو بكر من اغتيال ابن عرفة وتآلم أكثر من ذلك من نسبة الاغتيال إليه ولا شك أن هذه التهمة قد سببت له حرجاً كثيراً مع أهله فتخرج موقفه مع زوجته وأم أولاده ، وتخرج موقفه مع أخته زوجة ابن عرفة ، وأم أولاده ، وظهر في صورة مجرم في نظر أولاده حيث يرونه متآمراً باغتيال خالهم ، كما تظهره المؤامرة في موقف خال مجرم يتآمر على اغتيال أبيهم فهو بالنسبة للأسرتين أب يغتال خال أولاده وخال يغتال أب أبناء أخته كما أن زوجته ترى فيه قاتل أخيها وأن أخته ترى فيه قاتل زوجها ، وكل هذه الصور تقع منه دون مبرر معقول .

وصبر أبو بكر على آلامه وجروحه - ولعل من أشدها على نفسه شك أبي اليقظان ونفوسة فيه حتى اعتزلوه - حتى خيب آمال دعاة الفتنة ومدبري المؤامرة ، فلما جاء المخلصون يطلبون منه اعتزال الإمامة لتوضع في أيدي أمينة ترعى أمانة الله في عبادته سارع إلى التخلي عنها غير آسف عليها واعتزل لنفسه وعاش بقية عمره معتزلاً لدنيا الناس وضجيجها فلم يعرف عنه خير .

من القاتل ؟

لاشك أن المصادر التي استقى منها ابن الصغير - وهي شفوية متحيزة - والمصادر التي استقت من ابن الصغير إنما توجه تهمة تدبير مؤامرة اغتيال ابن عرفة إلى أقارب أبي بكر وإلى أبي اليقظان خاصة أما تهمة تنفيذ المؤامرة والقيام بالاغتيال فهي تنسبها إلى أبي بكر نفسه . وهي لتبرير هذه التهمة تخلق الأسباب والمبررات التي تجعل نسبة هذه الجريمة إلى الإمامين العظيمين ربما تقبلها بعض العقول وراحت تنسج خيوطاً مأخوذة من خيوط قصة نكبة البرامكة على يد الرشيد مع فوارق طفيفة .

وفي هذا الفصل أود أن أناقش مع القارئ الكريم موضوع المؤامرة فن نهم بتنفيذها ؟ .

إنني أيضاً أريد أن اعتمد على ابن الصغير في هذا الموضوع وسوف أناقشه بملابساته وظروفه ومنطقية الأحداث وطبيعة وقوعها ، والقارئ الكريم عندما يقرأ ما كتبه ابن الصغير عن تلك الفترة لا يمكنه من أول وهلة إلا أن يجعل في قفص الاتهام مجموعة من الأفراد ومجموعة من التكتلات . وتقتضى طبيعة المناقشة أن أسلك هذا المسلك فأضع في قفص الاتهام مجموعة من التكتلات التي بدا لها ارتباط بالوقائع ومجموعة من الأشخاص الذين ورد ذكر أسمائهم وبعض تصرفاتهم في تلك الفترة المحرجة .

ونستطيع حسبما ورد في رسالة ابن الصغير أن نستحضر الأسماء التي ذكرت حينئذ ونسب إليها نوع من التصرف في فترة إمارة أبي بكر وهي :

١ - عبد العزيز بن الأوز .

٢ - محمود بن الوليد .

٣ - خلف الخادم .

٤ - أبو محمد الصيرفي .

٥ - ابن الواسطي .

٦ - ابن وردة .

٧ - محمد بن مسالة .

يضاف إلى هذا الكشف بالطبيعة ثلاثة أسماء هي أبو اليقظان وأبو بكر وابن عرفة . أما بالنسبة للتكتلات والأحزاب حسبما ورد في رسالة ابن الصغير فنستطيع أن نذكر ما يلي :

١ - الرستمية .

٢ - الجند .

٣ - العجم

٤ - العرب .

٥ - نفوسة

فأى حزب من هذه الأحزاب أو تكتل من هذه التكتلات كان يعمل لهذه المؤامرة وأى زعيم من أولئك الزعماء كان يخطط لها ؟ وينظمها في الخفاء ؟ ويقودها إلى نتائجها التي يقدرها ؟ ولأى حزب من هذه الأحزاب يعمل ؟ .

حسب النتائج التي وصلت إليها بعد الدراسة والبحث ومناقشة الأحداث

ومثارتها بالنظر إلى الظروف العامة لتلك الفترة القصيرة رأيت أنه ينبغي استبعاد بعض الأسماء من الأول وهم :

١ - ابن عرفة . فلا داعى لسكى تهمه بأنه قتل نفسه أو انتحار لأنه لا يوجد لدينا أى باعث له على ذلك ثم إن الموضوع الذى قتل فيه غير المكان الذى وجد فيه وهذا وحده يكفى لإبعاد تهمة الانتحار من الموضوع .

٢ - أبو بكر وأبو اليقظان . وقد أوضحت فى الفصول السابقة الأسباب التى تدعو إلى إبعاد التهمة عنهما .

٣ - عبد العزيز بن الأوز . هذا رجل رفع صوته بالمعارضة والإنكار فى أول البيعة ثم سكت بعد ذلك . يصف ابن الصغير هذا الرجل فيقول : « له فقه بارع وله رحلة نحو المشرق ولكنه سفيف اللسان خفيف العقل ، ينزهون مجالسهم عن حضوره ويستغنون عنه فى معضلات مسائلهم » . ورجل هذه صفاته لا يستطيع أن يدبر مؤامرة ولا أن يقوم بتنفيذها ولا أن يكتم أسرارها إذا علم بها ولذلك فقد استبعدته .

٤ - الصيرفى والواسطى . وهما تاجران غنيان صاحبا أموال وقد زادا من هيب الفتنة بعد أن وقعت . واقترحا على الجند والعرب بناء حصن ، وتعهدا بالنفقات اللازمة ، ويبدو أن دورهما فى الموضوع لا يتجاوز الاستحسان والتشجيع ، وأغلب هذا النوع من الناس يتصفون بالإحجام والتردد وعدم الإقدام على أعمال خطيرة قد تؤدى إلى فقدان الثروة وانعدام الراحة .

٥ - محمد بن مسالة . وهو رجل له مركز ، وله مال ، وله معجبون لم يرد ذكره قبل أو إبان اشتعال الفتنة ، فلما وقعت المعارك بين أبى بكر

وأصحاب الفتنة ولزم أبو بكر داره لا يأمر ولا ينهى دخل محمد بن مسالة إلى المدينة وخيل إليه أنه ربما اختاره الناس للحكم ولا يتجاسر هو إلى أن يدع إلى ذلك وإنما اكتفى بإصدار بعض الأوامر والنواهي فلما تنازل أبو بكر ودعا الناس إلى أبي اليقظان تاركاً قليلاً ثم استجاب ودخل فيما دخل فيه الناس، ولو كان لهذا الرجل ضلع في المؤامرة لما فرط في نقائجها بهذه السهولة. وهكذا لا يبقى بين أيدينا في قفص الاتهام غير ثلاثة أشخاص هم: خلف الخادم، وابن وردة، ومحمود بن الوليد.

٦ - خلف الخادم. قال عنه ابن الصغير ما يأتي: «وكان قد قبض العرب مولى من موالى الأغلب يقال له خلف الخادم، وكان له أموال عظيمة فأعان القوم بنفسه وماله.» ويقول بعد أسطر: «وكانت العرب والجند إذا غلبت على العجم أخرجتها من بعض ديارها في حالها، فقال لهم خلف الخادم: وما تصنعون شيئاً. إذا غلبتم على شيء من ديارهم فأضرموه ناراً.»

هذه الأسطر القليلة تكشف عن أخلاق هذا الرجل وغلظ طبعه وموت حسه، وما درب عليه من محبة القتل والتخريب، مثل هذا الرجل يمكن الاستعانة به في جريمة تقترب؛ إذ ليس له دين يحجزه وليس له خلق يعصمه وليس له كرامة يصونها ويقدها فهو من الذين يفرحون للفتن وما تجره من ويلات ونكبات ويسر للحرب وما تجره من تخريب ودمار ويشفي شيئاً من ذليل حقه أن يرى الدماء البشرية تسيل ثم هو من ناحية أخرى قد يستفيد مما يسرقه أو يسلبه أو يغنمه في هذه الأحوال.

وأمثال هذا الرجل - في نظري - ليس له تلك العقلية التي تستطيع أن تحكم تدبير المؤامرة وتخطيطها بدقة ولكنه قد يفرح أن يكون آلة تستخدم

في هذه الأغراض وقد يحرص على تنفيذ ما يكلف به في هذا المجال بدقة وإتقان وأنا لا أستبعد مطلقاً أن يكون للرجل ضلع كبير في تنفيذها لا في تخطيطها . فليس من الصعب عليه أن يفعل خلوة بابن عرفة ثم يجهز عليه ويتم بقية العملية كما وصفت تاركاً آثار الدم عمداً حسبما خطط له لتوجه الشبهة إلى أبي بكر بدلاً منه .

٧ - ابن وردة . وهو حسب ما جاء في رسالة ابن الصغير رجل من العجم له مال وجاه شجاع قوى ، ولا يستبعد من مثله أن يتآمر وأن يستغل الفتن أو أن يسرق نتائجها ، والصورة الواضحة في ذهني عن هذا الرجل أنه لم يكن من مدبري المؤامرة ولكنه فرح بوقوعها واجتهد في أن يزيد من هههها ليستغلها كما قدر لنفسه لاسيما وقد ذكر ابن الصغير أن العجم - وهو أحد قادتهم - كانوا وقفوا على الحياد فلما وقعت الحرب وقدروا أن الفريقين معاً قد ضعفا هجموا على أساس أن يتضوا على فريق أبي بكر وفريق محمود بن الوليد لينحصر لهم الأمر كما قال ابن الصغير وإليك كلمة ابن الصغير في تصويره لمحاولة العجم بسرقة نتائج المؤامرة : قال « فلما رأيت العجم ما نزل بين الفريقين من السباب والقتل قالوا قد أمكننا في العرب والجنود ومواليهم وأتباعهم ما نريد فقدموا بنا مع أشقناهم بأنفسهم حتى ثاب على طرف المدينة فبقتل مقاتلهم ونحرب ديارهم ونميل على سائرهم فتهاكهم فيصغوا لنا البلد والسلطان ، وقد وقع بينهم وبين سلطان البلد من الفتق ما لا يرتق أبداً » .

٨ - محمود بن الوليد . لمعرفة دور هذا الرجل ينبغي أن نعود إلى ابن الصغير لننقل عنه الصورة الآتية : قال ابن الصغير : « ثم جلسوا حلقاً حلقاً يذكرون أمرهم إلى أن بعث رجل يعرف بمحمود بن الوليد رجلاً من خاصته يتعرفون

أحوال الناس ، وما هم عليه ، فرجعت رسله إليه وقالت قد حمى الوطيس ،
وإنما ينتظرون محركا ، فصمد إلى أعلى موضع المدينة يعرف بالكنيسة فضرب
الطبل فبادر الناس إليه ، وأمرهم بأخذ السلاح والزحف إلى أبي بكر .

هذه الصورة الصغيرة التي وضعها ابن الصغير لأحداث تلك الفتنة
تكشف الأيدي التي خططت للمؤامرة واستغلتها أسوأ استغلال ، ولو أراد
التارىء أن يحمّل الأحداث لانتضح له ما يلي :

كانت هبالك رأس مدبرة مستترة لأحداث تلك المؤامرة ولا يبعد
أن تكون تلك الرأس هي محمود بن الوليد ، محمود بن الوليد رجل ذكي
طموح يتوود إلى ابن عرفة ويخدمه ويعمل على توسيع شقة الخلاف بينه وبين
أبي بكر بما يسكبه في أذنه من أنه خلق للإمارة والزعامة وأنه لولا جور
الزمان لكان بالإمامة أولى وأحق . وعندما اشتد الخلاف بين أبي بكر
وابن عرفة كان حريصاً على أن يشتد حتى تنفصم العرى ، ربما كان يأمل
أن ينتصر ابن عرفة في حركة عنف فيكون هو إلى جانبه وربما كان يمني
نفسه بمنصب كبيرة ، فلما تحرك الناس للمصالحة بين أبي بكر وابن عرفة
وبدأت الاجتماعات خشى من انفاق الكلمة ورأى في ذلك انهيار لكل
ما بناه وتكديباً لكل ما قام به ، ففكر بسرعة وعرف كيف يكيد كيداً
يستحيل بعده أن تتفق الكلمة وهكذا دبر اغتيال ابن عرفة في سر وألقى
التهمة على أبي بكر وضرب الرجلين بحجر واحد . وانطلقت المكيدة على
الناس . وكان في قرارة نفسه حتى بعد تنفيذ الاغتيال يخشى فشل الخطة
وافتضح الأمر ، وانكشف القائلين بتنفيذ المؤامرة كما كان يخشى أن
لا يصدق الناس أن أبا بكر ينحدر إلى هذه الوهدة ويرتكب هذه الجريمة
التي هو في غنى عنها ، وقد بقي محمود بن الوليد مستتراً خفياً وكان أصحابه

منبئين في الناس يستعظمون الجريمة ويشحنون نفوس الناس بالغضب والحقد
ويعدونهم للمطالبة بأخذ الثأر . ولم يظهر إلى الميدان إلا بعد أن بعث أعوانه
سراً ينظرون أمر الناس فلما رجع الأعوان وأكدوا له أن الحيلة قد انطلت
وأن المكيدة نجحت وأن الناس في دياج عظيم وأنهم لا ينتظرون إلا رأساً
للفتنة تقودها ، وثب بأسرع ما يمكن وتولى قيادة الجماهير الغاضبة فذهب
إلى أعلى مكان بالمدينة ، وضرب الطبل ثم أمر الجموع بالتسلح والهجوم على
أبي بكر فظهر على حقيقته زعيماً للفتنة ، هكذا تولى القيادة بعد أن تأكد أن
تخطيطاته نجحت وأنه أصبح الشخصية الأولى في الميدان ، فابن عرفة الذي كان
يجبه قد قتل ، وأبو بكر لا يلبث أن يُقتل ، وهو قد تولى الزعامة يأمر وينهى
فيطاع ، ولم يكن يدور في خلدّه أبداً أن أبا بكر بعد هذا كله سوف يصمد
ويرد عنه بعنف ويغلق أمامه السبيل للوصول إلى كرسي الحكم والإمارة .

كان محمود حسماً يبدو متصفاً بالدهاء ودقة التدبير ، وكان يوجه غيره
للعمل ولا يحب أن يظهر إلا حينما يتأكد من نجاح ظهوره تأكداً كاملاً .
أما خلف الخادم وقد عاش فترة من عمره جندياً فقيه من شجاعة الجنود وتهورهم
واندفاعهم الشيء الكثير ، وهذا ما يحتاجه محمود ولذلك فقد دعا إليه خلف
ثم نفخ في أذنه وكال له المديح والإطراء ولوح له ببعض المناصب والوعود
المعسولة ثم ألقى إليه بتخطيط المؤامرة وطلب منه تنفيذها في حرص واحتراس
عظيمين ، ولم يكن ذلك عسيراً عليه فإن العلاقة بينهم وبين ابن عرفة كانت
وطيدة يسهل معها جره إلى أي مكان بأي دعوة . وضورة الحادثة في ذهني
حينما علم بالجهود التي تبذل بين أبي بكر وابن عرفة خاف أن يصطليح الرجلان
فدبر لاغتيال ابن عرفة وإلقاء التهمة على أبي بكر ثم استعان على التنفيذ

بخلف الخادم أو بغيره أو به وبغيره وعندما أخبره القائم بالاغتيال بإتمام المهمة أوفد إلى قصر ابن عرفة أن سيد القصر ذهب في ذلك اليوم إلى الإمام ، وأن ابطاءه وعدم عودته أمر يثير الاهتمام والقلق . واستطاعوا فعلاً أن يشحنوا نفوس أهل القصر بالقلق والخوف ، وهكذا ذهبوا يسألون فلم يجدوا جواباً ، وفي الصباح استطاعوا أن يملأوا النفوس بالشك والريبة في الإمام ، ثم جعلوا يبحثون عنه كما لو كان طفلاً صغيراً . وتعاون الجميع على البحث وكان القتلة قد مهدوا الطريق فتركوا آثاراً واضحة تدل على الجريمة ولربما قادوا الناس إلى اقتفاء تلك الآثار دون وعى أو شعور من الناس حتى . أوصلوهم إلى مكان الجثة وأذاعوا أن أبا بكر هو الذي فعل هذا . واقتنعت تلك الجماهير التي تشترك في هذه التمثيلية ، والجماهير حين تغضب تفقد التفكير السليم والمنطق القويم والسيطرة على المشاعر .

أما موقف أبي بكر من هذه الحادثة فقد كان فيما يبدو كما يلي :

جاءه بعض أهل ابن عرفة يسألونه عنه فأجابهم بأنه ليس معه ولم يهتم للموضوع فإن غياب رجل عن بيته يوماً أو ليلة ولا سيما عندما يكون الرجل ذا أعمال كثيرة موزعة ، وأصدقاء مخلصين في كل مكان ومحبة في كل قلب ، فإن غياب هذا الرجل لا يستدعي القلق ولا يبعث على البحث والشك . إن هذه الليلة ليست أول ليلة يغيب فيها ابن عرفة عن بيته وقد كان يختار للوفادة إلى الأقاليم منذ زمان أفلح . وفي الصباح انبهت الناس يبحثون عنه كما لو كان طفلاً صغيراً ، وربما كان أبو بكر يعجب لتصرفهم هذا ، ويسخر في نفسه منهم ، ولم يلبث أن سمع بالنكبة وبلغته الأخبار بأن ابن عرفة وجد مقتولاً فتولته الدهشة ، وقبل أن يستفيق وصلته أنباء أخرى

تلقى عليه شهمة اغتيال ابن عرفة ، وكانت دهشة أخرى وحيرة . وقبل أن يستفيق من المفاجأة الثانية سمع الطبول تفرع ثم علم أن الجموع الهادرة الساخطة مقدمة عليه تريد رأسه . فوثب إلى سلاحه وانضم إليه بعض من كان قريباً ووقعت المعركة الأولى فثبت فيها أبو بكر ولم يستطع محمود ابن الوليد أن يحقق شيئاً وتكررت الوقائع ولكن أبا بكر ثبت مع القلة الذين وقفوا معه وبرغم أن المكيدة انطلقت على أغلب الناس حتى أبي اليقظان فاعتزلوه . لا شك أن كل فرد من الأفراد الذين وجهنا إليهم التهمة في أول هذا الفصل إنما كان يعمل لإحدى التكتلات أو الأحزاب التي ذكرناها سابقاً ، أو أن كل واحد منهم إنما كان يمثل جهة معينة .

فن أي التكتلات كان محمود بن الوليد وخلف الخادم ؟ أما خلف الخادم فقد كان من الجند بلا شك وقد صرح بذلك ابن الصغير فلا داعي لمزيد من البحث . أما محمود فإن المصادر التي بين أيدينا لم تصرح من أي التكتلات هو ، ولذلك فلا مناص من الاستنتاج .

لا شك أن محمود ليس من الرسمية وإلا لما قام بعمله ذلك ، وليس من نفوسة لأن نفوسة قد اعتزلت الفتنة فلم تشارك فيها إلا أخيراً حين أضرم أتباع محمود وخلف النار في منازلهم ، وليس من العجم لأن العجم وقفوا موقف المتفرج عندما قاد محمود الجاهدين إلى قتال أبي بكر في الهجمة الأولى ، وعندما كان ملتجئاً في المعركة كان العجم ينظرون إلى أقوى الفريقين حتى ينقضوا عليه من الخلف ليسحقوها معاً ويخلو لهم المكان ، فلم يبق إذن إلا أن يكون من العرب أو الجند . واشتراك العرب والجند في المعارك وتأزرهم في جميع المواقف يدل على أن محموداً كان من العرب وأن خلفاً كان من الجند

فاشترك الرجلان في عمل واحد وكونت الطائفتان تكتلاً واحداً يشبه أن يكون حزباً وقد بقي هذا الحزب يعمل أولاً بأسلوب العنف حتى فشل فلما فشل بطريقة العنف استمر يعمل بالوسائل الأخرى ، وقد انقضى عهد أبي بكر ثم جاء عهد أبي اليقظان ودام نحو أربعين سنة وكان هذا الحزب لا يزال يعمل ولما جاء أبو حاتم نشط الحزب أيضاً وكان يعمل بمجد وحرص. ويكفي للدلالة على هذا أن تقتطف من ابن الصغير ما يلي :

« وكان مشايخ البلد من غير الإباضية قد استولوا عليه - أي أبي حاتم - منهم رجل يعرف بأبي مسعود وكان كوفياً فقيهاً بمذاهب الكوفيين ومنهم شيخ يعرف بأبي دنون وكان على مثل صاحبه من الفقه الكوفي ومنهم رجل يعرف بعنوان بن علوان ولم يكن من أهل الفقه ولكن كانت له رئاسة في البلد ومحبة عند العوام وكانوا هؤلاء قد طمعوا أن يبيدوا خبر الإباضية ويطفئوهم ». ولا شك أن ابن الصغير وهو المؤرخ الأمين قد أخذ كثيراً من الأخبار عن أفراد من هذا الحزب أو التكتل وقد امتد تكتله كما رأيت إلى نهاية خلافة أبي حاتم ، يستعمل أحياناً ويختفي أحياناً أخرى يعمل في ميدان المجاهبة والتحدى ، ويعمل في ميدان البحث والمناقشة والفكر. ويعمل في ميدان المؤامرة والكيد .

بقي لي أن أقول للقارئ الكريم إنني في هذا التحليل قد جارية رواية ابن الصغير واعتمدت عليها ، أما لو أردنا أن نعتمد رواية الدرجيني فإن قضية المؤامرة والاعتقال تبعد عن بيت الإمارة كما ذكر أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض - حفظه الله ورعاه - إذ أن الدرجيني يذكر أن خلافاً شديداً وقع بين أبي بكر وابن عرفة أفضى إلى مشادة وحمل سلاح ، ثم أنه وقع اغتيال ابن عرفة

من يد مجهولة . فاشتد الشقاق حتى وصل أبو اليقظان فاجتمعت عليه جميع الأطراف بعد عديد من المساعي ، ومهما كانت التحليلات فإن الذي أستبعده كل الاستبعاد أن يتهم أبو اليقظان بتدبير المؤامرة وأن يتهم أبو بكر بتبفيذها وها أقدر على قتل ابن عرفة إذا استحققت القتل شرعاً وأنزه وألطف من أن يلوثا أيديهما بدماء بريئة . والله أعلم بحقيقة الوقائع ، ولا يعلم الغيب إلا الله . وإني أستغفر الله تعالى إن كان اجتهادي خطأ ، فما بحثت إلا عن الحقيقة وما أردت إلا الصواب والتوفيق من الله تبارك وتعالى .

الباب الثاني

صور عن :

شخصيات

عزى القارىء :

فى هذا الباب أحاول أن أعرض عليك عدداً من الشخصيات دون اختيار . ذلك أنه يستحيل على أن أتحدث فى هذا المجال عن كل من يستحق الحديث أو كل من ينبغى عنه الحديث ، وكتب السيرة حفظت لنا مئات الشخصيات العظيمة التى تستحق كل واحدة منها دراسة وافية . ولقد أغضت عيني وأخذت أسماء من السيرة كيفما اتفق لى ودون مراعاة للعصر ولا للترتبة ولا للإنتاج ولا للبلد ، وقد بقى من علماء هذه المنطقة التى أكتب عنها أعلام لهم مركز ومقام لم أنحدث عنهم ؛ لعل من أقربهم إلى ذهن القارىء أمثال أبى العباس أحمد بن محمد الذى تعتبر كتبه من أهم المراجع فى الفقه الإباضى ، وتبغورين الملسوطى الذى يعتبر كتابه فى علم الكلام أهم مرجع ، وعليه يعتمد المؤلفون من بعد ، وغيرها كثير ممن كانت لهم كتب ومؤلفات أو ممن لم يتركوا مؤلفات ولكن دونت أقوالهم وأبحاثهم ورسائلهم من مؤلفات غيرهم ، ومن لم يشغل بتأليف الكتب ولكنه اشغل بتأليف الرجال فكون أجيالاً ، وقد كان لبعضهم جموع من الطلبة تتحرك معه

كأنها الجيوش وكان منهم من يقوم في المجتمعات الإباضية مقام الإمام يأمر
بالمعروف وينهى عن المنكر ، و يقيم الحدود ويرد عدوان المعتدين حتى
بالعنف ، ولكن هذا المجال لا يتسع لغير ما قدمنا وعمى أبناءنا البررة أن
يسدوا ، ولو من بعدنا هذا القراع ، ويرمون هذا البناء ، ويعيدون ذلك
الصرح العظيم على قواعد الصلابة يشع منه النور والمعرفة والهداية .

عاصم السدراتي^(١)

نشأ عاصم في قبيلة سدراته . وكان يقنقل معها بين جبال أوراس تارة في الشمال وتارة في الجنوب ، نشب قوى البنية ، قويم الخلق نسليم النفس ذكي الغواد ، مع شيء من حدة الطبع ، وصلابة الإرادة ، وقوة العزم في تصميم وإقدام .

قرأ القرآن الكريم وعرف مبادئ الإسلام القويمة ، وحضر مجالس العلم وكان يصغى إلى رجال العلم في الدين ، وهم يتحدثون عما يدعو إليه الإسلام ويطالب المسلمين بالاستمسك به ، وإلى ما زاعغ به ناس جرفتهم مطامع الحياة فكان يتحرق شوقاً إلى مزيد من المعرفة ، ولكن الأحوال التي كانت عليها بلاد الجزائر في ذلك الحين ، وما كانت عليه من ثورات وحروب كانت تثور كل يوم في كل جهة ، كانت تحول دون استقرار الشباب في الدراسة ، ولذلك فقد كان عاصم يتألم في صمت لحرمانه ، ويتأسف في أسى لوجوده في تلك الظروف المتقلبة . فلما بلغه ما يدعو إليه سلمة بن سعد ، وما تزددان به المساجد ودور العلم في البصرة من بلاد العراق صمم على السفر ، وكان وهو يعد نفسه يلتمس الرفيق والزميل حتى بلغه خبر ثلاثة فتيان كانوا قد عزموا على مثل ما عزم عليه فاستبشر بذلك وقرّر أن ينضم إليهم .

وتكونت بعثة علمية من أربعة طلاب نجباء سافروا من المغرب الإسلامي

(١) من علماء القرن الثاني ذكره الباروني في الطبقة الثالثة .

إلى المشرق الإسلامي ، ليعتروا العلم من منابعه ، ويأخذوا أصول الدين وفروعه عن أساتذته .

قضى عاصم خمس سنوات في الدراسة في معاهد البصرة ، يستمع إلى من وجد من كبار التابعين وتابعي التابعين ، ويحضر مجالسهم . أما أستاذه الذي درس عليه باستمرار ، واقتبس دينه وخلقه منه ، وتكونت شخصيته على يديه فهو الإمام أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة . وفي البصرة ربطت أواصر الصداقة بين الطلاب الأفارقة الأربعة ثم أضافت إليهم طالبا آخر جاء إلى البصرة من عمان لمثل ما جاءوا إليه هو الإمام أبو الخطاب عبد الأعلى ابن السمح المعافري وتعاهد الرفاق الخمسة أن يكون متجههم واحداً أينما ساروا بعد التخرج . فلما أذن لهم شيخهم بالرجوع إلى أهلهم وأوطانهم لتفقيه أقوامهم ودعوتهم إلى الاستمسك بدين الله . اختاروا بالإجماع أن تكون ليبيا نقطة انطلاق نشاطهم وكان استقرارهم باديء الأمر في طرابلس .

اختار عاصم أن لا يتقيد بمسئولية وظيف في إمامة زميله أبي الخطاب ، وإنما كان يختار لنفسه المجال الحر ، وكان رفاقه يحترمونه ويحبونه ، ويستجيبون لرغباته فلما شغل أبو الخطاب بالإمامة ، وشغل عبد الرحمن بالولاية ، وشغل أبو درار بالقضاء ، وشغل أبو داود بالتدريس ، كان الموقف يحتم على عاصم أن يشتغل بالدعوة في مجال حر غير متقيد ولا مرتبط بمكان . وقد اشتغل عاصم بهذا العمل فكان يتنقل بين المدن والقرى والأحياء الضاربة في الصحراء ترود السكالك بمواشيها ، وتنجع الخصب لأنعامها . يلقي الموعدة الحسنة ويحل المشكلة الناجمة ، ويفصل الخصومة الماثرة بالحكمة والرأي السديد . كانت الخطة التي رسمها لنفسه في عمله الحر

أن يركب ناقته ويتنقل بين الأحياء يضرب في البیداء ، يعلم الناس في مضاربهم ويبين لهم ما يجهلونه من أحكام الدين المتعلقة بهم ، لا سيما أولئك الذين يعيشون عيشة البداوة ولقد اختار أن يشق طريقه من طرابلس على سهل الجفارة ثم يصعد على الجبل يسير معه حتى يبلغ تيفيث قرب نالوت فيقيم هناك أياماً ثم يرتحل على طريق تيفست ثم درج ثم غدامس ، ومن هناك يتجه غرباً ماراً بالقبائل الضاربة في البادية حتى يبلغ مواطن سدراته في جبال أوراس . وقيم هناك ما يقيم ثم يعود أدراجه مع نفس الطريق ماراً بالأحياء الضاربة في الصحراء ، يقيل هنا ويبيت هناك ، فيتجمع عليه الناس للسؤال والاستفتاء ، وقد اتخذ في طريقه هذا عدة مصليات كان يقيم فيها أياماً يلقي دروس الوعظ والإرشاد بل ودروس التوجيه والتعليم . أما اختياره لتلك المصليات التي كان يقيم فيها آخذاً لنفسه قسطاً من الراحة فقد كان ينبني على كثرة السكان فيهما وجد كثافة من السكان ورغبة في المعرفة أقام المدة التي تتيحها ظروفه ويقتضيها قيامه بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . ولم يكن في تلك المناطق في ذلك الحين من كبار العلماء من يروى ظمأ الناس فكان يقيم أياماً يتلقى عنه الشباب دروس العلم وبقية الناس الأحكام وحلول المشاكل الدينية ، وقد عرف سكان المنطقة الواقعة بين غدامس وطرابلس عاصماً ، وعرفوا ناقته التي يركبها حتى نسجوا حولها الأقاصيص ولا تزال بعض تلك الأقاصيص تتناولها الشفاه وربما أضاف لها طول الزمن كثيراً من الخيال والخرافة .

وعرفوا مواعيد قدومه ومواعيد سفره التقريبية فكانوا ينتظرونه في المواعيد المتوقعة . ولعلك لا تجد أحداً من الجيل السابق في هذه المنطقة يجهل اسم عاصم السدراتي وناقته وبعض القصص المتعلقة به .

وقد بقيت بعض مصلياته وأما كن إقامته إلى اليوم معروفة . بينما اندثر البعض الآخر ونسى مكانه وإن كانت تجمعات طلابه المشاهير تعرف بالتقريب إلى اليوم . ومن طلابه تكونت الطبقة الأولى لكبار العلماء في الجبل أمثال أيوب بن العباس ، وأبي مرداس ، وأبي الحسن الأبدلاني ، ومحمد بن يانس ، وأبي نصر التميمي ، وأبي يونس وسيم ، وعبد الخالق الفزاني ، وكثير غيرهم . منهم من استمعوا إليه في طفولتهم كعبد الخالق وأبي يونس وسيم ، ومنهم من حضروا عليه في شبابهم . وذلك كله حين كان ينتقل بين سدراته وطرابلس عن طريق غدامس ، فلما قتل الإمام أبو الخطاب وانتقل الإمام عبد الرحمن إلى الجزائر استقر عاصم في منطقته من جبال أوراس والتف حوله هنالك جموع غفيرة من المسلمين الذين تقموا على سلوك الحكام في الجزائر .

فلما بايع الناس أبا حاتم المزوزي في ليبيا استعد عاصم لمناصرته بمن معه ولحق به في القيروان مع قوة كبيرة جاءت معه من جنوب الجزائر . وفي تلك الواقعة قتل مسنوماً في قناء كما تذكر كتب التاريخ .

بعد قتل عاصم وانتقال الإمامة إلى تاهرت في الجزائر . اعتزل الإمام أبو درار القضاء واستقر في بلده غدامس واشتغل بالتدريس فلحق به طلاب عاصم وأخذوا منه أكثر مما أخذوا عن عاصم ، وأصبحوا ينسبون علومهم إليه ويحسبون من مدرسته . أما أبو داود القبلي فقد اعتزل الحركة السياسية من أول الأمر واستقر في بلده بلقي دروس العلم . فلما قتل عاصم لحق به جمع من تلاميذ عاصم . ولحق جمع آخر بالإمام عبد الرحمن بن رستم في تاهرت . ولهذا لم يذكره الأورخون فيمن جرت عليهم نسبة الدين لأن طلابه قد

انتسبوا بعده إلى أحد الأئمة الثلاثة الذين هم أبو درار وأبو داود
وعبد الرحمن .

قال عنه أبو العباس الشماخي في السير صفحة ١٤١ ما يلي :

« ومن أئمة المغرب ومشاهير أشياخها وقادة أهلها عاصم السدراتي وكان
من حملة العلم عن أبي عبيدة مسلم ، وتقدم بعض أخباره مع أبي الخطاب
وكان من خيار من صحبه ، واشتهر موته بحصار القيروان بسم في قثاء وهو
مع أبي الخطاب كما قال أبو زكرياء^(١) أو مع أبي حاتم كما قال ابن سلام .
قال الرقيق: عسكره ستة آلاف وكان رحمه الله تعالى جمع العلم والعمل والجهاد
والحزم وشدة العزم والرأى . وحيد الدهر وفريد العصر . »

وقال الأستاذ محمد علي دبوز في تاريخ المغرب الكبير صفحة ٧٩ ما يلي :

« وكان عاصم السدراتي من قبيلة سدراته ، وكانت مواطنها بالمغرب
الآن في شمال أوراس وجنوبه ، وكان من علماء المغرب الكبار ، ومن
أهل التقوى والورع والزهد ، وكان مع هذا فارساً من فرسان المغرب ،
وقائداً حربياً من قواده المحنكين . »

ويقول بعد أسطر : « سارع بجيشه إلى أبي حاتم المزوزي الذي زحف
على القيروان فانضم إليه وكان من أعضاء أبي حاتم الكبار ومن قواده
العظام ومن ذوى الرأى والحماس . »

(١) لاشك أن أبا زكرياء ، واهم فأغلب مصادر التاريخ تذكر وقوف عاصم مع أبي حاتم
ولو قتل مع أبي الخطاب لما ذكر بل إن بعض كتب التاريخ تذكر جميع مواقفه بدقة وعدد
جيوشه في كل حركة من حركاته مما يدل على صحة ما قاله ابن سلام .

صقر فارس (١)

عبد الرحمن بن رستم الفارسي . هو رجل حقيق بأن يكتب عنه الكتّابون ويرسمه الرسامون ، ويترجم له المترجمون ، إنه شخصية من الشخصيات التي يندر وجودها في التاريخ وإذا اتيح لعصر من العصور مثل هذه الشخصية كان ذلك طابعاً مميزاً لذلك العصر ، وسمة واضحة له .

إنني ما ذكرت عبد الرحمن بن رستم إلا وذكرت بطلاً آخر يشبهه في بعض المواقف والوجوه لا في كلها . ذلك هو عبد الرحمن الداخل صقر قريش . على أن صقر قريش قد وجد من غناية التاريخ واحتفال الكتّاب به ، ما رسم حوله هالة من المجد والعظمة والفخار . ووجد صقر فارس من اهل التاريخ وحقد المؤرخين والكتّاب عليه وانصرفهم إلى طمس مزاياه وأخباره ما كان حرياً أن يخرج من حيز الوجود ويطمس آثاره من واقع الحياة .

عندما تغلب بنو العباس على بني أمية ، وانزعوا كراسي الحكم منهم ، ثم أصبحوا يتبعونهم ، ويطاردونهم ويضيقون عليهم . هرب عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس كما هرب كثير من الأمويين . وكان بها من أتباع بني أمية عدد كبير . كما أن العصبية القبلية كانت هناك مستعرة مستحكمة . وقبل أن يدخل عبد الرحمن إلى الأندلس بعث مولاه بدرأ ينظر له الأمر ويمهد له الجو ، ويدعو إليه وجوه الناس وأعيانهم

(١) من أئمة القرن الثاني ذكره الباروني في الطبقة الرابعة وتقدم بهض الحديث عنه في كتاب (الإباضية في تونس) وتحدثت عنه أغلب كتب التاريخ العام .

ويعد ويمنى . فلما اطمأن إلى نتيجة الحركة وبلغته الأخبار المشجعة دخل إلى الأندلس فوجد الأمر مهياً والحال مساعداً . فبويغ بالخلافة ثم حارب مخالفه حتى انتصر عليهم ودانت له الأندلس .

فبعد الرحمن الداخل شخصية لامعة من شخصيات الدولة وهو من أسرة تولت الحكم لمدة قرن من الزمان ولا يزال كثير من الناس يحن إلى حكمها . ويود لو يعود إليها الأمر والسلطان ثم إنه كما ذكرنا قد مهد الأمر بإرسال موله بدر الذى اتصل بأنصار الأمويين فوطأوا له الأكناف ، ومهدوا له السبل ، وأتاحوا له الفرصة ، فلما وصل وجد البيعة تنتظره ، وباب الإمارة مفتوحاً فبويغ ، ثم إنه استعمل السيف حتى أسكت الألسنة المعارضة . لقد كانت جميع الظروف مساعدة ، وكان الجو ملائماً ، وكانت طبيعة الوضع في الأندلس تنتظر من يدق الباب ، ومع ذلك فقد اعتبر من أبطال التاريخ وسى صقر قريش لأنه حين خرج خرج طريداً شريداً وحيداً ليس معه إلا خادمه بدر هذا . وهو صديقه المخلص على الأصح وبعض الخدم أفضل وأصدق من الأقرباء .

هذا هو الإطار العام للقسم الأول من صورة البطولة التي من أجلها أطلق على عبد الرحمن الداخل لقب صقر قريش .

أما عبد الرحمن بن رستم فقد كان أبوه من موالى الفرس وهو أعجمى ومات أبوه وتركه يتيماً . صغيراً فقيراً يتبع أمه في موسم الحج وارتحل مع أمه إلى القيروان حيث نشأ تحت كفالة زوج أمه في وطن غير وطنه وبين ناس لا علاقة له بهم غير علاقة الإسلام العامة التي تربط كل مسلم بكل مسلم فاعتمد على نفسه ودرس حتى أصبح إماماً فاختره صديقه أبو الخطاب

عبد الأعلى عاملاً على القيروان . فلما تغلب العباسيون على أبي الخطاب كما تغلبوا على الأمويين وقضوا على دولته في ليبيا كما قضوا على الدولة الأموية وتغلبوا على البلاد التابعة له من البلاد التونسية كانت القيروان ضمن البلدان التي تغلبوا عليها ، وفر عبد الرحمن بن رستم منها مع ولده وخادمه فقط حتى بلغ أواسط الجزائر فاستقر في جبل سونجج . وطورد هناك وحوصر في ذلك الجبل المنيع فترة من الزمن حتى استطاع أن يؤثر على الناس بخلقه ودينه وأن يثقوا فيه ثم دعى إلى إقامة الإمامة في تاهرت فبويع إماماً وأقام هنالك الدولة الرستمية بعد أن جمع حوله القلوب والسيوف بفضل ما يتحلى به من كفاءات شخصية فقط . فقد بايعه الناس دون أن تمهد له عصبية فقد كان فارسياً بين عرب وبربر ، ولم تسع له قومية فإن قوميته كانت منهارة في ذلك الحين . ولم يكن عمله على حسب فقد كان حسبه القريب ولاء وعبودية ولم يدع له دعاة لسابقة حكم في عهد الإسلام فقد نشأ يتيماً في كفالة زوج أمه الذي لا يعرف الناس عنه شيئاً . ولم تسبقه دعوة لأنه خرج والمطاردون على أثره واستقبله السيوف والرماح لولا اعتصامه بالجبل المنيع .

هذا هو الإطار العام للقسم الأول من صورة البطولة التي من أجلها أطلقت أنا على عبد الرحمن بن رستم لقب صقر فارس . وهذه هي الصورة التي تجاهلها المؤرخون عن عمد فلم يظهروها بالوضوح الكافي .

أما القسم الثاني لصورة الصقرين أو البطلين فهي متشابهة كل التشابه فقد كان الرجلان متعاصرين نالتهما الأحداث من الدولة العباسية الناشئة بسبب انتماء كل واحد منهما إلى دولة سابقة فقد قر صقر قريش ولحق بالأندلس سنة ثمان وثلاثين ومائة . وفر صقر فارس من القيروان واستقر بتاهرت سنة إحدى وأربعين ومائة وتوفي صقر قريش سنة اثنتين وسبعين

ومائة وتوفي صقر فارس سنة إحدى وسبعين ومائة ، وترك الداخل دولة عظمى في الأندلس . وترك الفارسي إمامة عظمى في الجزائر . وكانت الدولة التي تركها صقر قريش تمثل الدولة العظيمة في حضارتها وازدهارها المادى ، وكانت الإمامة التي تركها صقر فارس تمثل الدولة الرشيدة التي وضع أسسها الإسلام . وكل ما هنالك من فرق أن قدم الداخل لم تثبت في الأندلس إلا بعد أن أريقت دماء وضاعت أراضى من بلاد الإسلام وأن قدم الرستمي ثبتت دون إراقة دماء ولا ضياع بلاد .

قال ابن خلدون في المجلد الرابع صفحة ٢٦٥ ما يلى :

« وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره . قوى أمر الخلاف واستفحل سلطان القوط وتجهز فرويلة بن الأذفونش ملكهم ، سار إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها ، وملكها من أيديهم » .

إننى كلما تتبعت أحداث التاريخ التي وصل بها صقر قريش إلى الخلافة . وأحداث التاريخ التي وصل بها صقر فارس إلى منصب الإمامة ، زادت في نظرى عظمة عبد الرحمن بن رستم لا سيما إذا أضفت إلى ذلك أن عبد الرحمن الداخل لم يطمئن على كرسى الإمارة إلا بعد أن أريقت دماء مسلمة زكية ، وضاعت بلاد مسلمة حبيبة ، وثار خلاف عصبي ممقوت لم يهدأ حتى قضى على الدولة الإسلامية في الأندلس بعد قرون .

وأن عبد الرحمن بن رستم رفعته الألف والقلوب إلى كرسى الإمارة . وتغلب على الخلاف بالمحبة والعدالة والسلام . وترك سيرة نقية يضرب بها المثل .

محكم الهوارى (١)

محكم الهوارى هو شخصية من الشخصيات اللامعة التي تهرب من الظهور وتتباعد عن الأضواء ، ولكن الناس يلاحقونها ويسلطون عليها أنوارهم الكاشفة . نشأ « محكم الهوارى » فى جبال أوراس الجميلة الخصبة ، وترعرع فى تلك الأودية والشعاب فى حرية أهل البادية وسماحة نفوسهم ، وصرامة طباعهم وبعدهم عن اللف والدوران والتعقيد ، وتجافيهم عن النفاق الاجتماعى والمداهنة والملق ، وقد كان محكم منذ صغره ذكياً قوياً الخلق ، فتعلم العلم ونبغ فيه ، وأنشأته أسرته المؤمنة على دين وتقوى ، فشب لا يخاف إلا الله ، ولا يرجو غير الله ، عازفاً عن الدنيا مترفعاً عن ملاذها وشهواتها ، مجافياً لعبيدها .

وقد عرفه الناس كما هو بعلمه وبخلقه وبدينه وبشدته فى الحق وتعلقه بالله فاحترموه لهذا الخلق وأحبوه من أجلها .

وإذا كان الناس اليوم - ولا سيما من درس شيئاً من العلم - يكونون أحرص من غيرهم على استثمار علمهم استثماراً مادياً يبيعون فيه الكرامة من أجل المنصب ، ويمدنون عزة النفس من أجل الثروة ، ويتخلون عن شرف العلم لشرف المهنة ، وقد يبلغ الحرص على الدنيا ببعضهم أن يفضب الله ليرضى الناس فإن أهل العلم فى ذلك الحين كانوا لا يفرحون بشيء من زخارف الدنيا ، وإذا كان العلماء اليوم يتسابقون على الحكم ويتهاشون عليه ، ويتحاربون من أجله ، وقد ينحدر بعضهم إلى الكيد والكذب فإن العلماء فى ذلك

(١) من علماء القرن الثالث الهجرى ، ذكره البارونى فى الطبقة الخامسة .

الحين كانوا يهربون منه وبفرون فرارهم من الأوبئة والأمراض . وكانوا يقولون : إذا رأيتم العالم يغشى باب السلطان فاتهموه على دينكم .

ومع أن العصر الذي عاش فيه محكم الهوارى كان مملوءاً برجال العلم والصلاح مشحوناً بذوى الدين السوى والخلق الرضى ، غاصاً بأصحاب الفهم والذكاء والألمعية ، ولا سيما تاهرت التى كانت معقلاً لهم فإن الناس حينما استشارهم الإمام أفلح فيمن يختارونه للقضاء فى تاهرت أجمعوا على استجلاب هذا الرجل القابع بين جبال أوراس الشاهقة بعيداً عن الضوضاء والصخب وكان يشتغل بنفسه لنفسه قانعاً بحظه من الحياة راضياً بما قسم الله له . حين اختار الناس محكماً لمنصب القضاء ورفعوا رأيهم هذا إلى الإمام ناقشهم الإمام فى اختيارهم هذا وأخبرهم أن فى الدولة كثيراً من الرجال لا يقولون علماً وديناً وذكاء وتحريراً عن محكم ، وهم يعيشون فى وسط الدولة ، ويعرفون كيف يتصرفون مع الناس فى لطف ولباقة ، وأن محكماً فى طبعه الصريح الجاف ، ومواقفه الصامدة ، وقوته فى الحق ، ومعيشتة فى حياة البادية قد لا يلائم طبائعهم المتحضرة ، وأذواقهم المرهفة الحساسة ، وسلوكهم الذى تقيده آداب المدينة وأعرافها . ولكن الناس قد انفقوا عامتهم وخاصتهم على محكم لا يريدون غيره وصمموا على موقفهم وألزموا الإمام بتنفيذ رغبتهم . ولكنهم جميعاً كانوا حائرين يفكرون فى طريقة دعوته إلى الحاضرة فإنهم لو دعوه باسم الوظيفة الجديد كان حرياً أن لا يأتهم وأن لا يستجيب لطلبهم وتداولوا الرأى مع « الإمام أفلح » وأخيراً اتفقوا أن يكتب أهل الشورى له رسالة يطلبون فيها حضوره المستعجل لأمر مهم وأن يكتب الإمام أيضاً رسالة يدعوه فيها إلى الحضور وقد انفقوا على فحوى الرسالة .

وإلى القارىء الكريم نص رسالة أهل الشورى قالوا :

« أما بعد ، فإنه نزل بالمسلمين أمر لاغنى بهم عن حضورك وهم منتظرون
لقدومك ، ولا يسمعك التخلف فيما بينك وبين الله في اللحوق بهم ، والاجتماع
معهم ، ليجمع رأيك ورأيهم على ما فيه صلاح المسلمين » .

وما تسلم بحكم الرسالة حتى أخذ كسائه وعصاته وهدى إلى دابة له فركبها
ولحق بالقوم في تاهرت وحضر إلى المسجد - فإن المسجد هو المكان الذي
تناقش فيه قضايا المسلمين الكبرى والصغرى - فسألهم عن الحديث فأخبره
الإمام أن قاضي المسلمين قد توفي وأن الناس قد اختاروه ورشحوه لمنصب
القضاء وأنه هو - الإمام - موافق للناس على رغبتهم هذه .

فتمنع محكم وأبدى كثيراً من الأعذار والكنه لم يزالوا به حتى قبل
وسار فيهم السيرة التي أملها المسلمون وقد سجلت في فضله وعدله وشده في
الحق قصص وطرائف ليس هذا مكانها ومن شاء الاطلاع عليها فعليه بكتب
التاريخ أمثال رسالة ابن الصغير وسير الشماخي وطبقات الدرجيني وأزهار
الباروني ومغرب الدبوز وغيرها أما نحن في هذا الكتاب فإنما يعيننا في
قصته أمران :

الأول : الرسالة التي بعثت إليه وكانت كافية في اقتناعه بوجوب
إجابة الدعوة .

الثاني : الأسباب التي استطاع الإمام والمسلمون أن يقنعوا بها محكمًا
ليتولى القضاء بعد تمنعه وفراره . فإن هذين الأمرين - فيما أرى - يعطيان
صورة قريبة من الصحة لحالة الأمة ورجالها في ذلك الحين وما هم عليه من خلق
ودين . ذلك لأننا نريد أن نرسم صوراً للحياة التي كانت تحياها الأمة
المسلمة أمام أنظار أبنائها في هذه العصور لعلهم يجدون في ذلك قدوة حسنة .
وأسوة صالحة ، وتاريخاً مشرفاً ينتسبون إليه بفضل الإسلام .

ذلك أن مجتمعا اليوم قد بعد جداً عن الروح التي كانت تجمع أغلب أبناء الشعب في ذلك الحين ، وأصبح رجل العلم عندنا اليوم هو نفسه يتكالب على منصب في الدولة ، يقرع كل الأبواب ، ويتمسح بجميع الأعتاب ويذل ويستجدي حتى للبواب ، ويسعى بجميع الطرق والحيل ويتخذ كل الوسائل والوسائط فإذا تحصل عليه ، اعتبر ذلك مغنماً ، وانتفخ متعاطفاً .

بلغنى منذ سنوات أن أحد الرجال المنسوبين إلى العلم - ممن يتجرأ فيصلى بالناس ، ويلقى عليهم دروس الوعظ والإرشاد ، لا سيما في مواسم الانتخاب إذا عزم أن يخوض معركتها ، وكثيراً ما يحرر الخطب الجمعية في نقد الحكومة والاهتمام بمصالح الناس . كان ذات ليلة يسهر مع جمع من أصدقائه وفتحوا جهاز الإذاعة على نشرة الأخبار فإذا فيها تأليف وزارة جديدة وإذا المرسوم يشتمل على إسناد وزارة إليه فقام دون أن يشعر ودون أن ينجل حتى من الحاضرين يتلوى راقصاً في الحجرة بين الحاضرين بكرشه الضخم - وعمامته المقورة وهو يلوك إحدى الأغنيات الشائعة بين الطبقات الدنيا من الجماهير . ومنذ تلك الليلة ترك المسجد ودروس الوعظ والإرشاد إلى أن تخلت عنه الوزارة . فرجع إلى بيت الله يعظ الناس حتى بصطاد وظيفته أخرى وقد فعل ولم ينته حتى جمعته الأقدار مع أشكاله في السيرك البشرى الذي عرض على الجماهير في سبتمبر ١٩٦٩ والله في خلقه شئون .

والنزر اليسير من أصحاب العلم في هذا العصر يملكون من الشهامة وعزة النفس ما يحملهم على عدم التمسح بالأعتاب . والوقوف على الأبواب ولكنهم إذا علم الواحد منهم أن الدولة تذكرته فاخترته ليشغل منصباً هاماً سارع إليه وهو يكاد يطير من الفرح مقدرًا ما وراء ذلك من المكاسب

المادية وقد تكون تلك الخطوة هي الخطوة الأولى من صاحبنا في طريق تخليه عن مبادئه .

أما أولئك العلماء الأعلام في ذلك العصر ، فإن المنصب لا يزددهم ، وإن المال لا يغيرهم وإن نخفخة الحكم لا تجد مكانها في نفوسهم ، لأن نفوسهم أعظم من الدنيا وحظوظها فهم يتهربون منها ، فإذا أرادت الدولة أو الأمة أن تسند إلى أحد منهم هملا احتمات عليه فجاءته من طريق الآخرة .

وهكذا حين تم اختيارهم لمحكم الهواري ليمتولى القضاء ، وبعثوا إليه يستدعونه لم يذكروا له أن الأمة اختارته ولا أن الإمام وثق به ولا أن الدنيا أقيمت عليه وإنما أخبروه أن نازلة نزلت بالمسلمين وأنه لا يسعه التخلف عنهم ، فلما بلغه ذلك لم يسعه التخلف ، وركب دابته ولحق بالقوم في تاهرت ليساعد على النظر في موضوع النازلة وتخفيف أثرها عليهم . ولما وصل وأخبره القوم أن النازلة إنما هي وفاة قاضي المسلمين ، وأن المسلمين والإمام معهم قد اختاروه ليمتولى في مكان القاضي المتوفى يحكم فيهم بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وآثار السلف الصالحين . استاء الرجل من هذا فإن وفاة رجل وإن كان قاضياً لا تعتبر نازلة مادام في الأمة من يقوم مقامه ، وامتنع عن قبول المنصب فإن حياته المنعزلة في جبال أوراس يعمل لنفسه ولا آخرته أثر عنده وأحب من النظر في مشاكل الناس وخصوماتهم .

وحاول الإمام أن يقنعه وحاول مجلس الشورى ولكن دون جدوى ، قالوا له إنهم يحتاجون إلى قاض في فضله وعلمه ودينه وخلقه يستوى عنده الكبير والصغير والغنى والفقر ليشغل هذا الفراغ ويسد الثلمة فأجابهم بأن البلد مشحون بأهل العلم والفضل والدين وأن عليهم أن يختاروا من المدينة

نفسها من تتوافر فيه الشروط المطلوبة مع معرفته بالناس وطباعهم وسلوكهم وعاداتهم وأساليبهم في الحياة ، وطال الجدل بينهم ولكنه أصر على موقفه وأصروا على موقفهم . وأخيراً قال أحدهم لرفاقه : إذا لم تأتوه من باب الآخرة وتخوفوه بالله فإنه لن يقبل ، وجلس إليه عدد منهم وقال قائلهم : « أما وقد امتنعت ، فاعلم أنك إن تخلفت عما دعوناك إليه كنت المسئول عن كل دم يراق من غير حله وفرج يوطأ بغير وجهه ، فاتق الله ولا تخالف الإمام والمسلمين فيما دعوك إليه» ، وأصاب هذا القول الموضع الحساس من ضمير العالم الكبير إنه يطالبه بتقوى الله ويحمله المسئولية فيما يقع من اختلال بأحكام الإسلام وفكر قليلاً ثم لان ولم يلبث أن وافق فإنه كان يهرب من القضاء خوفاً من الله والآن يجب أن يتولاه خوفاً من الله .

قضى محكم الفترة التي تولى فيها القضاء وهو مرضى عنه من المسلمين ومن الإمام يسير فيهم سيرة نزيهة لا يكبر في عينه أحد حتى يأخذ منه الحق ، ولا يصغر في عينه أحد حتى يأخذ له الحق ، الناس عنده متساوون في حقوقهم وأقدارهم وشخصياتهم وأملاكهم . وقد كتب المؤرخون عن عدله ونقلوا عنه طرائف في القضاء النزيه تزيد في ثروة القضاء الإسلامي العادل ومساواته بين الناس . فرضى الله عن أولئك القوم الذين لا يوجد في قلوبهم حساب لغير الله .

ولد المحكم ولد سماه هوداً رباه على الإسلام وأنشأه على تقوى الله ودربه على المعارف الإسلامية منذ صغره فاستمر في الدراسة حتى أصبح عالماً من الأعلام وقد ألف هود عدة كتب اشتهر منها تفسيره للقرآن الكريم على طريقة السلف لا يتعرض فيه للناحية اللغوية ولكنه يقتصر فيه على بيان معاني الآيات الكريمة واستخراج ما تتضمنه من حكم وأحكام .

ويعتبر هذا التفسير من أوائل التفاسير في الإسلام وهو بالنسبة إلى المذهب الإباضي يعتبر ثانياً تفسير إذ سبقه الإمام عبد الرحمن بن رستم وإن كان تفسير الإمام عبد الرحمن قد ضاع فيما يبدو ولا توجد منه نسخ اللهم إلا إذا احتفظت بها بعض المكتبات ولم يشع خبره أما تفسير هود فتوجد منه عدة نسخ مخطوطة . وعندما اجتمعت بالشيخ سليمان بن الحاج داوود علمت أنه مهم بطبعه ثم علمت أن الأخ العزيز الشيخ شرفي بالحاج ابن عدون يتولى تحقيقه منذ سنة تقريباً فإذا تمت هذه الخطوة المباركة فإنه يصبح في المكتبة الإسلامية أثر نفيس من آثار السلف في القرن الثالث الهجري ويضاف إليها كنز من كنوزها مضى عليه أحد عشر قرناً وهو محبوب .

أبو عبيدة الأعرج (١)

يسرني أن أترك المجال للورخ الكبير ابن الصغير المالكي ليحدثنا عن هذا العالم العظيم قال في رسالته ما يلي :

« وكان منهم رجل يعرف بأبي عبيدة الأعرج . كلهم مقرون له بالفضل معترفون له بالفلم ، مسلهون له في الورع ، إذا اختلفوا في أمر من الفقه أو من الكلام صدروا عن رأيه . وقد رأيت أنا هذا الرجل وجلست إليه فما رأيت في سود الرؤوس رجلاً أخشع منه ، وكان قليل الدخول على أبي اليقظان ولم يكن يجمعه وإياه سوى المسجد الجامع ، فحدثني أحمد بن بشير :

قال : ضرب أبو اليقظان سرادقه لحدث أرادته ، وبرز بنفسه إلى سرادقه قال : وعلم الناس بخروجه فخرج إليه الفقهاء والقراء ، وضربوا أبنيتهم حول سرادقه ، خلا أبا عبيدة . قال : فبينما الناس ذات يوم جلوس إذ أقبل أبو عبيدة راكباً على دابة . فقال الناس : هذا أبو عبيدة قد أقبل متفقداً الأمير مسلماً عليه . قال : فأعلموا بقدومه أبا اليقظان . فلما دخل عليه أدناه إلى نفسه ، فقال : ما جاء بأبي عبيدة إلينا ؟ متفقداً أم مسلماً ؟ فقال : أصلح الله الأمير . ما جئت مسلماً ولا متفقداً . غير أن جارة لي خرج ولدها البارحة في طلب معاش له ولها ، فأخذه المحروق صاحب حرسك وحبسه ، فأتيتي الغداة باكية شاكية تسألني أن أسألك في إطلاق ولدها ، فأمر بأن يطلق كل من حبس تلك الليلة لإجلال الأبي عبيدة ثم سلم وانصرف ففجئ الناس من صدقه وتركه التصنع وإظهاره على لسانه ما أسر في قلبه .

(١) من علماء القرن الثالث ، ذكره الباروني في الطبقة السادسة .

وكان أبو عبيدة هذا عالماً بالفقه والكلام والرقائق والنحو واللغة
وكان مع ديانته حسن الأدب والمروءة . وقد أتيت يوماً أسمع منه
كتاب إصلاح الغلط الذي ألفه عبد الله بن مسلم بن قتيبة على أبي عبيدة ،
فلما انتهت قراءته وقلت : لعل ناظراً في كتابنا هذا ينفر من عنوانه
ويستنفر من ترجمته وبربأ بأبي عبيدة عن الزلة . فلم أهزه ولم أمدد فقال لي
بربأ بأبي عبيدة بهز الألف وضمه ، وإنما ذكرت هذا الحرف لأدل على
براعته في اللغة فلما قرأت من الكتاب مثل ورقة أو يزيد ، أتاه قوم فقالوا :
يا أبا عبيدة شهادة بأجرك الله عليها ، فأخذ نعله وعصاه ثم قام مع القوم .
فلما كان اليوم الثاني أتيت فلما قرأت مثل ما قرأت بالأمس أتاه قوم فقالوا :
يا أبا عبيدة شهادة بأجرك الله عليها ففعل . مثل ما فعل بالأمس فقامت معه
وقلت له : أصاحك الله إن لي في الرهادنة دكاناً أبيع فيه وأشتري ، وأتركه
وأتى إليك فيأتيك الناس فاشتغل عني فلا أنا في دكاني ، ولا أنا في مقابلة
كتابي . فسكت ، فلما كان بالغداة أتيت فلما قرأت بعض جزئي أتاه ناس
فسألوه كما سأله قبل هذا فقال : إن هذا اليوم لهذا الفتي فإن آثركم على
نفسه وأذن لي سرت معكم . فلما رأيت ذلك قلت : له يا سيدي لا كل هذا .
فسر إذا شئت أو أقم .

وإنما ذكرت هذا لأدل على مروءته وحسن أدبه ، وكان المغرب كله
مفتوناً بهذا الرجل حتى أن من كان من الإباضية بسجلماسة يبعثون إليه
بزكاتهم يصرفها حيث يشاء .

هذا ما قاله ابن الصغير عن أبي عبيدة الأعرج وهو كاف لتصوير
تلك الشخصية العظيمة التي تحترمها الدولة وتقطامن لها .

أبو يوسف الطرفي (١)

هو أبو يعقوب يوسف بن سيلوس السدراتي اشتهر بالطرفي . أخذ العلم عن الأئمة في تاهرت ثم ارتحل إلى وارجلان وفيها استقر وأقام وطاب له المقام . فكان فيها علماً يهتدى به ، ومناراً يستضاء بنوره .

بلغ من العلم مبلغاً أهله لأن يكون مرجعاً . وأن يكون في الدين قدوة . وأن يكون في الخلق مثلاً يحتذى ، ومثلاً يضربه الناس بعضهم لبعض . وكان إلى هذه المرتبة الشاخرة من الدين والعلم والخلق - مربيًا يحسن التربية ، ومرشدًا يحسن التوجيه . فهم أسلوب الإسلام العملي في إرشاد الناس إلى ما يصلحهم في الدنيا والآخرة فعمل به .

جاء إلى وارجلان رجل من سكان جبل دمر ، وقصد إلى أبي يوسف وأخبره أنه صاحب عيال ، وأنه فقير لا يملك ما يقيم به أودهم ، ويرجوه مساعدة مادية يعود بها إلى عياله وأطفاله ، وكان في إمكان أبي يوسف أن يمد الرجل بمساعدة تكفيه وتكفي عياله لمدة أسبوع أو شهر أو أكثر من ذلك أو أقل . وحتى إذا كان لا يستطيع هذا من ماله الخاص فإنه يستطيع أن يجمع له من أصحاب الخير والفضل ما يقر به عيناً ، ويرجع إلى أهله فرحاً مسروراً ولكن أبا يوسف كان لا يطمئن إلى هذه النجدة المؤقتة فإنها سرعان ما تنفد وسرعان ما يبقى الرجل في حالة فقر بائس فيعود إلى طلب الإحسان من الناس ثم يتخذ ذلك عادة فيخسر عزة نفسه وكرامتها .

(١) من علماء القرن الثالث الهجري ، ذكره الباروني في الطبقة السادسة .

وعلاج أمثال هذه الشئون الاجتماعية يجب أن يستوحيه المؤمن من روح الإسلام وأن يعود فيه إلى سيرة النبي عليه الصلاة والسلام فإنه واجد هناك خير الحلول .

نظر أبو يوسف إلى الرجل فوجده قوياً سليماً يستطيع العمل ولكنه لا يجد العمل ولا يعرف كيف يشتغل ، فأمره أن يذهب إلى السوق فينظر أرخص الأشياء فيها ثم يعود ويخبره وذهب الرجل إلى السوق وطاف بين أكياس البضائع المطروحة وقطعان المشاية المعروضة ثم رجع إلى الشيخ فأخبره أنه لم يجد أرخص من الإبل في هذا الموسم من أواخر الشتاء فقال له الشيخ : عندي أربعة وعشرون ديناراً وديعة لأحد الناس — خذها على سبيل القرض واذهب واشتر بها جمالاً ثم أحسن رعايتها وعلقها حتى إذا سمعت عد إلى . وأخذ الرجل رأى أبي يوسف فأخذ منه الدنانير ثم ذهب إلى السوق فاشترى بها ثلاثة جمال ذهب بها إلى بعض الأودية الخصبية ولم يمض عليها زمن طويل حتى حسن حالها وسمت فرجع إلى أبي يوسف يخبره . فأمره أبو يوسف أن يأخذ اثنين منها إلى السوق ليبيعهما وهكذا رد من ثمنها مبلغ الوديعة واشترى بالباقي منه بضاعة حملها على الثالث ورجع إلى أهله موفوراً بعد شهر قليلة يحمل معه على الجمل الثالث خيرات له ولأهله .

يقص المؤرخون هذا الحادث من تاريخ أبي يوسف متعجبين من تفكيره وسداد تصرفه وحسن تدبيره . غافلين أن هذا العالم العامل لم يأت بشيء من عنده وإنما هو قبس من سيرة الرسول ﷺ وطريقته في معالجة المشاكل المشابهة .

عندما ترجم أبو العباس الدرجيني لأبي يوسف الطارفي ذكر القصة

السابقة ثم ناقشها على ضوء الأحكام الفقهية ، وهل يصح للمؤمن أن يتصرف في ودیعة توضع عنده دون إذن صاحبها . وقال : إن من عادة علماء السلف إذا وضعت عند أحدهم أمانة أن يستأذن صاحبها في التصرف فيها بغير عدوان إذا احتاج إليها وإن أبا يوسف لا بد وأن يكون قد جرى على هذا السنن فاستأذن رب الودیعة في الاستفادة منها إذا لزم الأمر . فلما جاءه الدمري تصرف . هذه خلاصة مناقشة أبي العباس للموضوع ، ويبدو لي أن أبا يوسف كان في إمكانه أن يساعد الرجل بقرض من ماله الخاص أو أن يجمع له من أصحاب الخير أو أن يقرض له من شخص ما قرضاً ولكنه فضل غير هذه الطرق جميعها . فضل أن يتصرف في الودیعة وأن يحرص على ذكر الودیعة وهو يسلم المال للرجل حتى لا تحدته نفسه بمطمع . وحتى يعلم أن إرجاعها يجب أن يكون سريعاً وذلك يحمل الدمري على الجِد والمثابرة في العمل . أما الودیعة وقد تصرف فيها فهو ضامن لها — ولا شك — لصاحبها لو ضاعت أو وقع فيها شيء ما .

كان أبو يوسف يقوم مقام القاضي في أربلان دون أن يسند إليه ذلك أحد ولقد كانت شهرته العلمية وحرصه على تنفيذ أحكام الله ، ونزاهته ، صفات جديرة أن تترك الناس يفزعون إليه بمشاكلهم وخصوماتهم ، ثم هم يرضون بما يراه ويحكم به ، ولم يكن يتقاضى عن عمله هذا شيئاً فقد كان يقوم به لوجه الله تعالى .

أما طريق رزقه فهو طريق جميع المسلمين ، رزقه يأتيه من عمل يديه وعرق جبينه ، وكان يجمع إلى مهمة القضاء ، ودروس الوعظ وتعليم الشباب والدراسة المستمرة . كان يجمع إلى هذه الأعباء عبء الجِد والعمل من أجل الحياة وكسب موارد الرزق الحلال .

وعندما مرض مرض الوفاة كان ولده يتردد عليه ويطلب منه النصيحة الأخيرة وكان أبو يوسف يتمنع ويتأبى ويقول لولده : « ما أراك تقبل » ولكن الولد حرص ، فلما علم منه صدق الطلب وصحة المقصد قال له : « لا يكن نديك الناس إلى الخير أوكد من نديك نفسك ، ولا يكن غيرك أسبق إلى الحرث منك ، وكن للناس كالميزان وكالليل للأدران وكالسماء للماء » .

درس عليه عدد لا يحصى من المتعلمين وتخرج على يده عدد جم من فطاحل العلماء ولعل من أبرزهم وأكثرهم اقتداء به العلامة « أبو صالح جنون بن يمران » ولعل خير ما نختم به هذا الفصل ما قاله عنه أبو العباس الدرجيني :

« العالم الفقيه ، القاطن النبويه ، اليقظ الذكي ، الورع الزكي ، ذو الجهادين الأكبر والأصغر ، والاجتهادين العليّ والدفتري » ، وقال عنه في آخر الفصل « وكان منتهى الفُتيا في وارجلان » .

أبو باديس أبنخت بن باديس (١)

أبو باديس أبنخت بن باديس بن زيدان اليكشفي مؤمن من المؤمنين الذين أكرمهم الله بصحة الدين ، ووسع عليهم في العلم والمال ، فقد كان مؤمناً تقياً موصل القلب بالله في جميع أعماله وكان عالماً غزير العلم ، حريصاً على العمل بما يعلم ، وكان وافر الثروة يملك أعداداً لا حصر لها من قطعان البقر والإبل والغنم ، يتولى تربيتها ورعايتها في فحوص ابوة الخضراء الخصبية ، وكان يشرف بنفسه على تربيتها وتنميتها ، وكان يعطى منها في سبيل الخير دون حساب وإذا كان الكرماء يعطون بالآحاد فقد كان أبو باديس يدفع بال عشرات ويهب بالفطيم . ويرسل منها إلى من يعرف فيه الاحتياج إليها ولو بعد مكانه ، ولا شرط له على هذه العطايا إلا أن يكون أصحابها من المتقين لا يستعينون بماله على معصية الله .

ولد أبو باديس في أواخر الدولة الرستمية ربما في السنوات الأخيرة من خلافة الإمام أبي اليقظان . ورأى فيها أمثلة للحكم النظيف للأمة الإسلامية فلما ذهبت تلك الدولة التي تسير بمنهاج الإسلام . وجاءت بعدها الدولة العبديية في اندفاعها الأولى لا يهتمها ما تحطمه من أجل بناء سلطانها وكان يعيش بين ما يرتكبه حكامها من عسف وظلم وجور . كان يتمنى أن تقوم دولة أخرى تسير بسيرة الإسلام وكان يتعهد بينه وبين نفسه أن يقدم إليها كل ما بين يديه من مساعدة ، ولهذا فقد حرص على أن يضاعف ثروته ليضعها في يدي الدولة التي كان يرجو أن تقوم لتقوم بأمر الله في الناس . وكان يملك مع تلك القطعان من الأنعام رعائل من الخيل ، يتخيرها ويعرف أنسابها ويشرف

(١) من علماء القرن الثالث ، ذكره الباروني في الطبقة السادسة .

على تربيتها ويعدها للكفاح حسب الأمل الذي لم ينطفيء في قلبه أبداً وكان ينتظر ذلك اليوم الذي يتحقق فيه أمله فيدفع تلك الخيول وما وراءها من ثروة لله وفي سبيل الله .

وكان يعرف أصول تلك الخيل وأجناسها ومقدار عتقها ، وكان يحبها ويفقدتها فلما تقدمت به السن وكف بصره وعجز عن مزاولة الفروسية بقي يحن إلى الخيل وركوبها وتلمسها . كما لم يتحطم أمله في قيام دولة عادلة يقوم بها مؤمنون مخلصون ، وكان عجزه عن الرعاية المباشرة لخيوله العتاق لم يمنعه من الاهتمام بها وتفقد أحوالها والسؤال عنها وعن نتائجها ، وكان أبناؤه وأحفاده وخدمه يقومون له بكل ما يطلب من ذلك . جاءه مرة حفيده محمد بن عبد الله بن أبخت يقود إليه مهراً صغيراً ويخبره أنه نتاج الفرس الفلانية . وكانت من الأفراس التي يحبها ويمتاز بها وأصلها فأخذ الشيخ بمقود المهر وتلمس أعضائه ليرى بيديه ما كان يراه بعينه وربت على ظهره وعنقه ثم قال لحفيده : أدبه وأحسن رعايته وتربيته تأخذ فيه ألف دينار . ثم جاءه مرة أخرى بمهر آخر وأخبره عن أمه وأصله فتلمسه الشيخ كما تلمس الأول ثم قال لحفيده : إن أحسنت تربيته تأخذ فيه خمسمائة دينار . وقد اهتم الفتي بالمهرين وتربيتها واهتم بالفروسية وأتقنها حتى أصبح من أفذاذ الفرسان في المغرب . وكان لوصية الشيخ وأسلوبه في التربية - تربية الإنسان وتربية الحيوان - أثر قوي في توجيه الفتي فقد سار على نفس المسلك من تربية المواشى وتنميته لثروة وإنفاقها في سبيل الخير . كما كان حريصاً على تربية الخيل وتخزين أصولها وتوفير عددها لعل دولة عادلة تقوم فتحتاج إليها . ولكن هذا الأمل لم يتحقق لا في حياة الشيخ ولا في حياة حفيده ولا في حياة ولده .

أصبح محمد حفيد أبي باديس فارساً لامعاً ، وغنياً مرموقاً ، وزعيماً

محبوباً ينظر إليه الناس في فحوص بونة بالإجلال ، ويستمعون إلى أمره بتقدير واحترام ، ويطيعونه فيما يشير إليه طاعة المحبة والولاء . وقد اعتقد كثير من الناس أنه ربما دعا إلى ثورة أو تزعم حركة ، أو طالب لنفسه بالحكم . ولكنه لم يرد أن يتجه هذا الاتجاه . على أن أسلوب الحكم قد تغير في الدولة العبيدية ؛ فقد وصل الحكم إلى المعز بن باديس وأظهر المعز سخطاً على أسلافه - وإن لم يكن خيراً منهم - وغير مذهبه فأصبح أشعرياً بعد أن كان شيعياً فرأى أبو عبد الله محمد أن يقيم علائق الود مع الحاكم الجديد ، ولعله يستطيع أن يعود بالحكم إلى النهج الإسلامي فيتحقق المطلوب .

فوفد عليه وقد أخذ معه هدية قيمة فيها المهران السابقان وقد أصبحا جوادين مطهين تنحبس عندهما العين ويتهج الخاطر . وقدم الهدية إلى الملك المعز فسر بها وتقبلها وشكر صاحبها . وكان سرور المعز بوفود أبي عبد الله أعظم من سروره بالهدية فقد كان يتوقع منه ما يتوقعه كل حاكم ظالم من كل رجل عظيم محبوب لا يتزلف إليه ولا يتقرب . فلما رأى هذه الخطوة من هذا الزعيم أمن جانباً مما كان يقص مضجعه . وتولى الفتى بعد أن ودع الملك ليعود إلى بلاده وقد اقتنع أكثر من ذي قبل على وجوب المهادنة وعدم تعريض الناس لفتن لا يرجى منها خير للإسلام والمسلمين . غير أن هذا الموقف البسيط الذي أَرْضَى الملك وطمانته لم يرض الحاشية فما خرج أبو عبد الله حتى سارعت الحاشية إلى النيل منه وتحرّض الملك على إزالته من الطريق ، وقالوا له : إن الرجل صاحب ثروة ضخمة وهو فارس شجاع شهير ، مسموع الكلمة محبوب من الناس ، يقوم في مزاته مقام الزعيم ، ولو دعا الإباضية إلى أي عمل لاستجابوا له جميعاً ، ولو حدثته نفسه بالغررة عليك لسبب لك متاعباً جمة أنت في غنى عنها ، والرأى - وقد وقع بين يديك أن تتخلص منه . قال المعز : كيف يمكن أن أقتل الرجل

وقد عرف القاصي والداني أنني رحبت به وقبلت هديته ، وجازيته بالإحسان . إن الغدر في مثل هذا المقام يضر بنا أكثر من أى عمل يقوم به هذا الرجل . غير أن مدبرى المكائد لا تعيهم الخيل ، واستطاعوا أن يدبروا مكيدة اقتنع المعز بوجاهتها . فبعث وراء الفتى يدعوهُ إليه ، وعندما وصله أعوان الملك يبلغونه طلب الملك له عرف أنه دعى إلى مكيدة ولكنه ماذا عساه يصنع غير أن يسير في الطريق إلى نهايتها ؟ ورجع حتى وقف بين يدي المعز وانتظر ما تأتى به الأقدار ، فأظهر المعز الحفاوة مرة أخرى وأبدى له التعظيم والإجلال ثم قال له : إنكم فتيان مزانة موصوفون بالفروسية والبراعة في ركوب الخيل ويدل على ذلك عنايتك بتربية الخيل وإعدادها ، وقد خطر لى أن تعرض علينا ألواناً من الفروسية ، وفي حظيرتنا أسد يمكنك أن تلاعبه على أنه يجب أن تعرف أن الأسد ضار قد يضر بك نخذ حذرك منه واعرف كيف تروغ منه أو تقتله . وأنت مجرد من السلاح . وعرف الفتى الغرض من كل هذا وأنه محكوم عليه بالإعدام ، ولكن بهذه الخدعة الدنيئة ، ولم يرد أن يتنازل عن اغتزازه واعتداده بنفسه ، ولا أن يظهر الضعف لهؤلاء القوم الذين أحسن بهم الظن فقال له - مزهواً : لميك . وقدم له الفرس الذى جاء به هدية للملك وأدخل إلى خان السبع مجرداً من السلاح وأطلق عليه الأسد الضارى الذى كان المعز يستعمله بمثابة آلة الإعدام لمن يحكم عليه بذلك . وقد مرد الوحش على الولوغ فى الدماء البشرية واعتماد على افتراس الناس فى ذلك الخان وأصبح من الممتع له أن يطلق فى وسط الحظيرة ثم يلقى إليه بفريسة بشرية يمارس معها طبيعة الصيد السكامة فيه ثم يلتمها بعد دقائق . وحينما رأى رجلاً على فرس يقتحم عليه الحظيرة استعد لأن يمارس طبيعته الحيوانية فى الصيد وإن يكن المنظر

قد تغير عليه وسبب له شيئاً قليلاً من الارتباك، فقد كان يلقي إليه الرجل مجرداً .
أما الآن فما قد أتى إليه رجل على فرس وعلى كل حال فإلا أهمية لذلك .
بدل الفريسة الواحدة فريستان .

وبدأت المعركة الرهيبة بين الوحش المفترس القوي وبين الفارس الشجاع
الجرىء وطالت المعركة بين الأسد المسلح بسلاح الطبيعة من مخب وناب وبين
الفارس الذى جردته اليد للأكرة حتى من السكين والسوط ، ولكن تلك
اليد لم تتمكن من تجريد الفارس من سلاح الشجاعة وحضور الذهن فى أخرج
المواقف وسرعة الفر والإفلات .

كان المعز أمر أن تعد له ولحاشيته منصة عالية حول الحظيرة ، ففرش
عليها المفارش الوثيرة وتحول بينها وبين انطلاق الوحش إليها قضبان معينة
من الحديد ، حتى يتمكنوا من الاستمتاع بالنظر إلى الأسد الخطر وهو يبلغ
فى دماء الفتى المراتى ويلتهم عضلاته . وكم شهد أولئك القوم وثبات الأسد
الضارى على الأجسام البشرية البائسة التى يرمى بها إليه ظلم الإنسان للإنسان
وكانوا هذه المرة يتابعون المعركة بعيون زائفة وخرقات قلقة . فلم يحدث فى
تاريخ حظيرة الموت أن تلكأت آلة الإعدام عن مهمتها ولم يحدث لأسد
مثل هذا العنت فى المقاومة فى اللحظة التى ينتظرون وقوع الخالب والأنياب
على الفارس أو الفرس بعد وثبة هائلة من الوحش يجدون أن الفرس قد راغ
بقارسه بعيداً ووقع الأسد على الأرض الفارغة يسف التراب ولقيت مخالبه
ضربة قاسية من الأرض الصلبة وفى زجاجة الغضب والحقد من الخيبة يرى
الفارس يعود إليه يحتمك به من جديد ويعيد الأسد الكرة وقد ظهر أنه لن
يفلت الفريسة هذه المرة ولكن الحركة تتكرر وتذهب الوثبة سدى حتى

كَلَّ الأَسَدُ مِنَ الوَثُوبِ وَأَصْبَحَ يَطَارِدُ الفَرِيْسَةَ مَطَارِدَةً لَعْلَهُ يَلْحَقُ بِهَا وَهَذَا مَا كَانَ يَرْجُوهُ الفَارِسُ المَاهِرُ وَعِنْدَمَا يَكَادُ الأَسَدُ يَصِلُ إِلَى القَدَمَيْنِ الخَلْفِيَتَيْنِ لِلْفَرَسِ يَهْمَزُ الفَارِسُ فَرَسَهُ بِالأَشَايِرِ هَمْزَةً قَوِيَةً فَيَرْمِحُ الفَرَسَ الأَسَدَ رِمْحَةً قَوِيَةً بِنَعَالِهِ الحَدِيدِيَّةِ فَتَقَعُ عَلَيْهِ الضَّرْبَةُ إِلَى أَنْ صَادَتْ إِحْدَى الضَّرْبَاتِ مَوْضِعًا قَاتِلًا مِنْ رَأْسِ الأَسَدِ فَوْقَ . وَكَانَ أَغْرَبَ مَا خْتَمَتْ بِهِ هَذِهِ المَأْسَاةُ الَّتِي صَارَتْ مَلْهَاءَ وَطَاتٍ أَكْثَرَ مِمَّا قَدَّرَ لَهَا أَنْ تَمُكِّنَ الفَتَى الأَعْزَلَ مِنْ قَتْلِ الأَسَدِ وَسَلَّمَ الفَارِسَ وَالفَرَسَ وَقَدْ اخْتَارَ أَبُو العَبَّاسِ الدَّرَجِيْنِي وَهُوَ يَصِفُ قَتْلَ الأَسَدِ أَنْ يَقُولَ : « فَمَهْوَى مَيْتًا كَالنَّخْلَةِ السَّحْوَقِ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ » تَغْلِبُ هَذَا الفَتَى عَلَى الأَسَدِ وَقَدْ تَغْلِبَ فَتْيَانٌ مِنْ قَبْلِهِ عَلَى أُسُودٍ فِي مِثْلِ هَذِهِ المَوَاقِفِ بَلِ اسْتِطَاعَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَقْتُلَ أُسْدًا بِالسُّوْطِ فَقَطْ دُونَ سِلَاحٍ أَوْ فَرَسٍ وَقَدْ خَلَدَتْ بَعْضُ تِلْكَ الوَقَائِعِ بِقِصَائِدٍ مِنْ الشُّعْرِ الرَّفِيعِ فِي الأَدَبِ العَرَبِيِّ - لَقَدْ خَابَتِ المَسْكِيْدَةُ وَلَمْ تَنْجِحِ الحَاشِيَةُ فِي خَطِّهَا الَّتِي حَسِبْتُهَا مَضْمُونَةً . وَقَدْ أَعْجَبَ المَعْرِيْنَ بَادِيْسُ بِالفَتَى المَزَاتِي وَشِجَاعَتِهِ وَفَرُوسِيَّتِهِ وَتَمَنَّى لَوْ كَانَ فِي حَاشِيَتِهِ وَجْنَةٌ عِدَّةٌ مِنْ مِثْلِ هَذَا البَطْلِ ، وَنَزَلَ مِنْ مَنصَبَتِهِ وَتَقَدَّمَ إِلَى الفَتَى يَهْنِئُهُ وَيَشْكُرُهُ ثُمَّ أَعْطَاهُ جَائِزَةً مَالِيَةً قَدَّرَهَا أَلْفٌ وَخَمْسَمِائَةٍ دِينَارًا فَأَخَذَهَا الفَتَى وَشَكَرَ المَلِكَ عَلَى ثِقَتِهِ وَانصَرَفَ مُسْتَعْجِلًا وَهُوَ يَتَوَقَّعُ أَنْ تَتَفَتَّقَ أَذْهَابُ الحَاشِيَةِ عَنِ مَكِيدَةِ أُخْرَى ، وَيَحْسِبُ أَنْ خَيْبَتَهُمْ فِي التَّجْرِبَةِ الأُولَى سَتَزِيدُ مِنْ حَقْدِهِ عَلَيْهِ وَبَغْضِهِمْ لَهُ .

كَانَ أَبُو بَادِيْسٍ أُنْجَتَ مِنْ أَوْلَئِكَ العُلَمَاءِ العَامِلِيْنَ الَّذِيْنَ لَا تُشْغَلُهُمُ الدُّنْيَا عَنِ الدِّينِ . وَلَا تُنْسِيَهُمْ تَكَالِيفَ الحَيَاةِ مَا يَذْهَبُ مِنْهُمُ مَنْ وَاجِبَاتُ نَحْوِ الأُمَّةِ وَالمُجْتَمَعِ ، وَلَا يَقْصِرُونَ كِفَاحَهُمْ عَلَى الجَانِبِ المَادِي فَتُسْتَعْبِدُهُمُ الدُّنْيَا ، وَلَا عَلَى الجَانِبِ الرُّوحِيِّ فَيَقْتَمِدُونَ زَوَايَا المَسَاجِدِ .

لا يبرحون ، ينتظرون من يرمى في أيديهم باللقمة وعلى أجسامهم بالخرقة ، ولكنه كان يعمل عمل المؤمنين الأغنياء ، ويجاهد لإقامة دين الله ما وسعه الجهاد ، فكان يقوم بالتدريس لفتيان مزاراة البادين ، ينتقل بين أحيائهم في سهول عنابة الخضراء ، وكان يجتمع بالعلماء والمشايخ فيناقشهم في مسائل العلم ، ومشاكل السلوك وكان يقص من سيرة السلف الصالح ما فيه العبرة والموعظة الحسنة على المجتمعات التي يحضرها ، وألف في الوعظ والإرشاد كتباً ، وكان كثير التجول للعبرة والاتعاظ ، وحج إلى بيت الله غير مرة ، وزار بيت المقدس ، وعندما كلف بصره لزم بيته ، وفرغ لنفسه ، فكان إذا خلا مجلسه من طلاب العلم وأخبار السيرة رجع إلى نفسه ليقوم بحق ربه في نوع من أنواع العبادة .

إما صلاة ينقطع فيها عن دنيا البشر إلى مناجاة خالقه ، وإما ابتهال ودعاء حار يرجو فيه رحمة الله ويستعيذ من عذابه ، وإما تلاوة للقرآن الكريم تلاوة تدبر وإمعان يراجع فيها أحكام الله .

وقد توفي أبو باديس عن سن تناهز المائة ، ولم يتحقق أمله في أن تكون دولة مسلمة عادلة تسير على منهاج الدين في أحكامها وتتبع نظمه في سياستها وتوفي بعده ولده باديس ولم يتحقق الأمل ، ولحق بهما من بعد ولدهما محمد الفتي المزاتي الذي مكر به المعز بن باديس وحاشيته فانتصر عليهم بفضل شجاعته وبراعته في الفروسية وحضور ذهنه عند الشدائد ولم يتحقق ذلك الأمل الذي ظل يراود أفراد هذه الأسرة ثلاثة أجيال .

على أن العلماء في عصر أبي عبد الله لم يتركوها تمر فقد عتبوا عليه في وفادته على المعز ، ولو لم يكونوا متقنعين أنه لم يقد عليه طلباً للدنيا ولا تزلفاً

إلى أصحاب السلطنة ، وإنما وفد عليه ليختبر قوته ، مقدرًا سلطانه حتى يستمر
على مسالته أو يدعو إلى الثورة عليه وانتزاع الحكم من يديه .
فعلم أن الرجل قوى متمكن ، وأن الثورة عليه لا تزيد عن فتنة تذهب
فيها أموال ودماء دون أن تحقق ما يأمله المسلمون ، فالتزم سيرة أبيه وجده
وحافظ على الأمن والسلام . ولهذا الاعتبار لم يعامله أولئك العلماء كما
عاملوا العلامة أبا محمد عبد الله بن جابر حين وفد على أمراء قابس ، وذلك
أن أبا عبد الله الشكني كان غنياً قوياً لم تعلق به شبهة الطمع والتزلف
حين وفد على المعز ، أما أبو محمد عبد الله بن جابر فقد كان مقللاً تغلب عليه
الحاجة ، فلما وفد على أمراء قابس تعلق به شبهة الرغبة في دنياهم ، ودنياهم
تلك غير نظيفة فأخرجه المشايخ إلى الخطة استناداً إلى الأثر المشهور « إذا
رأيتهم العالم يغشى باب السلطان فاتهموه على دينكم » .

أبو سهل الفارسي^(١)

قال عنه الأستاذ عثمان الكعاك في كتابه القيم « موجز التاريخ العام للجزائر » صفحة ٣١١ ما يلي : أبو سهل الفارسي من أحفاد الإمام عبد الرحمن ، وكان زاهداً متعقفاً ، وله تأليف كثيرة باللغة البربرية ، وكان أنصح أهل زمانه بها وقد تولى خطة الترجمة بدواوين الحكومة على يد الإمام أفلق ثم الإمام يوسف .

كان شاعراً بليغاً وأديباً فصيحاً له دواوين شعرية في مراثي الدين وأهله ، والبكاء عليه دمعاً مذكراً ، وفي الوعظ والتذكير والتخويف ، وتاريخ أهل الدعوة ، كانت اثنتي عشرة كتاباً ، ذهبت فريسة للنيران في ثورة أبي يزيد الخارجي .

وقال عنه أبو العباس الدرجيني : « غلبت عليه هذه العزوة الفارسية وليس بفارسي وإنما هو نفوسي ولا شك أن أمه رستمية من بيت الإمامة ، فغلب نسبها عليه واشتهر به » ، وقال الدرجيني : « وكان أبو سهل فصيحاً بلغة البربر ولقد كان ترجمان جده الإمام أفلق ، وقيل بل ترجمان خاله يوسف الإمام . فقيده اثني عشر كتاباً في المواعظ ، وفيها جمل من تواريخ أهل الدعوة فاقتلس النكار شطرها وبقي له ستة أجزاء » .

وذكر المؤرخون أنه في خاتمة هذه الأناشيد أو القصائد ، أبياتاً يقول فيها إنه يهدي هذه الدواوين الشعرية لأهل مذهبه من الإباضية . وعندما

(١) من علماء القرن الرابع ، ذكره الباروني في الطبقة السابعة .

سمع الإباضية بذلك كلفوا أحدهم فذهب إلى سعيد النكارى الذى اختلسها فطالبه باسم الإباضية ، وردّها منه . وجمعوها مع بقية القوائد الموجودة عندهم وضموها فى كتاب أودعوه أمنع حصونهم حينئذ « قلعة درجين » وحين أخذت هذه القلعة فيما بعد ، أحرق ما بها من كتب الإباضية وأحرقت هذه الدواوين القيمة فيما أحرق من نفائس الكتب .

واهتم بعد ذلك أبو عبد الله محمد بن بكر بهذا الأثر القيم فصار يجمعه من صدور الرجال ، ويلتقطه من ذواكر الحفاظ ، ولكن أكثر ذلك صار محرّفاً مختل الموازين ، يقول الدرجينى : « فلما أخذت قلعة بنى درجين وأحرقت — أحرق ما وجد من هذه الكتب . حينئذ تلاقى أبو عبد الله ما تحصل فى صدور العزابة فقيدها منه أربعة وعشرين باباً ، فلذلك تجد فيها قلة الأتزان والزيادة والنقصان .

ومن المؤسف أن هذه القطع الشعرية حتى التى جمعها أبو عبد الله قد ضاعت ، ولقد بذلت ما لدى من الجهود للعثور على بعض تلك الأشعار فلم أوفق . ولعل من الأخطاء التى وقع فيها كثير من المؤرخين فيما أرى أنهم لم يعملوا على نقل تلك الشواهد بنصوصها فى لغاتها الأصلية . فاستغنوا عن تلك الشواهد بماها ومعناها فى بعض الأحيان . وترجموا القليل منها أحياناً . ولا شك أن الترجمة لا تؤدى ما يؤديه الأصل ، ولا تدل دلالة حقيقية على المعانى التى وضعت لها عبارتها الأصلية فى لغتها الأصلية . ولقد تكفى الترجمة إذا كان الموضوع يتعلق بأحداث تاريخية تسرد سرداً . ولكن ذلك يكاد يكون مستحيلاً إذا كان الموضوع يتعلق بالصور الشعرية والاختلاجات النفسية والإحساسات الرقيقة التى تعبر عنها كل لغة —

بالإضافة إلى اللفظ - بالجرس والإيحاء والكلمة الموزونة التي لا يفنى عنها غيرها .

وكنت كثيراً ما أحس بالأسف والحسرة عندما أقرأ ترجمة شخصية من الشخصيات في كتب التاريخ فيقول المؤرخ إن المترجم له شعراً أو نثراً باللغة البربرية له حلاوة وعليه طلاوة ولكنني تركته مخافة التطويل أو خشية أن لا يفهمه الناس وكنت أقول في نفسي : ما ضر صاحبنا لو نقل إلينا تلك الشواهد بنصوصها ثم ترجمها أو ترجم مفرداتها إن كان يعرف معناها . وإلا نقلها إلينا فيكون قد أوفى الأمانة العلمية حقها . على أن بعضهم عمل بالمثل فنقل إلينا جملاً من ذلك دون أن يتعرض لترجمة تلك النصوص لا في معانيها الإجمالية ولا في مفرداتها اللغوية ، ولا شك أن موقف هؤلاء أفضل من موقف الأولين . ورحم الله الجميع .

عاش أبو سهل الفارسي في عهد الدولة الرستمية الأخير وكان ترجماناً للإمام يوسف بن محمد - ولا أعتقد أنه ترجم لجدده أملح . فإنه في ذلك الحين كان صغيراً جداً . ولما تغلبت الدولة العبيدية على الدولة الرستمية ، وتشرد رجالها قصدت كل طائفة منهم جهة ما وكان أغلبهم قد اتجه إلى الواحات في الجنوب ، أما أبو سهل فقد اختار أن يتجه إلى الشمال الشرقي وقصد مرسى الدجاج من جزائر بني مزغتان وهي مواقع عاصمة الجزائر اليوم . وعاش هنالك في دائرة ضيقة يعبد الله وينظم الشعر ، ويتحسر على مافات أمة الإسلام من خير حتى وافاه الأجل . وكان الناس يزورونه من حين إلى حين للاستفادة ، فلما توفي كان كثيراً ما يخطر لبعضهم أن يقول للآخرين : هيا بنا ننتقل إلى زيارة قبر النادب دينه فنستغفر له ونترحم عليه .

أبو صالح جنون بن يمران^(١)

أبو صالح جنون بن يمران شخصية فذة من تلك الشخصيات التي تتسامى بمواهبها وأعمالها وأخلاقها حتى تكون ظاهرة مرتفعة بين الجميع وعند الجميع . جمع أبو صالح بين عدد من الفضائل قل أن تجتمع في شخص . فقد كان الرجل عالماً غزيرالمادة وذكياً متوقداً للذكاء . وحليماً واسع الحلم ، و كريماً بالغ السكرم ، وحيياً عظيم الحياء . ولكنه إلى ذلك كان شديداً في أمر الله لا يخاف ولا يأبه ولا يسكت . وقد أغدق الله عليه نعمة المال ووسع عليه موارد الثروة ، فكان لسعة علمه وماله وخلقه . مقصداً للناس يأتونه من كل جانب ، ويلتجئون إليه في كل شدة ، وكان قد حزم أمر وارجلان ووجد بينها حتى صارت كتلة قوية يخشاها الظالمون ويتحاشون جانبها .

لم يشترك في المجال السياسي ولم يقم بأية حركة في هذا الميدان حسبما وصلت إليه في أبحاثي ، فكانت وارجلان في عصره مستقلة عن جميع الدول الحاكمة تحكم نفسها بنفسها . يقيم العلماء أحكام الإسلام فيها اعتماداً على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وسيرة الأئمة من السلف لاسيما أئمة الدولة الرستمية وما استنبطوا من أحكام . ولذلك فقد كانت ملجأ لعلماء الإباضية وزعمائهم طيلة قرن كامل يفرون إليها من الاضطهاد فيجدون في ربوعها الأمن الشامل في قلعة طنبعية لا تقربها يد ظالم ، وكان المقصود من هذا الملجأ الأمين إنما هو أبو صالح جنون . ويكفي أن يعرف القارئ ما يلي حتى يدرك المكانة الرفيعة التي كان يتمتع بها أبو صالح في ذلك الحين . عندما تغلبت الدولة

(١) من علماء القرن الرابع ، ذكره الباروني في الطبقة السابعة .

العبيدية على الدولة الرستمية واحتلت تاهرت كانت أعظم شخصية رستمية يخشاها العبيديون إنما هو أبو يوسف يعقوب بن أفلح . وهو حرى لو دعا الناس إلى مبايعته بالإمامة أن يستجيبوا له ويباعونه ولو بايعوه لاستطاع أن يكون دولة قوية تقف في وجه الدولة العبيدية التي بدأت تزحف وتمتد . ولذلك فقد كان قواد الدولة العبيدية حراساً على قتله أو الحصول عليه ، فأطلقوا من ورائه فرقاً من الجيش تطارده خوفاً من أن تتجمع من حوله السيوف وتقف معه الجموع كما وقفت مع جده العظيم عبد الرحمن . وجرت تلك الفرق من الجنود وراءه أشواطاً ولكنها أخيراً توقفت حين علمت أنه يتصد وارجلان الحصينة القوية ، وكان العبيديون يخشون إثارته فتجاشوها . ووصل العالم الكبير أبو يوسف يعقوب إلى وارجلان فاستقبله أبو صالح كما يستقبل الولد أباه . وكان أبو يوسف شيخاً كبيراً أما أبو صالح فقد كان في ريعان الشباب وعنفوان القوة . ووضع الشاب المؤمن الغنى كل ما كان له تحت تصرف الشيخ الكبير ، وعرض عليه أن يدعو الناس إلى بيعته . ولكن أبا يوسف كان قد استقر رأيه على رأى بعض علماء المذهب من الابتعاد عن المجال السياسى ، وتركه لأولئك الذين يتقاتلون عليه فاقنع وأحب أن يقضى بقية حياته فى هدوء . فمهد له أبو صالح سبيل الحياة الكريمة ، وأغدق عليه من ماله الغزير وأحاطه بما يحاط به أمثاله من العناية والتكريم .

هذه واحدة ، أما الثانية فقد كانت هى الأخرى فى الدولة العبيدية . وذلك أن المعز لدين الله الفاطمى حين قرر الانتقال إلى القاهرة كان يخشى على ملكه فى المغرب من الإباضية وكان يخشى على الأخص من العالمين الفاضلين الأمامين أبى خزر يغلا بن أيوب ، وأبى نوح سعيد بن زنفيل ، فقرر أن

يأخذها معه وأصدر أمره إليهما بذلك فاستجاب أبو خزر أما أبو نوح فتعلل بالمرض وعندما أراد المعز السفر أحضر إليه خليفته على بلاد المغرب وأوصاه أغرب وصية^(١) أوصى بها ملك جائر عامله على رعيته . وكان فيما أوصاه به أن لا يرفع السيف عن البربر . والبربر في ذلك الحين هم سكان البلاد . فتوقع أبو نوح أذى كثيراً يناله إن هو أقام في موطنه (الجمّة) قريباً من مركز الدولة وقرر أن يفر بأسرته إلى مكان يأمن فيه مكر الدولة العبيدية ومكائد الحكام الظالمين ورأى أن أنسب مكان له إنما هو وارجلان ، فاتجه إلى المغرب حتى وصل وارجلان وكانت في أحسن عهود ازدهارها كثرة سكان ووفرة ثروة وغزارة علم فتلقاه أبو صالح وأكرم وفادته وأسبغ عليه فضله كما فعل من قبل مع الإمام أبي يوسف يعقوب ابن أفلح .

ويبدو أن أبا نوح كان خائفاً يترقب ما سوف يقوم به الحكام الظالمون وقص مخاوفه على أبي صالح فقال له ما قاله سيدنا شعيب لسيدنا موسى عليهما السلام : ﴿ لا تخف نجوت من القوم الظالمين ﴾ . واستقر أبو نوح في وارجلان عند أبي صالح . وقد يسر له أسباب الحياة الكريمة ، والمعيشة الرغدة ، وبعد زمن حنّ الإمام الكبير إلى موطنه وعزم على زيارة أهله في بلده .

فاستمسك به أبو صالح وعرض عليه أن يقاسمه ماله ، ولكن الشوق

(١) لما أراد المعز لدين الله الفاطمي الانتقال إلى القاهرة أوصى خليفته على المغرب به - سيف ابن زيري قائلاً : « إن نسيت شيئاً مما أوصيك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من إخوانك أو بيتك شيئاً فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالمضر خيراً » .

إلى الوطن كان قد غلب على الإمام واستبد به وصمم على الزيارة .
رجع أبو نوح فعلاً إلى وطنه (الحمة) ولكنه وجد الأحوال قد
تغيرت على ما كانت عليه وتبدل الناس وسيرتهم ، وفعل الحكم الظالم ،
والفتن المتوالية فعله في دين الناس وأخلاقهم فتغيرت معالم الحياة وتبدلت القيم
في نظر الناس . فأصبح قسم منهم ينظر إلى ترف الحياة نظره إلى غاية سامية
يسعى إليها بكل ما في يده من وسيلة . وقسم قد اعتصم بدينه ، واستمسك
بأخلاقه ومثله . فأعرضت عنه رفاهية الحياة ، وجانبتة مادية الحكم ، واضطهده
الظالمون وأعوان الظالمين ومن يسير في ركابهم .

فندم أبو نوح على مفارقتة لوارجلان ، وخروجه عن صحبة أولئك
القوم الكرام .

كانت وارجلان عاصمة من عواصم الصحراء تبدو فيها بين الواحات
كالعماق العظيم وكان أبو صالح على هامة هذا العماق طيلة قرن كامل
يملاً الدنيا ديناً وعلماً وخلقاً وهماً صالحاً . كان رجال العلم يلجأون إليه
من كل مكان فيجدون في المدينة نعم المقر ، ويجدون من السكان نعم
الاخوة ، ويجدون من أبي صالح خاصة نعم الأب والأخ والصديق يضي
عليهم محبته ، ويقدم إليهم خدمته ، ويتولاهم بإرشاده ، ويوجههم بتعليمه ،
وينفق عليهم من ماله . ولعل القارئ الكريم يتطعم إلى معرفة بعض
الوقائع من حياة هذا الرجل العظيم فإذا شاء ذلك فإليه أمثلة منها .

١ - وقعت مجاعة في وارجلان ، وأصبح عدد الفقراء يزداد كل
يوم ، وما بأيدي الناس يتناقص حتى أحس أهل المدينة بالخطر ، وكان
أبو صالح من أكثر الناس ثروة وأكثرهم عملاً وأحسنهم ادخاراً . فلما

رأى ذلك في الناس بدأ ينفق عليهم من ماله بالتدريج الذي ينفق منه على عياله حتى نفذ جميع ما عنده ولم يفضل أسرته أو نفسه إبان الإنفاق بشيء ولم يدخر شيئاً حتى أصبح مثلهم لا يملك قوت يوم ثم جاء الفرج من الله .

٢ - مرت سنة عجفاء على أهل وارجلان فر فيها أصحاب المشية بجميع مواشيتهم إلى مواقع الغيث والخصب بعيداً عن وارجلان وقد أمسك أبو صالح عنده جملاً يعلفه وبعض شياه احتساباً للطوارئ واستعداداً للضيوف . ومضى زمن غير يسير على الناس لم يدوقوا فيه لحمًا فقدموا إليه وكان أبو صالح يلاحظ فيهم كل شيء ويسمع الواحد منهم يقول للآخر لقد مضى علينا كذا وكذا يوماً أو شهراً لم نذوق فيه اللحم فيجيبه الثاني بمثل جوابه فعمد أبو صالح إلى الجمل الذي يعلفه فنحره ثم قسمه على أهل المدينة جميعاً وسمع آخر الأمر أن أهل بيت لم يصل إليهم نصيبهم من اللحم فأمر خادمه أن يأخذ نصيب أسرته إلى أهل ذلك البيت ثم أمره فذبح لأهله شاة تعويضاً لهم عن نصيبهم الذي أخذه من بين أيديهم .

٣ - كان يشتغل في مزارعه كأنشط الزراع وأبرعهم واشتغل مرة بسقى الأجنة وتوزيع المياه عليها حتى فاتته صلاة المغرب مع الإمام وكان في ليلة جمعة من شهر رمضان فتألم لذلك أشد الألم وشق عليه هذا التقصير فأخذ في الصلاة بعد ما دخل المسجد واستمر فحاه أهله بظهوره فوجدوه قائماً يصلي فوضعه إلى جانبه ثم جاءوه بسحوره فوجدوه قائماً يصلي فوضعه إلى جانبه ولم يشتغل به حتى ظهر عليه الفجر وعند الصباح تصدق بطعام مسكينين فطوراً وسحوراً وقال عن نفسه : « هذا جزاء راع ضيع ما يرعاه » .

يعنى بذلك عقابه لنفسه بحرمانها من فطورها وسحورها وحملها على الصلاة

ليلة كاملة والتصدق على مسكينين . تكفيراً عن عدم حضوره صلاة الجماعة في المسجد مرة واحدة .

٤ — كان رجل سليط اللسان من أولئك الناس الذين يملو لهم التطاول . فأذى الشيخ ببعض ما يكره في يوم من الأيام . ودار الزمن وأصاب الناس مجاعة فأخذ أبو صالح يوزع الصدقات كما هو شأنه في مثل تلك الظروف ووقف ذلك الرجل المتطاول بين عيني أبي صالح يمد يديه للصدقة . وتذكر الشيخ الكبير ذلك الرجل وموقفه منه في يوم من الأيام ، وأحس في نفسه بوسوسة الشيطان . فزاد للرجل عما كان يعطيه لسائر الناس حتى يرغم أنف الشيطان . ودار الزمن دورة أخرى وحل بالناس ما يحل بهم في كل دورة من جفاف وما يتبع ذلك من جوع ووقف أبو صالح كما اعتاد أن يقف يوزع الصدقات ويفرق على الناس ما يقيمون به أودهم . ووقف فيمن وقف ذميلة يبدو عليها البؤس والجوع وتهامس الناس أنها بنت فلان للرجل الذي تطاول على أبي صالح وآذاه دون أن يحترم في شخصه الدين أو العلم أو الكرم وتحركت نوازع الشيطان وأحس أبو صالح أن إبليس يمرض أعوانه للعمل ولكن الله أخزى إبليس وأعوان إبليس على يد أبي صالح فرجعوا مدحورين ورجعت الفتاة بضعف ما حصل عليه أترابها .

• — كتب إليه ابن عم له في المغرب يدعوه إليه ويقول له مرغبتاً « يا ابن العم لقد أقت بأرض قفراء وعندنا أرض خصبة ، ففرش الكساء منها يوقر البعير حياً » فأجابه أبو صالح : « يا ابن العم إن أرضنا كريمة ، فعدة رجل منها توقر الجمل عسلاً » . يعنى النخيل . وأصر أبو صالح على البقاء في وارجلان وفضل الإقامة في هذه الواحة عن الرجوع إلى وطنه من أرض

المغرب الخصبية لأن خصوبة وارجلان في ذلك الحين إنما كانت في الدين والعلم والعمل ولقد أكرمه الله فأغدق عليه فيها التمر والعسل وجعله ملاذاً ومعاذاً .

٦ — جاء رجل من أهل وارجلان يستغثيه . وكان الرجل مقلاً وله زوجة ذات مال وثروة فسأل الرجل أبا صالح هل يجوز له أن يأخذ زكاة مال زوجه فتخرج أبو صالح ولم يجبه وأرجأه إلى أن يسأل من هو أعلم منه حتى وصل أبو نوح سعيد بن زنفيل فأقنى له بجواز ذلك بما هو معروف من مبادئ الفقه التي لا تخفى على أبي صالح وإنا هو الورع والتثبت في دين الله .

٧ — وجد أحد أبنائه كتاباً في السوق فاشتراه ولما رجع إلى البيت أخبر أباه وقرأ عليه فصولاً منه فكان أبو صالح يقول ودو كما يخاطب الكتاب : قد باعك من لا يعرفك ، واشتراك من لا يعرفك .

٨ — كانت له زوجة شرسة الطباع سيئة الخلق لم يتمكن أبو صالح من ترويضها وذات يوم كانت تعجن عجينةً للخبز فكلمها أبو صالح في شأن من الشئون لم يعجبها ففضبت ولطمت زوجها أبا صالح بيدها الملوثة بالمعجن حتى بقي أثره على وجهه . فصبر الرجل العظيم على حماقة المرأة الشرسة الوقحة . وعندما اجتمع بأستاذه الكبير أبي يعقوب الطرقي قص عليه ما وقع من زوجه فتبسم أبو يعقوب وأشار إلى زوجته هو . فقال أبو صالح : ما شأنها ؟ . فقال أبو يعقوب : لقد كانت البارحة تقلى بعض الحبوب لتصنع لنا سويقاً فكلمتها في شأن من الشئون فلم يرق لها كلامي وغضبت غضباً شديداً ثم أخذت المقل وضربتني به على رأسي حتى دخل المقل إلى عنقي كالطوق . فقال أبو صالح - أنت أنت - يعني أصبر مني وأعظم .

٩ - أوصى بنيه فقال لهم : يا بني .. إذا كان إبان غلتكم فتولوها بأنفسكم ولا تولوها غيركم حتى توصلوها موضع حرزكم . فإن لم تكونوا أصحاب غلة ولم يكن لكم بُدٌّ من شرائها فاشتروها ما دامت في أصولها ولا تتركوها حتى تصل إلى الحرز فيضعب إحراجها . وإن لم تكونوا أصحاب غلة ولا قادرين على شرائها وتنزاتم إلى طلبها فاطلبوها قبل دخولها إلى الحرز ، فيسهل عطاؤها - والثانية إن كنتم في بلد فأول ما تلمسون لأنفسكم السكن ، فإن من سكن في مسكن غيره ، فإما أن يكون عنيماً . وإما أن يكون فقيراً . فإن كان غنياً ووسع على نفسه سماه الناس مبدراً . وإن ضيق سموه مقتراً ، وإن كان فقيراً قالوا ليس وراء هذا إلا الأذى بالدخول والخروج . ومن كان في مسكنه يستر عليه غناه وقره ، ولا يعرف الناس له عيباً - والثالثة إذا أقبل الشتاء فخلصوا كسوة شتوتكم فإن من بات مبيت سوء ليلة واحدة لا يخلفها أبداً . والذي تخلقون من ثيابكم فيه بقية ومنفعة للصيف المقبل ، وكف للألسنة عنكم .

أحسب أن هذه الوقائع التي نقلتها للقارئ الكريم تضع إطاراً عاماً جامعاً للصورة التي نحاول أن نرسمها لهذا الرجل العظيم في شخصه وفي سلوكه . وهل ترى أكرم ممن ينفق في المحل لا يترك شيئاً لنفسه وأهله ولا يفضلهم بشيء على غيرهم بل ويتمسك برغباتهم وشهواتهم فإذا أحس أنهم قرموا إلى اللحم عمد إلى خيار ماله فذبحه لهم ، وهل ترى أعظم ممن يلتجئ إليه الزعماء الذين تطاردهم دول وجيوش حتى إذا وصلوا إليه وجدوا في كنفه الأمن والسلام والعيش الرغيد والحياة الكريمة .

وهل تجد أتيقن بالله من تقوته صلاة الجماعة مرة واحدة لانشغاله بعمل

مندوب إليه فيعاقب نفسه على ذلك بمواصلة الصلاة ليلة كاهلة وحرمان نفسه من الأكل وإطعام مسكينين .

وهل تجد أصبر على الأذى ممن تقوم إليه زوجته ويدها ملطختان بالمعجن فتصفعه حتى يبقى أثر المعجن على وجهه الكريم فلا يزيد على الحوالة والاستغفار .

وهل تجد أحلم ممن يقف بين يديه رجل قد سبقت منه الإساءة إليه والتطاول عليه فلا يجد من نفسه إلا أن يتصدق عليه بضعف ما يتصدق به على غيره إرغاماً لأنف الشيطان .

رحم الله أبا صالح فقد كان كما قال أبو العباس الدرجيني « ذو الورع والسخاء وصالح بركات الدعاء ، وهو أحد أقطاب الدين ، وشمال اليتامى والمساكين » .

أبو نوح سعيد بن يخلف (١)

أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي علم من أعلام مزاته ، وعظيم من عظمائها كان يعيش عيشة أهل البادية ، ينتقل بأنعامه الكثيرة بين الأقطار الثلاثة : الجزائر وتونس وليبيا - طلباً للعرى ، وجرياً وراء الخصب ، قال عنه أبو العباس الدرجيني : « وكان ذا سعة في العلم والمال ، رحيب الصدر فيهما عند السؤال ، لا يضجر من السائل ، ولا يعيا من أجوبة المسائل ، والورع في كل ذلك دليلاً ، والرفق خليلاً » .

كان أبو نوح صاحب إبل وغنم وخيل ، يتأثر خطأ أبي باديس أبحاث ، ويقتدى به ، وكان من أفذاذ العلماء ، فهو يجمع بين سعة المال وسعة العلم ، ومتانة الدين وكان يعيش في عصر انحرف فيه الحكم عن دين الله ، فهو ينتظر يوماً تشرق فيه شمس العدالة في دولة إسلامية نزيهة الحكم ، سليمة المقصد ، قوية الاتجاه ، مسامة المنهج .

ولذلك فهو لا ينفك بعد لذلك اليوم ، ويجمع له المال . فيحافظ له عليه ويعد الخيل ويربها ويرعاها ، ويجمع السلاح والعتاد ووسائل القوة ، حتى إذا جاءت الدولة المسلمة التي ترعى كتاب الله وتعمل بحكمة ، وقف إلى جانبها وأمدّها بالمال والسلاح وكان من أشد أنصارها ، وأقوى أعضادها ، وأصلب أعوانها على إقامة الحق والعدل . ولكن القدر لم يحقق له هذا الأمل ولم يتح له هذه الفرصة ولم تتكون تلك الدولة التي كان يرجوها له ويعد لها كان أبو نوح فارساً من أعظم الفرسان . وكان يختار من رعائل خيله

(١) من علماء القرن الرابع ، ذكره الباروني في الطبقة الثامنة .

أعرقها نسباً وأعتقها منظراً ومظهراً فمتخذها لنفسه يركبها في أسفاره الكثيرة ، ويحج عليها إلى بيت الله ويزور بلاد الإسلام يتعرف فيها على أحوال المسلمين في كل مكان ، وكان ورعاً شديد الورع ، محافظاً شديد المحافظة يأخذ نفسه بالعزيمة ولا يجنح إلى الرخصة ، يحاسب نفسه على الكبيرة والصغيرة أشد المحاسبة ، ويحرص أشد الحرص أن يكون دائماً مع ربه على أوثق العلائق .

كان كما أسلفت كثير الأسفار وكان يعيش في البادية وكان بييت في الخلاء وكان يقطع المسافات الطويلة والصحارى الشاسعة ما بين الجزائر وليبيا منفرداً أو مع رفقة ومع ذلك لم يُصَلِّ بقميص قط . وكان قد خصص لصلاته ثياباً لا يلبسها في غير حالة الصلاة أبداً فإذا حضرت الصلاة تطهر ثم عمد إلى خرج يحتفظ به معه دائماً فأخرج ثياباً نظيفة طاهرة ، فصلى بها فرضاً أو سنة أو تطوعاً أو كاهاً ، فإذا قضى صلته طوى تلك الثياب ثم أعادها في مكانها من الخرج نظيفة طاهرة ولبس لباسه العادى وذلك لأنه كان شديد الاحتياط في موضوع الطهارة . فإن اللباس العادى قد تمسه أو تعلق به بعض النجاسات بعلم أو بغير علم وهو يتنقل بين مراتب الغنم ومعادن الإبل واصطبلات الخيول .

وقد عود نفسه على أنواع من العبادة لم يتركها قط في حضر ولا سفر فقد كان يصلى صلاة الضحى فلم يتركها طول حياته ، كما أنه اعتاد أن يصلى الصلوات في أوائل أوقاتها لا يؤخرها أبداً فإذا كان في سفر وحل وقت الصلاة أوقف فرسه ثم نزل فتطهر ثم يصلى الصلاة الحاضرة ، فإذا أتمها ركب فرسه فلتحق بالرفقة إن كان له رفقة ، وموقفه من صلاة الفرض هو موقفه

من صلاة السنة وصلاة التطوع التي اعتادها ، وكان مما اعتاده نوم الظهر فكان لا يتركه في حضر ولا سفر ، فعندما يحل وقت التميل وهو مسافر فإنه ينزل عن فرسه ثم يضرب بجنبه على الأرض فينام نومة الظهر ثم يقوم فيقظهر ويصلى ويركب جواده فيلحق بالرفقة ، وكان هذا دأبه حتى توفاه الله .

أعتقد أن ما حدثتك به عنه إنما يعطينا بعض الخطوط إذا أردنا أن نرسم صورة لرجل مسلم يعيش في بيئة لا تساعد كثيراً على الاستمساك بطرق العبادة والاعتماد في جميع الأحوال على العزيمة دون الرخصة ، ولعله وأمثاله يقومون حجة على المسلمين الذين يجدون من انشغالهم بالأعمال اليومية والدنيوية الكثيرة أعذاراً يستندون إليها في الإهمال والتهاون عن أداء فرائض الله .

أما إذا أردنا أن نرسم له صورة تمثله في الجانب العلمي فإن لذلك قصصاً ووقائع تدل على ما يتمتع به الرجل من غزارة العلم واستقلال النظرة ، ونباهة البصيرة ، ومراعاة لمصلحة الأمة ، وذكاء نفاذ إلى معرفة الملل الحقيقية الشرعية لأحكام الله . كان لا يفتأ يفتي بوجوب مراعاة مصلحة المسلمين ، وصيانة أموالهم حتى وهم غائبون ، وكان يقول مهما تصرفت في أموال الناس ، بقصد أن تدخل عليها مصلحة في ذلك أو تدرأ عنها مضره فإنه ليس عليك تباعة في ذلك ولو لحقها بعض الضرر .

وتذكر كتب التاريخ أنه يسير في الحياة بمقتضى فتواه وينفذها فيما يتطلب ذلك منه . فقد كان في يوم من الأيام راكباً على فرس يتبعها مهر ومر بجانب مزرعة لأحد الناس ، فرأى في وسطها قطعاً من البقر

فلوى عنان فرسه إلى المزرعة ودخلها راكباً يطرد عنها البقر ولم يتحرج مما قد تطأوه أرجل الفرس أو المهر أو ماعساه يختطفه المهر وهو يجرى وراء أمه وقدر أنه يباح له هذا الضرر القليل ليعتد عن المزرعة الضرر الكبير .

كان أبو نوح سعيد بن يخلف متواضعاً كريماً سهل الخلق طيب النفس لا يتكلف ولا يتعلق عظماء الناس ، ولا يتظاهر بالغنى أمامهم أو يترفع عنهم . وعندما وقعت مجاعة محرقة بسبب جفاف طال أمده في الجزائر وتونس ، وفساد في الحكم امتد وطال ، وفتن عمياء كانت توعد نيراسها نزاعاً على السلطة فلا تنظفء ؛ ارتحل أبو نوح بمواشيه إلى الأراضى الليبية وقد اختار لها تلك السهول الفسيحة الممتدة بين البحر وزوارة من الشمال وجبل نفوسة من الجنوب . وقد زاره هناك الإمام الكبير أبو نوح سعيد بن زنفيل أيام محنته حين كان يطارده الظالمون من أتباع الدولة العبيدية فيتنكر في ثياب رعاة الإبل فكث عنده أياماً فكان يقدم له (العصيدة باللبن) وهي أكلة ليبية معروفة يتقنها أهل البادية وأشباههم ويميلون إليها لسهولتها وخفة مؤنتها فكان يقدمها في حياء ويقول للإمام : « كل ياشيخ فإني لا أعتذر لمن أدعوه له بالجنة وأرجو أن يكون من أهلها » .

وأبو نوح سعيد بن زنفيل حينما ذهب إلى وارجلان وبقي في ضيافة أبي صالح جنون تمير أبو صالح في طعامه وبحث فلم يجد في وارجلان كلها إلا امرأة واحدة حاذقة بألوان الطهى فخصصها للإشراف على ما يقدم لأبي نوح وكانوا يحسبونه مرفهاً . كان أبو نوح سعيد بن زنفيل وهو في ضيافة أبي نوح سعيد بن يخلف حين يقدم إليه طعامه (عيش ولبن)

ويعتذر له مضيفه بذلك العذر اللطيف يسر وينشرح صدره بهذه البساطة ويستلذ ذلك الطعام البسيط ويفضله على كثير مما يقدمه إليه الآخرون من الذبائح والاحتفال في إعداد الطعام وتعدد ألوانه وأشكاله من ليسوا في مكانة أبي نوح الدينية والخلقية .

ولعل أحسن ما نختتم به هذا الفصل ما قاله أبو العباس الدرجيني :
« وكان كثير المال كثير الأضياف ، لا يرد بابه دون أمل » .

أبو عبد الله محمد بن بكر^(١)

« الطود الذي تضاءلت دونه الأطواد، والبجز الذي لا تقاس به الثماد .
أقامه الإباضية مقام الإمام ، في جميع الأمور والأحكام ، أسس لهم قواعد
السيرة ، وله في كل فن تآليف كثيرة » . هذه شهادة انفق عليها المؤرخان
الكبيران : الدرجيني والشماخي ، وهي تشير بإيجاز إلى منزلة أبي عبد الله
عند الإباضية ، وإلى ما كان يتمتع به من ثقة وإكبار عندهم . ولسكنها
مع ذلك لا تكفي لإعطاء صورة واضحة عن هذا الإمام العظيم الذي يعتبر
بحق أحد أولئك الأعلام القلائل الذين يوجدون في فترات متباعدة من
الزمن ، فيوجهون البشرية في أطوار من التاريخ فيمتغير التاريخ بتوجيههم .

لقد كان أبو عبد الله بآرائه وتعليمه وتوجيهه وسلوكه فاصلاً واضحاً
بين طورين من أطوار تاريخ الإباضية في المغرب الإسلامي .

ولد أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي في منتصف القرن الرابع
الهجري بمدينة قرمطاء العظيمة حينئذ والقريبة الصغيرة المنعزلة الآن على ربوة
مرتفعة فوق قمة شاذحة من قم جبل نفوسة تطل على واد عميق تتناثر فيه
أجنة^(٢) فسيحة ترتفع منها نخلات باسقات وتجم فيه أعداد من شجر التين
المخضر في الصيف ، العاري في الشتاء ، من أسرة مشهورة بالعلم والعمل
والصلاح ، فقد كان أبوه وجده من علماء الجبل ، ولهما في كتب الفقه أقوال

(١) ولد سنة ٣٤٥ هـ حسبما ذكره أستاذاً باكلى عبد الرحمن وتوفي سنة ٤١٠ هـ .
(٢) كثيراً ما استعمل كلمة (أجنة) جمماً لكلمة جنان قياساً على (أسلحة) جمع سلاح
وأظمة جمع نظام وإن كان الشائع استعمالها جمماً لكلمة جنين .

منتشرة في مختلف مسائل الفروع . درس على مشايخ الجبل حتى بلغ مرتبة رفيعة ثم رغب في المزيد لا في العلوم النظرية فإن معين العلوم النظرية في الجبل حينئذ كان لا ينضب ولكنه أراد أن يدرس علوم الاجتماع والمشاهدة وسافر من فرسطاء إلى جزيرة جربة فدرس على بعض مشايخها حتى استوعب ما عندهم ثم انتقل إلى القيروان وكانت حينئذ عامرة بعلماء الإباضية فعد عند أحد مشايخها حتى استوعب ما عنده فقال له الشيخ: أوصى بك إلى من هو أعلم مني . فانتقل إلى أبو محمد ولم يلبث إلا يسيراً حتى استوعب ما عنده لما رزق من الذكاء والحرص والجد وقرر أن يرجع إلى البحر الذي لا ينضب : الإمام أبي نوح سعيد بن زنفيل ذلك الفتي الذي شهد له المعز الفاطمي بالبراعة في النقاش فقال فيه : (أما سعيد فتى مجادل) وبعد دراسته على أبي نوح . ابتداء عهد الكفاح في العمل - وربما بتوجيه من أبي نوح - متقلبين بلاد الإباضية في المغرب الإسلامي فرجع إلى جبل نفوسة وبني هنالك مسجده المعروف إلى الآن في بلده فرسطاء وكان قد وضع الخطوط العريضة لنظامه المعروف بمعاونة أبي زكرياء بن أبي مسور فدعا إليه في الجبل وطبق في بعض الجهات ولم ينتظر حتى يعم جميع مناطق الجبل فقد كان مطمئناً وإنما قرر الانتقال إلى بلاد المغرب فر بجرية من جديد وهمل على إقرار النظام بمساعدة علماءها ثم تنقل بين بلاد الإباضية في الجنوب التونسي وكانوا في ذلك الحين مضطهدين محاربين يستبد بهم الخوف من الظلم المرير المتواصل فلم يستطع الإقامة هنالك ومر ببلاد قسطنطينية بسرعة كما مر من قبل بجبال دمر وغيرها حتى وصل جنوب الجزائر من وغلانت وبلاد أريغ ووارجلان وبادية بني مصعب فاستقر به المقام هنالك وظهرت نتائج كفاحه (١٢ - الإباضية)

المشورة . ابتداء من سنة ٤٠٩ التي تم فيها صياغة نظام العزابة في صورة مواد قانونية .

هذا ملخص سريع لحركته الإجمالية ولعلنا نساعد القارئ الكريم في تكوين صورة عامة عنه بالاقطاط الآتية التي نجعلها بين يديه وهي تكمل بعضها البعض لتعطي صورة متناسقة لذلك الرجل العظيم .

كان الإباضية في المغرب الإسلامي كسائر فرق الأمة ، يعنون عناية فائقة بقضية الحكم ، ويعتقدون أن المجتمع لا يقوم على الإسلام بدونه ، ويعملون بجهد على إرجاعه إلى ما كان عليه في عهده الزاهرة من النزاهة والاستقامة والعدل ويطالبون الدول القائمة بذلك . وحاولوا هم أن يقوموا بهذا الدور للأمة المسلمة ، وقد ضربوا في ذلك أمثلة رائعة حفظها لهم التاريخ . ويمتد هذا الطور من دخول الإباضية إلى المغرب الإسلامي إلى نهاية انقراض الدولة الرستمية أو بعدها بقليل .

بعد انقراض الرستمية انصرف الإباضية عن الاهتمام بقضية الحكم ورئاسة الدولة ومظاهر السلطة العلنية - إلى الاهتمام بالمجتمع ومحاولة حمله على السير في المنهج الإسلامي في شئون الفرد وشئون الجماعة دون أن يتعرضوا لقضية الدولة ومن يتولى الحكم . على أن موقفهم هذا لم يخل من تطلعات في كثير من الأحيان إلى إقامة دولة وكثيراً ما تطرح اقتراحات بهذا الشأن على بعض الشخصيات التي تلتف حولها الجماهير .

فلما جاء الإمام أبو عبد الله الفرسطاني أعرض عن التفكير في قضية الحكم وتكوين الدولة . وقرر نظامه الذي اعتبر أحسن بديل عن قيام دولة عادلة وكان هذا النظام فتوى جميع الشئون وكل القضايا حسب حكم الله

ما عدا الأحكام الخاصة بالإمام كإقامة الحدود وما شابه ذلك من الأمور التي تتعلق برئيس دولة قائمة .

قرر أبو عبد الله هذا الاتجاه ، واتخذ له قواعد وأسساً ، ودعا الناس إلى السير عليه ، ونفذه في حياته ، ودرس عليه تلاميذه الذين يبلغون المئات من جميع الجهات ، والذين كانوا يكونون معه فرقاً من الشباب المؤمن الحريص على طاعة الله المتفاني في خدمة الدعوة ، وكان أولئك الشباب يتسابقون إلى تنفيذ أوامر الشيخ وتلبية طلباته والقيام بأمره ويقومون معه بإبطال المنكر حتى بالقوة إذا عرف أن ذلك لا يؤدي إلى فتنة تضر بالمسلمين .

ولقد أوتي أبو عبد الله من الصفات ما يؤهله لأن يبلغ أعظم منزلة في نفوس الناس . ولو اتجه اتجاهها سياسياً ودعا الناس إلى بيعته لأجمعوا عليه وكان خليقاً أن يفوز .

ولكن الرجل كان يبتعد عن مظاهر السلطة وينأى عما يجر إلى سفك الدماء ، ويتجاشى العظمة الزائفة التي يتهاوش عليها طلاب الدنيا . ويتهاككون عليها حتى يهلكوا في سبيلها .

كان يعمل في اتجاه مضاد لتلك المظاهر ، يدعو الناس إلى المحبة والتعاون ويجمع قلوبهم على عبادة الله والخضوع له وحده . والالتجاء إليه فيما حق وجل من الأمور . وإرجاع جميع الشئون إلى كتاب الله الكريم أو سنة رسوله العظيم عليه أزكى الصلاة وأفضل التسليم . أو إلى سيرة المهتدين من خيار المسلمين في خير القرون .

١ - كان ألمعياً حاد الذكاء ، يفهم الخاطرة ، ويدرك اللمحة العابرة ،
ويصل إلى المعنى الباعث على حركة ، ويتغلغل إلى ما يختلج في أعماق النفوس
من محدثيه .

قال أبو الربيع : كنت عنده يوماً فقدم بسراً^(١) لعمال يعملون عنده .
قال : كل معهم ياسليمان فامتنعت . قال : كل فإن من يطاوع مشكور
الحال .. فأردت أن أقول : ولو فيما لا ينبغي؟ فأمسكت . فاطلع على ما كتبت ،
وكشف مما عنه سترت . قال : يا سليمان : ذلك ليس بمطاوع . فنطق به
قبل أن أظهره له . إن الاختلاجة . اليسيرة التي اختلجها أبو الربيع حين هم
أن يتكلم ثم سكت فهمها أبو عبد الله وأوضحها بنفس العبارة التي كانت
تتردد في ذهن التلميذ النجيب .

٢ - كان يهتم بكل شأن من شئون المسلمين يرعى الغلاميد ويتولى
الإفناق عليهم ويرعى المجتمع ويتولى توجيهه وإرشاده ، ويرعى الفقير ويسد
عليه فقره وعوزه ويرعى الغائب في أهله حتى يؤب ، ويرعى الأرملة واليتيم .
وقد كانت جميع أمور الناس ومشاكلهم تلتقي عليه ، فكانت تجد الحلول
السليمة ، والأحكام الشرعية الصحيحة ، والإجراءات التنفيذية السريعة .
ولهذه الميزات وثق به الناس فالتقوا إليه بمقاليدهم أمورهم ، ترفع إليه المشاكل
للحل ، وتجمع عنده الأموال للإفناق في سبيل الخير والمنفعة . ويتجمع لديه
الشباب للتعلم والتدرب على العمل .

جاءته امرأة تذكر له أنها من حيث المال والنفقة في نعمة ورغد تحمد

(١) اليسر : البلج بعد أن يصفر وقبل أن يرطب .

الله عليهما ولكن زوجها قد سافر إلى ليبيا. وأطال الإقامة هناك عدة سنوات وقد أصابها ما يصيب مثلها من الضرر وكان على زوجها أن يأخذها معه أو أن يعوذ إليها بعد غياب معقول ولو في فترات متقطعة أو أن يطلقها. واستمع الشيخ الكبير إلى شكوى المرأة ورأى ما فيها من الحق وأدرك الحالة النفسية لهذه المرأة المحرومة فوعدها خيراً وفي نفس الوقت دعا إليه شابين من خيرة طلابه وأمرهما بالسفر إلى مقر الزوج وحل المشكلة على أحد الوجوه الثلاثة السابقة. وسافر الشبان حتى لحقا بالرجل في مقره في ليبيا وعرضا عليه حكم أبي عبد الله فاستجاب الرجل للحق وأنحلت المشكلة التي كانت تعاني منها امرأة بائسة أضربها تهاون الزوج وحرمها إهماله استقرار النفس وطمانينة الحياة.

٣ — كان يهتم لكل ما يعرض عليه من دقائق الأمور وجلائلها فيتولى الحكم فيها بفهم نير لحكم الإسلام من جهة ودراسة نيرة للنفس البشرية من جهة أخرى.

اقترض ينكول بن عيسى - وهو عالم مؤمن غزير العلم قوى الإيمان ولكنه كان مقلاً كأكثر العلماء في مختلف العصور - مبلغاً من المال من أحد الناس وتوفى قبل أن يتمكن من تسديد الدين.

واجتمع المشائخ لشأن من الشئون وكان في الاجتماع صاحب الدين على ينكول فتذاكر القوم الفراغ الذي تركه ذلك العالم العظيم فقال صاحب الدين: إن لي عليه ديناً وقد مات ولم يوفه فضاع مالي. قال داوود بن يوسف: على تخليص دين ينكول، فقال سعيد بن إبراهيم: بل على قضاء دينه. فقال

محمد بن الخير : أنا أوسع الجميع مالا وأولى بقضاء دين ينكول . فلما رأى صاحب الدين حرص الجماعة على دفع ذلك الدين أدرك مقام الرجل وعرف ما في مساعدته من خير وأجر ، فقال : لقد تركت مالي على ينكول . واستمسك كل واحد بموقفه وأصر عليه ، وأخيراً عرضوا القضية على أبي عبد الله . فقسم أبو عبد الله الدين على خمسة أقسام وطلب من كل واحد منهم أن يدفع خمساً إلى صاحب الدين ودفع أبو عبد الله معهم خمساً ، وترك صاحب الدين خمساً وهكذا انحلت المشكلة باشتراك الجميع بعد أن تشاد فيها ثلاثة من فحول العلماء .

٤ - كان رقيقاً حلماً محبباً للخير . ولكنه مع ذلك كان قسوى الشخصية مهاباً وكان لا يسكت عن منكر يراه فكان يعالجه باللين والموعظة الحسنة وقد يشتد على المخطيء ويصرح له بخطئه في مجمع من الناس إذا خاف أن تصل أضرار الخطأ إلى الجماعة حتى يحترس الناس منها .

زار (واغلانت) فوجد بين أهلها تدابراً وتنازعاً فجمهم وجعل يتحدث إليهم ليلى الشعث ويجمع الكلمة وكان في الجماعة رجل من (لوانة) يسمى (أبدأ^(١) الله) وكان أبدأ الله هذا من محبي الظهور والزعامة ، وكان هو من أسباب الفتنة والخلاف ، وكان يرى لنفسه عظمة وفضلاً فراجع أبا عبد الله الفرستائي في بعض حديثه دون أن يسأله الإمام فالتفت إليه الإمام في شدة المؤمن وقوته في الحق وقال له :

« يا أبدأ الله ليس واحد أفضل من جماعة إلا رسول الله صلى الله عليه

(١) هو تحريف لعبد الله ويستعمل كثيراً عند بعض القبائل البربرية كما واة ولطة في القديم وحروف الحلق يثرب بعضها عن بعض أحياناً في اللغة البربرية .

وسلم . اعلم يا أبا عبد الله أن من يتكلم وقد احتجج إلى كلامه فقد ابتلى ببليته ، ومن يتكلم ولم يحتجج إلى كلامه فقد ابتلى ببليتين » ، ثم استرسل في توبيخه وتقريعه وبيان فضل الاتحاد والتعاون والذوبان في مصلحة الجماعة حتى صار الرجل عبرة ، وبعد أن كان ينزع منزع الظهور والزعامة أصبح ينزع منزع الاستخفاء والاستتار واتحد الصف واتحدت الكلمة .

٥ - عندما يتمكن الانحراف بقوم ولا تجدى فيهم وسائل الوعظ والإرشاد والتوجيه فإنه يتخذ معهم موقفاً أقسى عليهم من ذلك .

كانت قبيلة بني ورماز إحدى القبائل الضاربة حول أريغ قد انحرفت بسلوها عن النهج السوي للمسلمين . فكانت تشتغل بالغارة ، وتقطع الطريق عن المسافرين وتبتز الأموال بالعنف والقوة من المسالمين إلى غير ذلك من أنواع الفساد الذي اعتادته بعض القبائل التي لم يتمكن الإيمان من قلوبها . فجمع الإمام أبو عبد الله أهل أريغ وحدثهم في الموضوع . وعرض ما يرتكبه أولئك الجفأة المفسدون ، وشرح لهم ما يقاسيه المسافرون . فقام إليه أحد كبار أريغ ومسموعى الكلمة فيهم فقال : وما نقدر عليه نحن ؟ . فغضب الإمام لهذا الضعف المستخذى ، وقال له :

« إذا لم تقدرُوا أنتم على الضرب على أيدي هؤلاء المعتدين المفسدين ، فإننا نحن نقدر على أنفسنا » .

ومن الغدار تحمل بأهله وتلاميذه ونزل بإيقران في ضواحي وارجلان .
وتمادى بنو ورماز في الفساد من قطع الطريق وسلب المارة . ففسدت أحوال أريغ وهجرها الناس لما يلحقهم من بني ورماز هؤلاء من الأذى .
وافتقد أهل أريغ ما كان يملأ مساجدهم ومجتمعاتهم من دروس العلم والوعظ

وما يقوم به أولئك المؤمنون من أنواع العبادة أطراف الليل والنهار .
وغابت عنهم أفواج الطلبة الذين كانوا يغدون ويروحون بين بيت الله
ومدارسهم وأمكنة إقامتهم . وهكذا تغيرت عليهم الأحوال مادياً وأدبياً ،
فلا أسواقهم بقيت عامرة ولا مساجدهم ومدارسهم كما كانت . واجتمعوا
ودرسوا الموضوع وعلّموا أن ما أصابهم كان لسبب خلافهم لأبي عبد الله
وهجرانه لهم .

فقرروا أن يبعثوا إليه وفدًا يدعو للرجوع . وتكون الوفد فعلا
وذهب إلى أبي عبد الله فلما اجتمع الوفد بالإمام رأى أن يجرب معه الجانب
المادى لعله يأتي بنتيجة فقال له قائلهم :

إن ضيعتك قد أقيمت غلتها وهي في هذه السنة أجود منها في جميع
السنوات السابقة ، ومن الخسارة أن تتركها ولا ترجع إليها في هذا الموسم
الجنى . فأشار أبو عبد الله إلى شجرة أمامهم وقال لهم : « إن ضيعتى بالوصف
الذى تذكرونه هي وهذه (الزيتا)^(١) عندي سواء .

إننى أصبحت بينكم في حالة لا يرضاها الحر ، يقبل الناس على من
أطراف الأرض للاستفادة أو التعليم أو الزيارة فإذا بلغوا نواحي أريغ
يعدو عليهم المفسدون فيقتلونهم أو يسلبون أموالهم . وعدت عليهم وقائع
كثيرة . فلم يجدوا له جواباً ورجعوا آسفين إلى بلدكم ، وقرروا أن يطهروا
أرضهم من الفساد ، فجدوا في ذلك ونجحوا فلم تمض عليهم سنة حتى أمنت
السبل ، وساد السلام ، وعمرت الطرق ، وعرف الداني والقاصي بذلك .

(١) زيتا : نوع من أنواع الشجر لا ثمر له ينبت في السباخ والمياه اللعنة ولا تأكله
الميوونات وليس له خشب يصلح للوقود أو غيره .

وكونوا وفداً جديداً يستدعى الإمام فلبى الإمام الدعوة ورجع إلى مكانه من بلاد أربغ .

٦ — كان من أحرص الناس على الأتحاد والتضامن والتعاون ، وكان أكره ما يكره الفرقة والشقاق ، وكان يمتت الأشخاص الذين يسعون إلى الخلاف أو يتسببون فيه . وكانت دروسه في الوعظ والإرشاد تنصب على هذا الجانب ويضرب الأمثلة العديدة من واقع الحياة في البلاد التي يعيش فيها ومما كان يقوله في هذا الباب :

« مثل الجماعة كالخشبنة المتينة المتأسكة ومثل الفرد الذي يستغنى برأيه ويدعو إلى الفرقة والخلاف كمثل الوتد الذي يضرب في الخشبنة .

فتفريق الجماعة يكون بسببه وذلك أنه إذا استبد برأيه في أمر تنبى فيه المفاوضة فإنه يكون حرياً أن يخطيء فإذا أخطأ فلا بد من اجتماع الجماعة للنظر في أمره ، فإذا أخذوا في الكلام لم يعدموا من يقوم مغضباً للمخطيء يدافع عنه فيكون مخطئاً مثله ويكون بمثابة الودد الثاني الذي يدق لشق الخشبنة ، فإذا أرادوا أن يتكلموا عن الودد الثاني لم يعدموا شخصاً ثالثاً يدافع عنه فيكون هذا الثالث بمثابة الودد الثالث الذي يدق في شق الخشبنة . وحينئذ تتفرق الجماعة ، ألا ترى أن الخشبنة بعد الودد الثالث تصير اثنتين . فلا ينبغي للمسلم أن يستأثر برأيه فقد ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال :

(من استغنى برأيه ضل . ومن هجم على الأمور عطب) .

٧ — كان كثيراً ما يعالج ما يحدث للجماعة من الخصومات والشقاق بالوعظ والإرشاد وضرب الأمثال . وقد يقسو عليهم في أمثلتهم ومن ذلك قوله :

« أهل زماننا كالتيوس إن اجتمعوا تناطحوا وإن افرقوا
تصايحوا » .

وكان يقول : « قطيعة الرحم كبر العضو من الجسد لا يربط ولا يخالط
ولا يناط » وكان يقول : « أهل زماننا كالأرض السبخة إن ابتلت أزلت
وإن يبست خدشت » .

٨ — كان يتأني في أحكامه ولا يتعجل ، ولعل أحسن مثل لذلك هذه
القصة التي يقصها عن نفسه ويرويها الدرجيني قال :

« خرجنا في حلقة زائرين أهل الدعوة فلما صرنا في بعض بلاد الساحل ،
خرج أهل المنزل فلقوننا وأدخلونا وأحسنوا نزلنا ، ودخل معنا رجل ممن
كنت أعرفه من تلامذة شيوخى ومن قرأ معى وإذا هو قد لبس كساء
خشياً ، وفي رجله قرق قلعى وعلى رأسه شاشية حمراء ، وفي يده مزراق ويرفعه
ويضعه فأدخلونا المنزل ، وقد عزمتم على هجران صاحبنا المذكور ، ثم إن
الرجل دخل بيننا وأدخل معنا رجلاً من أعوان الجبابرة ، فازددت عليه
حنقاً ، وتضاعف غضبى عليه ، فأكلنا طعاماً إلى آخره وفرغت القصعة ،
وجعل القوار يتصاعد من قعرها ، ولم أر قبلها قصعة تفور بعد فراغ الطعام
منها . وذلك لشره الأعوان ، وشدة أكلهم وقلة أدبهم . وكان ذلك مما
زادنى حنقاً ، وقوى عزمى على هجرانه . إلا أنه كان من لطف الله أن
حبست نفسى ولم أعجل عليه . قال : فبعد انصرافهم أدخلنا بيتاً آخر ليس
فيه إلا العزابة وأحضر طعاماً حفيلاً وقال : كلوا فلطنا نؤدى بعض حقوق
الإسلام وأهله ، ويكفيهم ما تعلق بنا من طعام كنا نأكله من أموال أهل
الدعوة في حرمة هذا الإسلام . ثم قال : ما دعانا إلى ما ترون من مواكلتكم

غير الجنس إلا المداراة عليكم . قال : فأنحل بعض ما اعتقدت ، ثم دعونا وانفصلنا إلى المسجد فلما كان وقت صلاة الأولى إذا بالرجل قد جاء فطلع وأذن فأنحل بعض ذلك أيضاً ثم جاء فركع ما شاء الله ثم أقام الصلاة فلم يجد من يقوم ليؤم فتقدم هو وأم بالجماعة ، فأنحل بعض ذلك أيضاً ثم دعا وقام وركع ما شاء الله ثم جلس وأخذ الكتاب وجعل يقرأ ويفسر ما أشكل فيه فأنحل جميع ما اعتقدت عليه ، وحمدته واستحسننت حاله ، وحمدت الله إذ لم يكن لي إليه عجلة بنشاط ولا معاملة بمكروه .

٩ - كان جم التواضع كثير الاهتمام بأمور الطلبة يعيش بينهم كواحد منهم ويفضبه أن يخص بشيء دونهم ، أو يؤثر عليهم . فإذا ما أهدي إليه شيء قسمه بينهم إن كان مما يقسم . وإلا أعطاه لصغارهم أو للمحتاجين منهم إليه . وكان يشاركهم في الأعمال التي يقومون بها أثناء رحلاتهم وإفاماتهم يساعدهم على بناء الخيام ويجمع معهم الحطب ويتولى معهم تنظيف المكان وإعداده للإقامة والاستقرار .

ذكر ياجرين بن جعفرانه حين كان تلميذاً في حلقة أبي عبد الله اجتمع الطلبة لتنظيف غار لهم يخرجون منه الكناساة وأكداس التراب فكان أبو عبد الله يشتغل معهم ويحمل التراب على عاتقه حتى يرميه في المزبلة فقال له ياجرين : اعد يا شيخ فإن الطلبة يكفونك . فأجابه الشيخ : أو يحملون عني ذنوبي يوم القيامة . فقال له ياجرين : إذن فاحمل كثيراً كثيراً . وكان الشيخ ضعيف البنية يحمل ما يطيقه فأجابه الشيخ : لو كان رأيك يؤخذ به لأخذ به في المرة الأولى .

١٠ - كان يحض الطلاب على المذاكرة والاستيعاب ويواجههم لي

مطالعة الأمهات والمراجع وعدم الاكتفاء بالمختصرات والمملخصات من الكتب .

١١ — كان الإباضية يفرعون إليه في جميع مشاكلهم وكانوا يطلبون منه أن يعين لهم من يقوم لهم بأمر دينهم أو أمور دنياهم ، وفي القصة التالية دليل على ما كان يتمتع به من ثقة الناس وإكبارهم له ورضاهم بأحكامه . احتاج بنو ورتيزلن إلى من يتولى أمورهم ، وبفصل مشاكلهم ، ويحكم بينهم بحكم الله فأتوا أبا عبد الله يطلبون منه أن يولى عليهم من يختاره لهم وفكر أبو عبد الله في الرجل الذي يوكل إليه هذه المهمة التي تحتاج إلى العلم والنزاهة والدين . فاختر لهم الشيخ أبا الحسن بن أفلح تلميذ العلامة حمو بن الأوثو وأرسله معهم فكث فيهم سنين . يحكم بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام ويقيم العدل فيهم وكان الرجل شديداً في أمر الله لا تأخذه في الله لومة لائم فسخط عليه جماعة ممن وجب عليهم الحق وتلمسوا مسائل ظنوا أنه أخطأ فيها ثم كونوا وقد ذهب إلى أبي عبد الله يشكو إليه القاضى أبا الحسن وتضييعه الحقوق فأمسك الشيخ الوفد عنده وبعث إلى أبا الحسن فأحضره معهم وأجلس القوم في حلقة واحدة ثم سألهم ما الذى نعتهم من أبا الحسن ؟. فقال قائلهم :

إن أبا الحسن يحكم بين بعض منا دون بعض . فقال أبو عبد الله : أكان ذلك يا أبا الحسن ؟. فقال : نعم .

قال أبو عبد الله : ثم ماذا؟. قالوا : حكم على رجل بصداق امرأة بغير إقرار ولا شهادة ، فقال أبو عبد الله : أكان ذلك يا أبا الحسن ؟. فقال : نعم .

قال لهم أبو عبد الله : ثم ماذا؟ قالوا : اختلفت عنده رجالان في شقعة وأبطلها من يد القائم فيها . فقال له أبو عبد الله : أكان ذلك يا أبا الحسن ؟ قال : نعم .

قال لهم أبو عبد الله : ثم ماذا ؟ . قالوا : مات رجل يقر أنه أوصى
بماله في وصيته فاستأثر بها أبو الحسن . فقال أبو عبد الله : أكان ذلك
يا أبا الحسن ؟ قال : نعم .

قال أبو عبد الله : ثم ماذا ؟ فنظر القوم بعضهم إلى بعض ولم يجدوا
زيادة فسكتوا . فقال أبو الحسن : سأخبرك بما فعلت فيها يا محمد !

أثبت الحكم في الأرض المشاعة التي لم يتعين لها رب ؟

إن هؤلاء القوم حين دخلت هذه البلاد قالوا لي ما بين فلانة وفلانة
مشاع بين بنى ورتيزلن . فعملوا يعمرون هذه الأرض دون أن يسلم بعضهم
لبعض فهو ما لم أحكم فيه بينهم . ثم قال : ما تقول في رجل أقر بالنشوز ؟
فهل يحكم عليه بالصداق أم لا . قال أبو عبد الله : نعم . قال : اختصم
أبي الخير وامرأته نازوراغت فأقر بالنشوز فخكمت عليه بصداقها . ثم قال
أبو الحسن : ما تقول في نخل نبت في أعلى مجرى العامة ؟ هل يحكم فيه بالشفعة
لبعضهم دون بعض ؟ قال أبو عبد الله : لا . فقال : إن رجلين اختصما عندي
في نخلة هي في مجرى العامة فطلبها رجل بالشفعة من مشتريها وهو واحد من
تلك العامة فلم أحكم له بها . وأما أمر الوصية فإن الرجل الذي مات من
بنى ورتيزلن فإنه استخلف امرأته على تنفيذ الوصية فقالت لي أرسل معي من
يعلمني كيف أنفذ هذه الوصية فأرسلت معها ولدي فبلغني أنها تصدقت عليه
بربع شاة لحما ولم أره ولم آكله ثم قال : إن عندي كلاماً أريد أن ألقية إليك
فقال له أبو عبد الله : دع كلامك فخلف أبو الحسن أن لا يتولى القضاء بينهم
سبع سنين . واستقيان للقوم مقدار خطأهم وخسارتهم فقاموا وأمسك أبو عبد الله
أبا الحسن عنده يوماً كاملاً يتأنس به ويراجع معه كثيراً من مسائل العلم
ومشاكلة وعندما ذهب أبو الحسن قال أبو عبد الله ليعقوب بن أبي القاسم :
إن جيرائك يصارعون من لا يطيقون مصارعتهم .

١٢ — كان شديد الاهتمام بالتربية العملية لطلابه فهو يدرّبهم على القيام بمهام الأمور . فيقيم معهم الرحلات ، ويتولى في حضورهم فض المشاكل ، ويشاركهم في عمليات الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويديرهم على العمل لفائدة الجماعة والذوبان فيها . وكان عندما يتخرج الطلبة من معهده ويعزمون على الرجوع إلى بلدانهم أفراداً أو جماعات يوصيهم الوصايا الكثيرة ومن الوصايا التي كان يحرص عليها ويقولها لكل متخرج عند وداعه الوصية الآتية : « ارجع إلى أهلك بسلامة الله فإن وجدت من تقدمه في الأمور فتكثف به فاتبعه ، فإن لم تجد ووجدت من تتعاون معه فتعاون على البر والتقوى ، فإن لم تجد ووجدت من يقتدى بك في الخير فكن إماماً . فإن لم تجد من هؤلاء أخاً فالزم الطريق وحدك وجانب الناس » .

١٣ — كان أبو عبد الله عفيف اللسان ، عفيف اليد ، عفيف الضمير . وقد شهد له أبو الربيع في الأولى فقال : كان أبو عبد الله إذا سئل عن أحد فإن علم خيراً قاله . وإن علم غيره سكت .

ولعل خير شاهد على عفة يده على كثرة ما أمر بها من أموال ما يلي : قال ولده أبو يعقوب يوسف : أوصى أبي بألف دينار ثم استكثرها فأوصى بخمسمائة دينار ثم قال لي : يا يوسف يا بني هذه وصيتي فأنفذها ولا جعلك الله في حل إن دفعت زائداً على أربعة دراهم لشخص أى شخص كان . فإنما هي حوطة من أموال أهل الدعوة ، ما أطعمتكم منها عشاء ، ولا غداء . ولكن ربما أرادوا وجهاً فصرفتها في غير الوجه الذي أرادوا .

ولعل خير ما نختم به هذا الفصل هو شهادة أبي الربيع قال : إنما مثل أبي عبد الله كما قال الله تعالى : « ولوا إلى قومهم منذرين »^(١) .

أحسب أن الخطوط السابقة كافية لرسم صورة باهتة لهذا الإمام العظيم ولعل تلك الصورة لا تتم إلا إذا أشرنا إلى الميدان الحقيقي الذي عاش للكفاح فيه طوال حياته لا يمل ولا يفتر ولا يتوقف إنه ميدان التربية والتعليم ومنهاجه في ذلك وهذا في الحقيقة يحتاج إلى دراسة متوسعة وكتب مفردة لأن في ذلك المنهاج إقراراً لكثير من الآراء التربوية التي نعتقد أنها حديثة وأنها آتية من الغرب وذلك كحالة توحيد اللباس والتربية العملية والرحلات المدرسية واشتراك الطلاب في إدارة المدارس وغير ذلك من الآراء التي يفتخر الناس بها اليوم ولعل بعض شبابنا المتعلم بهم بذلك ويقدم فيه الدراسة الكافية . أما مدرسته في فترته الأخيرة فقد كانت تمثل المرحلة الجامعية وقد كان النظام يفرض على الطلاب أن يلتحقوا أول ما يلتحقون بالدراسة بمدرسة أبي يعقوب محمد بن بدر فيعلمهم القراءة والكتابة والآداب النفسية والسير وهذا يمثل المرحلة الابتدائية في نظامنا الحديث ومنها ينتقلون إلى مدرسة الشيخ محمد بن سدرين فيدرسون عنده علوم اللسان من نحو وعرف و بلاغة ومنطق وأصول وعلوم الشريعة وتمثل هذه المرحلة المراحل المتوسطة من مراحل تعليمنا الحاضر ثم يلتحقون بمدرسة أبي عبد الله فيتخصصون في المباحث العلمية ومنها يتخرجون إما إلى التدريس أو العمل في ميادين الحياة العملية المختلفة بعد التخرج مباشرة ومنهم من يوجه إلى قيادة الناس بالتوجيه والإرشاد . وتمثل هذه المرحلة المرحلة الجامعية في نظامنا الحالي وقد يستمر بعضهم في المجال العلمي دراسة وتأليفاً .

ولد أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي كما قلت سابقاً في فرسطاء وعاش

حياة مليئة بالعلم والعمل وبلغ من قلوب الناس منزلة لم يبلغها أحد بعده ولا يزال
مضرب المثل في كل شأن من شئون المجتمع والحياة ولو لم يعمل شيئاً غير
نظام العزابة الذي كان عند الإباضية في المغرب بديلاً لنظام الإمامة فيه جميع
مزايها وليس فيه أخطارها لكان عملاً كافياً وتوفي رحمه الله سنة ٤٤٠
من الهجرة النبوية في مدينة اجلو التي كانت تعرف بمدينة الصالحين ولا يزال
قبره معروفاً إلى اليوم يزوره الناس للعبارة والذكرى .

أبو محمد ما كسن بن الخير (١)

ولد في عاصمة الدولة الصنهاجية من البلاد التونسية، بعد وفاة أبيه بشهور قليلة . وأصيب في صغره - وهو ابن سبعة أعوام - فكفّ بصره . وكانت أسرته أسرة فقيرة مقلة . وإن كانت تعيش في كرامة المؤمنين وعزة أنفسهم . كانت أم ما كسن عندما أصيب ولدها ببصره متألمة أشد الألم حائرة لا تعرف ما تصنع لتردّ على ولدها الحبيب بصره . وكانت لا تفقأ تسأل الناس علماً تجدد دواء بردّ البصر على من فقدته . ولكنها لم تجد . وذهبت يوماً إلى بيت المعز بن باديس سلطان أفريقيا ، وكانت تربطها بزوجه أم يوسف أواصر صداقة قديمة وعلاقات وثيقة منذ الصغر . وذهب الولد الأهمى بصحبة أمه . وحينما كانت المرأتان تثرثران في مختلف الشئون كمادة النساء دائماً ، كان الصبي الصغير تارة ينسج إليهما وتارة يلعب بما يجده بين يديه من إناء أو أداة وكانت أم يوسف لا تنفك تنظر إليه وتأمله فأعجبت بحفنة روحه ولباقتة وذكائه وحسن تصرفه في لعبه واقترحت على أمه أن تأخذه إلى الكتّاب فإنه جدير أن يكون له في المستقبل شأن .

ورجعت أم ما كسن بولدها ثم أخذته إلى مدرسة المدينة أو كتابها لحفظ القرآن الكريم في وقت قصير ، وكان لذكائه وحدة ذهنه لا يسمع شيئاً إلا فهمه وحفظه . وحين ضاق الكتّاب عن مواهبه سافر إلى جربة والتحق بمدرسة أبي محمد ويسلان بن أبي صالح ، فكان أنجب طلابها ، وأذكي من يتلقى العلم فيها ، غير أنه كان حاد المزاج . سريع الغضب ،

(١) من علماء القرن الخامس ، ذكره الباروني في الطبقة العاشرة .

لاذع النكمة حاضر البديهة ، عنيف الهجوم . فكان الطلاب يتضايقون منه ، ويودون لو تخلصوا من وجوده ، فكانوا يشتمون منه إلى شيخهم أبي محمد ، ويطلبون منه إبعاده عنهم ، وطرده من مدرستهم أو إرساله إلى مدارس أخرى ، ويأجرون في ذلك فيستمع الشيخ إليهم في حنان ، ويطيب خواطرهم ويهدىء من ثورتهم ، ثم لا يفعل شيئاً مع ما كسب .

ويتدو أن الطلبة قد ملوا من عشرة ما كسب ، وكلوا من الشكوى إلى أبي محمد ، فقررُوا أن يتفوا من الموضوع موقفاً جازماً فذهبوا إلى أستاذهم مرة أخيرة وقد ملكهم الغضب فتكلموا بنوع من الشدة والحدة ، وعرضوا شكواهم على الشيخ . وقابل الشيخ ثورتهم بثورة ، وحدتهم بحدة ، ثم أقام لهم أنه لن يطرد هذا الطالب النجيب الذكي ما دام راغباً في الدراسة فأسقط في أيديهم . ثم سأهم ما يشكون منه . قالوا : نشكو منه الخفة ، فقال لهم : لقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : بم تكون الخفة في المؤمن ؟ فقال لهم : لغزارة . وقيل لابن عباس رضى الله عنه : إنك خير لولا خصلة فيك . قال وما هي : قيل الخفة . . . قال ابن عباس لناقده : عتقتي بخير الخصال . . .

وهكذا استطاع أبو محمد أن يرد طلبته عن شكواهم وأن يقنعهم بأن في موقفهم بعض الخطأ وأن ما كانوا ينتقدونه على زميلهم لا ينتقد .

وبقى ما كسب في المدرسة واستمر في الدراسة حتى تخرج وأصبح من الأعلام وكان طول حياته لا ينسى فضل أبي محمد ويسلان وكان لا يفتأ يتحدث في مجالسه قائلاً : لو سمع أبو محمد رجاء الطلاب وطردي من مدرسته لرفعت برأسي وكنت في غير الحق ، فضلت وأضلت ، وهدمكت وأهلكت

وهو بهذا يعترف بما في طبعه من الحدة والأنفة والاعتداد بالنفس . ولعل
أغلب العميان كذلك .

كان أبو الربيع سليمان بن يخلف من الطلاب الصغار الذين يحضرون حلقة
أبي محمد ويسلان . وكان أبو الربيع من أطيب الناس نفساً ، وأسهلهم خلقاً
وأرضاهم خليقة ، وألينهم عريكة ، وأدومهم صحبة ، وأحسبهم عشرة ،
وأصبرهم على الأذى . فاتخذ من ما كسن رفيقاً وصديقاً وأخاً ، يطالع معه
الدروس ، ويقرأ له السكتب ، ويحضر له ما يعده من تمارين ، ويساعده
في حل المسائل ، والرجوع إلى المصادر .

قال أبو العباس الدرجيني : « ولا جرم أن الشيخ أبا الربيع سليمان
ابن يخلف كان مفتاح باب الخير عليه ، لأنه كان محاضره ، فكان ينشطه
ويدربه ويحرضه ويقرأ عليه السكتاب . فإذا قرأ باباً رددنا معاً مسائله ، هكذا
كانت عادتاهما وكان كل واحد منهما برباً بالآخر حقيقاً به ، كان
أبو الربيع كما ذكرنا لا يألوا جهداً فيما ينفع به صاحبه ، فلا يعرف له طريق
مصلحة إلا تحراه ، وكان ما كسن على نحو ذلك فيما له عليه قدرة . حتى أن
ما كسن يدعوه بالخلوة مع كونه دونه ، وهذه الدعوة لأن أم ما كسن
مزانية من قوم أبي الربيع . واستمرت الزمالة والصدقة بين الشابين الذكيين
وطالت وإن كانت لا تخلو من لحظات يقع فيها ما يقع عادة بين الإخوة
والأصدقاء من حدة النقاش وبوادر الغضب والاستياء لا تلبث أن تزول
آثارها . كانا يوماً يتذاكران باباً من أبواب المعرفة في كتاب فقهي ،
واختلفت وجهتا النظر منهما في فهم المسألة وتمسك كل منهما بفهمه وتعصب
له . ودافع عن رأيه بحماسة وطال بينهما النقاش واحتد حتى انفصلا شبه

متخاصمين وحضرت الصلاة وكان ما كسن إذا أراد الصلاة نزع ثيابه
ولبس ثياب أبي الربيع لأنه يتيقن طهارتها بصورة أقوى لأنه لا يأمن أن
يلحق ثيابه نجس دون أن يشعر به لعدم الرؤية . فلـكى يبعد عن نفسه هذا
الاحتمال أو هذا الوسواس كان يصلى في ثياب أئى الربيع فلما حضرت
الصلاة ذلك اليوم همّ أن يصلى في ثيابه خوفاً أن يكون أبو الربيع قد وجد
عليه . فصاح به أبو الربيع وطلب منه أن يلبس الثياب التى كان يلبسها
حين الصلاة وقال له : صلّ بها عافاك الله فإنه لم يقع فى قلبى شىء بسبب
نقاشنا . ولبس ما كسن ثوب أبى الربيع وصلى به . وكان وقوفه بين
يدى الله ومناجاته له كفيلا بمسح آثار الحدة من نفسه وملء قلبه بالخلق
الإسلامى المرضى .

بقى ما كسن فى جربة بعد أن ارتحل إليها من القيروان حتى أصبح علماً
يشار إليه ثم ارتحل إلى وارجلان - وكانت فى ذلك الحين فى أيام عزها
وازدهارها - فرحب به أهلها ، وأحلوه فى مقام كريم ولقى حفاوة من رجال
العلم وإقبالا من الطلاب وإكراماً من جميع الناس . ومنها ذهب إلى الحج ،
فزار مهد الإسلام وتشرف بالسير فى أكرم بقعة . وأدى الركن الخامس من
أركان الإسلام وشهد البقاع التى كان ينزل فيها الوحي على رسول الله عليه
الصلاة والسلام ثم رجع فر هو وجمع من رفاقه على جزيرة جربة يؤدى حق
الزيارة لتلك المربع التى اغترف منها العلم وكانت له فيها ذكريات فى الشباب ،
ثم عاد إلى وارجلان فاستقر وتزوج وأنجب وكان مرجعاً من مراجع العلم ،
وشخصية من الشخصيات المرموقة فى المجتمع التى علا لها ذكر وشأن عند
البعيد والقريب والموافق والمخالف .

عندما جاء ما كسن إلى وارجلان وجد هنالك - فيمن وجد - العلامة

أبا موسى عيسى بن أبي الحجاج وكان في المرتبة العليا متانة دين وغزارة علم
وسمو أخلاق فاتخذ منه ما كسن أبا وشيخا وأخا وصديقا .

وهنأت الحياة لما كسن وأبنائه في وارجلان حتى ورد إليها أبو العز
ابن داوود وهو شخصية مرموقة محبوبة من أجلو جاء يتفقد إخوانه فلما عرف
ما عليه حالة ما كسن جلس إليه وتحدث طويلا وعرف أن الشيخ قد استقر ،
وأنه رضى بنوع الحياة التي يعيش فيها ، وكان ما كسن كما قد عرف القارىء
ذكيا ألعيا حساسا وكان يستمع إلى أبي العز في كل ما يقوله متأثرا به فقال
أبو العز : إنك يا ما كسن في رعد من العيش بما يضيفه عليك أهل وارجلان
الكرام . وإذا أقت على هذه الطريقة من الحياة يأكل أولادك تحف أهل
الدعوة فإنك إن مت اقتسموا ربح الصبا .

وعلمت هذه العبارة اللاذعة عملها في نفس ما كسن وفكر في الانتقال
إلى أربغ ، وفزع إلى أستاذة وصديقه أبي موسى يطلب منه الحل لأنه ينوى
الرحيل فدهش العالم الكبير ، وقال له : بل أطلب الحل من طلبك الحل
وعزمك على الرحيل فقد أدخلت على قلبي روعة يجب أن تطلب بسببها الحل .
ثم قال له : إننى لا آذن لك في الرحيل وأنا حى ، فإذا مت وحضرت غسلى
وتكفينى ودفنى فانت بعد ذلك في حل إن شئت أقت ، وإن شئت ارتحلت .
فصبر ما كسن وأقام في وارجلان حتى توفى أبو موسى وحضر غسله وتكفينه
والصلاة عليه ودفنه . ثم نفذ قراره فانتقل إلى أربغ .

كانت وارجلان في ذلك الحين من الثروة والغنى بحيث لا يستطيع أن
يمتلك فيها أمثال أبي محمد ما كسن شيئا . وذلك ملاحظه أبو العز فإنه يعرف
أن أهل وارجلان - وهم على ما هم عليه من غنى وثروة - لا يبيعون شيئا من

الأصول وإذا خطر لأحدكم أن يبيع شيئاً منها بـاعه بسعر مرتفع ليس في طاقة ما كسن وأضرابه . ولذلك لا يمكن لما كسن أن يخلف في هذا البلد شيئاً لأولاده ولذلك نصحه أبو العز بالرحيل لاسيما وأن وارجلان كانت مشحونة برجال العلم والدين وأنهم لا يحتاجون إلى ما كسن من هذا الجانب . أما وادي أريغ فقد كانت في ذلك الحين في حالة سيئة من جميع النواحي ناحية الدين وناحية العلم وناحية الاقتصاد ووجود أمثال أبي محمد ما كسن فيها يفيدها في المجال الديني ، وفي المجال العلمي وبستفيد هو منها اقتصادياً لأنه يستطيع أن يشتري فيها أملاً كما تدر عليه غلالاً . فلما انتقل أبو محمد ما كسن إلى أريغ واستقر بها ، وقد بقيت بيده أموال صالحة مما كسبه في وارجلان وغيرها استطاع أن يشتري أملاً كما تغل عليه وعلى أبنائه ما يكفي حاجتهم ويمشون به في كفاف مستورين .

وزاره أبو العز في وادي أريغ كما زاره من قبل في وارجلان فوجده قد استقر اقتصادياً ، ولكن أريغ كانت في حالة إدبار من الناحية العلمية قد قل فيها العلماء وتعطلت أكثر المدارس . فقال أبو العز : أقم هكذا يا ما كسن حتى تموت فيبيع أولادك كتبك ، ووقعت الكلمة من نفس ما كسن موقعها ، وأحدثت فيه أثرها القوي وعلم أنه قد بنى لأولاده ما يستقرون عليه في دنياهم ، ولكنه أغفل أمر آخرتهم ، فهو تأخر عن تعليمهم القراءة والكتابة وبعض فنون العلم وليس في أريغ من يقوم لهم بذلك ابتغاء وجه الله وقياماً بالواجب المفروض على العلماء فاستأجر لهم ، وودياً يؤدبهم ويعلمهم ما يعجز ما كسن عن تعليمهم إياه كالمخط والحساب وما شابه ذلك . كان أبو محمد ما كسن بن الخير ، رغم فقدانه للبصر - لا يسكت لمنكر يقع وكان يحارب البدع ويتبع مواقعها حتى يقضى عليها ، وكان

يحارب الجهل بدين الله فلا ينفك عن إلقاء الدروس للخاصة والعامة ،
وكثيراً ما تكون تلك الدروس حملات عنيفة ضد الانحراف والبدع
والتهاون ، سواء أكان ذلك في القول أو في العمل أو في العقيدة .

واستطاع بما أوتي من قوة وإرادة وصدق عزيمة أن يتفوق بأعماله عن
المبصرين . كان ما كسن حر الفكرة ينتقد على بصيرة من أمره وهو حتى
حين يفتي يفتي بالأقوال المعمول بها عند الفقهاء إلا أنه لا يخفى نقده لتلك
الآراء وعدم اقتناعه بوجهاتها وكان كثيراً ما يضرب المثل لتناقض آراء
الفقهاء بالمسائل الثلاثة الآتية :

الأولى : يقول الفقهاء إن المسلم لا يحل له أن يقذف ولو هدد بالقتل أى
أنه لو خيره ظالم بين أن يقتله أو يقذف بريئاً وجب عليه أن لا يقذف
ولو قتل ، ونص العجّارة عندهم « يموت الرجل ولا يقذف » ثم إهمم أجازوا
له في حالة الخوف أن يقول إن هذا الشخص ليس ابن فلان أو ليس من
القبيلة الفلانية . وهذا نفي واضح للنسب . ويرى ما كسن أن لا فرق بينهما .

الثانية : قولهم « يموت المسلم ولا يتعمى » . يعنى أن المسلم لا يجوز له أن
يتعمى أمام الناس ولو أدى استمساكه بسترته إلى المزلت ولو خير بين
التعمى والقتل وجب عليه أن يختار القتل . وأجازوا له أن يتعمى للطبيب
وما كسن لا يرى الفرق بين المسألتين على أن الموت في قضية الطبيب
مظنون فقط .

الثالثة : يقول الفقهاء إن على « زوجة المفقود أن تعتد عدة المتوفى عنها
زوجها ثم أوجبوا أن يطلق عنه وليه » .

والذى يتقضيهِ الرأى من الزاوية التى ينظر منها ما كسن فى القضية

الأولى: أنه ما دام لا يحمل للمسلم أن يتذف ولو في حالة الإكراه . وأنه يستسلم للموت ولا يتذف إذا أرغم على ذلك فكيف يجوز له أن ينفي النسب لمجرد الخوف ونفي النسب هو عين القذف . وحرموا عليه التقية في الهلاك المحقق وأجازوها له في الهلاك المتوقع .

أما في المسألة الثانية : فما دام لا يجوز للمسلم أن يتعمى ولو أدى به ذلك إلى القتل فكيف يباح له أن يتعمى للطبيب والقابلة وقائس الجروح ، وأقصى ما يؤدي إليه عدم التعرى في هذه الحالات إنما هو الموت أو ضياع قليل من المال فكيف حرّموا عليه التعرى وحكموا عليه باختيار القتل وأوجبوا عليه أن يضع عنقه في المشنقة ولا ينكشف للناس ثم أجازوا له أن يتعمى لضرر متوقع قد لا يؤدي إلى الموت وذلك أمام الطبيب والقابلة والقائس .

أما في المسألة الثالثة : فما دام المفقود قد حكم عليه بالموت وطلب من زوجته أن تعتدّ عليه عدة الوفاة كان المعقول أن تخرج بمجرد انتهاء مدة العدة فلماذا أوجبوا عليها أن لا تخرج إلا إذا طلق عنه وليه والمعقول في النظر أنه إذا حكم على المفقود بالوفاة فإن على زوجته أن تعتدّ عدة الوفاة وتخرج . أما إذا حكم عليه بالطلاق فإنها تعتدّ عدة الطلاق وتخرج ، فما الذي يجمع الوفاة والطلاق في حالة واحدة .

وقد ناقش أبو العباس الدرجيني هذه المسائل الثلاثة على طريقة الفقهاء ، وحاول أن يرد على ما كسن فقال : « أما الأولى فمن الكذب المباح لا في باب القذف ، والثانية ضرورة تعارض فيها حكمان فلا بد من أرجحهما ، والثالثة أخذوه في العدة بالحوطة ، ونظروا في تسريح المرأة خشية الضرر وجعلوا التطليق إلى الأولياء بناء على أنه لا حكم على غائب » . وواضح أن هذه الأجوبة التي رد بها أبو العباس هي نفس التعاليل الموجودة في كتب الفقه .

ولا شك أن ما كسن درسها غير أن تعليقاتها لم تقنع عقل ما كسن المتحرر
البحاث . وكأنه يقول لماذا يباح الكذب في وجه ولا يباح في الوجه الآخر
من قضية واحدة . ونفس الاستشكال يتوجه على المسألة الثانية فإنهم حين
أباحوا للإنسان أن يتعري للطبيب خوف الهلاك كان عليهم أن يبيحوا له
أن يتعري أمام غيره خوفاً من الهلاك . وفي المسألة الثالثة يبدو أنها لتخفيف
الضرر عن المرأة إما أن تحم بموت الزوج وتعتد الزوجة وتخرج . أو لتأثير
قضية الوفاة ويطلق ولى الزوج وتعتد المرأة عدة المطلقة وتخرج أيضاً . دون
أن تربطها بحكمين وفاة وطلاق ، وهما شيئان لا يجتمعان أبداً والموضوع
مبسوط في كتب الفقه بأوسع من هذا .

لم يترك ما كسن فيما أعرف مؤلفات ، ولكن كتب الفقه عند الإباضية
لا تكاد تخلو من أقواله وفتواه .

وقد كان الرجل من النشاط والحركة وحسن السيرة في المرتبة الأولى
وحيثما كان في وارجلان وفي أريغ كان يشترك في جميع المسائل العامة والخاصة
حتى إنه كان يذهب في الوفود هنا وهناك ، بل إنه عندما يقع عدوان على
أهل بلده وتؤخذ منهم أموال ، يذهب مع الذاهبين لاسترجاعها ، وحيثما
كان غيره يعتمد على القوة والشجاعة البدنية ، كان هو يعتمد على الحجة
والإقناع وحسن التلطف والحديث وقد روت كتب التاريخ كثيراً من
الأحداث التي اشترك فيها ، وخرج إلى غزاة استاقوا أنعاماً فلما بلغهم مع
رفاق له ، استطاع أن يسترد منهم ما أخذوه بالطف الوسائل دون أن يحتاج
إلى استعمال العنف وإراقة الدماء ، وزيادة إزكاء نار العداوة والفتنة بين
أهل الحضرة وأهل الوبر .

أبو زكرياء الهواري^(١)

أبو زكرياء بن وكين الهواري ، شخصية من الشخصيات اللامعة .
التي جمعت بين الإيمان الراسخ والعقل الراجح والعلم الغزير والفهم السليم
والدين القويم .

كان مقصداً لطلاب العلم ، ومرجعاً للعلماء ، يعدون المشاكل العلمية
ويهيئونها له ، حتى إذا حضر ألقوها عليه فوجدوا الجواب المقنع ، والحل
الصحيح ، والرأى السديد .

جلس إليه يوماً أبو محمد عبد الله بن محمد في جمع من المشائخ والطلاب
وقال له : لقد بلغنا عن رسول الله ﷺ أنه قال لأمير المؤمنين علي بن
أبي طالب : (هلكت فيك يا علي فتتان ، محبك المفرط ومبغضك المفرط)
فما معنى الحديث :

قال أبو زكرياء على الحين : صدق رسول الله ﷺ ، فأما الذين
هلكوا بإفراطهم في حبه فهم غلاة الشيعة الذين قالوا في علي مثل ما قال
النصارى في المسيح عليه السلام ، وزعموا أنه نبيء وأنه حي لا يموت وأنه
الإمام المعصوم يجوز له تبديل الكتاب والسنة ، وأنه أولى بالخلافة من
الصديق والفاروق ، وأن الأمة كفرت حين ولت أبا بكر ولم تول علياً ،
إلى آخر ما ذهب إليه أولئك الغلاة .

وأما الذين هلكوا بإفراطهم في بغضه فهم غلاة الصفرية ومن لف

(١) من علماء القرن الخامس ، ذكره الباروني في الطبقة العاشرة .

لهم من الذين زعموا أن كل معصية شرك ، وأن الإمام علياً حكم الضالين وقتل المسلمين فهو قد ارتكب الكبائر بذلك ، وحكموا عليه بالشرك .

وهكذا صح قول رسول الله ﷺ حين أخبر أن طائفتين تهلكان ؛ إحداهما بسبب إفراطها في حب علي ، والأخرى بسبب إفراطها في بغضه .

أما المعتدلون من المسلمين الذين يضعون الإمام علياً في موضعه من أصحاب رسول الله ﷺ فأولئك من الهلاك ناجون إن شاء الله .

كان أبو زكرياء الهواري عالماً واسع الاطلاع ، وكان محققاً مثبتهاً ، وكان يتمسك بالأساليب العلمية المعروفة في ذلك الحين ، وقد ذكر أن أبا محمد عبد الله كان في مسجد أجلو يلقي درساً في شرح الحديث النبوي ، وقد جلس بين يديه أحد الطلبة يقرأ الأحاديث النبوية الشريفة من مسند أبي صفرة عبيد الملك بن صفرة فكان أبو محمد يتجاوز رجال السند ولا يذكرهم وإنما يعيد الحديث ثم يتناوله بالشرح والتحليل حسبما هو معروف من طريقة التدريس في المساجد الإسلامية وكان أبو زكرياء الهواري في ناحية من نواحي المسجد يستمع إلى الدرس فعز عليه أن لا يذكر الشارح أسماء أولئك الأعلام الذين بلغوا إليه رسالة الإسلام فصاح به من مكانه في صوت قوي : مالك لا تذكر أئمتك ؟ . وكانت هذه الصيحة القوية المنبثقة من بعض جوانب المسجد في لهجة العقاب المر كافية لأن تحمل أبا محمد على الرجوع إلى الحق وأصبح بعد ذلك حين يقرأ عليه الطالب حديثاً من الأحاديث يعيد هو الآخر السند ذا كراً رواة الحديث واحداً واحداً حتى ينتهي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

إن هذه القصة البسيطة تحمل مغزى عظيماً من أخلاق أولئك العالمة

العظام فهذا عالم يتصدر المجلس للتدريس في مسجد عامر . ينتقده عالم آخر - جالس في ركن من المسجد - علناً جهاراً على مسمع الناس وبصرهم ، فلا يملك إلا أن يستجيب للنقد ويعمل به . دون أن يثور أو يفضب أو حتى يتألم . ذلك لأن رائد القوم في ذلك الحين إنما هو الحق واتباع الحق والعمل بالحق . ولا يهمهم الطريق الذي يسلكه أو الأسلوب الذي وصل به .

أحسب أن هذه القصة لو وقعت اليوم لنتجت عنها أسوأ الآثار . وأحسب أن أى واحد من أولئك الدين يتصدرون لإلقاء الدروس في المساجد لو ارتفع إليه صوت ناقد من زاوية المسجد يأمره أو ينهاه لنتج عن ذلك مشكلة وربما وصلت إلى ساحة القضاء ، ولماً فضيلة الشيخ الدنيا ضحيجاً وعجيجاً . واعتبر النقد عدواناً وقع عليه وتشويهاً لسمعته ، ونيلاً من كرامته العلمية . وما إلى ذلك مما يتحذلق به أقزام اليوم ولعل أوسعهم صدراً من يقول إن النقد البناء لا يكون أمام الناس ووسط الجماهير وإنما يجب أن يصدر في همسة خفيفة أو قولة لطيفة في خلوة هادئة حسبما تقتضيه الآداب العامة وأساليب التربية الحديثة التي تحذر حتى المدرس أن يجرح عواطف تلميذه الرقيقة . وتلزم حتى الأب أن يختار الكلمات التي يوجهها إلى ولده الصغير .

كان أبو محمد عبد الله يشترك مع أبي محمد ما كسن في المذاكرة والمطالعة وكان ما كسن أكبر سنًا وأغزر مادة وأوسع اطلاعاً وأحد ذكاء فكان أبو محمد يعتمد عليه ويستعين بفهمه ، وعندما تعترضها مشكلة تسعص على أفهامهما يقول ما كسن لزميله دعها حتى يأتى صاحب المشكلات أبو زكرياء الهوارى ، وكان أبو زكرياء إذا حضر إلى مجلس العلماء والطلبة وجدهم قد ادخروا له عدداً من المشاكل العلمية فيلقونها عليه واحدة بعد الأخرى فيجدون عنده الحل المرضى والجواب الشافى .

وكان أبو زكرياء مع علمه الغزير قوياً في دين الله شديداً في الأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر ، وكان شجاعاً بريحاً عنيفاً .

ذكر المؤرخون أن أيوب بن حمو كان يلي أمر الناس من جماعة
تينوال وأنه انحرف عن السيرة التي كان يحافظ عليها المسلمون ، فانقسم
الناس بسبب ذلك إلى قسمين قسم ينتصر له ويبرر انحرافه ، وقسم ينتقد ذلك
ويعيبه ولكن في تستر وخفاء ولما بلغ ذلك أبا زكرياء أمرهم أن يعقدوا
اجتماعاً في بعض المساجد ليناقشوا القضية واجتمع القوم فعلا في مسجد
« ناهست » وكان أيوب حاضراً فرأى بعض الطلبة أن يهد للموضوع
بقراءة فصل من كتاب في الوعظ والإرشاد وأخبار الماضين ربما يحضر
أبو زكرياء ، ولما حضر وجد الطالب يقرأ قصة أحد الزهاد في زمن سيدنا
موسى عليه السلام ، فصاح به أبو زكرياء : دعونا من البله الذين تمتلئ بهم
الجنة . وهيا بنا إلى من بثقب الخرزة بذكائه . يعني أيوب بن حمو واتجهت
الأنظار إليه وإلى أيوب ولم يزل به يلقي عليه زواجر الوعظ والإرشاد ،
وبوجه إليه قوارع اللوم والتوبيخ ، ويحملة مسئوليته ومسئولية أتباعه من
جماعة تينوال حتى استجاب أيوب للحق ، وتاب واستقام وأعلن أنه
سيحافظ على النهج القويم والسيرة الطيبة ، وبذلك رجع القوم إلى بعضهم ،
وقاموا من المسجد وهم يد واحدة .

كان أبو زكرياء يقوم مقام المفتي والقاضي والحاكم وكان الناس
يرجعون إليه في قضاياهم وخصوماتهم فكان يفصل المشاكل ويوصل
الحقوق وقد يستعمل بعض العنف والشدة إذا اقتضى الموقف ذلك .

اجتمع عدد من المشائخ مع أبي زكرياء في (أجلو) فأقبل عليهم شاب يشكو

أباه ويذكر المشائخ أنه ما طله في دين له عليه . وكان الأب ممن يعزى إلى الدين والعلم والصلاح ، فاستدعاه المشائخ وأزموه بدفع الدين إلى صاحبه ولكن الرجل فيما يبدو كان لا يريد دفع المال إلى ابنه . وكان يحسب أن ذلك من حقوقه عليه . فوضعوه في الخطة ، وحكموا عليه بالحبس حتى يدفع الدين أو يطلق صاحب الحق مراحه . وبقي الرجل في الحبس أياماً فبلغ الخبر إلى ما كسن بن الخير في تينوال وكان قوياً في دين الله لا يخاف ولا يرهب ف جاء إلى أجلو وحضر مجلس المشائخ وصاح فيهم :

علام يحبس الوالد في مال ابنه ؟ وكان في إمكان أبي زكرياء أن يدخل مع ما كسن في مناقشة علمية يبرهن فيها على راحة ما ذهب إليه وحكم به هو والمشائخ . ولكن أبا زكرياء فضل أن يقف موقفاً صارماً عنيفاً مع ما كسن وقال له : لقد حكم بها أبو عبد الله محمد بن بكر في واغلانت وحكم بها هنا في أجلو ، ونحن نحكم بها ، ولا يخرج من الحبس حتى يدفع الدين أو يسرحه ولده .

وسكت ما كسن أمام هذه القوة التي جابهه بها أبو زكرياء ، واقنع حين أخبره أن الحكم يمثل هذا قد جرى به العمل من قبل في الأحوال المشابهة . وقضية الأموال بين الأب والابن والزوج والزوجة قد أخذت من جهود العلماء قسطاً غير قليل في مختلف العصور .

هذه أحاديث غير منسقة جمعناها عن أبي زكرياء الهواري آمليين أن تعطى صورة إذا لم تكن كاملة الوضوح فهي مميزة له عن صور غيره من الأفاضل .

أبو محمد اللواتي (١)

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن ناصر بن ميمال بن يوسف اللواتي كان جده يوسف من رجال الشورى الذين يرجع إليهم الإمام أفلح حتى حسب بعض المؤرخين أنه من وزراء الإمام . أما جده ميمال فقد كان عاملاً له على نفاوة وما يليها من بلاد الجريد ، أما والده أبو عبد الله محمد بن ناصر فقد كان من سكان برقة وكان من أكبر أغنيائها . يملك أعداداً وافرة من الأنعام ينتقل بها من مكان إلى مكان في أراضي برقة الخصبية ويعيش معها عيشة الرحل البداءة . فلما ولد له عبد الله حاول أبوه أن يعلمه وأن يربيه تربية إسلامية نظيفة وأخذ الصبي مبادئ العلوم عن والده فعرف بعض قواعد اللغة العربية وأصول الشريعة الإسلامية ولكن عبد الله لما شب لم ترقه حياة البادية وما يكتنفها من شظف وجهل ، ولذلك فما تقلد زمام الأمور حتى ارتحل من برقة يسوق أمامه قطعان الماشية متجهاً إلى الغرب ووصل إلى بلاد أربع سنة ٤٥٠ وعمره ثمانى عشرة سنة . فرتب للماشية رعاة يعيشون بها في البادية أما هو فقد التحق بحلقة يزيد بن يحنف الزواغى . تاركاً حياة البداوة والعيش مع الحيوان لمن تستهويهم مناظر الطبيعة الحرة المنطلقة .

كان مستواه العلمى عندما التحق بحلقة الزواغى أقل مما يبدو عليه تكوينه الجسمى ذلك أنه لم تتوفر له وسائل الدراسة في صباه وشبابه المبكر فلما التحق بالحلقة اضطر أن يطوى المراحل الدراسية بسرعة حتى ينسجم مع أقرانه في السن .

(١) من علماء القرن الخامس ، ذكره البارونى في الطبقة العاشرة .

كان أبو محمد ذكياً حاد الذكاء حافظاً قوى الحافظة سريع الفهم كثير الاجتهاد شديد الرغبة في الاستفادة ، فاتخذ ذلوحاً طويلاً يبلغ طوله ضعف أطوال ألواح زملائه من الطلاب وكان يملؤه كتابة وكان يكتب تحت القرآن الكريم في أسفل اللوح بعض المتون الفقهية واللغوية وبعض الآثار والسنن والقطع الأدبية .

وكان سرعان ما يحفظ ذلك جميعاً . وبعرضه على أستاذه بسهولة ويسر ، فلم يلبث طويلاً حتى لحق الأذكياء من زملائه وتفوق على المتوسطين والمتخلفين منهم .

عرض يزيد بن يخلف على طلابه أن يقوموا بجولة يزورون فيها إخوانهم فوافقوا وتحدثوا فيما بينهم عما ينبغي لهم أن يقولوه . وكان فيما قرروه أن يظهروا بمظهر واحد فلا يختلفوا في أى شيء حتى يعودوا إلى مدرستهم .

وبدأت جولاتهم الموقفة من بلد إلى بلد حتى بلغوا أجلاً فخرج إليهم العلامة ماكسن واستقبلهم أحسن استقبال ، وفرح بهم أشد الفرح وأكرمهم غاية الإكرام وحادثهم بأحاديث شيقة ممتعة في السيرة والتاريخ وأخلاق المسلمين فأعجبوا به وأحبوه فلما ودعهم أبو محمد ماكسن وخرج عائداً إلى منزله لحق به عبد الله اللواتى وأخبره أن الطلبة في حلقة الزواغى قد اتفقوا أن لا يفترقوا ، فهل يجوز له أن يفارقهم إذا رأى في ذلك مصلحة .

فقال له ماكسن : إنما خلقنا الله أحراراً لملك أمورنا فيما لنا فيه مصلحة . فتركهم اللواتى والتحق بحلقة ماكسن وكان من أنجب من درس عليه .

وهب الله أبا محمد مع الذكاء والعبقرية والرغبة الشديدة في العلم نشاطاً وحركة وخفة روح تجعله محبوباً من كل من يعاشره ، وكان لا يقعب من العمل ، ولا يسأم من السفر ولا تحول دون رغباته المسافات الطويلة ولا المهامة البعيدة الشاسعة ، ولعل للنشأة البدوية أثراً في ذلك .

بعد أن أتم دراسته على الشيخ ما كسن رجع إلى بلده تينوال ليقوم بالرسالة المقدسة رسالة التعليم والتوجيه ، فمر به الشيخ سليمان بن مدرار النفوسى فسأله أبو محمد من أين أقبل فأخبره أنه جاء من قلعة حماد ، وأنه ترك في سوقها كتاباً في تفسير القرآن الكريم تأليف الإمام عبد الرحمن ابن رستم ينادى عليه . فأتى سليمان كلامه حتى عزم أبو محمد على السفر إلى القلعة للبحث عن الكتاب واستعد لذلك فأخذ شيئاً من البضاعة حتى يخفى السبب الحقيقي لسفوره ويظهر كأنه أقبل على القلعة للتجارة ، وليس له في الواقع هم غير الحصول على ذلك الكتاب النفيس الفريد - كما أنه يسعى أيضاً إلى الحصول على غيره من الكتب النادرة . وأقام في قلعة حماد وطال به المقام وهو يتألف ويسأل - في استخفاء - عن مصير ذلك الكتاب حتى عثر على رجل متفقه على مذهب النكار - وكان أهل قلعة حماد في ذلك الحين على طائفتين : نكارية ومالكية - فقال له الفقيه النكارى : اطمن يا عبد الله فقد بيع الكتاب - ووقع في يد لا يخرج منها ولا يمكن أن تراه فابحث إن شئت عن غيره .

واستمر أبو محمد في مهته في جمع الكتب وهو إن لم يتحصل على تفسير الإمام فقد تحصل على مجموعة قيمة من الكتب الأخرى ، وأرسلها مع قافلة ذاهبة إلى وارجلان . فأخذت القافلة في الطريق وأخذت الكتب فيما أخذ (١٤ - الإباضية)

من أموال القافلة وأمتعتها . وضاع ذلك المجهود العظيم .
ولما علم أبو محمد بالنكبة أطال إقامته في التلعة واستمر في التقاط
الكتب مرة بالشرء ومرة بالنسخ حتى تحصل على مجموعة أخرى لا تقل
قيمة عن المجموعة الأولى .

وبينا كان أبو محمد يفكر في الرجوع خطر لأمير القلعة أن يجهز جيشاً
لمحاربة بعض أمراء أفريقية فسر أبو محمد بذلك واندس في وسط الجيش
وسافر مع العسكر ، وعندما كان بالطريق لاحظ أحد قواد الفرق حرص
أبي محمد على الصلاة واستعداده لها واحتفاله بها فقال له العسكرى ماذا تصلى
يا عبد الله وأنت تعلم لماذا نحن خارجون : وإلى أين نحن ذاهبون وكان
يظنه فرداً من أفراد العسكر فقال له عبد الله : اشتغل بنفسك يا إنسان .
واستمر الجيش في طريقه حتى بلغ واغلانت فتحين غفلة منهم وانفلت هارباً .
وارتحل الجيش إلى إنجاز مهمته كما كانت قيادته .

استراح أبو محمد أياماً هناك وعرف أهل واغلانت ما أصابه فقررُوا
أن يجمعوا مبلغاً من المال يدفعونه إليه تعويضاً عما ضاع منه قال يتحدث
عن نفسه : « فسمع شيوخ واغلانت بما أصابني في الكتب فاجتمعوا
وأجمعوا أمرهم على أن ينظروا في إعانتى بقدر ما أصيب حتى يخلفوه على .
- فالله يحسن عونهم ويخلف عليهم - فلما أحسست بالذى عزموا عليه
أردت الخروج في خفية ، فخرجت في الهاجرة ولم يشعر بي أحد إلا وأنا
خارج البلد ، فوصلت تنوال سالماً والحمد لله رب العالمين » .

كان بعض أهل قلعة حماد كما قلنا سابقاً على المذهب المالكي والبعض
الآخر على المذهب النكاري ، وكان التعصب والخلاف بينهم على أشده فلما
دخل أبو محمد إلى تلك المدينة كانت طبيعة عمله تقتضى أن لا يسخط عليه

أحد الفريقين . ولذلك فقد كان يقف منهما مواقف يحاول أن تحوز رضاهم جميعاً ويقص علينا هو نفسه بعض أخباره في القلعة فيقول : « وكان في القلعة حينئذ رجل من أهلها يعرف بمحمد بن عصمة متفقه مدرس عليه حلقة ، فكنت أحضر مجلسه وأعود من جملة أهل الحلقة ، فحضرنا عنده يوماً فقال لابن له صغير : سمعت أن غمنا لبني بنجاسن دخلت السوق . وما ضرنا أن نجتنب الشراء من السوق ثلاثة أيام ، ثم لا حرج بعدها في الشراء . قال أبو محمد : فأعجبني ما قاله . »

وقد كان جلوس أبي محمد إلى ذلك الفقيه الطيب الورع ، واستماعه إلى دروسه ومواظبته عليها مبعث ارتياح عند المالكية من سكان القلعة عموماً .

وكان ذات يوم في جمع من أصدقائه الطلبة يتحدثون فر بهم أحد معارفه من النكار فسلم عليه فرد أبو محمد السلام . فلما انصرف النكارى عتب عليه أصدقاؤه ويقص علينا هو نفسه القصة فيقول : « ... فلقيني الرجل النكارى فسلم على فرددت السلام . فلما انصرف ، قالوا لي : مالك تسلم على مثل هذا ؟ فقلت لهم : مالكم أنتم تسلمون على اليهود وهم مشركون ، ولا أسلم أنا على رجل من أمة محمد ﷺ فأخمتهم ولم يجدوا جواباً . »

لقد كان أبو محمد عالماً أديباً وكان واسع الاطلاع غزير المادة حاضر الشواهد لا يجرى الحديث في شجن من شجون الحياة إلا أنشد عليه شاهداً من شواهد الأدب العربي ودلائل مختارة من الشعر ، مر عليه جماعة من المشايخ والطلبة فوجدوه يشتمغل بيده لنفسه فعاتبوه وتمنوا أنه لو ترك ذلك إلى غيره من خادم أو ولد فأنشد لهم قول الشاعر :

نروح ونفدو لحاجاتنا وحاجة من عاش لا تنقضى
تموت مع المرء حاجاته وحاجة من عاش لا تنقضى
وقص عليه بعضهم ما ينصب عليه من ظلم وعدوان بسبب السلطان الجائر
والحكم الظالم . فأنشد له قول الشاعر :
إذا ما خفت في أرض مضيقاً فشدّ اليعمالات إلى سواها
فإنك واجداً أرضاً بأرض ولست بواجد نفسك سواها
فمنسك فز بها إن خفت عنها وخل الدار تبكي من بناها
ورأى شخصاً يحاول ما لا يستطيع ويتعاطى ما لا قبل له به فأنشد قول
الشاعر :

ومستعجل للحرب والسلم حظه فلما استدارت كل عنها بحافره
ورأى صور التعامل بين الناس ونقدم لمن لا يستفيدون منه واتجاههم
إلى من يبذل لهم المال فإذا نقد ما بيده قلبوا له ظهر الجبن وضحكوا عليه
وسخروا منه فأنشد قول الشاعر :

إذا اقتصد انقى في المال قالوا بخيل لا يهش إلى المعالي
وإن هو سامح الأقسام جوداً فيالك فيه من حسن المقال
خداعاً يجلبون نذاه حتى إذا عروه من نشب وصال
فعادوا بعد تقديس لشم وصار بعد مذموم الفعالي
كنى ابن آدم تجربة وصبرا به وبأهله في كل حال
أرى لك أن تمد يديك قصداً بلا سرف ولا إمساك غال

وهكذا كلما مرت به حالة أجدته حافظته القوية التي لا تنسى بشاهد من

الأدب العربي إن كان المجال مجال أدب أما إذا كان المجال مجال دين فقد علمت أنه حفظ كتاب الله وحفظ كثيراً من السنة النبوية المطهرة وهذا الزاد هو عدته في دروس الوعظ والإرشاد التي يقوم بإلقائها في كل مناسبة وهي مدار حجته وبرهانه في أحاديثه التي يفيض بها أينما جلس ومع من جلس .

قال أبو الربيع: قعدت أنا وأبو محمد على طريق فمرت بنا امرأة فالتفتت إليها فقال لي: لا يجوز قعود على صعديات الطريق إلا لمن أدى حقها . قلت: وما حقها ! قال: قيل لرسول الله ﷺ: وما حقه؟ قال «إغائه الملهوف وهداية الأعمى، وغيض الطرف عن الحرمات، وإماطة الأذى» .

وكان عالماً بالتفسير وبارأء المفسرين قال أبو الربيع: تحدثت مع أبي محمد حتى ذكر أولاده ونظر في أمرهم، فهونت عليه وقلت له: إهمم ذكران رجال فلا يهملك أمرهم . فقال: لا تقل هذا القول فإن على الأب أن يعين ولده على إبراره وقد قال بعض المفسرين في الذين سماهم الله أبراراً إنما سماهم كذلك لأنهم برّوا الآباء وبروا الأبناء فاستحقوا أن يسموا أبراراً . كان خطيباً فصيحاً عارفاً بمواقع الكلام . قام جماعة قطييلية يريدون زيارة إخوانهم فتلقاهم أبو محمد قريباً من منزله وقال لهم بعد التحية والترحيب: كان ينبغي أن نلتقاكم في سوف وإلا فني واغلانت ولكن الزمن غير مساعد وقال ﷺ: «لاتزال أمتي بخير ما إذا قالت صدقت وإذا حكمت عدلت وإذا استرحمت رحمت» ، جعل الله مجيئكم مجيء أبي مودود إلى حضرموت . فقام هذا الكلام عندهم أشرف مقام .

ولعل الصورة التي أريد أن أعرضها للقارئ الكريم لا تتم إلا إذا
نقلت له ما يلي عن أبي العباس الشماخي :

« ولأبي محمد في الأدب كلام كثير ، وفي المواعظ والأمثال والتحذير
والوصية والأجوبة ، فن أرادها فعليه بالطبقات وكتاب أبي الربيع وغيرها
ولأبي زكرياء مكاتبات بمسائل يطلب جوابها فأجابه فيها وتقدم بعض ذلك
ومات عام ثمانية وعشرين وخمسمائة وهو ابن ست وتسعين سنة» . وقد أورد
له الدرجيني رسالة قيمة في ثلاث صفحات تشتمل على حكم قيمة ونصائح غالية
ومواعظة حسنة .

أبو عمار عبد الكافي (١)

أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب التناوتي نادرة من نوادر الزمان في الذكاء والفهم والحفظ والرغبة في العلم نشأ في وارجلان ودرس على مشائخها فنون علوم الشريعة واللغة حتى أجازوه ، ثم رأى أن يسافر إلى تونس ليزداد علماً في فروع أخرى من المعرفة ، وكانت تونس في ذلك الحين قصبته القصاد ومعدن العلم والمعرفة ، ومقر فطاحل العلماء والأعلام ، فاختار أبو عمار من بينهم من أعجبته طريقته في التدريس وأنس إلى أسلوبه في التعليم والمعاملة فالتزم مجلسه .

كان أبو عمار من أسرة غنية موسع عليها في الرزق الحلال فلما أراد السفر إلى تونس اتفق مع أسرته أن يبعثوا إليه ألف دينار كل سنة لمصاريفه وما يحتاج إليه من كتب وأدوات دراسية وإكراميات للمدرسين فكان يأتيه المبلغ كل سنة مع رسالة فيحتفظ بالرسالة في مكان دون أن يقرأها ويقسم الألف نصفين يسلمه لأسانذته ونصف يحتفظ به لمصاريفه وحاجياته . واستمر على هذه الطريقة حتى بلغ من العلم درجة تؤهله لأن يكون من كبار العلماء فأذن له أسانذته أن يستقل عنهم وأجازوه للفقوى والتدريس . وهنا فكر في الرجوع إلى وطنه وبدأ يستعد لذلك وتذكر الرسائل المحفوظة فاستخرجها من مكانها مرتبة وبدأ يقرأها واحدة بعد الأخرى فوجد في كل واحدة منها أخباراً كانت حربية أن نشغل ذهنه أيام التحصيل والكفاح لو أنه اطلع عليها بل كان فيها ما هو جدير أن يحمله على قطع الدراسة ولسكنه تلافى ذلك

(١) من أئمة القرن السادس ، ذكره الباروني في الطبقة الحادية عشرة م

بعدم الاطلاع على الرسائل . وعلم من بعض تلك الرسائل أن والدته قد
لحقت بربها وكذلك والده أحدهما بعد الآخر .

وبعد أن صفي أحواله من تونس عاد إلى وارجلان ليؤدى الرسالة المقدسة
رسالة كل عالم مؤمن يحرص أن يعمل لله ويجاهد في سبيله .

قال أبو العباس الدرجيني « ولقد حدثني بعض الطلبة النفطيين الذين
قرأوا بتونس عن بعض أشياخه أنهم قالوا: أدركنا أشياخنا يذكرون طالباً
من أهل وارجلان قرأ معهم على شيخهم إذ ذاك ، قالوا وأدركناهم يعجبون
من فهمه وحفظه ومواظبته وورعه وسخائه ، وجلالة نفسه ، وسعة خلقه ،
قالوا ولم نر مثله من العرب ولا من البربر . قال لى : وكانوا يذكرون لى
أنهم اطلعوا على كتاب معه فى علوم مذهبه وكان نظماً فى قصائد . فما هذا
الكتاب . فقلت له : هو دعائم ابن النظر كانت منه فى بلادنا من قبل هذا
نسخة غير محلولة ، وأما حل ابن وصاف فلم يرد بلادنا حتى ورد به الشيخ
أبو موسى عيسى بن زكرياء وأعلمته أن الطالب المذكور هو أبو همار
وأطلعتة على كتاب الدعائم ، لما ذكره وسأل عنه ، فلما رآه جعل يتعجب
منه ، فنظر منه بعض قصائد العقائد وهى الرائية التى فى الرد على القدرية فقال
معروضاً: ما أرى هاهنا إلا موافقة أهل السنة . فقلت له: ماخالف هذا الكتاب
فهو خلاف السنة » .

قال أبو العباس الشماخى : « ألف أبو همار كتابه الموجز فى الرد على
كل من خالف الحق فى جزأين ، وشرح كتاب الجهالات فى سفر ، وله
كتاب الاستطاعة ، وغيرها ، وأقام بتونس يتعلم الأدب والنحو وغيرها » .
كان أبو همار من كبار علماء الكلام والمنطق والجدل ولكنه كان

أيضاً من أولئك العلماء الذين يشغلهم علم الباطن عن علوم اللسان ، وكان يعتمد على العمل أكثر مما يعتمد على القول ولا يركن إلى القول إلا عندما يقتضى الموقف تقرير حجة لدحض شبهة ، أو إثبات سبب لمحاربة بدعة ، وكان فى الغالب لا يميل إلى الإسهاب والإكثار من القول وإنما يمتاز برصانة الأسلوب وجزالة المعنى ، والإيجاز فى الحديث .

بعث العلامة أبو عبد الرحمن الكرتى المصعبى بعض أسئلة يطلب عنها الجواب من علماء وارجلان ، فاجتمع المشائخ وناقشوا الأسئلة ثم فوضوا أبا همار فى الإجابة عنها . وقد حرر أبو همار الجواب عن الأسئلة ثم عرضه عليهم فوافقوا عليه بالإجماع وأرسلوه إلى عبد الرحمن الكرتى . وقد تضمنت الرسالة عدة أسئلة نضعها بين يدى القارئ فيما يلى :

سؤال - ما اليقين والقدر والفرق بينهما ؟

الجواب - اليقين صحة الاعتقاد وهو من أفعال القلب ، ومن أفضل أفعال العبادة . قال رسول الله ﷺ : « اعبد الله على الرضا واليقين » ، وإلا فى الصبر على ما تكره خير كثير . وقال : لو زاد يقيناً لمشى على الهواء والقدر ما قدره الله قبل أن يكون قال عليه السلام فى الإيمان : « وأن تؤمن بالقدر خيره وشره إنه من الله » .

سؤال - ما أعلام الساعة ؟

الجواب - اثنتان منصوصتان ، واثنتان مستخرجتان من النص وواحدة من الحديث فالمنصوصتان قوله تعالى : ﴿ حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج ﴾^(١) . وقوله فى عيسى عليه السلام : ﴿ وإنه لعلم للساعة ﴾^(٢) والمستخرجتان من النص طلوع الشمس من مغربها قال الله تعالى : ﴿ يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾^(٣)

(٢) الزخرف : ٦١

(١) الأنبياء : ٩٦

(٣) الأنعام : ١٥٨

والدابة قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ﴾ (١) والحديث قوله ﷺ: « نار تخرج من عدن تطرد الناس إلى محشرهم ، وحبشى يعلو الكعبة بفاسه يهدمها ، وخسف بجزيرة العرب » .

سؤال - هل يقال لله تعالى باللغة البربرية : أَيْرَادُ ؟

جواب - ما سمعنا أحداً أجازه إلا أبا سهل ولعل هروبه من جوازه ، اشتراك اللفظة في لغة البربر ، فإنهم يسمون الداجن من الطيور والوحش : أَيْرَادَنْ - ولئن أخلف : يُرْدِي - وهذا على حسب اللغات ، والهروب من المشكل إلى الواضح أولى .

سؤال - ما الحكم فيمن قال : إن الله ليس بِيُكْش .

جواب - إنه إن كان بربرياً أو يعرف لغة البربر فهو كمن قال : إن الله ليس بإله ، ومن قال ذلك فهو شرك .

وقد علق أبو العباس الدرجيني على هذه الأجوبة بما يأتي :

« قلت : وهذه الأجوبة بقدر وسع السائل لا بكنهه مقدار المجاب بل إنه عرض في تلك السوق ما أشبهها من المتاع ، وادخر الخبز والديباج لأشكاه اللهم إلا في جواب السؤال الأخير » .

ولست أدري ما عسى الدرجيني يقول لو كان هو الذي يجيب عن هذه الأسئلة فإن أبا عمار فيما أرى أجاب بما فيه الكفاية وهو وإن لم يطل في حديثه عن اليقين والقدر إلا أنه أجاب فأقنع وواقفه على ذلك مشأخ وارجلان ولا شك أن موقف أبي همار يقتضيه الإيجاز والوضوح فهو لم يكن يلتقي درساً

ولم يكن يؤلف فصلا من كتاب وليس هو في جدال مع القدرية والمرجئة وإنما كان يشرح معنى الكلمتين بإيجاز لسائل راغب في الاستفادة .

أما إجابته على الأسئلة المتعلقة باللغة البربرية فهي تتعلق بمباحث لغوية . وإذا كانت كلمة (يكش) بالبربرية تعني إله فإن نفيها عن الله تبارك وتعالى باللغة البربرية ممن يعرفها لا شك إشراك بالله لأنها إنكار للألوهية فهي شرك وجحود . أما إذا نطق بها ناطق وهو لا يعرف معناها فحاشى الكفر ليس بكافر والتنزه عن ذلك أولى .

واللغة البربرية كسائر اللغات لها تعابيرها الخاصة بها ولها أساليبها واستعاراتها وكنياتها وأوجه بلاغتها فما أدى المعنى المقصود أداءً سليماً صحيحاً فذلك حسن وما أوهم أو شكك فذلك ممنوع كما يمنع من العربية أو غيرها من اللغات . والإسلام - ولا سيما إبان الفتوح - قد دخل إلى كثير من البلاد التي لا يفهم أهلها اللغة العربية ولا يتكلمونها . ولو اشترط الإسلام اللغة العربية على جميع المسلمين لتوقفت الفتوح وتوقف الإسلام فإنه ليس في إمكان البشر أن يتعلموا اللغة بالسهولة التي يأخذون فيها العقائد وأعمال العبادات ولكن الإسلام ربما جمع الأمم إلى الدخول في الإسلام . واستعمل العربية حيث أمكن استعمالها واستعمل غيرها حيث لا تؤدي العربية المقصود من الدعوة ، وقد بقيت كثير من الأمم الإسلامية تستعمل لغاتها الأصلية في كل شيء ما عدا شيئاً واحداً فإنه لا يمكن أن يؤدي إلا كما هو ؛ وهو القرآن الكريم فعلى المسلمين أن يحفظوه بنصه العربي الذي أنزله الله على سيدنا محمد ﷺ مهما كانت لغات أولئك المسلمين . وإذا لم يفهموا النص العربي فلهم أن يطالبوا بشرح معانيه بلغاتهم . ومعلوم أنه لا يمكن

أن يعتبر الإنسان مسلماً إلا إذا كان محافظاً على الصلاة وأن الصلاة لا تصح إلا بالقرآن فعلى كل مسلم مهما كانت لغته أن يحفظ شيئاً من القرآن بنفسه العربي ليصلى به حتى ولو لم يفهم معاني ما يقرأ . وعلى علماءهم أن يشرحوا لهم معاني الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة بلغاتهم . ونحن إلى اليوم كثيراً ما تلقى دروس الوعظ والإرشاد باللغة البربرية لا سيما في المواطن التي تحضرها النساء وهن غالباً لا يعرفن اللغة العربية الدارجة . وكثيراً ما توجه إلينا في المساجد أو المجموع العامة أسئلة باللغة البربرية فنجيب عنها بنفس اللغة إثارةً لإفهام السائل مما يسأل عنه مقدرين أنه ما اختار استعمال تلك اللغة إلا لأنه أقوى بها على الفهم والاستيعاب .

كان أبو عمار بالإضافة إلى غوصه في بحار علم الكلام من أكثر الناس حرصاً على العمل ، وبعداً عن المهاترة والشغب ، وهروباً من المراء والجدال واشتغالا بالاهتداء والافتداء واتباع السلف . وقد اهتم بتاريخ العلم والعلماء فألف فيه كتاباً قيماً اعتمد عليه الدرجيني في طبقاته فيما بعد ، قال أبو العباس الدرجيني في مقدمة كتاب الطبقات ما يلي :

« هذا الترتيب الذي رتب أبو عمار حسن في معناه إلا أنه لم يذكر من الطبقة التي هو فيها شيوخه ومعاصريه إلا بعضاً من كل ، واستغنى فيها عن كثير من العدد ، وفيمن سمي كفاية . » وبعد أسطر يقول : « وها هنا وجب أن نذكر جماعة من الأشياخ الذين أخذوا عن الجماعة التي انتهى إليها ترتيب الشيخ أبي عمار » .

كان الدرجيني حين ألف كتابه الطبقات حسبه تقمة لعمل أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر ثم لعمل أبي عمار وجاء من بعدهم أبو القاسم البرادى فرأى أن الدرجيني لم يتناول القرن الأول بالإسهاب والتفصيل اللازمين فتناوله

هو وحسب كتابه (الجواهر المنتقاة فيما أخل به كتاب الطبقات) كأنه مقدمة لكتاب الدرجيني أو فصول منه ، وجاء من بعدهم العلامة أبو العباس الشماخي فألف موسوعة تاريخية لعلماء المذهب وترجم لجميع من ذكره السابقون وللكثير من أغفلوه عمداً أو سهواً فجاء الشيخ سعيد التعاريفي وانتقد الشماخي في ذلك السهو ثم ترجم لعدد جم لمن غفل عنه الشماخي من معاصريه ومن جاء بعدهم حتى جاء شيخنا أبو القيطان إبراهيم رحمه الله فأنتم عمل الشماخي منذ ذلك العصر إلى اليوم وقد ترجم فيه لجميع علماء الإباضية من المغرب الإسلامي مدة خمسة قرون وزيادة فجزاه الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء .

بعد أبو عمار في عصره من أعلام الأدب والتاريخ والسيرة زيادة عن علوم الشريعة بجميع فروعها ، وكان يضطلع بالتدريس والفتوى والحكم بين الناس وهو في جميع أطواره مؤمن حريص على إيمانه محافظ على دينه ذكي يفهم أسرار الشريعة ويفرق بين الأحوال فيها ، وعندما تعرض عليه مشاكل الناس يسبر أغوار نفوسهم أولاً فيساعده ذلك على حل المشاكل بكل عدل وحق ولعل الصورة التي نريد أن نضعها له لا تتم إلا بما يأتي : كان أبو عمار يقول : « إذا وقعت فتنة بين فئتين من المؤمنين ، فالأحب إليّ أن يصطلحوا فإن لم يفعلوا فالأحب إليّ أن لا تغلب فئة فتنة ، فإن من أحب أن تغلب إحداها الأخرى ، فقد دخل في الفتنة ، ولزمه ما لزم أهل تلك الفتنة وكان سيفه يقطر دماً . » وروى عنه عيسى بن أحمد أنه قال : « السلامة عندي أن يكونوا من البراءة سواء لا يرجح قلبي إلى إحدى الطائفتين ، فإنه متى رجح أثم » فرحم الله تلك النفوس المؤمنة التي ليس لها ميزان غير ما يرضى الله تبارك وتعالى .

أبو يعقوب بن خلفون^(١)

كان أبو يعقوب يوسف بن خلفون المزاتي من الذكاء والعبقرية وسعة الاطلاع في مرتبة قصر عنها جمع من نظرائه ومنافسيه ، وقد أوتي مع سعة الاطلاع حسن التصرف في المعرفة ، وفضل البيان في التعبير . فكان حين يتحدث فصيح العبارة ، سهل الأسلوب ، بين المقاصد ، سليم اللغة ، وكان حاضر البديهة قوى العارضة ، ساطع الحججة لا يطاق في النقاش ، ولا يوقف له في المناظرة .

وكان بارعاً في الشرح والإيضاح عند التدريس عذب الحديث فكان طلاب العلم يتزاحمون على مجلسه ، ويتدافعون على الاقتراب منه ، والاعتراف من نبعه الفياض الذي لا ينضب .

قال عنه أبو العباس الدرجيني : « المتحقق الوصول إلى الغاية في علمي الفروع والأصول ، إن درّس فلقن يحسن التلقين ، وإن أوتي فغترف من عذب معين ، لا يخشى منه تعسف ، ولا يدرك ألفاظه تكلف ، كثير الاطلاع على مسائل الاتفاق والاختلاف ، كثير الدفاع عما قيده فقهاء الأسلاف ، وله تعليقات عجيبة وأجوبة مقنعة مصيبة ، إلا أنه كان مع محافظته وكثرة حفظه ، يعجز من ضعف بخته مع الإخوان وقلة حظه ، فإنهم لم ينيلوه في العشرة إنصافاً ، ولم يهجووه من أنفسهم إسعافاً ، بل لقد أذاقوه العقوق أصنافاً » .

كان أبو يعقوب لغزارة علمه ، وسعة أفقه ، لا يتطامن لمنافسيه ، ولا

(١) من علماء القرن السادس ، ذكره الباروني في الطبقة الحادية عشرة .

يتصاغر لهم ، وإنما كان يدل بما عنده ، من علم ، ويتحدى من يتعرض له في النقاش وكان إلى جانب ذلك لا يظني على كتب السابقين ثوب القداسة ، ولا يرفعها إلى مكان العصمة من الخطأ ، وإنما كان ينتقدها نقد الخبير ، فيطري ما استجاد منها وينتقد ما لم يحز رضاه ، شارحاً لما أخذه أحياناً ، مجملاً لها أحياناً أخرى وكان مع هذه الحرية في الرأي كثير الطالعة لا يكاد يفت منه كتاب من الكتب الموجودة في عصره مما ألفه علماء الإسلام من مختلف المذاهب ، وكان يعنى بمسائل الخلاف بين المذاهب عناية خاصة ، ويراجعها في مصادرها عند كل مذهب . فكان الزائر عندما يزوره يجد عنده مجموعات من مختلف الكتب لمختلف المذاهب . وهذا التحرر في المنهج الدراسي والاعتداد بالنفس وعدم التطامن للأقران هو الذي أثار عليه بعض مناقسيه . كما أثار بعض الفقهاء المتشددین من عصره الذين لا يرتفعون إلى أفقه ولا يخلقون في جوهه وإن كانوا يتهتمون بمركز علمي ممتاز وسمعة شهيرة ذائعة فخاربه الطرفان بغير سلاح العلم وحكموا عليه بالخطة والهجران . ولكن الرجل القوي استمسك بموقفه فلم يتنازل لهم وقرر أن لا يرجع عما يراه من الصواب إلى استرضاء الجامدين والتنازل للمنافسين وإنما استمر يعمل على أفقه الفسيح ، وبسبغ في جوهه الواسع .

وسمع الإباضية من مختلف بلادهم بإصدار حكم الخطة على أبي يعقوب وكان يصل إليهم هذا الخبر عن ناس موثوق في دينهم وأمانتهم . والبعداء الذين تصلهم الأخبار من جانب واحد لا يعرفون حقيقة الوضع فيلتزمون بما وصل إليهم فكانوا هم أيضاً يعتبرون ذلك العالم الفاضل في حكم الهجران فيقطعون عنه الصلة ويحولون دونه ودون اللقاء . وكان بعضهم يتساءل عن سبب هذا الحكم على عالم واسع الاطلاع فيأتيه الجواب بأن الرجل يطعن في كتب

السلف ولا يهتم بما كتبه علماؤنا الأجلاء ويحتقر كتبهم ولا شك أنه خارج عن مذهب أهل الحق والاستقامة إلى مذاهب أخرى ويضيف نقلة الأخبار إلى هذا ما يناسبها من التهم التي يلققها المنافسون ويقبلها الجامدون .

بقي أبو يعقوب زمنًا غير قصير تحت ضغط هذا الحكم القاسي فلا العلماء المستنيرون كسروا الهجران وحاولوا أن يتصلوا به ليناقشوه ويفهموا منه وجهة نظره ولا هو حاول أن يسترضى أولئك الذين حكموا عليه ، أو يتصل بغيرهم من فطاحل العلم فيشرح لهم موقفه ويبين لهم مقصده وإن كان نظام تطبيق الخطة يقتضى أن لا يحاول المحكوم عليه أن يعتذر أو يتخلص إلا بعد إعلانه التوبة مما نسب إليه وهذا هو الموقف الذي لم يرد أن يتخذه أبو يعقوب . إلى أن أتيح له أن يحج إلى بيت الله الحرام .

ويقص علينا العلامة أبو عبد الله بن سعيد وهو حينئذ من تلاميذ العلامة يخلف بن يخلف فيقول : « خرجنا حجاجاً مع شيخنا يخلف بن يخلف حتى إذا كنا (بعقاب) قدم علينا في وقت المساء رجل لانعرفه فرأيناه يسأل عنا ، فقال له يخلف : من هذا السائل ومن ؟ قال أنا صباح المزاني . فاستحال^(١) ذلك شيخنا فبادره بأن قال : كذبت ... قال أبو عبد الله وما رأيت قط همل بسوء معاملة قاصداً إلا تلك الليلة ، ثم تدارك فسأله : ما شأنك ؟ وما وراءك ؟ قال : قدمت مع همى يوسف بن خلفون وأعلمه بأمر دلت على صدقه ، فجعل يستغفر الله ويتوب إليه مما فرط منه . قال له : وابن عمك يوسف ؟ قال : بييت عندكم في الليلة المقبلة ، قال أبو عبد الله : فلما كانت الليلة المقبلة لحق بنا هو ومن معه . فلما حل بنا أبو يعقوب . لم يمكننا إقبال عليه ،

(١) استحجال الشيء : عده محالاً لا يمكن أن يقع .

لأننا قد خرجنا من بلادنا ، والعلم عندنا أنه في الهجران ، ولا علم عندنا بقربته ولا غيرها ، فجهدنا أن نقاضي بشيخنا يخلف ، فما تقدم فيه تقدمنا . قال : فلما ترائى الشيخان وضع شيخنا يخلف يده في يد أبي يعقوب وتنحيا جانبا غير بعيد ، فجعل يثرب عليه ويعدد ما نسبوه إليه بتهريب لم نفهم منه إلا ما عاينا الشيخ كلما ذكر الشيخ خطيئة خط بإصبعه في الأرض خطأ ، فكأما عدد عليه شيئا ذكر وجهه وسببه واعتذر واستغفر ، حتى أتى عليها جميعا ، وظهرت براءته ، وكان الشيخ يخلف يقول في تهريبه : يا ابن خلفون كيت وكيت ثم يخط ... ثم يقول يا ابن خلفون كيت وكيت وأطال العتاب وأبو يعقوب مطرق إلا أنه مهما عد عليه شيئا ذكر وجهه وسببه ، حتى توجه عند الشيخ عذره .

فسمعنا شيخنا يقول : الحمد لله رب العالمين ، وقاما معا فاعتنقا ، وقنا نحن أيضا فسلمنا على الفقيه أبي يعقوب وتأنسنا به ، وسرنا إلى بلد الله الحرام ، فأدر كنا هنالك ركب إخواننا أهل عمان ومعهم قههم الذي حج ٣٢٠ يسمى ناجية بن ناجية .

قال أبو عبد الله : « فحججنا حجة لم يحجها مغربي قبلنا ولا بعدنا . » .
صبر أبو يعقوب كما رأيت لحكم البراءة الذي أصدره عليه الفقهاء والجامدون من أهل بلده ثم أبلغوه إلى إخوانهم في كل مكان فحكوا به عليه ، ولم يسارع إلى إعلان التوبة بين يدي أولئك الفقهاء لأن التوبة تعني الرجوع عن حقه إلى باطلهم والتنصل من أرائه العلمية المجردة ، التي قصروا عن فهمها . ولم يتح له أن يتصل بغيرهم ممن هم أوسع أفقا وأسلم إدراكا وأصح فهما . فلما أتيح له أن يحج وسمع بعزم العلامة يخلف بن يخلف على الحج فرح بذلك وبعث إليه ابن همه يخبره أنه سيرافقهم ، وهو يعلم أنه في نظر (١٥ - الاباضية)

يخلف - في الهجران ويعلم كذلك أن يخلف من أشد الناس تمسكا بالبراءة ممن يستحقها وأحرصهم على أن يسير الجميع سيرة يرضى عنها الدين والخلق والعلم ، ويعلم كذلك أن يخلف قد أوتى من العلم ما يفرق به بين الحق والتباطل والصواب والخطأ ومن الدين ما يجابه به أى فرد أو هيئة مستمسكا بالحق لا يفرط فيه .

ولما وصل أبو يعقوب حار الناس في موافقهم منه . أيقفون منه موقفهم مع مجرم مذنب يعتبرونه عاصياً فيقاطعونه ولا يسمون عليه ، أم أنهم يكسرون حكم الهجران ، فيهدمون قاعدة هامة من القواعد الخاصة بالمذهب والتي كانت سبباً في حفظ المجتمع الإباضى من الانحراف ثم إنهم سوف يحكم عليهم هم أنفسهم بالهجران ويخرجون إلى الخطة وانفقوا أخيراً أن يقتدوا بشيخهم يخلف وفي اقتدائهم به عذر لهم عند أبى يعقوب وعند خصومه . وما اقترب منهم حتى قام إليه الشيخ يخلف قبل أن يكسر الهجران ودون أن يسلم عليه هو أو غيره وتنحى به جانباً ثم وقف معه موقف القاضى الحازم مع المتهم يسوق إليه التهم الموجهة إليه ممن حكموا عليه بالبراءة ويطلب منه الدفاع عن نفسه وكان كلما ذكر تهمة خط خطأ واستمع إلى الرد فإذا اتنع به وجه التهمة التالية وخط خطأ وهكذا^(١) .

يا ابن خلفون قيل إنك تهون فى تأليف أسلافك .

يا ابن خلفون إنك تشتغل بمطالعة كتب أهل الخلاف .

يا ابن خلفون إنك تعظم علماء أهل الخلاف وتحتقر علماء مذهبك .

(١) الأسماء ذاتية أمثلة لما ظننه جرى فيه القائل ولم نثر في المصادر التي بين أيدينا على نصوص القائل الذى جرى بين العالمين الكبارين .

يا ابن خلفون إنك تتكبر على العزابة ولا تخضع لأحكامهم .
يا ابن خلفون إنك تصر على خطئك ولا تراجع التوبة .
يا ابن خلفون قيل إنك تريد أن تخرج عن مذهبك وتنتحل غيره .

يا ابن خلفون قيل وقيل إلى آخر ما وجه إليه من تهم ونسب إليه من أقوال وأفعال تبعد عن منهج الاستقامة . وكان أبو يعقوب يستمع إلى العالم العظيم في احترام وتقدير وكلما وجه إليه تهمة ذكر وجهة نظره والأسباب التي دعت به إلى عملها أو القول بها أو أنكر أن تكون منه إن كانت التهمة كاذبة ثم يعتذر ويستغفر الله حتى اقتنع الشيخ بخلف بسلامة موقف الشيخ أبي يعقوب فحمد الله على ذلك وقام فاعتنقه وحطم ذلك السور الذي ضرب على ابن خلفون ما يزيد على اثني عشرة سنة كما يذكر بعض المؤرخين .

وقد تناول أبو العباس الدرجيني هذه القضية بالمناقشة ووقف في جانب أبي يعقوب موقف المحامي اللبق والمدرس الخبير . وقد حاول أبو العباس في مناقشته لهذا الموقف بين العزابة وأبي يعقوب أن يبرر موقف كل منهما وأن ينظر إلى مسلكه من زاوية معينة . فعذر العزابة في موقفهم وعذر أبا يعقوب في سلوكه .

وأحسب أن أبا العباس وفق كل التوفيق في مناقشته تلك .

كان كبار العلماء أشد استمساكا بتطبيق أحكام البراءة على من يستحقها ، ويندر أن تقع حالة مشابهة لحالة أبي يعقوب فيحكم بالهجران بأسباب غير وجيهة . وعندما يقع مثل هذا الخطأ فإن أهل العلم والدين

يؤيدون حكم العزابة حتى يقين لهم الخطأ في حكمهم ويتأكد ذلك لديهم ، وأن المحكوم عليه لا يستحق ذلك الحكم ، وهم بطبيعة الحال معذورون في هذا الموقف ، وقد يتشدون أكثر إذا كان المحكوم عليه من رجال العلم ، لأن رجال العلم المفروض فيهم أن يكونوا قدوة وأن يكونوا أبعد الناس عما يفضب عليهم جماعة المسلمين .

وعندما أعلن حكم البراءة على أبي يعقوب كان من أشد الناس عليه العلامة أبو رحمة حنين اليشكني ذلك أن العلامة أبا رحمة كان مرجعاً في وارجلان وكان لا يتساهل أبداً في أى انحراف مهما كان بسيطاً . ولما أعلن عزابة (تين باماطوس) حكمهم على أبي يعقوب انتظر منه أبو رحمة موقفاً غير موقفه فهو إما أن يسارع إلى التسوية والتوصل مما نسب إليه وهذه هي الطريق التي سلكها أغلب علماء الإباضية الذين لحقهم حكم الهجران ، وإما أن يتصل بالعزابة خارج بلده ، ويبرر لهم موقفه ويقنعهم أنه ليس على خطأ وقد لا ينجح في هذا أبداً فلما لم يفعل شيئاً من ذلك حسب أبو رحمة منه ذلك تعبتاً وغروراً وارتفاعاً على العزابة فاشتمد عليه واشتد في محاسبة من يتصل به .

كان طلبة العلم الذين يدرسون في مدارس مختلفة عندما ينتهون من دراساتهم يهودون إلى أعلام العلماء من المذهب فيعرضون عليهم ما أخذوه من مختلف المدارس ليصححوا لهم ما أخذوه ويميزوهم فيعرفون بعلمهم ويعرف به الناس من ورأهم . وهم حين يعرضون عليهم ما تعلموه قد ينصحونهم بوجوب الاستمرار في الدراسة مع تعاطى التدريس ، وقد يجيزون لهم التدريس والفتوى مطلقاً وكان أبو رحمة اليشكني هو المرجع

في ذلك العصر كله فكان الطلاب يدرسون في مختلف المدارس والبلدان ثم يرتحلون إلى وارجلان ليعرضوا عليه ما درسوه .

قال بعض الطلبة : « قدمت من جهة طرابلس بعد قراءتي بهـ على الشيخين أبي عبد الله وأبي همران موسى النفوسيين مسائل في المذهب فقصدت جهة وارجلان لألقى الشيخ أبي رحمة الشكني فأعرض عليه ما أخذت قال فاجتزت على تين باماطوس وبها الفقيه أبو يعقوب ثم جئت إلى أبي رحمة (باقران) فلما رأني قال لي : على طريق تين باماطوس كان طريقك ؟ . فقلت نعم . قال : هل سلمت على فلان . قلت لا . قال لو سلمت عليه لم أسلم عليك » . هكذا كان أبو رحمة يتشدد في تطبيق الحكم والحرص على تنفيذه والمحافظة عليه وقد بقي حكم الهجران مصلتاً في قوة وعنف على أبي يعقوب إلى أن التقى بالعلامة يخلف في طريق الحج فأعلن هذا العالم العظيم رفع البراءة عن ذلك العالم العظيم حين اقتنع بسلامة موقفه وصحة عقيدته وبرأته من بعض ما نسب إليه .

ورغم هذا الموقف الصارم من عزابة (تين باماطوس) ضد أبي يعقوب واتهامهم له بأنه يريد أن يخرج عن المذهب وأنه يفضل كتب المذاهب الأخرى وأنه كان يطعن على أسلافه رغم هذه التهم كلها فإن أبا يعقوب قد برهن علمياً على أن أولئك الناس لا يعرفون عن حقيقة دراساته ومواقفه في الاحتجاج للمذهب على غيره شيئاً وقد ذكر أبو العباس أنه مما قيد من تعليقات أبي يعقوب يوسف بن خلفون أجوبته عن المسائل التي سأله عنها سائل فكتب بها إليه وبين ما في جميعها من أقوال العلماء .

فوجه ما ذهب إليه أصحابنا واستدل على صحته بأدلة قاطعة ورسالته إلى أهل جبل نفوسة مشتملة على فقه ووعظ .

وقد اطلمت على رسائله تلك وهي نموذج رائع من التحقيق العلمى ومناقشة مشاكله على ضوء آراء علماء الأمة لا علماء المذهب فقط مع الاعتماد أساساً على السنة النبوية المطهرة وآراء الصحابة رضوان الله عليهم وقد علمت أن الأخ الدكتور همرو النامى سدد الله خطاه قد حقق تلك الرسائل وهو بصدد نشرها^(١) فى رسالة المسجد (لدار الدعوة) أما رسالته إلى أهل الجبل فلم أطلع عليها ولا بد أن تكون للعالم العظيم أعمال أخرى غير هذه إما أنها ضاعت أو لم يتيسر لي الاطلاع عليها .

(١) قد نشرت تلك الرسائل بتحقيق الدكتور النامى وأحسب أنها نفذت .

أبو عمرو السوفى (١)

هو أبو هرير عثمان بن خليفة السوفى المارغنى قال عنه أبو العباس الشماخى :

« كان إماماً فى العلوم لا سيما علم الكلام » .

أخذ أبو عمرو العلم عن العلامة الكبير أبى العباس أحمد بن محمد بن بكر . وقد أخذ عنه مع العلم حبه للعمل .

فكان أبو عمرو من أولئك العلماء الذين يكافحون بكل ما أوتوه من قوة فى سبيل الله كان لا ينفك عن محاربة الجهل والبدعة والانحراف ، حيناً بالموعظة الحسنة ، وحيناً بالنقد اللاذع والتوبيخ الصارم ، والوعظ الزاجر وكان لا ينفك يدعو إلى الاستمسك بدين الله مبيناً للناس ما كان عليه رسول الله ﷺ ، وما كان عليه أصحابه رضوان الله عليهم وكيف كانت سيرة خيار المسلمين .

ولقد كان بلده (سوف) بالنسبة للإباضية خير مكان لمن يقوم بالدعوة لأنه جاء متوسطاً بين الأماكن العامرة بهم كأنه نقطة ارتكاز ، فيرتحل منه الداعية مغرباً فيزور بلاد أريغ ووارجلان وبادية بنى مصعب وجبال أوراس وما ولاها . يخلق عليه الطلبة ويجمع به المشائخ ويستمع إليه العوام ويساعد على حل ما يجده من المشاكل ويعود إلى مركزه فيستقر قليلاً ثم يتجه مشرقاً فيزور بلاد الجريد : نقطة وتوزر ودرجين والحامة وجربة

(١) من علماء القرن السادس، ذكره البارونى فى الطبقة الحادية عشرة .

وجبال دمر حتى يبلغ جبال نفوسة وما ولاها ثم يعود وتعددت رحلات
أبي عمرو حتى ضاقت منها صدور المتعصبين من بعض المذاهب فكادوا له .
وهذا هو أبو العباس الدرجيني يعرض علينا بأسلوبه الرائع تلك الحادثة
المؤسفة قال :

« إن الحامة لم تزل في إديبار من عهد أبي القاسم وأبي خزر رحمهما الله ،
وما طرأ على كل واحد منهما وعلى من بعدها حتى إذا كان في زمن الشيخ
عثمان السوفي فورد الحامة وليس فيها من أهل المذهب إلا أطلال بالية ،
ومساجد عامرة كالحالية . وكان أبو عمرو عابر سبيل فأراد أن يذاكر
هؤلاء بما يثبتهم في الدين ويمسكهم بعقائدهم على يقين ، وكان المخالفون
من أهل الموضوع قد سكنت نفوسهم واطمأنت قلوبهم بانقراض مذهبنا
في بلدنا ، وضعف من بقي من أهله ، فلما سمعوا بقدم أبي عمرو ، وبما شرع
فيه ، عضوا عليه الأنامل من الغيظ ، واجتمعوا فيما بينهم وأرادوا ما يفضحون
به أبا عمرو إذا هم ناظروه ، فمشاوروا في ذلك ، فجعل كل واحد منهم يدلي
برأى فقال قريتهم :

اعلموا أن الرجل عالم ، ذو قدرة على المناظرة ، ولا طاقة لكم به إن
حاولتم أخذه في الطريق المهيج ، لكن إن سلكتم معه بينات الطرق وجادلتموه
بالباطل ، ومقتموه في أنظار العوام وتظلمتم فإنكم تظفرون به . قالوا : وكيف
يمكن الظفر به من طريق الباطل ؟ قال : يسأله أحدكم : هل يجوز في مذهبكم
تزويج نسائنا ؟ فإنه حينئذ يقول الحق ويحيب بأن يستعظم هذا ويقول :

يا سبحان الله قد جاز عندنا تزويج اليهوديات والنصرانيات فكيف
بنسائكم . فإذا قال هذا ألزمنه الذنب بأن نقول له : نراك أنزلتنا منزلة

اليهود والنصارى فنكابه ونفحه وإن هو أجاب بنعم فقط استأنفنا
سؤالا آخر .

فلما كان الغد أجلبوا عليه بخيلهم ورجلهم ، وأحضروه هو وتلامذته
فسأله سائلهم بما أعدّ من مسألة النكاح فأجاب بما كان خصمه ينتظره
منه فلما قال ذلك قال مدره القوم: إن هذا أنزلكم منزلة اليهود والنصارى .

فقاموا عليه قيام رجل واحد شتما وصدما وضرباً وطرداً حتى نفوهم من
البلد وأكروهوا من بقي من أهل المذهب على الرجوع إلى مذهبهم وهدوا
إلى المسجد الكبير من مساجد الإباضية فغسلوه بمياه كثيرة حتى جرت أنهاراً
وسارت في الطرقات وخرجت من البلد هامية .

يعتقدون أن ذلك تطهير للمسجد والبلد « !! .

هذه حادثة من الحوادث الكثيرة التي كانت تقع بسبب الجور والجهل
والتعصب المذهبي والتي يتسبب فيها غالباً ويقودها رجال قاصرون ينتسبون
إلى العلم ، ولكنهم يحاولون أن يسيطروا على أذهان العامة بالادعاء والدجل ،
فإذا حل بين ظهرانيهم من يتحلى بالعلم الصحيح والخلق السليم والدين القويم
خافوا أن يفتضح قصورهم وتقصيرهم ، ويتضح للناس جهلهم وفشلهم فيلجأون
إلى المكائد يدبرونها ضد أهل العلم والخلق والدين مهما كانت نتائج تلك
المكائد ولو سببت في قن بين الناس تنهك فيها الحرم وتراق الدماء ، وتضيع
الأموال بغير حق .

كان أبو هريرة منذ كان طالباً جم النشاط كثير الحركة ذا حيوية
متدفقة .

فلما أراد أن يسافر من وارجلان إلى وادي سوف وقد أصبح ذا منزلة علمية مرموقة شيعه الشيخان أيوب بن اسماعيل ، وموسى بن علي ، وكان الشيخان يريدان منه أن يتجمل بشيء من الوقار تقضيه منزلته العلمية فقال له أيوب : يا عثمان الوطوطة والعلم لا يجتمعان ، وقال له موسى : الحجر المتقلب لا يثبت عليه بنيان . قال أبو عمرو: فرأيت ما أشارا به هو الصواب .

قال أبو العباس الشماخي : « وله من التأليف كتاب السؤالات وهو تأليف مفيد أظهر فيه منزلة من العلم وله غيره من التأليف وله مناظرات مع المخالفين » .

ولقد اطلعت على نسخة من هذا الكتاب القيم . تخرج على يديه عدد من الأعلام منهم ميمون التكنيصى الوردغى وهو أحد العلماء الثقة الذين جازت عليهم نسبة الدين وكان حلقة في السلسلة التي ربطت العصور المتأخرة بخير القرون .

أبو سهل بن إبراهيم^(١)

هذه الترجمة منقولة حرفياً من كتيب صغير لشيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبي اليقظان إبراهيم رحمه الله . اسمه « تراجم الأئمة » قال : هو الشيخ أبو سهل يحيى بن إبراهيم بن سليمان بن إبراهيم بن ويحمان رحمه الله ، العالم الشهير ذو الكرامات العديدة . والآثار القيمة ، والتأليف الكثيرة ، والأجوبة المفيدة بالعربية والبربرية .

وذكر لي العلامة الشيخ إبراهيم بن أبي بكر أن له تأليفاً رائقاً عند القطب الشيخ طيفش رحمه الله .

ومسجده في البلد داخل داره في شارع البستان . وقبره خارج البلد وهو كالربوة لم يندرس ، ومن جهة رأسه محراب كبير ويزار كل عام على الهيئة التي قدمنا .

وأما أبوه إبراهيم وجده سليمان وجد أبيه إبراهيم وجدهم الأعلى ويحمان فكلهم فضلاء معدودون في جملة المشايخ العظام .

وأما ابنه داوود بن سهل فهو شيخ عالم عامل شديد في الأمر والنهي شديد الشكيمة على العصاة والمجرمين .

ومن تلامذة أبي سهل الشيخ أبو العباس أحمد بن سعيد الدرجيني مؤلف كتاب « الطبقات » طبقات المشايخ كتب له أبوه قصيدة من عيون شعر

(١) أبو سهل يحيى بن إبراهيم ، ذكره القطب في الطبقة الثانية عشرة .

أهل الحق والاستقامة يحرّضه فيها على تحصيل العلم والمواظبة حين كان يعلم على الشيخ أبي سهل بوارجلان وتعتبر بحق أنها فريدة في بابها ومطلعها :

مضت سنة واستقبلت بعدها أخرى فيا ليت شعري ما نجىء به البشرى
أبالعلم لم فزتم أم إلى اللهو ملتم ونحن نعد العام والفصل والشهرا
ألا إياها تحصى عليك لياليا فما الترك والإهال للحرق بالأحرى
فحاسب أبا العباس نفسك جاهداً وناقش ولا تنسى الصغيرة والكبرى

إلى أن قال :

وشينك والحفاظ حاذر عقوقهم ووقرهم كلاً وكن بهم برا
وعاشرهم في الله أحسن عشرة وكن لهم ، لاتعصى سراً ولا جهرا

إلى أن قال :

فَمَا عُدْرُ مَنْ أَسْتَاذُهُ نَدُّ عَصْرِهِ أبو سهل الخبر الذي قد علا فخرا
سلالته أشياخ كرام وسادة فأكرم به فرعاً وأكرم بهم نجرا
حوى العلم والدين القويم ورائة فأصبح في ذا العصر أطيهم ذكرا
ففيه التناهي في العلوم فحسبه فكل فقيه ماهر فطن نذرا
به (وَرَقَلِي) تزهو كالا وبهجة به أشرفت نوراً به انسمت نوراً

إلخ ، وذكر القطب في رسالة وادي ميزاب رقم ١٨١ ما نصه :

« من أهل الخمسين الثانية من أهل المائة السادسة: أبو سهل يحيى بن إبراهيم

الورقلى » . . انتهى

أبو يعقوب الوارجلاني^(١)

أخذت ترجمة هذا الإمام من رسالة شيخنا أبي اليقظان رحمه الله « تراجم الأئمة » مع قليل من التصرف وكثير من الاختصار .

هو الإمام أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم السوراني الوارجلاني رحمه الله وهو من رجال القرن السادس الهجري توفي سنة ٥٧٠ هـ .

ولد في بلدة وارجلان عام ٥٠٠ هـ وبعد أن أخذ في تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن العزيز وتفقه في الدين على منهاج الإباضية الوهبية وأخذ مبادئ علوم الدين من عقائد وفقه عن مشائخه في وارجلان ، ارتحل إلى الأندلس وسكن قرطبة وهو شاب أعواماً عديدة لاستكمال علومه في فنون اللسان والتفسير والحديث والتنجيم ونبغ في جميع ذلك نبوغاً منقطع النظير كما ستمره قريباً إن شاء الله وقد ترجم له عدد من مؤرخي السلف والخلف منهم أبو العباس الدرجيني ، وأبو العباس الشماخي ونور الدين السالمي وعبد الرحمن الجليلي وأبو إسحق طفيش ، وتحدث عنه أيضاً المؤرخ التونسي الكبير الشيخ حسن عبد الوهاب .

وقد نقلها شيخنا أبو اليقظان كلها في رسالة ولكني رأيت أن أقصر على واحدة منها هي ما نقله عن الشيخ الجليل عبد الرحمن الجليلي قال :

هو العلامة المتبحر أبو يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني ولد بمدينة وارجلان — ورقلة — بالجنوب الجزائري سنة ٥٥٠ هـ — ١١٦٠ م وأخذ

(١) من أئمة القرن السادس ، ذكره الباروني في الطبقة الحادية عشرة .

العلم ببلده ثم ارتحل منها إلى الأندلس طامباً الاستزادة فدخل قرطبة حاضرة العلم يومئذ فكان هناك بين المثقفين مثالا للنبوغ النادر والأدب الجم والاطلاع الواسع والعلم الغزير ، حتى كان الأندلسيون مع حداثة سنه يشبهونه بالجاحظ ، ثم عاد إلى وطنه ، وجد منه الرحلة إلى المشرق فدخل عواصم العلمية اللامعة وتضلع فيها بجميع ما كان متعارفاً مشهوراً في وقته من العلوم الإسلامية معقولها ومنقولها ، وأكثر من الرحلة في سبيل العلم فتوغل في أواسط أفريقيا حتى بلغ إلى قريب من خط الاستواء قبلما تبجح الأوروبيون باكتشافه بقرون .

ذكر ذلك بنفسه في كتابه الجليل الجامع « الدليل والبرهان لأهل العقول » وهو أحد كتبه الممتعة طبع بمصر سنة ١٣٠٦ هـ - ١٨٨٨ م .
ولما عاد من رحلته لازم داره بوارق منسكبة على الدرس والتأليف مكرساً حياته لخدمة العلم ونشر الثقافة الإسلامية . فلم يخرج من داره مدة سبعة أعوام ولم يكن يرى فيها - كما قال الشماخي - إلا ناسخاً أو للأقلام باريكاً ، أو للدراسة فاعلاً ، أو للحبر طابيحاً ، أو للدواوين مقابلاً ، أو للكتب مسفراً .

وللشيخ من التأليف : تفسير القرآن يقع في سبعين جزءاً وصف البرادى جزءاً منه فقال :

« رأيت منه في بلاد أريغ سفراً كبيراً . لم أر ولا رأيت قط مسفراً أضخم منه ولا أكبر منه حضرت أنه يجاوز سبعمائة ورقة أو أكثر أو أقل فيه تفسير فاتحة الكتاب والبقرة وآل عمران . و حضرت أنه فسر القرآن كله في ثمانية أسفار مثله . فلم أر ولا رأيت أبلغ منه ولا أشفى للصدر في لغة

أو إعراب أو حكم مبين أو قراءة ظاهرة أو شاذة أو ناسخ أو منسوخ أو
في جميع العلوم منه » .

يقال إنه يوجد من هذا التفسير جزء واحد بإحدى خزائن ألمانيا .
وله كتاب العدل والإنصاف في أصول الفقه يقع في ثلاثة أجزاء .

والقصيدة الحجازية نظم فيها رحلته العلمية إلى تلك الديار تقع في ٣٦٠
بيتاً جمع فيها كثيراً من فنون العلم - وكتاب مرج البحرين في الفلسفة ترجم
إلى أكثر لغات أوروبا نظراً لأهميته .

واشتمر له في خدمة كتب الحديث « ترتيب سند الربيع بن حبيب » .
وما رأيت له من كتبه المطبوعة سوى « الدليل والبرهان » . جمع فيه من
الفنون - الحكمة والفلسفة والإلهيات وعلم الكلام والمنطق والهندسة
ومناقشة المذاهب والتفسير .. إلخ فهو أشبه بصورة مصفرة لدائرة معارف
إسلامية ، وتوفي رحمه الله بمسقط رأسه وارجلان سنة ٥٧٠ هـ ، قال شيخنا
أبو اليقظان حفظه الله : وما بقي في حفظي عنه ، ما قصه عليّ عنه - وأنا في
تونس في غضون سنة ١٩١٤ م - أستاذنا حسن حسني عبد الوهاب أستاذنا
في التاريخ بالمدرسة الخلدونية أنه قال :

إن أبا يعقوب يوسف بن إبراهيم الوارجلاني يعتبر عند علماء أوروبا
أكبر عالم رياضي في شمال أفريقيا ثم قال : إن له كتاباً كبيراً في التاريخ يسمى
فتوح المغرب رأيت نسخة منه في تركة المستشرق الكبير الفرنسي مسيو
(مونتينسكيو) ولولا قلة النقود عندي لاقتنيته في جملة ما اقتنيت مما خلف
مثل رسالة ابن الصغير المالكي في أئمة بني رستم قال :

ويوجد ذلك الكتاب - فتوح المغرب - الآن في بعض خزائن ألمانيا ،
وقد بحث عنه شبابنا فيها فلم يحصل على أى نتيجة إيجابية ، وما تزال الجهود
في البحث عنه متواصلة .

أخذ العلم في وارجلان عن عدد من كبار العلماء أمثال أبي عمار
عبد السكافي وأبي زكرياء يحيى بن زكرياء وأبي سليمان أيوب بن إسماعيل
وقد رثاه بقصيدة مطلعها :

أيوب ! يا أيوب ! يا أيوب ! أودى به قدر الردى المجلوب

أما كتبنا فقد ذكرنا أكثرها فيما سبق ونلخصها من جديد فيما يلي :-

- ١ - تفسير القرآن الكريم في سبعين جزءاً .
- ٢ - الدليل والبرهان في ثلاثة أجزاء .
- ٣ - العدل والإنصاف في ثلاثة أجزاء .
- ٤ - مرج البحرين .
- ٥ - فتوح المغرب .
- ٦ - ترتيب مسند الإمام الربيع بن حبيب .
- ٧ - رسالة في رجال كتاب المسند .
- ٨ - ترجمة رجال الإباضية ذكرها أبو إسحاق طغيش في « الدعاية إلى
سبيل المؤمنين » .
- ٩ - كتاب في الفقه لم نعرف عنه شيئاً .
- ١٠ - أجوبة كثيرة لوجعت لسكونت مجلداً ضخماً .

وقد قام بعدد من الرحلات للدراسات العلمية ودراسة النفس البشرية
وإلى دراسة المجتمعات الإنسانية وتلخص رحلاته فيما يلي :-

- ١ - رحلته في شبابه إلى الأندلس لاستكمال معلوماته .
 - ٢ - رحلته إلى عواصم الشرق لاستكمال الدراستين العلمية والاجتماعية .
 - ٣ - رحلته إلى أداء الفريضة .
 - ٤ - رحلته إلى الجنوب وتوغله في إفريقيا واقترابه من خط الاستواء
واكتشافه لتساوى الليل والنهار . ودراسته للمجتمعات البشرية المختلفة .
- وقد كانت له نظريات خاصة وآراء أشار إليها أستاذنا الشيخ أبو اليقظان
فمن أرادها فعليه برسالة (تراجم الأئمة) وقد تقاح الفرصة لدار الدعوة فتشتر
منها ترجمة أبي يعقوب مفصلة كما وردت عن الشيخ .
- والواقع أن أبا يعقوب يحتاج إلى دراسة كاملة متخصصة يقوم بها
بعض الشباب وفي إمكان أحدهم أن يقدم أطروحة للماجستير أو رسالة
للدكتوراة في هذا الموضوع القيم .

أبو مهدي بن إسماعيل (١)

يسرى أن أنقل إلى القارىء الكريم ترجمة أبي مهدي بنصها الحرفى
من (تراجم الأئمة) لشيخنا أبي اليقظان رحمه الله .

قال : هو العلامة الورع الشيخ أبو مهدي عيسى بن إسماعيل الملىكى
الذى كان على المذهب المالكي وتمذهب بالمذهب الإباضى وهو من عرش
أولاد نائل ، أخذ العلم عن الشيخ عمى سعيد بن على الجربى ، وأخذ عنه
الرحالة الشيخ محمد بن زكرياء البارونى الذى حرر مسند الدين لرجال
الإباضية منه إلى اليوم المحفوظ نص عليه سير المشأخ للبدر الشأخى فى صفحة
٥٧١ هـ ، وذكر فيه أنه كان فى مصعب ، وادى ميزاب فى عام ٩٦١ هـ ، وأنه
أخذ العلم هناك عن الشيخ أبى مهدي عيسى بن إسماعيل الملىكى .

وللشيخ أبى مهدي عيسى شعر رائق رأيت له أرجوزة رائعة فى الوعظ
والزهد هذا مطلعها :

المد لله الذى هداى لدينه فضلا من الرحمن

وقد ربعها الشيخ عمر بن عيسى التندميرتى النفوسى ويأتى ذكره فى
محل إن شاء الله ، كما رأيت له رسالة يدافع فيها عن زميله الشيخ سليمان
عبد الله المرزوقى الذى اعتنق مثله المذهب الإباضى يرد فيها بالنقد البرىء
عن بعض المشأغبين إذ كتب له رسالة عنيفة يقول له فيها : إذا أجبتنى فسأحرق

(١) من علماء القرن العاشر ، ذكره البارونى فى الطبقة التاسعة عشر .

رسالتك . وكان من حذق الشيخ المرزوق أن أجابه في رسالته نفسها بين أسطرها ، وقال : لئن أحرق الرسالة فإنه يحرق رسالته مع الجواب أيضاً ، ولكن لم تصله الرسالة في المغرب إلا وقد توفي .

وكانت رسائل الشيخين في عام ١٩٢٩ هـ . وتوفي الشيخ أبو مهدي رحمه الله في (١١ ذى القعدة من عام ١٩٧١ هـ) .

وإليه تنسب المنبرة المعروفة باسمه في مليكة (مقبرة الشيخ سيدي عيسى) نسبة لأعظم دفينها وقد علقت عليها أرقاف كثيرة في البلد وكانت روضته هذه مقر العزابة عند انعقاد مجلسهم الرسمي للقصور السبع حديثاً .

ويقال إنه كان له ولشيخه همى سعيد بن علي ربوة مشرفة على الوادي من غرب مليكة يجلسان عليها ويتذاكران في مسائل العلم والمعرفة . وصادف أن واحداً مهما طبخ له رأساً فقال في نفسه أهدي من هذا لأخي فكفى الرأس وها أحسن ما في الرأس ولما قدّم الهدية إلى صاحبه قدّم إليه أخوه نفس الهدية لنفس النية لطيب سربرتهما . وصفاء إخوتهما في الله تعالى ولها نظير في جبل العباد بوارجلان . وهكذا فلتكن الأخوة في الله والصفاء بين الأصدقاء .

وشهر مكان الربوة في مشاهد الزيارة^(١) بوادي ميزاب بمشهد (أجاين) أي أ حدود الرأس بلغتنا .

قلت : استفاد مما نقلناه من الوثائق التاريخية أن حياة عمي سعيد في وادي ميزاب كانت في الخمسين الثانية من القرن العاشر كحياة معاصره تلميذه الشيخ أبي مهدي عيسى كما علمت .

(١) حفلة يوم الزيارة في قرى وادي ميزاب تقع في أول الاثني من مارس من كل سنة ، يزور فيها الطلبة مشاهير الصالحين من السلف حول القرى لإحياء لذكراهم في قلوب الخلف من أبنائهم وتجديداً للهدى والوفاء لهم في آثارهم . أبو البقطان .

لكن ما جرى عليه الأب داوود القسيس الفرنسى يغاير هذا فقد وقفنا على فهرسته لمشاىخ غارداية وهذا نص محل الحاجة منها قال :

« وفد من جربة الشيخ همى سعيد بن على بن حميدة بن عبد الرزاق ابن سعيد الخيرى فى عام ٨٥٤ هـ - ١٤٥٠ م وأسس المجلس الذى يحمل اسمه فى ٣ شوال ٨٥٥ هـ - ١٧ فيرى ١٤٥٣ م وتوفى الشيخ همى سعيد بن على فى محرم ٨٩٨ هـ - ٣ جانفى ١٤٩٢ م ، فى نظر الأب داوود كانت حياة عمى سعيد فى القرن التاسع ، وفى نظرنا كانت فى القرن العاشر واسنا ندرى كيف يكون الجمع بين الروايتين إذا صحتما. ولو لم ينص الأب داوود عن وفاة الشيخ لأمكن لنا القول بأنه عمّر فى القرنين التاسع والعاشر ، ولعلنا نقف على ما يجالو الحقيقة بعد .

أبو أحمد اليزقني^(١)

نص حرفي من رسالة (تراجم الأئمة) لشيخنا أبي اليقظان رحمه الله :

هو الشيخ أبو محمد بن عبد العزيز . كان علامة زمانه ، ومرجع الفتوى في وادي ميزاب ذا علم واسع ، وحلم وورع وتقوى ، أمضى عمره في نشر العلم وخدمة الدين والنصح والإرشاد وجدّ وكدّ ، في وقت أشرف الإسلام على الانقراض في البلاد ، فجدد شبابَه رحمه الله وخلف خمسة أبناء نجباء كان بهم حياة الدين ، وكفاه فخراً أن كان من نسله صاحب النبل الشيخ عبد العزيز التميني ، ومن نسله قطب الأئمة الشيخ طفيش وغيرها رحمهم الله ، ونسبه مرفوع إلى نسب عمر بن الخطاب من بني عدى وهو معاصر للشيخ أبي مهدي عيسى ابن إسماعيل ، وكان من جملة تلامذته ويقال إنه إذا ذهب إلى شيخه بمليكة يذهب راكباً على حصان له فقال فيه بعض حساده في ذلك . فحكى إلى الشيخ قولتهم . فقال له :

إذا لم يسرهم ذلك فاركب إلى علي واحد وقد معك آخر .

وهو جد العرش الكبير آل باحمد الشهير في يزقن وإليه تنسب مقبرة الشيخ باحمد التي في سفح جبل الشيخ بوعميد المشرف على الجبل .

وقد علق عليها آل باحمد أوقافاً كثيرة غزيرة تنفذ في بعض أيام جمعات الشتاء ، عند تلاوة القرآن فيها ، وتوزع مع الصدقات على الفقراء والمساكين - بها .

(١) من علماء القرن العاشر ، معاصر لأبي مهدي .

أحمد بن أفلح (١)

يسرني أن أنقل هذه الترجمة بنصها الحرفي من (رسالة تراجم الأئمة) لشيخنا أبي اليقظان إبراهيم رحمه الله قال :

أولاً : أما الشيخ الحاج أحمد بن أفلح الوردجلاي فقد قال عنه الشيخ أعزام الحاج إبراهيم بن صالح في كتابه غصن البان في تاريخ وارجلان ما يأتي : وهذا نصه قال : (نكتة طريفة وكالة الجامع الكبير - لاله عزة - كانت مختصة بأولاد أفلح وبلغت هذه الوظيفة بأيدي اثني عشر نفرأ آخرهم الشيخ بأحمد بن محمد بن أفلح دفين مقبرة أولاد أفلح التي على طريق إدارة الحكومة والمذكور بلغت وكالته إلى سنة ١١٤٩ هـ .

هو شيخ الإباضية ، ورئيسهم وقمئذ الشيخ أبو زيان بن عبد العزيز دفين مقبرة أولاد عبد العزيز ، ومكث فيها ما شاء الله ، وفي العام الأخير اجتمعت العزابة وانفقوا على أن يبحثوا عن مال المسجد وما آل إليه أمره ، فامتنع الوكيل عن ذلك وقال لهم : انركوا الأمر في ستر الله فأرغموه لذلك وفي مقدمتهم أبو زيان فأخذ يخاطبهم وأتى بمصايح الدار وتأبط زمام - سجل الحسابات - الجامع فلما دخلوا الدار وهم عشرون عزابياً وجدوا مئونة قوية وأشياء لم تسكن بالحسبان ومن جملتها ١٣ إبريقاً خزفاً مملوءة دنانير فلما رأوا ذلك استعظموه ودعوا له بالخير .

وفي أثناء ذلك وضع الزمام في مكان يرونه وخرج هارباً على حين غفلة

(١) من علماء القرن الثاني عشر من الطبقة الثالثة والعشرين .

منهم . فلما أرادوا الخروج نادوه فلم يجدوه فأخذ الشيخ أبو زيان المفاتيح وأغلق الأبواب وأمسكها عنده وفي الحين وقع الخلاف على إمساك المفاتيح بين إباضية بنى سيسن وإباضية بنى وكين . فاستدعاه أبو زيان وكلمه فى شأن إمساك المفاتيح إطفاء للفتنة ورغبة فى ذلك فأجابته :

بأن صدرت منه أيمان مغلظة ألا يمسكها ولكن اجعلوا واحداً من بنى وكين وواحداً من بنى سيسن ليذول الخلاف والشقاق فقاموا على رأيه وأنحس الشقاق وجرى الأمر على ذلك إلى يومنا هذا . فهى - أى الوكالة - بين بنى وكين وبنى سيسن وما عند الله خير وأبقى .

بإسرة بن موسى (١)

يسرني أن أنقل هذه الترجمة بنصها الحرفي من رسالة (تراجم الأئمة) لشيخنا أبي اليقظان إبراهيم رحمه الله :

هو الشيخ بإسة بن موسى رحمه الله من العلماء العاملين والصلحاء المرشدين ، أخذ العلم عن شيخه الحاج محمد بن أبي القاسم المصعبي وله مهارة كبيرة في الكتابة لا يضجر ولا يمل منها ، وقد رأيت كتباً كثيرة وأجوبة جملة بخط يده .

تولى رئاسة الحلقة بوارجلان فسار فيهم سيرة مستقيمة تركت له في تاريخه الذكر الجميل وتوفي رحمه الله سنة ١١٧٦ وترك خزانة كبيرة مملوءة بالمجلدات القيمة بخط يده . وبترك حفيده طريقته العلمية تلاشت ولم يبق منها إلا شيء قليل . قال الناقل من أعزام أبو اليقظان إبراهيم قد عثرنا على رسالة له وجهها إلى إخوانه من بني مصعب وهم بجزيرة يزاولون دروسهم قال ما نصه:-

« إخواننا .. الله الله في زيادة العلم ليلاً ونهاراً مساءً وصباحاً . لأن العلم كاد أن ينقرض من بلدانكم ، ولأن الجهل مطية من ركبها ذل ، ومن صاحبها ضل .

إخواننا .. الله الله تعلموا العلم فإنه يصلح حالكم ويرغم شائتكم ، - وتعلموا العلم فإنه عز لا يتلى جديده ، وكنز لا يفنى مزيده ، وتعلموا العلم لأنه أفضل

خلق ، والعمل به أكرم شرف ، فعمى أن تحيوا لنا ما اندرس من العلوم
وأن تقوموا ما انطمس من الرسوم .

إخواننا .. عليكم بتقوى الله والورع عن محارم الله، يقول الله : ﴿ واتقوا
الله ويعلمكم الله ﴾^(١) ، لأن قليلا من العلم مع العمل يكفى وكثيراً من العلم
بلا ورع يعنى .

إخواننا.. اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا وكونوا عباداً لله إخواناً
ولا تشتتوا .

إخواننا .. عليكم فى السعى فى المهمات والرغبة فى جمع الخيرات تنجوا من
شدة العذاب يوم الفصل فى الحساب . فإذا سعيتم جهدكم فيما ذكرنا جزاكم
الله ربكم بالجنات مع الخيرات الحسان ، ومصداق ذلك قوله تعالى :

﴿ وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار
كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل واتوا به متشابهها
ولهم فيها أزواج مطهرة ، وهم فيها خالدون ﴾^(٢) . وبلغوا مجموع المشائخ
سلامنا « إلخ .

ومن حسن الحظ أن وقعت على أوراق متناثرة هى مما بقى من خزانة
الشيخ باسة بن موسى بن داوود وقد سلمت لم تأكلها الأرضة من كتبه
ومخطوطاته النفيسة .

وفى الأوراق رسالة للشيخ باسة وجهها إلى إخوانه فى الله هو وعلماء
وتلاميذ معه وهم من أهل وادى ميزاب وهو يقرأ هناك وجهها إلى إخوانه .
بجربة من علماء وتلاميذ وهم يقرأون بجربة ورد فيها ذكر عدة علماء وتلاميذ
فى ذلك العهد وقد عنون رسالته بعد البسملة بقوله :

« هذه الرسالة أرسلها الناسخ باسة بن موسى بن الحاج داوود إلى إخوانه من بني مصعب كانوا يكرعون في جزيرة جربة - وهو إذ ذاك كان يقرأ في ميزاب - رحم الله الجميع بحاج النبي الشفيع » .

وقد صدر رسالة بالشيخ سعيد بن علي الجادوى - من لسانه ولسان العلماء الذين معه بميزاب منهم شيخه الشيخ محمد بن أبي القاسم ومنهم الشيخ إبراهيم بن أحمد ومنهم الشيخ أحمد بن أيوب ومنهم الشيخ الحاج نوح ابن أيوب ومنهم الشيخ صالح بن الحاج إبراهيم من مشائخه وقد رثاه بقصيدة ومنهم باعمور بن الحجاج .

قال في أول الرسالة هكذا بالنص :

« الحمد لله الذى خلق الموت والحياة . . . إلخ » وقد أطال في مقدمتها وكان كل واحد من المشائخ المومنين إليهم مقروناً بأوصاف عظيمة عالية تدل على منزلته السامية في العلم والورع والدين والخلق الكريم والكاتب يعيش في أواخر القرن الثانى عشر توفى رحمه الله فى عام ١١٧٩ الأمر الذى يدل على ازدهار العلم وترايط العلماء بعضهم ببعض رغم ترادف الفتن وتتابع المحن، وقد تركنا تلك الأوصاف وتلك المقدمة خوف الملل والإطالة على القارىء .

وقد سجل فى الرسالة أجوبة بعض أولئك العلماء عن مسائل فقهية وأحكام شرعية أرسلها الشيخ نوح بن أيوب يسأل فيها العلامة الشيخ محمد ابن أبي القاسم تدل أجوبته على تطلعه فى الفقه وعلوم الشريعة رحمهم الله ورضى عنهم .

الباب الثالث

صور مختلفات عن : مشهد واحد

عزیزی القاریء :

فی هذا الباب رأیت أن ألتقط صوراً مختلفة ومن زوايا متعددة أضمتها ضمن إطار واحد ، بنقل فیها النظر من صورة إلى صورة ، وتلك الصور فی مجموعها تكون مشهداً واحداً إذا نسقت مع بعضها البعض وتعطى كل منها منظرأ مستقلاً إذا فصل بعضها عن بعض .

وهی عند جمعها تنسجم انسجاماً كاملاً ، وتتنسق اتساقاً تاماً مع الصورة الكاملة التي وضع الكتاب من أجلها وهي ولا شك تملأ منه فراغات ، وتسد فيه فجوات ربما كانت فیہ بین بعض الفصول أو أثناء الفصول .

وهما كان الأمر فإن الصورة الكاملة الواضحة فی ذهنی التي أردت أن أعرضها على القاریء الكریم بوضعی لهذا الكتاب لاتتم إلا بهذا الوضع .

الإباضية في الجزائر

قد كنت وجهت إلى شيخنا الفاضل أبي النهضة الجزائرية وشيخ صحاقها
السؤال الآتي :

ما هي المواطن التي كانت عامرة بالإباضية في عهد الدولة الرستمية
وما بعده؟

وقد أجابني رحمه الله إجابة مسهبة ، وذكر مواطن الإباضية في كل
من ليبيا وتونس والجزائر. وخلاصة ما ذكره عن الإباضية في الجزائر ما يلي:
« أما في عهد الدولة الرستمية فإن الخريطة التي وضعها الأستاذ محمد علي
دبوز كافية في بيان الغرض ، وأما فيما بعد فبقيا يلي :

- ١ - وادي سوف .
- ٢ - وادي أربغ .
- ٣ - وادي ميزاب .
- ٤ - باغاي .
- ٥ - جبل أوراس .
- ٦ - الزاب .
- ٧ - وارجلان .

وقد وجهت نفس السؤال إلى شيخنا الفاضل الشاعر الأديب باكلي
عبد الرحمن بن همر فأجابني إجابة مسهبة فيها كثير من التفصيل وخلاصة
ما ذكره :

« الواطن التي كانت آهلة بالإباضية في القطر الجزائري هي :

- ١ - الزاب .
- ٢ - وادي أرينغ .
- ٣ - وادي سوف .
- ٤ - تاجريرت .
- ٥ - وارجلان .
- ٦ - آجلو .
- ٧ - الرمال وهو موطن لا يتبعد كثيراً عن سوف .
- ٨ - جبال بني مصعب .
- ٩ - مثليلي .
- ١٠ - الأغواط .
- ١١ - المنيعه أو « القليعة » .

هذا خلاصة مقاله الشيخان المؤرخان الكبيران. ولا شك أن الكاتب الذي يريد أن يترسم خطا الإباضية في الجزائر ، ويتتبع آثارهم من حيث العلم والخلق والدين - يجد آثاراً منها في كل ناحية من نواحي الجزائر فقد كانوا منتشرين في جميع المغرب الإسلامي وفي الأندلس أيضاً .

غير أنهم اضمحلوا في بعض الجهات بسرعة ، واستقروا في جهات أخرى لعوامل سياسية غالباً . كما أنهم كانوا يكونون كل السكان أو أغلب السكان في بعض الجهات . ويكونون أقلية أو أفراداً في جهات أخرى ولا شك أن الأعداد الوفيرة منهم إنما كانت تستقر في المناطق الوسطى

الأقرب إلى الجنوب في ترنس والجزائر والمغرب . ورغم أن التكتل الكبير لهم إنما كان في تاهرت حيث أسسوا الدولة الرستمية وهي في الجانب الغربي الشمالى من الجزائر إلا أن هذا التكتل لم يطل به الأمد بعد انقراض الدولة الرستمية سنة ٢٩٦ فقد جد حكام الدولة العبيدية في القضاء على جميع من يتبع المذهب الإباضى وينتسب إليه لأنهم يرون أن الإباضية أشد فرق الأمة معارضة لبدعهم ، ونقداً لتصرفهم وغلوم وإظهاراً لانحرافاتهم . وتحت ضغط أولئك الحكام وقسوتهم تفرق الإباضية من تلك المنطقة ، وشردوا إلى جميع الجهات وقد كان اتجاههم إلى الجنوب الشرقى أكثر من اتجاههم إلى النواحي الأخرى .

وبهذا السبب تكتل الإباضية في الواحات مثل وارجلان وسدراته ووادى أربع ووادى سوف وغيرها من الواحات الواقعة في خطها مثل بغاى وجبال أوراس والزاب ووادى ميزاب ثم في بلاد قصطيلية في القطر التونسى وما ولاها إلى الشرق والشمال .

وعاش الإباضية في جميع هذه الأمكنة دون أن يكونوا لأنفسهم كياناتاً سياسياً أى (دولة) أو يدعوا إلى تكوينه . وإنما كانوا يعيشون تحت نظام العزابة الذى تحدثنا عنه في فصول سابقة . ويحمل هذا النظام جميع مزايا الحكم الشورى الإسلامى ماعدا منصب الخليفة أو الإمام . والأحكام الخاصة به والتي لا يحق لغيره أن يقوم بها . على أن الأحكام الخاصة بالخليفة نفسها كثيراً ما يقوم بها مجلس العزابة . ويكلف شيخ الحلقة بتنفيذها أو ينفذها أعضاء المجلس أنفسهم . كما إجراء بعض العقوبات التي لا تبلغ الحدود كالأدب والنكال والتعزير وكإصدار الأوامر وقيادة الجموع في حالات الدفاع وتكثف

الاتفاقيات، وذلك عندما لا يكونون تحت سلطان دولة مسلمة . ويكون قيام مجلس العزابة يمثل هذه المهام أيسر عليهم حين تكون بلادهم غير خاضعة لدولة قائمة أو تابعة لها سياسياً . ففى فى تلك الأحوال تشبه أن تكون جمهورية مستقلة رئاستها العليا بيد مجلس العزابة - وقد بلغ من المجلس فى بعض الأحيان إلى أن صدر له عملة نقدية خاصة^(١) .

ولكنه فى جميع الأوقات لا يعلن عن نفسه كدولة ، ولا يدعيها ، ولا يقبل هذا الوصف ممن يسبغه عليه ، ولا يباشر الأحكام التى يباشرها باسم الحكام وإنما باسم مجلس العزابة .

أما القوة التى استطاع بها هذا المجلس أن يقود المجتمع بنجاح وأن يفرض بها طاعته على الناس ، وأن يكسب احترامهم لأحكامه فهى :

١ - استقامة أعضاء المجلس ونزاهتهم وحسن سيرتهم وسلوكهم ومحافظةهم على الدين محافظة كاملة فى جميع الأحوال .

٢ - قوة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر الذى كان من ثمرتهما الولاية والبراءة الشخصيتان - حسب قواعد المذهب الإباضى - وبمك البراءة هذا استطاعوا أن يغلوا أيدى الناس عن ارتكاب المحظور ، وتجاوزوا المحظور الشرعى إلى المحظور الاجتماعى أو المحظور العرفى . وبذلك استطاعوا أن يحافظوا فوق محافظتهم على الدين وأحكامه وآدابه على مجموعة من العادات الحسنة وأنواع السلوك الذى يتماشى مع روح الإسلام وإن لم تضبطه نصوص . وأن يحافظوا على الروابط المتينة بين الناس . وعلى ماتعارفوا عليه

(١) أخبرنى بذلك أستاذنا الفاضل الشيخ باكلى عبد الرحمن وكفى به حجة .

من الآداب والسير في جميع مرافق الحياة . وأن يحولوا دون تسرب العادات السيئة في المجتمعات الأخرى إليهم .

٣ - الإسراع في علاج المشاكل عند ثورانها وعدم تركها حتى تستفحل ، ثم المساواة بين جميع الناس مهما اختلفت أقدارهم في إجراء الأحكام . فلا أحد يطمع في أن يرتكب ما تجب به البراءة ثم ينجو من الموقف الصارم إزاءه . كما أنه لا أحد يطمع أن يرتكب ما تجب به الخطة أو الهجران ثم ينجو من الموقف الصارم إزاءه . والبراءة لا تكون إلا على ارتكاب المعصية التي تسقط بها الولاية .

أما الخطة والهجران فقد توقعان على من يخالف العرف العام للبلد أو الاتفاقات المعمول بها تحت رعاية العزابة . أو مخالفة السلوك المتبع في قضية من القضايا وبهذه الاعتبارات فإن الهجران نال كثيراً حتى من كبار العلماء .

أما البراءة فلا تقع إلا على من سقطت ولايته بارتكاب كبيرة .

ولا شك أن هذا النظام - ما بين سنة ٢٨٦ تاريخ الهزيمة التي استوحى منها العالمان الكبيران : البغطوري والونزيرفي أصول هذا النظام ممتثلة في الإعراض عن الجوانب السياسية الظاهرة والاهتمام بالجوانب الداخلية التعليمية والسلوكية . وبين سنة ١٣٨٦ وهو تاريخ كتابة هذا الفصل - قد تطور تطورات كثيرة . فقد كان في مبدأ الأمر فكرة ثم سيرة ، ثم عرفاً . ولا شك أن الإمام الجليل أبا مسور يسجا قد عرف هذا الاتجاه من علماء الجبل عندما كان يدرس في مدينة شروس على أستاذه العظيم

أبي معروف فلما رجع إلى جربة وقد كان الإباضية بها أقلية ضئيلة وأكثر السكان إما خلفية وإما نكارا (١) .

جد في التعليم والدعوة حتى اقتنع أكثر الناس بما يدعو إليه وانصرفوا عن التفكير في موضوع السياسة إلى التفكير الجدى في تنظيم يكفل لهم سعادة الآخرة وكان ولده أبو زكرياء فصيل - وقد أصبح قدوة وإماماً لجميع الإباضية في الجنوب التونسي - قد شغل فكره بصياغة مواد ذلك التنظيم في وثيقة مكتوبة يمكن أن توزع على جميع مناطق الإباضية في المغرب ولكنه مع ذلك لم يخرج هذا العمل من حيز الفكرة إلى حيز التطبيق فلما جاء أبو عبد الله محمد بن بكر الفرسطائي لاستكمال دراسته - وكان قد عرف هذا الاتجاه عند علماء الجبل وهو يتلقى العلم عن مشايخ بلده فرسطاء ومنهم والده الذي قال عنه أبو العباس الشماخي في السير صفحة ٣٨٤ ما يلي :

« ومنهم الشيخ الإمام المقتن بكر بن أبي بكر النفوسى الفرسطائي أخذ العلم من ابن ماطوس سليمان وقد تقدم التنبيه على بعض أخباره مع أستاذه

(١) قال أبو العباس الدرجيني في كتابه (الطبقات) : وقد كانت الجزيرة حينئذ - أي حين كان أبو مسور يدرس في الجبل - ليس فيها أحد دلى مذهب خلف بن السهج ، غير نفر قليل قد تقدم ذكرهم ، فدعاهم أبو مسور إلى مذهب الوهبية ، فأجابهم منهم من أراد الله به خيراً . وكان بها حينئذ رجل من زواغة نكارى يقال له خاف بن أحمد ، وكان ذا مال كثير ، وكان متكرماً ، فكان يصنع الطعام ويدعو إليه الناس ويدعوهم إلى مذهبه فكل من من أجاب أبا مسور كان وهبياً ومن أجاب خلفاً كان نكارياً ، حتى لم يبق في الجزيرة أحد دلى مذهب ابن السهج بل صارت كلها تبعاً لأبي مسور ، أو لحلف بن أحمد . فأقام في الجزيرة تجتمع إليه الجماعات لطلب العلم وأخذ السير واتهاج الطريق ، انتهى كلام الدرجيني قلت : وطلب العلم وأخذ السير واتهاج الطريق هي الخطوط العريضة لأصول نظام العزابة .

ابن ماطوس ويأتى تمام التعريف به فى التعريف بابنه إذ هو أشهر وإن كان هذا أقدم .

وقال فى صفحة ٣٩٢ فى ترجمة ابنه محمد ما بلى :

« ودارهم معدن العلم قديماً من أبيه وجده ، وجد جده على ما أظن وقد تقدم أبوه ولكمهم دونه فى الشهرة » .

عندما جاء أبو عبد الله إلى جربة تدارس الموضوع مع أستاذه أبى زكرياء نصيل وحددا - فيما نظن - بنوده ولكن مع ذلك لم يتم تنسيقه فى جربة فلما انتقل أبو عبد الله إلى مناطق أربع أرسل أبو زكرياء إليه ولديه للتعليم ثم للتخريض على إنجاز المهمة وعكف أبو عبد الله فترة من الزمن على تحريره حتى أخرجه فى الصورة المعروفة المنقولة عنه تحت اسم (نظام الحلقة) قال الدرجيني فى الطبقات ما بلى :

« وسبب ذلك وبدأوه أن الشيخ أبى زكرياء ، وجه ولديه زكرياء ويونس وابن أخيه أبى بكر بن يحيى وغيرهم من أقاربه فى جماعة وقال لهم : اطلبوا أبى عبد الله فحيثما وجدتموه فلازموه واقرأوا عليه وحيثما كان فكونوا معه ولو فى شغل دنياه » .

وقال بعد سطور :

« فلما وصلوا تنبوس وافق وصولهم إليها قدومه من القيروان وقد حصل ما كان يفتقر إليه من علم اللسان » .

وقال بعد أسطر :

« فلما ألقى الله شملهم بأبى عبد الله ، أعلموه بما جاءوا فى طلبه وألقوا

إليه ما فارقوا عليه جزيرة جربة ، وما وصاهم عليه الشيخ أبو زكرياء ،
وأكد عليهم في أن يكون ، ورغبوا إليه في أن يجلس لهم ويرتب لهم
الحلقة .

وقال بعد سطور :

« ثم انتقل أبو عبد الله وتلامذته إلى « تينيسلي » فرتب بها الحلقة
وشيد من كريم البنيان ما يتشبه به العزابة ويتشبهون به الآن ، وإن كان
الناس قد فسدوا ، وفسد الزمان .

فهذا سبب قعود الحلقة المباركة ، الصادرة عن أكرم مشاركة بين
الشجرتين الطيبتين : المسورية والبكرية بخطبة وإجابة كانتا في الله فتولدت
بينهما هذه الأنوار البهية ، فلنذكر لهما من الآداب التي جعلها قوانين .
وصيرها جميعاً مسالك سبيل العلم والدين . وكان انتقال الشيخ أبي عبد الله
إلى أريغ سنة ٤٠٩ (تسع وأربعمائة) ولذلك يسمى الفار الأول المذكور
(التسعري)^(١) نسبة إلى هذه السنة .

ولم يبق النظام على ما سطره الإمام أبو عبد الله بن بكر ولا على ما حرره
تلميذه أبو الربيع سليمان بن يخلف وإنما تطور مع الزمن فكانت تضاف
إليه من حين إلى آخر تنظيمات جديدة وصلاحيات جديدة ، وتخصصات
محددة لكل قسم من أقسام الحلقة كتخصصات مجلس العزابة وتخصصات
التلاميذ (ايروان) وتخصصات المساعدين (امصوردان) على النمط الحالي
الذي يجري به العمل في وادي ميزاب ووارجلان ، وقد حرص الإباضية في

(١) كلمة التسعري مأخوذة من (تسعة وأربعمائة) على غرار قولهم : عبدري في النسبة

إلى عبد الدار وعيشمي في النسبة إلى عبد شمس .

الغرب الإسلامي على تطبيق نظام العزابة بشيء من الدقة والمنافسة منذ وضعه الإمام أبو عبد الله بن بكر بل لقد حرص الإمام نفسه على تنفيذ النظام وذلك هو السبب في كثرة رحلاته وتنقلاته حتى يرى بعينه مدى تطبيق النظام والنتائج المترتبة عليه ، على أنهم في تطبيقه ساروا على أساليب مختلفة اختلافات بسيطة بين جهة وأخرى وفي الإمكان إيضاح ذلك فيما يلي :

١ - في كل من جبل نفوسة وزوارة كان يتكون مجلس العزابة - كامل الأعضاء - في كل قرية أو مدينة ولكل مجلس شيخ . ومن مشايخ جميع المجالس يتكون المجلس الأعلى للعزابة . ومقر اجتماع المجلس الأعلى للعزابة - في الجبل - هو مدينة جادو وقد اختيرت لتوسطها بين مناطق الإباضية في الجبل ، ولأجل اختيارها مقراً للحكم بنى فيها مسجد (امصراتن) باشتراك أهل الجبل جميعاً في بنائه حتى تتم فيه الاجتماعات وتنعقد فيه مجالس الشورى عقب الصلوات ، وقد اشترط على جميع من اشترك في بنائه أن يعتمد على نفسه في نفقاته وأن لا يقبل ضيافة أحد مدة اشتغاله بالعمل حتى يكون همه كله لله لا تدخله أية شبهة .

وهذا المجلس الأعلى هو الذي يتولى جميع الشؤون الداخلية والخارجية ، وشيخ هذا المجلس يطلق عليه شيخ الجبل ، أو حاكم الجبل ، ووصف في فترات قصيرة بالأمير . وبأى وصف من الأوصاف السابقة فهو الذي يتولى تنفيذ جميع قرارات المجلس وإعلان أحكامه ، وعليه أن يتخذ قرارات سريعة في الأحداث المستعجلة التي لا يمكن أن تنتظر إن أمكن بإشارة من حضر من عزابة قريبته أو غيرهم ، أو حتى بدون الرجوع إليهم إذا كان في الأمر ما يستدعى الإسراع ويتحتم عليه أن يقيم في جادو مدة ما هو حاكم للجبل ،

ولا يُسمح له إلا بزيارات محدودة لا تؤثر على سير العمل إلى موطنه الأصلي ،
وفي فترات متقطعة .

٢ - في جربة : كان مجلس العزابة فيها أيضاً يتولى جميع الشؤون
الدينية والاجتماعية للجزيرة ، وكان للجزيرة مجلس واحد ، ولكن طبيعة
الجزيرة في كونها تشبه أن تكون مدينة كبيرة جداً ذات ضواحي متعددة
كانت تقتضى أن يكون أعضاء المجلس غير محدودين بالعدد المعروف لمجلس
العزابة ، فقد كان توزيع المساجد يقتضى أن يتعدد الأئمة والمؤذنون
والمدرسون . وهذه الوظائف حيوية في مجلس العزابة ولذلك فقد كان عدد
أعضاء مجلس العزابة يتغير تبعاً للمصلحة واحتياج الناس ويصل في بعض
الأحيان إلى ضعف عدده الأصلي أو أكثر من ذلك ، ولكنه في جميع تلك
الأحوال لا يكون له إلا شيخ واحد هو شيخ العزابة . كما أن مكان الاجتماع
غير محدد فكان ينعقد غالباً في المسجد الذي يصل فيه الشيخ عادة بعد صلاة
العصر ، وقد ينعقد في بيته أو في بعض المساجد الأخرى حسب الظروف
والأحوال .

وفي جربة كان يوجد إلى جانب شيخ العزابة شيخ آخر يسمى شيخ
الحكم وهو يستند في جميع أموره على مجلس العزابة . وقد يستبد أحياناً
فضاب الجزيرة بأفدح النكبات (١) .

وعلى هذا ففي الجزيرة شيوخان ، أحدهما هو شيخ العزابة ويتولى جميع الشؤون
الدينية والاجتماعية باسم مجلس العزابة ، والثاني هو شيخ الحكم ويتولى
الشؤون الإدارية والسياسية والعلاقات الخارجية للجزيرة باستشارة مجلس

(١) راجع الإباضية في تونس : فصل الجامع العلمية ص ٤٢١ .

العزابة أو شيخه غالباً . وفي هذه الحال يحرص المؤرخون عندما يتحدثون عن الشيخ الأخير أن يصفوه بالحكم فيقولون : « شيخ الحكم » حتى لا يشبهه على القارىء فيظنه شيخ العزابة ، وقد تجتمع المشيختان في النادر عند شخص واحد وحينئذ تكون جربة على أنها الأحوال .

٣- في وادى ميزاب طبق نفس النظام الذى طبق فى جبل نفوسة مع تقليل بسيط فى صلاحية شيخ الوادى أو شيخ العزابة ، وإن كانت اختصاصات المجلس الأعلى للعزابة فى الجبل وكل ما هنالك من فرق أن شيخ العزابة فى الجبل يطلق عليه فى كثير من الأحيان اسم حاكم الجبل ، وقد يتخذ إجراء أو يصدر آراء فى شأن من الشؤون المستعجلة دون أن ينعقد المجلس أو يدعوه إلى الانعقاد ، وذلك غالباً فى الأحداث الطارئة ولا سيما فى قضايا الدفاع ورد العدوان .

أما شيخ المجلس فى الوادى فهو يعلن الاتفاقات التى صدرت فى المجلس وليس له أن يصدر أمراً إلى جميع سكان الوادى دون الرجوع إلى انعقاد المجلس واتخاذ القرار فيه . وقد يعود هذا فيما يبدو إلى طبيعة البلاد فانعقاد المجلس فى الجبل تسكتنه صعوبات كثيرة كبعد المسافة ووعورة الطريق ويحتاج انعقاد المجلس إلى ما لا يقل عن أسبوع من التحضير والذهاب والإياب . ولذلك فإن الأمور التى لا تحتل التأخير يصدر فيها حاكم الجبل أمره ويتصرف حسبما تقتضيه المصلحة العامة مع استشارة أهل العلم والرأى ممن حوله ، أما طبيعة وادى ميزاب لا سيما قبل القرارة ويريان فهى تشبه أن تكون مدينة واحدة ذات ضواحي ، والاجتماع فيها سهل يتم بيسر وفى مدة قريبة ، وقد فضل أهل الوادى أن يكون اجتماع المجلس فى مسجد الشيخ أبى عبد الرحمن السكرتى ثم نقل إلى مجلس عمى سعيد الخيرى الجربى .

٤ - فى بقية بلاد الإباضية من المغرب الإسلامى كان مجلس العزابة يطبق على طريقة فردية أى أن كل قرية أو مدينة لها مجلسها الخاص بها والذى لا يرتبط فى كل مشاكه بمجموعة من المجالس المتقاربة أو المترابطة .

ويتضح من هذا أنه بينما كان ارتباط مجالس العزابة فى كل من جبل نفوسة وجربة ووادى ميزاب لمجلس أعلى له الكلمة النافذة على جميع المجالس وشيخ واحد يتولى تنفيذ قرارات المجلس مع اختلاف بسيط فى الاختصاصات فإن بقية قرى ومدن الإباضية فى المغرب الإسلامى لم تتوحد فيها مجالس العزابة على شكل كتل حتى فى القرى الكثرية المتقاربة كما هو الشأن فى القرى التى أشرنا إليها آنفاً وإنما كان لكل قرية أو مدينة مجلسها الخاص يتولى شئونها منفرداً دون الارتباط بمجلس القرى الأخرى أو الرجوع إلى آرائها ولا يتعدى شئونها التى يشرف عليها ويتولى قيادتها .

ومع ذلك فإن الأحكام التى يصدرها أى مجلس عزابة فى أية قرية من تلك القرى على شخص من الأشخاص بالبراءة أو الهجران كان يجد صدها فى جميع الأماكن الأخرى . وتتجاوب جميع المجالس فى ذلك لا يخل واحد منها بالحكم ولا يستطيع المحكوم عليه أن يلتجئ إلى بلد آخر ليزيح عنه حكم الهجران إلا بعد أن يعلن التوبة ويتصل من التبعة إن كانت عليه تبعة وقيل منه العزابة فى ذلك المكان أو غيره ، ويتلخص من هذا أن مسلك الإباضية بالنسبة إلى مجلس العزابة كان على نمطين الأول تكتل عدد من المجالس لعدد من القرى تحت مجلس أعلى . والثانى انفراد كل قرية بمجلس مستقل . وقد أدى نظام العزابة فى البلاد التى انبع فيها النمط أو الاتجاه الأول (الارتباط بين المجالس) إلى حفظ مجتمع له خصائص الدولة الصغيرة ماعدا الاسم . وساعد على تكوين مجتمع متماسك ذى خصائص واضحة حافظ

عليها وحافظت عليه رغم جميع المؤثرات الخارجية ، كما أنه منح القوى المشتركة في المجلس العام والتابعة لنفوذ شيخ واحد توحيداً في القيادة ، وقوة جماعية لمكافحة عوامل التفكك والتحلل والذوبان ، وجعلت ذلك المجتمع أقوى على الصمود والدفاع كما أنها قلت من مطامع الغير فيه ومحاولة استغلاله بالعنف والقوة .

أما القرى والمدن التي اتخذت الاتجاه الثاني (انفراد كل قرية بمجلسها) فإن العوامل الخارجية سرعان ما أثرت عليها ، ولم تصمد لها طويلاً رغم المواقف العنيفة والحركة النشيطة الدائبة في حفظ مجتمع ذي خواص متميزة داخل قرية أو مدينة واحدة منفردة .

وبناء على ذلك فقد استطاعت العوامل التي كانت تستغل الخلاف المذهبي أن تغير المذهب في تلك القرى والمدن - ما عدا وارجلان وزوارة - وأن تغلب عليها تارة باسم الدولة ، وتارة باسم الدين لأنها تناوأتها عن عن طريق الانفراد لا عن طريق الجماعة . ولعل أغلب الأحداث التي أدت إلى تغير المذهب الإباضى بغيره من أغلب البلدان إنما كان مبنياً على أحداث فردية أكثرها كان مفتعلاً يقصد منه تغيير المذهب . يملية أحد أمرين : تعصب مذهبي ، أو مكر سياسي . ولعل العصر الحاضر - رغم التسامح وكفالة الحريات - يحمل صوراً من ذلك استجابة لرغبة متفقته متعصب ، أو متزعم متسلق ، أو حاسد يرى خيراً عند غيره ولا تطوله يده .

تجمعات إباضية في الجزائر

كان أغلب السكان في الجزائر على المذهب الإباضى^(١) لاسيما في الوسط والجنوب طيلة القرنين الثامن والثالث وكان أكبر تجمع لهم وأقواه في تاهرت وما حوّلها . وعلى هذه الكثرة تأسست الدولة الرستمية . وبقي هذا التجمع على كثرته إلى أواخر القرن الثالث حين تغلبت الدولة العبيدية على الدولة الرستمية - ولم يكن حينئذ نظام العزابة معروفاً - فلما انفردت الدولة الرستمية وزال سلطانها وتفرق رجالها وأتباعها بقيت بعض البلدان الآهلة بالإباضية على حالها وهذا غالباً في المدن والقرى المتطرفة البعيدة عن مراكز العبيديين والصنهاجيين من بعدهم . أما المدن التي كانت قريبة من مراكزهم ومحركاتهم فقد خرب الكثير منها ، وانتقم من أهلها . أما الأقليات والأفراد الذين يسكنون في مدن أخرى فقد حاولت السلطة أن تجبرهم على أحد أمرين : فمنهم من اعتنق المذهب الشيعى على كره ، ومنهم من قتل أو هاجر إلى حيث يأمن بطش العبيديين .

والواقع أن المناطق الشمالية والغربية قد قل منها الإباضية بعد الدولة الرستمية وأصبحوا فيها أفراداً لا جماعات وكانوا يتناقصون يوماً عن يوم ، ولم يبق في المدن الكبيرة التي كانت عامرة بهم إلا عائلات معدودة أو أفراد قلائل . وبقدر ما كان الإباضية يقلون في المناطق الشمالية والغربية كانوا يكثرون في المناطق الجنوبية والشرقية للجزائر . وعندما ينعدق

(١) أصبحت هذه الدولة البربرية الإسلامية باسطة سلطانها العادل على كل ربوع الجزائر ماعدا الزاب الأغلبية وناحية تلمسان الإدريسية وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضى « : كتاب الجزائر ترفيق المدنى ص ٢١ .

مجلس للعلماء في إحدى الواحات الجنوبية الشرقية للجزائر أو الغربية لتونس يكون المجتمعون من أماكن شتى وبلدان متفرقة متباعدة يقص كل واحد منهم المآسى التي عاشها في موطنه الأصلي ، وما بلغه ظلم الحكام والمحرفهم عن سبيل الإسلام . وفي المواطن الأصلية لهم قد تنقسم الأسرة الواحدة على نفسها يهاجر بعضها إلى مكان ، ويهاجر البعض الآخر إلى مكان غيره أو يقيم في مكانه الأصلي ينتظر الفرصة لصالح الزمن وتبدل الأيام وسيادة الحق على الباطل بسبب من الأسباب . وكثيراً ما تكون المجاذبة والأخذ والرد بين أفراد العائلة الواحدة المنقسمة على نفسها كل يدعو القسم الآخر إلى الانتقال إليه والاستقرار معه .

قال أبو العباس الدرجيني وهو يتحدث عن أبي صالح جنون بن يمران ما يلي :

« وذكر أن ابن عم له كتب إليه من بلاد المغرب : يا ابن عمي :
إئتني فإنك أقت في الأرض القفر « وارجلان » فإن عندنا أرضاً
كريمة ، قدر كساء يحمل البعير وسقه حباً . فأجابه أبو صالح : يا ابن عمي :
إئتني فإن عندنا أرضاً . قعدة رجل يحمل البعير وسقه عسلاً » . يعنى النخلة .
والشواهد على هذا كثيرة حتى أنه يعسر على المؤرخ أن يعرف مواطن العلماء
الذين ينسبون إلى بلد ما أو يعيشون فيه اللهم إلا بالعزوة أو النسبة كما يقال :
أبو عبد الله الفرستائي وأبو العباس الويليلي وأبو جعفر الوسلاقي وفي كثير
من الأحيان ينسب الشخص إلى القبيلة وتكون القبيلة من القبائل التي تفرعت
إلى فروع كثيرة وتنتقل بين بلاد المغرب الإسلامي كلها فلا يعرف لها مقر ،
ولا يعرف موطن الشخص الأصلي وإنما يعرف الموطن الذي استقر فيه من
بعد وأقام .

وإنك لو تتبعت أسماء العلماء في بعض كتب التاريخ لوجدت النسبة إلى القبيلة هي الغالبة أمثال :

المشلوطي ، والسدراتي ، واللواتي ، والمزاتي ، والزناتي ، واليهراسني ،
والزواغي ، والزروراري ، والنفوسى ، والفارمى ، والوسيانى ، والتناوتى ، واليفرنى
والبيروتى ، والفسطناسى إلى آخر ما هنالك من أسماء وألقاب لمختلف القبائل
والعروش ينسب إليها ، وفي أحيان قليلة يذكر المؤرخون الوطن الأصلي للعالم
وينسبونه إلى القبيلة ثم يذكرون مقره الذى استوطنه أخيراً . وعلى كل حال
فإن الإباضية لم يزلوا يطاردون في جميع أنحاء المغرب ويضيق عليهم . تارة
من طرف الحكام المستبدين وتارة من بعض زعماء القبائل الأقوياء المستغلين ،
وأحياناً قليلة من بعض المتعصبين من المتفقهين الجامدين فكانوا يلجأون في
أغلب الأحوال إلى تلك الجهات من الواحات . يأوى المستقرون منهم إلى
المدن ويأوى أصحاب الماشية إلى الوديان والعلال الخصبية في تلك الجهات ،
فتكون بسبب ذلك نشاط ملحوظ في الجوانب العلمية والدينية . وبلغ بهم
الحرص على التعليم وعلى العبادة إلى أن جعلوا مساجد ومدارس متنقلة^(١) مع
الأحياء التى تعيش على نهج البداوة ، فكان أرباب الماشية ينصبون أحياءهم
مقاربة من مواطن الخصب ثم يقيمون بناء المسجد والمدرس فيؤمه الطلبة
للدراية والمصلون لأداء الفريضة ، وقد ذكر المؤرخون أن لبعض الأحياء
مسجداً متنقلاً من هذا النوع يحملونه على اثني عشر بعيراً ينصبونه في مكان
متوسط ليؤمه الناس من أحياء متعددة وقد قيل إن تفصيله شبيه بتفصيل

(١) يتخذون نماذج من الحصر يسهل أن يقام منها بيت أو مسجد أو مدرسة على
المساحة والمهندسة المطلوبة بأيسر جهد فإذا أرادوا الارتحال طويت الحصر وحملت على الجمال إلى
المكان الجديد حيث تنصب بسهولة أيضا .

المساجد المبنية حيث يخصص قسم منه للنساء وقسم للمرافق . ويبدو أن الوحدة لأصحاب الماشية في تلك الجهات إنما هي القبيلة ، ومن يندرج تحتها وينضم إليها . فتكون تلك القبيلة ومن معها مجتمعاً يقيم أو يرتحل بالاتفاق وهي بذلك تقيم لنفسها مجتمعاً صغيراً تقيس فيه عدة من أنواع النشاط في التربية وفي التعليم وفي إقامة الشعائر الدينية كما تتكون فيه يد قوية تحمي ذلك المجتمع من عدوان الفارات . أما القرى والمدن فقد كانت كل منها تكون مجتمعاً خاصاً ، ويغلب أن يكون سكان القرية أو المدينة متكوماً من مجموعة كبيرة من الأسر والأفراد جاءوا إليها من جهات مختلفة نتيجة للضغط في بلدانهم الأصلية . أما الرباط بين تلك القبائل أو بين تلك القرى أو بينها جميعاً ، فهو الرباط العام من السيرة والسلوك والتعاون العلمى والدينى والعطف والمحبة ، ولكن التنظيم لم يصل بينها إلى درجة تكوين وحدة بين مجموعة من القبائل أو مجموعة من القرى تقف موقفاً موحداً في حالات الدفاع بنظام ثابت ومستمر .

وبينا كان جبل نفوسة بجميع قراه ومدنه يكون وحدة ، وكانت جربة بجميع حاراتها وأحيائها تكون وحدة . فإن بقية بلاد الإباضية في المغرب كمنطقة الجريد . ووادي أرينغ ، ووارجلان ، وآجلو ، وتجريت لم تكون بينها هذه الوحدة . أما وادي ميزاب فقد بدأ الإباضية يتجمعون فيه بعد ذلك في أوائل القرن الخامس . وقبل أن ينشأ وادي ميزاب كان نظام العزابة قد استقر عرفاً في كل من الجبل وجربة ثم اتبع نظاماً مقرراً في كل بلاد الإباضية في ليبيا والجزائر غير أنه طبق في الجبل وجربة على أسلوب الوحدة وطبق في بقية الجهات الأخرى على أسلوب الانفراد كما سبقت إليه الإشارة .

وقد ذكرت غير مرة في هذا الكتاب وفي غيره أيضاً أن هذه السيرة إنما نشأت أول ما نشأت في جبل نفوسة - بعد وقعة مانو والقضاء على الدولة الرستمية مباشرة - من الشيخين أنى القاسم البغطوري وأبي الخير الوزيري .
يقصد لم الشعث ، وتوحيد الصفوف وتوجيه الأمة توجيهاً سليماً في أهم جانبيين من جوانب الحياة هما الجانب الديني والجانب العلمى .

ولكن هذه السيرة بقيت سيرة عرفية غير مقررة ولا محددة حتى جاء أبو عبد الله محمد بن بكر فجعلها قانوناً ونظاماً خاصاً يشبه أن يكون نظام جمهورية صغيرة مستوحى من شريعة الله وقد سبق الحديث عن هذا النظام في غير هذا الجزء وكما سمعت أن الأرخ الأديب فرحات الجمبيري قد يقدم عنه دراسة وافية ممتعة . أعانه الله ويسر له خدمة الإسلام والمسلمين .

تجنب إباضية المغرب للنزاع على السلطة

عندما انحرفت الدول الكبرى عن المنهج الإسلامى فى إجراء الأحكام وانبتت أسلوباً دكتاتورياً متمسكاً ثار الناس فى كل مكان ، واتخذت تلك الثورات مختلف الأشكال والألوان والمبادئ . وسارت فى طرق تقارب أحياناً وتتباعداً أحياناً أخرى . وكان الإباضية من جملة من انتقد الانحراف فى سلوك الحكام ، وكان موقفهم فى المغرب الإسلامى لا يتعدى - فى بادىء الأمر - الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالقول . وكان العلماء ينددون بالظلم والظالمين فى مجالسهم الخاصة والعامة ويتحدثون عن ذلك فى المساجد والمجامع ، ويكشفون للناس عن صور الانحراف عن الحق فى سلوك الظالمين ، ولما خاف الأمراء كلمة الحق وخشوا على مناصبهم أن تزلزلها الدعوة إلى الاستمسك بكتاب الله بسطوا أيديهم بالأذى ، وسلطوا ظلمهم على الإباضية ، فاستباحوا منهم المال والدم ، وحكموا سيوفهم فى رقاب بعض العلماء الأعلام فاندلعت شرارة الثورة المسلحة عليهم عندما تعدوا على العلامة عبد الله بن مسعود التجيبى دون أن يصدر منه ما يبرر العدوان عليه . فانتقل الإباضية من مرحلة النهى عن المنكر بالقول إلى مرحلة النهى عنه بالفعل ، فوقفوا فى وجوه المعتدين ، يشلون أيديهم الضاربة ، ويزحزونهم عن كراسيهم المتحجرة ، وتكونت هذه الحركة أول ما تكونت فى ليبيا ونجحت فى مبدأ الأمر ولكن سرعان ما تألبت عليها القوى المستغلة للحكم والتي لا تريد أن يرى الناس نصاعة الحكم الإسلامى فيمنكشف لهم ما عليه أولئك المنحرفون من ظلم وجور وجبروت ، بعد أن كانوا يموهون عليهم بأن السلطان الذى بأيديهم إنما كان بأمر الله ، وأن ما يجرونه عليهم من أحكام إنما استمدوه

من الحق الذى وضعته الشريعة فى أيديهم ، وأنه لا حق لأحد أن ينازعهم فيه أو يحاسبهم عليه . أو يأخذه منهم ، أو ينتقدم بسببه . واستطاعت تلك القوى أن تضرب الإباضية ضربة قاضية حينما قتل أبو حاتم المزوزى حسماً هو مفصل فى كتب التاريخ . وتؤكد الإباضية فى ليبيا أنه لا يمكن لهم أن يقيموا دولة ترعى حدود الله وعن يمينها وشمالها دول تجرى أحكامها على رغبات بشرية فانتقلت الحركة إلى الجزائر ونجحت فى مبدأ الأمر وتكونت هنالك الدولة الرستمية ولكن سرعان ما وجهت إليها الضربات واستطاعت رغم كل شيء أن تقيم حكم الله مدة قرن ونصف . ثم جاءت الدولة العبيدية فقضت عليها كما هو مفصل فى كتب التاريخ وسار حكم الدولة العبيدية على نمط قد يكون أسوأ من غيره ، واستباحوا لأنفسهم أموال الناس ودمائهم .

بعد القضاء على الدولة الرستمية وقف الإباضية يفكرون فى المسلك الذى يسلكونه تجاه الجورة والمستبدين من الأمراء والحكام . أيقابلون أولئك الحكام بالدعوة إلى الثورة عليهم وقطب نظام الحكام وإبعاد المنحرفين عن مقدرات الأمة مهما كانت النتائج ؟ أم أنهم يسلكون مسلك المسائلة والمهادنة ؟ . وكان أول من فكر فى الموضوع بجدية وانتهى فيه إلى رأى هما العالمان أبو القاسم البغظورى وأبو محمد الوزيرى وكانا حينئذ مرجع أهل الجبل وكان ذلك بعد معركة مانو التى قتل فيها الأغلبية أعداداً لا تحصى من رجال نفوسة وتبعوا علماءهم وصلحاءهم حتى كادوا يقضون عليهم . ولذلك فقد رأى الشيخان أنه ينبغى لجبل نفوسة أن يحتفظ بانعزاله سياسياً فلا يمتك بإحدى الدول القائمة ولا يدعو إلى ثورة ولا يشترك فيها ، ولا يقيم لنفسه حكماً بجهاز دولة . وإنما عليه أن يختار هيئة من الرجال الأكفاء

تمثل الجبل بجميع نواحيه تقوى تحت رئاسة أحد العلماء شئون الجبل الدينية والاجتماعية وتنظم وسائل الدفاع إذا اضطروا إليه ، ويتولى ذلك كله الرئيس الذى يطلق عليه اسم شيخ الجبل أو حاكم الجبل ، وينفذ جميع القرارات التى يتخذها المجلس ، وهكذا استقر رأى الجانب الشرقى من إباضية المغرب الإسلامى على عدم إقامة دولة ، وعلى عدم مناقشة الدول الأخرى ومطالبتها بالتزام سلوك معين . وإنما أوجبوا على أنفسهم أن يقيموا حدود الله فيما بينهم وأن يلتزموا السير فى المهج الإسلامى الذى سار عليه الصالحون من أمة محمد ﷺ .

أما الجانب الغربى الذى ذاق حلاوة الحكم الإسلامى تحت رعاية الدولة الرستمية فقد كان أفراد منه يتوقفون إلى إعادة ذلك الحكم ولكن المفكرين منهم قد انتهوا إلى مثل ما انتهى إليه إخوانهم فى الجانب الشرقى . وكانت الدولة العبيدية عندما تغلبت على الدولة الرستمية فى تاهرت لا تخشى أحداً كما تخشى أبا يوسف يعقوب بن أفلاح ولا تخشى بلداً من بلدان الإباضية فى تلك المناطق كما تخشى وارجلان فلما فر أبو يوسف متجهاً إلى الجنوب تبعته فرق من الجيش العبيدى وإلا حقه بقواتها ولكن تلك الفرق لم تتمكن منه حتى قرب من وارجلان وعندئذ أمرت بالتراجع خوفاً من الاصطدام بأهل وارجلان وإثارتهم فرجعت دون أن تبلغ ما تريده من قتل أبى يوسف أو أسره أو الحيلولة دونه ودون الوصول إلى وارجلان .

كان مع أبى يوسف جموع من الناس الذين هاجروا من الشمال إلى الجنوب بعد تلك الأحداث المؤلمة فعرضوا على الإمام يعقوب أن يبايعوه إماماً عليهم يقيم فيهم حكم الله ويحارب بهم عدوه فقال لهم : « افرقوا فقد انقطعت أيامكم . وزال ملككم فلا يعود إليكم إلى يوم القيامة . ولا اجتمع

منكم ثلاثة إلا وقع عليهم الطلب . وبلغ الرجل العظيم المدينة العظيمة وارجلان ، وكانت وارجلان وما يجاورها في ذلك الحين مآرزاً وملجأ للإباضية ولم فيها قوة وصوله فعرض عليه أهلها أن يبايعوه بالإمامة ، وأن يحاربوا تحت لوائه حتى يقيموا دين الله ولكن أبا يوسف قال لهم قولته المشهورة التي ذهبت مثلاً « الجمل لا يستتر بالغنم » وهكذا أتحدت الفكرة عند كبار رجال الإباضية في المغرب الإسلامي على اعتزال السياسة وتجنب الاحتكاك بالدول القائمة وعدم القيام بتأسيس دولة جديدة .

ترك الإباضية في المغرب الإسلامي الحكم لطلاب الحكم يتهاشون عليه . أما هم فقد رجعوا إلى داخل نفوسهم يطهرونها وإلى أهمهم يزكونها وإلى مجتمعهم يحاولون أن يقيموه على أسس متينة من شريعة الله .

ولقد تهيأت ظروف الثورة لهم على بعض الدول وتيسرت لهم الأسباب لإقامة دولة جديدة في بعض الأحيان ولكنهم لم يشاءوا أن يشغلوا أنفسهم بذلك ولا أن يتطلعوا إليه . ولعل من أبرز الشواهد على ذلك ما كان عليه الإباضية في عصر أبي القاسم يزيد بن مخلد وذلك في عهد المعز لدين الله الفاطمي . فلقد واتت الظروف أبا القاسم واجتمعت الإباضية وغير الإباضية على حبه وإطاعة أمره وكان لهم من القوة المادية ما يكفل لهم الفوز ، وعرض كثير من الناس الأمر على أبي القاسم وطالبوه بقبول البيعة ولكنه رفض لأن رأيه كان مثل رأى البغطوري وابن الخير ويعقوب بن أفلاح . فكان يرى أن التعلق بالحكم لا يهم ، وأن المؤمن يستطيع أن يحافظ على دينه دون أن يكون صاحب سلطان . وأن ما تعطل من شريعة الله فإنما يحاسب عليه أولئك الذين أمسكوا بالسلطة في أيديهم فلا هم أقاموا فيها أمر الله

ولام تركوها لمن يقيمه فيها . وأنه ينبغي للإباضية أن لا يزيدوا للأمة فتناً على ما بها من فتن تتخذ وسيلة لاستحلال الدماء والأموال وإلما عليهم أن يقيموا الإسلام في أنفسهم ، فمن كان منهم مستقلاً مثل جيل نفوسة ، فعليه أن يقيم أحكام الإسلام ويراعى حدوده دون أن يعلن اسم دولة . ومن كان منهم خاضعاً لدولة قائمة مثل إباضية تونس والجزائر ، فعليهم أن يخضعوا للدولة ، وعليهم أن يدفعوا لها ما تطلبه منهم من الضرائب والغرامات ، وأن يجاهدوا معها أعداء الله إذا وجهت جيوشها لمحاربة الكفار والمشركين . وعليهم أن يقوموا هم أنفسهم بزعاية مصالحهم الدينية والاجتماعية ، وأن يفصلوا مشاكلهم حسب الأصول الشرعية ، وأن يكفوا أيديهم وألسنتهم عن مساعدة الدول القائمة في جميع ما ترتكبه من ألوان الظلم الذي تنزله على الناس ، وأن لا يشتركوا معها في أى حرب ضد المسلمين وفي بلاد الإسلام .

وسار الإباضية على هذا المنهج في أول أمرهم دون أن يجعلوا لذلك كتباً أو قوانين يرجعون إلى موادها . وإلما يطبقون أحكام الإسلام فيما أمكنهم من حقوق الله وحقوق العباد . حتى ضاق للعزلة دين الله الفاطمي ذرعاً بأبي القاسم بن مخلد ، وخشى من محبة الناس له ، وإقبالهم عليه . وطاعتهم لأوامره ، فأمر عامله في (الحامة) أن يقتله فاستزار العامل أبا القاسم واعتاله في منزله نفسه . وكان هذا الاغتيال دون جريمة سبياً في ثورة عارمة قام بها بعض أصدقاء^(١) أبي القاسم وبعض تلاميذه وأتباعه . جعلت العزلة يترشح فوق عرشه ، ويتنازل عن كبريائه ويعرض الصلح على أولئك الناظرين

(١) عارض القيام بالثورة عدد من علماء الإباضية من أشهرهم أبو صالح الميراسني وأبو محمد وبشلائت .

ويقنازل لهم (١) هما كان تحت أيدي الإباضية في عهد الدولة الرستمية من البلاد فلم يقبلوا بذلك ، لأنهم لم يثوروا طلباً للملك ، وإنما ثاروا محاربة للظلم والجبروت .

ولما سكنت تلك الثورة وزجع الناس إلى حياتهم العاذية كان أفراد من رؤساء القبائل وزعماء العشائر يعدون للقيام بثورات أخرى . ويهمسون بذلك في مجالسهم الخاصة ، وفي الاجتماعات المأمونة ، حتى جاء الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن بكر .

استبعد الإمام أبو عبد الله فكرة الثورات والحروب والقيام بدولة ومحاربة الحكام من أذهان الناس استبعاداً كاملاً . واتجه بالمجتمع الإباضي اتجاههاً خاصاً هو الاهتمام بالنفس وبالمجتمع . دون الاهتمام بالدولة وحول سيرة الإباضية بعد وقعة مانو من عرف جرى عليه الناس وعادات استحسنوها وتمسكوا بها إلى حيز الدراسة والبحث العلمي ثم التقنين وألف في الموضوع وجعل ذلك دستوراً في مواد وقوانين . فنظم حلقة العزابة كما ذكرنا من قبل وحدد فيها اختصاصات الهيئات واختصاصات الأفراد . واعتنى بعناية خاصة بقضية التربية والتعليم . وجعل لذلك منهاجاً . أعتقد أنه منهاج فذ في نظم التربية والتعليم . ومما يتضمنه ذلك المنهاج توحيد زى الطلبة ، وتوحيد زى المدرسين ، وتنظيم أوقات الدراسة ، وتخصيص كل وقت لما يناسبه من المعارف ، وإدخال الآداب الإسلامية والقيام بالعبادات الدينية في قلب

(١) قال الدرجيني في الطبقات : فأرسل - أي العز - إلى المشائخ أن يرجعوا إلى بلادكم التي كانت بها أوائلكم قبل هذا من تاهرت وغيرها فتكونوا على ما كانت عليه أوائلكم ، ونكون على ما كان عليه أوائلنا .

النظام . بحيث تكون مواد أساسية في المنهاج الدراسي وتخصيص أوقات للتربية العملية في حل المشاكل وحسن التصرف وإدارة الأمور والسلوك الحسن بين المجتمعات المختلفة وفي البيئات المختلفة . كما أنه أعطى قيمة خاصة للفروق الفردية بين الطلاب ، وأوجب احترام شخصية الطالب المتخلف ذهنياً ومراعاته ودراسة ظروفه حتى لا تتكون فيه الأمراض التي تسمى اليوم (العقد النفسية) وبالجملة فإن الإمام أبا عبد الله هو الذي حول بطريقة عملية مجرى تاريخ الإباضية فأبعدهم عن التهارش على مناصب الحكم الديني والنزاع على السلطة ، ودعاهم إلى تنظيم حياتهم تنظيمًا إسلاميًا يلتزمون فيه أحكام الله على الفرد وعلى المجتمع .

ومنذ ذلك الحين تخلى إباضية المغرب عن التفكير في موضوع الحكم وساروا بنظام العزابة في وحدة متكاملة متعاونة محافظة على دين الله حريصة على اتباع سيرة المحسنين من السلف وفي العهد التركي الأخير بدأ إباضية جبل نفوسة وجربة يتخلون عن ذلك النظام الرائع حتى تركوه تمامًا فأصبحوا يعيشون في مجتمع واحد لكن دون رباط ولا منهج إذ فقدت الدولة المسلمة التي تحمل الناس على السير في الجادة . وأضاعوا النظام الذي كفل لهم حياة إسلامية نظيفة أكثر من خمسة قرون . فابتعدوا بسلوكتهم عن الإسلام كما ابتعد الكثير من غيرهم .

أما إباضية الجزائر فقد حافظوا عليه إلى اليوم فحفظ عليهم وحدتهم واستقامتهم وتميزهم على بقية المجتمعات الإسلامية ، وفي وادي ميزاب وفي وارجلان أمثلة رائعة لأمة مسلمة محافظة على دين الله قائمة به ، إذا شد منها فرد فارتكب ما يخالف تعاليم الإسلام أو آدابها نبذه المجتمع

وقاطعه حتى يتوب ويهود . وهي مع ذلك تعيش في العصر الحاضر وتستفيد
بآخر ما وصلت إليه الحضارة الإنسانية والمعارف البشرية من كشوف
واختراعات في القرن العشرين . فلا هي تخلت عن دينها كما فعل
المخدوعون الذين يسرون في ركاب الأجانب دون وعي . ولا هي حرمت
من الاستمتاع بالمباح مما يسرته الحضارة والعلم في عصر الحضارة والعلم
كما وقع لبعض الجامدين والمتزمطين الذين يغمضون أعينهم عن كل ما لم
تصنعه أيديهم .

انتشار الإباضية ثم انحصارهم

لقد سبق أن ذكرنا أن الإباضية طيلة القرنين الثاني والثالث كانوا منتشرين في كامل القطر الجزائري وبكوتونون أغلبية السكان فيه ، وفي القرون التالية إلى القرن الثامن الهجري أو بعده بقليل كانوا يملأون بلاد الواحات من القطرين: الجزائر وتونس كما كانوا منتشرين في أغلب النواحي الشرقية للجزائر والنواحي الجنوبية والغربية لتونس أما الآن فهم منحصرون في وادي ميزاب ووارجلان من الجزائر. وقد بحثت كثيراً عن الأسباب التي جعلت إباضية الجزائر ينحصرون في وادي ميزاب ووارجلان ، وجعلت إباضية تونس ينحصرون في جربة ، وجعلت إباضية ليبيا ينحصرون في جبل نفوسة وزوارة ، وللإجابة عن النقطتين الأخيرتين مكان غير هذا المكان . أما عن النقطة الأولى فبعد أن رجعت إلى ما لدى من مصادر ، وما بين يدي من مراجع وبعد دراسة ما أمكن لأوضاع الجزائر المختلفة والمتقلبة عبر العصور المتلاحقة - رأيت أن أستعين على الموضوع برأي عالمين فاضلين من علماء الجزائر أحدهما العالم الفاضل شيخ الصحافة الجزائرية شيخنا أبو اليقظان إبراهيم وثانيهما العالم المؤرخ الأديب أستاذنا باكلى عبد الرحمن بن همر فوجهت إلى كل واحد منهما على انفراد السؤال الآتي :

« ما هي الأسباب التي أثرت على الإباضية في الجزائر حتى انحصروا في وادي ميزاب ووارجلان » .

وقد أجابني كل من الشيخين الفاضلين فكان بينهما لقاء في أكثر الأسباب ويملخص جواب شيخنا أبي اليقظان في النقط الآتية :

١ - مضايقة جيرانهم لهم ، ومحاربتهم لم باستمرار ، ويقصد بالجيران أولئك الناس الذين كانوا يحترفون الغارة ويعيشون على النهب والسلب ، أولئك الحكام الذين يعملون على إخضاع الناس لابتزاز أموالهم والتحكم في رقابهم .

٢ - القحط والسنون : فقد توالى على مناطق الجنوب خاصة سنوات متوالية من القحط والجفاف اضطرت أكثر الناس إلى الهجرة .

٣ - موت علماءهم بسبب الفتن المتوالية ونشو الجهل بناشئهم وعدم معرفتهم لأصول مذهبهم فاعتنقوا المذاهب الأخرى .

هذه خلاصة الأسباب التي أرجع إليها شيخنا أبو اليقظان أسباب الحصار الإباضية عن أغلب القطر الجزائري وانحصارهم في وادي ميزاب ووارجلان الآن .

أما استأذنا الشيخ باكلي عبد الرحمن فقد أجاب إجابة فيها بسط وإسهاب ولعل من المفيد للقارئ الكريم أن أنقل إليه نص جواب الشيخ ، قال حفظه الله :

« إذا بحثنا عن الأسباب التي أثرت على الإباضية فصيرت كثيرتهم إلى قلة وجعلتهم ينحسرون في نقطتين اثنتين ميزاب ووارجلان بعد أن كانوا في أكثر من عشرة مواطن لا يقل الواحد منها عن الباقيين قوة وكثرة وجدنا لذلك أسباباً كثيرة منها :

١ - الظاهرة العامة المتأصلة في نفوس البربر الذين هم أغلبية سكان الجزائر في مختلف أديارها ، ومعلوم أن البربر متمسكون أشد التمسك بمبادئهم

إذا كانت هذه المبادئ تتصل بالعقيدة ، فهم يحاربون من أجلها ويموتون في سبيلها^(١) .

٢ - حياة الفوضى التي عمت القارة وطبعتها بطابعها ، وضعف السلطة المركزية أن تسيطر على الحالة فتوقف كل عند حده وتحمل الرعايا ولو بالقهر على التزام النظام واحترام الحريات والحرمات .

٣ - جور الحكام وانتهاجهم سياسة التفجير والانتحان في البربر عملاً بوصية أسلافهم وعلى رأسهم الأصحاب الذين ينتمى معظمهم إلى قبيلة زنانية العظيمة المعادية للصنهاجيين وخلفائهم ومن نهج منهجهم السياسي بذلك لما حكاه الشيخ الشماخي عن بعض حفدة الشيخ أبي باديس أبحاث بن باديس ايشكني أحد شيوخ الإباضية الأغنياء الذي كان يسكن في بونة فقد روى فرسين بأمر جده فأحسن تربيتهم وتأديبهم ثم أهداهما إلى المعز بن باديس الصنهاجي إمدارة قبيلهما منه وفرح به وهما وأكرمهم . فسكره وزراؤه ذلك فطعنوا فيه وأفسدوا قلب المعز عليه ، قالوا : اقتله فإنه من الإباضية وقد أمكنك ورأيت عظم ما أتاك به وكيف ما خلف وراءه لثلا يخالف عليك .

(وفي هذا التعليل كل الدلالة على روح السياسة وقتئذ) فقال لهم : كيف الخيلة إلى قتله وقد عرف القاصي والداني قبولنا لهديته .

قالوا : تأمره أن يلعب أسد السخط - وهو الأسد الضاري العادي - بفرسه فيهلكه . قال الحفيد : « فأرسل إلى المعز فقال : تلاعب بمهرك أسد السخط - وأتم زنانية تذكر عنكم الفروسية - فقلت : لبيك . زهواً وتيهاً .

(١) قلت هذه الفقرة بتصرف .

فأمر بي أن أدخل خان السباع فركبت مهري الأول وأطلق على سبع
ضارٍ عادٍ ، وجلت مع السبع في الدارملياً حتى إذا ارتاضه المهر قربته إليه
فهزته بالأشابير فضربه على أم رأسه فتغل حافره في رأسه فوق كالنخلة
السحوق ، ونجوت والحمد لله رب العالمين . انظر تفصيل القصة في سيرة
الشماع ص ٣٨٣ .

٤ - الصراع الذي لا يكاد يفتر بينهم وبين الحكام الجورة وعدم
الاستكانة لهم ، وما يذكر في هذا الباب أن أحد المشائخ كان لا يلتفت إلى
جبار احتقاراً ولا يصفح الجبارة البتة فلما قيل له في ذلك أجاب : « إن
الله يسأل اليد لم تصفح اليد » . وكان من مبدأهم عدم الوفاة إلى الجورة ،
وقد أخرجوا فعلاً عبد الله بن جابر لوفادته إلى أمراء قابس وهاجروه ،
ويروون في هذا خبراً « إن رأيتم العالم يمشى إلى باب السلطان فاتهموه على
أمر دينكم » وقد نظم الشاعر هذا المعنى فقال :

قل للأمير مقالة لا تركن إلى فقيه
إن الفقيه إذا أتى أبوابكم لا خير فيه

٥ - تأصل العداوة ضد نزعة الأصحاب التحررية التي ينبعثونها
بالخارجية (وإن كانت من لباب الإسلام) خوف الجورة على سلطانهم
منهم وتأليب الفوضى عليهم ، تخضيداً لشوكهم ، وتوهيناً لقوتهم ،
ولإشغالهم بالدفاع عن أنفسهم لئلا يتفرغوا لمهاجمتهم .

٦ - وقوفهم دائماً موقف الدفاع إزاء أعدائهم ، ولا يتفنون موقف
المهجوم أصلاً . وأنت خير أن المدافع دائماً إلى ضعف ، وماغزى قوم في
عتر دارهم إلا ذلوا .

٧ - وقوفهم عند حدود الشرع في معاملة خصومهم وإن جاروا عليهم عملاً بقول همر بن الخطاب: « ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه » .

٨ - تحكم النزعات المذهبية التي احضنتها بعض تلك الدول وشجعته لانها لا تسكون في نظرها خطراً على نفوذها ، ورأته الخشخاش الذي يكرهه المذهب وبطل في أنفه ما عاش ..

٩ - عدم استنادهم إلى دولة عتيقة تحمي ظهرهم وتشد أزهم وتجمع كلمتهم بل ظلوا أوزاعاً مبدين هنا وهناك .

١٠ - ابتلاؤهم ببعض زحوف وهجمات ذوى المطامع من الملوك والأمراء الذين ينزعون إلى الاستبداد والسيطرة كالميورقي الذي اصطم وارجلان (يعنى ناحيتها وعلى الأخص صدارته) سنة ٦٢٦ وهدم سورها وتركها قاعاً نصفصفاً كأن لم تفن بالأمس .

١١ - ما ينزل بهم من التخريب والترويع والتشريد أثناء انتقال السلطة من دولة إلى دولة دون غدون تسليم المهاجم ملكه واستيلاء المهاجم عليه دماء تسيل وأرواح تزهب ، وعمران يخرب ويقوض ، وأموال تفتن وتبدد ، وحرمان تنتهك إلى غير ذلك .

١٢ - مطاردة الجوزة إياهم وتغريمهم بغرامات لا قبل لهم بأدائها تعجيزاً لهم ، وتذرعاً إلى قتلهم ، انظر حكاية أبي الخير الزواغى مع أحد أعوان ابن باديس : السير ص ٣٣٦ .

١٣ - وإذا أضفت إلى كل ذلك نزوعهم إلى حياة الروح والعكوف

في الخلوات وعزوفهم عن الجانب المادى الذى يخولهم قوة يستطيعون بها رد عاديات الأيام لم تستغرب من النتيجة الحتمية .

وهكذا تضافرت هذه الأسباب عليهم ، واستمرت تضعفهم شيئاً فشيئاً حتى تركتهم بالقلّة التى نشاهدها عليها اليوم ، وجعلتهم ينحسرون في ميزاب ووارجلان .

ولكن ما السر في انحصارهم في تلك المنطقة دون سواها وبقائهم فيها إلى اليوم .

السر أن منطقة ميزاب ووارجلان منطقة بعيدة عن أوساط الاحتكاك ولم تسكن من المناطق الخصبة التى يكثر فيها النزاع ، بل هى في صحراء قاحلة تأخذ ولا تعطى ، فكانت قحولتها كشوك القنفذ تقصى الأيدي منه . انحازوا إليها محافظة على عقيدتهم وأخلاقهم ، وضناً بوحدهم أن تذوب وسط خضم المجتمع الكبير الذى تسوده الفوضى وتطاحن القوى ، وعدم التقييد بمبادئ الدين في تصرفاته .

وقد استعانوا على بقائهم بخصائص جمعها الله في هذه الكتلة الصغيرة الكريمة .

جمعت إلى المتانة في العقيدة الاستقامة في السمات ، وإلى الصبر على شظف العيش العمل المستمر ، وإلى الاقتصاد في النفقة تعاون الرجل والمرأة . الرجل يغزب وراء الكسب ، أو يعتكف على استثمار أرضه والمرأة تشتغل سحابة يومها وهزيباً من الليل في الغزل والنسيج ، وإلى الغيرة الوطنية لإسعاد ذوى اليسار للمحاييج العاطلين . وإلى العمل التطوعى المتبادل بين العموم « التويزه » القيام بأنظمة البلد تطوعاً واحتساباً . كنظام العزابة ونظام

العشائر وضمائها ونظام الحراسة هذه الخصائص هي التي حفظت هذه المجموعة بقاءها ولن تزال إن شاء الله ما دامت تتمتع بها .

هذا بعض ما قاله أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن .

أحسب أنه لم يبق لي في هذا الفصل عمل بعدما نقلته إلى القارىء الكريم عن الشيخين الفاضلين فإن الصورة التي رسمها للحالة التي أردنا تصويرها كانت صورة دقيقة كاملة ، وما أحسب الدارس واجداً فوق ذلك أو بعد ذلك ما يزيد لها . ولقد يكون من الأسباب التي ذكرها شيخنا باكلى بعض الإطناب ولكنه إطناب يقتضيه استيفاء جوانب الصورة كاملة ويتطلبه جهل الناشئة بأحداث التاريخ ، وبالأضرار المزمنة التي أصابت الأمة المسلمة في عصور طويلة . فلم تنزل تنخر في عظامها حتى أسلمتها للمرض الذي هيأها لأن تقع فريسة في يد المستعمر الذي يتظاهر بأنه يسعى وراء السلطة والحكم ووراء المكاسب الاقتصادية والمادية ، ولكنه في الحقيقة ما كان يعمل إلا للقضاء على عقيدة الإسلام ، العقيدة التي اندفعت بالبشرية في المنهاج الذي رسمه لها الخالق الحكيم . فلم ترض بذلك الوثنية والزندقة والإلحاد وآزرت هذه القوى المتضامنة قوى أخرى من المسيحية المحرفة والصهيونية المتقمصة ثياب اليهودية المعذبة . وتأزرت هذه القوى جميعاً على الإسلام بادىء الأمر في الميدان العسكري والسياسي ثم في المجال الخلقى والديني وقد نجحت في خطتها الأخيرة نجاحاً سريعاً لم يتوقعه خبراء الفتننة والتضليل فيها .

حين كانت تلك القوى المتآزرة المتآمرة على الإسلام والمسلمين تلم شتاتها لتحاربه في كل شبر من أراضيه وفي كل منحنى من حياته وفي كل خلق كريم من أخلاقه وفي كل مبدأ سام من مبادئه كان المسلمون

سادرين في غفلة هما يراد بهم ويساقون إليه .

يقناقش العلماء منهم والمتفقون في مدلول الألفاظ والعبارات ، ويتصارع الأغنياء منهم وذوو اليسار على الترف والتبذخ والإسراف في النفقات ويتقابل أصحاب السلطة على مناصب الحكم وكرايى الإمارات ، ويدأب الصعاليك والمغامرون على إشعال الفتن وشن الغارات وتتهارش العامة الجاهلة حائرة بين هذه الفرق ومندفعة بحماس تارة طلباً للدنيا وتارة طلباً للدين ، ولكنها في كل ذلك تسير وراء قيادة غير نزيهة في أغلب الأحوال . وبذلك عاش المسلمون هذه الفترة من تاريخهم في حروب وقتن مظلمة يضرب بعضهم البعض معرضين عما يجهزه لهم الأعداء . ولاشك أن هذه العوامل وماجرت إليه إنما نشأت عن انحراف المسلمين عن منهاج الإسلام .

فقد انحرف أصحاب السلطان فحكوا بالظلم وتصرفوا في المال بغير عدل ، وأخذوا الرشوة بغير موجب ، وعاملوا الناس بغير حق وانحرف العلماء عن منهاج الإسلام ، فتملقوا الحكام ، واسترضوا أصحاب السلطان وسكتوا عن مناكرهم ، بل وبرروا لهم انحرافاتهم . وانحرف الأغنياء عن منهاج الإسلام فأصبح التنافس على كسب المال هو غايتهم ، وتساهلوا في معرفة الحلال والحرام فلم يفتهم كيف يصل المال إلى أيديهم ثم استأثروا بحق الفقير ، وتهاونوا بمصلحة الأمة ودخلوا في منطقة الربا والترف .

وانحرف العامة عن منهاج الإسلام . فرغبوا أن يشاركوا أصحاب الأموال في أموالهم ، وأصحاب السلطان في سلطانهم بطرق غير شريفة ولا نظيفة فصاروا آلات في أيديهم . يكسب بها الغنى ، ويضرب بها الحاكم ، ويستغفلها العالم .

وانحرفت الأمة بأجمعها عن منهاج الإسلام فاتسكنت على غير الله

واعترت بسواه وتوددت إلى أعداء الله ، وربطت أوائس الصداقة
والمحبة مع من نهى الله عن مودتهم وقسمت المشركين والكفار إلى
قسمين ، تقبل على بعضهم وتعرض عن البعض فيما تحسب ، وإمامهم يتلاعبون
بها كما يلعب الأطفال بالكرة فتارة تحت قدم هذا وتارة تحت
قدم ذاك .

هذه الأمور بعض أسباب المحنة ودواعى الفتنه نسأل الله تبارك وتعالى
أن يزيل الغشاوة عن عيون المسلمين فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله .

صورة مصغرة لحياة الإباضية في الجزائر

بعثت سؤالاً عن هذه الصورة إلى الأستاذ شيخنا باكلى عبد الرحمن فأجابني حفظه الله في رسالة مطولة تحتوي على اثنتي عشرة صفحة رأيت أن أقتطف منها ما تقرؤه فيما يلي :

« كان المجتمع الإباضي الجزائري في عهد الشيخ أبي عبد الله محمد بن بكر (أى فى أوائل القرن الخامس للهجرة) مجتمعاً إسلامياً فى عقيدته وأخلاقه وسمته، غنياً برجاله الصناديد وبعلمائه الفطاحل وبجيوش طلبته الميامين بله العامة الذين يخضعون لرؤسائهم ومشائخهم ويستميئون فى حمايتهم إلى آخر قطرة من دمائهم، وكانت النواحي الآهلة بهم كالزاب ووادي أريغ ووارجلان وسوف وجبال بنى مصعب (ميزاب) تعج بهم عجباً، وكانوا إلى ذلك على اتصال وثيق بإخوانهم إباضية جبل دمر وقصطالية وجربة وطرابلس ونقوسة، وكانت لهم خطة متحدة الأهداف لاسيما فى كفاح الجورة الحاكمين بأمرهم قمعاً للظلم وتنفيذاً للساقطين وصدماً عن القضاء عليهم واصطلامهم كما هى سياسة الحكام الشيعة وخلفائهم الصنهاجيين (انظر وصية الفاطمى)^(١).

كانوا يعيشون عيشة الروح لا عيشة الجسم، حياة التقشف، لا يحفلون بالقشور ولا يميلون إلى الترف والنعم، وأنى لهم . وقد صرفوا كامل عنايتهم إلى الاضطلاع بدين الحق، إلى تصحيح العقيدة، إلى نشر تعاليم الإسلام

(١) لما ارتحل المعز الفاطمى إلى القاهرة أوصى خليفته على المغرب يوسف بن زيرى قائلاً : « إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به فلا تنس ثلاثة أشياء : لا ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحد من إخوانك وبنيتك فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك . واستوصى بالحضر . »

بين الجماهير الساذجة ، وحملهم عليها قولا وعملا ، فانساقوا في هذا السبيل ،
سبيل الآخرة لإيثارا للآجلة على العاجلة ، وساعدهم على تحررهم من مهام الملك
التي تستنزف جهودهم وأوقاتهم ، وتحملهم على اعتناق الحياة المادية طوعاً
أو كرهاً .

أجل إنهم وإن لم يعرضوا عن الحياة المادية تماماً إلا أنهم يحميون حياة
هزيلة لا تعدو - على عمومها - تربية المواشى وفلاحة الحبوب ، وغرس النخيل
والأشجار سيما الزيتون . إلى شيء من تجارة ههنا المقايضة ، وإذا قدر لبعض
الأسيخ - مثلاً - أن يكون ذا ثروة فإنه يفنيها في كفالة الطلبة الذين
ينقطعون لخدمة العلم وإقامة شعائر الدين والوعظ والإرشاد احتساباً وامثالاً
لما يأمر به الدين ، ويدعو إليه القرآن الكريم ، الأمر الذي حفظ للدين
تعاليمه وللعلم حقايقه ، ولحسن السلوك منهاجه ، فكثرت جيوش العلماء وكثر
تنقلهم من ناحية إلى أخرى تثبيتاً للأقدام ، وإصلاحاً لذات البين ، وتصحيحاً
للأخطاء ، وقياماً بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على صعوبة
المواصلات وقلة الوسائل ، وخوف السابلة وبُعد المسافات .

ولذلك حافظوا على المذهب الإباضى بين تلك الزعازع والأعاصير العاصفة
في مختلف نواحيه ، واستطاعوا أن يفاضلوا خصومهم الذين يحاولون جهدهم
تحويلهم عن عقيدتهم وزعزعتهم عن مراكزهم وحملهم طوعاً أو كرهاً على
الذوبان في بوتقتهم .

والحق أنهم أوتوا صبراً عجبياً ، وقدرة فائقة على تحمل شظف العيش ،
ومجاهة خشونة الحياة ، وترك حظوظ النفس لإرضاء لربهم واستعداداً لتحمل
الأمانة التي عرضها الله على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها

وأشققن منها وحملها الإنسان ، يقصرون أول حياتهم على التعلم حتى إذا نبغوا تصدوا للتعليم وعقد الرحلات للدعوة إلى الله وتفقده أحوال المسلمين . ورأب صدعهم ، وجمع كلمتهم ، وتصنيف الكتب في مختلف العلوم لاسيما فقه الشريعة ، وتوجيه قافلة الخلق في طريق الخالق ، والانتقال إلى العكوف على عبادة الله في الخلوات طالبين بذلك رضى الله عنه ونعيمه المقيم ، مسترخصين في سبيل ذلك كل عزيز ونفيس . فترى الأشياخ المياسير يقومون بتموين طلبتهم وكفالتهم حتى تنفى ثروتهم ، فقد قص علينا الشيخ الشماخي أن نيفاً وثلاثين شيخاً منهم أبو عبيدة وشق من شيوخ أهل الدعوة تعاهدوا أن يتكفلوا بنوائب الحلقة وحوائج الطلبة فمن مات منهم قام الباقي مكانهم حتى لم يبق إلا الشيخ أبو عبيدة وشق فاستمر في عهده حتى توفى .

وكما قص علينا سيرة أبي عبد الله محمد بن سليمان النفوسى وكان ممن وسع الله عليه وكانت عنده كثرة التلاميذ يعلمهم ويطعمهم ويكسوهم من خالص ماله : إذا أقبل الشتاء اشترى لهم أكسية جديدة فيها الدفء ، وإذا أقبل الصيف اشترى لهم ما يخف وادخر الأخرى وربما باعها بالثمن الذى اشتراها به .

أجل هناك بعض النواحي تمتاز عن سائرها بتعاطى التجارة وعقد الرحلات إلى بلاد الغائبة طلباً للرزق كتجار وارجلان الذين يسافرون إلى السودان وبلاد غمارة . قال الشريف الإدريسي عن مدينة وارجلان : « ورقلة هي مدينة فيها قبائل مياسير وتجار أغنياء يجولون في بلاد السودان إلى بلاد غانة - ونقارة - وهكارة فيخرجون منها العبر ويضربونه في بلادهم - عملة مسكوكة - باسم بلادهم وهم وهبية إباضية والذي جعل جمهور بلادهم (١٩ - الإباضية)

الأصحاب يفضلون خشونة العيش والكفاف أنهم لا يستطيعون التفرغ
للاكتساب مقلتين في أوطانهم ، خائفين في أسفارهم مخاطرين عرضة للنهب
والسلب والقتل من جيرانهم بله إمعان الجورة في تجريدهم مما بين أيديهم ،
وتشريدهم في البلاد والنكاية بهم .

فأنت ترى أن هذه الأجواء التي ينفسون فيها شبه الغزاز الخنق
لا يساعدهم على تكوين الثروات ولا على استبقائها ، وهل تبقى - لأبالك -
ثروة وسط هذه الزعازع والأعاصير سواء كانت مادية أو أدبية - أجل لولا
تلك الفتن الداخلية والخارجية المتوالية والحروب المتتالية وعوامل المحو
والإبادة التي تسلط عليهم خلال القرون فأفقدتهم من الأموال ، وأخذت
عليهم كما أخذت على ابد ، وأتت على ما هنالك من تراث علمي . لأبقت
تلك القرائح الوقادة ، والعقول الراجحة لنا وللمكتبة الجزائرية من الكنوز
والزخائر ما يرفع رأسها عالياً بين أمم التاريخ .

ثم لولا ما أنشأوا من مدن ، وبتوا من ديار ، وغرسوا من بساتين
وحفروا من آبار ، وأقاموا من سدود ، ومدوا من قنوات سواقي الري في
شتى النواحي الصحراوية المتباعدة فكوتوا واحات زاهرة مزخرقة تلمع في
وسط الصحراء القاحلة لمعان النجوم في سماء ليل بهيم .

أجل لولا ما نشروا من علم ، وركزوا من عقائد صحيحة وقاوموا من
بدع مبيرة ، ومرنوا الجماهير على اتباع القول العمل ، وأحيوا من معالم دين
محمد ﷺ في وسط عصر عمته الفوضى والجهالة وتحكمت فيها الأهواء
والنزوات ، وطنى سلطان المادة على النفوس فطمس بصائرنا أن تنور الحق ،
فانهمت في محبة الشهوات والحظوظ النفسية وألهام التكاثر حتى زاروا

انتقابر . لولا ذلك - وناديك به - لكانت حياة مجتمعا طيلة هذه القرون يوماً مكرراً متشابهاً وغير متشابه .

ظل مجتمعا طيلة القرون الخامس والسادس والسابع في ازدهار وانتشار (كما أسلفنا) فكانت مضاربهم في وادي أريغ وسوف . ووارجلان والزاب وتاجديت ، والرمال ، وصدراته ، وجبال بني مصعب (ميزاب) ، مضرب المثل في الاستقامة وإحياء سيرة الرعيل الأول من سلف الأمة الصالح . وناهيك بتاجديت وما بلغته من ازدهار وتألق .

كذلك مجتمعا ظلت عوامل المحو والإبادة تناوشه وظل هو بدوره يقاومها دراكاً بينما قوة مقاومته تضعف شيئاً فشيئاً حتى ألقى السلاح واستسلم أمام ضربات الدهر القاسية ، ونحن إذا استقنينا الأقلية الضئيلة الباقية بوارجلان وجدنا المذهب الإباضي بأرز وينحصر في جبال بني مصعب (ميزاب) وإن لم يكن ثم أيضاً بنجوة من انتابه في أوطانه الأولى ولو ذهبنا نستعرض ما مر به في أدوار تاريخه من خوف ونهب وسلب وسطو وفوضى وتسلط ذوى الأطماع من الأمراء ومن فن داخلية ، وقحط ومسغبة وأمراض ، وضيق العيش ، وغير ذلك من أرزاء الحياة لتعجبنا كيف قدر لمجتمع صغير مثله أن يبقى إلى اليوم في الوجود .

ولعله يظل كذلك صامداً صمود الجبال الراسخة ، يهزأ بالأنواء والأعاصير ويضحك في وجه النوائب والمحن إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها « وهو خير الوارثين » .

هذه مقتطفات من إجابات شيخنا باكلى عبد الرحمن عن الصورة التي طلبتها وقد رسمها حفظه الله ورعاه في إطار أوسع من هذا الذي اقتبسته منه فظننت أن هذه الجوانب كافية لجعل القارئ عالماً بالظروف التي عاش فيها المجتمع الإباضي في الجزائر ما يزيد عن عشرة قرون .

البراءة والهجران

البراءة هي التطبيق العملي لقاعدة الولاية والبراءة الشخصيتين في المذهب .
فإن المسلم المستقيم هو أخ لجميع المسلمين يتعاملون معه على أسس التقوى
ورضوان الله ، وعندما يثبت على شخص ما ارتكاب معصية تعلن منه
البراءة حتى يتوب . ويتبع ذلك كإجراء تأديبي ، هجرانه أى مقاطعته
اجتماعياً فلا يتعامل أحد معه . فيجد نفسه معزولاً من المجتمع فيضطر إلى
التوبة لعود إليه مكانته وبستطيع أن يعيش بين المسلمين كواحد منهم .

وقد جرى في بعض العهود توسع في تطبيق الهجران فلم يقتصر فيه على
من يرتكب المعاصي المعروفة وإنما يطبق على من يخالف السيرة المتعارف
عليها وعلى من يرتكب ما يعتقد أنه يحط من قيمة الشخص أو يسبب مضرة
للأفراد أو انحلالاً وتفككاً في المجتمع . ثم وقع تشدد أكثر في أهل العلم
ومن يتعدى بهم الناس ويتأثرون بسلوهم .

ولعل مما يفيد القارىء الكريم أن أنقل إليه ما قاله أبو العباس
الدرجيني وهو يتحدث عن هذا الموضوع قال :

« الخلطة والهجران والإبعاد والطرْد ألقاظ مترادف على معنى واحد ،
وذلك متى أجرم أحد من أهل الطريق جرماً ، أو ظهرت عليه خزية . أو
أتى بنقيصة في قول أو عمل أو تضييع ، فإنه يهاجره كل أهل الصلاح
فلا يكلم ولا يحضر جماعة ، ولا يؤم ، ولا يؤاكل ، ولا يجالس ، وكان
خطة بينه وبين أهل الخير . فإن تاب واستغفر قبل منه ، ورجع إلى الجماعة
وزال عنه شين ذلك الاسم ، وكان بقاؤه في وحشة الهجران بقدر عظم

الجزم وصغره وتوبة المجرم وإصراره ، فمنهم من يقوب ويرجع في الحال ، ومنهم من يبقى ساعة أو ساعتين أو يوماً أو يومين أو أياماً أو شهوراً أو أعواماً أو عمره إذا عظم الجرم ودام المجرم على الإصرار وترك الاستغفار .
أسأل الله أن يقينا شر أنفسنا وشر كل ذي شر . » .

وفي هذا الفصل أريد أن أضع أمام القارئ الكريم صوراً من وقائع المهجران التي نفذت في بعض الحالات والتي شملت جماعة من كبار العلماء والأئمة الذين يقتدى بهم الناس وتبعون أقوالهم وفتاويهم بل بعض من تعتبر مؤلفاتهم أصولاً ومراجع في المذهب الإباضي ليرى القارئ الكريم مدى الحرص الذي كان عليه ذلك السلف الصالح في المحافظة على الاستقامة بل على السلوك الرفيع طبقاً لأرفع الآداب التي دعا إليها الإسلام .
وإليك الأمثلة :

١ - زار أبو محمد عبد الله بن عيسى صديقه أبا يعقوب يوسف بن موسى فوجده يطالع بعض الكتب الفلسفية التي تبحث مسائل الخلاف في علم الكلام وتوسع فيه فهاه عن قراءة تلك الكتب ونصح به بالابتعاد عنها ، خوفاً من أن تؤثر عليه أو أن يعرف حاله ضعاف الطلبة فيقتدون به في قراءتها فتؤثر عليهم ، فلم يستجب أبو يعقوب لصديقه ولم يعمل بنصيحته واستمر على منهجه في المطالعة والدراسة ، ولما اجتمع المشايخ بتونين أخبرهم أبو محمد بالموضوع وما قد يترتب عنه فناقشوا المسألة واقتنعوا بوجاهة رأى أنى محمد فانفق رأيهم على هجران أنى يعقوب فبعثوا إليه بذلك . فبادر بالذهاب إليهم وأعلن توبته بين أيديهم ووعدهم بترك دراسة الكتب التي يخشونها عليه أو على غيره ممن يقتدى به .

٢ - كان الشيخ صالح يعلو بن صالح في المرتبة التي لا تدانى علماً وهماً وخلقاً ، وبلغ المشائخ عنه شيء . وكان كبير السن فجاز عليه المشائخ سنة ثمانية وخمسة فعملوا يعاقبونه على أشياء بلغتهم عنه وجعل يستغفر ويتوب ويقول لا أعود . حتى انتهوا وقبلوا منه ورفعوا عنه حكم الهجران . فقال لهم : لم أفعل ما بلغكم عني . وكل ما بي إنما هو ضعف ومرض ولا شيء مما تذكرون .

٣ - الشيخ تبغورين بن عيسى المشوطى أحد أئمة الإباضية وكتابه في علم الكلام يعتبر أصلاً من الأصول المعتمدة ، وأقواله وآراؤه تعتبر حجة . ومع ذلك فلم يسلم من الهجران فقد بلغ المشائخ عنه شيء فحكوا عليه بالهجران ووضعوه في الخلطة واضطر أن يسافر إلى تينوال يتوب بين أيديهم ويعتذر مما نسب إليه حتى قبلوا منه .

٤ - كان إسماعيل بن العباس عالماً فاضلاً وبلغتهم عنه أخبار فوضعوه في الخلطة حتى جاءهم وتاب بين أيديهم وقبلوا منه .

٥ - عاتبوا جميع شيوخ أربع منهم من أخرجوه إلى الخلطة ومنهم من اكتفوا بعتابه وتوبيخه . وحكوا على جميع شيوخ تينوال فأخرجوهم إلى الخلطة حتى تابوا .

٦ - من المواقف الصلبة التي وقفوها ضد بعض العلماء موقفهم مع سليمان بن عبد الله بن بكر فقد كان هذا الشيخ أفتى بمسألة مخالفة للمعمول به بتاجديت فأخرجه الأشياخ إلى الخلطة وجاء سليمان يتوب بين أيديهم فلم يقبلوا منه إلا بعد اثنتي عشرة سنة . ذلك لأنهم قالوا : إن الفتوى قد انتشرت

في الناس ولا تتم التوبة حتى يبلغ خبر رجوع الشيخ عن فتواه إلى كل من بلغته الفتوى الخاطئة .

٧ - كان الشيخ أبو طاهر إسماعيل بن أبي زكرياء من أعلم الناس وأتقاهم فرحل إلى البادية وأقام بها أياماً فبلغ الأشياخ أنه أكل طعاماً عند أناس لا يتقون الشبه ولا يعفون عن الحرام . فأرسلوا إليه بالهجران فلما بلغه الخبر وهو بالبادية دعا إليه ولده أيوب وأمره أن يُرَحَّلَ له على الناقة وكان الشيخ قد كبر وضعف فركب الناقة وأخذ الولد بخطامها يقودها فحرص الشيخ أن لا يكلم ولده إلا إذا قال له الطريق من هنا أو من هنا . حرصاً على تنفيذ حكم الأشياخ ولثلا يكسر عليهم هجرانهم ، حتى دخل وأرجلان وأناخ بباب مسجد « تاماست »^(١) ووقف على باب المسجد يتوب ويتضرع ويسألهم القبول منه . ولا يزيد عن التوبة وهم يعاتبونه ويلومونه فيقول لهم : تبت ولا أعود آجركم الله . حتى قبلوا منه ورضوا عنه فقال لهم : يا مشيختي لم أفعل شيئاً مما بلغكم .

٨ - كان علماء الإباضية يشددون النكير على التعامل مع القبائل التي لا تتقى الشبهات ، ولا تحرص على مراعاة الحلال في كسب الأموال ، وكانوا ينهون عن التعامل مع ثلاث من قبائل البربر وهي بنو غمرة ، وبنو ورسغان ، وبنو بنجاسن . لأن هذه القبائل لا تتورع عن النهب والغصب ولا تعف عن الغارة والسلب . وكانوا يقولون : إذا حضر إليك طعام وغسلت يديك لتأكل فتبين لك أنه طعام بعضهم فارفع يدك ولا تأكل . وكذلك كان حكمهم على بعض القبائل العربية من بني هلال وبني سليم ممن يسلك نفس المسلك ويحترف نفس الحرفة .

(١) كلمة بربرية معناها الوطى .

٩ - أشيع عن قبيلة مغراوة أشياء أنكرها الأشياخ ، منها تطفيف الكيل وتقديم غير الأكفاء في المعالـح العامة . فاجتمع جمع من المشايخ منهم أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر وعبد السلام بن وزجون ويحيى بن ويجمين ويونس بن أبي الحسن وأمهـالم فـكـموا على مغراوة كلها بالهجران وأخرجوها إلى الخطة . فاجتمعت القبيلة بأسرها عند المشايخ وأعلنت أنها أتت تائبة ففوض الأشياخ الشيخ سمداسن لمناقشتهم فجعل يذكر لهم المنكرات التي تنسب إليهم والتي انتقدها المشايخ عليهم ووضعهم في الخطة من أجلها فأعلنوا توبتهم واستعدادهم لتنفيذ أوامر المشايخ والمحافظة عليها والرجوع إلى السير في المنهج والمحافظة على السيرة التي عرفها الأخيار من أهل الاستقامة ، فقبل الأشياخ منهم وعفوا عنهم وحذروهم الاغترار والانخداع بوسوسة الشيطان .

١٠ - كان علماء الإباضية كثيراً ما يؤفون وفوداً يكلفونهم بزيارة إخوانهم والاطلاع على أحوالهم ومعرفة شئونهم ، فإذا وجدوا ما ينكرونه عندهم أسكروه عليهم لا يخفون لوماً ولا يخشون غير الله . وتآلف وفدفيه العلامة داود بن أبي سهل فلما قدموا على شيوخ أربغ لم يعجبهم حالهم فعابوهم وانتقدوهم ، ووضعهم في الخطة حتى تابوا وعاهدوا الله أن يحافظوا على السيرة النظيفة التي سار عليها المسلمون السابقون من المنهج الإسلامي فقبلوا منهم ورفعوا عنهم ذلك الحمل الثقيل .

١١ - ولعل من أجل ما يروى في هذا الموضوع موقف العلامة الشيخ أبي الحسن على بن خزر الوسياني النفوسى ، فقد ترامت عنه أشاعات إلى الشيخ سعد بن يفاو ، فقدم عليه وعد عليه ثمان خصال بلغه أنه فعلها مما لا يستقيم مع سيرة الفضلاء العدول ، وكان الشيخ الوسياني بريئاً منها جميعاً

فكان كلما ذكر سعد خصلة منها بادر أبو الحسن إلى التوبة والاستغفار والقعود بعدم العودة إليها وإلى ما يفضي المسلمين حتى أتمها فقبل منه ورفع عنه حكم الهجران .

ولما مضى جاء أصدقاء أبي الحسن وأقرباؤه يلومونه أنه لم يدفع عنه ما نسب إليه وهو برىء منه فقال أبو الحسن :

« أعود بالله أن أرد ناصحاً ، ولو رددته لضرني ذلك فيما أعمل .
يقول من يريد نصحي ، نصحه فلان فلم يقبل وأنا لست خيراً منه » .
١٢ - ولعل من أطرف ما يروى في هذا الباب القصة الآتية :

كان أبو مسور يسجاً يدرس في شروس على شيخه العلامة أبي معروف وكان أبو معروف كسائر أهل الجبل في ذلك الحين . يشتغل بالزراعة ، فذهب ذات يوم إلى بعض جناته يعمل ما يعمل الفلاحون - وكان الوقت صيفاً - فتخفف من ثيابه الثقيلة ولم يبق عليه إلا سراويل . ولحق به تلميذه أبو مسور فوجده يشتغل على تلك الحال . ورأى أبو مسور أن هذه الحالة لا تناسب مع شيخه الوقور الذي يعتبر قدوة وإماماً فأخرجه إلى الخطة . ولم يزل الشيخ يتوب بين يدي تلميذه ويتعهد بأنه لن يعود إلى هذه الحالة حتى قبل منه . وأراد أبو مسور أن يستمر في عتاب شيخه فأسكته الشيخ قائلاً : قد كان لك قبل قبول التوبة ، أما بعد قبولها فليس لك أن تلوم . ولعل هذه القصة لا تتم إلا بالصورة المناقضة لها في القصة الآتية :

فقد ذكر أبو العباس الدرجيني في كتابه الطبقات ما يلي :

قال أبو الربيع : جئت لزيارة عبد الله بن الأمير فلم أجده في منزله . فأعلمت أنه في الأندلس فقصدته . فوجدته في جبة صوف ، وقد وضع كساءه ،

وهو يضم أطراف الأندر ، فلما رآنى تبجى إلى كسائه فلبسه فلاقانى ، فصاحته ثم أقبل يعتذر كأنه أساء فى وضع الكساء . وقلت له : وهل فى ذلك من بأس . أليس هو العمل فى الحلال . فقال : نعم ، ولكن أين من يحسن العمل فى الحلال . إنما يحسن ذلك أبو صالح ، فقلت : وكيف كان عمله؟ قل : كان فى أيام الحصاد يحمل الزرع إلى الأندر على ناقة له . فإذا كان وقت صلاة الضحى ، أناخ ناقته وحط عنها حملها ، ثم عقلها وحل إزاره وأخذ فى الصلاة حتى يصلى ما كان يصلى قبل ذلك . ثم يرجع لناقته ، فهكذا العمل فى الحلال . إنما هو ما لم يضر بعمل الآخرة .

أحسب أن الأمثلة السابقة كافية لإيضاح الصورة التى أردنا أن نضعها لذلك المجتمع الذى وضع لنفسه سيرة يحافظ عليها كما يحافظ على بقية ما أوصى به الإسلام . ويحاسب أفراده على صغار الأمور وكبارها بلا هوادة ولا تملط.

وعندما يتأمل القارئ الكريم جميع الصور السابقة التى طبق فيها حكم الهجران على عدد من الأفراد والجماعات يجد أن أكثرها إنما أوقع على ترك الفضائل والمستحسنتات . وليس فيها ما أوقع على ارتكاب الكبائر والمحرمات ، اللهم إلا ما أسند إلى قبيلة مغراوة من تطفيف السكيل .

ويكفى هذا دليلاً على مقدار ما كانوا عليه من خلق ودين . ومن قوة فى الإلزام والالتزام بما جاءت به الشريعة السمحة الغراء ، إما فى نصوصها الثابتة أو ما نقل عن المتقدمين بهم فى خير القرون ، أو ما اتفق عليه المسلمون ورأوه صلاحاً .

الإباضية مع جيرانهم

عندما نطلق كلمة الإباضية في هذه الحلقة فإنما نعني بها إباضية الجزائر في أغلب الأحوال . والإباضية في الجزائر قد عاشوا في مبدأ الأمر منتشرين في كافة القطر الجزائري ثم انحازوا إلى أرض الجنوب واعتصموا بالواحات والصحراء ثم انتهى بهم الأمر إلى أن تقلصوا من جميع الأماكن التي كانوا يعمرونها وانحصروا في وارجلان ووادي ميزاب .

ولا شك أن جيران الإباضية . في الفترات الوسطى إنما كانوا في بعض الجهات دولا وإمارات ، وفي أخرى مغامرين وطلاب حكم ، أو بداية يعيشون على النسق الذي اعتاده بنو هلال وبنو سليم من الغارة والنهب والسلب والقتل ، أما جيرانهم في الفترات الأخيرة حين انحصروا في وارجلان ووادي ميزاب فقد كانوا من أولئك الضاربين في الصحراء ، يعيشون مع الأنعام يتنقلون بها من واد إلى واد .

وعندما كنت أراجع ما لدى من مصادر لاستخراج الصورة التي كان عليها الإباضية بين جيرانهم كنت أعد سؤالا وجهته إلى كل من الشيخين الفاضلين أبي اليقظان إبراهيم وباكلى عبد الرحمن وقد تفضل كل من الشيخين فأجابني عن سؤالي على انفراد .

ويسرني أن أضع أولا بين يدي القارئ الكريم الصورة التي وضعها العلامة الفاضل شيخنا أبو اليقظان . قال رحمه الله : « إن حالة الإباضية مع جيرانهم من المسلمين تختلف باختلاف الميادين التي يعيش هؤلاء وهؤلاء فيها وهي - طبعاً - تبع للظروف السائدة في كل ميدان ، فني ميدان الاقتصاد تمر بين

الفرقتين أزمات فيها كثير من المرارة والتشاكس ربما تؤدي إلى اغتيال ونهب وسلب وسرقة ، بينما جيرانهم - الإباضية - يقفون في سائر الأحوال موقف دفاع . وعند دفع العدوان ينكفون عن الشر حسب مبادئ سلفهم الصالحين الإباضية الأولين ، وفي ميدان الاجتماع كذلك تنشأ أحيانا أزمات حادة قد يثيرها الاستعمار أو بعض المتعصبين ضد الإباضية من الطعن في مذهبهم أو في أفراد منهم بارزين فنشأ عن ذلك ردود فعل هنا أو هناك ربما تتسم بانحراف أقلام المدافعين . وقد اشتدت هذه الأزمات النفسية في أواخر القرن التاسع عشر المسيحي وأوائل القرن العشرين . عندما تكالب الاستعمار على بلاد الإسلام فيسلط المسلمين بعضهم على بعض ، ويقف هو موقف المتفرج الساخر ، وهو يقضى مآربه من الوطن بمنجاة من أبنائه آمنًا أن يكيلوا له ضربة بمثلها . وقد برز في ميدان الدفاع المحامي المدره في هذا الباب السيد الحاج عيسى بن قاسم خريج الشيخ طفيش ، وبرز من الكتب في هذا الميدان كتاب الشيخ طفيش « إن لم تعرف الإباضية يا جزائري » وكتاب « القول المتين » للشيخ قاسم الشماخي وكتاب « المسلك الحمود » للشيخ سعيد التعاريتي الجربي وأمثالها ، لا رد الله ذلك العهد .

هذا ما قاله شيخنا أبو اليقظان حفظه الله ورعاه أما شيخنا باكلى عبد الرحمن فقد صور تلك الحالة صورة مؤلمة بما فيها من واقع مرير ، وقد رد ذلك إلى تمسك الإباضية الشديد بتعاليم الدين وحرصهم عليه وسكناهم في مدن متحضرين أو شبه متحضرين بينما كان جيرانهم على غير ذلك ، فقد كان الجيران في بعض العصور الأولى من بعض الفرق التي تستحل دماء وأموال مخالفيهم فكانوا بذلك لا يعفون عن اختلاس أموال الإباضية ولا عن إراقة دماهم وبعد أن انقرضت تلك الطوائف التي كانت تبيع مآء

وأموال مخالفيها بدين وعقيدة ابتلى الإباضية هناك بجيران يحترفون الغارة ويعيشون على النهب والسلب . فهم لا ينفكون يهجمون على قرى الإباضية الآمنة أو يتعرضون لقوافلهم فتذهب بسبب ذلك أموال وتزهق أرواح . وإلى القارىء الكريم جانباً من الصورة التي وضعها الأديب العالم الفاضل شيخنا باكلى عبد الرحمن عمر حفظه الله ورعاه :

« أما جيرانهم فيجئون حياة بدائية طبيعية ، لا نظام فيها ولا قواعد ، ليس لهم رادع من عقل ، ولا وازع من دين ، فحياتهم على عمومها حياة فوضى ونهب وقطع طريق ، يضاف إلى ذلك ما تأصل فيهم من أحقاد متوارثة وعنصرية عريقة في جهل مطبق قائم ، وكثرة تضر ولا تنفع ، فالإباضية معهم دائماً في خوف ، في عراق ، عرضة لغاراتهم المتعاقبة ، في دفاع ، في مداراة ، وضع لا يطاق ولا تستقيم معه الحياة ، يتحتم على من ابتلى به أن يفكر فيما يلفظه ويتقى به شروره ، فاتخذوا لذلك الوسائل الآتية :

١ - اتخذوا من بعض تلك القبائل أحلافاً يستعينون بهم على دفع اعتداء القبائل الأخرى .

٢ - فتحوا أسواقهم في وجوههم فسهلوا لهم المعاملات التجارية وتبادل المصالح على طرق المقايضة ، يجلبون محصول البادية من أغنام وألبان وسمن وإقط وصوف وشعر ووبر وجلود وحطب وأعشاب وغيرها . فيبادلونهم ثياباً وحبوباً وتموراً وغيرها من حاصلات الحضر .

٣ - يحسنون إلى محاييمهم وضعفائهم بالصدقات المتنوعة ، وتجذب نساؤهم مجالاً لبيع الأطباق والأوطاب والسكسكس وغيرها ، ويأخذن بدلا من ذلك دقيقاً وقمحاً وتمراً وثياباً لهن ولأولادهن .

ويستخدمون أبناءهم همالا في المزارع يضاف إلى ذلك كله أن الإباضية اتخذوا الشتاء موسماً لتوزيع أوقاف المقابر نظراً لعطلة أغلب السكان عن العمل وشدة احتياجهم أيام البرد . فترى جموع الأعراب أخذوا نصيبهم منها . وأن الواحد منهم ليناله أحياناً ما يكفيه قوتاً لكامل أسبوعه . أى حتى يعاد توزيع الصدقات إذا كان مقتصداً .

٤ - يتخذ الإباضية الأغنام يودعونها عندهم فيستفيد منها الطرفان وقد يبعدها المودعة عنده ويدعى موتها أو فقدتها فتبقى له .

٥ - يهادنونهم ويمونونهم ويضيفونهم كلما حلوا بالبلد .

٦ - ظهر بعض الأغنياء الأسخياء في البلد عم إحسانهم من يؤم قراهم من أى عرش كان سيما رؤساؤهم ، فكان لهذا الإحسان العام أثره المحسوس في إزالة السخائم من الصدور وكان بمثابة درع حصين يقي سكان الوطن من غارات بعض القبائل ، وكثيراً ما يجرّ لهم أصدقاء ، وأنصاراً . ولاغرابة فالإحسان يستعبد الإنسان .

هذا جانب من الصورة التي وضعها شيخنا باكلى عبد الرحمن للإباضية وجيرانهم في الجزائر . وهي بلا شك إنما تصور حياة الميزابيين مع جيرانهم في عصور الانحطاط والجهل ، من القرون الثلاثة الأخيرة ، وليست هذه المضابفة مقصورة على الإباضية في الجزائر وإنما هي صورة وجدت في كثير من القرى والمدن المنفردة في الواحات وغيرها والتي يعيش بجوارها بعض القبائل المتبدية التي يغلب عليها الجهل بالإسلام وأهله وأحكامه . فكانت لا تعرف مصادر الرزق الحلال ولا تهمها المصادر التي يأتيها منها المال ، بل إنها لتعد التغلب على قوم آخرين وابتزاز أموالهم من المفاخر التي يمتدح بها الأقوياء .

ولعل مما يوضح فهم أولئك الناس لمصادر الرزق هي القصة التي كان يقصها على أحد الشيوخ المسنين من جيراننا قال :

كان فلان - لشخص سماه - شيخاً هماً تجاوز التسعين ، وهو من بعض القبائل الضاربة حول الجبل وكان شيخاً لقبيلة كذا - وذكر اسم القبيلة - وهو صاحب أغنام وإبل كثيرة ، وكان لا يفتأ يغير على غيره من القبائل الغافلة فيأخذ منهم أموالهم ويضيفها إلى ماله ، فلما كبر وعجز أعلن التوبة وأدى فريضة الحج وجلب معه سبحة أنيقة لا تفارق أصابعه وقد كف عن مباشرة الغارة وإنما كان يجلس في خيمة تنصب له وراء الحى ، وكانت أصابعه لا تكف عن الحركة وشفقاه لا تكف عن التمتمة بالتسبيح وكان له عدد من الأولاد الأقوياء الأشداء رباهم على خلقه وأسلوبه في الحياة فكان الواحد منهم ينطلق فيغير على بعض الأحياء أو المنازل ويقطع منهم الماشية فيأنى بها إلى حبيهم ولا يدخلها إلى ما لهم حتى يعرضها على أبيه فيقف الولد في رهبة ومهابة أمام الشيخ الوقور وهو منصرف عنه إلى التمتمة والتسبيح حتى إذا أتم العدد أو الورد التفت إليه وقال له في صرامة وشدة : من أين أتيت بهذا المال ؟ فيقول الولد : مررت على غنم كان رعاتها نياماً فأخذت منها هذا ولم ينتبهوا . فيقول الشيخ التائب : إنهم باعوا أموالهم بالنوم سألت عنها الإمام فقال هي حلال ، اخلطها بالمال . ثم تتحرك أصابع الشيخ وشفقاه من جديد وينصرف عن الولد الذي أضاف إلى ما لهم الحلال مالا حلالا آخر .

فإذا قال الولد اقتطعتها منهم وهربت فلم يلحقوا بي يمجبه الشيخ : لقد باعوها بالضعف سألت الإمام فقال : هي حلال . وإذا قال الولد وقعت

بينى وبينهم معركة قتلت منهم أو جرحت ثم نجوت بهذا المال ، يجب
الشيخ : إنهم باعوها بالخوف وأنه سأل الإمام فقال هي حلال .

وهكذا كلما ذكر الولد سبباً برره الوالد الثائب وأخبر أنه سأل الإمام
عن ذلك فأجابه بأنه حلال ، ثم أمره بحفظ المال المسروق أو الغصوب .

هذه القصة سواء كانت واقعية أو كانت خيالية تدل على تصور أولئك
الناس لمعنى الحلال والحرام . واستساعتهم للحصول عليه بأى وسيلة ،
والرجل الثائب منهم والذي لا ينفك عن التسبيح ، وذكر الله لا يرى بأساً
أن يأكل مما يحىء عن طريق الغصب لأن أصحابه في نظره قد باعوه بالعجز
أو الكسل أو الخوف ، ولا مما يحىء عن طريق السرقة لأن أصحابه في نظره
باعوه بالانوم أو بالغفلة وعدم الاعتناء ، أو بغير ذلك من الأسباب .

واند كنت أستعبد أن يقع مثل ذلك من أناس ينتمون إلى الإسلام
ويفخرون بأنهم من أمة محمد عليه الصلاة والسلام ، وتنفرج شفاهم عن ذكر
الله في كل مقام ، ولكن الزمن برهن لى على أنه قد يقع ذلك وأكثر من
ذلك . وأن الإحساس الدينى بإثم الجريمة قد يضعف حتى يتجاوز الناس
فيه حد التقارفة إلى حد الاستحلال ، وحد الاستحلال إلى حد الافتخار
والتمدح والإعجاب .

وقد يبدأ الأمر بالتجاوز عن أشياء يخيّل لمرتكبها أنها بسيطة وزبما
موهت بشبه يقبلها التفكير الساذج والإيمان السطحى ، ثم لا تنقأ النفوس
تعتادها حتى تصبح وسيلة من وسائل الحياة يعسر الاستغناء عنها .

والطريقة التي ذكرتها آنفاً كانت وسيلة من وسائل الحياة في البادية

في عهود الجاهلية وسواء في ذلك بلاد العرب وبلاد البربر وغيرها من البلدان التي تعيش في نفس الظروف فلما جاء الإسلام توقفت الأيدي المؤمنة عن التصرف في أموال الناس ودماهم إلا بحتمها ، ثم جعل للحقوق حدوداً قائمة بينة واضحة . وقف الناس عندها والتزموها .

وكان وقوف بعض الأيدي عن القيام بأعمال الظلم إنما هو نتيجة لخوفها من العقاب الرادع الذي جعله الإسلام جزاء للمعتدين ، وكانت بعض الأيدي تمن إلى ما نشأت عليه وتعارفته وافتخرت به في جاهليتها ، فلما انحرف الحكم عن إقامة دين الله وعطلوا حدود الله من جهة ثم لإهم هم أنفسهم استباحوا أموال الناس ودماهم وأعراضهم من جهة أخرى . ثم قامت دعوات باسم الدين أو المذهب تبيح دماء وأموال مخالفيها وأحياناً حتى أعراضهم ، سارعت تلك الأيدي التي غلبها الخوف من تطبيق الإسلام إلى تطبيق ما عرفته وعادت إلى ما اعتادت عليه من عيشة الجاهلية . بدعوى الانتقام أو عقوبة المخالفين في الرأي أو في المذهب ثم لم يلبث هذا التعليل واعتباره وسيلة التحليل أن اختفى وأصبح القيام بالغارة وسلب المال وسيلة من وسائل العيش كما كان في عهود الجاهلية . وأصبحت أغلب الواحات والمدن المتناثرة والقرى الواقعة في الأطراف والأحياء الضعيفة أو قليلة العدد هي مقصد المهاجمين ومنتجع الغاصبين المعتدين .

وقد أخذت وارجلان وميزاب حظيها الوافرين من هذه المصائب وفي هذه العهود الأخيرة اختفت هذه الظواهر وساد الأمن وأصبح المسلمون من البداءة يحسون بالرباط الأخوي الذي يربطهم ببقية المسلمين وعرف الناس أجمعون أن تلك الأحوال التي كنا نصفها أحوال لا يرضى عنها دين ولا قانون ولا خلق ولا ضمير ولا يستسيغها عقل ولا منطق وإنما هي نزوة من نزوات الشهوة والمباقة العمياء تتحركان في غفلة من العقل والضمير .

العلاقة بين الإباضية في المغرب الإسلامي

من الأسئلة التي وجهتها إلى الشيخين الفاضلين أبي اليقظان وباكي
السؤال الآتي :

ما هي علاقة إباضية الجزائر بإخوانهم في نفوسة وجربة ، فاتقفا في معنى
الجواب وإن اختلفا في أسلوب العرض وقد رأيت إفادة للقارئ الكريم
أن أنقل أهم ما ورد في الرسالتين . قال أستاذنا الشيخ أبو اليقظان
رحمه الله :

« إن العلاقة بينهم كانت طيبة للغاية القصوى بعد حمارة الوادي فبمجرد
استقرارهم في الوادي بقراهم الحسن ، توافدت إليهم وفود - كما أشرنا إليهم
آنفا - من نفوسة ، وجربة ، ووارجلان ، رجال من أهل العلم والرأي والصلاح
والتقوى لأداء رسالة العلم والدين والخلق والمصاهرة فكانت عائلات كبيرة
تنسب إلى الآن - لآل نالوت - مثلاً في غارادية ، أو آل هارون فيها ، وآل
الطرميسى كآل تيريشين في يزقن ، أو آل هارون الجلالى في العطف ، وآل
الشيخ همى سعيد بن على من جربة في غارداية وآل ثمينة وآل امتياز في يزقن
من ورقلة ، وآل ويرو بليكة بجربة ، كما استعرفه قريباً إن شاء الله . وكما
كانت نفوسة وآل بارون بالأخص بجربة . وكان علماءهم في هذه البلاد
يتبادلون الزيارات ومواكب تلاميذهم يتوافدون لاغتراف العلم والمعرفة
فبعضهم بالمراسلات والقصائد والخطب العلمية والأدبية ، وما كان بينهم
وبين الشيخ عبد الله البارونى وقطب الأئمة والشيخ سليمان البارونى شائع
ذائع كما سجلته دواوينهم وزياراتهم وآخرها زيارة قطب الأئمة الشيخ طغيش

والشيخ الحاج قاسم بن بالحاج لجبل نفوسة في عهد قبيل الأخير أضف إلى ذلك زيارات الشيخ سليمان باشا الباروني مراراً للراوى بعد تخرجه مع زملائه عن قطب الأئمة الشيخ طميش .

ولانس زيارة الإمام محمد بن زكرياء الباروني وتعلمه عن الشيخ أبي إسماعيل مهدي بن إسماعيل المليكي في غضون ٩٦١ هـ ، كما ذكر عن نفسه في سير الشماخي رحمه الله وكان الإمام أبو زكرياء أثناء ذلك عضواً من بين أعضاء مجلس عمى سعيد كما تشهد بذلك اتفاقات مجلسهم الشهيرة بالموانع العامة .

وبالجملة كانت الإباضية في الشمال الإفريقي عائلة واحدة متشابكة الأوشاج مترابطة الأوصال .

كما كانت الحال في الترابط والانسجام بين جربة ونفوسة تعلقاً وثقافة وتزاوراً ومصاهرة كما بين الباروني وجربة من جهة وبين آل مليكة في ميزاب وجربة من جهة أخرى » .

وبعد سطور يقول :

« وأما ما كان من جهة التبادل الثقافي بين الإباضية في شمال أفريقيا فحدث عن البحر ولا حرج ناهيك به قوة ومقانة في علاقة الثقافة بين هذه الأقطار ما كان في وادي ميزاب من اعتماده على كتب نفوسة العلمية الدينية في مختلف الطبقات ، فجزائريهم مملوءة بكتب نفوسة ومجالات أعلامهم في كتب نفوسة وحلق تدرسيهم من مؤلفات جربة ونفوسة ، وقرى ميزاب جلها حافلة بدور الغرباء من تلامذة جربة ونفوسة وعليها أوقاف مؤبدة لتغذية هذه الدورة سائر العصور . فهي تؤدي مهماتها على الوجه الأكمل ، ونجد أن جربة ونفوسة تذكر فتشكر ، كما حدثنا تاريخ السلف الماجد بذلك

ففي الخمسين الثانية من القرن العاشر قيل إن أهل وادي ميزاب رأوا أن البلاد إلى فناء واضمحلال إذا لم تتدارك بعلماء فطاحل من إخوانهم الإباضية من جربة ونفوسة فأرسلوا يستغيثون إلى إخوانهم أن يتداركوا أمرهم برجال من أولى العلم الغزير والدين فأرسلوا إليهم من هؤلاء ثلاثة :

الشيخ عمى سعيد بن علي الخيري الجربي من جربة إلى غارداية .

والشيخ بالحاج محمد بن سعيد ذلك المصلح الكبير إلى يزقن من نفوسة .

والشيخ دحمان من نفوسة إلى بنورة فقام هؤلاء بمهماتهم في نشر العلم والدين واخلق الكريم والإصلاح الديني العام بما أشاع النور والهدى في الوادي وأزاح ظلمات الجهل والفتن .

وإذا كان في العهد الأخير هناك فترة فتور فإنما يرجع أمرها للاستعمار القاسم فإنه لم يفتأ يضع حواجز بينهم وبين إخوانهم المسلمين . كما وضع أمثال ذلك بين الإخوة المسلمين الأشقاء ، في عموم الشمال الإفريقي كله جميعاً .
فها هو ذا قد ارتفع كابوس الاستعمار بفضل ضربات المجاهدين - من ليبيا إلى المغرب الأقصى - فأصبحنا والحمد لله نزاور بالسيارات .

ثم ذكر بعد ذلك بعض المظاهر التي تدل على هذا الترابط يمكن أن نلخصها في النقاط الآتية :

١ - تفرغ بعض الأسر من جهة إلى أخرى وقيادتها لحركة التعليم والإصلاح كما وقع من أسرة أبي عبد الله الفوسطاني في مناطق الإباضية بالجزائر ، وكما وقع من الأسرة البارونية في جربة ، وكما وقع من أسرة آل ويرو من مليكة في جربة .

٢ - نجدة نفوسة لجربة في محنتها بغزو الإسبان سنة ٩١٥ .

٣ - خدمة القطب رحمه الله لمؤلفات نفوسة وجربة والاستفادة منها وتنسيقها وتنظيمها ثم تقديمه لعدد كبير من المؤلفات إضافة منها الإباضية هموماً واشتغال حلقته الدراسية على أعداد من أبناء نفوسة وجربة تخرج منهم أعلام أمثال سليمان الباروني وعمر العوام .

٤ - تعاون رجال الأقطار الثلاثة نفوسة وجربة وميزاب بما فيها وارقلة في تبادل الثقافة واستنساخ المخطوطات والتعاون على طبع ونشر الكتب العلمية والدينية .

هذا أهم ما في جواب شيخنا أبي اليقظان رحمه الله وقد تلخصت بإيجاز شديد ما عبر عنه بمظاهر العلاقة أما أستاذنا الفاضل الشيخ باكلي عبد الرحمن حفظه الله فقد قال :

« الحق أن العلاقة بين نفوسة وجربة وبين ميزاب كانت متينة على بحر أدوار التاريخ ، فلم تنفك الوفود مترددة ذاهبة آتية من هنا وهناك إلى أيامنا ، وإن كانت قبل أنشط منها الآن ، والمراسلة لم تفتأ موصولة الحبل - وكلم المراسلة من أثر حسن في تمتين العلاقات وتلفيح الأفكار وحفظ التاريخ .

ولاغرو فالقلم أحد اللسانين - بل نجد كثيراً يهاجرون من نفوسة ومن جربة ويستقرون نهائياً في ميزاب - ووارجلان قصد إحياء معالم الدين ونشر مبادئ المذهب لاسيما في فترات التاريخ التي تعم فيها الجهالة ، ويخاف فيها على أهله الانحراف وراء الدعايات المذهبية (غير الإباضية الوهابية) التي ظل علماءها ينشرونها وتسندهم في دعوتهم السلطة الزمنية بل تقهر لهم أحياناً من يظهر عليهم بالحجة قهراً .

وكذلك نجد أشخاصاً يسافرون من ميزاب إلى نفوسة وإلى جربة طلباً للعلم حتى إذا امتلأ وطابهم وتأهلوا لقيادة الأمة عادوا إلى موطنهم وتصدوا لإحيائه وإصلاحه كما هو شأن الشيخ يحيى بن صالح الذى ابتدأت منه النهضة العلمية الحديثة بميزاب . وغيره كثيرين وهناك نسجل ملاحظة جديرة بالاعتبار : تلك هى أننا نرى أهل نفوسة وجربة يهاجرون إلى ميزاب ويقطنونه بخلاف أهل ميزاب يسافرون إلى نفوسة وجربة ولا يستقرون فيها ، بل يأخذون حاجتهم من العلم ثم يعودون . لذلك نجد عائلات أصلها من ميزاب أصلها من نفوسة وجربة ولا نجد فى نفوسة وجربة عائلات أصلها من ميزاب على ما أعلم^(١) ، وكأن نفوسة - وجربة بالتبعية - الغنية بعلمائها ترى انحصار مسئولية المحافظة على المذهب الإباضى فيها ، فكانت لذلك أكثر تضحية وأشد غيرة عليه . ولا جرم فنفوسة لم تنزل الحامية الحاضنة للمذهب الإباضى والمجددة لما اندرس من معالمه لما ظهر فيها من أبطال صناديد وعلماء فطاحل عبر القرون .

والحق أنهم هموا جهدهم لتوحيد التعليم بينهم وقد تبنت نفوسة المسألة فكنت ترى الأشياخ منها يرحلون تارة إلى جربة وأخرى إلى وارجلان

(١) من اليزابيين الذين استقروا بجربة الشيخ يوسف المصعبى ومن استقر فى جبل نفوسة أخيراً موسى بن أحمد الفارداوى وقد اشتهر بين الناس باسم الشيخ محمد اليزابى وتوفى فى زوارة ودفن بها . ومنهم عيسى بن حمو الواهج وقد تزوج من الرحيات وله فيها أولاد وبنات وتوفى بها كما أخبرنى أخيراً أهل المنطقة . وفى بعض فواحي الجبل أملاك تنسب إلى اليزابيين فيقال لها زيتونة اليزابى ونخلة اليزابى وما أشبه ذلك . ولما سألت بعض من توجد بجوزتهم تلك الأملاك لم يعرفوا على التحقيق شيئاً وقالوا ربما كانت لأناس من ميزاب أو أن أصلنا من هناك .

وهنا قبر فى إحدى غاباتنا يسمى (قبر اليزابى) ولا يعرف شيئاً فرق ذلك ، وهناك قصص تروى عن ميزابيين كانوا فى بعض المناطق ولكنها خرجت الآن عن نطاق التاريخ إلى نطاق القصص إذا لم يظهر ما يوضح معالمها .

وأحياناً إلى ميزاب كما قلنا سابقاً ثم نرى في حالات أخرى تلاميذ من مواطن الإباضية المختلفة تجتمع على عالم واحد ويتلقون ثقافة واحدة كما فعل أبو زكرياء يحيى بن أبي زكرياء أحد تلاميذ الشيخ أبي مساكين هاجر بن علي الشماخي فقد كان ساد في زمانه واجتمع عليه طلبه من نفوسة وجربة ودرم ويفرن والمغرب فكان همزة وصل بين الأصحاب هنا وهناك:

وكما هو شأن العلماء الثلاثة الذين وفدوا من جربة إنجاداً لميزاب الذي يحتاج مجتمعه وقتئذ إلى تثقيف وإصلاح . وقد تأتي لهم ذلك فكانت لحركتهم ثمرة مباركة لا تزال نتمتع بها إلى يومنا^(١) .

ومعلوم أن البربر يخضعون غالباً وينقادون إلى من يرد عليهم من الخارج أكثر مما يطاوعون من الداخل . والعلماء الثلاثة هم :
الشيخ أبو عثمان سعيد بن علي الخيري الجربي ، والشيخ بالحاج والشيخ دحمان فكان الأول من نصيب غارداية والثاني من نصيب يسجن ، والثالث من نصيب بنورة .

ولما رق جبل العلم هنالك توافدت طلبته منها على القطب طقيش ثم على تلاميذه بعده ، وأخيراً اختلقت بعثات على رئيس النهضة العلمية الحديثة ، الشيخ بيوض حفظه الله ولا تزال .

هذا ما قاله الشيخان إجابة عن السؤال السابق وفيه مقع . بقي لي أن

(١) هذا الكلام من شيخنا باسكي يؤيد ما أشرت إليه في بعض الفصول من أن حركة النهضة أو اليقظة أو الانطلاقة لهذا الشعب تبدأ من القرن التاسع وتستمر متواصلة . ترابطة وإن كان يتاح لها من حين إلى حين يد قوية تدفعها إلى الأمام في ثبات وسرعة فتكون حركتها أوضح وأظهر .

أشير أن حركة المد والجزر العلمية والإصلاحية بين هذه الأطراف كانت مستمرة متواصلة أحياناً يزدهر العلم فيها جميعاً ويسودها الهدوء والاستقرار فتجربى بينهم زيارات الودة والإخوة وصلة الأرحام وأحياناً تضيق الحياة في بعضها - في بعض جوانبها - فيكون الغوث لها من باقياها وفي جميع الأحوال كانت جربة - بموقعها المتوسط - قلب الحركة وقد حظيت نفوسة في هذا العصر بزيارات متعددة فردية وجماعية كان أهمها على الإطلاق زيارات الإمام أبي اسحاق وزيارة الإمام بيوض ولا تزال أصداء تلك الزيارتين ترن في الأسماع .

مواقف العزابة في كفاح الباطل

كفاح الباطل في شتى صورته ومظاهره وألوانه : كفاح الرذيلة ،
كفاح الظلم ، كفاح البدعة .

كان هذا الموضوع من المواضيع التي أردت أن أكتب فيها لأنه يعطى
صورة من الصور التي أحرص على تقديمها إلى القارئ الكريم في هذا
الكتاب ، ورأيت أن أستعين بالأستاذ الفاضل شيخنا باكلى عبد الرحمن
فوجهت إليه سؤالاً في الموضوع ، وقد أتاني الرد فأتى على جميع ما في نفسي
وزاد عليه ، ولذلك فقد رأيت أن أكتبه بنصه وأكتفي به في القارئ
الكريم ما قاله شيخنا حفظه الله ورعاه وأمدّه بالهناء والعافية :

« حياة العزابة كلها كفاح ونضال وخدمة للجانب الروحي في الأمة :
تصحيح عقيدتها ، وثقيفها في دينها ، وبعثها على صالح العمل ، وصرفها عن
فاسده وعن الانغماس في الرذائل والموبقات ، والقيام عنها بعدة فروض
كفائية لو تركت مرسلة ومهملة لاختل نظام الأمة وهلكت بتضييعها .
أجل إنهم ينتظمون إلى إرشاد الأمة للصالح العام ودعوتها إلى المحافظة على
آدابها العامة ومقاومة الظلم والرذيلة والبدعة في شتى صورها وأشكالها ،
لا تسكاد تعدو هذه الميادين يوماً . وتقوم بكل ذلك تطوعاً ، وابتغاء ما عند
الله : لا يريدون جزاء ولا شكوراً ، ولا يتقاضون مرتباً من حكومة أو
هيئة أو مؤسسة ، ولقد امتحن معدنهم في هذا الميدان فأبان عن ذهب خالص ،
لا زيف فيه ولا دغل ، وأعرّبوا عن تملقهم بما عند الله وما عند الله
خير وأبقى .

وفعلا قدمت الحكومة - وما بالعهد من قدم - لبعض أئمة المساجد بميزاب مبلغاً معتبراً من شأنه أن يستهوى العابد الزاهد فرفضه قائلاً : « إما أن تتركوني أقوم بهذا الواجب ابتغاء ما عند الله ، وإما أن اعتزل إمامة الصلاة ولا منزلة بين المنزلتين » . ولهذا السر تركت الحكومة الجزائرية أسرار أئمة المساجد الإباضيين في ميزاب حراً ، ولم تعتبرهم من سلك موظفي الأوقاف كما هو شأن غيرهم من الأئمة في سائر القطر الجزائري .

والحق أن الضلع الأكبر في بقاء الجامعة الإباضية في ميزاب محتفظة بطابعها الحقيقي : طابع الدين والخلق الكريم المتين يرجع الفضل فيه إلى هذه المؤسسة الجليلة فهي العقال الذي قيد الأمة عن الانحراف وراء تيار التحلل والتفسخ ، وعن الانحراف عن سواء السبيل ، والحاجز الذي أوقف الجماهير بعيداً عن الاسترسال وراء الشهوات والحظوظ النفسية .

فكم نال أفرادها في سبيل الاضطلاع بحملها أذى كثير . سجن وتغريم وتعذيب وفتنة وإذلال وإهانة . فلم يصددهم شيء من ذلك عن أداء رسالتهم نصرة للدين ونصحاً لله ولرسوله ﷺ فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين (١) .

فإذا لم تسكن نمة حياة أحلى لدى القائمين بدين الله من مصارعة الباطل (ويأما أحلى الشقاء في سبيل تنغيص الظالمين) وإذا كان لا يهنأ بال القاسطين ما رأوا الحق يشق طريقه نحو هدفه ، وأنصاره يزدادون في إقراره ونشره ثباتاً ونشاطاً .

فإن حياة العزابة لا تكون إلا حياة صراع مستمر ضد الباطل في شتى

صوره وألوانه، وإن تاريخها ليطفح بقضايا كانت ميداناً للصراع العنيف بين الحق والباطل نذكر منها على سبيل النموذج المسائل الآتية :

١ - (فى كفاح البدع) مسألة البناء على القبور والتوسل بها ، مسألة إلغاء ميراث المرأة^(١) على عادة الجاهلية وحسبما يجرى به العمل الآن فى بعض الجهات ، عدم احتجاب المرأة عن حميها .

أثارت العزابة ضدها حملات عنيفة اضطربت لها أركان البلاد وعصفت عواصفها مدة طويلة وظل العزابة يبينون فيها وجه الحق ويدعون إلى ترك مألوف العادات التى تتصادم مع الشرع وإن استصعبت النفوس مفارقتها فإن فى الصبر على ما يكرهون خيراً كثيراً ، ثم ما فتئوا يبشرون وينذرون ويقرعون ويربتون حتى فهم الناس وجه الحق وعاد إليهم صوابهم فانتصر الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً .

٢ - (فى كفاح الرذيلة) تطهير المدن من أعشاش الخيلاء وحرارة البغاء التى ركزتها قوة الظلم والكفر بدعاوى ما أنزل الله بها من سلطان فصمد المسجد بصك الأسماع بزواجره وقوارعه ، وبرزل القلوب . بحججه وبراهينه ، ويوقظ العقل بحكمته وإقناعه ، وما عثم مع السلطة الزمنية فى زعزع ورخاء ، وجذب وإرخاء ، ووعد ووعيد ، وترقيق وتهديد ، حتى اجتمت شجرة الفساد الخبيثة من فوق الأرض ما لها من قرار ، واخفتى شبح تلك المناظر الفظيعة عن العيون ، وانغلق باب حرية الفساد والتهتك فى وجوه الفساق الشهوانيين الذين لا يبالون بانتشار الرذيلة وفساد الأجيال الصاعدة - وكذلك مسألة الخمر بيعاً وشرباً ومسألة القمار وانتشار حريقه .

(١) راجع ما كتبه عنها فى فصل (لا يا اخى) .

فقد كانت مقاومة المسجد لهذه الآفات الاجتماعية وردها الراتب . وكانت له صولات وجولات في موضوعها في حين لآخر لدى المناسبات .

٣ - (وفي كفاح الظلم) مسألة التجنيد الإجبارى الذى دامت حربها أكثر من جيل مع الحكومة الفرنسية من سنة ١٩١٢ إلى أن ألغتها أيام الحرب العالمية نهائياً أى حوالى سنة ١٩٤٣ ، مسألة المكس ، مسألة استصفاء مقبرة الميزابيين القديمة بقسطنطينية ومحاولة تحويلها إلى طريق عامة إلى غير ذلك . ولعل أعطيك صورة صادقة - لها كل مغزاها - إذا شرحت لك موقفاً من مواقفها البطولية وأساليب المقاومة التى اتخذتها لإزاء قضية من قضايا الرذيلة وقعت في بعض مدن ميزاب فحاولت سلطة الظلم انتهاز فرصتها لتتخذها ذريعة للنيل من هذه المؤسسة الجميلة التى وقفت كالشجرة فى حلقها والتحكيل بالقايمين بها قهلاً للروح الدينية فى الأمة فلتقت فيها مصرعها بعد حرب دامت ما يقرب من خمس سنوات ، ومن صارع الحق صرع » .

ويذكر بعد هذا خلاصة لتلك القضية التى أشار إليها فى آخرها يقول : « تنبيه : لقد أفردت القضية برسالة خاصة تبلغ صفحاتها نحو مائة ، شرحت فيها أدوارها وكل ما يتصل بها . إنها لتشتمل على معلومات قيمة لا يستغنى عنها طالب الحقيقة تعطيه صورة رائعة للمسجد وسلطانته فى ميزاب » .

هذا ما أجابنى به الأستاذ الفاضل شيخنا باكلى عبد الرحمن وقد رأيت أن أنقله للقارىء الكريم بنصه ما عدا القضية الأخيرة التى استشهد بها فقد فضلت أن أثير شوق القارىء إليها ، وأرجو الله تبارك وتعالى أن ييسر لأستاذنا الكبير الطرق ويتيح له نشر تلك الرسالة القيمة أو القصة الشيقة أو القضية الهامة . ليجدها القارىء كاملة غير ممتورة ، أو لعله يتيح لدار الدعوة بنالوت شرف نشرها وهو مشكور فى الحاليتين .

فَنِّ مَتَوَالِيَةٍ

عاشت منطقة الواحات المتكونة من بلاد أريغ ووارجلان وسوف وقصطيلية فترة طويلة تعاني من الفتن المتوالية التي ما تخلص من إحداها حتى نشور أخرى ، وكانت الهجمات لا تنفك توجه اليوم هنا وغداً هناك ، وكانت الطرق تكاد تكون مقطوعة ، والقوافل التي تربط بين البلاد اقتصادياً بأنواع البضائع تكاد تعوقف . وكتب التاريخ تذكراً عرضاً أنباء الوقائع التي كانت تقع هنا أو هناك بإيجاز حيناً وبإسهاب حيناً آخر .

وفي هذا الفصل سوف نذكر أمثلة من تلك الفتن والغارات والوقائع المؤلمة ليرى القارئ الكريم صورة واضحة لما كانت تعانيه تلك البلاد من محن في قرون طويلة ومدى الكفاح الذي كالحته من أجل البقاء .

* جاء في طبقات الدرجيني في ترجمة أبي العباس أحمد بن محمد بن بكر ما يلي :

« وذكر أنه وقعت فتنة ببلاد أريغ سنة إحدى وسبعين وأربعمائة » .
وكانت نتيجة هذه الفتنة أن فر العلماء من تلك البلاد فالتجأ أبو العباس إلى أجلو والتجأ أخوه أبو يعقوب يوسف إلى وارجلان .

* ويقص علينا أبو العباس الشماخي أخبار فتنة من تلك الفتن فيقول :
« وذكر أن عنان بن دليم الطرفي نزل بأريغ فحشد عليه أبو العباس مغراوة فردوه ثم نزل ثمانية فحشدهم فردوه وهزموه ، وقد قتل من بني بطوفت ستين رجلاً وحمل رؤوسهم فلما هزمهم استنقذ الرؤوس ودفنها ، وأكثر من

معه بنو ورتيزلن ، قيل لهم قرب ألف . وجمع أيضاً جمعاً عظيماً وأراد غدر الشيخ وتبليغته ، وأخفى سيره فلم يشعر بهم الشيخ حتى قربوا فوق إليه الخبر مع جاسوس . ومرى ليلاً وقصد أبا العباس فلم يجده وهدم قصره . وجمع عليه أبو العباس بنى ورتيزلن وأهل رأس الوادى فقال له فلفل بن فلنار : هذا رجل غدار فإياك أن تخرج إليه إذا طلب رؤيتك ، وقال لقمان لابنه : إياك أن تحالف ناصحاً ولا تجاور فاضحاً ولا تعامل كاشحاً . فطلب عنان رؤية أبي العباس فمنعه الناس أن يخرج إليه . قال الشيخ أبو عبد الله إن أبى من الرجوع فاقتلوه لأن قتل الواحد خير من قتل الجميع . وأفسد عنان النخيل وأفسد الغابة وذلك عام اثنتين وخمسمائة ثم لحقه بعد أن ارتحل ثلاثمائة وثلاثة عشر من بنى ورتيزلن ومعهم غيرهم فهزموه واستردوا ما قدروا عليه وقتلوا من قتلوا .

* ويقص علينا أبو العباس الدرجيني أخبار غارة من الغارات الكثيرة التي كانت تقع في تلك البلاد . قال الدرجيني وهو يتحدث عن ما كسن ابن الخير :

« وذكر أبو الربيع قال : أغارت غارة من بنى توجين على رأس وادى أربغ فسأقت غنمهم فانبهم عدة من المشائخ منهم ما كسن وأبو العباس الوليلي وعيسى بن يرصوكسن وعبد الله الدمري فلم يلحقوا بهم إلا عند أحيائهم فلبثوا مدة يستردون حتى استردوا الغنم بجملتها ، وما استردوها إلا وقد نفدت أزوادهم أو كادت . قيل وكان فيهم عجوز مرابطة وقد اطلعت على حال المشائخ وعلمت أن أزوادهم قد نفدت وأن جلعام قومها لا يروق أكله تورعاً فرغبت إليهم أن تضع لهم طعاماً ولما وحان وقت صلاة

المغرب وصلوا جاءتهم العجوز تسألهم عن مسائلها . وبعد أسطر يقول
الدرجيني : « حتى سألتهم ما تقولون في قوسى هؤلاء إذا أغاروا غارة وغنموا
وأخذوا أعطوني زكاة ما أخذوا فهل على من ذلك حرج . فقالوا لها : وأنت
إذن على هذه الحالة المذمومة يا عجوز . فانصرفوا ولم يذوقوا طعامها . »

* ويقص علينا الدرجيني أيضاً أحداث قصة مؤلمة فيقول :

« وذكر أن قافلة خرجت من وارجلان من أهل أرينغ متوجهين إلى
أرينغ فلما وصلوا إلى (ان ونودى) يعنى بئراً فازدحموا عليها يستقون حتى
اقتتلوا » ويسهب أبو العباس في ذكر أحداث الواقعة وما نتج عنها من
عواقب مؤلمة .

* ويقص علينا الدرجيني بعض أحداث فتنة الميورقي في ترجمة
أبي موسى عيسى بن يرصوكسن فيقول :

« ولقد حدثني رجل يعرف بابن القابلة ورَدَ توزر سنة ثلاثة وثلاثين
وستمئة وكتب في خيل يحيى بن إسحاق الميورقي فتوجه بعسكره من أرينغ
إلى وارجلان أو قال من وارجلان إلى أرينغ وهذا أقرب إلى الصحة فنزل
(ثالا عيسى) وأراد الأجناد والأعراب أن يطلقوا خيولهم في الزرع
فأنذرهم بعض من معهم ممن عرف قديماً حال الموضع وأهله وحذرهم وقال
لهم : هذا موضع منسوب إلى رجال عزابة صلحاء مساكين يتقى عقوقهم فأياكم
وإياهم فن الجند من تنحى ومنهم من توقف . وقال لهم عرو كاتب
الميورقي : الكلام هذا سخيف : أمنع فرسى هذا الخصب ، قل لهم فليدعوا
على فرسى . وأطلقها في الزرع ترعى واقتدى به غيره في هذا الضلال
والاستخفاف قال ابن القابلة : فوالله ما رفع من هناك إلا رسنها وسرجها .

ومات معها سبع وعشرون فرساً . وليس هذا من باب كرامات الأولياء
ولكنه من باب استجابة دعوة المظلوم .

« ويذكر الدرجيني في ترجمة عبود بن منار المزاني بعض تلك
الفتن فيقول :

« فبعد ذلك بأيام أغارت عليه غارة للذكار خرج بها رجل فيهم يعرف
بمنصور بن ملديك فلقوه بمنزله من زريق فدافع عبود عن نفسه وماله وأهله
حتى قتل شهيداً رحمة الله عليه » .

« وفي ترجمة أبي محمد اللقي ذكر أبو العباس الدرجيني فتنة من تلك
الفتن التي تنشب بسبب الجهل والعصبية البغيضة من الطرفين قال : « وكان
أبو محمد بحلقة في (تين زارين) لم تزل بها الحلقة قائمة قد رتبت على أبي محمد
لا يخشون أحداً ولا يمسهم أحد . حتى جعل الله لخروجها سيكاً . وسبب ذلك
فيما كان أبو الربيع ساقه من هذه الحكاية قال :

« كان تلامذة أبي الربيع سليمان بن يخلف من أهل سوف وأريغ
ووارجلان والزاب وقصطيلية قد حلفوا على أبي محمد (بتين زارين) وكانت
الفتنة حينئذ بين تكسينت وهيتهم ومالكيتهم فالوهبية منهم قبيلة يقال
لها بنو يروتن ، والمالكية من عداهم من قبائل بني تكسينت فكانت
الفتنة والعزابة منها في أمان لا يخافون مكروهاً ولا يسمعون ، فقدّر بأن
حضر بنو يروتن فرقى رجل جاهل ممن شملته الحلقة يقال له توزين من أهل
فنظنار فقال لأهل العسكر الحاشدين : اسكتوا وانصتوا . ففعلوا فقال لهم :
فلان وفلان وفلان حتى عدد جماعة من أمتهم ، عليهم اللعنة وسوء الدار
فلما سمعوا منه ذلك تركوا القتال واستدعوا شيخاً لهم يقال له مطهره بن

ففاض فأخبروه الخبر . فقال : أسمعتم ذلك حقاً . قالوا : نعم . قال لهم : احرقوا
واسبوا واقتلوا ، فلما سمع العزابة ذلك خرجوا ليلاً وتفرقوا إلى اليوم .

وذكرنا في كتابنا هذا ما كان عليه حالهم في ذلك اليوم .
* ويقص علينا أبو العباس الشماخي في ترجمة أبي عبد الله محمد بن الخليل
أحدى تلك النكبات فيقول :
وقد سمعنا من الشيخ أبي عبد الله عليه السلام ما رواه عن أبيه عن جده عن
الشيخ أبي عبد الله عليه السلام ما رواه عن أبيه عن جده عن أبيه عن جده عن أبيه عن جده

« وذكر الشيخ أظن أبا الربيع ، أن عدو الله حماد بن بلقين لما نزل على
كدية مفراوة بجنوده - وكانت كثيرة ، وقف رجل صباحاً ليراها وهي
تمر عليه متصلة إلى صلاة الظهر من كثرة عددهم فحاصر أهلها وذكر له أن
الخيل وأخويه رجال صالحون حجاج فناداهم مناديه أن اخرجوا بالأمان ،
ونادى الضمقاء ومن لا استطاعة له ، فلم يخرج أحد فقاتلهم محاصراً نحو شهر
فما أتاهم مدد فأخذهم قهراً إلا برجاً فيه عبد الله ومسهود أبناء المنصور
الورزماری فقاتلا أياماً المعسكر بأجمعه فقتل مسعود وأضربت النار إلى البرج
فرمى عبد الله بنفسه خارجاً فمضى وامتنع ونجاه الله منهم ، وأخذ حماد ابنه
وحمله طمعاً أن يكون كأبيه شجاعة ونجدة وجرأة » .

هذه نماذج من الفتن المتوالية المتعاقبة التي كانت تقع هناك ، بل وفي
غيرها من بلدان الواحات فكان السكان لا يهناون بعيش ، ولا ينعمون
بسلام ولا يطمئنون إلى أحد ولا إلى مكان بل إن بعضهم ما يكاد يستقر
في مكان حتى تحدث أحداث تدفعه إلى الهجرة والفرار فإذا قصد مكاناً
لحقته الفتن والأحداث مرة أخرى . وكثيراً ما كانت تلك الفتن
والأحداث تسبب في تشتت أسرة وتفریق عائلة واحدة إلى جهات
(٢١ - الإباضية)

مخافة فيقصد بعض دون وعى ولا تخطيط مكانا ويقصد الآخرون أيضا بدون وعى ولا تخطيط ولا اتفاق أمكنة أخرى ، وقد سبق أن أشرنا إلى بعض الفتن والحروب التي وقعت في وادي ميزاب أو في وارجلان .

فقدت بذلك أسر ، وقطعت وشائج أرحام . وضاعت نفوس كريمة بين الحل والترحال وهي تلتمس مأوى آمنا تستكن فيه وموطنا يسوده السلام لتستقر بين ربوعه ومفانيه .

فقدت بذلك أسر ، وقطعت وشائج أرحام . وضاعت نفوس كريمة بين الحل والترحال وهي تلتمس مأوى آمنا تستكن فيه وموطنا يسوده السلام لتستقر بين ربوعه ومفانيه .

إمارات الدفاع

عندما انحرف الحكام عن منهج الإسلام في الحكم ففكر إباضية المغرب الإسلامي في إقامة إمامة تعود بالأمة إلى المنهج الذي رسمه الإسلام ، وسار عليه الخلفاء الراشدون ، وقليل من الأئمة الذين جاءوا من بعدهم مثل همر بن عبد العزيز . فقاموا بالتجربة في ليبيا وأقاموا ثلاث إمامات متعاقبة لم يكتب لإحداهن أن تستقر وتطول فقد وجهت إليها الضربات من كل جهة وجانب ، ولما فشلت التجربة في ليبيا - وهي بوضعها الجغرافي معبر بين الشرق والغرب أعادوا التجربة في الجزائر فأقاموا الدولة الرستمية . واستطاع أغلب أئمة هذه الدولة أن يعودوا بالحكم إلى ما ألقته الأمة من السير على المنهج الإسلامي القويم من الإمامات العادلة ، وبعد ما يقرب من قرن ونصف قضى على تلك الدولة وانقرضت الإمامة في تاهرت . ومنذ قضى على الدولة الرستمية لم يفكر إباضية المغرب تفكيراً جدياً في إقامة بناء دولة مرة أخرى . وإنما كانوا يعملون على أن يعيشوا في أمن وسلام تاركين لغيرهم دنياهم يتهارشون عليها تهارش السباع .

ولكنهم رغم ذلك فقد اضطروا في كثير من الأحيان أن يباعدوا أمراء سموهم أمراء دفاع . وذلك عندما تبلغهم أخبار عن مهاجمة عدو لهم . أو توقع خطر ينزل عليهم ، فإنهم يتفقون على واحد منهم يباعدونه على أن يتقدم في معركة الدفاع . فإذا انتهت المعارك وذهب العدو . وأمنت البلاد بطلت البيعة والإمارة تلقائياً فلا يحتاج إلى عزل ولا تنازل بل بانتهاء مهمات الدفاع يصبح الأمير فرداً كسائر الناس .

لأنها بيعة تخول الإمام أن يقود الناس إلى الدفاع عن أموالهم وحرمانهم
وأنفسهم وأوطانهم وبقية بينهم وفيهم في تلك الفترة أحكام الله وحدوده
فإذا أمنوا وزال الخطر ورجعت الأمور إلى نصابها انحلت البيعة من أعناقهم
وزالت الإمامة عن إمامهم . ورجعوا تلقائياً إلى الوضع الذي كانوا عليه
قبل أن تنجم هذه الحركة .

إن إمارة الدفاع عند الإباضية إمارة مؤقتة تقتضيها ظروف معينة
لمجابهة أحداث واقعة أو متوقعة فإذا زالت تلك الظروف زالت الإمارة
وهذا التنظيم الاستثنائي يدل على فهم عميق للنفس البشرية فإن أى مجموعة
من الناس إذا لم تجمعهم قيادة في عمل من الأعمال فلا شك أن الاتفاق
واختلاف الآراء سرعان ما يؤدي بهم إلى الفشل .

فإذا بايعوا أميراً يقودهم في الحرب ، وينظم صفوفهم في المعركة ويقاوم
بهم عدوهم في صفوف منظمة ، وخطة موحدة وهو في كل ذلك يقيم الحق
بينهم ، كان هذا التنظيم أجدر أن يبعث فيهم التوة والعزة والمنعة ويثير
فيهم روح المنافسة والحماس والقداء .

ولقد احتاج الإباضية إلى هذا التنظيم بعد الدولة الرستمية في كثير من
الأحوال وذلك عندما يبلغهم أن معتدياً يريد الهجوم عليهم وابتزاز
أموالهم ، وفي الإمكان أن أعرض على القارىء الكريم عدداً من النماذج
توضح له هذه الفكرة في التطبيق العملي عند الإباضية :

١ - عندما قتل المعز لدين الله الفاطمي أبا القاسم يزيد بن مخلد في
(الجمعة) غيلة وبدون أية جريرة جناها أبو القاسم غضب الإباضية وجاءوا

إلى العلامة أبي خزر يغلا بن أيوب فتبايعوه إمام دفاع على أن يقوض أركان الدولة الفاطمية وقبل منهم البيعة وبدأ العمل حتى بعث إليه الفاطمي يعرض الصلح ويتنازل عن حكم المواطن العامرة بالإباضية . واستشار أبو خزر أصحابه في الموضوع فرفضوا وطلبوا منه الاستمرار في القتال .

٢ - عندما احتل الأسبان أغلب الثغور الإسلامية من المغرب الإسلامي قرروا احتلال جربة فاجتمع أهل جربة وقدموا عليهم أبا زكرياء السموهني فتبايعوه إمام دفاع ، وتقبل منهم البيعة وحارب بهم العدو حتى طرده في ضوزة مخزية للعدو مشرفة للإسلام والمسلمين .

٣ - في سنة ١٢٢٦ هـ قرر ابن جلاب الهجوم على وارجلان من ثغرت فاستنصر أهل وارجلان بإخوانهم في وادي ميزاب فجاءتهم النجدة وانفقوا على أن يقدموا عليهم جميعاً الشيخ طباطح داوود بن إبراهيم إمام دفاع . واستطاع الإمام أن يتفأمام العدو وأن يردده في هزيمة منكرة تحدث عنها شعراء ذلك العصر . وعندما فر العدو وأمنت السبل ورجعت الأمور إلى نصابها انحلت بيعة الشيخ طباطح عن أعناق الناس وأصبح في مكانه العادي بين أفراد الأمة .

٤ - قرر بعض العربان المهاجرون على وادي ميزاب ، وقطع طريق القوافل عنه فاجتمع أهل الوادي وقدموا عليهم الشيخ سليمان بن عيسى اليزقني إمام دفاع . فقاد جيش الدفاع وأدار المعركة بنظام ، ووقع قتال ، وسقط في الميدان شهيداً ، وانهزم العدو وولى أدباره تاركاً مالا وعتاداً وبعد انجلاء المعركة عاد الإمام إلى مكانه فرداً عادياً إلى الأمة .

٥ - نصب محمد أبو شوشة نفرذه على جنوب قسنطينة وهجم على

وارجلان فارتكب فيها الأفاعيل وخطر له أن يهجم على وادي ميزاب فسمع أهل الوادي فاستعدوا لذلك وقدموا عليهم الشيخ حمو بن باحد باكلى إمام دفاع فنظم الصفوف واستنفر الشباب الموجود خارج البلد فرجع وكتب الكتاب واستعد للقاء العدو عند الحدود فلما سمع أبوشوشة بذلك التنظيم وبلغته أخبار الاستعداد خاف العاقبة فأراد الرجوع بشكل لا يسقط هيئته فبعث إليهم رسالة يقول لهم فيها :

« اعلما أني أمهلتكم مدة شهر وثلاثة أيام لتقدموا إلى طاعتكم ،
وتدخلوا تحت سلطاني ، فإذا انتهى الأجل ولم تمثلوا لأمرى قاتلتكم » .

وقد انتهى الأجل ولا يزالون ينتظرونه ولسان حالهم يقول إن عادت
العقرب فالنعل حاضرة .

لقد اقتبست هذه الصور بتصريف من رسالة للعلامة شيخنا أبي اليقظان
تحت عنوان « نموذج إمارة الدفاع » .

هذه نماذج من إمارات الدفاع التي عقدها إباحية المغرب في حالات
وقوع خطر ، أو توقع حدوثه . والمتتبع لأحداث التاريخ يرى أن هذه
الإمارات المؤقتة كان يقصد منها تنظيم العملية الحربية في حالات الهجوم
أو الدفاع والفارق بينها وبين القيادة الحربية أو الفرق بين إمام الدفاع وقائد
القوات المسلحة كما يسمى اليوم أن إمام الدفاع رغم أن إمامته محدودة
فإنه يعطى جميع الصلاحيات التي تعطى لخليفة المسلمين أو أمير المؤمنين
بالإضافة إلى قيادة الجيش مدة قيامه بإمامة الدفاع ، فله أن يجري جميع
الأحكام حتى إقامة الحدود ، ولكنه عندما تنتهي الحالة التي نصب من
أجلها إماماً للدفاع تسلب منه كل الاختصاصات التي أعطيت له في تلك
الظروف الخاصة .

ولا شك أن هذه الإمامات كانت تعقد لرد عدوان . فعندما يستعد
بعض المسلطين على الحكم لمهاجمة بلد ما وتطير أخباره إلى أصحاب البلد فإن
المعتدى عليهم يستعدون هم أيضاً للدفاع عن أنفسهم ويهيئون وسائل المقاومة
فيعتقدون الإمامة لمن تتوفر فيه شروط القيادة وقد يقتضى منطق الدفاع
أن يبدأ بالمجوم على صفوف أو خطوط المعتدى لإيقاع الخلل في تنظيمه
ومفاجأته بما لم يحمل له حساباً .

أما الغارات المفاجئة التي تقوم بها عصابات أو قبائل بقصد الحصول
على ما سهل من أموال ثم الفرار بها ، فإنها لا تترك فرصة للتفكير والتنظيم
ثم عقد إمارة . وإنما يلقاها أول من يراها أو يسمع بها ثم يبعث بالصرخ
إلى الباقي ، وقد تنهى تلك الوقائع قبل أن يسمع بها أغلب السكان ، لا سيما
إذا كانت تلك الغارات تستهدف قوافل في الطريق ، أو ماشية في المراعى ،
أو غلالاً على أشجارها في أطراف البساتين ، فتختطف منها ما ييسر لها
اختطافه ، أو اختطاف بعضه ثم تفر تاركة في أغلب الأحيان قتلى وجرحى
منها أو من أصحاب المال المسروق أو منهما معاً . ولذلك فقد كان سكان
الواحات مثل وارجلان ووادي ميزاب يتخذون حراساً لغاباتهم في فصول
نضوج الثمار . وكان أوائل الحراس يوزعون مسلحين على مختلف مناطق
الغابات والبساتين ، وكثيراً ما تنشب معارك حامية بين أوائل الحراس
وبين القاميين بالغارات أو السرقات الذين يتسللون ليلاً في جماعات فيختلسون

وينفزون ، وإذا اعترضهم بطريقهم معترض ضربوا وقتلوا .
غير أن هذا النوع من الأحداث داخل في السرقات العادية التي لا يخلو
منها مكان ولا زمان فهي لا تقتضى وجود إمارة خاصة للدفاع وإنما تستلزم

يقظة وحراسة مستمرة ولذلك فقد جعل له جهاز خاص تتعاون على تكوينه
مجالس العشائر تحت إشراف العزابة ، والأفراد الذين يتكون منهم هذا
الجهاز يسمى (امتصوردان)^(١) ولهذا الجهاز نظام كامل مسجل لم يحصل
على صورة منه بكل أسف حتى أضع صورة له أعرضها على القارىء
السكرام ليتعرف على جانب آخر من جوانب التنظيم في تلك المنطقة الحمية
التي هي الآن رايحة إلى ما أجانبه

والجهاز المذكور في الفقرة السابقة هو عبارة عن مجلس من العشائر التي لها حياض
في المنطقة المذكورة وتتكون من عشائر كثيرة من قبائل كثيرة وهي
تسمى بالقبائل الصغيرة أو العشائر الصغيرة وهي تسمى بالقبائل الصغيرة
لأنها لا تتعدى حدودها أبداً وتسمى بالقبائل الصغيرة لأنها لا تتعدى
حدودها أبداً وتسمى بالقبائل الصغيرة لأنها لا تتعدى حدودها أبداً
وتسمى بالقبائل الصغيرة لأنها لا تتعدى حدودها أبداً وتسمى بالقبائل
الصغيرة لأنها لا تتعدى حدودها أبداً وتسمى بالقبائل الصغيرة لأنها لا
تتعدى حدودها أبداً وتسمى بالقبائل الصغيرة لأنها لا تتعدى حدودها
أبداً وتسمى بالقبائل الصغيرة لأنها لا تتعدى حدودها أبداً وتسمى
بالقبائل الصغيرة لأنها لا تتعدى حدودها أبداً

(١) لا أعرف المعنى الذي تدل عليه هذه الكلمة ولم أسأل عنه الخدّاء من الإخوة
الجزائريين الذين يستعملونها فإن كان لها لديهم مدلول فذلك هو . وإلا فأعتقد أن تحريفها
بسيطا دخل عليها وأن أصلها (أمسردان) أى للفظون أو المطهرون وأطلق عليهم ذلك
لأنهم يظفون الغابة أو القرى أو يطهرونها من دنس السرقة على كل حال هو استنتاج خيالي
فلا تهتم به .

الإباضية الجزائرية تحت الحكم العثماني

عندما دخلت الجزائر تحت الحكم العثماني كان الإباضية الذين يسكنون بلاد وادي ميزاب ووارجلان يفكرون في موقفهم تفكيراً عميقاً هل ينضمون تحت لواء هذه الدولة ، أم يحاولون أن يبتغوا على الوضع الذي كانوا عليه - مستقلين في جميع شئونهم - لا يتبعون دولة أو إمارة ولا يعلنون عن دولة لأنفسهم ، وأن يسيروا على نهج أسلافهم ، وفكر القوم فيما يبدو تفكيراً طويلاً واستعرضوا حالتهم في ذلك الحين ، وقارنوا بين حياتهم تلك وبين الانضمام تحت جناح هذه الدولة المسلمة القوية الجديدة ، والاحتماء بها ، وما يتوقعون أن يكون لهم في ذلك من أمن وسلام ، ولا شك أن الآراء اختلفت وأن الجدل كان محتوماً وأن اجتماعات كثيرة قد انعقدت لدراسة الموضوع . غير أن ذلك الجدل وتلك الاجتماعات والمناقشات التي جرت فيها والمقارنة بين عهدين أحدهما ماضى معروف والآخر مستقبل مجهول مخوف ، قد أسفرت جميعها على أن جانب دعاة الالتجاء إلى الدولة والاحتماء بها كان أقوى فمالت إليه الأغلبية وأيدته العناصر التي بيدها الحل والعقد .

فقررت الاتصال بالدولة العثمانية والاتفاق معها قبل أن تتحرك هي نفسها للاستيلاء . وقد تم ذلك فعلاً فذهب وفد - مخول بصلاحيات كاملة للاتفاق - إلى الجزائر العاصمة ، وقد استطاع ذلك الوفد أن يعقد مع الدولة الحاكمة اتفاقية تشمل على عدة بنود لعل أهمها أن تسمح للإباضية أن يزاولوا أعمالهم الحرة

في كل المدن والبلدان التي تقع تحت نفوذ الدولة العثمانية . وأن تتعهد الدولة العثمانية بحمايتهم أفراداً وجماعات في بلدانهم وفي جميع بلادها على أن يدفعوا لها خراجاً سنوياً معيناً حددته المعاهدة .

وقد تم الاتفاق على المعاهدة وأصبح الإباضية في الجزائر تحت النفوذ العثماني لكنه نفوذ شكلي لأنه لا شيء يمثل الدولة العثمانية في بلاد الإباضية وحتى الخراج أو الضمان المنفق عليه بينهم فإنهم هم الذين يقولون بجمعه بأنفسهم ثم يوصلونه إلى الحكومة دون أن تتكلف تعباً ودون أن تطأ قدماها أي جزء من تربتهم ، ولم تحاول تركيا رغم العهد الطويل الذي بقيت فيه أن تغير من بند الحماية إلا بما حاوله أحد ولاياتها من ضم وادي ميزاب إلى ولاية وهران فاعترضوا ولم تنجح المحاولة كما سنشرحها فيما يأتي في هذا الفصل ، وفي هذا الموضوع لم أرد أن أعمد على ما لدى من مصادر فقط وإنما رجعت إلى أهل الشأن فوجهت سؤالاً إلى الشيخين الكبيرين الفاضلين أبي اليقظان إبراهيم . وباكلى عبد الرحمن فأجابني كلاهما على حدة .

أما نص السؤال فهو كالآتي : -

« ما هي حالة إباضية الجزائر مع الدولة العثمانية » ؟

وقد كان جواب أستاذنا الفاضل شيخ الصحافة الجزائرية كما يلي :

« إنها حالة مسالمة وتقدير للوضع الذي كان لهم في الاقتصاد الجزائري وكل الطرفين مسالم للآخر ، إلى أن وصل النفوذ التركي في الأغواط بالجنوب على يد صالح باي ، وعلى يده وقعت مفاوضات بينه وبين أهل وادي ميزاب في تحديد العلاقات بين الدولة التركية وبين وادي ميزاب على أسس ترمي إلى الاعتراف بوجود ميزاب كما هو ، ومسالمته في نظمه وآدابه على أن

يدفع مقابل ذلك للدولة التركية اثني عشر عبداً واثنتي عشرة أمة . وأشياء أخرى في كل سنة كما فصل ذلك في كتاب (عثمان باشا) لتوفيق أحمد المدني ، وعلى هذه الأسس وقعت معاهدة بين فرنسا وميزاب سنة ١٨٥٣ . ومن أبرز العلاقات بين الدولة التركية وميزاب : رسائل وقصائد الشيخ الحاج إبراهيم بيحمان الذي ذكرناه آنفاً يخاطب به ملوك الدولة فيما بين عام ١٢٠٠ و عام ١٢٠٧ كما هو مغلد في ديوانه المخطوط وكان لها أثر محمود في أوساط الدولة وبني ميزاب في ذلك الحين .

هذا ما قاله شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ورضي عنه ويبدو أن بعض الأحداث التاريخية الهامة قد اختلطت عليه وهو يكتب جواب السؤال فلا شك أن الاتفاقية المبرمة بين الإباضية والدولة العثمانية إنما أبرمت بين وفد مكلف من الوالي العام أو (الداي) في الجزائر العاصمة أما صالح هذا فهو عامل من عمال الداي وطمحت نفسه أن يضم وادي ميزاب إلى الأرض التي تقع تحت حمايته وبنو ميزاب في ذلك الحين يفتخرون بانفاقية حماية لاختصوا كامل فلما سمعوا بنواياهم قاموا لذلك وقعدوا وأجروا عدة مفاوضات مع الوالي العام للجزائر لامع صالح باي - وتم لهم ما أرادوا . وسوف يتضح لك الموقف كله بعد قراءة الفصل كله .

أما أستاذنا الفاضل الشيخ باكلي عبد الرحمن فقد كان جوابه كما يلي :

« كان الإباضية في ميزاب إلى عهد الدولة التركية منغلين في وطنهم لا يكادون يتصلون بخارج محيطهم اللهم إلا ما كان من زيارة بعض شيوخ دعوتهم وما إلى ذلك من انتقالات جزئية مستتامين فيه استقلالاً تاماً . حتى استقرت قدم الدولة التركية بالجزائر وأخذ نطاق استقلالها يتسع ، وجدوا

أنفسهم بين شدي ضيفم ، ووضعهم على خطر إن لم يحتاطوا لمستقبلهم ، وسارعوا إلى المفاهمة مع هذه القوة الزاحفة مفاهمة يحفظون معها ذاتيتهم واستقلالهم ، وإلا عصفت بهم رياح الحوادث ويا ما أكثرها ولا سيما وهم أقلية .

وفعلا انصلوا بالدولة التركية ، وقرروا تبعيتهم إليها تبعية اسمية فقط أو بعبارة أوضح ، دخلوا تحت حمايتها مقابل خراج سنوي يدفعونه لها ، ولم مقابل ذلك حق الأتجار والاكتساب في مدنها وحماية أشخاصهم وأموالهم في أسفارهم عبر بلادها . فهل أمنتهم في أسفارهم وحمتهم من قطاع الطرق حقاً ؟

كلا فالذي يقصه علينا التاريخ أن الدولة التركية لم تعر إلى هذه الناحية أدنى التفاتة ، بل ألت الحبل على الغارب ، وتركتهم عرضة للنهب والسلب والترويع ، فلا يخرجون من بلادهم أو إليها إلا قوافل مسلحين استعداداً للطوارئ وتحت حماية بعض أبطال ذلك الزمن منهم الذين يستأجرونهم لذلك مخافة أن يذهبوا هم وأموالهم وأولادهم ضحية ، فكم من جماعة سافرت إلى وطنها بعد أن أمضت سنتين في الجمع والاكتساب تخرج عليهم جماعة مجرمة من قطاع الطرق فتجردهم من كل ما ملكت أيديهم ، وتركهم عراة صفر الأكف .

وبعد كلام طويل بليغ قال :

« فلما أخضع الباي صالح جبال عمور والصحاري وما حواليا حدثته نفسه بتحويل تبعية ميزاب إليه ، ففاوض في الشأن باي الجزائر حسن الدولاتلي ، فقيل إنه أجاب طلبه نظراً لإخلاصه وحسن بلائه ، بيد أن

الميزابيين ثارت ثائرتهم ، واضطربوا اضطراباً شديداً لما يعلمون من سوء نواياه كما يصرح بذلك جوابهم إلى باي الجزائر الذي أعلنوا فيه في شيم رفضهم لتبعييتهم للباي صالح ، فإما أن يقيمهم على الحالة الأولى من تبعييتهم للسلطة المركزية ، وإلا فليسرحوا أبناء ميزاب الذين دخلوا بلادهم بأمان وأرض الله واسعة الفضاء .

حذر الكتاب نيابة عن ميزاب بأسره الشيخ الحاج إبراهيم بيجمان أحد تلاميذ الشيخ عبد العزيز صاحب النيل ، وأحد شيوخ يسجن بعده ومما جاء في الكتاب :

« ... من المسلمين عليك جموع بني ميزاب المشعكين إليك ما نزل بهم مما لا طاقة لهم به ، وذلك أنهم سمعوا أنك تريد أن تضرب عليهم الغرامة المالية على يد صاحب الولاية الشرقية ، غير ما كانوا عليه من قديم الزمان وتريد أن تبدل أحوالهم المسطرة من الأسلاف والأجداد ... » . إلى أن قال :

« فإن قلت لا بد من هذا فإننا لأمر الله طائعون ، وإسلامك سامعون فسرح حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان ، الخادمين بضائعها بالإحسان أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان وأرض الله واسعة ما دام الزمان .

عجبت لمن يعيش بغير عز وأرض الله واسعة براها »

والجواب أرسل إلى السيد إبراهيم بن صالح الأمين ويدخله إليه بواسطة علي يد صهره الحاج علي بن عبد اللطيف ، مؤرخ بتاريخ ذي القعدة عام ١٢٠٦ هجرية ثم جاءت الأخبار بعد ذلك بعدول باي الجزائر عن عزمه بسبب

وقوع سوء مفاهمة بينه وبين الباي صالح أدى إلى مصرع هذا الأخير ، ومن أبطن سريرة ألبسه الله رداءها .

فما نقلته عن الشيخين الفاضلين يرى القارئ الكريم أنهما لم يتعدنا في رسالتهما عن إباضية وارجلان ، وإنما قصر حديثهما على إباضية وادي ميزاب ، ويبدو أن حالة وادي ميزاب في ذلك الحين تختلف عن حالة وارجلان بعض الاختلاف . فبينما كان سكان ميزاب عند دخول الأتراك إلى جنوب الجزائر كلهم على المذهب الإباضى اللهم غير أسر قليلة جاءت تبعاً لوسائل العيش . والتماساً للعمل ولا تلبث أن ترتحل ، وكانت بلاد ميزاب مستقلة استقلالاً تاماً عن أى نفوذ ويتولى الحكم فيها مجلس العزابة بأنظمتها المعروفة في شتونه الداخلية والخارجية . وبينما كانت ميزاب على هذا الوضع المستقل نوعاً ما كانت وارجلان على وضع يخالف هذا الوضع بعض المخالفة فقد كان سكان وارجلان في ذلك الحين يتكونون من الإباضية والمالكية كما أنهم كانوا خاضعين لأمير يجرى عليهم الأحكام على طريقة أمراء الطوائف والشيوخ المستبدين وإن كان الإباضية من سكان وارجلان يرجعون في أمورهم الدينية والاجتماعية إلى مجلس العزابة في أكثر الأحوال .

ولكن يبدو من أحداث التاريخ ودقائه أن سلطة مجلس العزابة في تلك الفترة كانت محدودة جداً .

و نظراً لطبيعة هذه الفوارق بين إباضية وادي ميزاب وإباضية

وارجلان : اختلف موقف الدولة العثمانية منهما . فبينما ألحقت جميع البلاد الجزائرية ونها وارجلان لحكمها وجعلت عليها ولاية ينفذون سياستها ويطبقون أحكامها ويشرفون على إدارتها ويجمعون لها الضرائب ويقولون رعاية جميع الشئون في مختلف ميادين الحياة . فبينما يقفون هذا الموقف في وارجلان وفي بقية التطر الجزائري تراءم في وادى ميزاب يقتصرون على عقد اتفاق حماية ، يعترف فيها الشعب الميزابي بسيادة الدولة العثمانية ويدفع لها خراجاً سنوياً معيناً ، وتتعهد الدولة مقابل ذلك بمجابتهم في وطنهم وخارج وطنهم ، أما شئون ميزاب الداخلية في المجالات الدينية والاجتماعية والاقتصادية فرجعها إلى مجلس العزابة .

هذا الفارق بين طبيعة الحياة في وارجلان ، وطبيعة الحياة في وادى ميزاب هو ما ترك الشيخين يتحدثان عن علاقة ميزاب فقط بالدولة العثمانية تاركين الحديث عن وارجلان لغيرهم .

والواقع أنه إذا استثنينا وضع ميزاب فإن أسلوب الحكم العثماني يتشابه في أغلب البلاد الإسلامية . لأن المسلمين في جميع الأقطار الإسلامية قد خضعوا للدولة العثمانية واطمأنوا إليها ورأوا فيها دولة الخلافة التي تحافظ على تراث الإسلام ومجده ، ما عدا أفراداً كانوا يثورون هنا وهناك لأسباب مختلفة أغلغها شخصية سعيًا وراء الوصول إلى كراسي الحكم . وقد بادلت الدولة العثمانية المسلمين جميعاً ، حباً بحب ، واطمئناناً باطمئنان ، وأعدت نفسها لتشغل مكان الدولة الإسلامية الكبرى التي تعود البشرية وتحافظ على الحضارة الإسلامية السابقة مضيقةً إليها ما تستطيعه من حضارة وأمجاد ، وقد حملت مشعل الإسلام وأوصلته إلى ما لم يصل إليه من بلاد الشرق الأقصى وشمال أوروبا الشرقية .

غير أن وضعها تجاه الدول الصليبية الحاكمة الخائفة التي كانت تحاول بكل ما عندها من وسائل أن تقضى على الإسلام وتستولى على البلاد التي ينتشر فيها ، عرقلت مساعيها الإصلاحية العمرانية الداخلية .

إن الموقف التعمنت من دول أوروبا الصليبية الحاكمة الخائفة جعلها توجه أكل عنايةها إلى الناحية الحربية ، وتهتم بالعواصم والثغور للحفاظ عليها ، وتهمل أمور الدواخل في أغلب الأحيان نوعاً من الإهمال اللهم في فترات قصيرة ، وبجهود بعض الولاة المصلحين بفطرتهم ودينهم . وعلى هذا الوضع كان الجنوب الجزائري وهذه الصورة التي عرضناها على القارئ الكريم لا تمنعنا أن نقول كلمة الحق في تلك الدولة التي رفعت منار الإسلام زمنياً غير قصير ، ونشرته في كثير من أنحاء الأرض ، وكالت لأعدائه والحاقدين عليه صفعات مؤلمة لا يزال صداها يرن فوق أثباج البحر الأبيض المتوسط .

ولقد كان دورها في التاريخ الإسلامي العام لا يقل عن دور الدولتين الأموية والعباسية بحال من الأحوال . إن الذي تدل عليه المصادر التاريخية التي بين أيدينا من المراسلات الجارية بين مركز الدولة وأطرافها يدل على أن لها عناية واهتماماً بالتمعرف على شكاوى الأهالي ودراستها والاستجابة لها وقبول المعقول من طلباتهم وأحسب أن هذا القدر كاف في الدلالة على حسن نية الدولة ورعايتها لمصلحة الأمة ولا مطمع في أكثر من ذلك من أية دولة مدنية لا تلتزم الإسلام منهجاً وحكماً .

وأياً ما كان الأمر فقد كان الإباضية في الجزائر كغيرهم من المسلمين الداخلين تحت نفوذ الدولة العثمانية يرون أنها في ذلك الحين تمثل قوة الإسلام وتحمل لواءه ، وأن سيلاطينها هم الخلفاء الذين يجب أن يسمع لهم

ويطاع أمرهم ، وهم لذلك راضون عن الدولة مطيعون لها وإن تقهروا بعض الأحكام من بعض الأفراد أو بعض التصرف من أحد الولاة أو الموظفين وهم لا يطعمون منها في أكثر من ذلك لأنها دولة مستبدة وليست خلافة رشيدة وهذا الموقف هو ما كانت عليه جميع دول الخلافة في العهد الإسلامي باستثناء الخلافة الرشيدة أو خلافة همر بن عبد العزيز أو بعض الدول التي قامت في جهات العالم الإسلامي ولم يتح لها أن تحمكه كله وإنما حكمت جانباً منه لفترة قصيرة أو طويلة . وقد كانت الصورة العامة كما يلي :

اعتراف من الناس بنظام الدولة القائم ، واعتزاز به ، وسمع له وطاعة ونقد لأهمال الحكم ، وسخط على الولاة الظالمين والموظفين الذين لا يزاعون أحكام الله ولا يسرون على منهاجه القويم واحترام وتقديس لشخص الخليفة مع النقد الحر لكل ما ومن يتصل به .

كان الإباضية يعيشون في كل من ميزاب ووارجلان في نطاق ضيق محصور على ما تنتجه أراضيهم ، وعلى حرف يدوية بسيطة ، قد يكون أهمها صناعة الصوف الذي تشتمل به المرأة ، فلما دخلت تركيا إلى الجزائر وأظهرت أنها ستؤمن جميع السبل^(١) ، وتعهدت للميزابيين بمجاوبتهم انطلق أولئك الناس المجدون ، حيث يجدون متسعاً للكفاح في سبيل الرزق الحلال . وذهبت جماعات منهم في بادئ الأمر إلى الجزائر لاحتراق التجارة . نجحت تجربة تلك الجماعات نجاحاً باهراً ، شجع الكثيرين على الاقتداء بأولئك

(١) يقول أستاذنا الشيخ باكي عبد الرحمن أن الدولة العثمانية لم تف للإباضية بما تعهدت به . ولم تؤمن السبل لهم ولا تغيرهم فقد كانت مشغولة بمصارعة القرصنة على أمواج البحر الأبيض المتوسط ولذلك فقد انصرف الإباضية عن وعودها لهم واعتمدوا على أنفسهم واتخذوا وسائلهم الخاصة لحماية أنفسهم وأموالهم أثناء أسفارهم المترالية .

المغامرين الأولين . وتبعهم آخرون ، وهكذا نشط القوم ودخلوا أغلب المدن الجزائرية ، واستطاعوا - في مدة قصير - بما أوتوا من خبرة من التجارب ، وجد في العمل ، وأمانة في المعاملة . أن يمسكوا بمقاليد التجارة في كل الجزائر ، وبالتالي في الاقتصاد الجزائري العام بعد أن أمسكته به منهم تلك الأيدي الأمينة المجددة الحريضة . فاحترمتهم الدولة لذلك ، وكانت تحسب لهم حساباً أي حساب وعرفوا هم أيضاً منزلتهم في الاقتصاد الجزائري ، وفي نفس الدولة ، فكانوا يدلون عليها بذلك ويهددون بالانسحاب من هذا الميدان إذا لم ترع حقوقهم ، وتستجيب لمطالبهم ، وتفي لهم بما تعهدت به ويدل على ذلك دلالة واضحة كثير من المراسلات التي جرت بينهم ومن آخرها وأوضحها في هذا المقام ما جاء في رسالة الحاج إبراهيم بيجمان : « فإن قلت لا بد من هذا ، فإننا لأمر الله طائعون ، ولكلامك سامعون ، فسرح حينئذ أولادنا الذين دخلوا الجزائر بأمان ، الخادمين بضائعها بالإحسان ، أن يقدموا إلى ما يريدون من البلدان ، وأرض الله واسعة ما دام الزمان » .

بهذه اللمحة الشديدة يجابه ممثل ميزاب والى الجزائر . ويهدده بالانسحاب من ميدان التجارة . ولا شك أن هذا الوالى وغيره من ولاة الدولة العثمانية في الجزائر ، ليسوا هم الذين دعوا الميزابيين إلى التجارة في الجزائر ، أو في غيرها من المدن ، ولكنهم كانوا يعرفون الفرق في الحالة الاقتصادية الجزائرية ومداخل الحكومة منها قبل أن يتولى الميزابيون وأهل وارجلان تصريف التجارة فيها وبعد ذلك . ومعرفة الوالى بحقيقة ذلك دعتة أن يتغاضى عن الخشونة والتحدى الظاهر في الرسالة رغم أن آذان الولاية في تلك العصور لم تتعود سماع الكلام الخشن ولو كان حقاً . ولأن الوالى يعرف أنه لو أغفل

مطالب أولئك القوم وترك لهم أن يخرجوا على تلك الصورة الغاضبة فإن الاقتصاد الجزائري سوف ينهار أو ربما يترنح فقط ، وأن أسواقها سوف ترتبك . ولا شك أن مداخل الدولة ترتبك من وراء ذلك على الأقل فترة ما حتى يجد ذلك الاقتصاد الأيادي البديلة التي تمسكه وتسير به ، كما يعرفون أن التجار من بني مصعب وأهل وارجلان الذين مهروا في التجارة وعرفوا أدق أسرارها وأخفى أساليبها لا يابثون أن يفتحوا لأنفسهم مجالات جديدة ، في أماكن جديدة ، تدر عليهم أرباحاً لا تقل عن الأولى وترفع اقتصاد بلاد أخرى ربما كان بين ولائها وهؤلاء الولاة تحاسد ومنافسة . وإن كانت جميعاً ترتبط باسم الدولة العثمانية . ولذلك فقد تردد الوالي أمام لهجتهم المتحدية القاسية ثم لان . واستجاب لرغباتهم ووافق على مطالبهم .

على أن موقف الدولة التركية من الإباضية في الجزائر وفي غير الجزائر كان يبدو فيه كثير من التقدير والاحترام والتفهم ومحاولة الإنصاف يدل على ذلك تلك المجالس العلمية التي كان يعقدها ولاة الدولة التركية لمناقشة بعض المسائل والمشاكل والشكاوى فيدعون إلى حضورها بعض علماء الإباضية المعروفين فيمن يدعى من علماء المذاهب الأخرى وكذلك مجالس المناظرة والمناقشة في المسائل الخلافية بين المذاهب التي تثار هنا وهناك بطريقة تتيح الفرصة لكل أهل مذهب أن يكشفوا عن آراء مذهبهم بما لديهم من حجة وبيان .

وقد كان العلامة أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي - في نظر الدولة التركية - يمثل العالم والزعيم الإباضي في المغرب الإسلامي ولذلك فقد كان طيلة عصره ممثلاً لرأي الإباضية في جميع المشاكل من هذا النوع التي

أثيرت في الجزائر وتونس وليبيا . وكانت له في جميع ذلك مواقف مشرفة عند جميع الأطراف وله في هذا الميدان رسائل وتقارير قيمة . كما أن الدولة التركية كانت تنظر إلى الإباضية نظرتها إلى أي فرقة إسلامية أخرى نظرة طبيعية مجردة زهية لا عصبية فيها ولا ترفع ولا تحامل .

ولعل السبب في ذلك أن الشخصيات العلمية التي اتصلت بالأتراك في مختلف بلاد الإباضية كانت تمثل شهامة العالم المسلم ، وترفعه عن الطمع وعدم تملقه لهيبة السلطة ، وقوته في إعلان كلمة الحق والإصداق به .

كما قد يكون أولئك العلماء الذين احتكوا بمجالس الحكم قد أوضحوا في تلك المجالس أن المذهب الإباضي من أصح المذاهب الإسلامية استناداً وارتباطاً بالقرآن الكريم والسنة النبوية الطاهرة ، وأن أتباعه من أحرص المسلمين على أن يكونوا مثلاً علياً في كل مجتمع عاشوا فيه . كما قد يكون الولاة الأتراك قد تحققوا خلال تعاملهم مع الإباضية في الجزائر من صدق القوم في معاملتهم وعهودهم والتزامهم للأمانة ، وحرصهم على الشرف والبنظافة والاستقامة . ومحاسبتهم لأنفسهم ولقومهم قبل أن يحاسبهم الغير . أو يبدو منهم ما يخالف دين الله ، أو قانون الدولة ، أو عرف الناس .

ولعله يحسن بي أن أختتم هذا الفصل بما يلي :

قال السيد صهر بن عيسى بن إبراهيم في كتابه بيان حقيقة عن التجنيد الإيجباري صفحة ٣٤ ما يأتي :

« في عهد الاستيلاء التركي على الجزائر تيكأثر عدد التجار الميزابيين

المنتشرين بشمال أفريقيا بسبب نمو أمتهم ، فاحتاجوا لحماية تجارهم من طرف ولاية الأمور العثمانيين ، فوقع اتفاق بينهم وبين ميزاب - بحيث أن الميزابيين يدفعون للأتراك جباية سنوية مقدارها اثنا عشر عبداً واثنتا عشرة أمة ، ولا يتدخل أرباب السلطة البتة في أمورهم . بل تركوهم يحكمون أنفسهم بأنفسهم على مقتضى مذهبهم الإباضى وعوائدهم وأخلاقهم الخاصة بهم ، وهكذا كانت حالة ميزاب عند احتلال الجزائر في سنة ١٨٣٠ .

الباب الرابع

صور عن :

مدن وبلدان

عزیزی القاریء :

فی هذا الباب أردت أن أضع بین یدیک صوراً للمدن أو البلدان التي كانت عامرة بالإباضية فذكرت آجلو وتجديت وتقرت كنماذج كانت عامرة فی الماضي ثم خلت من الإباضية وذكرت وارجلان وميزاب - كنماذج كانت عامرة فی الماضي وهي عامرة الآن والحمد لله وان تزال عامرة بهم ما شاء الله .

وهذه المدن جميعاً فی المناطق التي تحويها وتتصل بها كانت مترابطة تعطى صورة واضحة كاملة للحياة الاجتماعية والسيرة الرضية التي كان يحيا عليها الإباضية فی القطر الجزائري بعد انقراض الدولة الرستمية .

آجلو

مدينة كانت تقع قرب البلدة التي تسمى اليوم « بلدة همر » قال : عنها المؤرخ المدقق والأديب البارع شيخنا باكلى عبد الرحمن مايلي :

« مثل ذلك بلدة (آجلو) بليدة عمر القديمة وما اشتهرت به من صلاح حتى اتسمت ببلدة الصالحين » .

اشتهرت مدينة آجلو بالصلاح والعلم والعمل شهرة لم تبلغها أية مدينة أخرى قريبة منها ، معاصرة لها ، وقد بلغت من شهرتها في الصلاح والفضيلة والنظام مبلغاً ، يسر للخيال أن يضيف إليها بعض الخيوط ، وللخرافة أن تجند مدخلا بين الحقائق^(١) . ووصفت بما وصفت به المدينة الفاضلة من حياة قونية بحياة الفرد والمجتمع . وأصبحت بذلك مأزماً وملجأ لرجال العلم . فكان يلجأ إليها كل من يخشى الفتنه ، أو يثور بين رجليه دخانها ، فيفر إليها ليعيش هنالك آمناً مطمئناً ، في جو كله دين وخلق وعلم وهمل صالح ، لا تجرد إليه السياسة طريقاً ، ولا البدعة مدخلا ، ولا مكائد الناس والشيطان مروّجاً ، وكان كثير من يعيش في البلاد المضطربة يعد العدة للهجرة إليها ، ويوصى بنبيها بذلك لأنها في نظرهم وفي الواقع تمثل موطن السلامة في الدين ، وقد كانت مركزاً علمياً واسع النطاق ، ومنها امتد نور المعرفة إلى كثير

(١) انتشرت بين الناس في ذلك الحين خرافة تزعم أن دولة تقوم في مدينة تسمى (جراف) وأن تلك لدولة تملأ الدنيا عدلاً ويتكفل دليها المسلمون الصادقون ، ولما رأى بعض الناس ما عليه آجلو من فضيلة وصلاح قولوا إنها هي جراف التي يتحدث عنها بعض القصص بل بلغ من بعضهم إلى أن زعم أن آجلو هي جراف وأن ملكها هو أبو عبد الله محمد بن بكر .

من البلاد وتخرج فيها عدد غير قليل من العلماء الأعلام، وكان العباد والزهاد والصلحاء يؤمنونها للعبادة فيقتضون فيها أوقاتاً ممتعة في مناجاة الله ثم يعودون إلى قراهم وأحيائهم ، وقد بلغت ذروة مجدها وعظمتها في هذه الناحية عندما اختارها أبو عبد الله بن بكر فاتخذها موطناً له ولطلابه .

كان العالم الصالح معاذ بن أبي علي يسكن في أول أمره في قصر بني وليل الواقع جنوب وادي أريغ ، ولكنه كان يجشم نفسه مشقة السفر مرة في كل أسبوع ، فكان يحضر إلى آجلو مساء كل خميس ويبيت ليلة الجمعة مع العلماء والصلحاء ، يحيون ليلتهم بأنواع مختلفة من العبادة كالصلاة وتلاوة القرآن ومذاكرة فنون العلم ، ويقضى صبيحة اليوم معهم مفيداً ومستفيداً ، حتى إذا صلى الظهر وحضر دروس الوعظ التي يلقيها أكابر العلماء هناك ثم صلى العصر - انصرف راجعاً إلى قريته قصر بني وليل .

ولما أرهقه التعب ، وأضناه السفر ، ونالت منه المشقة ، ورأى أن الاستفادة مقصورة عليه ولا تنال أفراد أسرته الآخرين فسكر في الانتقال . وهكذا أخذ معاذ أفراد أسرته وانتقل إلى آجلو واسقفر بها بين أهلها الكرام وأتيحت له الفرصة لكي يعيش في تلك المساجد والجامع العلمية العامرة بالإيمان والمعرفة والعبادة . كما أتيج لولديه إبراهيم وعائشة أن يواصلوا دراستهما وأن يحضرا مجالس العلم على فطاحل العلماء ، ومع أوجب الطلاب وأذكي التلاميذ .

كانت أسرة معاذ أسرة دين وعلم وفضل ، حتى ضرب بهم المثل فقيل خير شيوخ آجلو معاذ ، وخير فتيانها إبراهيم ولده ، وخير نساءها عائشة بنته . وقد اشتهر معاذ بصفات يحق له بها أن ينال احترام الناس وتقديرهم ،

فقد كان سخي النفس، سليم الصدر، بعيداً عن المزاحمة في أمور الدنيا يحب الخير للجميع. وماذا يريد الناس من أي إنسان أكثر من أن يكون صدره مفعماً بالحبّة والعطف، يتسع لهم جميعاً، وأن تكون نفسه سخية تمتد لهم بالمساعدة والإحسان، وأن يتجاوز عن دنياهم ويتركها لهم لا يزاحمهم عليها، ولا يطالبهم بنصيبه فيها.

وقد كان لطيفة قلبه وحبّه للناس وعدم اهتمامه بأمور نفسه يحسبه بعض الناس قليل الذكاء قال أبو العباس الشماخي: «والشيخ معاذ رجل صالح زاهد تقي القلب مخموله ذونية».

وقد درست عائشة بنت معاذ على فطاحل العلماء في آجلو وبلغت درجة في العلم يعز على نظائرها بلوغها، فكانت تناقش كبار العلماء في أدق مسائل علم الكلام وكانت كثيراً ما تلزم بعضهم الحججة وتنتصر عليهم في ميدان الجدل والحوار. وكانت تذهب في آرائها ونظرياتها مذهب التشدد والقضييق حتى أنها كانت ترى أن من لا يعرف الصواب في مسائل الاجتهاد غير معذور.

جمعها يوماً مجلس مع الشيخ أبي محمد عبد الله بن محمد اللنتي وجرى بينهما نقاش في بعض مسائل العلم فقالت له: ما تقول فيمن أقر بالصلوات المفروضة إلا واحدة فقال لها: هو منافق، ولا يحكم عليه بالشرك. فقالت له: أخطأت. بل يحكم عليه بالشرك. واستتابته من قوله فتاب منه، إن أبا محمد اللنتي قد أقر لعائشة بما تريد، واستجاب لها حين طلبت منه التوبة إلا أن القضية كانت ما تزال تشغل فكره، واجتمع ذات يوم بالعالمين الكبيرين أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر، وأبي هارون موسى بن علي فسألها

سؤال عائشة له فأجاباه بما أجابها هو به حين سألته . فحمد الله تعالى وأخبرها بقصته مع بنت معاذ وتوبته لها عن قوله السابق فأكد له الشيخان أن قولهم هو الصواب ، وأن عائشة مخطئة ، وأنه ما كان يحق له أن يجيبها فيقول من الصواب إلى الخطأ . وسارت الأيام بهذه القصة وكانت عائشة كثيرة الحركة جمة النشاط ، متقدمة الحيوية ماضية في الدراسة عاملة على الاتصال برجال العلم والإفادة والاستفادة منهم حتى جمعها يوماً مجلس مع أبي زكرياء يحيى بن أبي بكر فناقشته في كثير من مسائل علم الكلام وكان فيما وجهت إليه من الأسئلة ما يلي :

هل يعذر الإنسان بجهله للصواب ؟ . فأجاب بأنه يعذر إذا اجتهد في مسائل الفروع . وقالت : لا يعذر . ثم سألته همن نسي رسولاً فحسبه نبياً بماذا يحكم عليه . فقال : يحكم عليه بالنيقاف قالت : بل هو مشرك ، فأجابها أبو زكرياء بلهجة فيها تأنيب بدعابة ، وإدلال بقسوة ، وتعريف بحزم : ألسنت أنت التي استتبت أبا محمد الذنبي يا كليفة ؟ قالت : بلى . فعرفت هذه المسائل الثلاثة بمسائل الكليفة .

درست عائشة علم الكلام على العلامة الكبير تبغوزين بن عيسى اللشوطي وكانت تفتخر به وبدراستها عليه ، وتعتبر أقواله حجة . فإذا جرى بينها وبين أحد نقاشاً في قضية من قضايا علم الكلام كان يكفيها حجة أن تقول : قال تبغوزين بن عيسى اللشوطي كذا وكذا وكان هذا في نظرها أبلغ حجة وأسطع برهان فلا تحتاج بعده إلى مزيد كلام ومع احترامها لشيخها تبغوزين وحبها له وإعزازها إياه واعتزازها بدراستها عليه وتمسكها بأقواله وآرائه كانت تقول : « رأيت كثيراً من العلماء وأهل الخبر واستمعت

إلى عدد دجم منهم ، واستفدت ولولا أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله
بن بكر لمت بالجهل .

وذلك أنها كانت تدرس على غيره من المشائخ في شبه تخصص تأخذ
عن بعضهم علم اللغة والأدب ، وتأخذ عن بعضهم علوم الشريعة والأصول
وتأخذ عن غيرهم علم الكلام أو علم المنطق وغير ذلك من فروع الثقافة
المعروفة في ذلك الحين ضمن التاريخ والرياضيات .

أما أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر فقد كان دائرة معارف يجول في
كل ميدان : وكانت دروسه تشبه أن تكون محاضرات تلقى في جميع
الفنون فكان المتفوقون من الطلاب يلذ لهم سماعه والسباحة معه في الآفاق
التي يسبح فيها ، وكانت عائشة من أمهر السباحين في علوم الشريعة بمختلف
فروعها وفي علوم اللغة والأدب ، وكانت ترى أن تعلم اللغة وآدابها وما تقوم
عليه من نحو وصرف واجب أكيد على المسلم حتى يستطيع فهم كتاب الله
وسنة رسوله عليه السلام .

كانت عائشة تمثل المرأة المسلمة المتعلمة المسنةيرة التي تشارك الرجل في
جميع الميادين الثقافية دون أن تتخلى عن رسالتها كأم وترعى بيتاً وترعى
أولاداً ، وكزوجة تصون نفسها وبيتها وترعى زوجها في نفسها وفي ماله وفي
بيتها وتوفوله وسائل الراحة والسعادة والاستقرار ودون أن تلقى عنها ثوب
الحياء والحشمة . فلم يعقها الحجاب ، ولا الثوب السائر الفضفاض أن تناقش
أذكي الطلاب وأن تتفوق عليهم .

حفظت عائشة القرآن الكريم وهي صغيرة السن وتفتح عقلها الذكي
لمزيد من المعرفة ، وعندما كانت أشد ما تكون ظمأً إلى المزيد من المعرفة

وإلى الاستمرار في الدراسة ، بلغت سن المراهقة وفتحت فيها براعم الجمال وأشرقت عليها أنوار الشباب بمد غضارة الصبا وبراعة الطفولة . وكان هذا التحول في شخصيتها من طفلة تلتفها البراعة ، إلى صبية تطفو عليها مسحة الجمال المغربية - سبباً في تغير سلوكها . فقد لاحظت أن أعين الزملاء تنظر إليها نظرات تحمل معاني مجهولة لم تكن تحس بها من قبل . وأحست بجو جديد في بينها وبين أسرتها وهمسات عنها عندما يحسبونها في غفلة . وفهمت ما كانوا يوشوشون به ، وأدركت أنهم يفكرون في قطعها عن الدراسة وعدم السماح لها بالذهاب إلى مجالس العلم وهي على أبواب البلوغ وقدرت أنه ستمور بينها وبين أهلها معركة حامية تكون فيها هي الغلبة لاحالة إذا لم تعرف كيف تعد لنفسها أسباب النصر . وفكرت في قضيتها في هدوء تفكيراً سليماً قبل أن يفكر أفراد أسرتها ومدرسوها بجد . وجاءت ذات يوم إلى أبيها تطلب منه أن يشتري لها حصيراً من النوع الخفيف غير العريض وطلبت من أمها أن تحضر لها عباءة ، ولما سألتها والدها عن سبب هذا الطلب شرحت لهم وجهة نظرها فهي تريد أن تستمر في دراستها على مشائخها وتريد أن لا ينشغل بها أحد وتنشغل به . ووافق الوالدان على الطلب ، واستطاعت أن تضمن لنفسها الدراسة دون أن تثير عليها غضب أحد أو نقده ، ودون أن تميل أو تستهتر ، فكانت تذهب إلى الجامع العلمية متلعة في عباؤها الساترة الحاجبة فإذا بلغت المجلس جلست قريباً من شيخها ، ثم أدارت على نفسها الحصير وتحفقت في العباءة فكان شخصها مفصلاً عن الحاضرين لا تراهم ولا يرونها ولكنها كانت تستمع وتناقش وتكتب ما تشاء في حرية كاملة حتى بلغت ما بلغت واشتهرت بين رجال العلم بمعارفها وسعة اطلاعها وفصاحتها . وأصبحت الأنظار متجهة إليها في احترام وتقدير

لما جباها به الله من عقل وذكاء وفهم ، ولما تتحلى به من دين متين وخلق
قويم وعلم عزيز .

لقد كانت عائشة بنت معاذ في الجزائر مثل أم ماطوس في ليبيا ، وقد
أقامت هاتان المرأتان الحجة على المرأة المسلمة وبرهنتا على أن الفتاة إذا شاءت
فإنها تستطيع أن تبلغ أقصى ما يبلغه الرجال من المعرفة مع المحافظة على دينها
وأخلاقها ، وصيانة تامة لأسرتها وبيتها ودأبها على القيام بالأعمال المطلوبة
من المرأة في البيت دون مزاحمة الرجل على أعماله ومحاولة الجلوس في مكانه .
وزحزحته هما خلقه الله بالفطرة لتأخذه هي بالدعوى والتكليف .

تجددیت

تجددیت كانت مدينة كبيرة قرب (جامعة) قال عنها شيخ الصحافة الجزائرية وأحد أركان مهضمتها شيخنا أبو اليقظان إبراهيم رحمة الله : « كان لتجددیت شهرة عالية في العلم والعمران والنظام الجيب » . وقال بعد أسطر : « ويبدو لي بتسمية هذا البلد بتجددیت أنهم بإنشائها يحاولون مقابلة عاصمة تاهرت التي يسمونها - بتقدمت كما هو مرسوم بمحطة أطلال تاهرت، وكأنهم يهدفون بهذا إلى انعاش تاهرت القديمة - تاقدمت - باسم البلد الجديد - تجددیت - وهو مرعى بعيد ، وهدف سياسي له مغزى يرمى إلى تجديد تاهرت في الجذب » .

وقال المؤرخ الأديب الشاعر البارع أستاذنا باكلی عبد الرحمن بن صهر حفظه الله ورعاه ما يلي : « وناهيك بتجددیت وما بلغت من ازدهار وتآلق أنوار ، وقد قصت علينا السيرة ما يدهش ويهبر » .

تحدث كثير من المؤرخين على هذه المدينة التي كانت في يوم من الأيام عاصمة من عواصم العلم . ومركزاً من مراكز الثقافة الإسلامية تشد إليها الرحال ، ويؤمها الطلاب من كل مكان قال عنها أبو العباس الشماخي : « تجددیت موضع معلوم بقبيلة أربع ، وليست ببعيدة عنه اجتمع فيها من أهل الدعوة والعلماء والطلبة وأهل الصلاح ما لم يوجد في غيرها ، وعد فيها مائة عالم لا يرد أحدهم مسألة إلى الآخر إلا من جهة الأدب » .

يبدو من كلام المؤرخين أن تجددیت تكاد تكون مدينة علمية بما فيها

من العلماء والطلاب والمعاهد . فقد كان الطلاب فيها يعدون بالمئات ، ويصنفون إلى أصناف حسب مواهبهم واتجاهاتهم ورغباتهم في التخصص . تجد منهم من يستعمل التفكير ويعتمد عليه فيميل إلى كثرة الدراسة وسعة الاطلاع ويتناقش ويتنافس هذا الصنف في عدد الكتب التي يدرسها كل واحد منهم ومقدار التحصيل الذي بلغ إليه بجدته واجتهاده . وتجد منهم من يميل إلى الحفظ والاستظهار ويتنافس ويتناقش هذا الصنف في عدد الكتب التي يحفظونها ويستظهرونها عن ظهر قلب ، وقد يبلغ عدد ما يحفظه كل منهم العشرات والمئات ، وقد ذكر بعض المؤرخين أعداداً كبيرة من أولئك الطلاب الذين كانوا يستظهرون عشرات الكتب بالإضافة إلى بعض أبيات ومقاطع الأدب .

كانت تاجديت خاصة بسكنى العلماء والطلاب تقريباً ، ولذلك فقد كان يبدو عليها الجمال والنظام والنظافة وكانت مساجدها ومدارسها عامرة باستمرار وكانت تشبه أن تكون مركزاً لمناطق واسعة أهلة بالسكان يرجعون إليها في أوقات الصلوات وربما كانت أيضاً مركزاً تجارياً عامر الأسواق . وقد اعتاد سكان ضواحيها أن يأتوا إليها راكبين فيربطون دوابهم قريباً من المسجد فإذا استوت الصفوف وكبرت الجماعة تكبيرة الإحرام نفرت الدواب بسبب الدوى القوي الذي يحدثه تكبير العدد الضخم من المصلين ولعل أحسن ما يورد عنها هو الصورة التي وضعها لها المؤرخ الكبير أبو العباس الشماخي ، قال في السير ص ٤٨٨ ما يلي : « ويحضر الصلاة ثلاثمائة فارس وإذا كبروا تكبيرة الإحرام نفرت المواشي ، وهي قريبة من آجلو في الذي أعتقد . وهذا في زمان واحد ، ودخلها عامل لصنهاجة ورأى كثرة العزابة وكثرة الخلق وضيق الموضع فاعتقد أنهم يدنسون وجه الأرض بالخلاء والسجاد ، فدار فيها

وحواليها ، فلم يظفر بشيء مما تسكره عينه ، وتعافه نفسه ، فقال وقد مديده
بسيفه : ما يخاف الناس إلا من هذا أو من الله . فهذا (يعنى السيف) ليس
هذا موضعه وما منعهم من ذلك إلا خوف الله .

هذه الصورة التي عرضها علينا المؤرخ الكبير أبو العباس الشماخي
وهذه الملاحظة الدقيقة التي لاحظها العامل الصنهاجي إنما تدل على شيء واحد
هو أن سكان هذه المدينة رغم كثرتهم وضيق مدينتهم كانوا يتأدبون
بأدب الإسلام ، من المحافظة على للنظافة والطهارة ظاهراً وباطناً في أنفسهم
وفي موطنهم بحرص واهتمام .

ولأنهم كانوا يحرصون على وسائل الصحة التي دنا الإسلام إليها وحرص
على مراعتها قبل أن يستيقظ الطب الحديث وقبل أن تستيقظ لها الحضارة
الغربية فتأخذ منا لتبيعه لنا مصنعة في مناشير وتقارير .

إنه لغريب حقاً أن تجول في مدينة أو قرية خاصة بالسكان في القرن
الخامس الهجري وتجول في شوارعها وحواليها فلا تقع عينك على قدر تشمئز
منه نفسك وينفر منه طبعك . وقد يقيس في ذلك الحين أن تجد شوارع
قرية نظيفة ، أما أن تجد الشوارع جميعاً وأن تجد أيضاً ما حول القرية . من
النظافة بحيث لا ترى فيه ما تقذى منه العين من بقايا السكاسة أو متناثر
السماد الذي يخرج أهـل القرية ليرمى في مزارع بعيدة تستفيد منه الحقول
ولا يتأذى منه الناس . لقد كان هذا الموقف البظيف حقاً غريباً في ذلك
العصر وبوسائله ، ولسنا نحن فقط نراه غريباً وإنما سبقنا إلى ذلك ، ذلك
المعاصر الدقيق الملاحظة المرفه الإحساس الذي يفرق بين من يسير بهدى الله
ومن يسير بتلويحات السيوف وهزات السباط .

من العلماء الذين عاشوا في هذه المدينة العلامه أبو الربيع سليمان بن عبد الله ابن شاكر الفطناسي. قال شيخ الصحافة الجزائرية وأحد أركان نهضتها شيخنا أبو اليتظان رحمه الله ما يلي : « وكان من بين علمائها أبو الربيع - إيمان ابن شاكر الفطناسي يحف حوله مائة عالم يشار إليهم بالبنان » .

ونقل الإمام أبو إسحاق أطفيش رحمه الله ورضي عنه عن أبي الربيع في مقام الاحتجاج ما يلي : « ومثل هـ - ذا ما ذكر سليمان بن عبد الله ابن شاكر الفطناسي المزاتي قال : أدركنا في فطناسة وكانت قبيلة قليلة العدد من مزاة - اثني عشر مسجداً كلها عامرة بالآذان والجماعات والمجالس : أى مجالس العلم » .

عاش هذا العالم الكبير في القرن الخامس الهجري ونقلت عنه هذه الرواية سنة ٤٦٧ هـ ما قوله الإمام أبو إسحاق رحمه الله .

كان أبو الربيع الفطناسي من أولئك العلماء الأشداء في دين الله القائمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . لا يعرفون المسايرة في دين الله ، يقفون مع الحق حيث وقف ، ويصدعون بأرائهم لا يبالون رضى الناس أم سخطوا ، فإذا تبين لهم خطأ في قولهم أو في عملهم . لم يتأدوا في الضلال ، وسارعوا إلى التوبة ، ورجعوا عن الخطأ إلى الصواب غير مباينين بالناس وأقوالهم .

قرر أبو الربيع أن يقوم بجولة يزور فيها أهل الدعوة ويتفقد أحوالهم . تخرج من بلده تاجديث ينتقل من بلد إلى بلد ، يطلع على الأحوال ، ويدرس الأوضاع ، ويفيد ويستفيد . فاستغرقت الرحلة منه وقتاً غير قصير ، ولما رجع إلى بلده تاجديث وجد أن أهل البلد قد همدوا إلى أرض مشاع بين

أهل المدينة ففروا وعمرها واستقلوها بأنواع من النخيل والأشجار .
فماب عليهم ذلك وانتقد سلوكهم وتصرفهم في المشاع كما يتصرفون في
أملاكهم الخاصة . ووقف على باب المسجد يصيح فيهم بصوته الداوى :
« ما هذا الحدث الذي أحدثتموه » . وكان في داخل المسجد العلامة أيوب
ابن أبي هرمان فأجابه من الداخل بأن مهلمهم ذلك جائز ، وأنه لا يصطدم
بشريعة الله . وكان في المسجد أيضاً العلامة أبو يعقوب يوسف بن يعقوب
فأجبه إليه أبو الربيع وقال له : ما حفظت يا يوسف في هذه المسألة عن شيخك
وارسفلاس بن مهدي النفوسى . قال أبو يعقوب : إن اتفق أهل المشاع
على غرسه جاز وتجري عليه أحكام الملك كلها ، وإن عاد خراباً رجع إلى
المشاع فاقنع أبو الربيع بما ذهب إليه أولئك العلماء وأفتوا به ، وأقلع عن
إنكاره . واعتذر عن موقفه من إخوانه ، وشدة إنكاره عليهم .

هذا كان دأب أولئك السلف الصالحين ، يمسك أحدهم بما يراه الحق
ويتشدد فيه ويدعو إليه ويدور معه حيثما دار ولا يأنف أحدهم أو يتكبر
عن الرجوع عن رأى أو قول كان يقول به إذا عرف أن الحق في غيره .
فرحم الله أولئك الناس الذين كانوا يطلبون الحق .. والحق فقط
أينما كان وكيفما كان .. ومهما كانت نتائج الطلب .

أراضى تقرت

أخذت هذا العنوان من المؤرخ الكبير الأستاذ أحمد توفيق المدني فهو يقول في تاريخه القيم (كتاب الجزائر) صفحة ١٨٢ ما يلي :

« أرض تقرت وهى الناحية الشرقية من أرض الجنوب العسكرية^(١) وموقعها جنوب مقاطعة قسطينة ، تشمل عدة واحات بدبعة ، تستمر إلى وادى أربع ، ووادى سوف ، ووادى ايغارغار . »

ويقول بعد سطور فى صفحة ١٨٣ ما يلى : « من أشهر مدن هذه الدائرة تقرت ، ووادى سوف ، وورقلة » . وأنا حينما أطلق هذا الاسم فأنا أقصد تلك القطعة المباركة من الأرض الجزائرية العامرة التى تقع غرب الحدود التونسية من جهة بلاد قسطنطية والجريد ونقطة التى تشمل كثيراً من الواحات وبلاد الرمال والأراضى الشاسعة التى كانت وما تزال مرتعاً خصباً لتربية المواشى ولا شك أن المؤرخ الذى يتبع آثار الإباضية فى مراحل الزمن وفى بطون التاريخ سرف يتردد بين عينيه كثيراً - الأسماء الآتية : سوف وأربع وواغلانت وآجلو وتقرت وبغاي وما بين هذه المواطن وما جاورها .

أما وارجلان فقد كانت بمثابة العاصمة العلمية والدينية للإباضية فى الجزائر بعد انقراض تاهرت وهجرة سكانها إلى مختلف البلاد .

وسوف نتحدث عن وارجلان فى فصل خاص بها . أما هذا الفصل

(١) اتبع الأستاذ المدني التقسيمات الإدارية فى عهد ال-تعمار الفرنسى لأنه وضع الكتاب فى ذلك الحين .

فسوف نمر فيه مروراً سريعاً على ما سميناها أراضى تقرت وذكرنا أسماها بعض مدنه وواحاته وقراه التي كانت عامرة بالعلم والعلماء خاصة بالمدارس والماجد ذات حركة نشيطة إلى عصور متأخرة، واليوم قد انقرض الإباضية منها جميعاً كسكان أصليين، وإن كان يوجد بها جماعات منظمة منهم يشتغلون في مختلف ميادين الحياة الحرة ولا سيما التجارة. وأغلب هؤلاء إنما وفدوا إلى تلك البلاد إما من وادي ميزاب أو من وارجلان وقد يوجد هناك أفراد من جربة.

كان أكثر سكان الجزائر في القرنين الثامن والثالث على المذهب الإباضي، يقول الأستاذ توفيق المدني في كتاب (الجزائر) صفحة ٢٠ مايلي:

« واعتنقت الأغلبية الكبرى منهم المذهب الإباضي الذي نشره بينهم من قبل دعاة الإمام أبي الخطاب من طرابلس الغرب ». ويقول بعد قليل:

« وكان المذهب العام يومئذ للبربر في كل بلاد الدولة هو المذهب الإباضي ».

هذه الصورة التي يرسمها المؤرخ الجزائري الكبير لانتشار الإباضية في الجزائر إنما كانت في القرنين الثامن والثالث ولكنها بعد ذلك تغيرت تغيراً ملحوظاً. فعندما تغلب العبيديون على الدولة الرستمية واستولوا على عاصمتها تاهرت، عملوا ما وسعهم الجهد على مطاردة الإباضية في كل مكان، ومحاربتهم محاربة مستمرة، تساعدهم في ذلك منازع العصبية المذهبية في ذلك الحين. ولذلك فقد تناقص وجود الإباضية في جهات الشمال، وتركزوا في جهات الجنوب الشرقي للجزائر، الجنوب الذي عبرنا عنه في عنوان هذا الفصل بأراضى تقرت وما جاورها.

يقول المؤرخ الكبير شيخنا باكى عبد الرحمن ما يلي: « المواطن التى كانت آهلة بالإباضية فى القطر الجزائرى هى: الزاب ووادى أربع وسوف وتجديث والرمال ووارجلان بما فيها سدراته ونواحيها التى ازدهرت فيها حضارة رائعة دلت الحفريات التى أجرتها الآنسة مارغريت فان برشاييم العالمة التى انتدبتها الحكومة الفرنسية للبحث عن الآثار القديمة بالقطر الجزائرى على زخرفة ونقوش فى غاية من دقة الصنع مما يدل على أن الفن المعمارى قد بلغ فى تلك النواحي أوجاً بعيداً ، وأثبتت فى فصول نشرتها بالمجلة المصورة الفرنسية « الجيريا وأفريقيا الشمالية » عدد جويلية أكتوبر ١٩٥٣ م أنها كانت أرقى بكثير من الفن الأندلسى الذى كان مضرب المثل فى تلك العصور، وأطبقت شهرته الآفاق وقد خصص لآثارها فى متحف الآثار الجزائرى قاعة باسم (قاعة سدراته) والمدن المجاورة ككريمة وجبل العباد وإفران وأنقوسة إلى مدن كثيرة انتهى عددها إلى نحو ثلاثمائة كما وجدته فى بعض التقايد القديمة مما يدل على ما للأصحاب هناك من سطوة وهوران ، وقل مثل ذلك فى آجلو وتجديث وقد أسلفت عنها بعض القول والرمال وهو موضع لا يبعد كثيراً عن سوف كان كذلك موطناً من مواطن الأصحاب الآهلة. وجبال بنى مصعب - ميزاب بما فيها . وعدد مدن ميزاب العامرة اليوم والقرى التى خربت وجلا عنها سكانها ثم قال : « ومدينة متليلى التى تبعد عن غارداية بنحو ثلاثين^(١) كيلو متراً غرباً كان قسم من سكانها إباضيين ، ويحكى عن مدينة الأغواط التى تبعد نحو مائتى كيلو متر عن عاصمة وادى ميزاب شمالاً كانت آهلة بالإباضية أيضاً ، وبلدة المنيعمة (قلية) البعيدة

(١) لا يزال فى الأغواط وفى متليلى عائلات تنتمى إلى عائلات إباضية فى وادى ميزاب مربوط بينهما علاقات نسب وهم حتى الآن يتزاورون ويتهادون .

عن وادى ميزاب بثلاثمائة كيلو متر غرباً كان الإباضيون يسكنونها .

لا شك أن أستاذنا الكبير عندما قال هذا الكلام كان يقصد العصر الذى بعد الدولة الرستمية ، لأنه يقصد تلك العصور التى انكش فيها الإباضية وتجمع أكثرهم فى بلاد بعيده عن فتنه الحكم والحكام ، واعتزلوا ميدان السياسة وقصروا اهتمامهم على الفاحيتين الدينية والعلمية ، أو الروحية والعقلية . وقد عمرت بهم واحات الجزائر وكان العلماء ينتقلون فى قرافل كبيرة بينها ، يواصلون الدراسة فى رحلاتهم و يقيمون الصلاة فى مساجد متنقلة من الحصر تحمل على الإبل فإذا أقاموا بمكان نصبوها وإذا أرادوا الرجيل طووها وأخذوها معهم .

رحلة وزيارة

كانت تمر على أثناء قراءتي أخبار وأحداث عن وارجلان ، وعن رجال العلم والعمل في وارجلان ، وعن وفود الطلبة والتجار إلى وارجلان ، وعن القوافل المسافرة إلى أفريقيا السوداء من وارجلان ، وعن الحركة التجارية الواسعة التي يقوم بها أبناء وارجلان عبر الصحراء إلى الجنوب .

فكنت أتصور وارجلان مدينة على شكل شبيه ببعض المدن الواقعة في جنوب المغرب الإسلامي ، واحة من تلك الواحات التي تجمع الظل الظليل والماء العذب ، والخضرة اليانعة ، والحياة الآمنة المستقرة النشيطة ، في حفرة من حفر الصحراء ، تكثفها ألوية الرمال ، أو سلاسل الجبال وكانت هذه الصورة قد تضيق وقد تتسع وأنا أقارنها ببعض ما أعرف من مدن الصحراء .

وقد أتيت لي أن أقوم برحلة إلى الجزائر في صيف سنة ١٩٦٥ مع بعض الأصدقاء من جبل نفوسة زرنا فيها كثيراً من أنحاء الجمهورية الجزائرية المكافئة وقضينا منها نحو عشرة أيام في الواحات أنسانا فيها الأصدقاء الأعداء أهلنا وبلادنا . وقد كنت أسجل خواطر سريعة أثناء الرحلة ثم نسقتها بعد ذلك في فصول قد يتاح لي نشرها في يوم من الأيام .

وأحب أن أنقل إلى القارئ الكريم هنا فصلا من تلك الفصول حتى أشركه في خواطري وأنا أنتقل من وادي ميزاب العامرة الذي اعتبر أهله لي أهلا وجباله وهضابه ووديانه لي وطناً إلى وارجلان العظيمة .

في أصيل يوم ١١/١٠/١٩٦٥ انطلقنا من وادي ميزاب في رقة طيبة من المشائخ والطلبة والأصدقاء وقد تفضل شيخنا الفاضل مدير المدرسة الجابرية الشيخ محمد بيانو فرافقنا في تلك الرحلة المباركة مع ما يسبب له ذلك من أتعاب ومشاق . كنت أحمل في نفسي لهذه المدينة العظيمة ذكريات مجيدة في خدمة الإسلام لمدة تقارب ألفاً ومائتي سنة ، كانت في عشرة قرون منها عاصمة دين وعلم وخلق واقتصاد . وكانت طريقاً للدعوة الإسلامية إلى أفريقيا السوداء ، الدعوة التي يحملها المؤمنون الصادقون . بسمهم وهديتهم وخلقهم وعلمهم وعملهم ، دون أن تحرسهم قوات مسلحة أو تمهد لهم جيوش منظمة ، أو تسبقهم دعوات مبشرة ، أو تنفق عليهم أموال لا حساب لها ، ولعل النور الذي يومض اليوم في أمكنة كثيرة من أفريقيا السوداء إنما كان أكثره قبسات حملها أفراد مؤمنون عن طريق وارجلان أو ما شابهها من المدن الصحراوية التي تعتبر ثغوراً أو منافذ إلى جهات الصحراء وما وراء الصحراء أما من الناحية العمرانية فقد كنت أرسم لها في مخيلتي صورة لبلدة مجنية بالطوب في منخفض من الأرض تكتنفها رمال أو هضاب . كالذي أعرفه من غدامس أو بعض الواحات الأخرى ، ولكن الحقيقة فاجأتني بغير ذلك فلقد وضحت أمام عيني وأنا مقبل على وارجلان مدينة عظيمة فسيحة مستبجرة العمران ، متسعة الأرجاء تقلاًلأ فيها أنوار الكهرباء ويحيط بها إطار أخضر من النخل الباسق الذي بدأ يؤتي أكله في ذلك الحين .

ومنذ تراءت لي مشارف وارجلان العظيمة خيّل إلى أنني رحلت عبر عصور طويلة من التاريخ ، وأنني أعيش هذه اللحظات في وارجلان القديمة

العزابة أو شيخه غالباً . وفي هذه الحال يحرص المؤرخون عندما يتحدثون عن الشيخ الأخير أن يصفوه بالحكم فيقولون : « شيخ الحكم » حتى لا يشنّه على القارىء فيظنه شيخ العزابة ، وقد تجتمع المشيختان في النادر عند شخص واحد وحينئذ تكون جربة على أهنأ الأحوال .

٣- في وادى ميزاب طبق نفس النظام الذى طبق فى جبل نفوسة مع تقليل بسيط فى صلاحية شيخ الوادى أو شيخ العزابة ، وإن كانت اختصاصات المجلس الأعلى للعزابة فى الجبل وكل ما هنالك من فرق أن شيخ العزابة فى الجبل يطلق عليه فى كثير من الأحيان اسم حاكم الجبل ، وقد يتخذ إجراء أو يصدر آراء فى شأن من الشؤون المستعجلة دون أن ينعقد المجلس أو يدعوه إلى الانعقاد ، وذلك غالباً فى الأحداث الطارئة ولا سيما فى قضايا الدفاع ورد العدوان .

أما شيخ المجلس فى الوادى فهو يعلن الاتفاقات التى صدرت فى المجلس وليس له أن يصدر أمراً إلى جميع سكان الوادى دون الرجوع إلى انعقاد المجلس واتخاذ القرار فيه . وقد يعود هذا فيما يبدو إلى طبيعة البلاد فانعقاد المجلس فى الجبل تسكتنه صعوبات كثيرة كبعد المسافة ووعورة الطريق ويحتاج انعقاد المجلس إلى ما لا يقل عن أسبوع من التحضير والذهاب والإياب . ولذلك فإن الأمور التى لا تحتل التأخير يصدر فيها حاكم الجبل أمره ويتصرف حسب مقتضيه المصلحة العامة مع استشارة أهل العلم والرأى ممن حوله ، أما طبيعة وادى ميزاب لا سيما قبل القرارة ويريان فهى تشبه أن تكون مدينة واحدة ذات ضواحٍ ، والاجتماع فيها سهل يتم بيسر وفى مدة قريبة ، وقد فضل أهل الوادى أن يكون اجتماع المجلس فى مسجد الشيخ أبى عبد الرحمن السكرتى ثم نقل إلى مجلس عمى سعيد الخيرى الجربى .

٤ - في بقية بلاد الإباضية من المغرب الإسلامي كان مجلس العزابة يطبق على طريقة فردية أى أن كل قرية أو مدينة لها مجلسها الخاص بها والذي لا يرتبط في كل مشاكله بمجموعة من المجالس المتقاربة أو المترابطة .

ويتضح من هذا أنه بينما كان ارتباط مجالس العزابة في كل من جبل نفوسة وجربة ووادي ميزاب لمجلس أعلى له الكلمة النافذة على جميع المجالس وشيخ واحد يتولى تنفيذ قرارات المجلس مع اختلاف بسيط في الاختصاصات فإن بقية قرى ومدن الإباضية في المغرب الإسلامي لم تتوحد فيها مجالس العزابة على شكل كتل حتى في القرى الكثيرة المتقاربة كما هو الشأن في القرى التي أشرنا إليها آنفاً وإنما كان لكل قرية أو مدينة مجلسها الخاص يتولى شؤونها منفرداً دون الارتباط بمجلس القرى الأخرى أو الرجوع إلى آرائها ولا يتعدى شؤونها التي يشرف عليها ويتولى قيادتها .

ومع ذلك فإن الأحكام التي يصدرها أى مجلس عزابة في أية قرية من تلك القرى على شخص من الأشخاص بالبراءة أو الهجران كان يجذ صدها في جميع الأماكن الأخرى . وتتجاوب جميع المجالس في ذلك لا يخل واحد منها بالحكم ولا يستطيع المحكوم عليه أن يلتجئ إلى بلد آخر ليزيح عنه حكم الهجران إلا بعد أن يعلن النوبة ويتنصل من التبعة إن كانت عليه تبعة وقيل منه العزابة في ذلك المكان أو غيره ، ويتلخص من هذا أن مسلك الإباضية بالنسبة إلى مجلس العزابة كان على نمطين الأول تكتل عدد من المجالس لعدد من القرى تحت مجلس أعلى . والثاني انفراد كل قرية بمجلس مستقل . وقد أدى نظام العزابة في البلاد التي انبع فيها النمط أو الاتجاه الأول (الارتباط بين المجالس) إلى حفظ مجتمع له خصائص الدولة الصغيرة ماعدا الاسم . وساعد على تكوين مجتمع متماسك ذي خصائص واضحة حافظ

وذهلت هذه الخواطر في نفسى عواملها بالإضافة إلى أرق الليلة السابقة
وإلى سهر متواصل لعدة ليال وأسفار متتابة . فأصبت بنوبة قلبية سببها إلى
مرض الربو الذى يلازمى زمناً فكاد نياط قلبى يتقطع وانقطع عنى التنفس ،
واشتد خفقان قلبى وتصيب منى العرق . وأصبحت فى حالة من التعب
والإعياء لا أملك معها حركة ولا أستطيع كلمة فأحاط به الإخوان يخفقون
عنى ويساعدونى ويتلطفون به حتى بلغت المكان الذى اختاره علماء
وارجلان وسدراته الصالحون لإحياء الليل ومناجاة خالق الخلق عندما
يسكن الناس ويغفو الكون ويسود السبات على الحياة فيكونون هم فقط
هنالك يناجون خالق الخلق ، وقد رقت نفوسهم ، وتخلصت من شوائب
الدنيا وعلاقاتها . استمدار الإخوان فى المسجد^(١) لتلاوة ما يقيسر من
كتاب الله وكنت أتمنى لو تركونى خارج المسجد ولكن الإخوان أضروا
أن أكون من يذنبهم وبقيت فى المسجد صامتاً إذ كنت فى حالة من التعب
لا أستطيع معها القراءة . وعندما اختتموا أداروا الدعاء وجاء دورى ،
فأحجمت عن الدعاء . أحجمت لأن الخواطر بدأت من جديد تهجس فى
نفسى ؛ بأى حق أدعو فى هذا الحرم المقدس الذى دخلته دون أن أستأذن
أصحابه ؟ وما يدرينى هل كان أولئك العمالقة العظام يرضون عن هؤلاء
الأقزام وهم يتعجبون عليهم خلوتهم لمناجاة ربهم . إن أمكنة العبادة
المشتركة والتي يحق لكل مسلم أن يدخلها وأن يعبد الله فيها متى شاء وكيف

(١) ليس فى المكان بناء وإنما أطلقت عليه كلمة المسجد لأنه الموضع الذى اختاره أولئك
الصلحاء للعبادة وكانت الصلاة هى أعظم وأكبر ما يتقربون به إلى الله ولكن فرادى
لأنها تطوع ويرى الزائر هناك ما لا يدخل تحت حصر من الحاريب على الأرض حيث يقف
كل واحد منهم

شاء إنما هي المساجد المقامة للجميع . أما هذه الأماكن الخاصة التي يعكبدون مشاقق وتعباً غير قليل ليجعلوا فيها على خلوة إنما هي ملك خاص لهم وحرم مقدس لا يجوز انتهاكها ولو شاء أن يقتدى بهم أن يتخذ لنفسه خلوة يأوي فيها إلى الله متى شاء .

فنا بعد ذلك لنزور أطلال سدراته ، تلك المدينة العظيمة التي كانت لها شهرة في العلم والدين لا تقل عن شهرة وارجلان . واشتهرت اليوم بأبها تجمل آثار حضارة إسلامية شبيهة بما تركه المسلمون في الأندلس وقصدها علماء الآثار من أوروبا وقاموا فيها بأبحاث وحفريات لم تذهب سدى .

كان الإخوان ينظرون إليها كمدينة أثرية يعجبون لما يجدون فيها من دلائل الاهتمام بالبناء والزخرف ، أما أنا فكنت أنظر إليها من زاوية أخرى ، ونزلنا من جبل العباد وسرنا حتى بلغنا منبسطة من الأرض ، تفرج فيه ألوية من الرمال تفسر كل شيء ، وقالوا ها هنا كانت مدينة سدراته العظيمة . قلت في نفسي نعم إنه أنسب مكان تقوم فيه مدينة إباضية تبلغ الفة في العمل لله ، سرنا فيها غير قليل حتى بلغنا بعض ربوات صغيرة ظهرت عاينها آثار بسيطة من البناء ، قالوا ومن هنا تبدأ الآثار العمرانية لهذه المدينة الخالدة ، قلت في نفسي وهذه الآثار البسيطة من الاحتفال بالبناء قد تكون من آثار أولئك الأجداد العظام .

وسرنا قليلاً فوجدنا آثاراً فيها نقوش واحتفال بالزخرف ، واهتمام بال عمران وطول الحياة والبقاء . وكان الإخوان فرحين بعثورهم على هذه الآثار الدالة على الحضارة والتقدم في تلك العصور ، أما أنا فقدت كانت تقوم في نفسي معركة حامية من دلالة هذه الآثار . لأن تلك المعاني التي يفرح

لها الأصدقاء والتي توحى بها هذه الآثار هي أبعد ما يمكن أن أتصوره لأصحابنا في تاريخهم المجيد الطويل ، وكنت أقول في نفسى إن هذه الآثار التي يبدو عليها الاحتفال بالفن والاهتمام بالعران - والعمل للبقاء والنشبت بالخلود في الدنيا - لا تكون أبداً لأصحابنا . إنها بكل تأكيد ليست من همل الإباضية . فهى إما أن تكون سبقتهم وإما أن تكون لغيرهم ممن كان يعيش بينهم في عهد الرخاء والازدهار .

إن الإباضية في تاريخهم الطويل في المغرب الإسلامى لم يحفلوا بهذه النظرة الدنيوية التي ينظر إليها الناس ، ولم يأخذوا في حسابهم أبداً أن يببنوا للبقاء ، أو يشيدوا للخلود ، ولا أن يزخرفوا للجمال ، ويشتمغفوا للفن ، لأن كل ذلك في نظرهم عبث يقتره عنه المؤمنون . والتماس الخلود في الدنيا يعتمد عنه من يعملون للآخرة وللقاء ربهم ينتظرون .

ولو كان في الزخرفة والاحتفال بالمباني الشاهقة ، وبذل الجهود المضيئة لإقامتها خير، ما عابها الله تبارك وتعالى في كتابه الكريم على الأمم السابقة مثل قوله تعالى لعاد قوم هود عليه السلام : ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيحٍ آيَةٌ تَعْبَثُونَ . وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ . وَإِذَا بَطِشْتُمْ بَطِشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾^(١) في أمثالها فكأنما الإباضية في المغرب الإسلامى كانوا يخشون أن ينالهم طرف من هذا الوعيد فكانوا أبعد الناس عن الاهتمام بمظاهر الحضارة الصناعية اللهم إلا في جانب واحد من الحياة ذلك أنهم شيدوا في كل مكان عاشوا فيه مساجد يخططها العد في جميع القرى والمدن التي همروها ، وحرصوا على أن تكون تلك المساجد متينة البناء فسيحة تقسع للأعداد الوافرة كما حرصوا أن يخصصوا في تلك المساجد أقساماً للنساء تحجب الرؤية ولا تمنع الصوت لتمكن المؤمنات من حضور الصلوات والاستماع إلى الدروس وهن مصونات دون أن يؤذين

أو يتأذين . كما حرصوا أن يحملوا في تلك المساجد جميع المرافق التي تيسر على المسلم وسائل الطهارة دون أن يمرض لأذى الحر في الصيف أو أذى البرد في الشتاء وعملوا لتوفير المياه فيها إما بالآبار أو الصهاريج ولكنهم في كل تلك المساجد التي أقاموها واحتفلوا لبنائها لم يهتموا بالزخرف أو النقش أو الفن لأن المؤمن عندما يأوي إلى بيت الله ينقطع عن حظوظ الدنيا جميعاً ليتصل بالله فهو حري أن لا يشغل فكره بما على الجدران من فنون لأنه ليس في زيارة لمتحف أو معرض وإنما هو في مكان ينقطع فيه عن الدنيا ليصل حبال قلبه بالله .

رجعنا من سدراته إلى وارجلان وأنا لا أزال منك القوى مضعع الحواس ، فقصدا محلا من محلات الإخوان . وأتيح لي فيه أن أستريح قليلا قبل وقت الغذاء . وغفوت غفوة قصيرة ردت لي بعض النشاط . ودعانا الإخوان إلى جنان من أجنهم الفيحاء لتناول الغذاء . وحضر الغذاء جمع كبير من أكرم الإخوان ودارت أحاديث ، تمتع في العلم والتاريخ والأدب وعلوم الشريعة حرمت من أكثرها لأني كنت مشغولا بتصفح الكتاب القيم « غصن البان في تاريخ وارجلان . » الذي لا يزال مخطوطاً بكل أسف ولما لم يكن في إمكاني استعارة الكتاب ، ولا نقله في تلك الساعات القلائل كنت أوشر على بعض الفصول التي أرى ضرورة قصوى في الاطلاع عليها وطلبت من صديقنا الفاضل الأستاذ الشيخ أبي معقل عمر بن داود ابن الحاج أحمد أن ينقلها وأن يرسلها إليّ في أسرع وقت ممكن وقد فعل جزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً .

وبعد صلاة العصر ودعنا الأصدقاء للسفر إلى تقرت وكنت أودع

الإخوان وأنا أحس أنني لم أزر وارجلان ولم أتعرف على أهلها الكرام
الأماجد ولم أتعرف على حياتهم في حاضرهم وأنا قد قصرت كل التقصير
في حتمهم ، وكنت أعاهد نفسي على الرجوع^(١) في أقرب فرصة لأعرف
وارجلان الحاضرة لأربط بين وارجلان التي عرفتها من خلال الكتب
في قرون من التاريخ الطويل وبين وارجلان المعاصرة التي تكافح في جلد
وصبر وثبات لتقيم مجدها الحاضر الزاهر على ماضيها الراسخ الثابت . ولأرى
مقدار ما يعده شبابها المسلم المؤمن من وسائل لمحاربة ما تجره الحضارة
المستوردة من بدع ومفاسد تحاول أن تجتث أصول الإيمان بالله والاعتماد
عليه في كل صغيرة وكبيرة من قلوب الشباب في ديار الإسلام حتى يبقوا
كالتطيع الذي لا راعى له فيسهل على الذئاب الفتك به وتقطيع أوصاله .

(١) وقد أتيت لي أن أعود إليها بعد إحدى عشرة سنة وذلك في يوم الاثنين ٤ شوال
سنة ١٣٩٦ هـ حيث تمكنت من قراءة الفصول التي كتبتها عن تاريخ وارجلان على الأخ
العزيز الشيخ أبي معقل عمر بن داود .

قيل عن أهل وارجلان

« وأهل ورقلة كلهم رجال خير وإيمان وصلاح ، يهاجرون كثيراً إلى
جهات الشمال لأجل العمل ، فلا تكاد تحصى على أحد منهم سيئة أو هنة .
(كتاب الجزائر).

أحمد توفيق المدني

وارجلان

لقد كانت وارجلان في عصور طويلة عاصمة للإباضية بكل الاعتبارات وقد كتب عنها جمع من المؤرخين الذين تحدثوا عن المغرب الإسلامي في كل فترات تاريخه وتناولها كل واحد منهم من الزاوية التي ينظر منها وكانت من العظمة بحيث يجد كل ناظر صوراً جميلة للعرض ، وكل متحدث ميداناً فسيحاً للحديث ، ويسرني - في هذا الفصل - أن أدع المجال للمؤرخ الكبير الشيخ إبراهيم بن صالح أعزام رحمه الله صاحب كتاب « غصن البان في تاريخ وارجلان » يضع لنا إطاراً نعرض في داخله صوراً من تاريخ هذا البلد العظيم .

قال الشيخ أعزام :

« هذا الوطن من الأوطان القديمة ، يحق أن يكون له تاريخ عظيم مكتوب بحروف من نور على صفحات قلوب أبنائه . وكيف لا وهو من فاتح القرن الثاني وطن إسلامي علمي ، أثبت كثيراً من فحول العلماء وأعظم الرجال . حتى أن الإنسان لا يمر بشارع أو طريق إلا ويسمع هذا قبر الشيخ فلان ، أو مسجد العلامة فلان ، أو محفزة العالم الفلاني إلى غير ذلك من الألقاب الشريفة . والشاهد على ذلك العيان ، وليس بعد العيان بيان .

ومن يرد تحقيق هذا الخبر يَصِلُ إلى بلادنا وَيَنْظُرُ

ويقول بعد أسطر :

« وكان فيه من الخزان المملوءة بالمجلدات^(١) والأسفار الضخمة في

(١) وجدت رسالة مبشرة قديمة عن تاريخ سدرياته ووارجلان اكتشفها باحث

إفريقي ولم يسهلني الحظ بالحصول عليها حتى الآن . أعزام

الفنون المختلفة ، من تاريخ وفقه وحكم وتفسير وغير ذلك من العلوم العقلية .
ولكن الفتن العمياء أعدمتها حرقاً وتمزيقاً ، ولم تبق منها بقية ، وحتى أن
الإنسان مهما بحث أشدَّ البحث لا يجد ولو أقل قليل من تلك الأسفار إلا
بعض وريقات لا تفي بالمقصود .

ويتحدث الأستاذ أعزام عن سدراته فيقول :

« بلاد سدراته منسوبة إلى شعب من شعوب البربر من بطون زناتة
وهي بلاد كثيرة يسكنها معتنقو المذهب الإباضي قديماً ، ولم ينزحوا عنها
إلا بعد ما خربها يحيى بن إسحاق الميورقي المعروف بابن غانية سنة ٦٢٤ عند
ثورته على الأمير يعقوب بن المنصور أحد أمراء الموحدين كما كان بيان
ذلك في محله ، وبقيت البلاد إلى الآن خراباً » .

ويقول بعد أسطر :

« وبعد خراب البلاد تفرق الباقي من ساكنيها إلى وادي ملوية التي
هي الحدود بين بلاد وارجلان والبلاد المرأكشية ، والبعض سكن وادي
ميزاب والبعض الآخر انضم إلى وارجلان » .

توعد الأستاذ أعزام بعد هذا فصلاً تحت عنوان : بلاد وارجلان عند
المؤرخين . قال فيه :

« وارجلان ، واركلان ، واركلا ، ورقلة ، وارقلا ، وارقلان . هذه
الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديماً وحديثاً إلا أن الاسم المعروف به
الآن - وارجلان - وورقلة اسم لعاصمة بلاد كثيرة تحت نفوذها يسكنها
الآن أخلاط من الإباضية والأعراب ورجال الحبشان ، والأصل فيها الأولون
من قبائل زناتة ومزاتة وبني يفرن ومغراوة . كما سنذكر أقوال المؤرخين ،

وربما نذكر المؤرخ والكتاب وعدد الصفحة والجزء ليراجع من أراد التحقيق وعلى الله الاتسكال .

وقد نقل الأستاذ أعزاز أقوال جمع من المؤرخين قدماء ومحدثين عن وارجلان وعن جغرافيتها وموقعها وسكانها . وعن حياتها وحياة أهلها . ومن نقل عنه من القدماء : ابن خلدون ، والحموى ، والبكرى ، والعياشى . ونقل أيضاً عن السالى والكعك وبيرم التونسى .

والقارىء لكتاب غصن البان ولما نقله مؤلفه عن غيره من المؤرخين يفهم أن كلمة (وارجلان) إنما هى اسم لإقليم واسع ذى خصائص جغرافية وهمرانية وتاريخية ودينية . أما كلمة (وارقلة) فهو اسم لعاصمة هذا الإقليم ومما يساعد على هذا الفهم ما نقله الأستاذ أعزاز عن الحموى :

« وارجلان كورة بين إفريقييا وبلاد الجريد ضاربة فى البر كثيرة النخل والخيرات يسكنها قوم من البربر » .

ونقل الأستاذ أعزاز عن الشيخ السالى قوله : « وارجلان وادٍ بأرض المغرب فيه همارة ينزلها أصحابنا » .

ولقد نص الأستاذ أعزاز على هذا المعنى فيما نقلته لك فى أول هذا الفصل حيث قال : « وارجلان ، واركلا ، وورقلة ، وارقلا ، وارقلان ، هذه الأسماء كلها واقعة على هذا الوطن قديماً وحديثاً إلا أن الاسم المعروف به الآن (وارجلان) . وورقلة اسم لعاصمة بلاد كثيرة واقعة تحت نفوذها » .

ويبدو لى أن تلك البلاد الكثيرة والقرى العامرة والمدن المنقشرة والعيون الجارية والغابات الكثيفة الخصبية قد تضاءلت كلها ولم يبق منها إلا هذا العمران الذى تشتمل عليه مدينة وارقلة التى كانت عاصمة .

وبذلك أصبحت كامتا وارجلان وورقلة اسمين لمدينة واحدة هي نقطة اتصال هامة بين الجزائر وتونس وليبيا والصحراء ، ولموقعها الجغرافي الهام كانت مركزاً تجارياً وعلمياً هاماً في مدى اثني عشر قرناً وما تزال .

ولما كان هذا الكتاب ليس كتاب تاريخ يتبع الزمن عصرراً عصرراً ليسجل الأحداث حسب وقوعها فإنه لا يفوتني أن أضع صوراً للقارئ الكريم عن هذا الوطن العظيم الذي كان مركز إشعاع ومقصد رجال العلم والدين من جهة ، وهدفاً يضربه المنحرفون بغير هوادة من جهة أخرى . ومرتاداً خصباً يتحلب عليه ريق المغامرين من جهة ثالثة .

وأحسبني أستطيع نظراً للأحداث الكبرى التي وقعت في هذه البلاد أن أقسم تاريخه إلى عهود يمتاز كل عهد منها بخصائص واتجاهات وأحداث ينفصل بها عن العهود الأخرى وإن شاركها في بعض المظاهر إذ لا شك أن تلك العهود يبنى بعضها على بعض ويأخذ منها . فمن المستحيل أن تكون فترة تاريخية لحياة أمة ما منفصلة كل الانفصال عما سبقها وما لحقها .

ولقد سبقني الأستاذ أعزام — وله الفضل — إلى هذا التقسيم فله الشكر

ينقسم تاريخ وارجلان إلى أربعة عهود هي كما يلي :

- ١ — العهد الأول من الفتح الإسلامي إلى سنة ٤٥٠ تقريباً
- ٢ — « الثاني » ٤٥٠ .. « » ٦٢٤ »
- ٣ — « الثالث » ٦٢٤ « » ١٠٤٠ »
- ٤ — « الرابع » ١٠٤٠ « » ١٢٨٦ »

العهد الأول

العهد الأول من تاريخ وارجلان يتمد قرابة أربعة قرون إذ يبتدىء من الفتح الإسلامى ويستمر إلى منتصف القرن الخامس الهجرى .

فقد اعتنق أهالى وارجلان الإسلام عندما حمل الفاتحون الأولون مشعل الهداية إلى المغرب الأوسط فى أواسط خير القرون ، ويبدو أن سكان هذه البلاد ثبتوا على الإسلام منذ اعتناقهم له ، ولم تجرفهم عوامل الردة التى وقعت فى كثير من بلاد المغرب بأقسامه ، لا سيما منطقة أوراس . وفى عهد الدولة الأموية التى لم يستقر فيها الوضع فى الجزائر بسبب حروب الردة أولاً ثم الثورات المتعاقبة إما نزاعاً على الحكم وإما سخطاً من الظلم - فى هذه الفترة كانت وارجلان هادئة مطمئنة . وكان قد انتشر فيها المذهب الإباضى كما انتشر فى بقية المغرب الإسلامى مع أوائل القرن الثانى . فاشتغل الناس بالجانب العلمى كما اشتغلوا بالدعوة إلى إقامة كتاب الله والمحافظة على أحكامه .

وتكونت من بعد البعثة العلمية فذهب عاصم السدراتى إلى البصرة ودرس ورجع مع حملة العلم . وعندما بايع الناس أبا الخطاب بالإمامة فى طرابلس كان عاصم من أول من بايع ، وكان يأمل أن تتسكون الإمامة تحمك بكتاب الله وتسير على نهج الخلفاء الراشدين وبعد أن استقرت قدم أبى الخطاب ، وهدأت الأحوال ، ودلت البوادر الأولى أن هذا الإمام الجديد حرى أن يعود بالأمة والدولة إلى نهجها فى أيام العدول من أئمة الإسلام، فاطمأن عاصم إلى النتائج وسافر إلى الجنوب الشرقى للجزائر حيث كانت له شخصية محترمة ، وكامة نافذة مسموعة ، وكان الناس يستمعون

إليه ويتبعونه . وكان يعمل على أن تكون تلك البلاد تابعة للإمامة في ليبيا فاستجاب له الناس وساروا وراءه غير أن إمامة أبي الخطاب لم تطل فقد قتل بعد سنتين في معركة حاسمة وبابغ الناس أبا حاتم المزوزي فالتزم عاصم ببيعته ولم يدعُ لنفسه ولم يقل إنه من حملة العلم وإنه أقوى شخصية بعد أبي الخطاب فهو أولى بالإمامة . وإنما كان أطوع قائد تقدم لمعاوضة أبي حاتم وأقواه ، وعندما اضطر أبو حاتم إلى انتزاع القيروان من الدولة العباسية وافته عاصم على رأس جيش من أبطال سدرانه ووارجلان^(١) وكان حكام القيروان يعرفون ما يتحلى به عاصم من الشجاعة والقوة وحسن التدبير فعملوا على قتله بحيلة ذكرتها كتب التاريخ ، ومات البطل العظيم قبل نتائج المعركة وقد أسفرت على انتصار أبي حاتم ، ورجع أولئك الأبطال الذين جاءوا تحت قيادة عاصم منتصرين ، ولكن دون أن يرجع معهم عاصم .

ولم تطل إمامة أبي حاتم فقد تمكن العباسيون من التغلب عليه وقتله . بعد هذه الأحداث سلك الإباضية في وارجلان نفس المسلك الذي سلكه الإباضية من أهل جربة . فقد انزلوا عن الحركات السياسية والثورات العسكرية . لا ينضمون إلى دولة ، ولا يناصرون أحد المتخاصمين ولا يساعدون الثوار ، ولا الدول القائمة . ولكنهم كانوا ياتزمون الإسلام في سيرتهم ، وينفذون أحكامه على أفرادهم ومجتمعهم ، وعندما تكونت الدولة الرستمية في تاهرت ، وامتد سلطانها على أغلب بلاد الجزائر وتونس وليبيا ، دخلت وارجلان في هدوء تحت جناح هذه الدولة الجديدة .

(١) ذكرت وارجلان هنا استنتاجا فقط فليست على يقين من أن أهل وارجلان بمخاطبها الواسع قد اشتركوا في جيش أبي حاتم .

ولما كانت الدولة الرستمية تسير على نهج الخلافة الرشيدة ، وتعمل على تطبيق أحكام الإسلام ، وتقيد بها ، فقد كانت البلاد التابعة لها تتمتع بكل أنواع الحرية والعدالة والاستقرار التي كفلها الإسلام . وكان نفوذ الدولة عليها نفوذاً اسمياً لا يتعدى إقامة حدود الله على من يخرج عنه . والفصل بكتاب الله فيما ينجم من خلافات بين الناس ، أما في غير ذلك فقد كانت تترك لأهل البلاد أن يعيشوا كما يحلو لهم فهم أحرار في معاملاتهم وتجاراتهم وجميع أعمالهم ، مادامت لا تجرى على أسلوب من الأساليب المحرمة أو في نوع من الأنواع المحرمة ، وكان الناس حينئذ أشد إيماناً من أن يخالفوا أحكام الإسلام في معاملة أو تجارة مخالفة صريحة واضحة .

وكانت الدولة الرستمية لا تجبر أهل وارجلان ولا غيرهم على التجنيد الإجباري . فهي لم تتخذ جنداً مقياً تدفع له المرتبات والأجور ليعبق تحت السلاح باستمرار استعداداً لهجوم أو دفاع . ولا تعتمد على ذلك الجند الذي يحارب من أجل المال ووسائل العيش ، وإنما كانت تعتمد على التطوع . على أولئك الذين يحملهم إيمانهم على محاربة المعتدين والدفاع عن حوزة الإمامة رغبة فيما عند الله : لا أملاً في الحصول على غنيمة ، أو سعياً وراء نيل مرتب من الدولة .

إن الدولة الرستمية لم تكن تدفع مرتبات للجند كما أنها كانت لا تجيز لنفسها ولا لمن يعمل تحت حكمها أن يستحل شيئاً من أموال المسلمين ولو كانوا بغاة ظالمين معتدين .

عاشت وارجلان في هدوء وسلام مدة الدولة الرستمية وكل ما يربطها

بهذه الدولة من علاقة إنما هو اعترافها بالتبعية لها وإقامة الحدود وإصدار الأحكام باسمها والرجوع في مهام الأمور إليها .

وتلك هي علاقة الدولة الرستمية بجميع البلاد التابعة لها فلم تكن تبغى غير ذلك ولا يهتمها إلا أن يعيش المسلمون أحراراً يتمتعون بكل ما يكفله لهم دينهم الذي ارتضاه الله لهم . وقد كانت الدولة الرستمية لا تفرض ضرائب ولا تصادر أموالاً ، ولا تأخذ غرامات من أحد ، وإنما كانت تجمع أموال الزكاة على النهج الإسلامى الذى سار عليه الخلفاء الراشدون ، والمهتدون بهم من بعدهم . وقد كانت لا تأخذ من وارجلان شيئاً وإنما كان عمال الدولة من خيرة العلماء يجمعون الزكاة من أغنياء البلاد ويردونها فى فقرائهم حسبما هو معروف فى النظم الإسلامية . وهذه الحرية الكاملة التى كانت تتمتع بها وارجلان وبقية البلاد التابعة للدولة الرستمية لم يدرك بعض المؤرخين العلاقة ، وأعتقد أن حكمها لم يمتد إلى تلك النواحي لأنه لم يجد له الصدى الذى يجده غالباً لغيرها من الدول .

ويسرنى أن أختتم هذا الفصل بهذه الصورة الرائعة التى صور بها الأستاذ أعزام هذه الفترة من تاريخ وارجلان الحافل قال رحمه الله :

« إن هذه البلاد فى سنة ١٥١ هـ^(١) (١٨٣٠ م) إلى سنة ٤٥٠ هـ (١٠٣٩ م) عامرة بالإباضية كما قدمنا ولا اختلاط معهم من الأجناس^(٢) الأخرى وشئونهم بأيديهم وكل واحد رئيس على عائلته ومنكب على أشغاله ومهامته والرئاسة

(١) لا يقصد المؤان التحديد الدقيق بهذه السنة .

(٢) يقصد المؤان المذاهب .

العليا بيد حلقة العزابة^(١) بالجامع الكبير في كل مدينة وإن نزلت بهم مسألة عويصة اجتمع العلماء من جميع القرى فيفصلونها على مقتضى الكتاب والسنة وآثار السلف ولا يؤدون على أملاكهم وديارهم وأنفسهم أية ضريبة لدولة إلا الزكاة فقد كان يؤدي كل واحد واجبه فيما بينه وبين الله تعالى لمستحقه بغير رياء أو سمعة أو محاباة .

هذه الصورة التي وضعها الأستاذ أعزام لوارجلان خلال ثلاثة قرون ونصف هي نفس الصورة التي كانت عليها جربة في تلك الفترة أيضاً . وقد اعتصمت وارجلان بالانفصال عن الفتن القائمة قبل تكوين الدولة الرسمية ، ثم دخلت طائفة تحت نظام هذه الدولة فلما انقضت أيامها عادت وارجلان إلى نوع حياتها التي عاشتها ما بين الفتح وتكوين الدولة الرسمية . وكل ما هنالك من فرق بين حياة وارجلان قبل تكوين الدولة الرسمية وبعدها إلى نهاية العهد الأول من تاريخها - وبين حياتها تحت نظام تلك الدولة العادية . أن الأمور في زمن الدولة كانت تجري باسم الدولة ، أما قبل ذلك وبعده فقد كانت الأمور تجري على أيدي رجال العلم والدين والصلاح إلى أن تكون نظام العزابة على أساسه العرفي أولاً ثم على نظامه المقنن المسجل فأصبح بديلاً عن الدولة .

ومنذ تأسيس نظام العزابة المقنن في عهد أبي عبد الله محمد بن بكر أصبح

(١) نظام العزابة في أول هذه الفترة غير معروف لا عرفاً ولا تنظيمياً ويقصد الأستاذ أعزام أن أمور المسلمين كانت بأيدي القاعمين على شئون المجدد من العلماء ولا شك أن القاعمين على أمور المساجد حيثئذ من الأئمة والمؤذنين والمشرفين على الأوقاف والقاعمين بحركة التعليم ودروس الوعظ والإرشاد . ومن هؤلاء جميعاً تكون فيما بعد مجلس للعزابة حسب التنظيم الموجود إلى الآن والذي سجله الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر سنة ٤٠٨ على الأرجح بعدما اتفق مع أبي زكريا فصيل على خطرته العريضة قبل ذلك في جربة .

سيرة من سير أهل وارجلان يعملون به ويحافظون عليه إلى اليوم وإلى ما شاء الله رغم اختلاف الأحداث وتغير الأزمان .

قد يلاحظ القارئ الكريم أن هذا العهد لم يكن في جميع فتراته متشابهاً ككل التشابه ، ولم تغب عنى هذه الملاحظة وقد خطر لي أن أقسمه إلى ثلاث فترات .

تبتدىء الفترة الأولى منها من الفتح الإسلامى في منتصف القرن الأول أو بعده بقليل وتمتد إلى منتصف القرن الثانى عند تكون الدولة الرسمية . وتبتدىء الفترة الثانية من تكون الدولة الرسمية إلى نهاية القرن الثالث عند انقراض الدولة الرسمية . وتبتدىء الفترة الثالثة من انقراض الدولة الرسمية في أواخر القرن الثالث وتمتد إلى نهاية هذا العهد ، وهذه الفترات الثلاث كانت كل منها تتميز بأحداث تاريخية هامة أو بأعماط من السلوك خاصة ، إلا أن حياة الشعب الوارجلانى في هذا العهد كانت تسير على وتيرة متقاربة ليس بينها كبير اختلاف . فقد كان يعيش في جميعها عيشة هدوء وأمن واستقرار وتطبيق لأحكام الإسلام تطبيقاً حقيقياً . وشعور بالحرية . الكاملة دون أن يناهها ظلم أو تعسف أو إرهاب .

العهد الثاني

يمتد هذا العهد قرابة قرنين من الزمان من النصف الثاني للقرن الخامس إلى منتصف القرن السابع تقريباً أي من سنة ٤٥٠ إلى سنة ٦٢٤ ، أي منذ دخول العرب من بني هلال وبني سليم إلى المنطقة حتى تغلب ابن غانية على وارجلان وتخريبه لمدينة سدرانة .

ويتماز هذا العهد عن غيره من العهود بكثرة القلاقل والفن والحروب والغارات وذلك أنه بالإضافة إلى عدم استقرار دولة متغلطة تتحكم في البلاد بقانون عادل أو جائر كان هنالك ناس يحترفون الغارة والنهب والسلب .

ويبدو أن هذه الحالة جاءت مع أفواج الأعراب من بني هلال وبني سليم الذين كانوا لا يزالون يعيشون على ما اعتاده أسلافهم البداءة من الغارة على الغير واستخلاص ما تصل إليه أيديهم من أموال الناس على طريق الغنيمة ، سواء كانت تلك الأموال عروضاً مخفوظة ، أو محاصيل زراعة مجموعة ، أو سوائم ترود السكلاً في المراعى . ولم تكن هذه الحالة المؤسفة مقصورة على القبائل الوافدة من نجوع بني هلال وبني سليم وإنما تضاف إلى هذه الحياة المنحرفة بعض القبائل البادية الأخرى التي تعيش في البلاد من قبل والتي شجعها مسلك بني هلال وبني سليم أن تسلك نفس المسلك للحصول على المال إما متفقة ومنسجمة معها أو معارضة ومناقضة لها ، أو منفردة . وتكاثرت تلك الأحياء الضاربة في الوديان والبادى والتي كانت تقوم بأعمال العدوان للسلب والغنيمة على أحد الأسلوبين الآتين :

فقد تكون جموعاً من المحاربين الأشداء تحت رئاسة بعض شيوخ القبائل وفرسانهم ثم يهجمون على حين غرة - على بعض المدن أو القرى أو الأحياء الأخرى ، يقتلون من يعترض سبيلهم ويفنمون ما تصل إليه أيديهم .

ثم يركبون جيادهم ويعودون إلى أحيائهم ، وهم يفخرون بما أظهروا من صبر وثبات في القتال ، وما قتلوا من رجال وما غنموا من متاع وسلبوا من أموال .

وقد يعدون مجموعات من أولئك المحاربين فيعترضون الطرق ، ويستولون على القوافل التي تنقل البضائع من مكان إلى مكان . فيأخذون ما عندها لأنفسهم غنيمة باردة .

ولا شك أن هذه الأحياء البادية التي تعيش هذه العيشة إنما تسمى إلى كسب المال من جهة وإلى التغنى بالبطولة والشجاعة من جهة أخرى ، وليس لهم أى مقصد فى الاستقرار أو البقاء فى الأماكن التى يغزونها ويتغلبون عليها . ولذلك فحروبهم كانت عبارة عن هجمات خاطفة على من يجدون عنده غرة أو يتوقعون منه غنمة فإن حصلوا على شىء فذلك مطلبهم وإلا فروا هاربين ليعيدوا الكرة على نفس المكان أو على غيره فى فرصة تكون أكثر مواتاة لهم .

أما الأسلوب الثانى فقد كانت بعض تلك القبائل تلتحق ببعض الأمراء أو بعض الثائرين أو بعض المغامرين من طلاب الحكم فتدخل تحت لوائه وتحارب مع صفوفه لا محبة فى نصره ولا اعتناقاً لمبدهه وإنما استعانة به على

تحقيق نزعة القتال الجامحة في نفوسهم والتغنى بالبطولة وعلى الحصول على الأموال من طريق الغنائم ، الطريق الذي لا يعرفون غيره ولا يفكرون في سواه. ولذلك فقد كان من السهل على تلك القبائل أن تنقلب على من كانت تناصره وأن تعمل تحت قيادة من كانت تحاربه .

وقد كانت وازجلان في هذا العهد — وهي محاطة بعدد غير قليل من هذه القبائل — غير خاضعة لدولة ولا تابعة لإمارة ، وإنما كان مجلس العزابة يدير شئونها وينظم أمورها ، ويفصل في مشاكلها ، ويتولى قيادة الدفاع عنها ، بقوتها الشعبية لا بقوة دولة ، وبذلك كانت عرضة للهجمات والغارات أكثر من جميع البلدان التي تجاورها ، وقد يكون من الأسباب التي وجهت إليها أنظار المغيرين - ربما أكثر من غيرها - أنها كانت تتمتع بمركز اقتصادي ممتاز ، وأن أهلها كانوا على نصيب وافر من الثروة والغنى بسبب الأخلاق التي كانوا يتحلون بها من جد ونشاط ومواصلة للعمل سواء كان هذا العمل في خدمة الأرض والاشتغال بالزراعة أو كان بالضرب في الأرض والسفر إلى بلاد السودان للاشتغال بالتجارة .

وقد استطاع العزابة في هذه الفترة أن يحتفظوا بالسلطة كاملة وأن يستمسكوا بقيادة الأمة ، وأن يحافظوا على النهج القويم الذي كانوا يسرون عليه من قبل وأن يدفعوا عنهم عدوان المعتدين في تلك الغارات الخاطفة دون أن يتورطوا في حروب طويلة مع الدول القائمة أو الثائرين عليها فلم ينجازوا إلى أيٍّ من الجانبين ، وكانوا يتركون بلادهم شبه مفتوحة للحركات الدولية فلا يعترضون سبيلها في تحركها ولا يخضعون لها وإنما يتركونها تمر كما تمر العاصفة بتظامنون لها حتى إذا تجاوزتهم وقفوا

واستطاعوا أن تبقى بلادهم في تلك الظروف الحالكة المتقلبة في أمن وراحة وهناء .

وكما يمتاز هذا العهد من تاريخ وارجلان بالحالة المضطربة فيما جاورها وبكثرة الفتن والغارات والحروب كان هذا العهد من تاريخها يمتاز بمزايا أخرى بعيدة كل البعد عن تلك المعاني مقينة كل المباينة لذلك الاتجاه . وذلك أن وارجلان في كامل ذلك العهد كانت أهم مركز علمي للإباضية وأحصن . لمجاً يلجأ إليه العلماء والطلاب والزهاد وقد تداول فيه الرئاسة العلمية والدينية عدد من أعلام الإسلام نذكر منهم أبا صالح الياجراني في أول العهد وفيلسوف الإسلام أبا يعقوب يوسف بن إبراهيم في آخره . وبين العالمين العظمين وفي عصرهما حلقات مترابطة من فطاحل العلماء وأعداد لا نستطيع حصرها من طلاب العلم في المدن والقرى وحتى في الأحياء البادية^(١) . يقول الأستاذ أعزام عن هذا العهد في كتابه القيم : غصن البان . ما يلي :

« وفي بحر هاته الأعوام اختلطت البلاد ودخلت العرب الوطن كما سيأتي بيانه ، وفي أثناء ذلك وقع الهجوم والهرج والفتن الكثيرة في المغرب . ولكنهم بقوا على حالتهم الأولى من الهدوء والسكون » .

ويقصد الأستاذ أعزام بكلمة العرب هنا تلك الجموع الهائلة من بني هلال

(١) ذكر المؤرخون أن أبا صالح خرج من وارجلان إلى بعض الأحياء الغاربة في البادية وكان له معهم لابل . فوجد هناك شيخاً من كبار العلماء عليه حلقة من الطلبة يتجاوز عددها الأثمانمائة . وعند رجوعه شيعه الشيخ وتلاميذه فدأل أحدهما الآخر قبل الوداع قائلاً : أخبرني ما أعظم شيء ينال به خير الدنيا . أهى العجارة أم الزراعة أم الصنائة فقال أفضل ما ينال به ذلك دعاء الصالحين لا سيما إذا سبقه إغاثة ملهوف أو سداد حاجة مضطر .

وبنى سليم الذين وفدوا على المغرب بمكيدة من الدولة الفاطمية في القاهرة فانتشروا في أرجاء ليبيا وتونس والجزائر والمغرب . يقتلون ويخربون ويغنمون ، وقد نالت وارجلان نصيبها منهم ومن سار بسيرتهم وأصابها فتن وحروب وتخريب . وإن كانت في أغلب الأوقات تقف للمعتدين بالمرصاد ترد عليهم ما يقومون به عليها من صولات وجولات . ما جعلها تعيش طيلة هذا العهد على استعداد دائم لترد عدوان المعتدين .

وقد صور المؤرخ الكبير ابن خلدون حركة دخول العرب من بني هلال وبني سليم وما قاموا به من فتن وحروب وما أدخلوه على البلاد من الروع والفرع ، وما ارتكبوه من تخريب - في عدة مواضع من كتابه القيم نأخذ منه هذه الصورة لنعرضها على القارئ الكريم كمثال لما قام به أولئك الناس .

قال ابن خلدون في الجزء السادس من تاريخه القيم ص ٤٣ ما يلي :

« وعاجوا على ما هنالك من الأمصار مثله طبنة والمسيلة فخربوها وأزعجوا ساكنيها وعطفوا على المنازل والقرى والضياع والمدن فتركوها قاعاً نصفاً أقفر من بلاد الجن ، وأوحش من جوف العير ، وغوروا المياه ، واحتطبوا الشجر ، وأظهروا في الأرض الفساد » .

وأحسب أن هذه الصورة الصغيرة التي نقلناها للقارئ الكريم عن المؤرخ الكبير كافية لمعرفة ما أصاب البلاد في المغرب الإسلامي من الأضرار بما كان يقوم به أولئك البداءة الجفأة الذين لم يلامس الإسلام قلوبهم إلا قليلاً ، ولم يلتزموا أحكامه في إخوانهم المسلمين لا كثيراً ولا قليلاً .

العهد الثالث

يمتد هذا العهد ما يزيد عن أربعة قرون أى من سنة ٦٢٤ عندما خرب الميورقي سدراتة إلى سنة ١٠٤٠ عندما استدعى بنو سيسين أسرة ابن علام لتولى الحكم فى وارجلان .

لقد ذكرت للقارىء الكريم أن أهل وارجلان الكرام كانوا فى العهد السابق عرضة للغارات التى تقوم بها بعض القبائل التى تبنى حياتها على السلب والنهب . ولكن سنة ٦٢٤ جاءت بأشد ما يمكن أن يقع فقد مر المغامر الجرىء يحيى بن إسحاق الميورقي على هذه المنطقة كما يمر الأعصار ، فقتل الأنفس بدون حساب ، وخرّب المدن ، وغوّر المياه وأحرق الغابات . وقد انصبت نغمته على سدراتة « فهدم سورها ، وتركها قاعاً نصفياً ، وغادرها كأن لم تغن بالأمس » (١) .

كان ابن غانية ثائراً على الموحدين يريد أن يقوض دولتهم وأن يبنى لنفسه على أنقاضها ملكاً . فكان يمر بالبلدان بشراذم من المغامرين فيقتلون ويخربون . ثم تمر من بعدهم جيوش الموحدين على تلك المدن والقرى المنكوبة فيعاقبونها هم الآخرون على استسلامها للميورقي ودفنوها له ما فرض من ضرائب . وتوالت الهجمات من عدة أطراف فكانت لها نتائج وخيمة على تلك المنطقة .

ونظراً لتضايف القلاقل وكثرة الفتن وتعاقب طلاب الحكم على البلاد

(١) ما بين قوسين عبارة أبي العباس .

ولما زلهم بالناس شتى أنواع الظلم وكثرة غارات البداءة ، ومن في حكمهم فإن هذا العهد يعتبر أسوأ عهد تاريخي مر على وارجلان في عهودها الإسلامية .

وإذا كانت الغارات وقطع الطريق والتعرض للسابلة في العهد السابق قد قيدت نشاطات رجال العلم والعمل ، وعاقبت طلاب العلم عن الانتقال بين المدارس والمفاضلة بين الشيوخ والمدرسين ، والالتحاق بأكثرهم فائدة ، وأوسعهم دائرة ، وأصبرهم على العطاء . فإن حالات الفتنة واستمرار الحرب والاضطراب والقلق قد أثرت على الناس فاشتغلوا بوسائل الدفاع ، وكرسوا أنفسهم لرد سيول المهاجمين الذين لا ينتطعون . وقرّر كل واحد منهم في موطنه يتوقع كل يوم نزول الصائب ، ويحتال لدفعها وبعد الوسائل لردعها أو التخفيف منها ، فوقع شبه تهاون في الجانب العلمي بانصراف العلماء والمعلمين إلى مضاعفة الاشتغال في الميدان الاقتصادي حتى تستطيع البلاد مواجهة ما تأتي به الأيام من المطالبات . كما أنهم كانوا أيضاً يعدون وسائل الدفاع ويهدربون عليها لرد الغارات التي يقوم بها طلاب المال من رؤساء القبائل .

وفي هذه الأثناء احتاجت البلاد إلى رجال أشداء تسند إليهم إدارة البلاد عسكرياً ليمثلوا حمايتها والدفاع عنها ، ولما كان من تتوفر فيه شروط القيادة السياسية والعسكرية قد لا تتوفر فيه شروط الزعامة الدينية التي يقوم بها العزابة . ومن تتوفر فيه شروط العزابة قد لا تتوفر فيه شروط الزعامة للقيادة السياسية والدفاع ، فقد أسند الدفاع إلى رجال من غير العزابة . وقد سار أولئك الحكام المختارون في مبدأ الأمر سيرة حسنة ، خاضعين للاختيار والشورى . عاملين بنصائح العزابة وتوجيهاتهم ، ولكنهم لم يلبثوا أن

استغلوا تلك المناصب فأعطوا لأنفسهم حق الحكم والتحكم حسبما يعرف عند غيرهم من المجتمعات . وحرصوا على أن يبقى الأمر في أيديهم ، ثم عملوا على أن يبقى الحكم وراثياً في أسرهم .

وعندما بلغ بهم الانحراف إلى هذا الاتجاه بدأت المشاكل الداخلية فقد كانت أسر أخرى ترى أن تولى الحكم شرف وحق ، وهى تريد أن تحصل على هذا الشرف وتنال هذا الحق . وكانت أسر أخرى ترى أن الحكم مغنم ووسيلة للاستغلال وهى تريد أن تجنى لنفسها بعض المكاسب وتستغل ما استغله الآخرون .

وكان هناك مجموعات من الناس ينتقدون في الأسر الحاكمة هذا الانحراف الذى يميل إلى الاستبداد والاستغلال والاستعلاء ، ويحاولون أن يطيحوا بأولئك الحكام حتى يقوم الأمر على نزاهة ونظافة واستقامة . وبدأ التطاحن الداخلى فى نفس وارجلان يفعل فعله . فانقسم أهلها وكان لكل داعية أتباع ، ولكل قبيلة أشياع ، واستطاع بنو سيسين أن ينتزعوا الحكم من بنى وكين ، ولم يطل ببني سيسين الأمر ، فقد وقع بين أفراد العائلة نفسها نزاع وخصام نتجت عنه فتن طويلة ذهبت فيها أموال وأرواح ، وخشى أصحاب الحكم من بنى سيسين أن يتغلب عليهم منافسوه فينتزعون منهم مقاليد السلطة فارتكبوا الخطأ الذى يرتكبه كل ضعيف يتمسك بالحكم رغماً عن أهل وطنه . فالتجأوا إلى خارج وارجلان ، وذهب منهم وفد إلى مراكش يدعو إليهم من يسندهم فى موقفهم ويشدهم على كراسيهم فجاءتهم هذه المساعدة ممن أخذ الحكم منهم ومن منافسيهم .

وفى سنة ١٠٤٠ قدم مولاي عهد الففار بن مولاي محمد بن مولاي

علامه بدعوة من بنى سيدين ليعتولى الحكم على شروط شرطوها عليه فقبل منهم وأقبل إلى وارجلان حيث تولى الحكم إلى الأبد من بنى سيسين ومن بنى وكين ومن أهل وارجلان أجمعين ، وكان مجيء عبد الغفار هذا مبدأ للعهد الرابع من تاريخ وارجلان الحافل .

انقضى هذا العهد بين فتن وحروب داخلية وغارات متواصلة من الخارج وحيل بين العزابة وبين توجيه الناس والسير بهم في جميع الاتجاهات . واستبدت السلطة في بعض الأحيان استبداداً أخفت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويبعدون أن الاستمسك بالدين والمحافظة عليه ومراعاة آدابه لم يعد مثلما كان من قبل عندما كانت جميع الأمور بيد العزابة وتوالى الضغط على الإباضية في وارجلان وما يجاورها وكانت الغارات توجه إليهم باسم المذهبية من ناس جهلة لا يفرقون بين الحلال والحرام ولا بين مذهب ومذهب ، وإنما يتخذون المذهبية وسيلة لابتزاز المال ، واستحلال الاستغلال ، فأثرت هذه المواقف على البلدان المجاورة لوارجلان فكان الإباضية يقنأصون منها تحت الضغط المتواصل مرة بالهجرة ومرة بالانتساب إلى المذاهب الأخرى حتى انقرضوا من تلك البلاد .

أما وارجلان التي كانت في ذلك الحين أقوى المراكز الإباضية في المغرب الإسلامي فقد استطاعت أن تصمد وأن تحتفظ بسكياتها . ولأن كانت تلك الظروف قد أثرت عليها تأثيراً كبيراً فأخذت في الضعف ، وكثر فيها الجهل وانحرف الناس عن النهج التويم الذي كان عليه أسلافهم . وانعزل مجلس العزابة عن مهمته الحقيقية من قيادة الأمة في جميع الميادين والإشراف على المجتمع وتوجيهه - إلى هيئة قائمة في المسجد مهمتها القيام بشعائر العبادة ثم الفتوى البعيدة عن التنفيذ .

ويبدو لي أن هذه الصورة شبيهة كل الشبه بما مر على جربة في الأيام الأخيرة قبل انحلال مجلس العزابة . وكل ما هنالك من فرق أن المجلس في جربة قد انحل كما انحل في جبل نفوسة وانقرط ذلك العقد الكريم فلم يعد له أثر على المجتمع بل لم يعد له وجود لا شكلا ولا موضوعاً . أما في وارجلان فقد استطاع المجلس أن يصمد وأن يقاوم وأن يحتفظ بمكانه من بيت الله :

واليوم وقد بزغت شمس الحرية على الجزائر العظيمة وانفتحت أبواب العلم والمعرفة للشباب المسلم في كل الأصقاع وكل الأقطار . وأصبح ميسوراً لأبناء وارجلان الأذكياء أن يلحقوا بمعاهد العلم وأن يعترفوا منها بسهولة ويسر فساهم أن يردوا لوارجلان مجدها العظيم ومركزها التاريخي الرفيع . وأن ينفذوا مجلس العزابة بالعناصر المتعلمة المؤمنة التي تجمع بين الثقافة الواسعة الواعية والعقيدة المؤمنة الصادقة والسلوك المهذب القويم ، والعمل المتواصل الدءوب ليواصل مجلس العزابة الموقر رسالته العظيمة في كفاح الباطل وكفاح الرذيلة ومحاربة المنكر . وإذا كان أسلافهم الكرام قد بلغوا من غزارة العلم ومقانة الدين وقوة الإرادة ما استطاعوا به أن يقوموا بواجبهم وأن يبلغوا رسالتهم وسط الأعاصير والزوابع فليس للأبناء اليوم عذر في التقهقر أو التخلف أو الانحراف . وإذا كان أولئك الأسلاف العظام بلغوا إلى أسبانيا طلباً للعلم وتوغلوا إلى مجاهل إفريقيا طلباً للرزق ونشراً لدعوة الإسلام فما أحرى هذا الخلف وقد تيسرت له السبل أن يبلغوا ما لم يبلغه أولئك مع معاكسة الزمان وجور الأيام .

العهد الرابع

يتمتد هذا العهد ما يقرب من قرنين ونصف من سنة ١٠٤٠ التي تولى فيها أسرة ابن علام الحكم على وارجلان إلى سنة ١٢٨٦ عندما احتلت فرنسا الجزائر .

وفي هذا العهد كانت وارجلان شبه إمارة مستقلة فقد كان يرأسها شريف يحكمها حكما مستبداً مطلقاً . وإن كان في أغلب الأوقات يتبع الدولة العثمانية تبعية اسمية . يجمع لها الضرائب في مواسمها ويسلمها إليها وليس له شأن بها غير ذلك . وقد كان الحكم طيلة هذا العهد وراثياً في أسرة بني علام . وقد سار بعض الحكام من هذه الأسرة سيرة نظيفة نزيهة فيها كثير من العدل والاستقامة وسار آخرون سيرة فيها من الانحراف والاستبداد والظلم ما يبعد بهم عن منهج الحكم في الإسلام . كما أن منهم من يستقيم فترة ثم يبدو له فينحرف ويرتكب ما لم يرتكبه غيره من الظالمين . ومع هذه الحال المتقلبة التي كان عليها حكام وارجلان من أسرة بني علام فقد كان أهل البلد راضين بهم ، ذلك لأن وجودهم كان يحمي البلاد من شرور المغامرين والمغيرين الذين لا ينفكون يهجمون على الأمنين يقتلون ويسلبون ويختلسون .

لقد كانت الجزائر كلها في هذا العهد تابعة للدولة العثمانية ولكنها في نفس الوقت لم تتمكن من التنظيم والاستقرار والحكم المباشر لا سيما في الدواخل والجنوب وذلك أن الدول الغربية كانت لا تتوقف عن مهاجمة الجزائر في مختلف الجهات وبمختلف الأساليب ، وسواء كانت الدوافع إلى

ذلك رغبة في القرصنة التي احترقتها ورعتها بعض الدول الغربية مثل أسبانيا والبنديقية ، أو كانت أسباباً استعمارية ، أو كانت أسباباً صليبية عليها التعصب الديني . فكانت تلك الهجمات تتوالى وإن اختلفت أماكنها مرة على الجزائر ومرة أخرى على وهران أو تلمسان أو عنابة أو بجاية أو غيرها . وكثيراً ما يجد أولئك المهاجمون من يساعدهم من الغامرين ويضم إليهم في محاربة الدولة العثمانية طمعاً في منصب أو جريباً وراء غنيمة تؤخذ ، أو غنيمة تمنح . . وكان في نفس الوقت تتورث ثورات في الدواخل من الغامرين طلاب الحكم أو طلاب المال وكانت الدولة غالباً مشغولة عنهم بمصارعة العدوان الخارجي وإيقافه عند حده فتستمر أعمالهم الفوضوية حتى تلتفت إليهم الدولة . وكانت وارجلان في هذه الظروف المتقلبة هادئة راضية بوضعها فهي لا تتور على الدولة العثمانية ، ولا تحاول الاستقلال عنها . ولا تمتنع عن دفع الضريبة السنوية عليها . إلا أن هذا الاستقرار بالنسبة إلى علاقة وارجلان بالدولة الكبرى لم يكن عامل استقرار بالنسبة للبلد نفسه وللأسرة التي تحكمه . فقد كان الخلاف لا ينفك يشور بين أهل البلد بتحريض بعض المتعصبين للمذهبية الدينية كما كان النزاع لا يلبث أن ينشب بين أفراد الأسرة الحاكمة نزاعاً على الحكم ورغبة في الاستقلال وقد كان ينبني على ذلك فن داخلية ومكائد سياسية ينجم عنها إزهاق أرواح إما بطريق الاغتيال الفردي أو الحرب الداخلي ومضى هذا العهد على وارجلان كما مضى العهد السابق لم تتمكن فيه من مراجعة نفسها وتصفية حسابها ، والرجوع بسيرتها إلى ما عرف من تاريخها الجيد . فبقى مجلس العزابة في المسجد يقوم بالأمور الدينية الخاصة بالعبادة وليس له من أمر توجيه الناس ومعالجة مشاكلهم بشيء ، كما أنه لم يتمكن من محاربة البدعة في أنحراف الحكم

لا سيما وأن ولاية الحكم كانوا على غير مذهب الإباضية . فلم يسكنوا يستمعون إلى رأى مجلس العزابة . وإذا شدد المجلس فى الإنكار على أحدهم لسوء تصرفه وانحرافه وعدم تقيده بأحكام الدين يعزوا الحاكم ذلك إلى الخلاف المذهبى وينسبه إلى التعصب والتحكم ، ثم يثير العامة من المذاهب الأخرى فتحدث قتن بسبب ذلك بين الناس ويستقر هو فى منصبه بعد أن يضرب الأمة بعضها ببعض ، ويفرق كلمتها ، ويشعل بينها نار الشحناء والبغضاء .

وخلاصة القول فى هذا العهد أن وارجلان كانت فيه مستقلة منعزلة مشغولة بأحداثها الخاصة دائرة على نفسها وكانت علاقتها بأواسط إفريقيا أكثر من علاقتها بشمالها فقد كانت تجارتها وأسفارها متجهة إلى الجنوب أكثر مما كانت متصلة بالشمال وهذه الحركة المتجهة إلى الجنوب من وارجلان وما شابهها من الواحات كانت هى المعين الذى يستمد منه المسلمون فى إفريقيا المدد الروحى ، وكان أولئك المسافرون هم حقاً الدعاة الذين أبلغوا الإسلام إلى كل مكان فى هذه القارة السوداء المجهولة العظيمة .

فتن سباحة في وارجلان

لعل القارئ الكريم يذكر أن كلمة وارجلان صارت علماً على مدينة كانت عاصمة لعدد غير قليل من القرى والواحات اندثر أغلبها وغطتها الرمال ، ولعل من أهم الأسباب التي ساعدت الرمال على التغلب على تلك البلاد عدد من الفتن والحروب توالى مع عوامل الطبيعة القاسية . وفي هذا الفصل سوف أعرض صوراً لبعض الفتن الكبرى التي كان لها أثر بالغ على وارجلان . وقد تحدث الأستاذ أعزام عن هذه الفتن بإسهاب فمن شاء فليراجعها في « غصن البان » أما في هذا الفصل فسوف أعرضها باختصار وإيجاز .

١ - الفتنة الأولى : سبب هذه الفتنة فيما يبدو إنما هو عصبية جاهلية ونعرة قبلية ، وعدم تحكيم لكتاب الله فيما شجر بين الناس . وقد اختلفت أساليب المؤرخين في عرض أحداث هذه الفتنة . والتأجج التي ترتبت عنها . وإن كان جميع المؤرخين متفقون أن سببها حادثة بسيطة من تلك الحوادث التي تقع كثيراً على معاطن المياه - بين القوافل المتعارضة ، أو رعاة الماشية الواردة ، أو بعوث الأحياء الضاربة في الصحراء لاستقاء المياه .

وقد ذكر الأستاذ أعزام في غصن البان أن امرأة ذهبت إلى بئر تستقي وفي أثناء ذلك وردت على البئر إبل لقبيلة أخرى فتدافعت على المرأة وزاحمتها فتقطع رشاء سقاها ووقع في البئر . فرجعت إلى أهل حياها شاكية دون أن تستقي فصحبها رجل من حياها إلى البئر لييلوم صاحب الإبل ويعتب عليه إهماله فوقع بينهما أخذ ورد حتى بلغ بهما إلى نهاية الغضب فوثب

صاحب الإبل على صاحب المرأة فقتله والتجمت قبيلتهاها في معركة حامية ونصر كلا من القبيلتين قبائل أخرى فاتسع الخرق ومات عدد من الناس وجرح آخرون وكانت هذه الفتنة أول شرارة داخلية أوقدت في منطقة وارجلان وكانت لها آثار بعيدة المدى فيما بعد، وقد ذكر أبو عباس الدرجيني حين تحدث عنها أن الفتنة لم تنته بانتهاء المعركة في موقعة البئر ، وإنما تغلب فيها التعصب القبلي فكانت كل من القبائل المتعادية تحاول الهجوم المفاجيء على الأخرى للأخذ بالثأر .

ورغم أن عدداً من كبار المشايخ حاولوا - بكل جهد - إطفاء هذا الحريق وشددوا النكير ، ومنهم من قاطع قومه ووصفهم بالعدوان وخرج مفاضباً لهم ، لكن كل ذلك لم يوقف سيل الدماء ، ولم يستل الضغائن من القلوب ولم يرجع الأواصر بين تلك القبائل إلى ما كانت عليه ، وكان هذا الوضع هو الذي مكن للنسكة الأخرى التي حاقت بالبلاد على يد ابن غانية في أوائل القرن السابع وكانت هذه الفتنة في أوائل القرن السادس في أواخر عهد ما كسن بن الخير وأضرابه .

٢ - الفتنة الثانية : كان ابن غانية يحيى بن إسحاق مغامراً جريئاً همل على أن ينتقم من الموحدين وأن يقوض ملكهم فكان يتنقل بين بلاد المغرب الإسلامي يقتل ويغتم ويحتل ولا يستقر ، إنه كان لا يثبت ملكاً ، ولا يستقر في مكان . وكان الموحدون يتعقبونه أينما حل وفي سنة ٦٢٤ م بمنطقة وارجلان فارتكب فيها من الأفاعيل ما لا يرتكبه إلا مغامر لا يعصه دين ولا خلق .

وقد عرض علينا الأستاذ أعزام صورة واضحة جلية وإن كانت

مختصرة لما تركه الميورقي عند مروره بوارجلان قال في « غصن البان »
ما يلي :

« وهو يحيى بن إسحاق المعلم المعروف بابن غانية منسوب إلى جزيرة
ميورقة بالأندلس ، ثار بأفريقيا وفعل فيها العجائب من الفساد ، وكان أن
كتب على هذه الأوطان الخراب والفن والاهوال ، قدم هذا الغشوم ثأراً
سنة ٦٢٤ لهاته الأوطان فخرّب البلاد وقتل العباد ، وكان سلوكه على بلاد
وارجلان فنزل بها ، وهدم قصورها وقطع نخيلها ، وأفسد عيونها ، وشقت
جموعها . وزاد إلى حومة أربع وبلاد سوف وجبل نفوسة وبني دمر ،
ونزل على عين الصفا ، بسدرانة فأفسدها في ثلاثين يوماً . ثم على عين قبائل
يفرن فأفسدها في ثلاثين يوماً . فلما وقع بهم هذا هربوا من أوطانهم طالبين
السلامة فمنهم من هرب إلى جهة المشرق ، ومنهم من هرب إلى وادي ميزاب
ومنهم من هرب إلى وادي ملوية ، ومنهم من تحصن بجبل الكريمة وهو
جبل بناحية جبل العباد وسدرانة في غاية المنعة صعب الارتقاء ولا طريق
لصعوده إلا من ناحية واحدة ، فتحصنوا فيه فحاصرهم العدو من أسفله مدة
شهر . ثم انصرف عنهم لما يأس منهم . ويقول الأستاذ أعزام :

« ثم نزل بوارجلان وأهل أنقوصة وحاصرهم حصاراً شديداً إلى أن
أعطوه أموالاً كثيرة ، وانفقوا معه على غير الحق خوفاً من جوره
وتعسفه .. هذه الصورة التي وضعها الأستاذ أعزام لفقنة الميورقي معتمداً
فيها على مصادر تاريخية أهمها ابن الأثير كما يقول صاحب الكتاب نفسه
وهي صورة مما كان يقاسيه أهل تلك البلاد من المتاعب بسبب المغامرين من
طلاب الحكم وبسبب جور الدول الظالمة التي تعمل على تثبيت سلطانها بكل
وسيلة .

ووارجلان بموقعها الممتاز الذى يربط بين الصحراء وبلاد الشمال وبين تونس والجزائر كانت محط أنظار الطامعين والمتنازعين من طلاب الملك . ومع أن أهلها بسبب كثرة التقلبات السياسية - كانوا لا يهتمون من يتولى الحكم فى بلادهم لأن الحكم والأحكام فى ذلك الحين كانت متشابهة كلها بعيدة كل البعد عن المنهج الإسلامى ولذلك فهم يتفرون منها موقفاً سلبياً لا يساعدون بعضها على بعض إلا أنهم كانوا يلاقون على موقفهم هذا أشد العنت من كل من تسنح له فرصة التغلب على البلاد . والسيادة بها ولو لزمان قليل وعندما يهجم عليها طالب من طلاب الحكم فيمتغلب على الحاكم السابق ويطرده منها أو يقتله فإنه ينزل بأهل البلد جميع وسائل العقوبة من قتل وتعذيب ومصادرة أموال وفرض ضرائب وغرامات ، وإن كان يعلم علم اليقين أن السكان كانوا على حياد تام فى الممارك الناشئة بينه وبين سلفه . ويرى أن ذلك الحياد أو ذلك الموقف السلبى بين المتخاصمين لا ينهض عذراً ولا يلقي مبرراً . والواقع إنما يرتكبون ما يرتكبونه بدافعين : الدافع الأول هو التماس الوسائل والأسباب لجمع أكثر ما يمكن من المال ، والدافع الثانى هو إشاعة الخوف والإرهاب حتى يستجيب السكان الأبرياء لجميع المطالب .

إن أولئك الحكام المتسلطين الذين كانوا يسرون بالفتنة يوقدونها أينما ساروا كان يساعدهم أن يحسبوا الشعب فى أى بلد دخلوه مناوئاً لهم مؤازراً لخصومهم حتى يجدوا بين الناس وفى دخائل نفوسهم أيضاً مبرراً لما يرتكبونه من أعمال ويعاقبون كما يشاءون بطريق التعريم والمصادرة وفرض الضرائب غير المحدودة لأنهم دائماً فى أشد الحاجة إلى المزيد من المال وفى جميع الأحوال ومتى تعسرت عليهم هذه السبل كلها ولم ترو ظمأم

فإنهم يلتمسون وسائل أخرى ويعودون على ذوى اليسار . ونظرة واحدة إلى حكم اليوم لا سيما فى البلاد الصغيرة والفقيرة من أمحاء العالم كافية لفهم بها سلوك أولئك الناس الذين يرتفعون من غير شيء كما ترتفع الزوابع والأعاصير ثم يذوبون فى السراب كما تذوب تلك الزوابع والأعاصير أحياناً قبل أن يستفيق من مرت به من الدهشة .

٣ - الفئمة الثالثة : تحدث الأستاذ السكعك عن أولئك المغامرين الذين يسودون بعض القبائل ثم يستولون على الحكم وبلقبون أنفسهم بأضخم الألقاب فقال فى كتابه الموجز ص ٤٥١ ما بلى :

« لم تكن هذه الأسر بدول لها شأن عظيم ولكنها تشابه ملوك الطوائف فى الأندلس ولو أنها لم تبلغ إلى درجتها من الرقى والسطوة ، وهى أكثر شجهاً بمناطق الأسياد فى القرون الوسطى لا سيما وهى لا تبعد عليها فى الشكل والجوهر . فإن أمير القبيلة يعيش عيشة (السيد) فيتخذ له قلعة يتحصن بها ويجعلها قاعدته المدنية والحربية ، وببسط نفوذه على قبيلته التى تطيعه كل الطاعة وتمده بالمال والرجال وتتطوع له فى كل شأن يريد فيهجم بها على القبائل المجاورة لغزوها وسبيها ، والإثراء والتوسع على حسابها » .

وبعد أسطر يقول : « ومن جملة هذه الدول دولة بنى جلاب التى تأسست فى مدينة تقرت فى القرن العاشر فى أواخر أيام بنى زيان واستولت على جميع ولاية وادى أريغ » .

ويتحدث مؤرخ وارجلان الأستاذ أعزام عن بنى جلاب فيقول : « قلت لما أن ثبت قدمهم فى هذه البلاد حدثهم نفوسهم بالإغارة على أموال الإباضية بوارجلان سنة ١٠٧٠ هـ قدموا إلى وارجلان بجيشهم الجرار

وشنوا غاراتهم على البلاد وأخذوا طريق الفساد والقتل والنهب وأعانهم جميع من ينتمى إلى الفساد والغالب من أنقوصة لما أنها في ذلك الأوان تحت طاعة وادى أربغ كما ذكره المؤرخون .

ثم يتحدث الأستاذ أعزام عن تفاصيل المعركة ونتائجها وآثارها ، ويذكر شيخ الصحافة الجزائرية شميخنا أبو اليقظان إبراهيم في كتابه القيم « نموذج إمارة الدفاع » فتنة أخرى قام بها بنو جلاب على وارجلان سنة ١٢٢٦ هـ كانت الفتنة الأولى التي قام بها بنو جلاب في أول حكمهم حينما استقرت أمستهم في تفرقت ثم استطاعت أن تتغلب على الجهات المجاورة من أربغ وأنقوصة وتبسط عليها نفوذها وكانت تأمل أن تتوسع فكونت جيشاً جلياً واتجهت به إلى وارجلان عروس الصحراء ومقل القوافل وأغنى المناطق ولكن أهل وارجلان قد عرفوا عزم بنو جلاب فاستعدوا للقائهم - رغم الطواير الخامسة - واستعانوا على دفع العدوان بالأصدقاء من جيرانهم الذين كانوا يريدون ضرب بنو جلاب قبل أن يستفحل أمرهم ، ولا شك أن بنو جلاب إذا استطاعوا أن يفتلبوا على وارجلان فسوف يحاولون الاستيلاء على غيرها وإخضاع البلاد جميعها لهم .

وصل بنو جلاب إلى وارجلان ووقعت معركة حامية الوطيس بين الفريقين ذهبت فيها أرواح كريمة وأموال غزيرة ثم انهزم بنو جلاب وخسروا المعركة والسمة . وكانت هذه الوقفة العصامدة من وارجلان في وجوههم وردهم على أدبارهم كافية لأن تجعلهم حراساً على عدم التوسع وعدم العدوان على بلاد أخرى حتى سنة ١٢٢٦ في أواخر أيامهم على ما ذكره قطب الأئمة رحمه الله فأرادوا أن يعيدوا الكرة وجهزوا جيشاً جلياً وقصدوا

وارجلان وسبع أهل وارجلان هذه المرة أيضاً بما عزم عليه بنو جلاب
فاستعدوا للقائم واستعانوا بإخوانهم من بني ميزاب فأنجدوهم بميش تحت
قيادة بطل من أبطالهم . ولما قرب بنو جلاب من وارجلان ووجدوا
الاستعداد والتنظيم والعزم على الدفاع وخافوا أن تكون هذه الموقعة أشأم
من الموقعة الأولى - طلبوا السلامة ، ورجعوا من حيث أتوا وقد خلد بعض
الشعراء هذه الموقعة بقصيدة رائعة غير موجودة عندي الآن وإن بقيت
أبيات منها عالقة بذهني وقد وصف الشاعر الاستعداد للمعركة والتحام القتال
وانسحاب العدو فقال :

... .. فانهمزمت عسا بكر الشيطان

تبعهم خيول وادى مصعب أكرم بأهل الخيل من شجعان
وقد ذهبت عنى الأبيات إلا أن الصورة كما رسمها الشاعر لا تزال
مرتسمة بذهني كما يأتي :

إن الجيش الغير بعد أن ثبت قواعده وجلب الذخائر وسوى صفوفه
وعزم على القتال . استولى عليه الرعب فاضطر إلى الفرار تاركاً فسطاط
القائد وخيام الجنود مبنية ، خلفاً وراءه ما جلب من ذخيرة البارود
والرصاص . وانفلت برقابه لا يلوى على شيء .

والحقيقة أن الفتنة الأولى لبني جلاب وإن تسكن قد تسببت لأهل
وارجلان في خسارة أموال وأبطال إلا أنها أرجعت إلى القوم ثقتهم في
أنفسهم واتحادهم مع إخوانهم ، وقد نتج عن ذلك انتصارهم في المعركتين
الكبيرتين اللتين سعى إليهما حكام هذه الدولة التي استقرت في تقرت وتريد
أن تمتد إلى اليمن واليسار .

٤ - الفتنه الرابعه : بوشوشه مغامر آخر من أولئك المغامرين الذين يصطادون في الماء العكر ، وينتهزون الفرص في أسوأ الظروف قال عنه شيخ الصحافه الجزائرية شيخنا أبو اليقظان رحمه الله ما يلي :

« ذلك أن الثائر محمد بوشوشة لما نصب نفوذه على الجانب القسطنطيني إبان الزحف الفرنسي لما استولى على وارجلان أمعن في التقتيل والتبكييل فزرع الرعب في القلوب .

أما الأستاذ أعزام فقد تناول الحادثه بشيء من التفصيل والإسهاب في كتاب « غصن البان » نقتطف منه ما يلي :

« قدم لوارجلان بوشوشة المدعى الشرف ، ونزلها على نية الفساد - والإيقاع بأهاليها ، فتلقاه بعض الناس بوارجلان واتفقوا معه على إخلاء البلد والنهب ، وكان لما سمع الأهالي بقدمه اجتمع سكان المدينه من الأعراش الثلاثة ، واتفقوا على عدم طاعته والدخول تحت نفوذه - والقائد إذ ذاك على - بنى وكين - الشيخ ابن الحاج معيزة ، وعلى بنى إبراهيم الحاج حو ، وعلى بنى سيسين جلول بن ياحمان ، ورئيس الطلبة الإباضية الحاج أبو عزيز خواجه وبعد الاتفاق أعطوا العهد والمواثيق على عدم الخداع . ثم أن رئيس الطلبة أبدى لهم رأياً أخذوا به . وهو أن يبنوا بين كل عرش سوراً وباباً خوفاً من الخداع ، فإذا خدع عرش من الأعراش كان ذلك يخلصه دون الآخرين » .

كان أهل وارجلان بمذهبيهم الإباضى والمالكي ، وبعنصريهم البربرى والعربى قد اتحدوا في فتنة بنى جلاب وكونوا قوة واحدة للدفاع فاستطاعوا أن يصمدوا وأن يردوا العدوان عن بلادهم وقد وقفوا مثل هذا الموقف

في جميع الأحداث التي وقعت في تلك الفترة فلم يستطع أحد أن ينال منهم :

فلما جاء بوشوشة استطاع أن يكون فيهم طابوراً خامساً ، وأن يزرع بينهم كلمة التفرقة ، وأن يتخذ لنفسه من يساعده من الداخل ولما تأكد أن لديه أعواناً داخل المدينة يعملون له سراً جهز جيشه واستعان بكثير من الطامعين الذين يشتركون في الفتن والحروب طمعاً في الغنيمة والسكسب . وعسكر الرجل خارج المدينة قريباً منها . فانضم إليه من سكان وارجلان من كان متفقاً معه سراً وكان ذلك مبدأ الخديعة والمكر وتفريق السكامة ووقع الصدام بين الجند المهاجم وأهل المدينة فكانت كفة المعتدين هي الراجحة طوال اليوم الأول . وعندما سككت أسنة الرصاص عند الغروب بدأت أسنة الفتنة والمكيدة تعمل . فأشيع بين أتباع المذهب المالكي أن بوشوشة إنما يريد القضاء على الإباضية فقط . يقول الأستاذ أعزام :

« ثم وقع الخداع من بعض المفسدين ، وفتحوا لبوشوشة الأبواب بحجة أن بوشوشة قدم لقتال الإباضية خاصة فدخلت عساكر بوشوشة فهبوا إباضية بنى سيسين وقتلوا منهم من وقع بأيديهم وحانت منيته » . وهرب من استطاع الهروب ولما رأى الناس ما وقع لبني سيسين وأن الفزاة سينتصرون لا محالة اتفقوا على التسليم . فخرج زعماء الأعراس إليه يحملون علامات التسليم ووقف منهم موقف حاكم الأباريق في القصة المشهورة يعفو عن هذا ويقتل هذا ويغرم هذا حسباً تمليه عنظرة مغامر منتصر وغروره .

ومن أسوأ ما فعل أنه غرم الشيخ ابن الحاج معيزة قائد بني وكين والحاج أبا عزيز بن خواجة رئيس الطلبة بمبلغ عشرة آلاف فرنك لكل (٢٦ - الإباضية)

واحد منهما على أن تدفع حالا . فجمع بنو وكين هذا المبلغ الضخم ودفعوه له وما تسلّم المبلغ حتى أمر الشيخين بالرجوع إلى البلد . ولكنه حين انفصلا عنه أمر بإطلاق الرصاص عليهما قتيلا . وكان جلول بن باحمان مختمياً عند قائد بني إبراهيم فبعث إليه بو شوشة سبجته علامة على الأمان فلما جاء الرجل أطلق عليه الرصاص قبل أن يصل إلى خيمة الحاكم بخطوات .

وقد ارتكب المغامر الجريء ما يرتكبه مغامر أفاق يجرى وراء المال والسلطان دون أن يعصمه دين أو خلق وذهب بما كسبت يده وبقيت وارجلان وأهل وارجلان درة في الصحراء وحلقة اتصال بين أربعة أقطار مسلمة ، ومركز إشعاع من مراكز الدين والخلق والعلم والاستقامة^(١) .

هذه صورة مصغرة جداً عن وارجلان في تاريخها الإسلامي الخافل أما الصورة الناصعة الحية فهي تلك التي يرسمها أو سوف يرسمها لنا أبنائها الأبرار الأذكياء ، الأقوياء في عهد الاستقلال الزاهر إذا تم لهم حكم إسلامي نظيف ، وديموقراطية عادلة شاملة . وسلام وأمن واطمئنان . لا تتحرك فيه فتنة ولا تتور زوبعة ، ولا يسعى — إلى تفريق الصفوف ولا يستغل الظروف فيه — مغامر يسعى إلى السلطة أو يجرى وراء المال أو تقوم نفسيته المريضة على عصبية جاهلية من التفريق بين المذاهب أو الأجناس أو العناصر .

(١) قرأت هذا الفصل على الأخ العزيز الشيخ أبي معقل عمر بن داوود فكان من ملاحظته أن تناقض عن مساويء بو شوشة وأن نهمل ما ارتكبه من جرائم ضد المواطنين لأنه في الأصل كان نائراً على الاستعمار . فنيته في محاربة الاستعمار تنطلي على القناعات التي ارتكبتها مع بني قومه .

بين وارجلان ووادى ميزاب

لا شك أن كثيراً من سكان سدرانة وارجلان هاجروا إلى وادى ميزاب - بادية بنى مصعب - وقد استمرت تلك الهجرة المتقطعة من أوائل القرن الخامس في الثلث الأول من القرن السابع . وأسباب تلك الهجرة المتطاولة متعددة بعضها اقتصادى وبعضها علمى ، وبعضها سياسى .

ومن المؤسف أن بعض المؤرخين المستأخرين يذكرون أن سبب هجرة أهل سدرانة إلى وادى ميزاب إنما هى الفتن التى أشعلها ضدهم إخوتهم بنو وارجلان . وأحسب أن هذه الكلمة وردت أول ما وردت إما فى القصص الشعبى الذى يعلل الأحداث التاريخية البعيدة بالخيال والمبالغة . وإما على لسان مؤرخ غير نزيه القصد يرمى إلى إيقاع الفتنة بين الأخوين العزيزين المتحابين . فانساق بعض مؤرخينا المعاصرين وراء تلك الرواية . بل ذهب بعضهم إلى المقاضلة بين وارجلان القديمة وسدرانة الحديثة وما تصصف به الأولى من شيخوخة وهرم وتتحلى به الثانية من شباب وجمال جاءت به من الشمال . وحاول أن يصور الدافع - حسب ظنه - إلى الخلاف بينهما بغيرة أهل وارجلان من أهل سدرانة وحسدهم لهم على نجاحهم بما حملهم على مضايقتهم ودفعتهم إلى الهجرة بعيداً عنهم .

وقد كنت أرى أن هذا لا ينسجم مع منطق الأحداث فى تلك الفترة من التاريخ لا سيما أن وارجلان وسدرانة كانتا تتمتعان فى ذلك الحين بازدهار دبنى وعلمى وخلقى رفيع .

وعندما كنت أكتب هذا الفصل وأنا قلق من وجود هذه الفكرة وسيطرتها على بعض المؤرخين المعاصرين حتى حسبها حقيقة - وكان بين يدي ما تيسر من مراجع التاريخ من مؤلفين قدماء ومحدثين ألقاها صفحة صفحة لاستخلاص الحقائق التاريخية التي تسير حسب ما تقتضيه الأحداث من جهة وينسجم مع الخلق الإباضي من جهة أخرى. ويتفق مع نفسية طائفتين من الناس تعتمقان مبتدأ واحداً. وقع عليهما كليهما بسببه عدوان - رجعت إلى رسالة أستاذنا الفاضل الشيخ أبي اليقظان رحمه الله فإذا به يقول فيها ما نصه :

« وقد غلط من زعم أن إباضية وادي ميزاب هم بقية الرستميين الذين طردهم أهل وارجلان لمنافستهم لهم في الحياة ، وقد رددت على إذاعة الجزائر برسالة محكمة خلاصتها ما سبق ، وحاشا لإخواننا بوارجلان أن يتضايقوا من هؤلاء الضيوف الكرام ، وقد قاسموهم أموالهم كما فعل ذلك الغنى الكبير أبو صالح جنون بن يمران » .

ويقول رحمه الله في موضع آخر من الرسالة :

« ثم أخذت جموع الإباضية تتلاحق إلى الوادي من وادي أربغ وجربة ونفوسة وأخص من بين أولئك بقية بني رستم من وارجلان » .

ويقول في رسالة أخرى ما يلي :

« بعد استقرار الإباضية في الوادي على النمط المؤمى إليه أخذ أفواج الإباضية تغد من بلاد الإباضية في شمال إفريقيا زرافات ووحداً من نفوسة وجربة ووارجلان وأربغ ومن المغرب كما رأيت ، ومع تناسل أجيالهم من بعد همر الوادي بالإباضية إلى اليوم » .

ويقول الأستاذ توفيق المدني في تاريخه القيم « كتاب الجزائر » صفحة ١١٠ ما يلي :

« ولما غصت بلاد وارجلان وأريغ برجال الإباضية وأرادت أن تتنفس في معيشتها فيما جاورها ، رأت جبال بني مصعب « وادي ميزاب » أحسن ملجأ لها ، وأمنع حصن لأجيالها المتعاقبة فتكاثرت الهجرة إليها منها ومن سجلها سنة بعد انقراض ملك بني مدرارا مستعمرة تيهرت ومن نواحي المغرب فتسكونت بذلك في عصور متعاقبة بلاد ميزاب السبع . »

ويقول الأستاذ محمد علي دبوز ، كتابه القيم « نهضة الجزائر الحديثة » صفحة ١٦١ ما يلي :

« في القرن الخامس الهجري ابتدأت هجرة الميزابيين إلى ميزاب من سدراتة ووارجلان ووادي أريغ » .

ونسقتخلص من الفصل الذي كتبه الأستاذ دبوز عن هجرة الإباضية من سدراتة إلى بادية بني مصعب « وادي ميزاب » عدة أسباب منها ما يلي :

١ - « القحط الذي أصاب تلك النواحي بحفاف الأرض ، إن العمارة والفلاحة قد اتسعت فأرهقت العيون التي كانت تكفي وارجلان فغار كثير منها فانقطعت مياهها ، فاحترقت غابات كثيرة من النخيل وتضررت الفلاحة » .

٢ - « كثبان الرمال الكثيرة في تلك النواحي ، فترى العواصف تهيلها على البساتين والمزارع فتقتلها » .

٣ - « كانت سدراتة وما يحيط بها من المدن في السهول لا تستطيع أن تعتمص من العدو القوى الذى يصر أسنانه غيظاً وحنقاً عليها في الشمال ».

وقبل أن يذكر الأستاذ محمد على الدبوز هذه الأسباب الحقيقية لهجرة بعض سكان سدراتة ووارجلان وغيرهم ذكر خرافة نزاع أهل وارجلان لأهل سدراتة وحسدهم لهم وغيرتهم منهم ومضايقتهم لهم . ففكروا في الهجرة تبعاً لبعض تلك الرويات دون أن يهتم بنقدها .

والحقيقة التي لامراء فيها والتي تنطبق على أخلاق المؤمنين الصادقين في كل عصر ، والتي نجدتها في المجتمعات الإباضية في أى مكان وما تدل عليه الأحداث التاريخية في تلك العهود واقتران اسمى وارجلان وسدراتة في كل التحركات الجماعية والفردية هذه الحقيقة تكذب قصة العداة بين أهل وارجلان وإخوتهم في سدراتة بل إن سدراتة لم تكن في الواقع إلا ضاحية من ضواحي وارجلان الكثيرة وما كان الناس يهتمون بالتفريق بين وارجلان وسدراتة حتى أن كثيراً من علماءهم سواء أكانوا من وارجلان أو من سدراتة أو كانوا يعيشون في وارجلان أو في سدراتة كانوا في الغالب ينسجون إلى وارجلان وأن الجموع المهاجرة سواء إلى وادى ميزاب أو إلى غيره غالباً ما تتكون من أهل وارجلان . وأهل سدراتة .

إن الأحداث التاريخية في تفاصيلها والتي استطعنا أن نطلع عليها تكذب قصة العداوة بين وارجلان وسكان سدراتة الذين أصبح بعضهم فيما بعد ضمن سكان وادى ميزاب ، ومنهم ومن غيرهم تكون هذا الشعب الميزابى الكريم .

وكما آوى جبل نفوسة كل من هاجر إليه وأحسن إليهم وقاسمهم في

جميع مرافق الحياة ، وكما آوت جربة جميع من هاجر إليها ، وقاسمتهم في جميع مرافق الحياة ، وهيأت لهم سبيل العيش الكريم . وكما آوى وادى ميزاب ولا يزال ياوى كل من هاجر إليه ووفره الحياة الكريمة وقاسمه المال والوطن ؛ كذلك فعلت وارجلان مع من هاجر إليها من الشمال والشرق والغرب ، وفتحت لهم صدرها ، وأوتتهم خيرها وبرها وعاملتهم معاملة المؤمن لأخيه المؤمن حين يضيق به مجال الحياة ولم تنكر لإخوتها في يوم من الأيام . ولقد كانت وارجلان لاسيما في تلك العهود أشد برًا وأكثر عطفًا وأعمق إيمانًا واستشعارًا للمسئولية الدينية والأخوية - من أن تصد إخوانها أو تعاملهم بالغلظة التي تركهم يفكرون في الهجرة وإنما حمل أهل سدرانة على الهجرة بل وأهل وارجلان أنفسهم تلك العوامل الأخرى التي أشرنا إليها في أول هذا الفصل ويدل لذلك أن الهجرة كانت تدريجية بطيئة وكانت من سدرانة ومن وارجلان أيضًا ومن أربع وغيرها ولو كانت هجرة مبنية على خلاف وعداوة وتحاسد ثم نزاع وتغلب لاقتربت بما تقترب به تلك الحركات عادة من ألوان التعاسة والامس ، ومناظر البؤس الجماعى . ولكنها كانت هجرة فردية مبنية على أسباب معيشية ، وكانت هجرة تدريجية حتى بالنسبة للأفراد فقد كان الكثير من أولئك الذين انتقلوا من سدرانة أو وارجلان إلى وادى ميزاب - لم يكونوا في أول الأمر ينوون الاستقرار أو الإقامة ، وإنما ارتحلوا وراء أنعامهم التي سبقتهم فرحب بهم لإخوتهم وطابت لهم الحياة فأقاموا . ومنهم من أحس بالجفاف في سدرانة أو وارجلان وازدياد قسوة الطبيعة فذهبوا يرتادون الأماكن إلى وادى ميزاب أو غيرها فطاب لهم المكان الجديد فرجعوا وقرروا الارتحال إليه بأهلهم وأموالهم .

ونظرة واحدة إلى تاريخ تكوّن القرى في وادى ميزاب توضح لنا أن الهجرة إليه كانت تدريجية فقد تكوّنت العطف في سنة ٤٠٢ حسبما ذكره الأستاذ الدبوز وهذا يعنى أن الناس الذين التقوا حول الإمام أبى عبد الله من المصعبيين أنفسهم ومن الذين التحقوا بمواشيهم من أهل سدرانة ووارجلان قد راقتهم الإقامة مع الإمام الكبير في وادى ميزاب فتكوّنت المجموعة السكنية الأولى لهذه القرية الأولى .

ولم تتكوّن المجموعة السكنية الأولى للقرية الثانية إلا بعد خمس وثلاثين سنة حيث تكوّنت قرية بنورة . ولم تتكوّن المجموعة السكنية الأولى للقرية الثالثة إلا بعد أربعين سنة من تكوّن الثانية .

ثم همدت الهجرة نوعاً ما وتوقفت حركة المتحضرين نحو ثلاثة قرون حيث بدأت تتجمع المنازل الأولى للقرية الرابعة وبعد نصف قرن آخر تكوّنت القرية الخامسة ثم همدت حركة البناء نحو ثلاثة قرون تكوّنت بعدها القريتان السادسة والسابعة .

ومع أن هذه القرى تنتشر على بادية بنى مصعب وتستغل مياه ثلاثة أودية إلا أن وادى ميزاب غلب عليهما أخيراً . والشعب الذى يعيش في هذه المنطقة أصبح معروفاً بنى ميزاب - وميزاب على ما يخيّل إلىّ هي كلمة محرفة عن مصعب الذى تنسب إلى أبنائه البادية وأحد الأودية الثلاثة التى تخترقها معترضة سلاسل الهضاب والجبال فتكوّن منها ما يشبه الشبكة .

وادی میزاب

قال قطب الأئمة رحمه الله في رسالته صفحة ٣٨ ما يلي :

« وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول بل كانوا معتزلة يسافرون إلى تاهرت لتقتال الإباضية » وبعد أسطر يقول :

« وبعد انقراضها جاء فلهم فأنضموا إلى من سكن هذه القرى من المعتزلة وجاء أيضاً أولاد عبد الله من المغرب كما جاء منه بابنه عيسى العلواني، وجاء قوم من نفوسة وأكثرهم نزل يسجن وهم أولاد هي عيسى وبعضهم نزل غارداية وهم اللالوتيون وبعضهم العطف . ومن جربة عيسى سعيد وتناسل في غارداية وقليل من بني ميزاب جاءوا من جربة ونفوسة أولاد أبي مسور في العطف ، وجاء أيضاً من تاهرت ، وجاءوا أيضاً من ناحية فساطو من جبل نفوسة .

وسبب انضمامهم إلى موضع الجذب هو الخوف من الجورة . انتهى بتصرف .

قال الأستاذ عثمان السكاك في كتابه « موجز التاريخ العام للجزائر » ص ٤٥٣ ما يلي :

« ولما سقطت الدولة الرستمية الإباضية بقي المذهب قائماً عند النفوسيين بطرابلس والجزيريين بتونس وبني ميزاب بالجزائر . والميزابيون هؤلاء قوم من قبيلة نفوسة قد جاءوا تحت قيادة الإمام يعقوب من أحفاد الرستميين إلى جنوب مدينة وارجلان الغربي سنة ٣٦٠ وهو وادي مية وأسسوا به

المنازل منها الكريمة وصدراثة وجبل اباظ^(١) .

ولما كانوا أمة ناشطة عاملة استطاعوا أن يجعلوا وادى مية بلاداً خصبة بفضل جدم واجتهادهم وقد ساعدتهم على ذلك بعدمهم عن المعمارك الشمالية ، وإقامتهم بالصحراء محل استقلاهم . وقد تخوف منهم بنو وارجلان وخشوا منافستهم فأجلوهم عن وادى مية بعد مضي نصف قرن^(٢) فخرجوا وقصدوا وادى ميزاب وقد كان موطناً للمعتزلة الجزائريين .

والشبكة عبارة عن نجد من الجلامد تحترقها الأودية الضيقة تبلغ مساحتها ٨٠٠٠ كم على مسافة ١١٠ كم من مدينة الأغواط وقد استطاع الميزابيون أن يحولوا تلك الجلامد إلى بساتين ومزارع ، ويؤسسوا بها المدن وقد سكنوا في أول أمرهم الخيام ثم أن الرئيس خليفة بن أبغور أسس مدينة العطف سنة ٤٠٢ هـ^(٣) .

ويقول الأستاذ أحمد توفيق المدني في كتابه القيم « كتاب الجزائر »

ما يلي :

« والشبكة تشمل المدن الميزابية السبعة : غارداية ، وبنى يزقن ، وبنورة ،

ومليكة ، والقرارة ، والعطف ، وبريان » .

(١) الاسم الصحيح هو جبل العباد (لا اباظ) ولا تزال آثار عشرات الحاربي واضحة فرقه .

(٢) سبق أن أوضحنا أن هذه الفكرة لا أساس لها من الصحة راجع المقال السابق إن شئت .

(٣) إذا صح هذا فإنه يناسب الفترة التي كان محمد بن بكر يزور هذه المنطقة وقد يكون خليفة هذا أحد تلاميذ أبي عبد الله أو أتباعه من بنى مصعب ويكون تأسيس العطف على يد أبي عبد الله لا قبله كما يرجح أستاذنا باكلي والمؤرخ البجاجة الشيخ سليمان بن الحاج داوود .

ويقول الأستاذ محمد دبوز في كتابه « نهضة الجزائر الحديثة » الجزء الأول
صفحة ١٤٩ ما يلي :

« وادى ميزاب يقع في جنوب الجزائر في شمال الصحراء الكبرى في
ناحية تسمى الشبكة . وهي منطقة جميلة تتخللها أودية ، ويبعد ميزاب عن
مدينة الجزائر بثلاثمائة وعشرين ميلا ونصف الميل . ويتكون وادى
ميزاب من سبع مدن ، خمسة منها متجاورة وهي العطف ، وبنورة ، ومليكة ،
و بنى يسقن ، و غارداية . واثنان تبعدان عن المجموعة بعض البعد وهي مدينة
بريان التي تبعد عنها بأربعة وعشرين ميلا ، وهي في شمالها الشرقي ، ومدينة
القرارة البعيدة عن أخواتها بأربعين ميلا ونصف الميل وهي في شرقها » .

ويقول الأستاذ دبوز في صفحة أخرى ما يلي :

« وكانت هذه النواحي عبارة عن مجموعة من الجبال متشابكة في شمال
الصحراء تتخللها ثلاثة أودية كبيرة هي : وادى ميزاب بجنوب الأغواط
في ناحية (نيلي) وتنحدر جنوباً نحو ميزاب فتمر منعطفة بين جباله ورباه
وتنتهى في شمال وارجلان برمال (أنقوسه) » .

هذا بعض ما قاله المؤرخان الكبيران : المذني ودبوز . ولا شك أن
موقع وادى ميزاب من أرض الشبكة هو كما قالوا . ويكون جزءاً منها قد
يكون أكثرها خصوبة وعمراناً ولذلك غلب اسمه على المنطقة كلها .

وترى أيها القارئ الكريم أن هذه المنطقة تطلق عليها ثلاثة
أسماء هي :

بادية بنى مصعب ، أرض الشبكة ، وادى ميزاب . فما هو الاسم
الأصلي لهذه الأرض ؟ يبدو لي أن التسمية الأصلية لهذه الأرض هي بادية

بنى مصعب ، لأن بنى مصعب هم الذين كانوا يعمرّون هذه المنطقة ، ويبنّون بين أجزائها فكانت لهم منتجعا ومرتعاً . ولما كانت هذه البادية تجترقها وديان ثلاثة على شكل جبال طويلة ، وتعترضها سلاسل ممتدة من الجبال شابهت في صورتها الشبكة فأطلق عليها أيضاً أرض الشبكة . أما كلمة ميزاب فقد تكون اسماً لأحد الأودية الثلاثة كما يعتقد أكثر الناس وقد تكون اسماً لفروع من قبيلة نفوسة كما يرى الأستاذ الكعك . وقد يكون مقتبساً من ميزاب الكعبة المشرفة كما عمل القطب رحمه الله . ولكننى غير مطمئن لهذه الفروض جميعاً ، فأنا أرجح بدون استناد إلى أدلة كافية أن كلمة ميزاب محرفة عن مصعب أو مصاب أو مضاب . وهذه الكلمات الثلاثة ترد كثيراً في المصادر التي تتكلم عن تلك المنطقة أو عن الأشخاص الذين ينتسبون إليها ، مما يدل أن أصلها واحد . فأصل الكلمة فيما يبدو «مصعب» ثم حُرّفت إلى مصاب بإبدال حرف العين همزاً - وحروف الحلق عند البربر ينوب بعضها عن بعض فكثيراً ما ينطقون الخاء بدلا من الجاء والهمز بدلا من العين بل ربما كان حرف العين من أعسر الحروف نطقاً عليهم ولذلك فتجرى ألسنتهم بالهمز بدلا عنها^(١) ثم سهت الهمزة فقرئت الصاد ممدودة ، ثم أن هذه الصاد حُرّفت مرة أخرى فنطقها بعض ضاداً ونطقها بعض زاياً لتقارب مخرجى الضاد والزاي .

وعلى كل فكلية ميزاب هي المرحلة الأخيرة لمصعب . وشاع اليوم أن تنطق كلمة ميزاب بميم مكسورة يدها البعض ولا يدها آخرون . ولكن كثيراً من الناس ينطقونها مضمومة مما يدل أن أصلها : مصاب ، مصاب ،

(١) من ذلك أنهم يقولون (أبد الله) بدلا من عبد الله وكثير من الأعلام اشتهرت هكذا حتى ظن الناس أنها وضعت قصداً كذلك . ومنها نطقهم لفظة (أمي) بدلا عن عمي حتى ظن الناس أنها وضعت كذلك للدلالة على الاحترام والتعظيم .

مصعب . فكلمة ميزاب إذن هي كلمة مصعب ، وكلمة : بنو ميزاب تدل على ما كانت تدل عليه كلمة بنو مصعب ، غير أن بنى مصعب كانوا يمتلكون كامل البادية التي يطلق عليها أرض الشبكة فكانت تنسب إليهم ، ويقال لها بادية بنى مصعب بأوديتها الثلاثة وسلاسل مرتفعاتها وجبالها . أما تسمية اليوم بنسبة بنى مصعب إلى ميزاب واعتبار أن ميزاب اسم لأحد الأودية الثلاثة فهي تسمية تحاول أن تقصر أولئك القوم على بعض أجزاء باديتهم بينما تحمل الأجزاء الأخرى أو تنسبها لقبائل أخرى ، ولقد يكون اسم بنى ميزاب آخر ما أطلق على هذا الشعب الذى كان يسكن بلاد الشبكة أو بادية بنى مصعب ينطلق فيها طولاً وعرضاً ، ثم انحصر فى المدة الأخيرة فى بعض أجزاء منها . ولا أستبعد أن يكون للاستعمار يد - ولو كانت خفية - فى تضيق المكان الذى يعتبر وطناً للميزابيين لاسيما حينما عجزت فرنسا عن استعمارها وارتبطت معه بعهد حماية فإن من مصلحتها أن تضيق رقعة الحماية إلى أقصى حد ممكن ، ونحن نعلم أنها حاولت أكثر من مرة أن تنقض اتفاقية الحماية وأن تحتل تلك البلاد من جديد لتدخلها ضمن المستعمرات فلم يتسن لها ذلك أبداً وجرى بينهما كفاح سياسى مرير طويل لم ينته إلا بانتهاء الوجود الاستعماري لفرنسا فى الجزائر وإفريقيا .

على أن مناقشة هذه التسمية بالنسبة للأودية الثلاثة المتوازية التى تقطع سلاسل من المرتفعات المتوازية حتى سميت الشبكة ، أو للبادية المترامية الأطراف التى تحتضن تلك الأودية وتلك المرتفعات ، أو لوادى ميزاب الذى أطلق اسمه على كل أرض الشبكة اتباعاً للقاعدة - تسمية الشكل باسم الجزء - لا ينبغي عليها شيء البتة .

وإنما الذى أريد أن أتحدث عنه فى هذا الفصل إنما هم الميزابيون كشعب ذى خصائص ومميزات .

ومع احترامى الكبير للمؤرخين الكبارين الكعك ، ودبوز . ومع تقديرى لجهودها العظيمة فى الأبحاث الطويلة والعميقة فى تاريخ الجزائر وسمة معارفها بطبيعة البلاد والسكان ، إلا أننى أخالفهما فى بعض النقاط البسيطة فيما يتعلق بالميزابين وسوف أوضح ما أذهب إليه فيما يلى :

قال القطب رحمه الله فى رسالته صفحة ٨٤ : « جرى تسمية أهل هذه القرى الخمس بل السبع بنى مزاب بضم الميم وتخصيصهم بهذا الاسم » . وبعد سطور قال : « ثم إن أهل هذه القرى الخمس فقط يسمون بنى مصعب لأن بعضهم من ولد مصعب ولعله مصعب بن سدمان » . فالميزابيون اليوم هم إذن أحفاد سكان هذه البادية التى نسب إليهم وتسمت باسمهم ، بوديانها وهضابها ، وقد كانوا يسكنونها على حياة بدوية قوامها تربية الماشية وقليل من الزراعة الموسمية التى تعتمد على الأمطار . كما كانت تعيش كثير من القبائل البربرية فى تلك العهود . وكانوا يتنقلون فيها على ضفاف الأودية الثلاثة التى تربط باديتهم رباطاً يشبه الشبكة . فلما جاء الإسلام إلى الجزائر أسلم بنو مصعب كما أسلم غيرهم من الناس ، وسبقت إليهم أصول المعتزلة فاعتنقوها ، قليل منهم عن اقتناع وعلم . والكثير عن تبعية وتقليد .
وبقوا على ذلك^(١) إلى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس حين

(١) عندما قرأت هذا الفصل على أستاذنا الشيخ عبد الرحمن باسكى حفظه الله قال : « يرجح أنه كان هناك إباضية فى العطف قبل مجيئ محمد بن بكر من فلول تاهرت ويؤيد هذا أنه توجد مقبرة قديمة بظن أنها لبعض بنى رستم . » ولست مقتنعا بهذا الرأى لأن أهل هذه المنطقة كانوا على خصام متواصل مع الدولة الرستمية كما هو معروف وكما قرره القطب رحمه الله فمن المستبعد جداً أن يقصدهم فلول الدولة الرستمية عند ذكيتهم لأن تلك القاول إنما تلجىء إلى من تثق بالسلامة والأمن معها وهؤلاء ليسوا معها حينئذ على سلام .

كان أبو عبد الله بن بكر تنقل بين وادي أرينغ ووارجلان بجموعه المهائلة من طلبه العلم كأنها الجيوش الجرارة ، وكان يعتمد لتمويل ذلك العدد الهائل من الطلبة على ما تنتجه تلك الواحات السكريمة من الغلال وما يخصصه أصحابها من مقادير ضخمة للإنفاق على طلاب العلم كما يعتمد على أعداد وافرة من الماشية يتخذ لها رعاة يتخيرهم من أصحاب الدين والأمانة ثم يسلمها إليهم ليتولوا رعايتها وتربيتها وعندما تجذب المراعى بسبب الجفاف في نواحي أجلو وأرينغ ووارجلان - وهذه البلاد كانت مضطرب الإمام - يدعو رعاته إلى انتجاع بادية بنى مصعب وقد يرافقها ليعتأس أصحاب الأرض ويحصل على موافقتهم وقد استطاع في رحلاته تلك أن يتخذ منهم معارف وأصدقاء ، كما استطاع أن يتعرف على كامل تلك البادية تعرفاً كاملاً ، ويعرف مواطن الخصب من أوديتها وجبالها، وملاءمة كل جزء منها لأنواع الماشية على مدار السنة . ولتختلف الفصول .

وفي أوائل القرن الخامس توالى الجفاف على منطقة وارجلان وما جاورها عدداً من السنين وزحفت كثبان من الرمال على سدرانة وكانت بعض الأودية - التي تنساب تحت طبقات من الأرض حتى إذا وصلت إلى منطقة سدرانة ووارجلان نبعت على شكل عيون غزيرة المياه - قد تغيرت مجاريها فغارت تلك العيون النابعة منها . فضاقت الحياة بالناس لا سيما أصحاب الماشية . ودرس القوم موقفهم وكان الإمام أبو عبد الله من بينهم فلم يجدوا منتجعاً لإنقاذ ماشيتهم غير بادية بنى مصعب ، ولإيضاح هذه الصورة بسرني أن أنقل للقارئ الكريم ما قاله شيخ الصحافة الجزائرية الشيخ أبو اليقظان إبراهيم بن عيسى في رسالته المختصرة « الإباضية في شمال إفريقيا » قال رحمه الله ما يلي :

« بعد فترة حوالى ٥٠ عاماً^(١) - فيما أظن - من حلول فلول بنى رستم بوارجلان وقعت مجاعة كبيرة فى البلاد وأكلت الحرث والنسل ، وأحرقت الحدائق والبساتين حتى قيل إنها غورت أكثر من ألف عين ... إلخ إلخ .

وهناك التأم جمع من علماء وأعيان البلاد من أهل الرأى والصلاح وفيهم أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسى - اجتمعوا فى مكان ما - للمداولة فى إيجاد حل لهذه الأزمة التى تهدد بخراب البلاد ، وفناء العباد ، إذا بقيت كذلك بدون حل .

وبعد تغليب وجوه الرأى اتفقوا على إيجاد حل للقضية بالبحث عن متسع حيوى يأوى إليه الأجيال الآتية بأنفسهم ودينهم وخلفهم يكون لهم كآرز للدين والإسلام ، يأوون إليه ، كما تأوى الحية فى جحرها عند الخطر . وحيث سبقت للإمام معرفة ببادية بنى مصعب إذ كانت رعاة أغنامه ترتاد عين المكان لارعى والسكلا فى الربيع كما كانت رعاة الشيخ أبى عمار عبد الكافى ترتاد لرى أغنامه جهال بنى راشد فى الشمال ، لأجل ذلك اتفق مؤتمرم على ما يلى :

أولاً : أن ينتدبوا الإمام أبى عبد الله للبحث عن هذه المهمة لخبرته بالمكان ولحكمته لمعالجة طباع أهله الشرسة .

ثانياً : تزويد الوفد بمؤنتهم لستة أشهر على حساب الجماعة .

قام الإمام بالمهمة وإن كانت كلفته خسارة ابنة العزيز إبراهيم إذ

(١) خرب البيدون تهرت سنة ٢٩٦ وابتدات أبى عبد الله إلى ارتياد بادية نى مصعب يكون فى أوائل القرن الخامس فإن أكثر المصادر التاريخية تذكر أن مبدئته العطف بدأ تأسيسها سنة ٤٠٢ ، ولا شك أن مجيئه إليها كان بعد ذلك .

قتله سكان البلاد الأصليون لشراستهم ، وعداوتهم المزمنة للإباضية ولكن لم يثن ذلك من عزمه لاستصلاح البلاد . فهو بحكمته وصبره ألان من قسوة قلوبهم ، وكبح من جماحهم وشراستهم حتى شرح الله صدرهم للإسلام الحق . فنزل أولاً في العطف واتخذها مركزاً لعمله ، ومقامه هنالك موجود كتذكار حول ضفة الوادي إلى اليوم .

ثالثاً : أن يرافقه خادمه وابنه إبراهيم — فيما أظن .
انتهى المقصود من كلام شيخنا .

هكذا قرروا أن يتجهوا إلى بادية بني مصعب فساروا بقطعان لاحصر لها من الإبل والأغنام ، وكان قد أعجفها القحط والجفاف . وحسب الاتفاق الذي عقده أهل الحل والعقد وأهل الماشية من انتداب أبي عبد الله صاحبهما الإمام نفسه ورحب به القوم بعد جفاء ، وراق المقام فقد وجد المرعى الخصب لما معه من الأنعام ، والأسماع المرهفة والعقول البيرة لما يلقيه عليهم من دروس فأعجبهم منه الدين القيم والخلق السمع والتواضع الجم ، والعلم الغزير ، والصدر الفسيح الذي لا يضيق ، وتخلق عليه الشباب والشيب فتكونت النواة الأولى — لأول قرية ميزابية مستقرة^(١) وكانت أخبار أبي عبد الله مع بني مصعب تصل إلى أهل سدراتة ووارجلان تحدثهم عن

(١) يقول أستاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن : هناك عدداً من القرى في هذا الوادي قبل مجيء محمد بن بكر ، وأن قرية العطف نفسها كانت موجودة قبل مجيئه والذي يبدو من مقارنات أقوال المؤرخين أنه كانت هناك بالفعل بعض المجموعات من المنازل — قبل أبي عبد الله — لا تبلغ أن تكون قرية وإنما تشبه أن تكون مشاتي لبعض الأسر بأوون إليها عند اشتداد البرد ويرتحلون منها بعد ذلك طوال السنة فهي ليست قرى أو مدناً بالمعنى المتعارف وإنما هي مقار ثابتة لأسر من قبائل بادية .

نجاح الرحلة وعن المدى الذى بلغت إليه الألفة بينهم . وكانوا قد تضرروا وضاقوا من توالى الجفاف وانحباس الغيث ونضوب المياه وزحف الرمال عليهم بفعل رياح الجنوب المستمرة حتى أصبحت الحياة فى بعض تلك الأماكن عسيرة أو شبيهة بمستحيلة . ففكر بعضهم فى النجاة بماشيته ونفذ فكرته فطابت له النقلة والتحق بهم بعض من لم تكن لهم مواشى ولكنهم يحسنون الزراعة ففتحت لهم أرض الوادى صدرها عندما مدوا إليها أذرعهم القوية . ووجد أولئك المهاجرون الأول من سدرانة ووارجلان أن المصعبيين قد تأثروا بدروس أبى عبد الله فلانت طباعهم ، وسمحت نفوسهم واتسعت أخلاقهم فاستقبلوا المهاجرين إليهم بالترحاب والتكريم وامتزجوا بهم الامتزاج الكامل . وأضافوا إلى حياتهم البدوية نوعاً من حياة مستقرة كالتى كانت فى سدرانة ووارجلان ووادى أريغ .

وبدأوا يحفرون الآبار ، ويشغلون بالزراعة ، ويبنون البيوت ، ويستقرون بأخلاقهم فى انسجام ووثام وتعاون ، وتسامع الإباضية فى كل مكان بهذا التغيير الذى وقع عند بنى مصعب وترحيبهم بالإمام وآثار الإمام فيهم فاشتدت الهجرة إليهم من كل الأماكن من سدرانة ووارجلان ووادى أريغ ، ومن الجنوب التونسى ومن جبل نفوسة ومن جميع البلدان أى : من أى مكان يجد فيه الإباضية كيداً بسبب الضغط السياسى ، والضيق العنصرى ، أو الاحتياج الاقتصادى .

وكانت الهجرة غالباً ما تتم إلى وارجلان لشهرتها عند الإباضية فى ذلك الحين ومنها ينتقلون إلى إخوانهم فى بنى مصعب .

اعتنق بنو مصعب المذهب الإباضى على يد الإمام أبى عبد الله فى

أوائل القرن الخامس وورد إليهم كثير من إخوانهم من البلدان الأخرى لا سيما واحات الجنوب الشرقي من الجزائر والجنوب الغربي من تونس وعائلات من المغرب ومن بعض المدن المختلفة في الجزائر كقسطنطينية وبسكرة ومن جربة والجليل . وانصهر أولئك في مختلف البلاد والجهات ومن ضمنهم بعض الرستميين الذين كانوا في سدراتة - من السكان الأصليين أى (بنى مصعب) وذاابوا فيهم وتكوّن من الجميع شعب ذو سمات وخصائص واضحة فيه . غير متكاملة في غيره .

ومنذ بدأ يتكون تكوّنه الجديد من حيث اعتناق المذهب واستيعابه للمهاجرين الجدد بدأ يتجه - بعناصره المختلفة - إلى تغيير جذرى في حياته الاقتصادية . وبعد أن كان شعباً يعيش عيشة البداوة ينقل بين المراعى . صار شعباً زراعياً مستقراً يبني الحياة الكريمة في مدن كريمة معتمداً على استغلال خيرات الأرض بكل ما يملك من علم وجهد . ولما تغيرت ظروف الحياة ، وأصبحت الزراعة وحدها لا تكفى لبناء اقتصاد سليم . غير ميدان كفاحه الاقتصادى فانطلق وراء التجارة^(١) وبلغ فيها ما لم يبلغه غيره من جيرانه . وفي هذا العصر لما بدأت الحياة تتغير ، وموازين الاقتصاد تتحول . بدأ هذا الشعب يتجه في اقتصاده اتجاهاً جديداً . وأصبح لا يقصر اعتماده على التجارة كما كان من قبل وإنما صار يعتمد على الصناعة ويعود إلى الزراعة . الزراعة الواعية - من جديد - حتى يتمكن من بناء اقتصاده على أساس ثابت مدروس قد خطط له عن علم وخبرة ودراية . وبعد كل هذا فاحسب أنه من

(١) تولدت عن ممارسة التجارة في ديار القرية مشاكل اجتماعية اتخذت لها حلول لم تعرف لأى شعب غيره سوف نعرض لها بإيجاز في فصل خاص .

الخطأ أن نقول إن الميزابيين هم بقايا الرستميين هاجروا من تاهرت إلى سدراتة ثم إلى الوادي على تلك الصورة المتميزة التي صورها الأستاذ دبور كما أنه من الخطأ أن نقول إنهم قوم من قبيلة نفوسة وجاءوا تحت قيادة يعقوب بن أفلح إلى وادي (مئة) جنوب وارجلان ولنشاطهم كوّنوا هناك بلاداً خصبة فتخوّف منهم أو حسدهم بنو وارجلان فأجلوهم عن تلك البلاد فالتحقوا بوادي ميزاب فتكوّن منهم هذا الشعب الذي نتحدث عنه. وهاتان الصورتان — كما ترى يلعب فيهما الخيال دوراً هاماً. ويكفي أن تعلم أن يعقوب عندما هاجر من تاهرت لم يهاجر برسم قيادة ، وإنما هاجر خائفاً فاراً بأهله أو بعض أقاربه . وكتب التاريخ حين تصف هجرته تعبر بدقة عن تلك الحالة . وأكثر كتب التاريخ تذكر أن يعقوب عند فراره من تاهرت والتجائه إلى وارجلان وكانت فرق من الجيش العبيدي تطارده كان يقف لها وحده يشاغلها حتى يبتعد رفاقه ثم يلتحق برفاقه فإذا لاحقتهم فرق جيش العبيدين اعترضها منفرداً وشاغلها حتى يبتعد صحبه حتى نجوا . فلو كانت الصورة كما رسمها الأستاذ الكعك (قوم من نفوسة جاءوا تحت قيادة يعقوب) لما اضطر أن يشاغل العدو وحده طول الطريق ولما كان من الحكمة أن يساعده بعضهم على الأقل ليكونوا أرواحاً في عين العدو .

على أن العبارة الدقيقة التي حددت المعنى قد تكررت عند الدرجيني على صور فتأملها فيما يلي: « ثم إن يعقوب ابن الإمام وابنة أخيه دوسرا^(١) ،

(١) تقول كتب التاريخ أن دوسرا عي إحدى بنات الإمام أبي حاتم وكانت من الجمال بمرتبة عالية فلما اغتال أبناء اليقظان أباهما صممت على الأخذ بنأره مهما كانت الظروف فذهبت مع أخ لها إلى الحجاني وطلبت منه لانتقام من اليقظان وودته إن فعل أن تزوج به فلما فعل خافت أن يطالبها بوعدها ففرت مع عمها يعقوب وبحث عنها الحجاني بالملاح فلم يقع لها على أثر .

خزجا في خفاء إلى جهة وارجلان حتى نزلاها . ويقول في مكان ثان :
« وخرجوا في خفاء خوفاً مما يذاهم من عدوهم » . ويقول في مكان آخر :
« فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان » . أضف إلى كل هذا ما جاء
في الكتاب نفسه في موضع آخر : « قال لأصحابه إنكم لا يجتمع منكم
ثلاثة نفر إلا كان عليهم الطلب . افرقوا » .

أظن أن هذا ينسف كل الصور التي كانت ترسمها بعض الأقلام بأن
مجموعات كبيرة إما من الرستميين أو نفوسة بقيادة يعقوب قصدت وارجلان
ثم استوطنت سدراتة إلى آخر الصورة السابقة ويتضح منها جميعاً أن إباضية
ناهرت عندما احتلها أبو عبد الله الحجازي وارتكب فيها الأفاعيل فر من
نجا منهم إلى أي مكان يظن فيه النجاة أو الحماية دون توجيه من أحد أو
قيادة أو تنظيم وأن يعقوب بن أفلح أتجه بأهله وابنة أخيه إلى وارجلان
فلما رأى أن بعض الفلول تنضم إليه خاف أن يكون في ثقل يتمثر في تفقه
ويعجز هو عن الإسراع به إلى مكان النجاة وهو في حالته تلك لا يستطيع
حمايته فأمرهم بالتفرق وفعلاً تفرقوا عنه فلم يكن معه عندما بلغ إلى وارجلان
أحد غير أهله كما نص على ذلك أبو العباس الدرجيني بقوله فيما نقلناه عنه
سابقاً وتأمل إن شئت قوله : « فأقبل بمن معه من أهله حتى نزل وارجلان » .

ومعنى هذا أن بقية الإباضية انذبن نجوا من القتل في ناهرت قد تفرقوا
إلى جهات مختلفة وربما التحق بعضهم بوارجلان في مجموعات كبيرة أو صغيرة
قبل أو بعد يعقوب بن أفلح ولعل بعضهم نزل مدناً أخرى أو جهات
أخرى ثم بدا له فاتجه إلى وارجلان ، هذه كلها احتمالات لا نستطيع إثباتها
ولا دفعها .

وأحسب أننا ننتهي من هذا الحديث الذي طال أكثر مما ينبغي له إلى أن الميزابيين هم السكان الأصليون والمالكون الحقيقيون لجادية بني مصعب بما فيها من هضاب ووديان وسهول، وبما يرعى عليها من ضباب وظباء ووعول . فإذا كانت قد وردت عليهم طوائف من الناس ، أفراداً أو أسراً ، طلباً للحياة الكريمة ، أو فراراً من الظلم أو الاضطهاد ، فإن تلك الطوائف قد دخلت بينهم ، وانصهرت فيهم وذابت في مجموعهم . ولا يغير من هذه الحقيقة أن بعض تلك الطوائف أو الأسر أو الأفراد لا يزالون يذكرون مواطن أجدادهم التي هاجروا منها . أو أنهم لا يزالون يحتفظون بأسمائهم وألقابهم قبل أن يستوطنوا هذه البلاد الكريمة .

ومهما راجعت المصادر التي بين يدي . وفكرت في أصل الميزابيين فلست أؤيد أبداً أولئك الذين يقولون إن الميزابيين هم بقايا تاهرت بعد أن خربها العبيديون هاجروا إلى سدراتة ، وبقوا فيها متميزين عن غيرهم ثم إنهم هاجروا إلى وادي ميزاب فتكوّن منهم هذا الشعب الذي نتحدث اليوم عنه في اعتزاز لمحافظة على نقاء الإسلام ولسيره على منهج المسلمين في خير القرون . لا لانهداره من دماء ملكية ، ولا لانتسابه إلى ارتفاعات طبقية وكل ما يقال في هذا الموضوع إن بقايا تاهرت من الرستميين - وهم قليل جداً - وغيرهم هاجر بعضهم تحت ضغط عوامل اقتصادية محضة في أزمنة متفاوتة إلى بني مصعب فكانوا ضمن العناصر التي انصهرت وذابت فيهم وتكوّن منهم جميعاً هذا الشعب الذي كان يسمى إلى مدى قريب « بني مصعب » وأصبح اليوم يسمى بني ميزاب وهكذا انتهت لتلك الصورة التي وضعها الأستاذ محمد علي دبور في قوله : « كان الميزابيون إلى آخر القرن الثالث الهجري في شمال الجزائر وفي نواح أخرى من المغرب الأدنى والأقصى

فهم الذين أنشأوا في الجزائر أول دولة إسلامية مستقلة « ثم يستمر في رسم الصورة فيها جر بهم إلى وارجلان ثم إلى سدراته ثم إلى وادي ميزاب . ولعل المحاة التي تسمح ظللال هذه الصورة ولا تترك منها إلا الوقائع الحقيقية هي قول محمد علي دبور نفسه في نفس الكتاب ص ١٥٩ :

« وكانت هذه النواحي الميزابية وطناً لقوم من زناتة القبيلة البربرية المشهورة استوطنوه منذ زمن بعيد فنسب إليهم ، وكان هؤلاء الزناتيون منبئين في مكان المدن الخمس ، قد نصبوا فيه خيامهم وبنوا في نواحيه بعض قرى بسيطة يسكنونها ومن تلك القرى العطف التي لا تزال فيها آثارهم إلى اليوم . وكان هؤلاء الزناتيون على مذهب المعتزلة « وبعد سطور يقول : « فاندجوا في إخوانهم الميزابيين الذين هاجروا إليهم وامتزجوا بهم وصاروا شعباً واحداً تربط بينهم الدماء المتزجة ودين الله القويم » .

ويبقى لنا هنا سؤال معلق يحتاج إلى جواب وهو اسم (الميزابيين) هل هو اسم لمجموعة من الناس كانوا معروفين به في شمال الجزائر ثم هاجروا - وهم محتفظون به - إلى وارجلان وسدراته ثم انتقلوا به إلى أودية زناتة فاندجوا مع سكانها وغلب اسمهم على الجميع فسموا به كما يظهر مما قاله محمد علي دبور . أم أن أولئك المهاجرين من شمال الجزائر ومن غيره إنما جاءوا يحملون أسماء أسرهم وأطلق عليهم الأكثر وأنهم عندما دخلوا هذه المنطقة انصهروا في سكانها وقبائلهم على اسمها على ما أوضحناه في أول هذا الفصل .

أما أنا فأحسب أن اسم الميزابيين لم يعرفه الشمال إلا في هذه العصور المتأخرة عندما انفتحت أبواب التجارة لسكان بادية بني مصعب فانطلقوا إلى أغلب مدن الشمال حيث تحكمت أصابعهم المرة في أغلب المقاييس والموازين والمكاييل .

ملاحظة :

بعد الانتهاء من كتابة هذا الفصل بسنوات اطلعت على جواب
الأستاذ الفاضل الإمام بيوض إبراهيم أجباب فيه عن سؤال وجه إليه عن
حقيقة النسبة إلى ميزاب وماذا تعنى هذه الكلمة وقد حلل الموضوع تحليلاً
كافياً في إيجاز بليغ . وعندما اطلعت عليه خطر لي في بادئ الأمر أن أنشره
في هذا المكان مستغنياً به عن هذا الفصل ثم عدلت عن هذا الرأي وقررت
أن أنشره بنصه بعد هذا الفصل حرصاً على فائدة القارىء .

من هم بنو ميزاب (١)

تسألون عن انتساب إباحية القطر الجزائري إلى ميزاب ، وهل النسبة إلى جد ، أو إمام ، أو مذهب ، أو كرامة ، أو وطن ، وتطلبون شرح هذا وتفصيله . . الجواب :

بما حفظناه وطالعناه وتحققناه قديماً إذ ليس لنا سعة من الوقت للمراجعة والبحث .

إن النسبة إلى الوطن والوادي وليس في كلمة (ميزاب) ما يمت بنسب أو سبب إلى إمام ، أو كرامة ، أو جد ، أو مذهب ، أو وطن . فدونكم البيان : تعرف هذه الجبال المحيطة بقري ميزاب في التاريخ بجبال (بنى مصعب) ويعرف الوادي الذي همرت عليه القري بوادي « مصاب » في التاريخ وبهذا الأسماء المؤرخ الشهير ابن خلدون . ومصعب ومصاب واحد فيما ترى . وإنما الفرق بين نطق العرب والبربر . وإفريقيا بعد حملة بنى هلال - كما تعلمون - أو بعد الفتح الإسلامي على الأصح همرت بالعرب الذين زاحوا البربر الأصليين في كل بقعة من أرض إفريقيا ، ومن البربر من لا يستطيع النطق بالعين محقة ، وإنما ينطق بها همزة وقد يسهلها إلى الألف . فإذا قال العربي مصعب قال البربري مصأب ولسم على هذا أدلة قاطعة من نطق الأعاجم لهذا الحرف ولغيره من حروف الحلق . وحتى الكتابة فإن حرف العين ساقط عندهم . فلا يكتبون مسعد اليوم إلا مسأد . ثم أن تقارب

(١) هذا جواب أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم مد الله في عمره ومتعه بالصحة والمافية لبعض من سأله عن الموضوع .

مخارج الصاد والزاي والضاد من جهة ، وتعدد الالهجات والألسنة من جهة أخرى ، وتقدم العهد من جهة ثالثة ، وكتابة المؤرخين للأسماء بحسب اللهجات التي نقلوا عنها ، وفيهم العربي والبربري والإفرنجى من جهة رابعة أوجبت اختلاف اللغات في النطق لهذا الحرف فقالوا ميزاب — مزاب — مضاب — مصاب — مصعب . وأصل الكلمة واحد غير متعدد ، هو اسم لهذا الوادى والجبال المحيطة به ، وتستطيعون أن تجدوا لهذا عشرات من الأمثلة في أسماء المدن والأودية والجبال والأشخاص . إذا كتبت بأصل عربي كتبت بصيغة ، وإذا نقلت عن أصل إفرنجى كتبت بصيغة أخرى حتى تستغلق ولا تفهم في كثير من الأحيان ، وحتى تنقطع الصلة بينها وبين أصلها وقد حضرتني عشرات وعشرات من الأمثلة لولا ضيق الوقت لذكرتها . وخذوا على سبيل المثال اسم مدينة (وهران) إذا نقلت عن الفرنسية كانت (أوران) و (تيارت) كان في القديم (تاهرت) ثم حرفت إلى (تيهرت) ولا يستطيع الإفرنجى أن ينطق بهذا الحرف إلا (تيارت) إذ يضطر إلى قلب الهاء همزة مسهلة بعد ياء ، وكثيراً ما انتقد العلماء على بعض كتّاب الشرق الذين يجهلون كثيراً من المدن الإسلامية والأقطار العربية . فإذا كتبوا عنها نقلوا أسماءها عن مؤرخى الأوروبين فجاءت محرفة لا تدل على مسأها .

وليس للإباضية جد ولا إمام مسمى بهذا حتى تكون النسبة إليه . وأما دلالة لفظ (ميزابى) اليوم على (إباضى) فإيما جاءت من كون الذين همروا هذا الوطن من زمن قديم إباضية المذهب . ولم يزالوا هم الأغلبية الساحقة فيه إلى الآن ، وحكام الوطن منهم وأموره بأيديهم فأصبحت كلمة (ميزابى) مرادفة في العرف العام لكلمة (إباضى) ونظير ذلك كلمة

فارسي اليوم فإنها كادت تكون مرادفة لكلمة شيعي لأن مذهب الفرس
التشييع . وقد يما كانت كلمة المغربي ترادف كلمة « مالكي » لقلبة مذهب
مالك على المغرب .

نعم إن بعضاً يزعم أن كلمة (ميزابي) نسبة إلى ميزاب الرحمة في
الكعبة الذي قطرت منه قطرات ماء في يوم مشرق الشمس سماؤه صافية
الأديم ليس فيها قزعة سحاب ، على أحد أئمة الإباضية أبي بلال مرداس
استجابة لدعوته ، وأماره على هداه ، وصدق دعواه ، في قصة مشهورة .

والخبر إن كان صحيحاً في نفسه لعدالة روايته وثقتهم ونزاهتهم عن
الكذب لكن دعوى نسبة (ميزابي) إليه باطلة قطعاً فإنها لم تعرف في
القديم ، ولو كانت صحيحة لكان أولى الناس بها إباضية المشرق ، وإباضية
الصدر الأول ، وما نعرف أن إباضية عمان والبحرين واليمن وزنجبار
والجبل وجربة ووادي أريغ ، ووارجلان انتسبوا لهذا قط ، فالدعوى باطلة .

هذا ما حضرني للجواب عن سؤالكم وأرجو أني وقتت فيه وأذكر
أن الشيخ أطفيش رحمه الله قد تكلم في التسمية كثيراً ولكني لا أذكر
الآن موضوعه .

العهود التاريخية لبني مصعب

أحسب أنني أوضحت - بما فيه الكفاية - في الفصول السابقة أن الكلمات: وادي ميزاب، أرض الشبكة، بادية بني مصعب. هي أسماء مترادفة لإقليم واحد، كان يسكنه في مبدأ الفتح الإسلامي شعب يسمى بني مصعب ثم هاجر إلى هذا الإقليم - في مختلف أدوار التاريخ الإسلامي - أعداد من الناس اندمجوا به، وانصهروا فيه - وتكوّن منهم جميعاً شعب كريم عزيز أصبح يسمى الشعب الميزابي أو بني ميزاب.

إن كلمة بني مصعب تحرفت إلى كلمة بني مصاب، بقلب حرف العين الحلقية إلى همز، ثم جرى تسهيل الهمز فقبل مصاب، ثم تحرفت الصاد إلى ضاد لقرب الخارج ثم بعد ذلك أصبح الضاد ينطق زائياً لقرب الخارج ولخفتها، والقارئ الكريم إذا تصفح كتب التاريخ والسير بل وكتب الفقه يجد أن بعضها تستعمل كلمة بني مصعب أو مصاب أو مضاب. ولا تستعمل ميزاب أو مُزاب إلا في هذه العصور المتأخرة، وأنها حين تنسب إليه تقول المصعبي.

وبناء على هذه الحقيقة فإن الشعب الميزابي الكريم هو الشعب الذي تكوّن من بني مصعب ومن انضم إليهم وانصهر فيهم منذ الفتح الإسلامي حتى الآن.

فإذا أردنا أن نتحدث عن تاريخ هذا الشعب في المدى الممتد بين الفتح الإسلامي والعصر الحاضر. فإننا نستطيع أن نقسمه إلى ثلاثة عهود متميزة

بعضها عن بعض . وأن كل عهد من تلك العهود يشمل على عدد من الفترات التاريخية التي تربط بينها روابط من الخصائص الاقتصادية والاجتماعية والحركات العمرانية والنشاطات العلمية والثقافية والسمات الدينية والسلوكية ، وإن كانت تفصل بينها أحداث سياسية ، أو مظاهر اجتماعية فصلا غير سميك .

واعلى في هذا الفصل أستطيع أن أعرض - بإيجاز - صوراً لسكل عهد من تلك العهود بما يتميز به من مظاهر وظواهر تجعله يدون وحدة زمنية واضحة المعالم في عباب التاريخ الطويل .

العهد الأول

العهد الأول لبني مصعب في التاريخ الإسلامي يبعدىء من الفتح الإسلامي لتلك المنطقة فيما بين سنة خمسين وستين للهجرة تقريباً ، ويمتد إلى نهاية القرن الرابع أو بعده بقليل حين ورود أبي عبد الله إلى تلك المنطقة والبدء في تطبيق نظام العزابة . ويمتاز هذا العهد بأن سكان أرض الشبكة قد اعتنقوا الإسلام ببساطة ، ثم سبقت إليهم آراء المعتزلة في الأصول والفروع فأخذوا بها ، وطبقوها على أنفسهم في حرص شديد . وحافظوا على نظام حياتهم كشعب يعتمد على تربية المواشى بالدرجة الأولى ، وعلى الزراعة الموسمية بالدرجة الثانية . وربما كانت المرأة عندهم تشتمغل بصناعة الفليجة^(١) كما هي عادة أغلب نساء البادية وحاولوا أن يحتفظوا بما عندهم وأن ينمزلوا عن غيرهم ، محافظة على شخصيتهم الخاصة في دينها وخلقتها وتفكيرها واقتصادها ، وهم يدافعون بحماس شديد كل من يخشون منه التأثير على اقتصادهم أو حرية مواطنهم المترامية . أو تلى آرائهم الدينية ويمكن لنا أن نقسم هذا العهد إلى ثلاث فترات قصيرة متقاربة متشابهة في أغلب الأشياء متخالفة في أخرى .

١ - الفترة الأولى : تمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان أى من الفتح الإسلامي في الستينات تقريباً إلى تكوّن الدولة الرسمية سنة ١٦٠ هـ

(١) الفليجة هي شقة الحباء . والأخبية أو بيوت الشعر مصنوعة من عدد من الفلائج والفلائج تصنع من شعر الماعز مخلوطاً بوبر الإبل والبديبات غالباً ماهرات في الصناعات المنخدة من الشعر والوبر . أما الصوف فلا يهتمن به ولا يجدن صنعه ولذلك فهو يجلب إلى أسواق الحضرة فيباع فيه .

تقريباً وقد كان المصعبيون سكان أرض الشبكة في هذه الفترة ، قد آمنوا بالإسلام وتقبلوه ، واطمأنوا إليه واستمسكوا به في حرص شديد . ومع أن هذه الفترة كانت فترة مدّ وجزر بالنسبة للفتوح الإسلامية في المغرب الإسلامي الكبير ، وكانت فترة حروب بين المسلمين الفاتحين وبين غيرهم من أصحاب الديانات الباطلة أو المرتدين ممن أسلموا قبل ذلك . إلا أن هذه الأحوال لم يرد لها ذكر في أرض الشبكة أو بادية بني مصعب مما يدل أن سكان تلك المنطقة حين آمنوا بالإسلام ، قد اقتنعوا به واستمروا في قلوبهم فلم تجذبهم الدعاية المضادة له ، ولم تؤثر عليهم مساعي طلاب الزعامة فلم يشاركوا البلاد المجاورة لهم فيما يصدر عنهم من شغب ، ولم يستجيبوا لطلاب الزعامة فيما يحدثونه من قلاقل واضطرابات . وفي أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني من الهجرة بدأت تتكوّن الآراء المذهبية ويتميز بعضها عن بعض ، وبدأ يحتدم حولها النقاش والجدل ، وبدأت تنشأ المذاهب الكلامية والفقهيّة ، وكان حملة الآراء والعقائد لا يقلون نشاطاً عن زعماء السياسة فكانوا يجوبون البلاد يدعون الناس إلى ما يرون ويعقدون ، وكان المعزلة من أشد فرق المسلمين نشاطاً وأكثرهم حركة فسبقت آراؤهم إلى هذه المنطقة فتقبلها أهلها واعتنقوها بعضهم عن اقتناع ، وبعضهم عن تقليد . وكانوا متأثرين بالحركة العامة للمعزلة الذين كانوا منقشرين في ذلك الحين في أغلب القطر الجزائري ، وكانوا يصاولون - في قوة وعنق غيرهم من أتباع المذاهب الأخرى . غير أن الموقف لا سيما عند بني مصعب لم يخرج عن مجال الكلمة والدعوة . فاستمرت حياتهم هادئة في كامل هذه الفترة .

٢ - الفترة النانية : تمتد هذه الفترة قرابة قرن ونصف . إذ تبتدىء بعد

منتصف القرن الثاني وتستمر إلى نهاية القرن الثالث وذلك أن المعزلة هموماً

وأهل هذه البادية من أتباعهم ، قد رأوا أن للمذاهب الإسلامية الأخرى التي تخالفهم في الأصول والفروع دعاة لهم في الحركات والنشاط ما جمع عليهم أعداد كبيرة من الأتباع . وأنهم بدأوا يكوّنون لأنفسهم دولا ، ويركزون مذاهبهم على حكم وسلطان وأن البعض الآخر منها بصدد التكوّن . وبدا لهم أن تلك الدول تبحث على السلطة وأنها قد تحاول السيطرة على بعض البلاد وتعمل للتحكم فيها فكتلوا أنفسهم ، وتحفزوا للعمل ، واستعدوا للدفاع أو حتى للهجوم إذا اقتضى الأمر . ونشأت بالفعل من حولهم ثلاث دول قوية لم يكن لإحداها علاقة بالمرتزقة . فقد نشأت الدولة الرسمية سنة ١٦٠ هـ . ونشأت الدولة الإدريسية سنة ١٧٢ هـ . ونشأت الدولة الأغلبية سنة ١٨٤ هـ . وكان لكل دولة من هذه الدول نفوذ على بعض جهات الجزائر . ورغم أن المرتزقة في هذه الفترة بالذات كانوا على أشد ما يكونون من الانتشار في الجزائر وعلى أشد ما يكون من الدعوة لمذاهبهم إلا أنهم لم يتمكنوا أن يغلبوا على جهة أو أن يستقلوا بها فلم تنشأ لهم هنا دولة . واستمروا في صراعهم مع المذاهب الأخرى أحيانا باللسان وأحيانا بالسنان . ولما كان معتزلة هذه البادية مرتبطين مذهبيا مع الأعداد الوفيرة من المعتزلة الذين يحيطون بالدولة الرسمية والذين كانت علاقتهم تتراوح بين الجدل في المساجد والمساجد وبين القتال والحرب في ميادين النضال تبعاً لإحساس المعتزلة أنفسهم بما هم عليه من قوة وضعف . وكان لهذا الموقف لمعتزلة الشمال أثره البالغ على سكان بادية بني مصعب . وذلك أن إخوتهم في المذهب من أهل الشمال لا يفتأون يحذرونهم من أن المذهب الإباضي يكاد يعم المنطقة . وأن دعواته لا يلبثون أن يدخلوا بين صفوفهم .

ونتيجة للمخاوف التي كان يصورها ويبالغ في تصويرها دعاة المعتزلة

- تحذيراً من الإباضية ومن الدولة الرستمية بالذات . فقد تـكـوّن رد فعل عنيف عند بني مصعب ، واستعداد قوى لمجابهة هذا المذهب وأصحابه ، ومحاربة أتباعه ودولتهم إن اقتضى الأمر .

وكما تـكـوّن آراء الشعوب - دائماً - في الاندفاعات الأولى حسب أهواء الزعماء والقادة والدعاة . وكما بصورون لهم غيرهم من الشعوب وما هم عليه من الآراء والمبادئ . وكما يلقون في روعهم أن مخالفيهم معادون لهم ومضادون أو مزاحمون ، دون معرفة حقيقية أو تجربة واقعية ، فقد استقر في أذهان بني مصعب - وهم معتزلة - أن الإباضية - وهم مخالفون في المذهب - أعداء لهم وخصوم . وأنه يجب الاحتراز منهم ، والبعد عنهم ومحاربتهم إذا دعت الدواعي . وعندما كانت تقع المناوشات بين معتزلة الشمال والدولة الرستمية كان بنو مصعب يحسون بالخطر ، ويتقنون على أهبة الدفاع . وقد يذهبون لتجدة إخوانهم بما يتيسر لهم من مساعدة مادية أو معنوية^(١) .

ومضت هذه الفترة كاملة على المعتزلة عموماً وعلى بني مصعب خصوصاً . وهم إما في محاربة فعلية مع بعض الدول القائمة وإما في استعداد أو توقع للحرب . ويبدو مما يفهم من النكت القليلة التي وردت على ألسنة بعض المؤرخين أن مواقف بني مصعب كانت في أغلبها موجبة ضد الدولة الرستمية ، فهم لا يـخـشـون غيرها ولا يهتمون بسواها ولا يطعمون - حسبما يلقي إليهم - ويصور لهم - في غير اختلال مكانها والسيادة بدلها ولذلك فهم معها على عداة

(١) قال الطيب رحمه الله في رسالته صفحة ٣٨ ما يلي « وليس أهل هؤلاء القرى إباضية من أول ، بل كانوا معتزلة بسافروني إلى تپهرت لقتال الإباضية وكانت المعتزلة أفوياء في هذا المغرب » .

مستمر . إما قتال ، وإما مناصرة لمن يحاربها ، وينقم عليها ، وبمساعدة له . ولو بالمال والرأى . وإما تحفز واستعداد . فعاشوا قرنًا ونصف قرن . في قلق واضطراب وحرب أعصاب .

وأثر هذا الموقف التحفزي عليهم : تأثرًا كبيراً ، فتضاءل اهتمامهم بالجانب العلمى . واختفت من مجتمعاتهم تلك المجالس الصاخبة التي يثور فيها الجدل ويكثر الأخذ والرد في بعض مسائل العقائد وتناقص عدد العلماء وطلبة العلم . وأصبحت العلوم الدينية عندهم - سواء في أصول الفقه وفروعه - عبارة عن معلومات محفوظة حفظاً لفظياً تنقل جافة على صورة ميمية ، فيها كثير من التحريف والتشويه . وفي نهاية الفترة ضعف فيهم الاهتمام العلمى والحرص على المثانة ولم يبق لهم إلا كيان اقتصادى يبنى على تربية الماشية والزراعة اللوسمية فرجعوا إلى حياة بدوية تخفتى منها جميع صور الحضارة .

ويبدو أن الصراع الحاد الذى عاش عليه المتمتزة طيلة هذه الفترة قد أثر عليهم عموماً فتضاءلت مواقفهم في جميع أنحاء المغرب الإسلامى ولم يعد لهم وجود ملموس .

وفي نهاية هذه الفترة قد انقرضت الدول الثلاث التي أشارنا إليها سابقاً . فقد اكتسحتها جميعاً الدولة العبيدية في نهاية القرن الثالث الهجرى . واختفى أيضاً الوجود الظاهرى لفرق المتمتزة كالأصالية التي كادت أن تكتسح في مبدأ أمرها بعض دول الجزائر عقائدياً وعسكرياً وحتى حسبت لها الدولة الرستومية كل حساب ، فاستنجدت استعداداً للمجابهة واللقاء على ميدان الجدل أو ميدان القتال . بعلماء وفرسان جبل نفوسة .

وهكذا تنهى الفترة الثانية ببنى مصعب بدورة حول أنفسهم وترجع

بهم إلى مبدأ الحياة التي كانوا عليها عندما بلغهم الإسلام ما عدا أنهم الآن في نهاية الفترة يشرفون بالإسلام وينتمون إلى خير أمة أخرجت للناس .

٣ - الفترة الثالثة : تمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان أى من أواخر القرن الثالث عند انقراض الدولة الرستمية . إلى أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس عند دخول أبي عبد الله بن بكر إلى بادية بني مصعب .

في أول هذه الفترة قد اختفت الدولة الرستمية التي كان بنو مصعب يناصبونها العدا كما اختفت الدول المجاورة لها في نفس الفترة ، وخضع الشمال كله بما فيه من مبادئ وعقائد ومفارقات ودول لسلطة واحدة هي سلطة الدولة العبيدية وبذلك بدا لبني مصعب أن الشمال قد انفصل عن الجنوب انفصالاً كاملاً فأصبح معتزلة الشمال وإباضيتهم خاضعين لحكم واحد هو حكم الدولة الفاطمية وانعدم الرباط الذي كان يربط الشمال بالجنوب . أما إباضية الجنوب فأصبحوا هم الآخرون في مستوى معتزلة لا تحميهم دولة ولا يلوذون بسُلطان .

فزعوا إلى موادعة الإباضية ، وأمنوا في حياتهم واطمأنوا وانطقت حراتهم ، وفقدوا في نفوسهم دوافع الحرب للدفاع أو للهجوم وتركوا الاستعداد والإعداد له . ومالوا إلى حياة بدوية مستقرة .

ولعل أهم ما يمتاز به هذه الفترة الثالثة من حياة الميزابيين الذين لا يزالون إلى ذلك الحين مصعبيين على مذهب المعتزلة إنما هو الاطمئنان والاستقرار والهدوء والحياة الرتيبة والانصراف عن مجالس العلم والحرب ، إلى تربية الماشية ورعايتها في البادية الفسيحة وأوديتها الطويلة المتعرجة الخصبية . وإلى

تكوين علاقات جديدة - وإن كانت محدودة - مع مجاورتهم من المناطق الأخرى فيما تقتضيه طبيعة تربية الماشية من ضرورة تتبع مواقع الفيث هنا وهناك ، ولا شك أن الأمطار قد تجود في باديتهم وتقل عند جيرانهم فيضطر أولئك الجيران أن ياتمسوا عندهم المرعى بأسلوب من الأساليب وقد تنعكس القضية فيجدونهم وتخصب بلاد جيرانهم فيضطرونهم إلى التماس المرعى عند أولئك الجيران بطريقة من الطرق . ولعل مما سهل ذلك عليهم أن جيرانهم من أصحاب الوادى والواحات قد بقوا غير تابعين لدولة من الدول فهم يعيشون في نفس الظروف السياسية فلم يكن أحد منهم يخشى الآخر . أو يتوقع غزوه . فانصرف كل منهم إلى حياته الخاصة يعالجها على حسب ما اعتاد وعرف من وسائل الحياة .

ولما كانت بادية بنى مصعب فسيحة ، وكانت أوديتها خصبة صالحة للمرعى فى معظم شهور السنة وكانت الأمطار فى أغلب السنوات إما أن تنزل عليها كلها فتخصب أو تنزل على بعض جهاتها ، أو على أقل تقدير على رؤوس أوديتها فتسيل وتمسكون فيها المرعى فإن بعض جيرانها لاسيما من الجهات الغربية وأصحاب الواحات كانوا يحتاجون إليها أكثر مما يحتاج هى إليهم ، فكانوا ينتجعونها فى مواسم الخصب ويعودون إلى مواطنهم . وكان هذا الاتصال بينهم يسبب تعارفًا وتعاونًا فى بعض الأحيان كما يسبب شغبًا ونزاعًا فى أحيان أخرى تبعًا لاتساع الخصب والجذب ، وكثرة الأمطار وقلتها فى هذه الجهة أو تلك .

وفى أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس كان محمد بن بكر بنظامه الاجتماعى الفريد ، وتلاميذه الكثرين ، ومدرسته المتنبلة، ومواسمه

الوافرة ، ينتقل بين أودية أجلو وأربغ ووارجلان ، وكان أحياناً ينتجع بادية بنى مصعب . فيصيب منها وبعرد ، ففكوت بينه وبين بنى مصعب معرفة لم تلبث أن تطورت إلى مودة حتى دفعته سنوات الجفاف إلى الانتقال إليهم ، والسكنى بينهم في مدينة العطف التي يرجح أكثر المؤرخين أنها تأسست سنة ٤٠٢ ، وبرى بعضهم أن نواة المدينة كانت موجودة قبل حضوره وإنما جعلها مستقراً له في المدة التي بقى هناك وتجمع السكان فيها وفيما حولها وكانت - حقيقة - هي النواة لهذه الحضارة الرائعة القائمة اليوم في وادي ميزاب .

بهذا الحديث تنتهى الفترة الثالثة وينتهى معها العهد الأول من حياة بنى مصعب فى التاريخ الإسلامى ، وابتدىء العهد الثانى من تاريخ هذا الشعب الكريم .

العهد الثانى

العهد الثانى لحياة بنى مصعب فى التاريخ الإسلامى يمتد نحو أربعة قرون فهو يبتدىء من أوائل القرن الخامس بعد استقرار نظام العزابة به . وبنائه المدن الثلاثة . وينتهى فى أواخر القرن الثانى بعد الانتهاء من بناء مدينتى مليكة وبنى يزقن والتفكير فى الانبعاث .

ولعل أبرز سمات هذا العهد عند سكان بادية بنى مصعب أنهم تحولوا عن آراء المعتزلة واعتنقوا المذهب الإباضى ، ثم إن أخلاقهم البدوية الجافة الخشنة بدأت تلين وتكتمى نوعاً من اللطف والرقه . وأنهم صاروا يفكرون عملياً فى تغيير حياتهم من النسق البدوى القلق المتغير إلى النسق التحضرى المستقر المقيم . فجعلوا يتجمعون فى مدن أو قرى كبيرة ويحفرون مقاعونين - آباراً عميقة لإقامة زراعة مستمرة تعتمد على الرى الدائم . ثم أصبحوا يرحبون بمن يهاجر إليهم . فيستقبلونهم بكرم ، ويفتحون لهم صدورهم ، ويفتحون لهم أبواب الحياة الكريمة بينهم . ويستفيدون هم من خبرات أولئك القادمين من بلاد مختلفة فى المجالات المختلفة لوسائل الحياة . ولا سيما فى مجال الزراعة الثابتة المستديمة .

وهكذا استمر هذا الشعب الكريم طيلة هذا العهد فى كفاح متواصل من أجل الاستقرار والتحضر ، ودأب أبناؤه على البناء أربعة قرون كاملة لا يفترن ولا يتوقفون وإن كان اتجاههم فى الفترة الأخيرة من هذا العهد قد انصرف إلى جانب ماضى غالباً - ربما كان الاهتمام فيه بالمحافظة على الموجود أكثر من الاهتمام بمزيد من التقدم نظراً إلى الأوضاع القاسية

المحيطة بهم والتي كانوا ينظرون إليها في حذر وخوف وترقب .

وفي الإمكان تقسيم هذا العهد إلى ثلاث فترات تتميز كل واحدة منها بظواهر وخصائص أوضح مما في الأخرى وإن كانت جميعاً مترابطة متلاحمة يبنى آخرها على أولها وينسق السلوك فيها جميعاً نظام العزابة الذي ابتداء تطبيقه مع أوائل هذا العهد .

١ - الفترة الأولى : الفترة الأولى من العهد الثاني لحياة بني مصعب تمتد نحو قرن من الزمان إذ تتبدى من أوائل القرن الخامس وتنتهى في أواخره أو أوائل القرن السادس ما بين (٤٠٠ - ٥٠٠) تقريباً .

وأهم ما يمتاز به هذه الفترة من تاريخ بادية بني مصعب أن سكانها قد اعتنقوا المذهب الإباضى بالفعل بدلا من عقائد المعتزلة وأنهم سمحوا بالهجرة لإخوانهم الذين اضطهدوا في جهات أخرى أو ضاقت بهم الحياة لأسباب سياسية أو مذهبية أو اضطروا للهجرة إليهم تحت قسوة ظروف الطبيعة كما وقع لبعض سكان سدرانة ووارجلان ووادي أريغ . فتقبلوهم أحسن قبول ، وامتزجوا بهم أكمل امتزاج ، ثم أسهم اتحادوا في عمل جاد متواصل لتكوين حياة حضرية مستقرة في أخصب وديان الشبكة - وادي ميزاب - ولم ينته هذا القرن حتى تكونت ثلاث قرى كانت نواة لاستقرار الشعب المصعبى أو الميزابى ، تلك القرى أو المدن هي العطف - وبدأت تتكون مع أول القرن الخامس - ثم بنورة - وبدأت تتكون في العقد الرابع من نفس القرن - ثم غارداية وبدأت في العقد الثامن من نفس القرن .

ولم ينته القرن الخامس حتى كان في أحد أودية بني مصعب ثلاث مدن أهلة بالسكان يقيمونها على الدوام من انتقل من الحياة الرعوية إلى حياة

الاستقرار من بنى مصعب ومن هاجر إليهم من مختلف الجهات كما يجعلها بعض من لم يتخلص من حياة البادية ومن تربية اللواشى من بنى مصعب مآلا ومرجعاً يقيم بها أغلب فصول السنة ويلتحق بأنعامه فى بعضها حين يكون الالتحاق بها ضرورياً كفصل الربيع لاستخلاص النتاج بأنواعه فإذا انتهت المهمة رجع إلى تلك القرى ليستقر بها .

وقد اتضح اتجاه سكان هذه المدن إلى الاستقرار حينما اعتمدوا فى اقتصادهم على الزراعة بالدرجة الأولى فكانوا - يتعاونون فى تفتان وإخلاص على استخراج المياه الجوفية بحفر الآبار التى تكون فى بعض الأحيان شديدة العمق . وكان اهتمامهم بالزراعة يزداد يوماً فيوماً وكان التحسن فى وسائلهم يظهر لهم من خلال المحاصيل السنوية التى تزداد كل عام ، ولم يقتصر على الزراعة بل لقد انتفخوا إلى الصناعة البسيطة التى تحتاجها البيئة وتوجد مواردها الأولية هناك . فمهرت أبداً صناعة الآلات الخفيفة المختلفة للزراعة ولإستخراج المياه ولجرف التربة أو نقلها ولتفتيت الصخور ونقلها ولصنع قوالب الطين والآجر فى بناء الحوائط والجدران ولإستغلال سعف النخيل وخشبه فى الأثاث المنزلى بمختلف أنواعه .

وبدو أن المرأة المصعبية نفسها قد أخذت حظها من التطور فقد كانت فى العهود السابقة مشغولة بمساعدة الأسرة فى مهليات الرعى المختلفة . وقصارى ما تستطيع أن تجيده من الصناعة إنما هى صناعة الفلاّج التى تتكون منها الأختية والبيوت . وكانت الصوف وهى أهم نتاج الماشية - تؤخذ فتباع فى أسواق الحضر ولم يشتغل بها إلا عدد قليل من العائلات المصعبية التى استقرت فى منازل قليلة أطلق عليها اسم (قصر

الصوف) أو (حصن الصوف) لأنه المسكان الوحيد الذى كانت المرأة فيه تعرف صناعة الصوف . ولا شك أن اللغة السائدة فى ذلك الحين وفيما قبله هى اللغة البربرية ولذلك فقد كان يطلق على تلك المجموعة من المساكن التى يقال إنها سبقت مدينة العطف اسم (أغرَمُ نتلذت) والترجمة الحرفية لكلمة (أغرَمُ) هى القصر أو الحصن . والترجمة الحرفية لكلمة (نتلذت) هى قطعة الصوف المحلوجة . وأعتقد أن البربر يطلقون كلمة (أغرَمُ) التى معناها الحرفى هو القصر ويقصدون بها القرية لأن القرى البربرية فى القديم لا تخلو من قصور أو حصين .

أما النون فى أول كلمة (نتلذت) فهو حرف إضافة .

ولما استقر بنو مصعب ومن هاجر إليهم فى مدنهم تلك وأعفيت المرأة من الأهمال التى كانت تزاوها فى البادية واستقرت فى البيت . وأصبح زوجها يقوم بأعمال الزراعة والصناعة قريباً منها ثم يعود إليها - وجدت أن فى وقتها فراغاً تستطيع أن تستغله لفائدة الأسرة وتحركت أصابعها الدقيقة الماهرة تغزل الصوف وتنسج منه الأكسية والبرانيس لأفراد الأسرة أو للسوق حيث تضيف دخلاً إلى دخلها فى الزراعة أو الصناعة .

وأثبتت تعاون المرأة مع الرجل لتحسين اقتصاد الأسرة قبل أن تنعق زعيمات هذا العصر يطالبن باشتراك المرأة فى ميدان العمل بعدة قرون .

ولعل أهم ما تمتاز به هذه الفترة وما بعدها وما قبلها هو تطبيق نظام العزابة بتفصيله وبه استطاع هذا الشعب أن يوحد القيادة ثم أن يوجه الجهود إلى أهم مجالات الحياة بدراسة ووعى وتخطيط .

٢ - الفترة الثانية : تمتد الفترة الثانية من العهد الثانى نحو قرنين

من الزمان أى من أوائل القرن السادس إلى أواخر القرن السابع .

هذه الفترة تشبه أن تكون امتداداً للفترة الأولى . فقد استمر بنو مصعب فى الاستقرار والتركىز فى القرى التى تكونت فى وادى ميزاب وشغلتهم الجوانب الاقتصادية فتهرعوا لها وانصرفوا إليها وبديهي أن اقتصادهم حينئذ كان يبنى على الزراعة وقليل من الصناعة . وتوالت إليهم الهجرة من مختلف الجهات لما يتمتعون به من أمن وسلام وبعد عن التموجات الحركية للمغامرات السياسية ولما ينعمون به من استقرار فى أودية خصبة تكفى لإعاشة عدد كبير من السكان إذا أحسن استغلالها . ثم لوجود تلك الوديان فى أمكنة حصينة بعيدة عن أن تكون متعرضة للمناوشات والاعتداءات وقد استقرت الحياة على هذه الوتيرة وعلى هذا النحو نحو قرنين من الزمان حتى كبرت تلك القرى وأصبحت مدناً فسيحة تعج بالسكان وتضيق بهم وكان السكان لا يزالون يكثرون بمن يهاجر إليهم ومن يتحضر منهم ويستقر فى تلك المدن فيغير مجرى حياته من بدوارة ترتبط بالماشية والمطر والكلأ . إلى حضارة تزدهر بالزراعة والصناعة والتجارة وتمتاز بالاستقرار .

ولعل أوضح ما فى هذه الفترة ظاهرتان .

الأولى : مغامرات الميورقي . فقد ثار هذا الرجل على الموحدين طلباً للحكم - وكان يؤم أطراف المملكة ونقاط الضعف فيرتكب فيها الأفاعيل . وصر بمنطقة الواحات نجرب سدراتة وعاث فساداً وإفساداً فى وارجلان ووادى أريغ وما كان فى طريقه إلى ليبيا . فتسبب بذلك فى هجرة أعداد وافرة من الناس إلى بنى مصعب ولا سيما أهل سدراتة فإنه لم يبق أحد بعد

فتنة الميورقي وهاجر أغلب سكانها إلى بادية بني مصعب وبذلك تضاعف عدد السكان في وادي ميزاب .

الثانية : بنو مصعب أنفسهم في هذه الفترة كانوا متخوفين أشد التخوف من الأحداث التي تجرى في جوارهم . وكانوا يتوقعون كل يوم أن يمسهم ما يمس غيرهم . وكان كلما ورد إليهم وفد من المهاجرين المضطهدين من أى جهة كانت . نقل إليهم الأخبار المؤلمة عن المأسى التي تقع على الناس بسبب حماقات المغامرين وطلاب الحكم . فكانوا يتوجسون خوفاً أن يلحقهم ما لحق غيرهم . ولذلك قد اعتصموا بصمتهم ووحدهم ، وفرحوا بكل من هاجر إليهم . باعتبارهم قوة لهم يستفيدون منها في الدفاع عن أنفسهم لو نزل بهم مكروه . وقد نتج عن هذا بعض الجود في الجانب العلمى لأن السكان - وعلى قيادتهم مجلس العزابة - شغلوا في هذه الفترة بتدبير وسائل الأمن والحيلة وبالاستمرار في تحسين الجانب الاقتصادى . فلم تغير عندهم الحياة كثيراً كما كانت عليه في الفترة السابقة إذا استثنينا جانب ازدياد السكان بالهجرة ازدياداً مطرداً أو التوسع في ناحيتى الزراعة وتمدد البناء بطبيعة الانكماش في الوادى وتضاعف السكان مع ضيق المجال الحيوى الذى يضطرب فيه أولئك القوم للحصول على ضروريات الحياة أو بعض كالياتهما لو ساعدتها الظروف . وبما أنهم بقوا نحو ثلاثة قرون على نمط واحد من الحياة فلم يضيفوا مدناً جديدة إلى مدنهم الثلاث ، ولم تبرز لهم جهود واضحة متفوقة في الميدان العلمى . ولم يسجل لهم انطلاق خارج وطنهم المحدود . فقد اعتبر بعض المؤرخين هذه الفترة بمثابة نفوة خفيفة . أو استلقاء للراحة والاستجمام .

الفترة الثالثة : تمتد الفترة الثالثة من العهد الثانى نحو قرن من

الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن الثامن وتنتهى ببداية التاسع . وهى تشبه أن تكون صورة للتمدد والتمطى فوق الفراش استعداداً للنهوض والاندفاع . إن هذا الشعب بسبب ظروف الحياة القاسية التى عاشها طيلة الفترة السابقة - فى خوف متوقع من الخارج وكفاح مستمر لاستثمار الأرض فى الداخل - كان كأنه قد استلقى على الفراش الوثير للراحة أو النوم وهو فى هذه الفترة يتمدد ويتمطى ويمسح عينيه بعد اليقظة ليندفع إلى الكفاح المستمر .

لقد انتبه بنومصعب من غفوتهم القصيرة فوجدوا أن أعدادهم تضاعفت وأن المدن السابقة قد غصت بهم حتى لم يعد فى إمكانها احتمال المزيد ، وأنهم مضطرون إلى التوسع وزيادة المدن والقرى فى باديتهم الفسيحة وأوديتهم الطويلة ورغم إحساسهم بضيق المكان فى وادى ميزاب ورغبتهم فى استغلال بقية الأرض فقد آثروا أن يزيدوا قرى قريبة من القرى الأولى . لأن صدى المغامرات العدوانية السابقة التى وقعت على من جاورهم بل على بعضهم ، لا يزالون يسمعون صداها فى آذانهم . ولأن جميع الظروف المحيطة بهم تدعوهم إلى التجمع لكى لا تفرق المسافات بينهم فيجد فيهم أصحاب المطامع فرصة للعدوان ، ولم ينته القرن الثامن الهجرى حتى تكونت إلى جوار القرى السابقة قريتان أخريان هما مليكة وبنى يسقن .

ويبدو أن أوائل سكان هاتين القريتين كانوا من المهاجرين الجدد الذين وردوا على الوادى فرأوا ما يعانیه من ضغط سكاني ، وقدروا أن المدن السابقة أصبحت فى حالة لا تستوعب معها أكثر مما فيها ورأوا أن كل تزايد سكاني فيها يؤثر على إمكانياتها الاقتصادية فآثروا أن ينفسحوا بعض الانفساح عن السكان السابقين وبذلك صار الوادى يتكون من مجموعة

سكنية من خمس قرى تشبه أن تكون أحياء من مدينة واسعة . فإن المسافة بين أبعده نقطتين من هذه القرى الخمس لا تزيد عن ستمائة أميال .

وبينما كان وادي ميزاب قبل القرن الخامس الهجري مثل زميليه : وادي زقير و وادي النساء ، كل ما فيه من حياة أنه كان منتجعاً لأصحاب الماشية يؤمونه بعد مسيله في بعض فصول السنة فأصبح خلال أربعة قرون فقط مركزاً لحياة اجتماعية متحضرة يعيشها شعب امتاز بالإيمان والإخلاص والجد والمثابرة على العمل الذي لا يتوقف ولا ينقطع . وتكونت فيه مدينة مستبجحة العمران تتكون من خمسة أحياء كل حى منها يحمل اسم قرية . وكما يصح أن يعتبر ذلك الحى حياً من مدينة كبرى أو ضاحية من ضواحيها يصح أن يعتبر بلداً عامراً يمجج بالحركة والحيوية . وصار الوادي يشتمل على بساتين ورياض غنية الإنتاج وافرة الغلال جميلة التنسيق متعددة الأنواع عادلة التوزيع .

وبينما كان هذا القسم من بادية بني مصعب تجرى فيه الحياة العمرانية كما وصفناها في هذه الفترة - وفي الفترة السابقة - كانت الجهات الأخرى من البلاد المجاورة كبلاد سدراتة و وارجلان وأرينغ وسوف وتجديت وواغلانت وأجلو وغيرها تكافح في استماتة من أجل البقاء بل أن منها من لفظ أنفاسه وهمد إلى الأبد وذلك بسبب ما تعرض له من العاملين القاسيين هما :

١ - عامل الطبيعة من الجفاف وندرة الأمطار وهبوب رياح الجنوب باستمرار محملة بالرمال الزاحفة لمدد طويلة .

٢ - عامل بشرى يتمثل في قن وعداوات وغارات للسلب والنهب قام بها الأعراب البداءة من بني هلال ومن سلك مسالكهم من قبائل البربر .
وكان أقصى من كل ذلك مغامرات طلاب الحكم كابن غانية ومن سلك طريقه في البحث عن السلطة أو البحث عن المال .
بهذا تنتهي الصورة التي أردنا أن نعرضها من حياة بني مصعب في عهدها الثاني من تاريخها الإسلامي .

العهد الثالث

العهد الثالث لابي مصعب في التاريخ الإسلامي يمتدّ نحو أربعة قرون ونصف إذ يبتدىء من أوائل القرن التاسع وينتهي في منتصف القرن الثالث عشر تقريباً ويمتاز هذا العهد بأنه عهد الانطلاق^(١) الكامل في جميع ميادين الحياة ، ولكن في الإطار الإسلامي الجميل .

وقد اتخذ هذا الانطلاق عدة اتجاهات متوازية متساندة متعاونة :

فقد انفتح باب للاتجاه العلمي فقدم إليهم وفد من جربة والجليل يشتمل على خيرة من أفاضل العلماء والأعلام العاملين فقادوا الحركة العلمية وتزهدوا بحركة الإصلاح عموماً ، وانذفع إليهم مجموعة من خيرة الشباب الأذكاء سكون منهم فيما بعد عناصر صالحة للزعامة والقيادة .

وانفتح باب للتوسع الحيوي والانطلاق العمراني فتأسست مدن جديدة في بادية بني مصعب كانت إحداها على وادي النساء وكانات الأخرى على وادي زقير . وبذلك عمرت جميع الأودية التي تكوّن الحبال الرئيسية لأرض الشبكة والتي تمثل شرايين الحياة لبادية بني مصعب .

(١) أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن باسكى حفظه الله يرى غير هذا الرأي فهو يقول في مقدمته لكتابات النيل ما يلي : « كان القرن الثاني عشر والثالث عشر فترة ركود بل انعكاس بالنسبة للحياة العلمية بميزاب ، ضوء شعاعه ، ورك حبله حتى كاد يفتقر لولا أن تدازكه لطف الله فاطم في سماءه بدرأ منيراً أرسل أشعته على زواياه فأنازها ذلك هو الشيخ أبو زكريا يحيى بن صالح الأفضلي » ولعل أستاذنا الكبير حين كتابته للمقدمة كان متأثراً بما كتبه صاحب النيل نفسه على أستاذه أبي زكرياء ولا شك أن أبي زكرياء وضيء الدين كانا حلقين متبعتين متراپطين في حركة الانبعاث التي بدأت في القرن التاسع الهجري .

وانفتح باب للانطلاق السياسى فأصبح ذاك الشعب المنكش الذى كان
يقبع فى مناطق وعرة محصورة من أرض الجنوب خائفاً يترقب .
أصبح من ذلك الشعب رجال يناقشون أعقد المسائل السياسية فى
عصرهم ويرتادون أرفع الدوائر الحكومية . ويشاركون مشاركة فعالة فى
تكوين الآراء والتخطيطات لوضعهم السياسى والاقتصادى ضمن الشعب
الجزائرى الكبير .

وانفتح باب واسع للانطلاق الاقتصادى فبعد أن كان هذا الشعب
يعيش فى واحات الجنوب على حياة مبنية على زراعة بسيطة وصناعة ساذجة
وتربية ماشية مضطربة . انطلق فى هذا العهد إلى ميدان التجارة الحر الفسيح،
وصار يمارسها متنقلاً من بلد إلى بلد مكوناً أعرافاً وتقاليد ونظماً لوجدت
من أهم بها ودرسها بعمق لاستخلص منها نظريات اقتصادية رائعة فى
ميدان التجارة ، ونتج عن انطلاقهم هذا فى ميدان التجارة غيبة طويلة عن
الوطن ، وانتقال متتابع من مكان إلى مكان^(١) . فصار بذلك - ذلك الشعب
الذى قضى زمناً غير قصير - منكشاً فى الواحات ، منعزلاً على نفسه - يملأ
مدن الجزائر وقرىها بل وخارج الجزائر بالحركة والنشاط . ويتحكم فى الاقتصاد
العالم للبلاد .

وقد ترتب على هذا الانطلاق خارج الوطن وعلى الغيبة الطويلة عدد
من المشاكل درست دراسة وافية واتخذت لها حلول روعيت فيها جميع
الجوانب التى تتأثر بها حياة مجتمع مسلم فلم يهمل فيها الجانب الدينى ولا

(١) حركة الانبعاث الاقتصادى بدأت فى القرن التاسع الهجرى بتجارة أولية محدودة
ثم تأكدت بالاتفاقية التى جرت بينهم وبين خير الدين فى أوائل القرن نفاشر وتركزت بعد
العملية القديائية فى نفس برج (بولاية) فأخذت مجالها بالكمال .

الجانب الخلقى ولا الجانب النفسى ولا الجانب الاقتصادى فاستحدثوا فى كل قرية بها عدد من تجارهم أو مهالم مركزاً للاجتماع وهيئة تقولى الإشراف المهنى على أصحاب المحلات التجارية . وتقدر أجور العمال وتزود الجميع بالرعاية التى تحمى أخلاقهم ودينهم من أن تؤثر عليها الغربة الطويلة وتراقبهم مراقبة دقيقة فى مهجرهم حتى لا ينفرد عقد أمتهم ولا تذوب خصائصها التى تمتاز بها . كما جعلوا مدارس خاصة تقولى تعليم أبنائهم الذين يعيشون أو يشتغلون مع آبائهم مراعين أن تكون خطة الدراسة غير متعارضة مع أوقات العمل ثم سنوا مجموعة من القوانين والقرارات فى شئون المجتمع والأسرة كان لها أطيّب الأثر على حياتهم . وقد نعرض لبعض هذا فى فصل خاص .

وفى الإمكان أن نقسم هذا العهد - أيضاً - إلى ثلاث فترات تتميز كل منها ببعض السمات الخاصة بها أو التى تكون أكثر وضوحاً منها وهى جميعاً مرتبطة بعضها ببعض ينبى آخرها على أوّلها .

١ - الفترة الأولى : تمتد الفترة الأولى من العهد الثالث نحو قرنين من الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن التاسع وتنتهى فى أواخر القرن العاشر بعد وفاة العلامة أبى مهدى عيسى بن إسماعيل المصعبى .

وأظهر ما تتميز به هذه الفترة أنها فترة ديب اليقظة فى أوصال المجتمع الذى كف عن الحركة فى غفوة قصيرة ، فلما فتح عينيه ذُعر لأنه وجد نفسه واقفاً بينما ركب الحياة يسير . ووجد محافل العلم عنده ، ومجالس العزابة خالية من فطاحل العلم وكبار الأئمة ، ولا يشغلها غير فقهاء من الدرجة المتوسطة يعتمدون على استظهار القرآن الكريم وشيء من السنة النبوية ويعتمدون (٢٩ - الإباضية)

في قمتهم على ما حفظوه ويجدون مسطوراً في الكتب فينتقلونه للناس في جهود ودون تصرف . وقد اعتاد بنو مصعب من قبل أن لا يخلو موطنهم من كبار العلماء فأسرعوا إلى استقدام عدد منهم ليشتغلوا المراكز الهامة وينيروا الطريق في دروب الحياة المختلفة ، ولبي إخوانهم في جربة وجبل نفوسة طلبهم فجاءتهم البعثة العلمية التدريسية من ثلاثة علماء أفاضل . كان أعظم شخصية فيها والعلامة الكبير الشيخ سعيد بن علي بن بوحميدة بن عبدالرازق بن سعيد الخيري الجربي ، فباشرت البعثة حالاً مهمتها وقامت بواجبها أحسن قيام . ووضع الشيخ سعيد الخيري الذي اشتهر (بعبي سعيد) الأسس الأولى لهذه تلك الشعب الكريم بعد تظلمه فقد القف حوله جماعة من نبغاء الطلاب فباغوا على يديه درجات سامنة من العلم . ووضع شعاراً خاصاً للعزابة . وأسس لهم المجلس المعروف بمجلس عبي سعيد ، الذي يجتمع فيه رؤساء مجالس العزابة وتبحث فيه قضايا جميع المدن الميزابية ، وتعرض فيه جميع المشاكل فتتخذ لها الحلول المناسبة . وفي ذلك المجلس تصدر القرارات العامة لتنظيم الحياة وسير الناس .

وبالإضافة إلى الإصلاحات الاجتماعية والدينية التي كان يتحمل أعباءها الثقال بكفاءة ونجاح . كان هو وزملاؤه يشتغلون بالتدريس ونشر العلم والمعرفة في أماكن متفرقة حتى تخرج على أيديهم عدد من كبار العلماء كانوا هم السند القوي لدعائم النهضة ولو لم ينجح على أيديهم إلا أبو مهدي عيسى بن إسماعيل لسكنى به نجاحاً .

إن هذه الفترة - حسب دراساتي الناقصة - تعتبر عصر انتفاضة لبني مصعب من غفوة خفيفة ، وقد سبقها فترة البطي وسررف تعقبها فترات

الانطلاق الكبير . ففيها إذن وضعت المباني الأولى لأسس النهضة الشاملة
فيها بعد .

ومنذ انطلق هذا الشعب من غفوته في أوائل القرن التاسع لم يعوقف
عن العمل حتى بلغ مرحلته الحاضرة ، وهو سائر بخطوات فسيحة في منهج
إسلامي سليم لبناء حضارة إسلامية فريدة في هذا العصر المادي الصرف
ركناها الالتزام بالإسلام عقيدة ودينًا وخلقًا وسلوكًا ، والاستفادة من
الاكتشافات العلمية بناءً و عمرانًا وحضارة وحياة .

٢ - الفترة الثانية : فترة التمدد المادي أو كسر السكتكوت اقشرة
البيضة ، وتمتد هذه الفترة نحو قرن من الزمان إذ تبتدىء من أوائل القرن
الحادي عشر وتنتهى في أواخره . وتتميز هذه الفترة بظاهرتين واضحتين
إحدهما : أن سكان الوادي أحسوا بضيق المجال الحيوي لهم ، وأن وادي
ميزاب وحده أصبح مختمًا بضيق من الناحيتين العمرانية والاقتصادية ، وأنه
لا بد لهذا الشعب المحصور في هذا الوادي الضيق بين الجبال المرتفعة من
الانفساح والانطلاق ، ولا بد من ارتياد أماكن أخرى في نفس البادية
تكون صالحة للعمران . وانطلقت الدفعة الأولى من الرواد الشجعان تلتمس
مكانًا لها تستقر فيه فاختارت موقعًا على وادي النساء ، وانطلقت بعدها دفعة
أخرى من الرواد الشجعان تلتمس لها مكانًا تستقر فيه أيضًا فاختارت لها موقعًا
على وادي زقير . وبذلك تأسست المدينتان الزاهرتان : القرارة وبريان .
وانضم إلى كل دفعة من هذه الدفعات بعض سكان تلك المناطق ممن لا يزالون
على حياة البادية فتحصروا واستقروا في تلك المدن الجديدة كما انضاف إليها
بعض المهاجرين من جهات أخرى بعيدة طلبًا للأمن والاستقرار ، وبتأسيس

هاتين المدينتين العامرتين أصبحت أرض الشبـكة ، أو ما كان يطلق عليه
بادية بنى مصعب عامرة بحضارة مزدهرة في أهم وديانها الخصبـة، بل لقد أصبح
بنو مصعب على الحقيقة يعمرّون كامل باديتهم ويستغلون جميع وديانهم .

الظاهرة الثانية : ناجمة عن هذه الانطلاقة ، فما خرج الكـتـكـوت عن
قشرة البيضة ، وتمت له الانطلاقة الأولى حتى تكوّنت انطلاقة أخرى في
الميدان الاقتصادية . وبدأ الناس يجمعون رؤوس الأموال الصغيرة من محاصيلهم
الزراعية المحدودة أو من أثمان مواشيمهم بعد بيعها ثم ينطلقون إلى الغربية
حيث يكونون المتاجر في مختلف البلاد .

وقد كانت التجارب الأولى مشجعة رغم ما يكتنفها من صعاب ومقاعب،
وأصبح التنافس واضحاً بين الشباب المتحمس المتوثب وبدأت نظرة المجتمع
التي كانت مقصورة على تقدير الزراعة ووسائلها . واحترام العضلات القوية
التي تستثمر الأرض خيراً من غيرها - بدأت تلك النظرة تتجه إلى تكوّن
اقتصادي مبني على أسس تجارية . وبدأت - تبعاً لذلك - قيمة التاجر - الذي
يغيب زمنياً ثم يعود بمكاسب تفوق كثيراً مكاسب زميله الذي بقي يشغل
بالزراعة - ترتفع في نظر المجتمع . لا سيما وأن المشاريع العمرانية ، والمرافق
الجماعية أصبحت تعتمد على التجار أكثر مما تعتمد على المزارعين .

أما من الجانب الثقافي فيبدو لي أن هذه الفترة كانت فترة تبادل
ثقافي بين بنى مصعب من جهة وجربة أو جبل نفوسة من جهة أخرى وأن
مجيء حمى سعيد في الفترة السابقة كان بمثابة تشجيع للاتصال الثقافي
واستمراره بين هذه البلاد ولا سيما بين بنى مصعب وجربة ، ويكفي
للدلالة على هذا الموضوع مجيء طلبة من جربة ونفوسة للدراسة على أبي فهدي

كما أن زحيل الشيخ محمد المصعب والد الشيخ يوسف في أواخر القرن الحادى عشر واستقراره في جربة يقوى ما نراه من حركة علمية نشيطة بين البلدين يتبادلان فيها وسائل الثقافة ، ولعل الذى أضفى بعض الغموض على أهمية البحوث العلمية من بنى مصعب إلى جربة أو جبل نفوسة والعكس . أنه لم تلح - من بين تلك الأفواج شخصيات في مستوى همى سعيد أو أبى يعقوب يوسف المصعب^(١) ممن يتركون دويماً لا يحصره الزمان ولا المكان .

لقد كانت هذه الفترة هى فترة التحسس لمواضع الأقدام في كل مجال من مجالات الحياة . فقد كسرت القوقعة وخرج منها الكائن الحى يستنشق النسيم والعبير ، وبدأ ينفض أجنحته ويتطاول بعنقه ليحاق في الأجواء :

٣ - الفترة الثالثة : تمتد الفترة الثالثة من العهد الثالث نحو قرن ونصف ، فهى تبتدىء من أوائل القرن الثمانى عشر وتنتهى في منتصف القرن الثالث عشر . كان بنو مصعب في العهود السابقة لهذا العهد يسكنون قرى تشبه أن تكون مدينة واحدة وهم يعيشون فيها على حياة زراعية سقوية أو تربية ماشية يقولى رعايتها رعاة متخصصون ينزاحون بها بعيداً عنهم في مواطن الكلا فكان مجال حركتهم بين البستان والبيت والمسجد ، فالرجل منهم لا يغيب عن أهله إلا فترات قليلة في اليوم . فلم يكونوا يحتاجون إلى

(١) مما يؤيد هذا الرأى أن عدداً ضخماً من طلاب العلم التحقوا بمدرسة القطب رحمه الله ومنهم رجال فقه ودين أفادوا بلادهم عندما رجعوا إليها ، ومن طلاب الجبل لم يشتهر إلا الزعيم سليمان باشا البارونى ، أما بقية الأسماء فهى ذاهبة في الاختفاء مع قرب الزمن ولن يعضى هذا الجيل حتى يغطى الجهل أولئك الناس الذين قاموا بدور هام في حياة الأمة إذ لم تبادر يد غيرة فتكتب عنهم .

الأسفار والتنقل . فإن أبعد نقطتين عن قراهم الخمس لا تزيد عن سقة أميال . فلما تأسست مدينتا القرارة وبريان أصبح السفر ضرورة من الضرورات . على أقل تقدير لصلة الرحم بين سكان المدن السبع ولا سيما في المواسم والأعياد . ولما بدأوا يشغلون بالتجارة خارج وطنهم وجدوا أنفسهم محتاجين إلى عدة أشياء لا نستقيم حياتهم الجديدة إلا بها . وتلك الأشياء هي التي تكون الظواهر الخاصة بالفترة الثالثة لهذا العهد . ويبدو لي أنها يمكن أن تملخص فيما يلي :

الظاهرة الأولى : لما بدأت جماعات التجار ذاهبة آتية بين المدن الكبرى في القطر الجزائري وأراضى الشبكة لاحظ ذلك بعض المغامرين الذين يعيشون على السلب والنهب وقطع الطرق ، واستنتجوا أن التجار الذين يعودون من كبريات المدن في الجزائر إلى صحراء الجنوب بعد غياب طويل - لا بد أن يكونوا محملين بكثير من المكاسب ، فكانوا يتعرضون لهم في الطريق ، وكثيراً ما كانوا يسابون أموال الضعاف منهم؛ فتولدت عندهم لذلك فكرة رد الفعل ومجابهة العدوان ، فكان المسافرون منهم يتخذون الاحتياطات اللازمة للحراسة من امتلاك السلاح ومعرفة استعماله عند اللزوم واستصحاب الحراس الأشداء الأمناء في تلك السفرات الطويلة . وبذلك تكون لهم في هذه الفترة وما بعدها عدد من الأبطال الأشداء الشجعان الذين يخشى قطاع الطرق جانبهم ؛ فصاروا يتحاشون قوافل بني مصعب ويبتعدون عن طريقها . وأصبح أولئك الحراس كأنما يمتنون حرفة الحراسة؛ لهم أجور معينة عن كل رحلة من الرحلات بين مدن الصحراء والتل حتى تتجاوز قوافل المسافرين مناطق الخطر إلى الشمال أو إلى الجنوب .

الظاهرة الثانية^(١) : أحس التجار - غير الميزابين - في مختلف المدن بمنافسة جديدة خطيرة - على ما ظهر لهم - فلم يرتاحوا لها ، ووقفوا معها موقف المعارضة والرد ، ونتج عن ذلك عدد من المشاكل كانت تصل إلى السلطة المحامية بمختلف الأساليب والوسائل . فوجد المصعبيون أنفسهم في حاجة ماسة إلى من يتولى توضيح موقفهم - في الحالات الفردية والجماعية - والدفاع عن مصالحهم ، وإقناع المستأثرين من منافسهم بأن التجارة ميدان حر متسع للجميع . وكما هو صالح للمنافسة وإظهار التفوق والعبقرية الاقتصادية، هو صالح أيضاً للتعاون والاستفادة المشتركة وتوحيد الجهود لبناء صرح الاقتصاد الوطني على يد التاجر الأمين النزيه ، فتكوّن لهم مجموعة من أفذاذ الرجال في جميع هذه الجوانب فهم من اصطبغ مسلكه بالزعامة السياسية ، فكان يتصل بالأجهزة الحاكمة في مختلف أماكنها . ومنهم من اشتهر في الميادين الاجتماعية فكان يتصل بالأعيان وكبار التجار لدراسة المشاكل الناجمة عن سوء التفاهم بين الأطراف المختلفة واتخاذ الحلول اللازمة لها . ومنهم من يقوم بالدعوة إلى التوفيق والمساعدة والتعاون . ومنهم من يستخلص النتائج من التجارب ويدرس المواقع واحتياجاتها والأيدى الماسكة بدواليب الحركة وشدتها وتوزيعها، ويتخذ بناء على ما يستخلصه من كل ذلك آراء له يقدم عنها توصيات واقتراحات .

الظاهرة الثالثة : أحس المصعبيون - بناء على انطلاقتهم - باحتياجهم إلى عناصر مثقفة قوية من الرجال الأكفاء في جميع الميادين ثقافة تؤهلهم

(١) هذه الظاهرة في الواقع في حاجة إلى دراسة متعمقة متغلّظة وأمل أحد الشاب المثقف من بنى مصعب يتولى القيام بهذه المهمة قبل أن يموت هذا الجيل الذي لم يبق إلا أفراد منه فتختفي معه كثير من الأسرار والحقائق وتضيع إلى الأبد .

لمراكز قيادية من جهة . وإلى نشر العلم بين كل الطبقات من جهة أخرى ،
فعملوا على استجلاب مدرسين أكفاء ، وإلى إرسال بعثات علمية تعود إليهم
بعد نجاحها . وبذلك تمت الانطلاقة في جميع الاتجاهات على النمط التالي :

فقد أمكن الانسجام في البلاد الجديدة التي اختارتها أي مجموعة
منهم لعملها . واقتنعت الدوائر الحكومية أنه يجب أن تسكفل الحربة لهذه
الانطلاقة القوية .

وفهمت العناصر الحاكمة قيمة هذه الحركة التجارية في البلاد وأثرها
على الاقتصاد العام فسمحت لها بالنشاط ، وفتحت لها الميادين ، وتعهدت لها
بالحماية - وإن لم توف لها بذلك - ثم أمنت الطرق بسبب اتخاذ الحراسة القوية
الذاتية والاعتماد عليها حتى أصبح لتلك الحراسة نظم وأعراف .

وتكوّنت زعامات اقتصادية وسياسية واجتماعية ، تولت معالجة جميع
المشاكل الناجمة عن أي وضع من الأوضاع - واتخذت لها الحلول المعقولة
المقبولة .

ثم بدأت النهضة العلمية تؤتي ثمارها ، وتزود المجتمع بمثقفين ينهضون بأعباء
العمل بجدارة واستحقاق ، كما تكونت شخصيات علمية مرموقة أصبحت
تتمتع بكل احترام وتقدير . لا من المجتمع المصعبي أو الإباضي فقط ، وإنما
من المجتمع الإسلامي في المغرب الكبير كله بما فيه ليبيا ، ولعل أبا يعقوب
يوسف بن محمد أوضح مثال لذلك .

ولعل من أوضح خصائص هذه الفترة ، أنه اجتمع فيها ثلاثة من الأعلام
هم : أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبي الذي يعتبر في عصره زعماء عاماً

لإباضية المغرب . وجميع الأوساط العلمية والسياسية - في الجزائر وتونس وليبيا - تعرف مواقفه وتقديرها له وقد دافع عن الإباضية - في حرارة - بلسانه وقله في جميع الأوساط الرسمية وغير الرسمية ، وحصل على الإعجاب والثقة والتقدير في كل المجامع التي حضرها .

وأبو زكرياء الأفضلي الذي يعتبره أكثر المؤرخين مبدأ للنهضة الحديثة، ويرويه موقظ بنى ميزاب من نوم هميق . وضياء الدين الثميني الذي أرسى قواعد النهضة ، ومن مجهوداته انطلقت الحركة العلمية الإباضية في الأقطار المغربية الثلاثة ، بل إن كتبه أصبحت عدة أصحابنا في المشرق أيضاً .

وفي منتصف هذا القرن - القرن الثالث عشر - تنهى الفترة الثالثة وينتهي معها العهد الثالث من حياة بنى مصعب ليبدأ العهد الرابع وهو حافل بمجموعة من الأحداث الهامة . منها استلام القطب رحمه الله لراية القيادة ثم أحداث جانبية أخرى كقتن بنى جلاب وبوشوشة ، والاحتلال الفرنسي وما تبع ذلك من أحداث ووقائع .

وأحسب أن العهد الرابع يبتدىء بالقطب رحمه الله ويمتد فترة قصيرة ربما كانت أقل من قرن، وينتهي بعد وفاته بقليل، ولعل في هذا العهد - على قصره - من الأحداث والظواهر ما يربو على جميع ما عرفناه للعهود السابقة.

أما العهد الخامس فيبتدىء بالحركة التي قام بها تلاميذ القطب ، وعلى رأسهم الشيخان العظيمان أبو إسحاق وأبو اليقظان رحمهما الله، ثم قادها بكفاءة وبراعة أستاذنا الفاضل الشيخ بيوض حفظه الله وسلمه . ويمتد هذا العهد إلى ما شاء الله .

ولما كان هذان المهدان - (الرابع والخامس) زاخرين بالأحداث والحركات، سواء ما كان منها نابغاً من داخل الأمة نفسها أو من موقفها من القضايا الإسلامية عموماً، أو من تطور العصر وتأثيره في حياة الشعوب جميعاً لا سيما في قضايا التربية والتعليم. أو ما كان ناتجاً عن السكفاح الطويل المرير للاستعمار البغيض الذي ابتلى به المغرب الإسلامي الكبير. وقد وقف القطب رحمه الله - في عهده - ضده بما أوتي من قوة وحجة ودعوة، فسه منه أذى كثير بلغ إلى حد السجن. ووقف أفلاح حفظه الله ضده أيضاً بما يملك من قوة وحجة ودعوة ولم يتزحزح عن موقفه - على ما ناله من الأذى - حتى أدبر الاستعمار عن البلاد كما يدبر الأعصار المدمر مخلفاً وراءه الأتقاض والغبار والدخان، فجاءت بعده يد الاستقلال وأزالت الأتقاض وسكنت الغبار وأطلقت النار فانتشع الدخان.

رأيت أن أوجل الحديث عنهما وأن أفضلهما عن العهود السابقة لغزارة مادة الحديث فيهما.

ولعل الله تبارك وتعالى ينشئ في الأجل، ويسر لي العمل، فأتم هذه الحلقة من هذا الكتاب بجزء مستقل عن المهد الرابع وبعض الخامس، والله عاقبة الأمور.

الباب الخامس

صَوْرَ عَنْ :

نُقُودٌ وَرُدُودٌ

عزى القارىء :

فى هذا الباب سوف أعرض عليك صوراً من النقد الذى وُجّه إلى شعب بنى مصعب ، سواء أ كان ذلك النقد موجهاً إلى خلقه ، أو إلى سلوكه العام ، أو إلى نظامه الاجتماعى . أو إلى آثار إباضيه الجزأى فى التاريخ . فمن ذلك النقد ما وجه عن سوء نية وجهل ، ومنه ما وجه عن حسن نية وسوء فهم ، ومنه ما لم يقصد به النقد ولكنه جاء فى صورة النقد العنيف ، ومنه ما تهمس به الشفاء وتلوكة الألسنة فى الخلوات ، ومنه إحساسات ثور فى صدور شباب بنى مصعب أنفسهم لمعارضة بعض أنظمتهم الاجتماعية ، ولكنهم لا يجرأون على التوجع بها لرسوخ فائدتها فى نظر المجتمع . ولقد حاولت أن ألتقط مشاهد مختلفة لتلك النقود مع الإشارة الخفيفة إلى سوء التصدأ أو سوء الفهم أو سوء التعبير عند الناقدين ، وإلى الغرض من التنظيم ، والحكمة فى التشديد والمقصد من السلوك ، والسبب فى وجود الحالة فى كل تلك المشاهد عند من خططوا ونظموا وسلكوا . وجمعت كل ذلك فى هذه الفصول .

وفى حسابى أن الصورة الكاملة لتاريخ هذا الشعب لا تتم إلا بهذه

الفصول، وذلك أن التواريخ الأخرى لشعوب العالم إما تعتمد - أساساً - على أداة الحكم . ملك يسقط وملك يتولى ، وجمهورية تمحى وجمهورية تقوم ، وجيش ينهزم وجيش ينتصر . وقائد يخيب وقائد ينجح .

أما تاريخ هذا الشعب - في اثني عشر قرناً من حياته الخافلة - فهو مجرد من حاكم ومحكوم، ومنتصر ومهزوم، وجيش وقيادة . ومع ذلك فقد استطاع أن يحتفظ بحريته - ولو كانت غير كاملة - أمام جيوش الأعصار الاستعماري الغربي الذي اكتسح كل دول المنطقة وحطم جيوشها، وسلب حرية شعوبها، وتعرف حتى في أوقاف مساجدها . وبلغ به التسلط - وهو الكافر بالإسلام - إلى أن يعين الأئمة والمؤذنين .

ومن المؤسف أن الدارسين لعلم الاجتماع الحقيقي - الذين لم تلونهم السياسة - لم تقع أنظارهم على هذا المجتمع المثالي المعزول في الصحراء . لأن أقلام المستشرقين المفرضين والمستعمرين الخاقدين ، وكتبة المتعصبين ، قد شوهوا الصورة الجميلة للحقيقة بإطار من الكذب والبهتان والتضليل ، وغيموها بألوان غامقة من الصوير والتحليل والتعليل .

أخي القارئ : لا تتم لك الصورة التي أردت أن أعرضها عليك في هذا الكتاب إلا إذا ضمت هذا المشهد بكامل صورته وألوانه وزواياه إلى المشاهد السابقة .

لا يا أخى (١)

يقول الأستاذ محمد على دبور في كتابه القيم (رهضة الجزائر الحديثة)
الجزء الأول صفحة ٢٥٤ ما يلي :

« وخلا ميزاب من العلماء الأجلاء الذين ينشرون العلم ويصاحون
المجتمع . إن ميزاب في أول القرن الثاني عشر الهجرى بغط في نومه ،
ويسوده الجهل وما يتولد عنه من عصبية قبايلية وحزبية ، فرقت صفوفه ،
وأغرقتة في الفتن والدماء ، وجعلت القوى فيه يأكل الضعيف ، وانعدم فيه
ذلك المجتمع الذى تسوده الأخوة الإسلامية ، وانحرف في ناحية الإخاء وشدة
التمسك بالدين عن الطريق الذى أقره فيه أسلافه ومنشئوه .

وكانت البدع التى ينكرها الدين والخرافات التى تأبى الثقافة
والاستسلام الأهواء الذى يحرمه الإسلام قد انتشر في ميزاب فتعكر جوه
الصافى الذى كان . والمجتمع الذى كوّن فيه أسلافه . وقد بلغ جهل ميزاب
بالدين ، واسترساله مع الأهواء ومع ما يدعو إليه طبقه الموروث إلى أن كان
يعطى للزوجة نصف الميراث لا الربع أو الثمن كما شرع الدين . إن هذا يدل
على احترام ميزاب للمرأة ، لقد استجاب لما دعت إليه وراثته البربرية التى
تدعو إلى إكبار المرأة وتقديرها ، وجعله جهله بالدين يستجيب لطبعه
ويجعل إلفه له ديناً ، وما وجد آباءه عليه من بدع هو الحق الذى يجب
التمسك به ويناضل عنه ، ويرمح بالأرجل كل من يحاول اقتلاعها
ومناهضتها . »

(١) اقرأ في آخر الفصل رأى أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم في هذا الموضوع .

ويقول في صفحة ٢٦٠ من نفس الكتاب ما يلي :

« جاءت - أي أباز كريات الأفضلى - امرأة تسأله عن ميراثها من زوجها . وكانوا في الجاهلية قبل أبي زكرياء يعطونها النصف ، فأخبرها بأنه الربع أو الثمن . فثارت في وجهه وقالت : هذه بدعة في الدين .. هذه شريعة خضراء فأجابها أبوزكرياء : شريعةنا الخضراء خير من جهلكم الأسود » .

هذه بعض الصور ، من صور متناثرة في الكتاب استوقفتني كثيراً . وكنت متردداً بين أن أسجل ما أحسه نحوها من غربة عن تاريخ الشعب الميزابي ، ونبوّه عن سلوكه وأخلاقه . أو أن أترك ذلك للقارئ الكريم يعرفه المطلع ، ويستنتجه الذكي ، ويخطيء فيه العادي . وكنت في هذا الموقف يتنازعني عاملان : عامل الوفاء لهذا الشعب الكريم . وعامل الوفاء للصديق الوفي والزميل القديم . وقد غلبني العامل الأول لاعتقادي أن زميلي وصديقي محمد على يسره مني هذا الموقف . وهو يبذل جهوده العظيمة المتواصلة لاستخراج الصورة الحقيقية لشعبه الكريم نظيفة من كل تشويه ولو كان ذلك التشويه مما يقنأثر من قلم الأستاذ دبوز .

يبدولي لو أن متهجماً حقوداً أراد أن يتهجم على وادي ميزاب بما يسىء إليه في أعز ما يعتز به ، لما تهجم عليه بأكثر من هذا . ولو أن خصماً عنيداً له ، حاول تحطيم ذلك البناء الشامخ الذي أقامه الميزابيون في واديهم الأمين منذ أن انبثق نور الإسلام في قلوبهم إلى اليوم ، والذي صارح جميع الأعاصير ، فضت دون أن تنال منه ، ودون أن ينحني لها - لما ضربه بأشد من هذا المعول ، ولما كان لمعوله أثر أسوأ من هذا الأثر ، ولا صورة أشع من هذه الصورة التي رسمها له الأستاذ دبوز ... وأنا على شبهه يقين لو

أن هذا الكلام صادر من شخص آخر لا نبرى له الأستاذ الدبوز يرد
ويصحح ويوضح .

ولا شك أن الأستاذ الدبوز إنما صور ميزاب بهذه الصورة القائمة في
الفترة التي سبقت أبا زكرياء الأفضلي ليوضح للقارئ الكريم مقدار الكفاح
العظيم ، والجهد المتواصل الذي بذله أبو زكرياء . ولا شك أن أحداً ممن له
إمام بتاريخ الحركة العلمية عند بني مصعب لا ينكر فضل أبي زكرياء .
ولكن من الخطأ أن نعتقد أن أى مصلح يرتفع بقدر ما ينحط الشعب الذى
يعمل من أجله .

لقد جاء أبو زكرياء فى فترة الركون العلمى لافى ميزاب خاصة ، ولكن
فى العالم الإسلامى عامة . ولقد يكون ميزاب فى ذلك الحين خيراً من غيره
بكثير ، ويكفى أن عصر أبى زكرياء كان مستوقفاً بعدد من العلماء الأعلام
مثل العلامة سعيد بن على الجربى ، وأبى مهدى عيسى بن إسماعيل ، وأبى يعقوب
يوسف المصعبى وزملائهم وتلاميذهم . وإن عصر تعاقب فيه هؤلاء الأعلام
الثلاثة فى وطن ضيق كميزاب لا يمكن أن يكون عصرأ ساد فيه الجهل
وتغلّبت فيه البدعة .

ومهما كان .. فإن الإشادة بالكفاح العظيم الذى قام به أبو زكرياء
لا يحمل على المغالاة فى تحطيم أمة معتزة بإسلامها ومحافظتها عليه منذ انشرح
صدرها للإيمان ، فاستجابت لدعوة الله ، واستقبلت قبلة الإسلام . ولست
أدرى كيف ساغ للأستاذ الدبوز - عند الأستاذ الدبوز - أن يقول فى أمته
المسلمة الكريمة :

« وكانوا فى الجاهلية قبل أبى زكرياء » لأنها كلمة أبعد من أن تجد مكانها

في تاريخ هذه الأمة الكريمة . ولو كُتِبَ لأبي زكرياء أن يعود إلى الحياة وفي نفس الظروف التي كان عليها لما رضى فيها في وصف أمته، بل لما رضى أن يصف بها خصومه في الإصلاح ، ولسنا نرضاها نحن ، وأحسب أن جميع الميزابيين - ومنهم محمد علي - ومن يعرف الميزابيين على حقيقتهم في الماضي والحاضر لا يرضى أن يطلق هذا الحكم الجائر على تلك الأمة الكريمة .

لو وصفت بها عادة من ادات الميزابيين، أو بدعة مما قد يكون، أو جماعة معينة محدودة لاحتملناها على ضض. أما هكذا على الإطلاق فلا يا أخى...
وَأَلْفَ لَا ...

إن كلمة الجاهلية لا يسوغ أن تطلق على مجتمع يؤمن بالله ، ويقوم بواجباته الدينية في حرص وتشدد، ويحافظ في هومه على شعائر الله، فلا يترك فرضاً ولا ينتهك حداً .

ولا يستطيع الأستاذ الدبوز، ولا غير الأستاذ الدبوز، أن يزعم بحق أن الشعب الميزابي - في تاريخه الإسلامي الطويل أو في أى فترة من فترات ذلك التاريخ - كان قد انحرف عن سبيل الله وأعرض عن دينه فتجلى عن الواجبات وانتهك أو استباح المحرمات، أو أن ذلك كان يقع فيه وهو راض ساكت لا يأمر بمعروف ولا ينهى عن منكر .

كيف يميز إنسان لنفسه أن يصف مجتمعا - يحرص على أداء الفرائض حتى يبالغ في الحرص . ويقاطع كل من يتهاون بفريضة أو سنة . وينأى عن جميع المعاصي ويقاطع كل من يرتكب معصية ، ويقوم بالأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر . وبيدين بالولاية والبراءة الشخصيتين . فيحرص على محبة الناس في الله ومعاداتهم في الله بأنه كان في جاهلية .

لا شك أن هذا المجتمع قد تكون له عادات سيئة وقد تكون بينه بدع تخالف السنة وقد يكون فيه أفراد ينتهكون حرمان الله . ويرتكبون الموبقات . وهذا شيء طبيعي لا بد أن يكون في مجتمع . ولكن وجود بعض البدع الغالبة على الناس أو بعض العادات السيئة أو بعض الأفراد المجان في مجتمع أغلب ما هو عليه الطاعة والعبادة لا يبرر وصفه بأنه في جاهلية . والشعب الميزابي في تاريخه الإسلامي الطويل أبعد ما يكون عن المجتمع الذي صورته الأستاذ دبوز بتلك الصورة الشوهاء التي لا يمكن بحال أن تكون صورة له في أي عهد من عهوده الإسلامية . ولإبعاد هذه الصورة البشعة في ذهن القارئ الكريم عن ذلك الشعب الطيب نعود إلى نفس الكتاب صفحة ٢٤٩ فقد جاء فيه ما يلي :

« لم تخل ميزاب من العلماء في وقت من الأوقات ، يقومون بالشئون الدينية ، ويعظون العامة ، ويرشدونها . إن ميزاب في كل عهوده كان متمسكاً بالدين غيوراً عليه . محافظاً على نظامه الاجتماعي الإسلامي لا يبغى عنه بديلاً ، ولا يرضى له أن يضعف أو يضمحل . والدين يقوم على العلم ، وكذلك نظامه الاجتماعي ، فإنه بدون العلم في العزابة ورؤساء العشائر وجمعية الشباب وغيرها لا يوتى أكله . لذلك كان الميزابيون حريصين في كل عهودهم على العلم ، غير أن انتشار العلم والثقافة فيهم يختلف في العهود التي مرت عليهم في ميزاب . »

ويقول في نفس الكتاب صفحة ٢٤١ ما يلي :

« فهو الشيخ هي سعيد بن علي الجربي الذي وفد مع اثنين من العلماء

(٣٠ - الإبانة)

فأحيوا وادى ميزاب بعلمهم بعد الجهالة التي استولت عليه في أول القرن العاشر الهجري - كما أرى - ثم لم ينقطع العلم في وادى ميزاب بعد ذلك .
إن الفقرة الأولى التي نقلناها لك هنا هي الصورة الحقيقية لوادى ميزاب . وهي الرد البليغ من الأستاذ محمد علي دبوز على تلك الصورة الشوهاء التي وردت في الكتاب . أما الفقرة الثانية فهي تنص كما ترى أن العلم في وادى ميزاب لم ينقطع منذ القرن العاشر . ومعنى هذا أن هذه الفترة قد مسحت ما وصف به الدبوز أهل وادى ميزاب في الفترة التي سبقت أبا زكرياء الأفضلي وهي - ولاشك - الفترة التي تقع بين عمى سعيد الجرجي وأبي زكرياء الأفضلي والتي كان فيها العالمان الفاضلان أبو مهدي عيسى وأبو يعقوب المصعبى كما كان بها أيضاً العالم المناضل القوي أبو احمد اليزقنى .

وأرجو أن لا تفرك - أيها القارئ الكريم - كلمة الجاهلية والجهالة التي ترد على قلم الأستاذ دبوز فهي له بمثابة ستار يحجب به العصور التي سبقت من يتحدث عنهم ، فعندما يتحدث عن عمى سعيد يضع تلك السقارة على القرن التاسع وما سبقه . وعندما يتحدث عن أبي زكرياء يضعها على القرن الثاني عشر ومن سبقه ، وعندما يتحدث عن القطب يسحب تلك السقارة ويضعها على العصور التي سبقته وقرأ إن شئت في نفس الكتاب وهو يتحدث عن جهود القطب في الإصلاح - صفحة ٣٣٥ ما يلي : « وكان الأب في عهد تلك الجاهلية » . وهكذا بكل بساطة يعتبر الأستاذ دبوز العصور التي سبقت عمى سعيد عصور جاهلية ثم يعتبر العصور التي سبقت أبا زكرياء عصور جاهلية وضاعت في هذه الصورة الآثار القيمة عن جهاد عمى سعيد ثم يعتبر العصور التي سبقت القطب عصور جاهلية وضاعت في هذه الصورة تلك الآثار القيمة التي نتجت عن كفاح أبي زكرياء وضياء الدين . وأحسب

أنه حين يتحدث هن جاء بعد القطب سوف يسحب نفس السقارة ويحجب بها عصر القطب . إن كلمة الجاهلية تقوم له مقام اللوح الأسود أو الخرقة السوداء عند المصورين تحصر له الضوء في بؤرة محدودة هي التي يريد إبرازها للقارئ في وضوح كامل . وإذا أزعجتها عن جميع الصور فإن الصورة الصادقة لوادى ميزاب - في عصور الانحطاط والركود العام - تبقى هي الصورة التي رسمها له الأستاذ الدبوز في صفحة ٢٤٩ من كتابه هذا وهي (١):

إن ميزاب لم يخل في عهد من عهوده من علماء أجلاء ولم ينحرف الشعب عن الدين ، ولم تتمكن منه البدع وإن لم يخل منها . ولم يخل من رجال يقومون لها ويقاومونها بشدة وإصرار ، والرجوع إلى من ذكرهم الأخ الدبوز في كتابه من علماء وصلحاء ميزاب والمصلحين فيه ، ومعرفة تواريخهم وعصورهم وقيام مجلس العزابة طوال هذا التاريخ بمهمته - دليل كاف لإظهار الصورة الحقيقية لوادى ميزاب في كل فترات تاريخه .

أما خرافة المرأة والميراث التي تحدث عنها الأستاذ الدبوز مرتين في كتابه فأحسب أنه مما لا يتلاءم مع المنطق التاريخي . وما انجر إليه الأستاذ الدبوز استناداً على أخبار العوام ، والإشاعات المتناقلة بين الناس من أن الجهل قد سيطر على الوادى حتى أصبح أهله لا يعرفون فريضة الزوجة في الميراث فكانوا يعطونها النصف بدلا من الربع أو الثمن لا يثبت حقائق تاريخية ولا يدل عليها .

إن هذه القصة غير مقبولة إطلاقاً . والميزابيون بأنظمتهم التي عاشوا عليها أحرض على المحافظة على الدين من أن يغيروا أحكام الله بهذه الدرجة .

(١) أوردنا نص العبارة فيما سبق من هذا الفصل لمن شاء مراجعتها .

كما أنه لا يستساغ مطلقاً بناء على قصة تنقائها الإشاعات العامة أن نهم العلماء الأجلاء الذين سبقوا أبازكرياء والذين علموه ودربوه - بالجهل أو بالرضاء والسكوت عن هذا المنكر وهم الأشد حرصاً على أحكام الإسلام . بل إنه لا يمتأني أن تجرى أمثال هذه التفسيرات في الفرائض المنصوص عليها في القرآن الكريم . ونظام العزابة قائم بشرف على تنفيذ أحكام الله ، ويشرف على تصفية الموارث عقب الوفاة مباشرة .

إن قصة هذه المرأة إن صحت إنما هي قصة فردية . امرأة كانت تعتقد أنها سوف ترث النصف من مال زوجها ، فحال أصحاب الحقوق دون ذلك فذهبت إلى أبي زكرياء الأفضلي العالم المتحرر - في نظرها - الذائع الصيت الذي لا يرد قوله . تستفتيه ، وكانت مقتنعة أن الحق لها ، فلما أجابها بغير ما كانت تتوقع وتنتظر ، قالت كلمتها وهي تنصرف مخنقة يعتمر ألم الحرمان قلبها . بل إن القصة لا تدل بمفهومها ومنطوقها إلا على هذا فلو كان إعطاء النصف للزوجة عملاً جارياً معمولاً به ، معروفاً بين الناس . لأعطى لهذه المرأة نصفها ، ولما احتاجت هي أن تسأل أحداً . ولكن القضية هي أن أحكام الفرائض كانت تجرى في ذلك المجتمع المسلم على ما وضعه الإسلام . وكان اعتقاد هذه المرأة يخالف ذلك . وربما قيل لها إن العالم الجديد له آراء أخرى غير ما عرفه الناس فأملت أن تحصل على فائدة وذهبت إلى أبي زكرياء مستفتية وشاكية ومخاصمة . فردها العالم الكبير إلى حكم الله . ومهما كان الأمر فإن هذه القصة لا تصور إلا حالة فردية هي خطأ من الأخطاء التي يقع فيها الأفراد كل يوم . أو جهل بحكم شرعي مما يمكن الجهل فيه ، أو معصية مما يرتكبه الأفراد في كل مجتمع

ولا يمكن أن نعطيها أكثر من ذلك مهما قيل عنها . أما الحكم على مجتمع مسلم بأنه في جاهلية لأن امرأة منه زعمت أن ميراثها من زوجها يجب أن يكون النصف وذهبت تستفتي العلماء في ذلك فليس من الحق وليس من الصواب وليس من حقائق التاريخ، على أن ما كتبه الأستاذ الدبوز عن المرأة الميزابية وعن ثقافتها وتدينها في مختلف العصور من تاريخها . ومحافظتها على نظام مجلس العزابة النسوى وحرصها على حضور الدروس ، بل على قيامها بالدروس في المجتمع النسوى وما إلى ذلك يقوض أركان هذه الخرافة من أساسها ولا يبقى لها أى ظل . وعد إن شئت إلى نفس الكتاب ، فسوف تجد فيه :

« وللنساء في ميزاب مجلس ديني من النساء العالمات الصالحات الورعات » .

« يختارهن العزابة بدون تمييز ولا تعصب من العشائر » . « والمجلس الديني للنساء يعين مجلس العزابة في تثقيف المرأة الميزابية وتربيتها تربية دينية صحيحة » .. « إن المرأة الميزابية بفضل التربية الدينية التي تسكون لها من والديها وأسررتها والمجتمع . وهذا المجلس الديني الذي يتعهد النساء وينفتح فيها الروح الدينية الصحيحة وو - ... متمسكة بدينها كل التمسك تخاف الله وتراقبه في أعمالها . لا ترضى أن يخالف الدين أمامها . إنها امرأة ضالحة » .

والمرأة المتدينة الضالحة لا تأخذ ما ليس لها بحق . ولعله من المضحك أن يهتم الأستاذ الدبوز بهذه القصة كل هذا الإهتمام ويوردها في كتابه مرتين شاهداً على أن الشعب الميزابي كان في جاهليته . ثم يفرق في النزاع فيمثل ذلك بأنه نابع من طبع ميزاب الموروث من البربرية في إكباره للمرأة وتقديره لها . مع أنه في فصول أخرى من الكتاب يضع البربر ، وينكر أن يكون الميزابيون منهم . يقول في نفس الكتاب صفحة ١٦٧ ما يلي :

« ولا صحة لما يدعيه الاستعمار ومقلدوهم من أنهم بربر خالص . فالبربر الخالص إذا أمكن وجودهم في المغرب^(١) ففي رؤوس الجبال المنقطعة التي لا تعرف دولة ولا حضارة . أما الميزابيون فمتحضرون وأبناء أكبر دولة إسلامية نشأت في الجزائر ، اختلطوا فيها بالشعوب الإسلامية سيما بالعرب فالدماء العربية فيهم أكثر ، يدل على ذلك فصاحتهم العربية وخلوهم من اللسنة الموجودة في بعض أنحاء البلاد » .

وسواء أكان الميزابيون بربراً أم عرباً ، أم كانوا خليطاً منهما ومن غيرها . أم كانوا خليطاً من أحدهما ومن غيرها . فقد تكون منهم شعب ذو خصائص ومميزات احتفظ بها دون غيره لمحافظة على دينه ولا بتمعاده عن وصف الجاهلية لاتصافه بأخلاق الإسلام . وليس للمرأة في هذا الشعب قديماً وحديثاً غير مكانها الطبيعي . وليس للمرأة عند البربر أو عند العرب في القديم إلا مكانها كأم وزوجة وأخت و بنت . وقد قيل عن البربر - أو قالوا عن أنفسهم في جاهليتهم - إنهم يكرمون الخليل ويهينون النساء ويعنون بذلك أنهم شعب جد وفروسية ونضال . وإن المتعة لا تستعبد لهم ولا تضعف عزائمهم فتجعل منهم : أحلاس بيوت ، أو عبيد شهوات ، أو عبدة إناث .

وقبل أن أختم هذا الفصل يسرني أن أقف وقفين قصيرتين ، أعرض في الأولى منهما رأياً عن المرأة الميزابية لأستاذنا الفاضل الشيخ باكلى عبدالرحمن حفظه الله ورعاه ، وأعرض في الثانية رأياً لأستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم في هذا المقال نفسه وفي قصة المرأة السالفة . أرجو أن يتابعني القارئ

(١) اقرأ عن هذا الموضوع ما كتبه الأستاذ الدبوز في كتابه: تاريخ المغرب الكبير - الجزء الأول .

الكريم فيهما لعله يستخلص منهما عبرة ، ولا شك أنه سيخرج منها
بفوائد .

الوقفه الأولى : في سنة ١٩٦٥ وجهت سؤالاً إلى أستاذنا باكلى عن
موقف العزابة في كفاح الباطل ، والرذيلة ، والظلم والبدعة . وقد أجبني
حفظه الله بجواب مطول بتاريخ ٢ / ١ / ١٩٦٥ جاءت فيه هذه الفقرة القصيرة
« في كفاح البدع : مسألة البناء على القبور والتوسل بها ، مسألة إلغاء ميراث
المرأة على عادة الجاهلية وحسبما يجرى به العمل الآن في بعض جهات القبائل .
عدم احتجاب المرأة عن أحائها » . ويقول في مقدمته على الطبعة الثانية
لكتاب النيل صفحة ١٣ ما يلي :

« اشتهرت في أيامه - أي الشيخ عبد العزيز الثميني - عادات فاسدة
كعدم احتجاب المرأة عن أحائها ، وكفش الوشم بين الرجال والنساء ،
وتعاطى السعوط (الشمة) جهراً . وكعدم توريث المرأة النصيب المفروض
إلى غيرها » . لعل القارئ الكريم لاحظ أن ما يقرره أستاذنا باكلى
- حفظه الله - في موضوع ميراث المرأة يناقض تمام المناقضة ما يقرره الأستاذ محمد
على دبوز ، فبينما يذهب الدبوز إلى أن المرأة في تلك العهود كانت تحصل
على أكثر من حقها ، وأن الزوجة كانت تأخذ النصف من ميراث زوجها .
يقرر أستاذنا باكلى أنها كانت محرومة بالكلية .

والذي يستنتج من هذا أن الواقع الذي كانت تسير عليه الأحكام في
هجومها وتحت إشراف مجلس العزابة إنما هو الحكم الذي جاءت به الشريعة
الإسلامية وأنه قد يشذ عن هذه القاعدة أحياناً بعض الأفراد فيعطون
أكثر من الحق أو يمتنعون الحق ، ويمور من أجل ذلك جدال ونقاش

ويقف العلماء بثبات حتى يضعوا الحق في نصابه فتروى عن ذلك قصص تنتشر بين طبقات الشعب تغذيها الخيالات والأوهام والأهواء فتتسلل إلى أقلام المؤرخين .

الوقف الثانية : كنت كتبت هذا الفصل وأنا متردد فيه ، ثم أخذت منه صورة وأرسلتها إلى أستاذنا الفاضل الإمام بيوض أعرض عليه الفصل وأستشيريه في نشره أو عدم نشره ، وقد جاءني منه رسالة بتاريخ ١٠/١١/١٩٧١ قال فيها حفظه الله ما يلي فيما يخص هذا الموضوع :

« رابعاً الفصل المستشار فيه من فصول كتاب (الإباضية في الجزائر) لا نرى إسقاطه ولا إلغائه . فإن نظرياتكم في مناقشة الأستاذ معقولة ، ونحن نعلم كما تعلمون أنه إنما كتب ما كتب عن حسن نية ، وغفلة عما يتركه ذلك الوصف المبالغ فيه من أثر سوء عند من يتصيد أمثال هذه الهينات ، والباعث له حقيقة هو نفس ما علقتم به . وقضية المرأة السائلة عن ميراثها من زوجها لا يمكن أن تكون بحال من الأحوال معبرة عن نزعة بربرية عريقة في تقديس المرأة ، وإنما هذا خيال مفرط . على أن قصة المرأة وسؤالها وقولها للعالم المفتي (هذه شريعة خضراء) إنما وقعت حقيقة ببلدة القرارة . والعالم المسئول شيخ عماني نزل القرارة وتزوج بها وعلم فيها ، وكان يلبس جبة خضراء . ولذلك قالت المرأة قولتها تلك . واشتهرت بين أهل القرارة . وقد أدرك مشائخنا هذا الشيخ الجليل وعرفوه وسمعوا عنه ، وأعقب بنتاً عرفت بين أمهاتنا بينت العماني ، وأنت خير أن بعض هذه الوقائع وهذه الأمثال تنقل من بلد إلى بلد ، وينسبها الجاهلون بحقيقتها وموردها إلى أشخاص آخرين . وهذا كثير وكثير جداً .

وبعد .. فإن الفصل آتيك ضمن هذا الكتاب ، وإذا أمكنت أن تمر
بيدك الناهمة عليه ، فما أحسست من خشونة في كلمة صفتة^(١) .

وإن له لفضلاً كبيراً فيما يعانیه من إبراز تاريخ أمته جملة وتفصيلاً كما
يليق بكرامتها » .

أحسب أنه لم يبق ما أزيده بمد هذه الكلمة الرائعة لأستاذنا العظيم
حفظه الله ورعاه سوى أن أشكر الأستاذ الدبوز محمد علي ، على مجهوده
المعظم القيم ولقد كان كتابه هذا وكتبه الأخرى من بين المراجع الهامة
التي اعتمدت عليها ورجعت إليها في كثير من الأحيان واستفدت منها
فوائد جلي ، ساعدتني في أبحاثي وتكوين آرائي .

أعان الله الأستاذ الدبوز على إتمام ما عزم عليه ، ويسر له الوصول إلى
ما يصبو إليه من خدمة الأمة والوطن .

(١) بعد رسالة أستاذي الفاضل الإمام بيوض إبراهيم حفظه الله رأيت أنه من واجبي أن
أنشر الفصل . وأن أعود إليه فأعيد صياغته وقد حذفته منه جلا وزدت فيه جلا . واستشهدت
برأي أستاذنا باكلى حفظه الله فإنني لم أعرض له في الفصل حين عرضته على أستاذي حفظه
الله فإن كان في الفصل ما يجرح إحساس أخى وزميلي الدبوز فأنا أعتذر إليه وهو يعلم أنني
من أبناء الجيل لا بد أن يكون في طبعي شيء من طبعه وفي أسلوبى بعض من خشونته .

ميزاب في نظر مستشرق

إن للمستشرقين والمستعمرين الغربيين أساليبهم الخاصة عندما يكتبون عن أى بلد من بلدان الشرق وهم يدعون النزاهة والعلمية ، ولكن الواقع أن الكثير منهم لا يدعون فرصة نفوسهم لكي يبتثوا السموم فيما يكتبونه عن الشرق ، وهذا مستعمر فرنسى كتب عن الجزائر وعن ميزاب ، وفي كتابه كثير من المغالطات والسموم . وفيه بعض الحقائق ، ولقد طلبت من أستاذنا الفاضل الشيخ عبد الرحمن أن يترجم لى الفصل المتعلق بوادى ميزاب فأجاب مشكوراً ، وقد رأيت أن أنقل عنه بعض الفقرات فقط وأن أترك كثيراً من التشويهات والأكاذيب دون أن أثقل بها على القارئ الكريم وربما أنقل له واحدة من الأكاذيب كنموذج .

قال شيخنا باكلى عبد الرحمن ما يلى :

« الكتاب هو كتاب : صحراء الجزائر . تأليف العقيد توماس المدير المركزى للشئون العربية بالجزائر ، نشره بإجازة المارشال دوق دى دالماس رئيس وزراء فرنسا يومئذ ووزير الحرب . مطبوع فى باريس سنة ١٨٤٥ م . بعد أن ساق خلاصة يظن أنه استعفاها من بعض خصوم الميزابيين تشتمل على ما يبنزون به من قبل مخالفينهم الذين ينظرون إليهم كارقين من الدين . قال : « ومها كان الأمر فإن الميزابيين أشد تديناً من العرب ، يتخذون ثياباً خاصة بالصلاة ، لا يسكرون ، ولا يزنون ، يصومون ويصلون ويستجفون الوضوء ، يجالغون فى تطهير تقاليدهم إلى حد التشديد والغلو ، فهم يعتبرون لذلك زهاد الصحراء المصلحين .

وللواحد منهم - وهو الواقع - أن يتخذ زوجات أربع ولكنهم يحبونهن عن أعين الناس عكس أعراب البادية ، فالابن لا يمكنه أن يرى سوى أمه ، والأخ لا يسوغ له أن يرى زوجة أخيه ، فإذا خرجن خرجن مقلعات إلا عينا واحدة . الزانى عندهم يرحم ، ويغرم غرامة باهظة ويعزر خمسة جلدة ويغرب ، فهم متدينون محافظون على عقيدتهم ، أعداء الكذب ، يموت أحدهم جوعاً ولا يخون الأمانة المودعة عنده فكان لسان حاله يقول لها : حفظك الله نامى فأنا ساهر عليك .

لا يأكلون إلا ما يطبخونه ويحضرونه بأنفسهم عفة ومبالغة في الزهد ، لا ينشقون السعوط ولا يدخنون ، ويرون ذلك محرماً شرعاً ويرون الإسكار جريمة بحيث لو سكر يهودى لفتشوا محله ، وقد يفتشون محال ذويه أحياناً وما عثروا عليه لديهم من جرار الخمر حطموه في البطحاء العامة بين سمع الناس وبصرهم . وإذازنت يهودية غربت بكيفية مخجلة وهذا مما يؤسف له .

وبعد كلام يقول : « ولقد تسرب بعض اليهود إلى ميزاب فأووم وأظهروا معهم تسامحاً لم يجدوه مع غير الميزابيين على شرط أن يخضعوا لتوانين البلاد ويحترموا تقاليد الذين أووم ، ويتمتعون معهم بحريتهم كاملة : لم كنبائسهم وأحبارهم ومدارسهم . ويُسمح لهم أن يلبسوا لباساً يشبه لباس الميزابيين على أن تكون لهم علامة تميزهم ، وذلك أن لا يلبسوا الحائك . وأن يتعمموا بعمامة سوداء ، وايس لهم أن يركبوا الخيل ، ولم - كافي الأماكن الأخرى - أن يحترفوا التجارة والحلاجة والصباغة والصياغة » .

وبعد كلام يقول على من يريد أن يكون ميزابياً أى أن يحصل على الجنسية الميزابية :

« وإذا قبل أجدم ذلك فإن قبوله لا يتم إلا باعترافه أمام الشيخ ، ورغم ذلك لا يعتبر ميزابياً خالصاً إلا بعد أربعين جيلاً . هذه الخطوط الرئيسية لمنظمة إدارية دينية جديرة بالدراسة ، وتنقصنا لاستخراج العبر مع الأسف المعلومات الكافية الدقيقة عن أصل هذا الشعب الوحيد » .

هذه هي الصور التي أردت أن أعرضها عليك أيها القارئ الكريم ، وسوف أنقل لك تعاليق لشيخنا باكلى حفظه الله عن بعض النقط منها :

١ - التعليق الأول عن قوله : « فالابن لا يمكن أن يرى سوى أمه »

« قال شيخنا باكلى : ليس الأمر كذلك بل يباح له أن يرى المحارم اللاتى

حرم الله عليه زواجهن المذكورات في قوله تعالى : ﴿ حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن ، فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم ، وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم ، وإن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف ، إن الله كان عفواً رحيماً . والمحصنات من النساء ﴾^(١) .

٢ - التعليق الثانى عن قوله : « الزانى يعزر خمسمائة جلدة » . قال

شيخنا باكلى حفظه الله : فالله يقول : ﴿ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ﴾^(٢) لا خمسمائة جلدة .

٣ - التعليق الثالث عن قوله : « لا يعتبر ميزابياً خالصاً إلا بعد أربعين

جيلاً » قال شيخنا باكلى حفظه الله : ليس الأمر كما قال المؤلف من أن الذين يدخلون الجامعة الميزابية لا يعتبرون لديهم ميزابيين أقتحاً إلا بعد مضى أربعين جيلاً ، فالواقع التاريخى ينفىه لأننا وجدنا عائلات كثيرة من

(٢) النور : ٢

(١) النساء : ٢٣ ، ٢٤

مختلف قرى الوادى - ولا تزال إلى أيامنا - كانت مالكية فتأبضت، وإنها لتعتبر من صميم الميزابيين، ولا يكاد يستشر من لا يعرف سابق أمرهم شيئاً اللهم إلا إذا بقيت عائلة على سيرتها الأولى من رقة الدين وفسولة الأخلاق فيحترز منهم لذلك كما يحترز من الإباضية الأصلاء إذا كانوا كذلك لا لأجل أنهم كانوا فصاروا .

على أن غالب العائلات التي كان أصلها عربياً فتوطنت ميزاب كانت غير إباضية فتأبضت وإنها لتعتبر من صميم أبناء ميزاب لا فرق بينهم وبين من سبقهم بأجيال . على أننا لو ناقشنا أصل النظرية لوجدناها غير واقعية . ذلك أن الجليل عبارة عن أربعين سنة على أصح الأقوال ، وأربعين جيلاً عبارة عن ١٦٠٠ سنة ، ولم يكن لميزاب بمدنه الحالية هذا العمر، فالنتيجة أن سكان ميزاب ليسوا بميزابيين أقحاح . وهذا تناقض وقضية باطلة من أساسها لا يقول بها أحد حتى المؤلف نفسه على ما يظهر .

ولا يبعد أن يكون قد استوحى هذا الزعم من معاملة بعض الجهال العنصرين الذين لا يخلو منهم زمان ولا مكان . متعمداً لإثباتها كحقيقة تاريخية لحاجة في نفسه على ما أرى . لأن مؤرخى الغرب وإن تظاهروا بالتحقيق العلمى وبإنصاف التاريخ إلا أن عسلهم لا يصفو من مغاير إن لم نقل من سم . وغالهم متشبعون بالروح الاستعمارية يخدمون ركابه بتأليفهم ولا يتورعون أن يزخرفوا نظريات من شأنها أن تحدث الخلاف بين صفوف الأمة عملاً بسياسة « فرق تسد » ومؤلف كتاب (صحراء الجزائر) من القواد العسكريين المشبعين بروح السيطرة والاستيلاء . فلا نكون ظالمين إذا اتهمنا حسن نيته في هذا الميدان ، وإن لنا في هذه القطعة التي ترجمناها عنه

لغمزات ، وإن تعدده الإطلاق في عبارته ابتغاء الفطنة . كما في رقم ٣ ورقم ٤
لقربنة على صحة هذا الاتهام . والاستثمار مكيفيلى النزعة مبدؤه : الغاية
تبرر الوسطة .

أما أن يكون ما أثبتته توماس في النقط التي علّق عليها وفيما لم ننقله
- هو واقع الأمة الميزابية فلا ولا . والتاريخ الحق حكم بيننا ، والله يقول
الحق وهو يهدى السبيل .

ميزاب في نظر مستغرب

إذا ظن القارئ الكريم أن ما تدل عليه كلمة (مستغرب) هو ضد ما تدل عليه كلمة (مستشرق) فهو مخطيء . بل إن المعنى الذي تدل عليه كلمة مستغرب هو نفس المعنى الذي تدل عليه كلمة مستشرق ، فهما كلمتان مترادفتان وكل ما بينهما من فرق أن كلمة مستشرق تدل على إنسان غربي يحمل فكراً غربياً ، وقلماً غربياً ينطلق بهما إلى الشرق بدعوى خدمة العلم ليهد للغرب وسائل احتلال جزء من الشرق ، إما احتلالاً عسكرياً ، أو فكرياً ، أو خلقياً ، أو دينياً ، أو كل ذلك .

وأما كلمة مستغرب فهي تدل على أن إنساناً شرقياً ينطلق إلى الغرب بدعوى الحصول على العلم ، فيحصل على فكر غربي ، وقلم غربي ، ينطلق راجعاً بهما إلى بلاده في الشرق ليقوم فيهما بنفس الدور الذي كان سيقوم به المستشرق . موفراً بذلك على دول الاستعمار - بكل معانيه - وعلى مؤسساته ، تلك المصاريف الباهظة التي كانت تمكدها لتمويل المستشرقين والمبشرين وأشكالهم بمختلف الأساليب . كما يوفر عليها حدة رد الفعل الذي يحدثه دخول أجنبي إلى مجتمع شرقي ليهدم . وهكذا يبدأ المعول الهدام الذي صمم - خصيصاً للشرق - في مصانع الغرب يتحرك داخل الحصن بيد أحد سكان الحصن يعمل بجد ورتابة معتقداً أنه أدى واجباً ، أو حصل على منزلة ، أو ملأ فراغاً . وهو إنما أدى دوراً ، ودخل في (حصالة) واشتغل على فراغ .

لقد نجح المستشرقون في مهمتهم أعظم نجاح ، فيهم استقطاع الغزو الفكري أن يتغلغل في رؤوس الشرقيين ، والأضرار التي نجمت عن جهود

المستشرقين والمبشرين في العالم الإسلامي كانت أفدح ألف مرة من الأضرار التي تركتها فيه جحافل جيوشهم الجرارة . ولا شك أن الأضرار المادية التي خلفها الاستعمار العسكري قد استطاعت الشعوب الإسلامية أن تتلافها بعد أن خرج الاستعمار العسكري من بلادها . أما الأضرار التي خلفها المستشرقون في العقائد والقيم والأخلاق والفكر فهي لا تزال تفرع في آذان المسلمين . وقد اختفى شبح أولئك المستشرقين من بلاد الإسلام ، ولكن تلاميذهم (المستغربين) وقد احتلوا مكانهم وأصبحوا يسيطرون على أعظم مؤسسات الثقافة والتوجيه ولا يزالون يوالون جهودهم بنفس الأسلوب وبنفس الحماس والنشاط ، ولم يتغير عند أكثرهم إلا الاسم ، فبعد أن كان المستشرقون يحملون أسماء غربية مثل كريستو ، وفيليب ، وتوين . صار المستغربون يحملون أسماء عربية مثل مصطفى ويحيى وإبراهيم . أما الحقيقة فهي حقيقة واحدة يخفيها الأول تحت ستار خدمة العلم . ويظهرها الثاني فوق بطاقة الجنسية .

هذه خاطرة خطرت لي وأنا أقرأ فصلا من كتاب أرجو أن لا يعلق عليها القارئ أهمية فيما نحن بصدده . ولنتقل إلى ما نريد الحديث عنه في هذا الفصل .

أراد الدكتور يحيى هويدى أن يكون فيلسوفاً فتحصل على دكتوراه في الفلسفة من باريس ، وكتب في الفلسفة كتابات عدة يهمنها منها - هنا - فصل من كتاب (تاريخ فلسفة الإسلام في الشمال الإفريقي) ويبدو من قراءة ذلك الفصل أنه فئات من عدة موائد جمعت لتشغل حيزاً من كتاب ، وسوف ننقل فيما يلي فقرات منه مع بعض (الملاحظات البسيطة والخفيفة) :

قال في صفحة : (٥١ - ٥٢) ما يلي :

١ - « وحوالي ٤٠٠ هـ (١٠٠٩ - ١٠١٠ م) انتهى مطاف الوهبية الإباضية في الشمال الإفريقي جنوب وارجلان في كريمة وسدراته بالجزائر ونزحوا إلى إقليم شبكة مازب حيث ظلوا يعيشون حتى اليوم » . في هذه الفقرة ملاحظتان :

إحداها: يجم عليها ظل المستشرقين الكالح بوضوح ، فتصوير الإباضية بصورة مجموعة من الناس تطوف من مكان إلى مكان حتى استقر بهم المطاف في مكان ما هي نفس الصورة التي خطرت للمستشرق نلينو حين صور الإباضية بأنهم فرقة نزحت من الشرق إلى الغرب تاركة وراءها عقائدها ثم جعلت تستعير العقائد من المعتزلة والشيعة لتملأ بها فراغ نفسها ، فقد قال نلينو : « فكان الجزء الأكبر من مذهب الإباضية في إفريقيا إذن معزلي . فهل هم أخذوه وهم في الشرق من قبل أن ينزحوا إلى بلاد المغرب ، أم هم تقبلوه في شمال إفريقيا تحت تأثير انصالحهم بالأداسة من الشيعة » .

وهذه ولاشك صورة مضحكة ، ومما يزيد في طرافتها أن يأخذها الدكتور هويدي ثم يعبر عنها بأسلوبه الخاص كأنها نابعة من خياله هو لا من خيال نلينو مستعملا كلمة الطواف بدلا من النزوح .

والواقع الذي ينبغي أن يعرفه الدكتور هويدي أن الفرق الإسلامية بما فيهم الإباضية ليسوا فرقا متكونة من مجموعات متقلبة كطوائف الفجر تطوف من مكان إلى مكان . إن الإباضية هم السكان الأصلاء لأغلب مناطق المغربين الأدنى والأوسط ثم حملت السياسة عملها فزحزحت بعضهم عن أماكنهم وأذابت بعضهم في غيرهم وثبت أهل وارجلان وسدراته (٣١ - الإباضية)

وبنى مصعب على وضعهم ، وربما هاجر إليهم غيرهم فراراً من واقع الألم .
ولا صحة لما توحىه عبارة الدكتور في قوله : « انتهى بهم اللطاف » .
ولا قول المستشرق « قبل أن ينزحوا من بلاد المغرب » فإن الإباضية لم
يعرفوا الطوافة بأى معنى من معانيها في جميع فترات تاريخهم . ولم يكن
ابتداء همران وارجلان وسدراته وكريمة بالإباضية ابتداء من القرن الرابع
كما ظن الدكتور ، وإنما كانت وارجلان ومنطقتها عامرة بالإباضية منذ
دخل المذهب الإباضى إلى الجزائر في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثانى
المجرى وكانت في القرن الثالث تعتبر من أعظم عواصم الإباضية في شمال
إفريقيا ، ولذلك التجأ إليها يعقوب بن أفلق بعد تخريب تاهرت وأبو نوح
سعيد بن زنفيل عندما طارده الفاطميون ليحتموا فيها وبها من ملاحقة
الطاردين .

أما الملاحظة الثانية: فهي ذلك الخطأ الشائع الذى يقع فيه كل عربى ذى
ثقافة غربية يعتمد على المصادر الأجنبية ، فينقل عنها أسماء فتساقى محرقة لأن
النطق والكتابة في اللغات الأجنبية غير النطق في اللغة العربية ، ولأن بعض
الأصوات الواضحة في اللغة العربية ليس لها حروف في تلك اللغات أمثال
العين والحاء والضاد .

والذى وقع فيه الدكتور هو يدى هو أنه حرف ميزاب إلى مأزب نقلا
- فيما يبدو - عن بعض كتابات الغربيين عن بنى ميزاب كما أن ما كتبه
في هذا الفصل يدل أنه لا يفرق بين مأزب التى جاء بها والزاب ، أما كلمة
ميزاب فلم ترد على لسانه في هذا الفصل لأنه لا يعرف حقيقة المسكن ولا
حقيقة أهله ، وإنما وجد فنقل دون معرفة أو فهم .

وقال الدكتور هويدى فى نفس الفصل ما بلى :

٢ - « وبنو مازب يؤمنون بأن مثال الخلافة كان فى الخلافة الكاملة أى فى الخلافة فى عهد الخلفاء الراشدين حتى عام ٣٨ هـ ، وهو العام الذى خرج فيه الإمام عبد الوهاب الراسبى على سيدنا على بن أبى طالب (وقد قتل على بعد هذا بعامين أى عام ٤٠ هـ) . »

هذه فقرة لا تحتاج إلى تعليق والمسلك الملتوى الذى سار معه المؤلف لا يبلغه إلى مقصده وإذا كان بنو ميزاب يرون أن الخلافة الكاملة فى الأمة الإسلامية هى ما كان عليه الخلفاء الراشدون فإنه لا يخالفهم فى هذا الرأى مسلم ولو خالفهم لم يجرؤ على إعلان خلافه . أما الاسم الخرافى الذى جاء به فلا نجد له ذكراً فى مصادر التاريخ التى نعرفها ، ولعله يقصد عبد الله ابن وهب الراسبى ، ولا نعرف أى معنى لخصه سنتين من خلافة أمير المؤمنين على . أما تعبيره الذى جرى عليه فى هذا الفصل بقوله : « بنو مازب يؤمنون » فى قضايا ليست من مسائل الإيمان ، فلا تدل إلا على إحدى ثلاث : الاستهتار والاستخفاف ، أو الجهل ، أو النقل المغفل البليد .

ويقول الدكتور هويدى فى نفس المقال ما بلى :

٣ - « ويؤمنون بأن من حق المسلمين أن يعزلوا الخليفة إذا حكموا بانحرافه » عبارة أخرى ملتوية لا تقتضى الوقوف لأن الالتواء فيها ظاهر لكل قارئ ولا مكان لكلمة (يؤمنون) فى هذه الفقرة كالتى قبلها والتى بعدها ، أما جملة « إذا حكموا بانحرافه » فقد صيغت - على ما يبدو - هكذا بقصد ، والقضية ليست قضية بنى ميزاب فقط وإنما هى قضية الأمة المسلمة جمعاء ، منهم من يرى أن من حق الأمة أن تعزل الخليفة إذا انحراف عن سبيل الله ، ومنهم من يرى لها الصبر والتحمل .

ويقول في نفس الفصل ما يلي :
٤ - « ويؤمنون بأن الخلافة تكون بالانتخاب وإذا كان الأمر بيد سلطان الجور فلا بد من تأجيل الانتخاب » .

هذا الكلام ساقط لا معنى له ولا داعى للإتيان به ، ذلك أن الأمر إذا كان بيد سلطان الجور فما موقفهم في التأجيل أو التهجيل ، وما دام سلطان الجور قائماً فهل في إمكانهم أن يعجلوا الانتخاب ، وهل في استطاعتهم أن يؤجلوا الانتخاب ، إنهم صابرون كما يصبر غيرهم على المحنة حتى تزول ، وليس هذا موقف بنى ميزاب قط ، ولا هو موقف الإباضية قط ، وإنما موقف الأمة المسلمة جمعاء منذ بدأت تنسكب بسلاطين الجور ، لا خيار لها بين أمرين ، إما أن تخوض الدماء لقلب نظام الحكم ، وقد يتساق الحكم من هو أسوأ من الأول ، وإما أن تصبر على مضض حتى يفرج الله .
ويقول في نفس الفصل ما يلي :

٥ - « وإباضية مأزب يعدون أنفسهم في دور الستر ، وهو الدور الذى بدأ بسقوط تاهرت عندما أعلن الإمام الإباضى يعقوب أنه لا مجال لانتخاب إمام بعده ، وكان ذلك حوالى عام ٩٠٩ هـ (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) .

تذكرنى هذه الفقرة بنوادر مرت علىّ في بعض مطالعاتى منها: أن رجلاً يتظاهر بالعلم والعقل والوقار ، سئل عن علىّ فقال: أليس هو أبو فاطمة؟ قالوا: ومن كانت فاطمة؟ قال: امرأة النبي عليه السلام بنت عائشة أخت معاوية وقد قتل علىّ في غزوة حنين .

ومنها أن رجلاً جاء إلى الوالى يشكو أن جاراً له يتزندق ، فسأله الوالى عن مذهب الرجل فقال: إنه مرحىء قدرى ناصبى رافضى . فاستوضحه الوالى

عن مقاله فقال : إنه ينبغي معاوية بن الخطاب الذي قاتل علي بن العاص .
فقال له الوالي : ما أدري على أي شيء أحسدك ؟ أعلى عدك بالمقالات . أو
على بصرك بالأنساب .

ولسنا ندرى نحن والله على أي شيء نحسد الدكتور في هذا الفصل ؟ أعلى
اختياره للمراجع . أم على فهمه للمصطلحات . أم على معرفته لتاريخ ما يكتب
عنه : أم على تحقيقه للأحداث وأسماء الأشخاص ؟؟ ولعل الفترة السابقة وحدها
تعطينا صورة كاملة عن جميع ذلك .

وأرجو أن يفهم الدكتور هويدى وأن يعرف القارئ الكريم أن
بني ميزاب خاصة، والإباضية عامة لا يعرفون ما يشير إليه الدكتور من دور
الستر هذا . ولا يستطيع هذا الدكتور ولا أي مستشرق أو مستغرب أن
يجد كلمة الستر أو السر عند الإباضية هذا المعنى الذي يلوح إليه المؤلف ،
ومن المؤسف أن يقع دكاترة مسلمون في مزالق أو مطبات يقع فيها
المستشرقون لجهلهم عن فهم المسلمين واعتمادهم على الفهم المادى للكلمات
المفردة في اللغة العربية .

ولعل السبب الذي أوقع هؤلاء الناس في هذا الخبط العشوائي يرجع إلى
نقطتين هما :

الأولى : يجدون كلمة السر عند بعض فرق الشيعة في حديثها عن الأئمة
المحتجبين فظنوا أن مثل هذا يكون عند الإباضية .

الثانية : أنهم يجدون كلمة الكتمان عند الإباضية ولا يفهمون المعنى
الاصطلاحي الذي وضعت له ، فترجمها المستشرقون بمعناها اللغوي عندهم فلما

أراد المستغربون ترجمتها إلى اللغة العربية ترجوها بما تدل عليه تلك الكلمة في اللغات الأجنبية ، وهي السر والستر ، ثم وضعوا تحتها ما يجرى في تخيلاتهم من معاني لهذه الكلمة مستوحين ولو من بعيد ما تقوم به الجمعيات أو المؤسسات السرية في بلادهم وما يشاع عن بعض فرق الشيعة في هذا المقام . إن كلمة السكتان عند الإباضية لاتتعلق بها أى أسرار . وهى ليست حالة خاصة ببني ميزاب ولا بالإباضية ، وإنما هى إحدى حالات أربع لا بد أن تكون عليها الأمة المسلمة الكاملة أو جزء منها بعد أن انقسمت إلى أجزاء ارتفعت بينها الحدود .

الحالة الأولى :

أن تكون الدولة مسلمة مسيطرة على بلادها عاملة بشريعة الله منفذة لقوانينه ، وأكمل صورة لهذا الوضع دون أى خلاف هى الحالة التى كانت عليها الأمة الإسلامية تحت قيادة النبي ﷺ فى المدينة المنورة وفى عهود الخلافة الرشيدة ؛ وتسمى هذه الحالة (الظهور) .

الحالة الثانية :

أن تكون الأمة المسلمة فى حالة كفاح ونضال فعلى تحت قيادة دولة مؤقتة ، وأوضح مثال لهذه الحالة هى الثورة الجزائرية منذ قيامها حتى حصولها على الاستقلال ؛ وتسمى هذه الحالة (الدفاع) .

الحالة الثالثة :

أن تكون الأمة المسلمة تحت سيطرة حكم غالب أجنبي أو منحرف لا تستطيع فيه الدفاع المتواصل ، واسكنه من حين إلى حين تقوم فرق من الفدائيين أو الثوار أو الشراة لمهاجمة الأنظمة الظالمة المسيطرة . وأظهر حالة

لهذا في هذا العصر هو فلسطين والجماعات التي تقوم داخل فلسطين بالأعمال
الفدائية ، وتسمى هذه الحالة (الشراء) .

الحالة الرابعة :

أن تُغلب الأمة المسلمة على حالها ويقضى الاستبداد وحكم الحديد والدار
على أي نوع من المقاومة فيها فتبقى مشغولة بشعائرها الدينية فقط لا تقوى على
(الدفاع) ولا على (الشراء) وهذه الحالة هي ما يسمى (بالكتمان) ، وأوضح
مثال له في الماضي الأمة الإسلامية عندما كانت بمكة والسلطان فيها لمشركي
قريش ، أما في العصر الحاضر فقد كانت الأمثلة فيه كثيرة والجزائر كلها
كانت في عهود كتمان في أغلب الحالات بعد الاستعمار الفرنسي ، ولو أراد
المؤرخ أن يتتبع فيها أحداث التاريخ في الجزائر لاستطاع أن يقسمها إلى ثلاثة :
قسم تكون فيه في حالة دفاع ، كما كانت في عهد ثورة الأمير عبد القادر
والثورة التي أخرجتها من مسلك الدفاع إلى مسلك الظهور ، وقسم تكون
فيه في حالة شراء كما كانت في بعض الانتفاضات الصغيرة التي كانت
ما تنفك تمور هنا أو هناك ، وقسم تكون فيه في كتمان وهي أطول الحالات
التي مرت بالجزائر في عهد الاستعمار الفرنسي . ونفس الظروف مرت على ليبيا
وعلى غيرها من البلدان الإسلامية التي سيطر عليها الاستعمار لفترة من الزمن
طالت أو قصرت . والأمة المسلمة في ليبيا في الفترة التاريخية ما بين سنتي
(١٩٣٠ - ١٩٤٠ م) تقريبا هي في حالة كتمان أو في مسلك الكتمان على
حسب ما عند الإباضية ، هذه هي الصورة الواضحة للكتمان وقد يلحق به اليوم
تلك البلاد التي تقوم فيها دول لا تحكم بدين الله ولا تعمل بقانون شريعته
ولا تلتزم بتنفيذ أحكامه ، وإنما تحكم بدساتير وضعها بشر من الشرق أو من

الغرب ترجع إلى فلسفة الناس لا إلى تشريع الله ، فالشعوب الإسلامية التي تخضع لمثل هذه الدول هي في حكم السكمان مهما كان مذهب الشعوب ومهما كان مذهب الحكام ، لأن أحكام الله فيها معطلة وليس في الموضوع أسرار ولا أستار ولا أدوار .

وقد ذكر الدكتور هويدى في الفترة السابقة أن يعقوب بن أفلح أعلن عن دور الستر سنة ٥٩٠٩ (١٥٠٣ - ١٥٠٤ م) عند سقوط تاهرت ، والصحيح أن تاهرت إنما سقطت سنة (٢٩٦ هـ) لا سنة (٥٩٠٩) كما هو معروف في جميع كتب التاريخ ، ويعقوب بن أفلح لما سقطت تاهرت لم يكن في منصب حكومي ولكنه فر من تاهرت خوفاً من الغتبيديين ، فعرض عليه بعض الناس أن يقايعوه بالإمامة فرفض ، ولما وصل وارجلان أعيد عليه العرض من جديد فرفض لتقديره للظروف ولعرفته أن ذلك لا يتم بعد أن تفرق جمعهم وخربت عاصمتهم ، ووقعت الفتنة والخلاف في بيت الإمامة نفسه فانقسم أتباعهم لذلك . فكل موقف يعقوب في هذا المقام هو امتناعه عن قبول البيعة . ونصيحته للناس بعدم القيام بمغامرة ، الفشل فيها أقرب كثيراً من النجاح . ومع كل ذلك فيعقوب لم يكن في ذلك الحين إماماً ، وحتى لو كان إماماً فإن الأئمة عند الإباضية ليسوا منصوبين كأئمة الشيعة ، وأقوالهم وأعمالهم وآراؤهم وأحكامهم كلها لا منزلة لها في نفسها عند الإباضية ، وإنما منزلتها بمقدار ما انبت عليه من أحكام الشريعة .

ومن هذا يتضح أن هذه الفقرة من كلام الدكتور ليست إلا نادرة أخرى مما ينبغي أن يصنف في كتب النوادر والملح ، لا في كتب التاريخ والفلسفة .

ويقول في نفس الفصل ما يلي :

٦ - « والانتظيم الذي يخضع له أهل المأزب قائم على نفس هذا الأساس أى على أساس أنهم يمرون بدور الستر » .

هكذا ببساطة استطاع الدكتور أن يقدم مقدمات ويبني عليها نتائج :
(يعقوب بن أفلق إمام الإباضية عند سقوط الدولة الرستمية في أواخر القرن الثالث أعلن عن دور الستر وذلك في القرن العاشر وخضع له أهل المأزب الذين بدأ تكونهم في القرن الخامس) . إنها أحداث تاريخية لا يفهمها إلا من أوتي عقل دكتور فيلسوف .

ولكى يتضح الموقف وضوحاً كاملاً للدكتور نقول له إن أهل وادى ميزاب لم يكونوا في أى يوم في دور ستر، وأن يعقوب بن أفلق لم يعرف هذا الدور ولم يعلن عنه. وإنما كان بنو ميزاب كما كان غيرهم من الشعوب الإسلامية في فترات كثيرة من التاريخ في حالة كتمان، وقد خرج بنو ميزاب والشعوب الإسلامية كلها من سيطرة الحكم الأجنبي وجعل الله الدول القائمة عليها عاملة بالإسلام فلا يبقى للشعوب الإسلامية جميعاً إلا حالة الظهور التي يعز فيها الإسلام وتعز فيه شعوبه .

٧ - بعد الفقرات السابقة أراد الدكتور أن يتحدث عن نظام العزابة فركض وراء الخيال والأوهام ، ومزج بين ما يسمعه عن أدوار الستر عند الشيعة بما يسمعه عن أسرار وتحكم الكنيسة ، وخرج من ذلك بصورتها مسوخة جعلها لنظام العزابة . أجزاء تلك الصور هي : أدوار الستر ، التوحيد والاعتزال ، العزوبة وعدم الزواج ، جباية الأموال ، الاعتراف والفران ، ولا شك أن القارئ الكريم يلحظ بوضوح ألوان الكنيسة وأصابع

المستشرقين التي تغزل هذه الخيوط . والدكتور نفسه أجالنا في آخر الفصل على المستشرق الذي غزل خيوط هذا الفصل ، وكل ما قام به الدكتور من مجهود هو أنه سافر من الشرق إلى الغرب ليأخذ عن الغرب صورة لمكان في الشرق ليعرضه بمنظار الغرب في الشرق ، ولم يخطر له أن يصوره من مكانه القريب في الشرق لأن آلة الدكتور غربية ولا تسجل الصور إلا إذا وُجّهت من الغرب .

ويسرني في ختام هذا الفصل أن يعرف القارئ الكريم أن نظام العزابة نظام تربيوي همل لا سر فيه ولا أعمار ، ولا يجبي الأموال ، ولا يفقر الذنوب ، ولا يعزل الناس ، ولا يشترط العزوبية ، وليست له فترة محدودة ولا هو مسلك من مسالك الدين فهو كما يكون في حالة الكتمان يسكون في حالة الشراء ، وفي حالة الدفاع ، وفي حالة الظهور .

وبنو ميزاب الآن وهم في حالة ظهور والحمد لله بعد استقلال الجزائر لا يزالون يحتفظون بنظام العزابة ، ولعل أهم نشاطاته في عهد المظهر هو محاربة المعصية والقضاء على أسباب الرذيلة بمختلف أشكالها ، بالإضافة إلى القيام بمهام المسجد عموماً وبشئون التعليم الديني ، وحفظ القرآن الكريم . ومن يزعم اليوم أن بني ميزاب يملكون في هذا العهد بدور سر أوستر كما يفهم الدكتور هو يدي ، أو هم في حالة كتمان ، فهو أحد رجاين : إما أنه رجل مجمل عما يتحدث ، وإما أن يكون رجل سوء يضمم الشر ببني ميزاب ، ويبغى أن يحطم المشاريع الضخمة الذاتية التي تقوم بها فيحاول أن يوهم الدولة الجزائرية اليقظة بأن هذا القسم من أبناء الشعب الجزائري البطل ، له ظاهر وباطن . ولن يكون مثل هذا الرجل إلا جرثومة فساد يعمل لهدم الجزائر كلها بتهديم أجزائها .

ملاحظة :

من حق الدكتور هويدى عايننا أن نذكر للقارئ الكريم أن الشعب
الجزائرى - بما فيه بنو مصعب - كان تحت الاستعمار الفرنسى حينما ألف
الدكتور هويدى كتابه عن فلسفة الإسلام فى شمال إفريقيا ، فبنو ميزاب
كانوا - حينئذ - فى حالة الكتمان كما كانت الجزائر كلها ، ورغم أن بنى ميزاب
تربطهم بفرنسا فى ذلك الحين معاهدة حماية فهم أيضاً فى حالة كتمان لأنه
يفرض الحماية الأجنبية على أى شعب مسلم يسقط الظهور ، وليس هناك حال
وسط يجتمع فيها الظهور مع أى نوع من أنواع السيطرة ولو كانت اسمية .

وقفه مع الأستاذ الكعك

سنة قال الأستاذ عثمان الكعك في كتابه القيم « موجز التاريخ العام للجزائر » صفحة ٢٠٦ ما يلي :

« أى حظ يكون للأدب العربى فى بلاد سكانها بربر وملوكها عجم .
عبارة براقة تسهوى القارىء لأول مرة ويراها حقيقة جديدة بالتصديق ،
ويؤكدها فى نظر الباحث أنه بالفعل لا يجد عند الإباضية - سواء فى عهد الدولة
الرستمية أو فيما بعدها - ما ينشده من الأدب .

فلا مقطوعات فى وصف الخمر ولا مطولات فى مدح الملوك ولا قصص
دعارة تروى عن مجالس السمر .

فلماذا هذا؟ الآن السكان بربر والملوك عجم؟ وهل البربر والعجم
لا يقولون الشعر؟ وهل كانت الثروة الأدبية عند العرب أكثر منها
عند العجم؟ .

لاشك أن اللغة - أية لغة ومنها اللغة العربية - أداة تعبير تكشف عما
يختلج فى النفوس . وقد امتلك ناحية اللغة العربية عجم وبربر فكتبوا بها
الأدب وكتبوا بها الشعر ، وربما كان المستوى الذى بلغه فيها الأعاجم بما
فيهم البربر لا يقل عن المستوى الذى بلغه العرب . والشخص الذى يتكلم
العربية بطلاقة ويكتب بها بسهولة - مهما كان جنسه لا يعجزه أن يقول
بها الشعر إذا وجدت عنده الدوافع النفسية لذلك .

ولكى أؤكد هذه الحقيقة أستطيع أن أقول إن الإباضية قد زاولوا

الشعر واستخدموا اللغة العربية بل وطوعوها في بعض محاولاتهم ، لقد قالوا شعراً جيداً في الحكم ، وقالوا شعراً جيداً في الرثاء ، واستخدموا الشعر في مجال العلم فنظموا المقون الطويلة في الشرعيات أصولاً وفروعاً ، وبلغت الأراجيز عندهم إلى خمسين ألف بيت^(١) ، وبلغت القصائد الأخرى إلى ثلاثمائة بيت ، فهل يرى القارئ الكريم أن الشخص الذي طوع اللغة العربية بهذه المقدرة فنظم بها مئات الأبيات في مادة جافة جادة ومصطلحات محددة معينة يعجزه أن ينظم قصيدة في ميدان الشعر يتغزل فيها بحارية أو يصف فيها عربة سكران إذا وجدت دوافع ذلك في نفسه ، وجرت أحاسيسها في خاطره .

إن الملوك الذين يقول عنهم إنهم عجم ، يقول هو نفسه عن بعضهم إنه فسر القرآن الكريم ، ويقول عن آخر أن له مؤلفات ورسائل هامة ويصف ثالثاً بأنه قال شعراً رائعاً في البصائح والحكم ، ويصف رابعاً بأنه يحب الشعر والأدب وأخبار الماضين . فهؤلاء أربعة من ستة من ملوك الدولة الرستمية الأعاجم . فهل يعجز هذه الطبقة بهذا المستوى أن تقول الشعر أو تكتب في الأدب باللغة العربية إذا وجدت الدوافع في أنفسهم؟ لا أحسب أن شخصاً يصدق أن الأعجمي إذا بلغ علمه بالعربية إلى ما بلغ إليه هؤلاء لا يستطيع أن يقول الشعر ، لا شيء إلا لأنه لم يولد في نجد أو تهامة . والدليل على صحة هذا أن أفصح أحد هؤلاء الأعاجم عندما وجد الدافع في نفسه قال شعراً لا يقل جودة مما قاله غيره من الفحول بشهادة الأستاذ عثمان الكماك نفسه .

ولا شك أن العرب أنفسهم ، العرب الحقيقيين الذين ولدوا في جزيرة

(١) من آخر من نظم في هذا الباب الشيخ الحاج يوسف بن حمو الديجني ، فقد نظم أبواب الفقه في ثمانية وأربعين ألف بيت وهو يبرى إباحي .

العرب، والذين كانت اللغة العربية هي أداة تعبيرهم الوحيدة وبالسليقة لم يكونوا كلهم شعراء ولم يشغل منهم بالأدب إلا عدد يسير، أى أنه لم يشغل منهم بالشعر والأدب إلا أولئك الذين وجدت في أنفسهم الدوافع.

وبناء على هذا فيجب نرى أن عدم ازدهار الأدب والشعر عند الإباضية عموماً، وفي عهد الدولة الرسومية خصوصاً، لم يكن صادراً عن عجزهم عن اللغة العربية لأنهم عجم أو بربر.

بل لعل البربر والعجم من الإباضية كانوا متمكبين من اللغة العربية أكثر من غيرهم، أو على الأقل أكثر من كثير من الذين كتبوا بها ونظموا الشعر. ولذلك فيجب أن نبحث عن أسباب عدم ازدهار الأدب عندهم في غير العجز اللغوي.

لقد قلت لهم حين وجدت عندهم الدوافع وأرادوا أن يقولوا الشعر في الحكم والزهديات والرثاء. قالوا وأجادوا وتركوا في هذا الباب تراثاً قيمياً على مختلف العصور، فهم متمكنون من الأداة التعبيرية التي هي اللغة العربية وليست هي التي تنقصهم - وإن كانوا عجماً وبربراً - بل إننى أستطيع أن أزعم أن لهم في العصر الحاضر في الجزائر مجموعة من الشعراء لا يقل وزنهم عن أمثالهم في البلاد العربية.

والشاعر الجزائري الذى كان يقول منافساً لشوقي في إمارة الشعر
عندما اتفق شعراء العربية على بيعته :

نشأ الأمير مع الأمير منعماً
لين الرياض يغازل الورقاء
ونشأت مقصوص الجناح معذباً
أقضى الحياة مضاضة وشقاء :

لو ذقت من كأس النعيم صبابة لغدوت أحمل للقرىض لواء
إن الحياة على البلاء مصيبة عظمت فيا أرض أباهى الجبناء

بربرى إباضى إذا تحدث باللغة البربرية لم يكن أقل كفاءة فيها من
أبى سهل الفارسى، فما هذا السبب الحقيقى فى فقدان الأدب والشعر عند الدولة
الرستمية خصوصاً وعند الإباضية فى المغرب عموماً؟ .

إن جميع ألوان الثقافة وفنونها لها بيئات لا يمكن أن تعيش إلا فيها
ولها دوافع نفسية لا يمكن أن تنبعث إلا منها، فإذا فقدت البيئة أو فقد
الدافع لم تخرج تلك الثقافة أو ذلك الفن إلى الوجود .

ولإيضاح هذه الفكرة أستطيع أن أضرب مثلاً قريباً يدركه كل
الناس، لقد كان النحت والتصوير من أبرز الفنون التى ازدهرت فى الدول
المتحضرة وقد بلغ فيها الرومان والإغريق شأواً قصر عنه الآخرون . فإلى
أى مدى استطاع العرب أن يبلغوا فى هذا الميدان؟ لقد ازدهرت الحضارة
فى العصر الإسلامى ولا سيما فى عهد الدولتين الأموية والعباسية وبلغت
مرتبة رفيعة فى فن النحت والرسم؟ .. أحسب أن المنصف سوف يجيب بأنه
لا شىء . . . وهذه هى الحقيقة . وأدوات التعبير فى هذين الفنين إنما هى
الإزميل والمطرقة أو الريشة واللون، فهل كانت الدولتان العظيمتان يعوزهما
الحصول على مطرقة وإزميل وقطعة من الجبس أو الحجر؟ أو يعوزهما الحصول
على ريشة ولون وسطح يصلح للرسم . فعجزت عن النحت والتصوير لعدم
وجود الأداة .

إن من يقول مثل هذا الكلام لا شك أنه يغالط البديهيات . والواقع

أن عدم ازدهار النحت والتصوير في الدولتين السابقتين إنما هو انعدام البيئة التي تتطلب النحت ويعيش فيها، وتطلب التصوير ويعيش فيها، ثم عدم وجود الدافع في نفوس الفنانين وعدم إحساسهم به .
ربما أوضح لنا المثال السابق ما نقصده في الحديث .

إن الأدب والشعر بصفة خاصة لم يجد عند الإباضية بيئة صالحة له يعيش فيها ولم يجد دافعاً في نفوس أهله وإحساساً به فلم يكن . ولعل القارئ الكريم يريد أن يعرف صوراً من البيئات التي يعيش فيها الأدب والشعر وأمثلة للدوافع والأحاسيس التي تبعث الشعر من أفواه الشعراء ، فإلى القارئ الكريم ما يلي :

لم يتخذ الملوك العجم كما يقول الأستاذ الكعك في الدولة الرستمية مجالس للسمر يطوف فيها الغلمان بالكؤوس المعتقة ، وتغنى فيها الجوارى بالأصوات الساحرة ، وتتناجى فيها العيون باللغات الصامتة ، وتهتز فيها الخصور والأرداف بالحركات الخليعة الماجنة ، وتبطلق فيها كفا الملك إذا لعبت به الخمرة وأخذته النشوة تنشر الدراهم والدنانير دون حساب ، هذه بيئة صالحة يعيش فيها الأدب والشعر - والدراهم المنتشرة والخمر المعتصرة ، والخصور غير المتزرة دوافع لتجريك الشعر في نفس كل مقلهف إلى المال أو إلى الجمال أو إلى الجريال ، وكل هذه الأشياء لم تكن في تلك الدولة التي ملوكها عجم وشعبها بربر . فلم تكن البيئة ولا الدوافع .

وبيئة أخرى صالحة للأدب والشعر لم تكن عند الإباضية البربر والملوك العجم ، وذلك أن المجتمع الإباضى المتزمت لم يسمح للمرأة الإباضية أن تبطلق خارج يديها . تعترف الماء من النبع أو تجني الثمار من الأجنة ، أو تقطف

الزهور من الحدائق ، أو تنشق النسيم العليل بين الزنابق والورود . فيلتقي بها شاب جميل ظريف يذكر لها أنه أحبها من أول نظرة ، وهام بها من أول خطرة ثم يقول وتقول ويومئ وتومئ وتمخلج وتمحرك وتزابل وتمايل ثم تعادل وتمنع وتنشأ عن ذلك قصة مُحكى ، وأشعار تُروى ، وغزل يستفيض ويحفظ ، هذه بيئة أخرى صالحة للأدب والشعر فيها دوافع للقول لم توجد عند الدولة الرستمية ولا المجتمعات الإباضية فلم يزدهر فيها الأدب ولم ينبع فيها شعر . ولم يسمح المجتمع الإباضى المتزمت للصبية الحسناء أن تنطلق وراء البهم تجرى بها بين مشارف الأجنحة وضفاف الأودية ، فيلتقى بها شاب قوى العضلات واضح التقاسيم برعى قطعاً من الماشية فيلقى إليها بالكلمة الغزلة الرقيقة تستجيب لها أحاسيسها ، ويمنع في الأول حياؤها ثم لا يزال حتى يعزف لها فتستجيب وتجلس إلى جانبه يداعبها الأمل ويربطها الغزل وتفصلها النجوى عن عوالم الناس حتى يستفيض خبرها ويبلغ إلى الأهل فتمنع الفتاة عن الخروج ويبدأ الشعر ينطلق من أصدقهما حباً وأكثرهما لوعة . هذه بيئة ودوافع لم يكونا موجودين في المجتمع الذى وصفه السكك بأنّه أعجمى بربرى لا يستطيع أن يقول الشعر ولا أن يهتم بالأدب .

إن الملوك الذين وصفهم الأستاذ السكك بأنهم أعاجم والدين حكموا الإباضية فى المغرب الإسلامى لم يعخذوا لأنفسهم عروشاً فى قصور محجبة لا يصل إليها عن طريق الحاشية إلا شاكر نعمة حقيقية أو وهمية أو شاعر متكسب يدفع البيت من الشعر بميزانه من الذهب وعلى قدر ما يزداد كذبه على نفسه ويزداد كذبه على الملك الذى يمدحه تزداد قيمة القطعة أو القصيدة الشعرية .

هذه أيضاً بيئة لم تكن ، وإنما كان أولئك الملوك العجم المساكين يجلسون على الحصر في المساجد ويتصلون بالناس جميعاً ، ويتلقون مشاكلهم مشافهة ومباشرة .

وهناك بيئة أخرى أيضاً قد تكون صالحة للشعر ، وقد يكون فيها دوافع لقوله ولكنها أيضاً لم تكن عند هؤلاء الناس فلم يوجد عند الإباضية أوقات من الفراغ يتجمع فيها الناس للهو البريء أو غير البريء يتخلون فيه عن الجد والوقار ساعة من ليل أو نهار ، وتنطلق فيها نفوسهم في عبث مستمر ضاحك لاعب كلعب الأطفال يجد فيه الشعر متنفساً له وتعبيراً عنه .
لهم كانوا أكثر جدية من كل ذلك .

تلك بعض البيئات التي يزدهر فيها الأدب ويعيش . وهي بيئات لم توجد عند الإباضية ، وحين توجد ينبت فيها الأدب ويقوى ويزدهر - وإذا رجعنا إلى تاريخ الإباضية الطويل في المغرب الإسلامي بما فيه العهد الرستمي قد نجد قصائد أو مقطوعات من الشعر الرائع ، إما في وصف الطبيعة وإما في مازحة الإخوان وإما في الحكم والنصائح ، ومعنى هذا أنه حينما وجدت البيئة الصالحة لهذا النوع من الشعر نبت ونما وينتج عن كل هذا أن الأدب العربي وبخاصة الشعر لم يزدهر في الدولة الرستمية وعند الإباضية هموماً ليس لأن سكان بلادهم بربر ، فإن من البربر من قال شعراً لا يقل روعة عما قاله امرؤ القيس والمتنبي وشوقي ونزار . ولا لأن سلوكها عجم ، فإن من العجم من قال شعراً باللغة العربية يمجز عنه أبناء يعرب وقحطان . ولعل الذين اهتموا بالأدب العربي وخدموه خدمة صادقة مثمرة من الأعاجم أكثر ممن خدموه من العرب . ولكن الشعر والأدب لم يزدهرا في الدولة الرستمية

وعند الإباضية عموماً لأنه فقد البيئة الصالحة له والدافع الحقيقي الذي يثيره في نفس الشاعر فيسيل نفثات على لسانه أو قلمه .

ولعل هذه الصورة تشبه من قريب أو من بعيد الحالة التي كان عليها الشعر في عهد الخلافة الرشيدة لاسيما في شطرها الأول .

وهذا لا يمنع أن هناك ألواناً من الأدب قد ازدهرت في تلك الدولة وبلغت شأواً لا يقل عن شأوه في مثيلاتها من الدول العربية ، ذلك هو الأدب الجدى الذي يتمثل في الكتب ، والرسائل ، والمواعظ ، والخطب والنصائح ، وفي المدائح النبوية وقصائد الرثاء والإخوانيات وعلى الأخص الحكم والنصائح .

مع الدكتور أحمد مختار عمر

بعد أن كتبت الفصل السابق وقع في يدي كتاب للدكتور أحمد مختار
هر تحت عنوان : « النشاط الثقافي في ليبيا » تحدث فيه عن الأدب الإباضي
فرايت أنه يقرر ما أشرت إليه في الفصل السابق استناداً إلى دراسات أجراها
فأحببت أن يطالع القارئ على بعضه ، فقد جاء فيه في صفحة ١٧٧ ما يلي :

« يدخل تحت هذا العنوان (الأدب) نوعان من المادة ، أولهما : الإنتاج
الأدبي من شعر ونثر ، وثانيهما : الدراسات المتعلقة بتاريخ الأدب وتوجيهه
ونقده .

أما الإنتاج الأدبي فقد كان وفيراً سواء في مادته الشعرية أو النثرية
وإن كانت في حدود للمادة التي وصلت لها - أصغر حجماً وأقل جودة من
نظائره في بعض البلدان العربية الأخرى - ونقول في حدود المادة التي وصلت لها -
لأن هناك أخباراً وأسماء وإشارات يتناقها المؤلفون ، وتحويها بطون كتب
الأدب تؤكد وجود مادة أخرى كثيرة ضاع بعضها ، وطمر بعضها الآخر
داخل خزائن السكب والمخطوطات .

وحتى نبتعد عن التعميمات ما أمكن . رأينا أن نفصل الإنتاج الأدبي
للإباضيين عن غيره لما للأول من سيماء خاصة تميزه ، ولهذا قسمنا البحث إلى
قسمين رئيسيين وهما :

١ . الأدب في ظل الإباضيين .

٢ - الأدب في سائر أنحاء ليبيا .

ويقول في صفحة ١٧٨ ما يلي :

« أما النثر بنوعيه ، والشعر عند الإباضيين فسنتناول كلا منه في جملة واحدة . نظراً لندرة المادة التي تحت أيدينا وعدم إسماع المراجع لنا بقدر يسمح بالتحليل والتتبع التاريخي والمقارنة واستخلاص النتائج » .

ويقول في نفس الصفحة :

« الأدب في ظل الإباضيين : معلوماتنا عن هذا الأدب جد ضئيلة لقلة المراجع التي حفظت نماذج منه من ناحية ، ولصعوبة الحصول على كثير من هذه المراجع من ناحية ثانية ، وبعدم اعتناء الإباضيين بوجه عام بتسجيل أدبهم من ناحية ثالثة - فيما عدا ما له غرض ديني أو سياسي أو تعليمي . ومع ذلك يمكننا أن نقول إن جانب النثر عند الإباضيين قد فاق جانب الشعر، وإنه جاء إلينا في شكل خطب أو وصايا أو رسائل ديوانية أو أقاصيص تعليمية أو حكم أو أجوبة » .

وقد أورد المؤلف أمثلة للنثر ما يلي :

- ١ - خطبة أبي الخطاب الماعزى في أهالى طرابلس يحثهم على الجهاد .
- ٢ - خطبة من الخطب الجمعية في الدولة الرستمية .
- ٣ - وصية السمح عامل الإمام عقيد الوهاب حين حضرته الوفاة .
- ٤ - وصية الجدة ثابر كانت للزبابة .
- ٥ - وصية أبي محمد اللواتى لقومه .
- ٦ - رسالة أبي منصور إلياس إلى أبي العباس بن طولون .
- ٧ - رسالة الإمام أفلح إلى نفاث بن نصر .
- ٨ - رسالة الإمام عقيد الوهاب إلى أهل طرابلس .
- ٩ - قصة أماني النسوة الثلاث .
- ١٠ - حكم لأبي عقيد الله محمد بن بكر .

١١ - نصيحة أبي إسحاق الأشارني .

١٢ - نصيحة أبي الخير ثوزين الزواغي .

وبعد أن أورد النصوص السابقة علق عليها بما يراه ، ثم انتقل إلى الحديث عن الشعر فقال في صفحة ١٨٨ ما يلي :

« على الرغم من قلة ما تحت أيدينا من الشعر الإباضي فإن الشواهد تدل على أنه كان هناك شعراء إباضيون كبار ، وأنه كان من حكام الإباضية من يتذوقون الشعر ويمجازون عليه ، وأن هناك من الشعراء الأجانب من قصدوهم طلباً للمطاء ، وقد ظهر ذلك وبشكل واضح تحت حكم الدولة الرسومية التي عرف عنها احتضانها للعلم وتشجيعها للأدب ، وعرف عن حكامها الشغف بالبحث والاطلاع والتأليف . ومن الشعر الإباضي الذي وصلنا ما يلي :

١ - قصيدة للإمام أفلح وتشطير للشيخ علي بن أحمد العماني لها .

٢ - قصيدة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم في رثاء أبي سليمان أيوب

ابن إسماعيل .

٣ - نماذج كثيرة من شعر أبي نصر ونثره .

٤ - نموذج من شعر أبي طاهر إسماعيل الجليطالي .

٥ - نموذج من شعر أبي عبد الله محمد بن زكرياء الباروني .

وقد ناقش كل نص من النصوص السابقة ونقده وعلق عليه ، وبما جاء عن النص الأول: « أما قصيدة الإمام أفلح فمكشّف عن شاعرية صاحبها ، وإن كان يغلب عليها الطابع التقريري الوعظي . » فعلى الرغم من هدفه التهذيبي التعلمي ، فقد وضع في صورة خيالية معبرة ، جعلته يقف على

قدم المساواة مع أبيات الحكمة المشهورة عند العرب ويدانيه في الجودة قوله :

ولا تكن جامعاً للصحف تخزنها كالعير يحمل بين العير أسفاراً»

ومما جاء عن النص الثاني: « وأما قصيدة أبي يعقوب يوسف بن إبراهيم في الرثاء فهي أقرب إلى الشعر الخالص من كثير من المماذج الشعرية التي عثرنا عليها» .

وقال عن النص الثالث : « وأما أبيات أبي نصر فتح بن نوح فلعلها - في معظمها - أقرب ما وصلنا من شعر الإباضية إلى روح الشعر وجوهره» . «ورغم أن بقية ما وصلنا من شعره في المواعظ والحكم فأنت تحس أثناء قراءته بقوة عارضة الشاعر وحسن اختياره لألفاظه وتحس في بعضها بعاطفة صادقة وشاعرية متدفقة» . « فيه إلى جانب ذلك حديث صريح عن مفهوم الشعر عند الإباضية وصفات الفخر عندهم وهي :

الشغف بطلب العلم ، وملازمة الأخيار ، وعدم الركون إلى اللذات ، أو المشاركة في مغامرات الصها وهو الشجاف » .

ويقول عن النص الرابع ص ٢٠٥ ما يلي : «وأما أبيات الجيطالي الثلاثة فهي من أبيات الحكمة العادية وهي تعالج موضوعات أكثر الشعراء والحكام في معالجته . ولا أظن أن هناك جديداً في هذه الأبيات يستحق الوقوف عنده» .

ويقول عن النص الخامس في صفحة ٢٠٥ ما يلي :

« وأما قصيدة الباروني فتعد في جزئها الأول ١٤ بيتاً أقرب إلى الشعر منها إلى النظم ، أما سائر الأبيات فأقرب إلى منظومات العلوم وإن لم تخل

من عاطفة في بعض الأحيان . وتعد الأبيات الأربعة عشرة الأولى ذات أهمية خاصة لأنها تكشف في وضوح عن موقف الإباضية من الشعر وعدم ترحيبهم إلا بالنوع الجاد منه الذي يحقق غاية أو يخدم هدفاً وهي تنحى باللائمة على الشعراء الذين قضوا شبابهم في اللهو واللعب ومعاقرة الخمر وملاحقة النساء ، وتعرض بالشعراء المجان ، وتهاجم أولئك الذين أفنوا همهم في الجري وراء حبهم وأولئك المداحين للمتكسبين بالشعر أو الهجائين المقذعين ، كما تهاجم أولئك الذين اشتهروا بالفخر بأنسابهم وقبائلهم لأن موضع الفخر الحقيقي هو العمل الصالح والانتماء إلى أهل الدين والصواب ولعل هذه الأبيات تكشف لنا عن حقيقة هامة هي :

إنه لا مكان لمعظم أغراض الشعر عند الإباضيين وإنهم لم يكونوا يرتاحون للأغراض التي يجيد فيها الشعراء عادة مثل الغزل والفخر والهجاء والمدح . ووصف مجالس الخمر ورحلات الصيد ، وإن معظم شعرهم كان من النوع الديني وشعر الحكمة بالإضافة إلى بعض الموضوعات التي لا تخدش تقاليدهم مثل الرثاء والحرب والوصف والفخر بالعمل الصالح والإخلاص في العقيدة .

ويقول في صفحة ٢٠٨ ما يلي :

« إن الشعر الإباضي لم يتيح له فرصة الهوض ، ولم يهيأ له الجو المناسب ليزدهر ، كما يبدو من ناحية أخرى أن اهتمام الإباضيين بتسجيل شعر شعرائهم وروايتهم ، وحفظه كان ضئيلاً للغاية حتى تسبب في فقد كثير من نماذجهم وعبثت الأيام به . »

بنو مصعب والغربة

إن بنى مصعب - في العهد الثالث من تاريخهم الإسلامى - بدأوا يخرجون من القوقعة ، ويخرقون السياج الذى ضربته الطبيعة حولهم من جبال حاصرة مانعة ثم ينطلقون إلى الأنحاء المختلفة من القطر الجزائرى يحترفون العجارة .

كان انطلاقهم فى مبدأ الأمر على نطاق ضيق - يشبه أن يكون تلساً لمنفذ ، واستطلاعاً لجهول - وكان يتم على سبيل الطموح الفردى - والتجربة الشخصية . فنجحت التجربة فى الميدان الاقتصادى نجاحاً باهراً بالنسبة إليهم . وبالنسبة للحركة الاقتصادية العامة للجزائر ، وبالنسبة للدولة التركية الحاكمة فى ذلك الحين ، لأن مداخيلها ازدادت بنسبة ملحوظة .

وأصبح مع الأيام - كل الشباب الصمبى يتطلع إلى اليوم الذى يفارق فيه المسحاة والدلو والمنجل . ويغادر هذا المجتمع الذى يرى أنه يحيا فيه حياة رتيبة مكررة يومية . إلى بلاد (القل) كما يسمونها ليعود بعد سنوات من الغربة منتفخ الجيوب بما كسبه من همله فى التجارة خارج وطنه ، فيجد مواطنيه قد التفوا حوله يعاملونه بكل تكريم واحترام وإعزاز .

ترمقه عيونهم بالإعجاب ، وتصفى إليه آذانهم متشوقة إلى سماع قصة مغامرته الفاجحة . وتهفوا إليه قلوبهم بالحببة والعطف والشوق .

وعندما تزايدت هذه الرغبة الجامحة فى الانطلاق خارج الوطن ، وأصبح شباب كل قرية يتنافسون عليها ، ويقسلون من البلاد باستمرار فصارَت الأيدى القوية الأمانة تنتصر يوماً عن يوم فى الوطن بمقدار ما:

تزايد في غيره . نفشى المفكرون والمصلحون أن ينتج عن ذلك عدد من المضار والمشاكل تلحق بالوطن نفسه . فسارعوا إلى دراسة الموضوع بجملة ، وإلى التعرف على المشاكل المتوقعة التي سوف تنجم عن هذه الحركة فأتخذوا لها الحلول المناسبة قبل أن تخرج من أيديهم ، فاستعصم عليهم فلا يستطيعون وقفها ، ولا الحد من آثارها .

ولعلنا نستطيع أن نعرض بعض تلك التخوفات أو المشاكل التي كانوا يخافون منها على وطنهم وأمتهم ودينهم إذا هم أطلقوا الحبل على الغارب وسمحوا لكل راغب في الهجرة أن يهاجر ، وتركوا موضوع الاغتراب من أجل الاكتساب هكذا دون قيد أو شرط ودون رعاية أو تنظيم فيما يلي :

١ - الانحراف بسبب الفشل :

من الناس من يحمله الطموح فيفترب وينجح ، ومنهم من يحمله الطموح ويتوقع الربح الوفير بالعمل السهل فينخفق ويعز عليه أن يعود إلى وطنه بدون مال ، فيحمله الفشل على الانحراف عن الاكتساب الشريف إلى الاكتساب غير الشريف . وبذلك يكون نكبة على البلاد التي هاجر إليها ويعيش فيها كما يكون نكبة أيضاً على بلده الذي سافر منه ، ويصبح وصمة عار على سمعة وطنه النقية .

٢ - الاغتراب تهرباً من العمل :

من الناس من يمل أعمال الزراعة الشاقة ، ويضيق من شظف العيش ومن حياة التقشف التي يحياها في وطنه . فيسعى لأن يتخلص من زراعته بأي طريقة ، ثم يأخذ ما تحصل لديه وينطلق إلى مدينة من تلك المدن في (التل)

وليس هؤلاء مؤهلين - طبيعياً - لممارسة التجارة فيفضل بعضهم ويضيع منهم ما جمعه ثم يضطرون إلى العودة وهم يجرون أذيال الخيبة معهم ، فيجدون بالإضافة إلى الصدمة النفسية - أن ما كانوا يعتمدون عليه من زراعة قد انتقل إلى أيدي أخرى حين باعوه أو سلموه لغيرهم ، وقد يجدونه في انتظارهم ولكن عوامل الإهمال في مدة الغربة قد أثرت عليه بحيث أصبح محتاجاً إلى نفقات تفوق ما يغلده لعدة سنوات . وهكذا تصبح مشكلة أولئك الناس بعد رجوعهم من تجربتهم الفاشلة تساوى مشكلاتهم في ديار الغربة وقد تفوقها .

٣ - استيطان بلاد الغربة طلباً لرعاية العيش :

قد تروق الحياة في ديار الغربة لمن نبحت أهمالهم فيها ، فيتخذون الإقامة الدائمة ويهجرون وطنهم بالتدريج ، ويكثر عدد هذا النوع من الناس حتى يصبح الاغتراب - ثم اتخاذ وسائل الإقامة ثم الإقامة - كأنها معاول تخريب للوطن ولن يمضي على تلك الحال وقت طويل حتى يصبح وطنهم خيراً من أخبار التاريخ ، أو قصة من قصص الأسفار . كما وقع بالفعل لبلدان كثيرة وأقرب مثل على ذلك مدينة « سدراتة » .

٤ - تناقص الإنتاج بنقصان اليد العاملة :

لا شك أن الإنتاج في الوطن ولا سيما الزراعي منه ينقص بمقدار الأيدي القوية العاملة التي تتخلى عنه وإذا سمح لكل يد عاملة بالهجرة فإنه يأتي يوم لا يوجد فيه عامل ، وذلك معنى من معاني الخراب .

٥ - الانحلال الديني والخلقي :

أسباب ارتكاب المعصية - بتسميها : الفعل والتركي - وأسباب

الانحلال الخلقى ميسورة ومعروفة في المدن أكثر مما هي في الأرياف . فإذا
ترك الشباب نفسه بين مفريات الحياة تورط في كثير من اللذائل . واستسهل
ارتكاب بعض المعاصي . وربما اعتادها أو اعتاد بعضها فأصبح لا يستطيع
أن يتغلب عنها كما يقع لمن يتورط في شرب الدخان أو شرب الخمر ،
أو مزاولة القمار أو غيرها .

وقد عولجت جميع التخوفات والمشاكل السابقة بنوعين من التنظيم
أولهما بمثابة العلاج الوقائي . الغرض منه الحيولة دون وقوع ما يخاف منه ودون
حدوث المشكلة أو المشاكل المتوقعة . وثانيهما بمثابة العلاج بالدواء والغرض منه
المبادرة بالحل المقبول لأول بادرة تظهر من متخوف منه أو مشكلة واقعة .
أو حسم المشكلة مهما كان حجمها .

وسوف نحاول فيما يلي أن نعرض كل واحدة منهما بإيجاز فيما يلي :

(١) خلايا النحل :

لا شك أن القارئ الكريم يستغرب هذا العنوان في هذا الموضوع
من الكتاب وله الحق في ذلك . فنحن هنا لا نتحدث عن النحل ولا عسل
النحل ، وإنما نتحدث عن البشر . ولكنني وجدت مشابهة ظاهرة بين
خلايا النحل وما سأحدث عنه فاستعرت العنوان .

أقصد بخلايا النحل في هذا المقام تلك المتاجر التي تعج بالحركة في أوقات
الحركة وبالهدوء في أوقات الهدوء حسب تنظيم دقيق ، والتي يوجد في كل
متجر منها عدد من العمال يسمونهم (صناعاً) يشرف عليه عدد من أرباب
العمل تحت رئاسة واحد منهم قد يكون أكبرهم سناً ولكنه لا بد أن يكون

أكثرهم خبرة وأقدمهم في ميدان العمل وفي إدارة المتجر وأعلمهم بتقلبات
أحوال الاقتصاد في البلد والعالم .

هذا المتجر الذي تتحرك فيه مجموعة بشرية بنظام دقيق وقيادة واعية .
قد روعى أن يكون فيه جميع ما ينبغي لهذه المجموعة البشرية ليحفظ عليها
دينها ودنياها . وليصلح بها وطنها : العام والخاص . فهو في الحقيقة خلية
بشرية تجمع فيها المال والدين والخلق وقد حرص مصممها أن يحددوا
لأفرادها مراتع المال ومراتع الدين ومراتع الخلق .

لقد راعى بنو مصعب أن تكون متاجرهم ومصانعهم في كل مدينة
من مدن الجزائر وغيرها - خارج بلادهم - خلية من هذا النوع ومن مجموع
الخلايا أو المتاجر في المدينة الواحدة يتكون المغتربون الليزابيون في ذلك
البلاد ؛ يربط بينهم جميعاً تنظيم عملي يشرف عليه (كبار الحرفة) ومسجد
يؤدون فيه الصلاة في ثلاثة أوقات على الأقل وهي صلاة العصر وصلاة العشاء
وصلاة الفجر ويعقب هذه الصلوات أو بعضها في أحيان كثيرة دروس
أو مواظب أو نصائح وإرشادات .

وقاعة فسيحة للمداولة في مهمات القضايا .

وقد بنوا خلاياهم تلك أو متاجرهم ومصانعهم على الأسس الآتية :

✦ بناء التجارة والصناعة على المشاركة حتى يكون لسكل محل ولسكل
خلية عدد من المالكين . ذلك يسهل عليهم أن يتناوبوا الإشراف عليها
حتى يسهل على كل منهم أن يأخذ وقتاً كافياً للاستقرار في الوطن ، ففي
الوقت الذي يشرف فيه بعض التجار على أعمالهم في التل تقاح الفرصة لشريكه

أو شركائه أن يكونوا في إجازة يستقمتون بها في وطنهم ويشرفون فيها على أعمالهم في الوطن، ويتخذون لها من التجهيزات ما يكفي لسيرها فترة أخرى من الزمن . على أن الفرص التي تتاح لهؤلاء الشركاء تطول أو تقصر بحسب ضخامة الأعمال وعدد الشركاء .

* الاستكثار من الصناع بحيث يكون في كل خلية (محل تجارى أو صناعى) فائض عن عدد العمال المحتاج إليه فعلا ، وذلك ليقممكن المحل من الاستغناء عن بعضهم في فترات من السنة حتى يستطيع بعض أولئك العمال أن يقضى إجازة في بلده ، وأغلب هؤلاء الصناع يكونون من الشباب الصغير وفيهم غير المتزوجين وبعضهم دون المراهقة فهم يحتاجون إلى إجازات قصيرة ولكنها متقاربة لإطفاء شوقهم وشوق أسرهم إليهم ومساعدة أسرهم في أعمالهم أثناء إجازاتهم القصيرة ثم يعودون لمزاولة أعمالهم في نشاطهم التجارى وهم أكثر حيوية وأشد إقبالا عليها، ومن كانت لهم دراسة منهم فهو يعود ليستمر في دراسته .

* يحرص أغلب أصحاب المتاجر أن يصطحبوا معهم أطفالهم أو أطفال غيرهم -- عندما يكونون غير مرتبطين بالدراسة -- إلى متاجرهم في ديار الغربية وهم يقصدون بذلك -- بالإضافة إلى تغيير رتبة الحياة عن أولئك الأطفال -- إلى تدريبهم على الأعمال التجارية وتنمية ملكة الاقتصاد فهم ، وتعويدهم على حياة المغامرة ، والحياة في الغربية . وعلى الاعتماد على النفس في الحصول على مطالب الحياة وأهم من كل ذلك تكوين جيل واع يحلف الجيل الذى سبقه في إدارة الأعمال . وقل أن تجد مصعبياً واحداً في أى مجال من مجالات الحياة لم يزاوِل العمل في التجارة في مرحلة من

مزاياهم همرة ، ولو كان ذلك في السنوات الوسطى من طفولته ، وهو أثناء عمله في التجارة لا بد أن يتلقى أجراً عن عمله فيها حسبما يقدره (جماعة الحرفة) كما يقدرون أجور العمال المستقدمين للكبار .

وبذلك تسلسل في أجيالهم حب التجارة والمغامرة فيها ، وأصبحت الغربة عندهم لازماً من لوازم الحياة لا تستقيم الحياة بدونها ، ولا يمكن أن يتسكون الرجل على النمط الذي يريدونه لأجيالهم إلا إذا أخذ قسطه من حياة الاغتراب وجرب قدرته على الحركة في إطار أوسع من إطار بلد واحد ضيق محدود ، وبهذا الأسلوب من التربية العملية الموجهة المنظمة ، فإن الحياة لا تضيق على ميزابى وإنه كفيلا أن يشق طريقاً لحياة شريفة ونظيفة ثم مريحة .

(ب) النقابات المهنية :

وهو التنظيم الذى وضعوه ليضمن لهم نجاح المغتربين في أعمالهم بتهيئة ظروف مناسبة تساعد على المحافظة على الدين وعلى الاحتفاظ بالخلق التويم ، وعلى تنظيم عملية الاغتراب تنظيمياً يكفل للشعب مكاسبه ويجنبه المشاكل والأضرار .

هذا التنظيم الذى وضعت له (عنوان النقابات المهنية) في هذا الفصل لم يكن في واقعه نقابات ، فإن ذلك العهد لم يعرف بعد نظام النقابات .

ولكن بنى مصعب حين اضطر أبناؤهم أن ينطلقوا خارج بلادهم - بأعداد وافرة - خشوا عليهم من الضياع في زحمة الحياة وحرصوا أن يكون لهم في كل بلد فيه جالية من بنى مصعب - هيئة من أهل الخبرة والرأى والصلاح تشرف على أحوال الجالية من جميع نواحيها .

ولعل أسعاذنا الشيخ باكلى عبد الرحمن حفظه الله ورعاه أعرف
بالموضوع وأدق تعبيراً . فإلى القارئ الكريم ما قاله فى إحدى إجاباته عن
أستلتى فى الموضوع . قال :

« وللأخذ بتلايب هذه الحركة الواسعة كونوا فى المراكز الرئيسية
بجامعة أو جامعة تدعى (جماعة الحرفة) لها الكلمة المسموعة لدى السلطة
الحاكمة هى أشبه بالنقابة اليوم . تفض المشاكل التى تقع بين العمال
ومستخدميهم ، تقدر الأجور ، توجد العمل للعاطلين ، ترجع المستضعفين
الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا إلى وطنهم ، وقد بلغ بها الأمر
أحيانا أن تطرد الكسالى المتسكعين المهتمكين الذين يسودون وجه الأمة
على يد السلطة التى لا تتردد فى تسويق ما ارتأتها صالحا بهم .

اتخذوا لهم فى كل بلدة معتبر كمركز للحركة الاقتصادية من البلدان
التي يكثر عليها توارد التجار الميزابيين إما داراً لنزول المسافرين الميزابيين
من الإباضية مجانا يطلق عليها « دار العرش » وفيها قاعة للصلاة ومجهزة
بالمرافق ووسائل الطهارة وعليها قيم وطباخ فى آن واحد يغنيهم فى أكلهم
عن الاحتياج إلى الخارج . وإما مسجداً للصلاة وربما كان فى عمارة ذات
شقق لنزول المسافرين الميزابيين من الإباضية ، ومقبرة لدفن موتاهم (محصنة
ومحروسة) فيها مكان فسيح لاجتماعاتهم العامة ، لاسيما فى الأعياد والمواسم ،
ولقد أضافوا إلى كل ذلك فى هذا العهد الأخير مدرسة بكل بلدة تكثر
فيها ناشئتهم . ولو ذهبنا نعد المساجد وديار العرش والمقابر والمدارس التى
أنشأوها لبلغت العشرات ، على أنهم لم يقتصروا على الجزائر بل أبعثوا
البعثة إلى القطر التونسي فكان لهم فيها مثل هذا النظام . وإلى المغرب
وحتى إلى فرنسا .

إذ نشطت فيها حركة التجار الميزابيين فأنشأوا مراكز تجارية معتبرة ،
بله أفواج العاملين منهم في شتى الميادين الاقتصادية وسوف لا يلبثون
- إن شاء الله - أن يتخذوا لهم في المغرب وفي فرنسا^(١) دياراً على غرار ما لهم
في الجزائر وتونس . وما ذلك على همهم ببعيد . بل ذهبوا إلى أبعد من
ذلك إلى الأماكن المقدسة كجدة ، ومكة ، ومنى ، والمدينة ، فكان لهم
في كل منها دار رحبة تسع المئات ، تأوى حجيجهم ، فلا يتعرضون للإهمال
والإهانة كما يتعرض كثير غيرهم في مواسم الحج ، تامة المرافق التي تيسر
العبادة وتضمن الراحة .

ولقد أكرم جيرانهم فيهم هذه الهمة العالية والنظام المحكم الذي
أكسبهم - بل أكسب الجزائر جمعاء - إعجاب الطوائف الإسلامية بأسرها .
وما كانوا يستطيعون بلوغ هذه الأهداف لولا تعاونهم وتضامنهم وبذل
محسنيهم بسخاء في هذه الميادين المشرفة . اللهم اللهم الأمة المحافظة على دينها
ووحدتها وشرفها .

هذا وقد كان للإباضيين في عاصمة الجزائر - على الأخص - التي أخذوا
يهاجرون إليها أول الأمر للاكتساب والاحتراف مكانة لا تنكر ، ونظراً
لمكانتهم في عين الدولة التركية فقد خيرتهم^(٢) في المهن التي يودون احترافها

(١) لقد تحققت هذه الأمنية فأصبحت لهم في باريس دار رحبة فيها قاعة فسيحة للصلاة
والاجتماعات وعدد من الغرف لتزول الأضياف بجهزة جميعا بكل المرافق .

(٢) عندما نسفروا برج (بوليلة) الذي أقامه الإسبان لضرب مدينة الجزائر أراد الداي
أو الوالي مكافأتهم على عملهم البطولي فخيرهم في المهن التي يرغبون أن تكون لهم بالأولوية
فطلبوا منه استمرار تأمين تجارتهم حسب المعاهدة التي بينهم وطلبوا احتسار فصافة الجزائر
لهم وأولوية لإنشاء الحمامات . راجع ان شئت زيادة في التفصيل فصل « الإباضية والجهاد
في سبيل الله » .

فاختاروا أسلمها تبعة وإن كان لها خطرهما في نظر الدين كالتصايبه مثلاً،
لهذا أعطى لهم امتياز مذبحه اله صمة يشرفون عليها ويقولون هم تعيين الذباحين
فيها ورفض من لا يليق منهم لذلك ودام لهم هذا الامتياز إلى عهدنا
الأخير .

(ج) تحديد مجالات العمل :

كان من أهم نقاط التنظيم الحرفي الذي اتبعه بنو مصعب في توجيه
أبنائهم في بلاد الغربية هو تحديد مجالات العمل ، فلم يسمحوا للإباضي
المغرب أن يزاوول في ديار الغربية هملا يدر عليه كسباً كيفما كان ، وإنما
حددوا مجالات العمل بناء على فلسفة انبى عليها كل تخطيطهم لحياتهم في
ديار الغربية فحرصوا أن تكون تلك المجالات مما يقيس فيه العمل الجماعي ، أى
أنه يقوم على تعاون مجموعة من الناس تسيرهم أنظمة ثابتة ، وبأن تتوفر في ذلك
المجال صورة للبيئة التي كانوا يعيشون عليها في بلدانهم وأن تكون تحت
الإشراف المستديم . وأن تكون بعيدة عن تناول ما يحرم ، وأن تكون
من طبيعتها تدعو إلى التجمع والتكامل ، وأن تكون مما يقيس فيه تنظيم
الوقت . فحددوا العمل عندهم في ثلاث مجالات : التجارة بالدرجة الأولى ثم
الصناعة ثم الحمامات ، واحتمكروا لأنفسهم التصايبه المركزية في الجزائر اله صمة .
ولم يسمحوا لأبنائهم بالعمل في الزراعة خارج وطنهم سواء أكانت بامتلاك
المزارع أو بالعمل عند المزارعين أو المعمرين ، ولم يسمحوا لهم أيضاً أن
يقوموا بالأعمال البدنية في المنشآت أو الموانى أو غير ذلك من المجالات
الكثيرة التي يجد فيها الأفراد مجالاً للكسب ونظرتهم في هذا - رغم سوء
فهم بعض الناس لها واعتقادهم أن الإباضية يحقرون أنواعاً من العمل
البدنى - لأهم يحرسون بالدرجة الأولى على دينهم وبالدرجة الثانية على

وطنهم ، ولا يسمحون أبداً لأى فرد أو أى عمل أن يؤثر على أحدهما ولو أطلق العنان للناس يشتغلون كما يشاءون - وأنى يجدون العمل - لصعب الاتصال بهم وتجميعهم فانقرط عقدهم وتورطوا فى سلوك يبعدهم عن أوطانهم فهجروها . ولو سُمح - لاسيما لأغنيائهم - بالاشتغال بالزراعة لاسمطاعوا أن يملكوا خارج بلادهم وينجحوا فى ذلك ثم ينتقلون إليها ويكون ذلك من أسباب القضاء على وطنهم . وهكذا استعرضوا جميع مجالات العمل فلم يجدوا فى تلك المجالات كلها ما يوافقهم غير تلك المجالات التى يستطيعون أن يُكُونُوا فيها خلايا خاضعة للتنظيم فيوجه الشاب منهم إلى العجارة ، فإذا حال دون ذلك أسباب وجه إلى الصناعة فإذا حال دون ذلك حائل - وهذا الحائل لا يكون إلا من قبل الشخص نفسه بأن كان مستواه الفكرى لا يساعده على احتراف التجارة والصناعة ويكون ممن ليس له مورد كاف فى وطنه - فيوجه إلى العمل فى حمام وذلك لأن الحمام لا يحتاج إلا إلى صحة وطاعة وانضباط . والحمام نفسه يسير بنظام دور التجارة أى أنه على نمط الخلايا فى التجارة أو الصناعة . يتعاون فيه على العمل مجموعة من الناس منهم شركاء يعاقبون على إدارة المحل ، ومنهم همال يقنابون القيام بأعماله ومهامه . ويقوم كل حمام مقام متجر كبير يحتوى على عدد من الصناع . فهو لا يختلف من وجهة نظرهم عن المتجر أو المصنع إلا فى التوقيت .

أما الحصول على امتياز قصابة الجزائر أو احتكارهم لها دون غيرهم فالدافع إليها دافع دينى محض . فهم قد لاحظوا أن بعض القصابين لا يحسنون الذبح أو هم يستخفون بعملية الذبح فخشوا أن يُطعموا عن غير قصد ما حرم الله بسبب سوء الذكاة ، فطلبوا احتكارهم لها وتم لهم ذلك ، وهم لا يتولون بيع اللحوم وإنما كل ما لديهم هو الإشراف على المركز الرئيسى وتسييره

وإسناد عملية الذبح لمن يحسنها منهم أو من غيرهم . وتعتبر هذه المجموعة من الناس أيضاً خلية كخلايا التجارة والصناعة والحمامات تتوفر فيها جميع الشروط المطلوبة لهم مما أشرنا إليه من قبل .

(د) ملء الفراغ :

يخاف بنو مصعب على أبنائهم من الفراغ أكثر مما يخافون من أي شيء آخر ولذلك فقد كانوا يحرصون أن يملأوا أوقات أبنائهم بتنظيمات يسلم بعضها إلى بعض . وأي فراغ من أحدهم يعنى إحلالاً بالحدى تلك التنظيمات . وتبدأ تنظيماتهم بوجوب الإتيان بقباط مبكراً لأداء صلاة الفجر في وقتها مع الجماعة في الغالب ، ثم تحضير مواد الإفطار ثم الإفطار ثم تفتح أبواب المجال للعمل إلى وقت الظهر حيث تبدأ فترة الغذاء ، ثم صلاة الظهر ثم راحة القيلولة وهي إجبارية ، وقد تُتقدم راحة القيلولة على صلاة الظهر ، ولا يشترط في صلاة الظهر أن تكون في المسجد وإنما لمن شاء منهم أن يصلحها في محله صلاة جماعة أو صلاة فذ . وقبل العصر يستأنف النشاط ويستمر العمل إلى قرابة وقت العشاء لا يتمخل ذلك غير صلاة العصر وصلاة المغرب ، وقبل صلاة العشاء يبدأ الاستعداد للصلاة ثم تُصلى صلاة العشاء في المسجد وقد يعقبها درس أو موعظة أو نصيحة من أحد الناس يفترق الناس بعدها إلى محالهم لتناول العشاء ومناقشة نتائج العمل في اليوم الماضي وعرض مطالب اليوم المقبل ، يشترك في المناقشة رب العمل الذي يديره وأكبر العمال الموجودين في المحل . وقد تأخذ المناقشة جزءاً كبيراً من الوقت يجد أفراد الخلية أنفسهم بعدها تمول إلى النوم فيأوون إلى مضاجعهم ليقوموا بمكربن لاسعثناف نشاطهم ، هذه هي الصورة الغالبة عليهم وقد تختلف الطريقة في بعض البلاد ان وليكنها كلها تخطط على عدم تمكن الفراغ من نفوس أبنائهم

فأوقاتهم مقسمة بين نشاط في مجال الحرفة ، أو في العبادة أو في مجال الاستجماع ، أو في مجال الاستراحة البدنية المنظمة والمقدرة بالأسلوب الذي يتناسب مع المطالب الجسدية للراحة .

(هـ) التوجيه والرقابة والمتابعة :

التوجيه والرقابة والمتابعة ثلاثة خيوط يرتبط بها أي فرد من بني مصعب في أي بلد من بلدانهم داخل وطنهم وخارج وطنهم . وفي خارج وطنهم فإنه بمجرد ما يصل أي فرد من أفرادهم إلى أي بلد ليعمل فيه فإن أول ما يقدم إليه إنما هو توضيح خط السير ثم النصائح والتوجيهات . تتولى ذلك هيئة (كبار الحرفة) أو صاحب المحل . بعد ذلك تستمر مراقبته ومقابته في مسيرته الطويلة ، فإذا خيف عليه انحراف أو بدرت منه بوادر تدل على ذلك استدعت هيئة (كبار الحرفة) وحاسبته على تصرفاته وقدمت له التوجيهات اللازمة فإن لم تغد فيه هذه المواقف وانحرف فعلا بأن ارتكب بعض مالا ينبغي له جاءت مواقف أخرى سوف نعرض لها في فقرة تالية .

قد يظن بعض الناس أن تأثير مجلس العزابة لا يتجاوز حدود الوطن ، وأن أولئك الميزابيين المفتربين الذين ابتعدوا عنه بمئات الأميال قد خرجوا عن نطاق تصرفه أو على الأقل بعدوا عن إمكانية مراقبته . وهذا الظن ليس صحيحاً لأن مجلس العزابة يعتبر نفسه مسئولاً عن حماية المجتمع - دينياً وخلقياً واجتماعياً - وأن المجتمع يتكون من مجموع أفراده سواء أكان أولئك الأفراد في وطنهم . أو كانوا خارجه . وأن سلوك أولئك الأفراد - سواء أكان خيراً أو شراً - ينعكس على مجتمعهم . ولذلك فإن مجلس العزابة يتابع بوسائله الخاصة جميع الأفراد أينما كانوا . وعندما يتأكد لديه أن أحداً

من أولئك الأفراد يخشى منه الانحراف فإنه يهتم بتوجيهه فإن تجاوز الفرد ذلك إلى المفارقة فإن المجلس يتخذ قراراً آخر سوف نعرض له في فقرة تالية .

ثم إن مجلس العزابة لا يقتصر على هذه التوجيهات من بعيد أو على التوجيهات الفردية ، وإنما يحرص أن يرسل بأناس ذوى كفاءة لإلقاء الدروس والمواعظ والفتوى في المشا كل من حين إلى حين ، إما للقيام بجولة استقصائية أو جولة جهوية أو جولة إلى مدن محدودة ثم يعاقب المرشدون على هذه الرحلات فيرجعون بحصيلة من المعلومات والبيانات والتوصيات . كما أنهم يطلعون على سلوك الناس وأسلوبهم في المعاملة . فيعالجون منها ما يقوون على علاجه ويحملون غيره ليعرضوه على مجلس العزابة .

ثانياً - العلاج بالدواء ويتضح في الخطوات الآتية :

(١) - التفسير :

عندما لا تنفد جميع الجهود في تقويم أهدأ بنأهم عن الانحراف ويبدأ في التورط في أهمال تضر بمصلحته وبسمعة أمته ووطنه فإن أيسر موقف يتخذه معه (جماعة الخرفة) هو إرجاعه إلى وطنه على يد السلطة . وهذا نوع من أنواع الدواء الذي يجمعونه لمن تجدوه الأمراض الاجتماعية وعندما يعود فإن البيئة والمؤسسات الموجودة هناك كفيلة بشفاؤه شفاء كاملاً .

(ب) التأديب :

إذا ما ارتكب أحد أفراد الخلية خصلة من خصال الانحراف . كشرب الدخان أو الخمر أو مسمع عنه أنه ارتاد داراً من دور اللهو المحرم

أو ما يشبه ذلك فإن رئيس المحل أو الخليفة يقيم له جلسة تأديب قد تقتصر على التوبيخ والتقريع الشديدين لمن وقع منه ذلك أول مرة وأبدى ندمه واستعداده للتوبة والرجوع إلى التزام المسلك القويم ، وقد تصل إلى عقوبة بدنية من الضرب الخفيف ، فإذا لم يجد هذا رفع أمره إلى (جماعة الحرقة) التي قد تحكم عليه بالتعزير فيضرب (١٩) جلدة ، فإذا لم يرتدع بذلك رفع أمره إلى مجلس العزابة في قريته الأصلية .

(ج) البراءة والمجران :

مجلس العزابة من مكانه في القرية يتابع جميع أفراد القرية في أما كن هلمهم بوسائله الخاصة المعتمدة وتصله أنباؤهم تباعاً ، فإذا ما ثبت لديه أن أحدهم قد ارتكب ما يخالف أمر الله ونهيه أو خرق ما اتفق عليه المسلمون فإنهم يعلنون البراءة منه ويأمرون بهجرانه وذلك لأن البراءة منه هي العقوبة الوحيدة التي يمكن أن تصل إليه على بُعد المسافة وتحدث فيه الأثر المطلوب منها .

وبمجرد ما يعلن مجلس العزابة في مسجد القرية هذا الحكم عن شخص ما فإنه سرعان ما يبلغه الحكم القاسي في مهجره فتتغير معاملته الناس له ، ويحس بالجفاء والغاظة والإعراض عنه فيأحقه في ذلك الألم الكبير والندم الكثير ، ولا يجد له مناصاً في غير تصحيح وضعه الاجتماعي بإعلان التوبة مما ارتكب والرجوع إلى الجادة التي ينبغى للمسلم الشريف أن لا يخرج منها .
والتعهد بذلك .

وهكذا تجد الفرد منهم وهو في ديار الغربية قد يكون في الجزائر أو في وهران أو في عنابة ، أو في تونس ، أو في فرنسا ، أو غيرها . فنجدته نفسه

بأن يلم بما يلم به أمثاله في المجتمعات الأخرى معتمداً على سعة رحمة الله وعفوه حتى إذا استسلم للشيطان فأضعف في قلبه الخوف من الله . وتغلب على ترده وترجح لديه تحت الإغراء الإقدام على المعصية ، لاح له شبح مجلس العزابة يهدده بحكمه القاسى الذى سوف يصدر عليه متى علم المجلس بصدور المعصية عنه ، فينفلت من مخالب الفريزة ، ويتحرر من برائن الشهوة ، ويفر من المعصية ناجياً بنفسه تاركاً شيطانه بعض بنان الندم على خسارته في صفقة كاد يكسبها . فإن غلبه الشيطان وسدر في الغى وأصر على موقفه ولم يبادر إلى إصلاح وضعه فإن مجلس العزابة لا يقف مكتوف الأيدي وإنما له وسائل وأساليب أخرى رادعة ليس هذا مكان تفصيلها .

(د) الفروق الفردية :

طبائع الناس وأخلاقهم ومشاعرهم الدينية تختلف ، ومواقفهم من الخطأ ومن الرجوع عنه أيضاً تختلف ، ولذلك فإن أنواع العلاج السابق لم تكن تطبق هكذا على الجميع كمواد قانونية جافة لا تصرف فيها ولا فهم .

ولإنما كانت تنفذ لاسيما من (كبار الحرفة) في ديار الغربية بعد دراسة وفهم لنفسية الفرد وظروفه وبيئته . ومقدار الصلاح والإصلاح الذى ينتج عنها أو مقدار الضرر الذى قد يحدث بسببها وكذلك درجة استحقاق العقوبة ومقدار تحملها ، ولذلك فأنواع العلاج الذى يقرر للشخص الحى الخجول الحساس غير أنواع العلاج الذى يستعمل للوقح الجافى الغليظ الطبع .

وحتى عندما تتشابه المخالفة بأن يرتكب شخصان نوعاً واحداً من المعصية وفي ظرف واحد فإنه ليس من الضرورة أن يطبق عليهما نوع واحد من العلاج ، فقد يكتفى بتمويه أحدهما توبيخاً طفيفاً في زاوية منفرداً ، ويلقى

على الثانى درس قاس من التوبيخ والتقريع أمام أفراد الخلية كلها أو أمام الجالية فى مسجد الصلاة ، وذلك تبعاً لأخلاق وسلوك كل منهما وتبعاً أيضاً لما يتمتع به كلاهما من رقة الطبع أو غلظته ، وشفافية الحس أو قمامته ، ودقة الإحساس أو بلاذته ، وحدة الذكاء أو بطؤه .

(هـ) الآثار والنقائج :

مراجعة بسيطة لكلام أستاذنا باكلى - حفظه الله - ولما عرضنا من الفقرات السابقة فى هذا الفصل يتضح لنا ما يلى :

إن الإباضى الجزائرى عندما يجمع ما لديه ثم ينطلق إلى مدينة من مدن الجزائر أو تونس أو حتى فرنسا - بحثاً عن العمل - لا تستقبله الفنادق بأوى إليها ولا تستقبله الشوارع يتسكع فيها يتصفح وجوه الرامحات والغاديات ، ولا تستقبله الفئات الضائعة التأهية عن المجتمع تلهث وراء المتعة الرخيصة ، ولا حتى الأصدقاء أو الأقارب من العمال الكادحين يأوى إليهم فى حجرة ضيقة عديمة المرافق ريثما يجد لنفسه هملاً ، فيضيق عليهم فى مسكنهم وفى معيشتهم ، ويتحمل من أجل ذلك منة طول همره .

ولما تستقبله دار نظيفة أعدت خصيصاً لسكناه وسكنى أمثاله بها قاعة لإقامة الصلاة تذكره خمس مرات فى اليوم بواجبه نحو ربه . وهى مزودة بكل المرافق وقد حرص المجتمع أن يكون فى تلك الدار قيم يسهل على الطارىء الجديد مؤنة الطبخ وجلب مواد الغذاء . ويتولى مساعدته فى جميع ما يحتاج إليه حتى يستقر فى عمل أو ينتقل إلى بلد آخر . ثم إن هذا الطارىء الجديد على المدينة لا يُترك لنفسه ، مهملاً يطرق الأبواب بحثاً عن العمل تتقاذفه ظروف الحياة بين الناس . وإنما تستلمه منذ وصوله هيئة شبة مسئولة فتعرف

منه اتجاهه وخبرته في أنواع العمل واستعداده لأدائها ومقدار رأس المال إن كان له رأس مال . فإن كان صاحب مال ويريد افتتاح تجارة ، أو مشاركة فيها ، يسرت له ذلك وساعدته عليه وأرشدته إلى النوع الذى يتوقع نجاحه .

وأما إن كان يريد العمل بجده وجهده فإن الهيئة تبحث له عن مكان مناسب فى بعض المجالات المحددة حسبما سبق ، والهيئة بطبيعتها وجودها ومعايشتها للأوضاع الاقتصادية فى تلك المدينة تعرف جميع الأماكن الشاغرة ونوعية العمال المطلوبين لكل منها فإذا رأت المكان المناسب له وضعت فيه وقدرت له الأجرة المناسبة - فرضاً عليه وعلى رب العمل - وكلما تقدم فى إدراك أسرار المهنة والإجادة فيها تقدم أجره ثم يُضاف الزائد من أجره على نفقاته فيضاف إلى رأس مال المحل حتى يصبح بعد فترة معقولة شريكاً فى تجارة ذلك المحل وقد يُفتح له فرع جديد فى جهة أخرى يتولى هو وبعض الشركاء الآخرين إدارته .

وإذا لم يتسع له فى تلك المدينة مجال للعمل اتصلت تلك الهيئة بهيئة أخرى فى بلد آخر حتى ينفتح له مكان فى إحدى المدن فيُنصح بالذهاب إليه لتستقبله نفس الظروف . فيُنزل فى البيت المعد وتتولاه الأيدي الحانية حتى يلمتحق بعمله الجديد وأجره المقرر .

فإذا كان الرجل ممن لا يحتمل الغربة ، أو ممن لا يقدر على العمل لأسباب بدنية أو أسباب فكرية ، أو ممن يريد أن يتهرب من مجتمعه المحافظ ليدخل فى المحيط الواسع فيذوب فى الكثرة ، ويشذ عن الأخلاق الفاضلة التى يحرضون عليها . اتخذوا موقفهم لإرجاعه إلى بلده ولو كان كارهاً . خوفاً أن يضيع

منهم فرد - مجتمعهم في حاجة إليه - وخوفاً أن تشوه الصورة الجميلة التي يحافظون عليها لشعبهم، فإذا التحق أحدهم بعمل سواء أكان عملاً في محل بأجر أو افتتح لنفسه محلاً جديداً فإنه يكون قد دخل تحت نظامهم العام، ونظامهم العام لا يتيح للفرد فرصة لارتكاب المخالفات أو حتى للتفكير فيها، وذلك أنهم يعيشون في مجموعات صغيرة لكل مجموعة في متجر أو مصنع بيتاً يسكنون فيه أو في بيت ملحق به تحت رعاية رئيس المحل يمثل نظام الأسرة التي لا توجد بها الأم أو الزوجة وعلى بقية الأفراد أن يقوموا بأعمالها في إدارة البيت، فرئيس المحل يمثل الأب في سلطته وفي حنانه، وشركاؤه يمثلون إخوة كبار له، أما العمال فهم بمثابة الأبناء. ويتعاون المجتمع على إنجاز مهمات البيت حسب تنظيم دقيق يرسمه رب العمل. ولكل محل أو خلية نظام ثابت روتيني ينتظم به سير العمل ويُقسم فيه الوقت تنظيمًا دقيقًا: أوقات محددة للصلاة، أوقات محددة للأكل، أوقات محددة للنوم، أوقات محددة للتنظيف، أوقات محددة لترتيب البضاعة ووضعها في أماكن العرض، أو تحت تناول الأيدي للاستعمال، أوقات محددة للتعامل مع الجمهور. هذه السلسلة من التنظيمات الموضوعية بترتيب محكم سليم بمضها إلى بعض لا يجد معها الفرد فراغاً لارتكاب المعصية أو حتى للتفكير فيها.

وفي نهاية هذا البحث يمكننا أن نلخص ما سميناه بالعلاج الوقائي فيما يأتي:

١ - إيجاد بيئة اجتماعية لكل مغرب لا تختلف عن البيئة التي نشأ فيها، مع ملاحظة تكوين علاقة متينة بين مجموعة متعاونة تشبه إلى حد كبير العلاقات الأسرية.

٢ - دقة التنظيم في استغلال الوقت بحيث يشمل على العناصر التي يحتاج إليها الإنسان في صرف الطاقة من جهة وفي راحة النفس والجسم من جهة أخرى في الحدود التي تجمع بين مراعاة الفطرة ومراعاة الشريعة .

٣ - ربط الحياة بجانبها الديني والمدني، أو التوفيق بين المادة والروح دون إخلال بمتطلبات أحدها .

٤ - تغليب فكرة بناء الأعمال على التعاون مهما كانت بسيطة . وإيجاب إنجاز المشاريع الضخمة على الجهود المشتركة من الجميع .

٥ - إشعار العمال بكرامتهم وأدبيتهم وذلك بتقرير حقوقهم وأجرتهم من لجنة عليا يخضع لها العمال وأرباب العمل وتولى تلك اللجنة المحاسبة الجميع مع شيء من الشدة ودقة المحاسبة على أداء الأعمال في إجادة وأمانة .

٦ - الاهتمام بالجانب العاطفي بتقرير إجازة يُسمح فيها للعامل ولرب العمل بالرجوع إلى وطنه وبقائه فيه مدة معقولة .

٧ - تدريب الأطفال على التجارة والاعتدال منذ الصغر لربطهم بعجلة العمل والاعتماد على النفس في الحياة .

٨ - إيجاد العمل المناسب الذي يحفظ على الإنسان كرامته .

٩ - منع الاستغلال بتقرير الأجرة من هيئة أعلى فلا يستطيع رب العمل أن يستغل العامل ولا العكس .

١٠ - عدم السماح بوجود جماعات من الناس لا مهمل لهم في أي مدينة حتى لا تتكون مجموعات من المتسولين أو من المنحرفين وذلك بإرجاع

كل من ليس مؤهلاً للعمل في النطاق المحدود، وكل من يريد أن ينطلق دون قيود - إلى أوطانهم ولو بالإكراه .

١١- إغلاق أبواب الفساد بعدم إتاحة فرصة لذلك .

١٢- إعداد أماكن مهيأة للصلاة والاجتماعات وسماع الدروس والمواظظ ومناقشة المشاكل العامة أو الخاصة .

١٣- إيجاد مدارس في أغلب المدن لمن لا يزال في سن الدراسة تُدرس له فيه نفس المناهج التي تُدرس في وطنه وهي مع ذلك تفتح صدرها للكبار الذين يريدون أن يزيدوا في ثقافتهم فهي تجمع بين أنظمة المدارس العادية والمدارس المسائية ومدارس تعليم الكبار .

١٤- الابتعاد عن الأعمال والمهن المنفرة والمرهقة والمفرقة .

١٥- استمرارية التوجيه بالصالح والدروس في الميدانين العملي والعلمي .

١٦- الشغور بالرقابة والمتابعة في جميع الأحوال .

١٧- الحرص على حياة الضمير وحياة العقيدة ومراقبة الله في السر والعلن ،

وغرس الخوف من الله في كل تقصير وفي كل معصية .

١٨- الحرص الشديد على المحافظة على الأمانة بحيث كانت أبرز الأخلاق

التي يعجلى بها الفرد عندهم، وقد يُفرط في كل شيء ما عدا الأمانة، وقد عرفت فيهم هذا جميع المجتمعات التي عرقهم وتعاملت معهم .

هذه بعض التنظيمات التي اتخذت للحيلولة دون الأضرار أو المساوىء

التي تحدث بسبب الغربة، وهي كما ترى كلها أدوية وقائية مبنية على دراسة للنفس البشرية وإن كان الذين فكروا فيها ووضعوها تدريجياً - وغالباً

لمعالجة مشاكل - لم يكونوا من حملة الشهادات ولا من علماء النفس المعروفين.
ولإنما كانوا يتقنون شروور الحياة على وطهم ومجتمهم بحذر الفطرة وحرص
الدين على السلامة .

أما التنظيمات التي جعلت لعلاج المشكلة بعد وقوعها، ونعنى بالمشكلة
في هذا الصدد الانحراف في الخلق والاستهانة بأحكام الدين ، أو التفريط في
الجانب من للعمل مما تختل به الثقة والأمانة - فتتلخص في المواقف الآتية :

- ١ - ترحيل كل من لا يصلح للعمل في الغربية أو من يرتكب ما يخالف
النظام العام الذي يحرصون عليه مع الإصرار وعدم التوبة والندم .
- ٢ - إجراءات تأديبية مخففة يقوم بها رئيس المحل بمحضر من العمال .
- ٣ - إجراءات تأديبية مشددة تقوم بها هيئة (كبار الحرفة) إما في جلسة
خاصة أو في اجتماع عام حسب نوع الجريمة وموقف المنحرف من الموضوع .
- ٤ - إعلان البراءة من المنحرف المعر يصدر من مجلس العزابة في قريته .
- ٥ - يضاف إلى هذا بعض المواقف التي تتخذها الزوجة في بعض هذه
المقامات . وسوف نشير إلى ذلك بتفصيل في الفصل التالي .

المرأة الميزابية والغربة

انطلق بنومصعب خارج بلادهم سعيًا وراء التحسين الاقتصادي، ولكنهم كانوا يتخوفون من آثار هذا الانطلاق خارج البلاد، فكانوا يفكرون في وضع حلول للمشاكل الناجمة عن ذلك أو التي يتوقعون أنها سوف تنجم، وقد عرضنا بعض ذلك في الفصل السابق. وهناك جانب آخر على غاية من الأهمية كان المفكرون المصلحون يخشونه أكثر مما يخشونه جميع المشاكل الأخرى. وذلك أنهم كانوا يتساءلون عما يضمن لهم رجوع الميزابي الذي خرج من وطنه إلى ذلك الوطن نفسه، ويضمن ارتباطه به، إذا ساءت له الحياة في مهجره وطابت له فيه المعيشة - وهم حين يجحوا في إرجاع المقرب الفاشل والمنحرف بالتعاون مع السلطة يعرفون بالتأكيد أن هذا الأسلوب لا يُجدي مع الجميع.

فالتاجر الناجح الذي ازدهرت أعماله، وازدادت مكاسبه، وتوسعت تجارته، واطمأن أن يحصل على أملاك وعقارات في كبريات المدن، ليس من صالحهم ولا من صالحه، ولا من صالح المجتمع، ولا من صالح الدولة أن يُقطع عن أعماله، ويُبزم بالتبوع في وادي ميزاب مكتوف اليدين، بينما كانت يدها - في ديار الغربة - تفزلان الحرير وتصوغان الذهب. فما الذي يضمن رجوع هذا التاجر إلى منطقة صحراوية، ويحول دون أن يعيش في رفاهية ورغد في وطنه الجديد. إنه لو ترك شأنه يتصرف في حياته كما يريد لأمكن أن يتسرب بأهله. وهكذا يتسرب سكان الوادي إلى الخارج دون إحساس بالتسرب ولا بالخطر الذي يهدد وطنهم الأصلي. ولا يلبث ذلك...

الوطن إلا فترة قصيرة حتى يصبح خراباً ينفق فيه اليوم كما وقع لكثير من بلدان الجنوب التي تسرب منها أهلها طلباً لسهولة العيش ورغده . فما هو القيد الذي يستطيحون أن يضعوه في رجل كل مغترب حتى يرتبط بوطنه ارتباطاً لا ينقطع . لقد فسكروا في هذا كثيراً حتى اهتدوا إلى ذلك القيد فصاغوه من أشربة العاطفة الناعمة وأوثقوه إلى قاعدة من الحب المكين . مما جعل الميزاني وهو يغادر بلده لا يكف عن الالتفات إليه لأنه مرتبط فيه بنياط قلبه ، وموثق إليه بجميع مشاعره وأحاسيسه مما يجعله لا يفكر إلا فيه ، ولا ينفق إلا عليه حتى يجعله جنة مزدهرة ، وارفة للظلال ، جنية الثمار ، جميلة المظهر والمخبر .

ورأوا أنه لا يربط الرجل شيء ما في مكان ما غير المرأة فهي وحدها القادرة على إمساكه وعلى جلبه . وبناء على هذه النظرية فقد تولى مجلس العزابة إصدار قرار ينص على أنه لا يجوز للمرأة الميزابية أن تخرج من وطنها لغير الحج والعلاج ، وكانت فلسفتهم في اتخاذ هذا القرار مبنية على عدة اعتبارات لها قيمتها في بناء المجتمعات منها ما يلي :

* المرأة ربة البيت ، وهي مُرتكز الأسرة ، وعليها تعجم ، وبقاؤها في الوطن يحفظ للوطن كل مطالبه من الأسرة وفي مقدمتها الجوانب الاقتصادية .

* بقاء المرأة في الوطن يجعل رب الأسرة مرتبطاً - عاطفياً - بوطنه فهو يعمل بكل وسيلة للرجوع إليه متى سنحت الفرصة ، كما أنه ينفق عليه وفيه بسخاء لتوفير وسائل الراحة له ولأسرته . بما في ذلك الاستغلال الزراعي لما يملكه .

* بقاء المرأة في الوطن يجعل أبناء الأسرة ينشأون على المثاليات المعروفة عندهم ويحافظون على السلوك الذي اعتاده المجتمع هناك وهو سلوك أقرب إلى الفطرة وألصق بالدين وأقوم منهجاً من سلوك مجتمعات المدن لاسيما تلك التي اقتبست حضارتها من الغرب .

* السماح للرجل باصطحاب زوجته وأطفاله إلى مقر عمله التجاري قد يكون سبباً لأن تروق لهم الحياة هناك فيقل شوقهم إلى الوطن ويتطور ذلك إلى استحباب البقاء هناك فيكون لونا من ألوان الهجرة وهو ما يخشونه .

* السماح للمرأة بالانتقال مع زوجها إلى أماكن عمله يتيح لها أن تتقبل بيئات أخرى وبطبيعة الجوار والمعاشرة وطول الحياة تتقبس أنواعاً من السلوك وأخلاقاً وعادات مخالفة لما اعتادته في وطنها وتدرجياً تألف تلك الأخلاق والعادات فإذا رجعت - في زيارة - إلى وطنها كان سلوكها الجديد مثاراً للنقد فتتضايق من ذلك وتحمل زوجها على الإسراع في العودة إلى مكان الغربة وتكون هذه الحالات بداءات للهجرة الكاملة .

تنقل المرأة والأطفال في حياتهم بين بيئة وأخرى يجعلهم يعيشون بين أنماط مختلفة من السلوك . فتؤثر تلك الازدواجية السلوكية على أخلاقهم وعلى سلوكهم .

* وجود الأسرة مع الرجل في بلاد الغربة يقلل من اهتمامه بالوطن وبالتالي يقلل من الخدمات والنفقات التي يقدمها له لو لم تكن معه أسرته .

* عندما يجد الرجل - وهو في الغربة زوجته وأطفاله إلى جانبه يغلب عليه حب الاستقرار هناك . ويضعف حنينه إلى وطنه الأصيل وتقل رعايته (٣٤ - الإباحية)

له . ولذلك فنظراً للاعتبارات السابقة وغيرها، وربطاً للرجل بوطنه وحفاظاً على هذا الوطن ، وحرصاً على دينهم وأخلاقهم وعاداتهم ، ومحافظة على مجتمعهم بما له من مميزات وخصائص ، اتخذوا هذا القرار . وهم يعلمون الجوانب السلبية فيه وما ينتج عنها من مشاكل تخصها أحد الشباب الذين تحدثت معهم في هذا الموضوع في أضرار ينتج عنها نوعان من الأمراض وخسارة اقتصادية . وفي الإمكان عرضها في إيجاز كما يلي :

١ - أمراض نفسية : أو كما عبر هو عنها : اختلال في الصحة النفسية وهي ناتجة عن نوعين من الحرمان :

حرمان العاطفة من الإشباع بالمحبة الأسرية .

حرمان الغريزة من الإشباع الجنسي .

وحرمان كل منهما من الإشباع يؤدي إما إلى عقد الكبت ، وإما إلى انطلاقة الانحراف .

والانحراف في الحرمان العاطفي ينتج عنه برود في العلاقات الأمرية ، وتفكك في رابطتها وعدم انسجام في سلوكها ، ثم تحول عاطفة الحب في النفس إلى كراهية وحقد على المجتمع أجمع ، ثم طغيان الفردية على الشخصية حتى تذوب منها جميع الاعتبارات إلا ما فرضته القوة . والانحراف في الحرمان الغريزي ينتج عنه البحث عن إشباع الغريزة بطرق غير مشروعة كالشذوذ بأنواعه والبحث عن البغاء السري أو العلني .

٢ - أمراض اجتماعية : وهي ناتجة عن نوعين من الحرمان أيضاً .
حرمان الأسرة من الإشراف الدائم على أفرادها ، والسكرن معهم ، والحياة

ينهم ، وحرمان المجتمع الأسرى أو ذوى الرحم والقراية من رعاية حقوقها ومداومة الاتصال بها ، وإحكام اللوذة بينها ، وينتج من الحرمان الأول نوع من التشرد والاستقلالية الجبرية التي أحدثتها الظروف ، ولم تكونها التربية الواعية.

وينتج عن الحرمان الثانى نوع من التفكك والتباعد بين الأقارب وضياع كثير من الحقوق دون شعور من أحد ، أو مسئولية عليها .

٣ - خسارة اقتصادية : وذلك أن الرجل وهو يكافح فى بلاد الغربية يضطر إلى الإنفاق على نفسه هناك وعلى الأسرة فى الوطن فهو من الناحية الاقتصادية كأمما ينفق على أسرته ، يضاف إلى ذلك أن المرأة غالباً لا تحسن التصرف المالى فى غير اللباس والزينة فيتسرب كثير مما يرسله الزوج إلى امرته - لكي تعيش حياة سعيدة - من بين أنامل الزوجة إلى هذا الجانب ويبقى أفراد الأسرة فى حرمان من بعض ما يريدون وهم فى ذلك ينسجون التقصير والمسئولية إلى رب الأسرة الموجود فى ديار الغربية .

والآن نستطيع أن نجمل الأضرار التي يخافها البعض ويحذر منها فيما يلى :

* الحرمان من إشباع العاطفة ينتج عنه برود العلاقات بين أفراد الأسرة الواحدة .

* الحرمان من إشباع الغريزة ينتج عنه التماس ذلك بالوسائل المحرمة .

* عدم الإشراف إشرافاً مباشراً على الأفراد فى الأسرة ينشأ عنه تشرد

أولئك الأفراد وعدم انضباطهم .

* الغياب عن المجتمع ينشأ عنه التفكك فى العلاقات والخلاف بين

ذوى الأرحام .

* بقاء الأسرة بعيدة عن رهبا والإنتفاق عليها يتسبب في مزيد من الإسراف دون تغطية المطالب لأفراد الأسرة .
حدثني بهذه المخاوف بعض الشباب الميزابي المنقف بتقافة هذا العصر .
والذي درس الآراء والنظريات الجديدة في علم النفس وعلم الاجتماع وكنا
في اجتماعات خاصة نتحدث عن المرأة الميزابية ومزاياها ونقارن المضار والمنافع
الناجمة عن هجرة المرأة الميزابية مع زوجها ، فحاولت أن أخلص ما يراه بعض
الشباب في هذه الفقرات بإيجاز شديد حتى يعرف القارئ الكريم كل جوانب
الموضوع .

أنا - في الحقيقة - لا أعرف أول من اتخذ هذا القرار ، ولا كيف
اتخذه ، ولا لماذا اتخذه ، والفرار بالنظرة السطحية لا يتسجم مع الفطرة وهو
تحكم في شأن خاص من شؤون الأسرة لم تقيده الشريعة السمجة إلا على ضرب
من التعاون يمكن أن يستند إليه إذا رجحت المصاحبة العامة .
وأنا أعتقد - دون أن تكون لي شواهد - أن أهل الوادي لم يصدروا
هذا القرار إلا لأن وقائع معينة ، أو أحداثا بارزة دفعتهم إليه . وكانت
السبب في وضع هذه المادة القاسية كما يرى بعض الإخوان . وقد تقبلها
سكان هذه المنطقة واعادوها وأصبحت عندهم عادة لا تبعث على التساؤل
والنقاش ، كما أن مجلس العزابة - ولا بد أن يكون ناقشا من الوجهة
الشرعية مناقشة مستفيضة - كان يقف فيها موقفا صارما لا يسمح لأى
إنسان مهما كان مركزه أن يأخذ معه امرأة خارج وادي ميزاب لغير الحج
والعلاج . وإلا لكان معرضا للحكم بالبراءة عليه ، وكانت المرأة أيضا
معرضة لمثل ذلك من مجلس العزابة النسوى . وإذا أجاز رجل لنفسه أن

يقف هذا الموقف فيقبل الحكم بالبراءة . فإنه لا توجد امرأة واحدة تضع نفسها في هذا المأزق الحرج وتعرض نفسها لغضب الله وغضب المجتمع وهجرانه .

وقد انبئى على قرار منع المرأة من الخروج من ميزاب تصرف آخر قصد منه الحد من الأضرار التي قد تلحق بالمرأة بسبب غربة الزوج وما يتعرض له من إغراءات الانحراف ، وتعرض هي له من ألوان الحرمان فأعطى لها حق اشتراط عدد من الشروط في العقد عند الزواج تكفل لها حق إبعاد الضرر عنها وعن بيتها إذا توقعته أو أحست به ، وقد أصبحت تلك الشروط عرفاً عاماً عند بنى مصعب لا يسأل الرجل عند العقد عن قبولها أو عدم قبولها كما ليس له حق الرفض . أما الشروط فتمتلخص فيما يلي (١) :

١ - أن لا يغيب عنها أكثر من ثلاث سنوات .

٢ - أن لا يتزوج عليها .

٣ - أن لا يشرب الخمر .

٤ - أن لا يرتكب جريمة الزنى .

٥ - أن لا يلعن القهار .

٦ - أن لا يرتكب جريمة قتل النفس التي حرم الله .

ويضيفون إلى هذه الشروط فقرة شارحة تقول : فإذا ارتكب إحدى

هذه المخالفات صار طلاقها بيدها ولا يضرها الانتظار .

(١) خصصوا الكبائر المذكورة هنا دون غيرها لأن لهذه الكبائر آثار سيئة

مباشرة على المرأة والأمة .

ويقصدون بذلك أن الرجل إذا ارتكب مخالفة أحد هذه الشروط فإن من حق المرأة أن تطلق نفسها إذا شاءت، فإذا لم تتبادر إلى تطبيقها فإن عدم المبادرة لا يفقدها حقها في التخلص منه، وهذه الملاحظة الأخيرة البسيطة التي حفظت للمرأة حقها في الطلاق إذا خولف الشرط من شأنها أن تجعل المرأة غير متسرعة خوفاً أن يضيع منها الحق فتمتخذ قرار الانفصال بمجرد الهفوة الأولى، وإنما تترث وتمصر مادامت تأمل الصلاح من زوجها، وترجو منه التوبة عن انحرافاته. فإذا يئست منه وتحققت المضرة لها في نفسها أو في بيتها لجأت إلى القرار واستعملت الحق. وأعلنت الحكم بالفراق بقولها: أخذت بشرطى وطلقت نفسى. فإذا أردنا - الآن - أن نعود إلى الموضوع فنجد ما فيه من سلبيات وإيجابيات فإننا نستطيع أن نلخصه كما يلي :

الاغتراب عن وادى ميزاب - للاكتساب - ضرورة اقتصادية مسلم بها وغير خاضعة للنقاش، ولتجنب ما ينتج عنها من أضرار اتخذ عدد من التنظيمات تكفل الضمانات الآتية :

١ - قصرت أعمال بنى مصعب على التجارة (إلا شواذ لا حساب لها) وقد روعى في تلك التجارة أن تكون على أسلوب المشاركة - غالباً - ولوحظ على الفأئمين بها الاستكثار من العمال، حتى يتمكن أصحاب رؤوس الأموال المشاركون في التجارة من الإشراف على تجارتهم على طريقة المناوبة، فيستطيع بعضهم أن يقيم في بلده وشريكه يشرف على التجارة، ثم يحدث العكس. وحتى يستطيع كل عامل أن يعود إلى بلده في فترات محدودة ويقوم بعمله بديل من زملائه.

٢ - وضعت أمام المغترب نفس البيئة التي كان يعيش عليها في جميع

نظم الحياة . في أسلوب العمل . في تنظيم الإشراف والمقابلة ، في المحافظة على الصلاة ، في حضور الصلاة في المساجد أو الأماكن المعدة لذلك ، في موالاته الإرشاد والوعظ ، في إعداد وسائل الطهارة ، في جمع الصدقات وتوزيعها ، بل حتى أنواع الأكل وطريقة إعداده وتقديمه . بحيث أن الواحد منهم في ديار الغربية لا يفقد شيئاً اللهم إلا بعض الوجوه أو بعض المناظر أو الشئون الشخصية جداً ، فهو يعيش في مجتمع هو نفس المجتمع الذي نشأ فيه بكل ألوانه وظلاله ، وهو بذلك لا يحس أبداً أنه في غربة ، ولا يجد أبداً ما يجده المغترب - عادة - من الوحشة - وفي هذه العادة التي تنقل البيئة نفسها إلى مكان العمل من الاستقرار النفسى والاطمئنان الروحى ما يساعد على الاستقرار في العمل والآجادة فيه .

٣ - نظمت أوقات العمل والراحة والعبادة بحيث لا تترك فراغاً يدعو إلى الإحساس بالغربة أو الافتقار إلى قتل الوقت (لأنه لم يبق لهم وقت زائد أو فارغ يستحق القتل) .

٤ - عدم وجود فراغ في الوقت مع شدة المراقبة والمقابلة من ثلاث جهات متعاونة هي مجلس العزابة ، وجماعة الحرفة ، وشروط عقد الزواج . لكل منها حق فرض عقوبة مناسبة ، كان عاملاً هاماً في عدم التفكير في الانحراف بجميع أنواعه . وعدم التفكير في شيء يجعل الشخص لا يشعر بالحرمات منه .

٥ - التهديد بقتل الزوجة ، وتشريد الأطفال إن هو فكر في إحدى الموبقات السابقة ، أو فكر في إطالة الغربة أكثر مما حدده القرار ، أو اتخذ

خلا مؤقتاً بزواج ثان جعله لا يقدم على أى خطوة من تلك الخطوات لئلا يتهدم مستقبله كله . ونستطيع الآن أن نقول :

* إن المغرب لا يحس بالفراغ العاطفى طالما هو موجود فى مجتمع وبيئة شبيهة بالبيئة التى كان يعيش فيها . وطالما فى إمكانه أن يرجع إلى بلده فى مناسبات معقولة ، فلا يخشى عليه من العقد ، ولا يخشى منه ولا عليه برود العلاقات الأسرية .

* ولا يخشى عليه من سيطرة الغريزة ، لأن وقته مملوء بعمل منتج ، ولأنه لا يجد فرصة للتسكع فىرى ما يثير فيه نوازع الغريزة ، ولأنه يعرف سلفاً أنه لا يستطيع أن يشبع غريزته بطريقة غير مشروعة فهو لا يفكر فى الانحراف بقاتا وإما يحصر تفكيره فى الجانب المشروع ، وذلك إذا دعاه داعى الفطرة الذى حدد تقريباً بالأوقات التى يسمح فيها بالزجوج إلى البلد . وأحب هنا أن يدرك القارئ الكريم ذلك الفرق الكبير بين داعى الفطرة وداعى الغريزة . فدواعى الفطرة وسيلة للقيام بوظيفة حيوية يتوقف عليها استمرار الخليقة . أما دواعى الغريزة فوسيلة للاستجابة والخضوع لسلطان شهوة غالبية أثارها إحساس أو نظر أو لمس . وقد يكون المثير مشروعاً عندما يكون مع من تربطها علاقة شرعية ، وقد يكون غير شرعى عندما يكون عند من لا تربطها علاقة شرعية . وامل الإنسان هو المخلوق الوحيد الذى تختلط عنده مطالب الغريزة بمطالب الفطرة ، وهو مطالب - باعتبارها عاقلاً مكلفاً - بالتمريق بينهما ووضع كل واحدة منهما فى مكانها الصحيح أما غيره من المخلوقات فتوجهها الفطرة توجيهاً سائماً ولذلك فأنت ترى القطيع من الحيوان بذكوره وإناثه يعيش سنة كاملة معاً لا يرتكب الخطأ الذى يرتكبه

الإنسان ، فإذا جاء الموسم الذي تدعوه فيه الفطرة للقيام بمهمة استمرار الحياة استجاب لها بذكوره وإنائه حتى إذا تمت عملية الإخصاب بجميع الحوامل هدأت الحركة وتوقفت العملية إلى موسم مقبل . فعلمية اللقاء والإغراء في غير الإنسان لا تستثير الغريزة ولا تدفع الشهوة إلى الغلبة والسيطرة إلا في الأحوال والأفراد الشاذين ، والشاذ لا حكم له . أما اللقاء والإثارة والإغراء في الإنسان فهي شديدة الخطورة ولا تتحكم فيها الفطرة وإنما تتحكم فيها الغريزة ، والغريزة مطية الشهوة ، ولذلك كان من تشريع الله للإنسان إبعاد المثيرات عنه بالفصل بين حركة الرجل والمرأة وجعله لكل منهما مداراً في الحياة يدور فيه ولا يتم اللقاء بينهما إلا بترتيب وتنظيم .

وهذا ما أدركه المفكرون من بني مصعب ، فكانوا لا يخشون على المغترب منهم من الانحراف لأن ضمانات عديدة نفسية وعقلية ودينية وهلمية تحول دون ذلك . ولا يخشى عليه من العقد لأن العقد لا تنتج إلا من الإحساس بالحرمان المبني على القهر مع التفكير الدائم في إمكان الحصول على المرغوب لولا وسائل التسلط ، أما النفس التي لا تحصل على مرغوب مشتهى من دواعي الغريزة لأنها مقتنعة - داخلياً - بأن ذلك ليس من حقها فلا تعتقد أبدأ ، فإذا كان المغترب ممن تكون عنده دواعي الفطرة بطيئة ، وتغلبت عليه ظروف جمع المال في ديار الغربة . وأحب أن يستمر فيها بعد أن بلغ الحد الأقصى للمدة المقررة أو المسموح بها ، فإنه يكون عرضة لأن تنفصل عنه زوجته ونقشرد أسرته فيبادر إلى الرجوع إلى وطنه ولو لم يكن شديد الرغبة في ذلك ، وذلك لأن واضع التنظيم راعوا ظروف المرأة ، فإن للمرأة في باب الفطرة حقاً مثل حق الرجل ، وقد مكنت من الحصول على هذا الحق بالقوة إذا لم تغن العاطفة .

* موضوع تربية الأسرة والإشراف عليها وافتقار منزلة الأب المغترب في ذلك موضوع هام في الحقيقة، غير أن بنى مصعب وهم يرون أن الاغتراب ضرورة اقتصادية تحتمها مصلحة الوطن والمجتمع والفرد - قد اتخذوا عدداً من الترتيبات والتنظيمات التي تخفف - إلى أقصى حد - مساوىء اغتراب رب الأسرة عن الأسرة . وذلك أنه بالإضافة إلى من يتركهم المغترب من كبار الأسرة ليصرفوا على كل الجوانب من أسرهم ، فإن مجلس العشيرة يعتبر المشرف الحقيقي على جميع أسر العشيرة ، وهو الذى يتولى رعاية شئون كل أسرة بالتفصيل وبالتدقيق حتى مع وجود رب الأسرة ومع ذلك فإن القرية فى وادى ميزاب تعتبر أسرة واحدة يتولى الإشراف عليها من جميع جوانبها مجلس العزابة يساعده على مشا كل دخائل البيوت والمجتمع النسوى (مجلس العزابة النسوى) وعين هذا المجلس الساهرة على مصلحة المجتمع تدخل كل بيت . وتقمع كل أسرة وتعرف المشاكل . وتوجه كل طفل لما ينبغى له وتتيح لجميع أبناء القرية فرصاً متساوية من التعليم والتدريب والرعاية والتعويد على المحافظة على العبادات لا سيما أداء الصلاة فى المساجد ، والحصول على أنصبتهم من الأوقاف التى توزع كل يوم أو فى المناسبات . وتعويدهم على المحافظة على مكارم الأخلاق . ويساعد مجلس العزابة والعشيرة (مجلس المسكاريس) الذى يحافظ على النظام والآداب العامة فى القرية ويتولى حراسة القرية حراسة دقيقة فى كل ما يعكر جو الأمن أو الدين أو الخلق ، سواء كان ذلك المعكر وانداً من الخارج - وهو أكثر الحالات - أو كان نابغاً من داخل القرية وهو نادر جداً .

وبهذا فإن الأسرة لا تفقد بغياب الأب أو الأخ شيئاً غير شخصه الذى يجعل غيابهم عنهم محبته تزداد فى قلوبهم ، وتعلقهم به يقضعف بقضعف

شوقهم إليه ، ويجعله هو في نفس الموقف أيضاً ، لأنه مطمئن على استقامة
أموالهم جميعاً لوجود من يتولاها في أمانة وإخلاص ، ولا يحن إلى رؤيتهم
إلا من باب الشوق والحاجة .

.. والواقع أن هذا الوضع يقوى الترابط الأسرى ويبعد عنه ما تشيره
التصرفات المباشرة ، وتعارض الرغبات من آثار في النفوس .

وبفضل هذه التنظيمات وأمثالها لم يعرف التشرّد في المجتمع الإباضي
في أي دور من أدوار التاريخ حتى في أشدها قسوة عليهم رغم ما انصبت
عليهم من النكبات في أي بلد من بلدان الإباضية . وكان هذا يمثل ظاهرة
غريبة في الدراسات الاجتماعية لبعض المهتمين بهذا الموضوع ، فقد كان بعضهم
يلاحظ - مع الاهتمام والاستقصاء والحرص - أنه لا يوجد أي شحاذ أو متسول
أو متشرّد إباضي ، بينما يوجد من غيرهم أعداد وافرة .

وقد أشار الأستاذ توفيق المدني ببراعة إلى هذه الظاهرة عندما تكلم
عن إباضية وارجلان ، أما الأستاذ حسن حسني عبد الوهاب فقد لاحظ هذه
الظاهرة بعمق في أباضية جربة وتحدث عنها بشيء من الإسهاب وحاول أن
يعلّلها ويبحث عن أسبابها فوق في بعض التعليقات وفاته التوفيق في بعضها .
وحسبه أنه أدرك ما لم يشعر به أو تغافل عنه غيره وكتب عنه بصدق
وصراحة . وحاول أن يفهم أسبابه .

* ولا خوف أبداً من التفكك الأسرى المنبني على طول الغياب الذي
يسبب ضعف العلاقات مع الأقارب والتقصير في أداء حقوقهم ، فإن هذه
الفكرة غير واردة أساساً ، لأن حقوق الأقارب وزياراتهم ليست واجباً
يوميّاً ، وإنما هي مرتبطة غالباً بالمناسبات والمواسم ، وتتفاوت هذه الحقوق

بمفاوت درجات القرابة . ولاشك أن الغياب فترة من الزمن يجيء بعدها القريب مشتاقاً إليه - وربما كان محملاً بالهدايا - كفيل بنسف كل الخافوف في هذا الباب . ولعل غياب بعضهم عن بعض فترات معقولة من الزمان أدعى لأن لا تنثور بينهم المشاك كل بسبب احتكاك المعاشرة وأن يعقلب على صفات الأمور فتغلب المحبة عليهم وتزداد أو اصبرهم توثقاً ومتانة .

* أما نقطة الخسارة الاقتصادية فلعلها ليست من الأهمية بحيث تستدعي الدراسة والبحث ، والأموال التي تصرف على الأسرة وعلى الوطن ليست خسارة وإن كان فيها بعض المبالغة ، والرأفة التي تتولى إدارة البيت في غياب زوجها تعود على حسن الإدارة وربما تجيد إدارة الجانب المالى فيه أكثر من إدارة الزوج له .

خاتمة الفصل :

بقي لى فى نهاية هذا الفصل أن أقول : إن هذه الأنواع من التنظيمات والإجراءات أو الأعراف ليست وليدة يوم . ولا منيئة عن تفكير فلسفى فى برج عاجى ، أو نهبت بين أناس من ذوى الكرامى الدوارة والميكاتب العريضة ، الذين يتصورون مشاكل المجتمع بأذانهم ويتخذون لها الحلول بأخيلتهم ، وإلما هى نهبت من تجارب غنية متواملة ، وملاحظات مستمرة متتابعة ومناقشات فى اختيار أنسب الحلول وأسلمها ، وقد تدوم تلك الملاحظات والمناقشات شهوراً وأعواماً حتى تبلغ إلى الصيغ النهائية التى نفذت كأعراف أو تقاليد . أو كأنظمة وقوانين .

فما هى الآثار التى نتجت عن مجموع تلك القرارات والتنظيمات والأعراف

والتقاليد ؟

واللإجابة عن هذا السؤال أستطيع أن أخلص أهم تلك الآثار في النقاط التالية :

١ - اعتمدوا في بناء وطنهم على أنفسهم ، واعتبروا غربتهم تضحية في سبيل الوطن يرجون عليها الثواب من الله وجعلوها وسيلة لخدمته ، ولذلك فهم ينفقون بسخاء على تعميره مما جعله يمتاز على غيره من الواحات بالعمارة والازدهار ووسائل الحضارة ويسر المرافق . وقد جعلهم حبهم لهذا الوطن واغترابهم من أجله يتصرفون خلاف ما هو متعارف عليه في العالم أجمع . وذلك أن أكثر الناس إذا أرادوا التخفف من المسؤوليات وقضاء وقت في الراحة والاستجمام ، يأخذون مبالغ من المال وينطلقون بها خارج بلادهم ينفقونها هناك في حربة ودون مسئولية . أما بنومصعب فإنهم إذا أرادوا التخفف من مسئولياتهم وقضاء وقت في الراحة والاستجمام فإنهم يأخذون ما معهم من مال في دار غربتهم ثم ينطلقون من بلدان عملهم إلى بلدان وطنهم الأصلي حيث يتضون فترة من الراحة والاستجمام بين أفراد أسرهم وثى ربوع وطنهم وتعود نفقاتهم على بلادهم وشعبهم بالخير والرغد والازدهار .

٢ - تارتبطوا ضميرياً بوطنهم الأصلي فهم مشغولون - على كل النطاقات - بالتفكير فيه ، والعمل له ، والكفاح من أجله وقد كفهم ذلك أثماناً باهظة . قديماً في رد عدوان هجمات الهب والسرقة والتقل ، وحديثاً في كفاحهم للاستعمار الفرنسي ورفضهم للخضوع له ، ولقروضه التي كان يفرضها على الشعوب الداخلة تحت سيطرته كالتجنيد الإجباري .

٣ - عند اغتراب الرجل بقيت المرأة هي ركيزة العمل الاجتماعي فقد توفرت لها التربية الدينية ، وارتبطت بالمسجد يومياً تحضر الصلاة ، وتسمع

الدروس ، وكفل لها المجتمع حصانة دائمة لا تتعرض فيها لأى هزة أو إثارة ولم تفتح لها أبواب الشر والفساد كما انفتحت لغيرها ، وألقيت عليها ، مسئولية الاستقرار في الوطن والمحافظة على مثاليات الأسرة التي يوجهها الدين وبقربها العرف الحسن . فثبتت في مكانها كقاعدة تدور حولها شئون الأسرة جميعاً ، ينشأ تحت رعايتها الأطفال ، ويساعدها الأجداد ، ويشترك معها الزوج في رسم المسيرة عندما يحضر ، أو يتم ذلك بالمراسلة في المشاكل الطارئة ومنع غير المحارم من لقائها ولو كانوا من أقاربها فاستغنت عنهم واستقلت بإدارة البيت ورعاية شئونه بما أكسبها قوة في الشخصية واعتداداً بالنفس وثقة من الزوج والأهل ، فكانت العلاقة التي تربطهم جميعاً - ولا سيما الزوجين - مبنية على المحبة والاحترام المتبادلين .

٤ - اعتاد الميزابيون مشقات السفر والاعتراب وتمرسوا بخدمة أنفسهم دون اللجوء إلى غيرهم ، وعودوا أبناءهم على ذلك من عهد الطفولة فصكونت فيهم صفات رجولية قوية معتمدة على النفس ، وسلموا من عواقب التدليل الذي يورث الوهن ، ومن مظاهر الحب والحنان الذي يتجاوز حدوده فينقلب إلى مرض نفسى . فكانوا إذا طلبوا من طفل في السابعة أن يرحل إلى بلد بعيد يقيم فيه السنة والسنتين دون أحد من أقاربه استمد لجل أمتعته وساعدته أمه على ذلك دون أن تقوم مناحة في البيت بسبب الفراق ودون أن تتبلل دسمة من الناديل بالدمع في لحظات الوداع . ودون أن يحس هو بأنه في حالة حرمان المقطوم أو تحس هى بأنها في موقف الشكلى .

٥ - كان من أهم آثار تلك التنظيمات عليهم أن تربطهم بوحدة

متميزة في السلوك والعادات . وجعلتهم حراساً على الاستمسك بالدين
والاحتفاظ بالاستقامة في الخلق ، وقويت الرابطة بينهم في ديار الغربة وفي
داخل بلادهم وعودتهم على التفكير الجدى في المصالح العامة والتعاون عليها
حتى أصبح القيام بها والاتفاق عليها والتبرع لمشاريع الخير - كيفما كانت -
ملاكة فيهم يستجيبون لها بالبنداء الداخلى الذى يحسونه فى أنفسهم أكثر
مما يستجيبون له بالدعوة إليه وكان من نتائج ذلك أنه ما قام داع يدعو
إلى مشروع خيرى لمصلحة الجماعة إلا وجد النفوس مقبلة عليه ممتنعة بوجوب
الإتفاق فيه . لأن تلك النفوس ربيحت على أعمال الخير واقتنعت بها قبل
أن تدعى إليها .

٦ - ربما كانت رابطة الأسرة عندهم - ولا سيما علاقة الزوجين
والأبناء - أقوى منها فى أى بلد أو شعب آخر - لأنها عندهم تعتمد على
ثلاثة ركائز هى :

المحبة والمصلحة والشوق . بينما لا ترتكز علاقة الأسر عند غيرهم إلا
على المحبة والمصلحة فى قليل من الأحيان وعلى المحبة فقط أو المصلحة فقط
فى أكثرها .

وقد يكون سبب الارتباط بين الزوجين هو المحبة ثم تنشأ عنه المصلحة،
وقد يكون المصلحة ثم تنشأ عنه المحبة .

ومهما كانت فى سائر الشعوب فإنها فى هذا الشعب تزيد قوة وارتباطاً
بعامل الشوق الذى تهذب به العواطف وتسمو به الأحاسيس وترق به المشاعر
فيصطبغ السلوك المبني على كل ذلك بالحنو والحنان والإحسان .

ويبدو لي أن هذه المزايا كلها كانت نتيجة لقرار منع المرأة من الخروج خارج وادى ميزاب - فاستقرت في وطنها وباستقرارها استقر الشعب كله ، وبذلك كان لها الفضل في حفظ الأسرة ، وحفظ الدين ، وحفظ الأخلاق والعادات ، وحفظ الرجل من الفساد الخلقى وحفظت نفسها من الوقوع بين مغريات الحياة ، وحفظت الوطن مزدهراً عامراً محبوباً متشوقاً إليه باستمرار .

وبفضل ازدهاره الذي كان السبب الحقيقي فيه هو تضحية المرأة الكبرى من أجله ولزومها له ، وأصبح اليوم مفخرة للجزائر الحرة ومرقداً سياحياً من الدرجة الأولى يحرص السواح على زيارته ، وتحرص أجهزة السياحة من الدولة أن تربيه لهم وكان قبل ذلك وبعد ذلك جنة من جنات الله في الأرض لا يخس بنو مصعب بالسعادة والهناء ، والاستقرار والأمن إلا عندما يكونون بين ربوعه بقراه اللامعة وغاباته الخضراء التي تحيط بها كما يحيط هلال العلم بنجمته الزاهرة .

فإذا أراد الإباضية في الجزائر أن يبقى وطنهم - واسطة العقدة - لواحات الصحراء جميعاً ومفخرة للجزائر كاملة . وحصناً لهم محتفظاً بخصائصه ومزاياه - فليحافظوا على القرار الذي يمنع المرأة من الخروج من وادى ميزاب ، وإذا أرادوا أن يتساهلوا فيما ورثوه من تنظيم وأعراف فليقتسأهوا فيما شاءوا وليغيروا نظام اقتصادهم وحياتهم كما يشاءون وليحتفظوا بثلاثة أشياء فقط هي مجلس العزابة ومجلس العشيرة ، وعدم السماح بخروج المرأة لغير العلاج والحج . وليتأكدوا أنهم إذا تساهلوا في موضوع العزابة فإن الجانب الديني قد اضمحل . وأنهم إن تساهلوا في مجلس العشيرة فإن الجانب الاجتماعي لهم قد اختل . وأنهم إن تساهلوا في رحيل المرأة عن الوادى فإن الشعب

الميزابي كله قد رحل . ولن يبقى في ذلك الوادي غير مياه من حين إلى حين
تسيل . وجدوع مهترئة كانت فيما سبق جدوع نخيل .

هذا ما تحقناه عن خبرة ، وعرفناه عن تجربة ، وشاهدناه بالعين ، وحضرنا
بعض مأساته - ولا أبقانا الله حتى نرى نهايتها - فليسألوا إن شاءوا تلك
الآثار الصامتة ما بين جربه ووارجلان ، وليسألوا إن شاءوا تلك الآثار الناطقة
ما بين غدامس وغريان .

ولله عاقبة الأمور في كل مكان .

الباب الثاني عشر

المؤسسات : الثانية والثالثة

جميع شئون الإباضية في الجزائر - مجتمعاً وأفراداً - بعد انقراض الدولة
الرسمية ولاسيما في العصور الوسيطة من أوائل القرن الخامس الهجري
فما بعد إنما كانت تقوم على إحدى مؤسسات ثلاث أو عليها جميعاً .
وهذه للمؤسسات الثلاث هي : مجلس العزابة ، ومجلس العشيرة ، ومجلس
المكاريس (إيمسوردان) .

١ - مجلس العزابة :

قد تحدثنا عنه في الأجزاء السابقة من هذا الكتاب وفي هذا الجزء
أيضاً بما يكفي لإعطاء صورة واضحة عنه .

٢ - مجلس العشيرة :

لا نستطيع أن نعطي صورة كاملة مفصلة - في هذا الفصل - عن هذه
المؤسسة . ولسكن في إمكاننا - استيفاءً للأقسام - أن نضع بين يدي
القارئ الكريم باختصار شديد بعض الملامح التي تتكوّن منها تلك الصورة ،
العشيرة تتكوّن من مجموعة من الأسر تربط بينها أواصر القرابة وعلاقة
الرحم . ولكل عشيرة مجلس غير محدد العدد من زعماء العشيرة وذوى الرأى

والفضل منهم ، وللمجاس رئيس يختارونه من بينهم ، ومن مجموع العشائر
تتكون القرية أو المدينة ، ومن رؤساء المجالس يتكون مجلس الضمان ،
ورئيس الضمان يمثل الحاكم المدني للقرية .

ومجلس العشيرة هو المساعد القوي لمجلس العزابة من جهة ، ومجلس
المكاريس من جهة أخرى . وأبرز مهمات مجلس العشيرة تقتصر فيما يلي :

(١) دراسة جميع أحوال العشيرة ودخائلها .

(٢) دراسة جميع المشاكل التي تحدث داخل العشيرة واتخاذ الحلول لها .

(٣) معالجة الانحرافات التي تقع من بعض أفراد العشيرة .

(٤) التعاون مع مجلس العزابة وإبلاغ الحالات المستعصية إليه ليتخذ
فيها قراراً من العزابة .

(٥) التعاون مع المكاريس وتشجيع ذوى الكفاءة إلى الانضمام إليه .

(٦) جمع ما يفرض على العشيرة من أتاوات أو ضرائب أو غرامات

أو التزامات بأساليب تتفق والمستوى الاقتصادي لكل أسرة ثم إيصال
ذلك إلى الجهة المختصة .

ولعل أفضل صورة تعطى عن هذه المؤسسة هي الصورة التي تعاون على

رسمها العالمان الجليلان الشيخ أبو اليقظان - رحمه الله - والشيخ توفيق المدني
أمد الله في همده . . .

قال أستاذنا الشيخ أبو اليقظان رحمه الله ما يلي :

« وقد علق الله بنظام العشائر حقوقاً لايتامى والأرامل والسفهاء

والمجانين والغياب ، وحفظ به نظام الأسر والعائلات بحفظ الأنساب

وإلزام النفقات وإيصال حقوق الميراث لأصحابها وخفف به ثقل الدية في

الخطأ على القاتل بتوزيعها على أفراد العشيرة » انتهى .

وقال الأستاذ توفيق المدني في كتاب « الجزائر » صفحة ١٢١ ما يلي :

« بما أن العشيرة تتركب من بيوتات ، والبيت يتركب من عائلات ، فهي بمجموعها تعتبر كوحدة عائلية لا انفكاك بين أجزائها . ومن حيث إنها مكلفة شرعاً حسباً هو منصوص في انتمه الإسلامى بالسهر على مصالح القصر من اليتامى والمجانين والأرامل والغياب منها . وأنها مسئولة عن نُجاتها في غير العمد فهي متعاسكة بلعام الدين وبأوشاج الأرحام ، ولهذا الميزة كان لها الأثر الفعال في كثير من المصالح العمومية من ردع المفسد وإرشاد الضال وإيواء العاجز وإصلاح ذات البين ودفع عادية المعتدين ... الخ .

فهي تعقد جلساتها عادة من رؤساء العائلات كلما همهم أمر . وعند كل شهر تقريباً . وجلساتها العامة مرتين في العام في الغالب ، هذا هو النظام المتبع منذ القديم وقد تطرق الخلل لبعض فاهل .

وبفضل ما تقدم لا يوجد في بلاد ميزاب على الإطلاق زاوية ولا حانة ولا دار خناء - إلا ما أوجده الفرنسيون خارج غارداية - كما لا يرى على الإطلاق متسول من الميزابيين في أى طريق من طرق ميزاب .

ولماذا يوجد وعشائرهم كجمعيات خيرية تكفل فقيرهم وعاجزهم بإلزام وليه بنفقته وإلا حوكم أمام القضاء أو مجلس العزابة » انتهى .

ونحب - قبل أن نختم هذه الفقرة - أن ننقل للقارئ الكريم مقتطفات من كتاب (نهضة الجزائر الحديثة) لمؤلفه الأخ العزيز الأستاذ محمد على دوز . . قال :

« فهم - أى أعضاء مجلس العشيرة - العين البصيرة الساهرة ، تراقب :

لكل أفراد العشيرة ، وتعمل لصالحهم وتقدمهم وهناءهم . إنهم يراقبون سير العشيرة في ميدان العلم والمال والصلاح « انتهى .

ويقول : « ولكل عشيرة في ميزاب دارهى ملك لها من إنشائها تعقد فيها مجالس إدارتها وحفلات أعراسها ، وتسعملها المدينة أيضاً في حفلاتها واجتماعاتها إذا احتاجتها .

« ولكل دارأوقاف من أبناء العشيرة أو صندوق من تبرعاتهم لإصلاح الدار وتجهيزها بالأثاث الذى يحتاجه أبناء العشيرة » .

« ترى أن الفقير يجد لعرضه أو ضيفه في دار عشيرته ما يحتاجه فيستعيره .

« وينظر المجلس في مشاكل العشيرة ، فيفيض الخصومات بين أهلها ولا يترك خصومة تصل القضاء ، ويراقب سلوك أبناء العشيرة فإذا شذ أحد عن الدين وزاغ عن الصراط المستقيم يستدعيه المجلس إلى دار العشيرة فيعظه ويوبخه ويحاول إصلاحه باللين فإن أصر اجتمع أبناء العشيرة وقرروا تعزيره بالجلد . فإن تمادى رفع أمره إلى العزابة » .

نقلت هذه الفقرة بقليل من التصرف .

وقال : « والعشيرة هى التى تهتم بالأيتامى واليتامى فى العشيرة ، فإذا مات أحد وترك أبناء صغاراً دون وصى ، عينت لهم العشيرة وصياً وراقبته وحاسبته فى مال اليتامى وتربيتهم وتعليمهم ، وإذا لم يكن للأيم أقرباء ينفقون عليها فإن مجلس العشيرة يتولى كفالتهما وصيانتها » .

« وإذا تعطل أحد عن العمل أوجد له مجلس العشيرة عملاً . إن البطالة

محرمة فى ميزاب ولذلك ترى التاجر أو الفلاح الذى لا يسع عمله إلا عاملين يستخدم ثلاثة وأكثر . فزالت البطالة من وادى ميزاب بفضل الإسلام » .

« وإذا اختلفت تجارة أحد ووقع في أزمة لجأ إلى مجلس العشيرة فيعيّنه ويقرضه ويأخذ بيده حتى ينهض » .

هذه مقتطفات من كتاب (نهضة الجزائر الحديثة) نقلت بعضها بالنص وبعضها بتصرف قليل وهي في جملتها لا تخرج عن إطار الصورة التي وضعها أستاذنا الفاضل الشيخ أبو اليقظان رحمه الله وإن كانت تزيدنا لعمانا وإشراقاً ..

٣ - مجلس أمسطوردان:

كلمة أمسطوردان كما هو واضح - كلمة بربرية ، ويختلف الناس في نطقها اختلافات بسيطة لا تتغير بها بنية الكلمة تغيراً كبيراً وإنما توضع فيها بعض الحروف مكان بعض ، أو قد تحذف بعض الحروف منها وهذه الصيغة هي أكل الصيغ وهي بلهجة أهل غارادية .

وكما اختلف الناس في نطقها اختلفوا أيضاً في معناها وترجمتها إلى اللغة العربية أي في مدلولها اللغوي . فقد ترجمها بعضهم (بجمعية الشباب) وترجمها بعضهم بجماعة الحراسة ، وسماها بعضهم جمعية المكارييس . والكلمتان الأخيرتان متقاربتان - فيما يبدو لي - في مبناها وفي معناها . فكلمة مكارييس على ما يظهر محرفة عن كلمة محارييس جمع محراس وهي تدل على المبالغة في القيام بالحراسة كقولهم مطعان لكثير الطعن ومطعام لكثير الإطعام وجمعها جميعاً : مطاعين ، مطاعيم ، محارييس . ولها نظائر في اللغة العربية وإن لم تحفظ بهذه الصيغة . وهذا التعليل وإن كان بعيداً فإنه أقرب ما تعمل به هذه الكلمة .

وأبعد من هذا ما ذهب إليه بعض من تناقشت معهم في أصل هذه

الكلمة فقال :

لعلها مأخوذة من كلمة (كرس) ومعناها الجماعة من الناس وجمعها (أكراس) وجمع الجمع (أكاريس) ثم حرفت الهمزة إلى الميم وأطلقت على هذه المؤسسة أو ترجمت بها كلمة (أمسطوردان) لأنها تتكون من جماعات متعددة وقال بعض من ناقش الكلمة أن كلمة (مكروس) و (مكاريس) كلمة دارجة في اللهجة الجزائرية لا أصل لها في اللغة العربية وهي تعني الشخص القوي الفطن اللبق . ولما كان أفراد هذه المؤسسة يتسمون غالباً بهذه الصفات فقد ترجمت به كلمة (أمسطوردان) .

أما كلمة (أمسطوردان) فقد اطلعت على تحليل لها في بحث لم يذكر صاحبه قدمه إلى الأخ العزيز الشيخ فخار حو بن همر . وصاحب البحث يرى أن كلمة (أمسطوردان) محرفة عن كلمة (تام أوتسان) وكلمة تام أوتسان تعني ثمانية أيام وهي المدة التي تدرس فيها طلبات الالتحاق بالمؤسسة ، يقرر في آخر يوم منها قبول أو رفض الطلب ، فسميت بها المؤسسة ، ومهما كان الأمر فنحن نعود إلى القاعدة العامة المعروفة إذا فهم المعنى فلا مشاحة في الألفاظ والأسماء ولا تعلل وإن كانت أسماء لمؤسسات . فيستوى أن نطلق عليه اسم (الكاريس) ، أو جماعة الحراسية ، أو أمسطوردان ، أو أمسوردان) .

يؤسفني أن أقول إنني لا أعرف بالتدقيق متى أنشئت هذه المؤسسة ولا من أنشأها أول مرة ، أو من وضع خطوطها العريضة ، وإنما عرفت هكذا أحياناً باسمها ، وأحياناً بآثارها لعدة قرون مضت .

وربما لو حاول الباحث أن يستنطق الأحداث لوجد جذورها الأولى قد نبقت بعد انقراض الدولة الرستمية مباشرة أو بفترة قصيرة وربما وجد

من الأحداث ما يدل أنها كانت مصاحبة لنظام العزابة أو كانت هي التمهيد الأول لنشأة فكرة للعزابة ، وإنما انفصل نظام العزابة عنها لطبيعة النشاط الذى تزاوله كل منهما ويدل لذلك أن تنظيمًا شبيهاً بهذا التنظيم كان يوجد بجبل نفوسة توضح بعض آثاره منذ القرن الخامس الهجرى ، بل قبل ذلك كما تفيد مواقف أبى يوسف وجدليش اليجلانى وأضرابه .

ولم يخفف هذا التنظيم من بعض قرى الجبل - كؤسسة لها نظم وتقاليد - إلا بعد احتلال الطليان للجبل ، وكانت هذه المؤسسة تسمى (إَعْمَارَن) أى العمارة ، وتعكون عادة من أربعين شخصاً لا يقلون إلا عند الضرورة ، أما اختيارهم فيتم عن طريق العشائر أو فروع القبائل . ومجالس العمار فى اجتماعه العام هو الذى يتولى اختيار الرئيس من بينهم . أما مهامهم فيجمع صلاحيات متعددة فهم يتولون حراسة البلد وحراسة الغابة من السرقة ولم فى ذلك أنظمة وتقاليد متبعة وأساليب تختلف حسب الفصول والمحاصيل .

وهم أيضاً يقومون بما يقوم به رجال الحسبة من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ومراعاة الأسواق والإشراف على العمليات والمعاملات التى تقوم بين الناس .

وإلى هذا يقومون بما يقوم به شرطة الآداب من اعتقال المخرفين وتأديبهم أو تقديمهم إلى من يقوم بتأديبهم .

ومن أهم أعمالهم رد العدوان المفاجئ فيتصدون له ريثما تنهيا الأسباب لدفعه والاستراحة منه .

فلما جاء الاستعمار الإيطالى وسيطر على كل شئ بهتت تلك الصورة

الرائعة للعمار وحرقتها السياسة الاستعمارية من مؤسسة عقيدة لها أعراف وتقاليد ونظم . إلى صورة مصغرة باهتة لها الاسم دون الصلاحيات فكانت تكلف مشايخ القبائل أن يختاروا عدداً قليلاً من الناس في حدود موسم واحد لحراسة غلة ذلك الموسم لقاء أجر محدد يجمع من أصحاب الغلة ، ولم تنزل هذه المؤسسة العقيدة - في ليبيا - تقضال حتى انتهت في أواخر العهد الإنجليزى واستغنى الناس عن تلك المؤسسات جملة وتفصيلاً ، ثم ذاب ذلك النظام وتلاشى وحل محله نظام الشرطة في المدن والقرى وحرس الغابات في الرياض والمزارع .

لعل القارئ الكريم يرى كثيراً من ملامح هذا النظام في ملامح مؤسسة (أمسطوردان) أو ربما يرى الخطوط العريضة لكلا التنظيمين واحدة مما يدل أنها انبثقت من منبع واحد . ولكي أضع بين يديه صورة لهذه المؤسسة العتيقة سوف أعتد على البحث الذى قدمه إلى الأبخ الكريم الشيخ نغار حمو بن مهر - وإن كنت لا أعرف واضع البحث - مسعياً بما كتبه المؤرخان الكبيران : أبو اليمقطان والمدنى فى الموضوع ومن كتابات محمد على دبور ومن أحاديث ومناقشات مقنائة أئفاء لقاءات خاصة وعامة .

١ - يستمد نظام حراسة (أمسطوردان) من روح النظام العسكرى عند الدول وهو مستقل تمام الاستقلال عن هيئة العزابة من حيث الإدارة والتصرفات ولكنه يرتبط بالعزابة شرفياً . فهو من العزابة بمثابة السلطة العسكرىة من السلطة المدنية . وهيئة (أمسطوردان) عبارة عن مؤسسة معترف بها رسمياً من العزابة ومن نظام العشائر . ونخولة تلقائياً باتخاذ الإجراءات الكاملة فى جميع مجالات عملها دون اعتراض من أحد .

٢ - يتلخص عملها فيما يلي : السهر التام على الأمن العام ، والإشراف على الأشغال العامة . وتنظيم الأعمال التطوعية وتوزيع الصدقات في مواعييدها وحماية المجتمع من شرور المنحرفين والمحافظة على قداسة مجلس العزابة وحمايته مما يهدده من داخل أو خارج .

فهى تقوم بمزيج من أعمال السلطة العسكرية وأعمال شرطة الأمن وشرطة الآداب ، وأعمال رجال الحسبة ، وأعمال شرطة البنجدة والمطافئ ، وأعمال المنظمات الكشفية .

٣ - نظام المؤسسة :

للمؤسسة نظام مضبوط محفوظ يتلناه رؤسائها كابرأعن كابر منذ أقدم العهود ويتلخص فيما يلي :

تنقسم المؤسسة إلى ثلاث طبقات هى :

طبقة الصغار ، وطبقة المتوسطين ، وطبقة الكبار .

وهذه الطبقات لا يراعى فيها عامل السن وإنما يراعى زمن الانضمام إلى المؤسسة وإجادة القيام بأعمالها فالداخل إليها حديثاً يقتر من الصغار ولو كان متقدماً فى العمر .

ومهمة طبقة الصغار تنحصر فى الانقياد التام والطاعة الكاملة والقيام بكل الواجبات التى تكلف بها عند اللزوم دون تردد . ولها رئيس من أفرادها ومستشارون .

والرئيس هو الحلقة التى تربط الطبقة الصغرى بالطبقة الوسطى وعليه

أن يبلغ رغائب وطلبات طبقتة إلى رئيس الطبقة الوسطى ، وعليه أيضاً أن يتلقى التعليمات والتوجيهات من رئيس الطبقة الوسطى لتباينها إلى طبقتة لتنفيذها والعمل بها .

ومهمة طبقة المتوسطين تنحصر في تنفيذ الخطط التي ترسم لهم من طبقة الكبار ، وعلى طبقة المتوسطين المعول والاعتماد الكلى في الحراسة وفي جميع الأعمال الشاقة التي تستدعى مزيداً من الجهد والحذر والسرية .

ولهذه الطبقة أيضاً رئيس منهم ومستشارون ومن اختصاصات هذا الرئيس الاتصال المباشر برئيس طبقة الكبار والتلقى عنه أو التبليغ إليه في جميع ما يتعلق بشئون المؤسسة .

أما طبقة الكبار فتشبه أن تكون مجلس إدارة موسعة للمؤسسة وعليها وضع الخطط . وترتيب الحراسة ، وتنظيم الأعمال ، وتفقد الحراس حال الحراسة ، واستكشاف نقاط الضعف منهم للافتها ، والحضور لدى هيئة العزابة للمفاوضات والمراجعات في القضايا التي تمهم الهيئتين معاً .

ورئاسة المجلس العام بطبقتاه الثلاث - ولا يجتمع على صورته الكاملة إلا نادراً بسبب أحداث جسام ، وعندما تقتضى اجتماعه ظروف ملحة ، ويكون الاجتماع تحت رئاسة أكل طبقة الكبار كفاءة وأقدمهم وجوداً في المنظمة .

٤ - شروط القبول في المؤسسة :

يشترط لقبول عضو جديد في المؤسسة عدة شروط أهمها ما يلي :

(١) أن يكون العضو قادراً على حفظ الأسرار محافظة كاملة ومهما كانت الظروف .

(٢) أن يكون حسن السيرة والسلوك وأن يشهد بذلك من يتوفر فيه هذا الشرط .

(٣) أن يكون العضو متزوجاً لأن الزواج يحصن الإنسان .

(٤) أن يكون مقداماً شجاعاً لا يهاب الموت في سبيل الواجب ولكنه في نفس الوقت لا يترامى على الموت بدون مبرر .

(٥) أن يكون موفور الصحة يتمتع بالقوة والصلابة ليس به أى مرض ظاهر .

(٦) أن يكون ذكياً لبقاً يعرف كيف يتصرف .

٥ - كيفية الانضمام إلى المؤسسة :

عندما يريد شخص أن ينضم إلى هذه المؤسسة فعليه أن يقدم طلباً بواسطة أحد أفراد الهيئة . وعلى ذلك الفرد أن يقدم الطلب إلى رئيسه قبل أول جلسة مقبلة . وفي تلك الجلسة يعلن الرئيس اسم الطالب الجديد للأعضاء ويطلب منهم بإعطاء الرأي فيه . وبعد مناقشة تطول أو تقصر يكاف الأعضاء بدراسة سلوك الشخص والمساءلة عنه لمدة ثمانية أيام يجتمعون بعدها للبت في الموضوع ويعبرون عن هذه الفترة بقولهم (أَكَلِينْتُ السُّوقَ) وترجمتها الحرفية (رموه في السوق) ويعنون بذلك أنهم وضعوه تحت الدراسة .

فإذا اجتمعوا بعد الأيام الثمانية طرح الموضوع للمناقشة الدقيقة يشترك فيها جميع الأعضاء ، ويحددون صلاحيته للمؤسسة أو عدمها ويقررون بناء على ذلك - رفضه أو قبوله . فإذا كان القرار بالرفض كلف مقدم الطلب الأول بإبلاغ القرار إليه . وإذا كان القرار بالقبول كلف - أيضاً - بإبلاغ القبول إليه وبطلب منه الحضور في موعد يحدد له . وفي الموعد المحدد ينعقد الاجتماع للمرة الأخيرة . ويبقى العضو الجديد ورفيقه في معزل عن مكان الاجتماع . وتعاد مناقشة الموضوع مناقشة خفيفة فإذا لم يجد في الموضوع ما يغير القرار بالقبول فيدعى العضو الجديد ورفيقه للحضور ويعان له أنه قبل في المؤسسة ثم يشرح له الرئيس واجبات العضو وأخلاقيات المؤسسة وخطوات العمل فيها والمشاق التي سوف تصادفه كما يشرح له أسباب ترقى العضو من هيئة إلى هيئة ، ثم يطلب منه إعلان موافقته وقبوله لكل ذلك علناً وصراحة . فإذا أعلن ذلك أخذ عليه عهد بكل ذلك . وبعد ذلك يصبح عضواً في المؤسسة ويعتبر أصغر الأعضاء الموجودين ولو كان أكبر منهم سناً وعامه واجبات أصغر الأعضاء وله حقوقهم وكذلك مجالس العزابة ودار التلاميذ يعتبر أصغر الأعضاء آخرهم دخولا وعليه خدمتهم وعليه أن يطيع من سبقه مهما كان سنه وعليه أن يجلس بعده في المجالس الرسمية فللأقدمية في هذه التنظيمات حقوق مراعاة .

٦ - مقر المؤسسة :

التنظيم الداخلي لهذه المؤسسة يختلف من قرية إلى قرية ولعل الصورة الكاملة له هي التبعة في غارداية .

في غارداية تعتبر المحاضر (وهي المدارس القرآنية المركزية) مراكز

لهذه المؤسسة وفي هذه المحاضر تعقد الاجتماعات وتصدر جميع التنظيمات الخاصة بالمؤسسة ومنها تنبثق جميع ألوان النشاط الذي تقوم به . ولنعطى صورة عن الحركة التي تقوم بها المؤسسة يمكن لنا أن نوضحها في الخطوط الآتية :

تجتمع طبقة الكبار فتناقش موضوعاً من مواضيع النشاط الذي تقوم به المؤسسة كالحراسة . أو منشآت تطوعية جماعية . أو توزيع صدقات موسمية ، أو غير ذلك من ألوان نشاطها . فتتخذ في ذلك قراراً أو تنظيمياً معيناً ثم يبلغ للمراكز للتنفيذ ، ولكي نوضح للقارئ الكريم أسلوب العمل في هذه المؤسسة ينبغي أن نأخذ لونا من ألوان نشاطها كمثل على بقية الأنشطة ، وقد أخذنا نشاط الحراسة كمثل لبقية الأنشطة نعرضه في هذا الفصل للإيضاح والبيان .

تجتمع إدارة المؤسسة فتقسم المدينة إلى منطقتين أو أكثر وكذلك تقسم الغابة إلى منطقتين أو عدد من المناطق وتسند كل منطقة أو عدد من المناطق إلى مركز من مراكز المؤسسة ويحدد كذلك عدد الفرق التي تتولى الحراسة ومجال تحرك كل فرقة بدقة ، والفرقة التي تتولى الحراسة ينبغي أن تكون من ثلاثة أفراد أحدهم رئيس لها . وكل مركز من المراكز الفرعية يعين الأفراد الذين يقع اختيارهم للقيام بالحراسة فيدعون إلى اجتماع خاص في مكان يحدد لهم ، وقد اصطلح أن تسمى هذه المجموعة (فرقة الحراسة) وتسمى كل مجموعة تكاف بلون من ألوان النشاط الأخرى (بفرقة . . .) أى منسوبة إلى لون النشاط فيقال (فرقة ربط السدود) ، أو (فرقة جلب الصخور) أو (فرقة توزيع الصدقات) أو (فرقة إطفاء الحرائق) أو (فرقة إغاثة الملهوفين) أو (فرقة الاحتياط العام أو الخاص) .. إلخ .

أما الأشخاص الثلاثة الذين يكلفون بالحراسة معاً فيطلق عليهم كلمة (رققة) وكذلك كل مجموعة صغيرة تكلف بمجزء من نشاط تسمى (رققة) ومعنى هذا أن الفرقة تتكون من عدد من الرققات وعدد الرققات المحتاج إليها يختلف تبعاً لفصول السنه وظروف الحياة ولعدد أنواع النشاط المحتاج إليه في وقت واحد ولعدد الأعضاء الكامل للمؤسسة ورئيس كل رققة مسئول عن رققه أمام رئيس الفرقة ورئيس الفرقة مسئول أمام رئيس المركز الفرعى ، ورئيس المركز الفرعى مسئول أمام رئيس المؤسسة الأعلى .

يجمع العدد المكلف بحراسة المدينة (فرقة الحراسة) كل ليلة بعد صلاة العصر وقبل غروب الشمس ، أما الفرقة المكلفة بحراسة الغابة فتجتمع كل ليلة بعد صلاة العشاء كل فرقة في مكان خاص يحدد لها . فيلقى عليها رئيس الفرقة التعليمات اللازمة ويحدد لها المناطق التي تلزمها حراستها في تلك الليلة ويوزع الرققات عليها ويزود الجميع بكلمة السر التي يتعرف بها بعضهم على بعض إذا دعت الضرورة. فينطلقون إلى القيام بمهامهم وعند الصباح الباكر يعودون إلى الاجتماع في مكان يعينه لهم رئيس الرققة من أول الليل فيقبادلون الأخبار والأحداث والملاحظات عن وقائع ليلتهم فيستمع إليها رئيس فرقتهم ليتخذ الإجراءات المناسبة في الليلة القادمة .

فإذا حدث حادث في الليل كوقوع سرقة أو عدوان على مال أو عرض أو ما شابه ذلك فعلى الرققة التي وقع الحادث في منطقتها أن تعتقل الجاني فيمسكه اثنان ويذهب الثالث لإبلاغ رئيس الفرقة بالحادث . أما إذا كان الحادث يستدعى مجموعة أكبر من الحراس فإن اثنين يشتملان بالحادث

ويذهب الثالث إلى الاستنجد بالرفقات المتجاورة مستعملاً كلمة السر التي لا يعرفها غيرهم وعندما يتم القبض على الجاني أو الجناة إذا كانوا عصابة مثلاً يتم تسليمه أو تسليمهم إلى المؤسسة حيث تتخذ الإجراء اللازم حالاً ، والمهم أن الأمن يسود كامل المنطقة وينام الناس في دعة وسلام تحت عيونهم الساهرة .

وأعضاء الرفقات حين ينطلقون إلى أعمالهم في الحراسة لا بد أن يخرجوا متفكرين في لباسهم ، مقنعين وجوههم بحيث لا تعرف أشخاصهم ولا يميزهم لبعضهم إلا كلمة السر التي يحفظونها هم فقط ولا يعرفها غيرهم أبداً .

المحاكمات :

عندما تعتقل رفقة من الرفقات مجرمًا متلبسًا أو عدداً من المجرمين متلبسين أو في محاولة فإنها تقدمهم إلى المجلس عن طريق رئيسها وفي أسرع وقت ينعقد المجلس للنظر في القضية ولا ينفذ حتى يتخذ القرار بالحكم وينفذ الحكم دون تردد ، ودون الرجوع إلى أي جهة أخرى .

مجلس التأديب :

إذا اتهم أي عضو في المؤسسة بأنه قام بعمل مخل بالشرف شرف الفرد نفسه أو شرف المؤسسة . فإن فرقته تعقد له في مقرها مجلس تحقيق دقيق ، وتجري معه بحثاً نزيهاً مجرداً من العواطف والاعتبارات وعلى نتيجة ذلك التحقيق يتوقف الحكم فقد يحكم عليه بالبراءة إذا ثبتت براءته في التحقيق وقد يحكم عليه بالعقوبة . والحكم بالعقوبة يختلف باختلاف الجرائم فقد تكون العقوبة لوماً وتأديبياً ، وقد تكون توبيخاً وتقريعاً (٣٦ - الإباضية)

وقد تكون بالضرب غير المبرح ، وقد تكون بالإيقاف المؤقت ، وقد تكون بالفصل من المؤسسة .

والحكمة والحكم يجرى على جميع أفراد المؤسسة بما فيهم الرئيس وهم في تحقيقهم ومحاسنتهم وحكمتهم وتنفيذهم له مستقلون كامل الاستقلال لا يرجعون إلى أية جهة حتى مجلس العزابة .

إقرار النظام :

مجلس العزابة يمثل أعلى سلطة عند إباضية المغرب وهو الذى يرفع شئون المجتمع ويقوده إلى الخير فإذا وقع الخلل فى هذا المجلس نفسه وتطرق إليه الفساد وانقسم أعضاء المجلس إلى حزبين معطاحين أو أحزاب وتدهور الوضع إلى حالة يخشى منها على مصلحة الأمة . فمن يستطيع أن يصلح هذا الفساد بالقوة إذا لم تجد أساليب المنطق والعقل والحكمة ؟ .

فى هذه الحالة يتحرك مجلس (أمستوردان) مجلس الحراسة على كل شىء فيحاول إصلاح الوضع بالحسنى ويتصل اتصالاً مباشراً بأعضاء مجلس العزابة ويحاول إقناع الخطيء والمضطرب وإرجاعهم إلى السبيل ، فإذا تعذر ذلك فإنهم يعتقدون مجلسهم فى مركز من مراكزهم ويبحثون موضوع قلب المجلس ، فإذا اتفق على اتخاذ هذا القرار سيعون منهم فإن قرار قلب النظام يكون نافذاً .

وأول خطوة يقومون بها بعد اتخاذ القرار بموافقة سبعين منهم على الأقل هو تعيين أعضاء جدد لمجلس العزابة يعين كل فرد منهم لقيام بعمل عضو من الأعضاء القدامى وفى الليلة التى يربدون فيها تنفيذ العملية يطوقون

المسجد بحراسة مشددة ثم يحضرون العزابة الجدد فيسلمون لكل واحد منهم عمله وذلك كله قبل الفجر ويمنعون العزابة القدامى من الدخول إلى المسجد لمدة ثلاثة أيام ، فإذا استقر الأمر وهدأت الأحوال وخضع الأولون للحركة فإنهم يتركون المسجد ويعودون إلى مزاولة نشاطهم أعنى أنه بعد أن يتم تنصيب المجلس الجديد ويباشر كل عضو مهامه تنسحب المؤسسة بعد أن أدت أعظم وأشق وأخطر مسئولياتها لتواصل نشاطاتها العادية في ميادينها المختلفة .

أحسب أن هذا يكفي لإعطاء صورة عن المؤسسة الثالثة عند إباضية الجزائر ، ربما اختلفت بعض النظم من قرية إلى قرية ، أما هذه الصورة فقد أخذت لمنظمة (أمسطوردان) في غارداية وقد قيل لي إنها في هذه المدينة أكل منها في بقية المدن والقرى جميعاً وربما اختلفت غارداية عن بقية القرى حتى في التسمية فبينما تنطق في غارداية (أمسطوردان) تنطق في مدن أخرى (أمسوردان) أو (أمصوردان) مما جعلني في بعض التعاليق ألاحظ قرب هذه الكلمة من كلمة (أمشيردان) أي المطهرون أو المنيظفون أو الفسالون . وكنت حين كتبت ذلك التعليق لم أعرف عنها ما عرفته الآن في رحلتي الأخيرة . ولاشك أن هذه المؤسسة تنظف الجميع من كل الشرور .

وأستبعد كل الاستبعاد أن تكون مشتقة من غسل الموتى وإن كان العزابة قد يوكلون إليهم أحياناً غسل بعض الموتى لأن غسل الموتى ليس من نشاطهم العادى ، وقد يقومون به لأسباب وظروف خاصة .

الإباضية والجهاد في سبيل الله

لاشك أن الجهاد المسلح - في سبيل الله - واجب من أوكده الواجبات على المسلمين - أمة ودولا ، وأفراداً - وأن عملية الجهاد هي النبض الحقيقي الذي يدل على الحياة ، ويبرهن على الوجود ، ويثبت الاستمرار في أداء الرسالة ، وأن توقف الجهاد من أمة ذات رسالة يعني توقف الحياة فيها ، وانعكاسها ، وارتدادها عن مكانة القيادة ومطالع الريادة إلى وهدة الجود والتفوق ، والتخلي عن تحمل الأمانة التي أوكلت إليها ، أو تعهدت بأدائها .

وذلك أن الأمة ذات الرسالة لا تخلو عن أحد موقفين :

الأول : موقف تحمل فيه رسالتها ، وتنشر حضارتها ، وتمضي مندفة لتبناها في جميع آفاق الأرض ، مسلولة السيوف ، مشرعة الرماح لتأمين الدعوة ، وحفظ صوت البلاغ ، وفتح الطرق أمام كلمة الحق حتى تبلغ كل أذن ، ويعيها كل قلب وتتضح لكل عقل .

فإن هي أغمدت سيوفها ارتدت إليها سيوف أعداء الدعوة ، وتناوشتها رماح المقاومة المضادة .

الثاني : موقف تكون فيه في موقع الهجوم ، ولاكنها تقف ثابتة في مكانها مستعدة لكل الطوارئ ، متحفزة لرد أي عدوان مضاد . حتى تستكمل أدائها إن كانت محتاجة لأداة ، أو راحتها إن وقفت للاستجمام ، أو موعدها إن توقفت لعهد أو هدنة .

وقد حمل المسلمون رسالتهم وحضارتهم إلى آفاق العالم في صدق وثبات

ينشرونها - وسيوفهم مسلولة ، ورماحهم مشرعة - فلما توقفوا عن الجهاد ، وأغمدوا سيوفهم ، ارتدت إليهم سهام أعدائهم ووجهت إليهم طعنات سيوفهم ، وانقلبت المعركة ، فبعد أن كان المسلمون - وهم في حماية الدعوة - مهاجمين ، أصبحوا وهم في حماية أنفسهم وكراسيهم - مدافعين ثم أصبحوا على تلك الكراسي متنازعين .

وبنظرة بسيطة إلى التاريخ الإسلامي منذ ابتداء الفتوح وامتدادها إلى جميع الجهات حتى تغلب الاستعمار وشمول احتلالاته ، يتضح لك أن المسلمين كانوا في انتصار متواصل وتقدم مستمر حين كانوا يحملون دعوتهم منطلقين بها وأسلحتهم موجهة إلى صدور عدوهم - فنشروا الإسلام في جميع أنحاء العالم ، وبلغوا الحضارة إلى كل أطراف المعمورة . ونعم بالحرية والعدالة كل من عمهم ظل حكمهم ، وكانت الدنيا تسع لهم ، وتنفسح أمامهم وتنتفتح تحت ضربات أقدامهم باستمرار ، فلما توقفوا عن الجهاد ووضعوا سيوفهم في أغمادها وعادوا بنظرم إلى الداخل . وفكروا تفكيراً مادياً صرفاً ، فأرادوا تقسيم ما بأيديهم ، تولد فيهم النزاع على الكرسي ، وتهارشوا على سلطة الحكم فأصبح السلاح الذي كان يوجه إلى الفتوح يقوم بجزئته الصفوف ، والجيش الذي كان يضرب العدو، منقسماً على نفسه يضرب بعضه بعضاً . فتوقف تقدمهم الحضاري ، ونشروهم للإسلام ، ثم اشتبكت أسلحتهم فيما بينهم ولم يزالوا يمزقون وطنهم حتى صار أجزاء صغيرة ضعيفة متحاربة لا يقوى أي منها على رد عدو . ولا يطمئن إلى مساعدة تأتي من الأجزاء الأخرى . فتقدم إليهم العدو يلتهم تلك الدويلات الضعيفة بكراسيها المتداعية قطعة بعد قطعة . ولم ينتصف القرن التاسع عشر الميلادي حتى صار أغلب العالم الإسلامي بدوله السكثيرة الصغيرة محكوماً للاستعمار إما حكماً كاملاً ، وإما حكماً قريباً من الكامل .

وفي هذه الأثناء - أي منذ توقف الجهاد في سبيل الله انقلب حال المسلمين بدولهم الصغيرة إلى حالتين :

الحالة الأولى :

تتمثل في دفاعهم للعدو المهاجم بما أمكن من القوى، وقد كانت مواقف الناس، والدول التي تقصدي للقيام بهذا الدفاع تختلف تبعاً للظروف المختلفة، كالموقع ونظام الحكم ونوع العلاقة مع العدو المهاجم وعلاوة الدولة المدافعة بالدويلات الإسلامية المجاورة، ثم مقدار ما تشعر به من الأمن في داخلها وهي مشتبكة مع العدو. يضاف كل هذا إلى الاستعداد النفسى والمادى للجهاد في سبيل الله وما يلحق بهذا من المؤثرات .

الحالة الثانية :

تتمثل في انشغال بعض الدويلات بتأمين نفسها، أو اشتغالها باستغلال ظروف جارتها المنهكة في اشتباك مع العدو للحصول على مكاسب بشرية أو ترابية تضيفها إلى رقعتها الضيقة . هذا مع العلم بأن علماء المسلمين وصادق المؤمنين لم ينفكوا في أى لحظة عن الصراخ برجال السياسة والحكم لكي يتبذوا مطامحهم ومطامعهم الشخصية، وأن يتحدوا في نظام واحد يستطيعون فيه أن يوجهوا أسلحتهم - بكل جدارة - إلى أعداء الله وأعدائهم الحقيقيين، ولكن تلك الصرخات كانت تتحطم على رغبات ومطامح الحكام الأقزام الذين أعمى تشبهم بالكرامى أبصارهم وصرفهم عن معرفة حقيقة تشبهم في ميزان الحقائق والقيم والقوى .

وموقف الإباضية - في هومه - لا يختلف عن موقف بقية الأمة الإسلامية، وبالنسبة إلى إباضية الجزائر يمكن لنا أن نرسم لموقفهم في الجهاد

صورتين توضحان هذا الموقف وتبرزان أهم ملامحه وأبرز سماته .

الصورة الأولى :

عندما كان لإباضية الجزائر دولة قائمة في تاهرت هي الدولة الرسمية . ونحن حين ننظر إلى خريطة الجزائر الجغرافية للبحث عن موقع الدولة الرسمية التي كان أئمتها على المذهب الإباضي - لنرى مبلغ جهادها في سبيل الله لأعداء الإسلام - يتضح لنا أن موقع تلك الدولة كان في داخل البلاد ، أي أنها ليست مواجهة لأعداء الإسلام في أي جانب من جوانبها .

أي أنها ليست من دول المواجهة بتعبير اليوم . فبينها وبين أعداء الإسلام - من كل جهة - بلاد واسعة تقوم عليها دول إسلامية مختلفة الأسماء والنزعات .

وتلك الدول - فيما بينها - على وفاق حيناً وعلى خلاف وخصام أحياناً كثيرة . وليس للدولة الرسمية منفذ إلى العدو إلا بالمرور على أرض إحدى تلك الدول ، وتلك الدول هي ذات كيانات مستقلة أو شبه مستقلة لا تسمح أبداً ومهما كانت الأسباب والظروف بمرور قوات عسكرية داخل أراضيها . ولذلك فلم يذكر لنا التاريخ - فيما أعلم - أن الدولة الرسمية قد اشتبكت أو اشتركت في جهاد فعلي ضد أعداء الإسلام^(١) .

يضاف إلى هذا أن الأمة الإسلامية - في عمومها - في تلك الفترة كانت قد بدأت تبعد عن الجهاد ضد العدو الخارجي وصارت أسلحتها تتجه إلى

(١) يرى المؤرخ البحاثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود غير هذا الرأي . ولعله اطلع في مصادر التاريخ على ما لم أطلع عليه من قيام الدولة الرسمية منفردة أو مشتركة بحروب ضد أعداء الإسلام والجهاد في سبيله .

الداخل يضرب بعضها بعضاً . وأحسنها حالاً تلك التي كانت تقف في صمود ومصابرة لرد العدوان المتكرر من أعداء الله سواء كان أولئك الأعداء تحت راية الشرك أو تحت راية أهل الكتاب من نصارى ويهود .

وعلى كل حال فإنه يبدو لنا أن الدولة الرستمية لم تقم لها فرصة للقيام بواجب الجهاد المقدس استمراراً بالفتح . والله وحده يعلم ما كانت هذه الدولة فاعلة لو أن موقعها كان في مواجهة العدو الحقيقي ، ولو أن مجال الاستمرار بحمل الرسالة والانطلاق بها كان مفتوحاً لها .

الصورة الثانية :

هي مواقف الإباضية - ضد أعداء الإسلام - في هذا المدى التاريخي الطويل الذي سر بالجزائر وليس للإباضية بها دولة ، وليس لهم فيها سلطان . وإنما هم يكوّنون مجتمعات مستقلة أو شبه مستقلة يسكن في بعض الواحات من جنوب الجزائر . يتولى جميع شئونها مجلس منقخب يسمى (مجلس العزابة) أو هم يعيشون أسراً قليلة متناثرة أو فرادى من جهات مختلفة من أنحاء الجزائر .

ولمدي معرفة جهاد الإباضية للعدو الخارجي .. وكله في نطاق الدفاع في هذه الفترة التاريخية الطويلة يمكن أن نقناولها من ثلاثة جوانب :

الجانب الأول : عمل فردي . وذلك أن أعداداً كبيرة من الإباضية في الجزائر يعيشون في مختلف المدن - لاسيما مدن الشمال والشواطئ .. يعملون في التجارة أو غيرها هنا أو هناك . وهم حين يفتعون متاجرهم هناك في تلك المدن والقرى يستقرون فيها لمدة طويلة كأنهم من سكانها وعندما يحاول

أى عدو من أعداء الجزائر الاعتداء على إحدى تلك المدن فإنه يجد سكانها ومن ضمنهم الإباضية الذين يشتغلون بالتجارة فيها - قد استعدوا للدفاع عنها . وطبيعة الدفاع تقتضى أن يهب الجميع مشتركين متداخلين لصد العدو ان فيدخل الإباضية - أفراداً - ضمن المجموعات الأخرى من بقية السكان وأحياناً تقتضى طريقة الدفاع وأسلوب تنظيم المقاومة أن يقسم المدافعون إلى فرق أو مجموعات تحت أى مبرر - ليسند إلى كل فرقة منها مهمة الدفاع إما فى جانب من الجوانب أو جهة معينة ، أو للقيام بعمل محدد ، وقد كان موقف الإباضية فى جميع هذه الأحوال مشرفاً^(١) .

فقد صنعوا إسبانيا الاستعمارية فى عهد طاغيتها شارل الخامس صنعة مؤلمة تلقاها قائده لأهمال القرصنة فى برج (بوليلة) سنة ١٥٤٨ م - ١٥٤١ م ، ومنذ تلك الصنعة لم تقم لإسبانيا الاستعمارية قائمة وبدأ نجمها فى الأفول .

وعندما انصبت فيران الاستعمار الفرنسى على الجزائر وقف الإباضية مواقف مشرفة فى كل مكان . وكانت لهم مواقف بطولية يضرب بها المثل كما وقع فى قسنطينة والحراش وغيرها .

قال أستاذنا الفاضل الشيخ أبو اليقظان - رحمه الله - فى رسالته المخطوطة

« الإباضية فى شمال إفريقيا » ما يلى :

« ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى موقف بنى ميزاب - وهم مسلمون

(١) يذكر المؤرخ البجائنة الشيخ سليمان بن الحاج داوود أن هناك وقائع كثيرة من الجهاد فى سبيل الله قام بها إباضية الجزائر واشتركوا فيها عبر البحر الأبيض المتوسط . وبما أنه ليست لدى مصادر موثوقة بها تثبت بها ذلك الآن وأنتى فى هذا الفصل لا أريد إلا أن أقدم للقارئ صورة مصغرة عن هذا الموضوع فقد اكتفيت بما أوردته كخطوط عريضة للموضوع أو طرقات على باب ينبغى للشباب المؤهل أن يفتحه .

طبعاً - مع فرنسا عندما هجمت على الجزائر سنة ١٨٣٠ فقد تطوع بنو ميزاب بألف جندي من الشبان - جهد المقل - في الدفاع عن الجزائر وإن موقفهم البطولي بين جدران قسنطينة ضد الغزو الفرنسي معروف يثير الإعجاب حتى من التواد الفرنسيين أنفسهم « انتهى » .

وقد اشتركوا في جميع الثورات والانتفاضات التي قامت في الجزائر ضد المحاولات الاستعمارية سواء كانت تلك المحاولات من إسبانيا أو من فرنسا بجهود تختلف قوة وضعفاً حسب ظروف الحال وحسب طبيعة الدفاع .

الجانب الثاني :

عمل جماعي تنظيمي وله صور كثيرة ، كوقفهم في الحراش وفي قسنطينة وكإرسالهم ألف منطوع من وادي ميزاب نفسها بالإضافة إلى من عندهم في المدن الجزائرية المختلفة ولعل أهم هذه الصور وأوضحها الموقف القدائي لطردهم الإسبان بعد أن ركزوا أقدامهم في الشاطئ الجزائري وخلصوا الموقف كما يلي (١) :

(١) أخذت هذه الصورة بنصها عن كتاب (أخلاق وعادات الجزائر) لمؤلفه الجنرال دوماس مستشار الدولة ومدير شئون الجزائر بوزارة الحرب ثمرة هاشيت سنة ١٨٥٣ . وقد ترجم لي هذا النص خصيصاً الأخ المؤرخ البيعثة الشيخ سليمان بن الحاج داوود كما عثرت على نفس الحادثة تحمل نفس الصورة مستقاة من مصادر أخرى فيها خلاف طفيف عن هذه الصورة في بعض التفاصيل الجانبية . وكنا الصورتين تفيد أن الذين قاموا بهذه العملية الجريئة هم من الإباضية فقط . وأنهم كانوا مصممين على القيام بها مع يقينهم بعدم نجاحهم من الموت . فهي عملية فدائية من أروع عمليات القداء وقد تمت بنسف البرج - حسبما تقوله المصادر الأخرى لا باحتلاله كما يقول دوماس ثم قرار من نجا من جندشارل-كان ، وشارل-كان نفسه .

« إنها تعود إلى سنة ١٥٤١ م وإلى الحملة للرهبنة التي وجهها شارل الخامس (شارلسكان) ضد مدينة الجزائر التي بدأ القراصنة البرابرة لتحصينها لجعلها مصدر الرعب للمسيحية .

وجد الإمبراطور بعد الاستطلاع أن الربوات التي تشرف على مدينة الجزائر من جهة الجنوب هي موقع مناسب لتثبيت قطع المدفعية ، وأعطى الأوامر لكي يشيد - برج أو مركز هجوم - في أسرع وقت لأن هذا المركز يشكل نقطة هامة بالنسبة لجيشه . وإن الأحجار والمواد الضرورية وقع اختيارها في ناحية عن (ذريوط) سهل مصطفى باشا (ميدان المناورات) وقف صفان من جنود المشاة تحمل مواد البناء من السهل إلى المرتفعات أحدهما يمد التقف الملقى والآخر يرجعها فارغة . وفي ليلة واحدة شيد برج منيع محاط بالخنادق وساحه بقطع المدفعية ذات العيار الكبير . وسماه العرب برج (بوليلة) تخليداً للسرعة الهائلة التي بنى بها .

من الصعب جداً الاستيلاء على موقع كهذا على درجة كبيرة من الحصانة والمناعة ، والمدينة بعد أن صغت لا يمكن أن تصمد أكثر .

في هذه الظروف الحرجة قرر بنو ميزاب - الذين يوجد منهم عدد كبير منذ ذلك الوقت في الجزائر - أن يضحوا بأنفسهم لإنقاذ المدينة فعرضوا خطتهم على الباشا ، فما كان من هذا الأخير إلا أن وافق كما هو متوقع .

والحملة التي استعملها بنو ميزاب للوصول دون خطر إلى الموقع هي كما يلي :

لبسوا ملابس النساء ، وغطوا وجوههم باللحاف حسب المادة المحلية حتى لا تظهر لحام وشواربهم ، وأخفوا تحت حوائكهم مسدسات ملأى بالذخيرة وخناجر مشحذة - فخرجوا من المدينة من جهة (الباب الجديد) وتوجهوا نحو الموقع عند ظهورهم توقف الإسبان الموجودون في الخنادق عن إطلاق النار ظناً منهم أن سكان المدينة قد استسلموا مهربين عن ذلك بهذه القافلة من النساء حسب الطريقة المتبعة عند المسلمين^(١) .

وهكذا دخل هؤلاء المهاجمون الماكرون الحصن دون عرقلة ، وما إن دخل آخرهم حتى كشفوا عن دورهم الحقيقي فأفرغوا أسلحتهم في هؤلاء الأسبان المغرورين ، وسلوا خناجرهم فاحتمت معركة عنيفة ورهيبة لم تنته إلا بموت آخر مدافع الحصن . ورغم المفاجأة لم يكن الدفاع أقل عنفاً وضراوة مما تسبب في هلاك كثير من بني ميزاب . وما إن سيطر هؤلاء على الحصن وبعد الإشارة المتفق عليها من قبل ، أسرعت قافلة من جنود المشاة كانت قد أعدت من قبل وراء الباب الجديد فأخذت مواقعها داخل برج (أبو ليلة) انتهى .

هذا موقف من مواقف الجهاد في سبيل الله كما صورته مستشار دولة

(١) ليس من عادة المسلمين إذا اضطروا إلى التسليم في معركة ما أن يهربوا عن ذلك بإرسال وفود النساء إلى عدوهم وليست هذه الطريقة طريقتهم وإنما هم قد يرفعون أعلاماً بيضاء دلالة على وقف القتال ثم يفاوضون عدوهم - ولو كان منتصراً في معركة - بجماعة مرفوعة لا مكان للذلة فيها . أما المرأة عندهم فتبقى مكرمة مصونة لا تعرض لمثل هذا الموقف أبداً ما بقي من المسلمين رجل يستطيع أن يرفع السلاح .

ولعل غيرهم ممن اعتاد أن يتاجر بالمرأة في جميع الميادين ، وبيننا ، بسخاء ، مقابل أى مكسب هو الذى يفعل هذا والتاريخ العام يذكر عدداً من النساء اللواتي تاجر بهن أفوامهن واتخذوا منهن بضاعة رخيصة فكسبوا على أعراضهن وجالهن مكاسب مادية أو سياسية . ولكن ليس بينهن - والحمد لله - نساء المسلمين .

معادية يتولى إدارة شئون الحرب في الجزائر بفيض قلبه مرارة من فشل الإسبان ، وحقداً على المسلمين . ولا شك لو أنا أخذنا الصورة عن مؤرخ . نزيه لكانت أجمل وأروع من هذا بكثير .

وقد نتج عن هذه العملية الفدائية التي قام بها بعض الإباضية المقيمين في عاصمة الجزائر - كعجارج - إعجاب وتقدير في نفس الباشا التركي وأراد أن يكافئهم على ذلك الجهود العظيم والتضحية الغالية فرغب إليهم أن يقدموا إليه ما يشاءون من مطالب فطلبوا منه ما يلي :

١ - أن تبقى الاتفاقية السابقة بينهم وبين الدولة التركية سارية المفعول مع الاهتمام بتأمين طرقهم .

٢ - أن يعطى لهم امتياز الإشراف على مذبح الجزائر حتى يضموا صحة الزكاة وحماية اللحوم .

٣ - أن يؤخذ برأى أمين جماعة الحرفة ، وتنفذ له الجهات الرسمية طلباته فيما يتعلق بإرجاع بعض الأفراد من الإباضية إلى واحاتهم إذا خيف عليهم الانحراف .

٤ - أن تعطى لهم أولوية فتح الحمامات وإدارتها .

فوافق الباشا على جميع مطالبهم وهي مطالب كما يرى القارئ الكريم بسيطة ، وربما سخر منها من لا يعرف أو لا يقدر النظرة العميقة التي بنيت عليها .

الجانب الثالث : ويتناول الكفاح المزدوج في الناحيتين السياسية والعسكرية لمدى طويل ونستطيع أن نوضح معالمة - بإيجاز - في كفاح :

بنى مصعب للإستعمار الفرنسى منذ احتلال فرنسا للجزائر إلى أن طردت منها وذلك على نطاقين : نطاق خاص ، ونطاق عام .
* فى النطاق الخاص : ونعنى به كفاحهم فى سبيل حرية واستقلال وطنهم (وادى ميزاب) خاصة .

ولكى نبين هذه النقطة على أساس سليم من التاريخ ينبغى أن يعرف القارئ الكريم أن الميزابيين قد اتفقوا مع الدولة التركية فى مبدأ أمرها أن يعترفوا بسيادتها ، وأن يدفعوا لها ضريبة معينة قدرت بما يساوى (٤٥٠٠٠) فرنك فرنسى وأن لا يساعدوا أو يأووا أى قائم عليها أو مناهض لحكها ، ولم مقابل ذلك أن يتعاطوا تجارتهم فى أى بلد خاضع لسيادتها - بكامل الحرية وأن تؤمن طرقهم ومواصلاتهم^(١) ، وقد وفوا لها بما اشترطت عليهم ، ووفت لهم ببعض ما اشترطوا عليها . وقد بقى الوضع على هذه الحال إلى أن خرجت الدولة للتركية من الجزائر واستولت الدولة الفرنسية عليها سنة ١٨٣٠ فاتخذت جهاد الإباضية منعطفاً ثانياً .

لقد وقف بنو مصعب لحماية مدنهم موقف الشعب الحر الشريف ، ولم يتمكن الفرنسيون أبداً من احتلالها واتخاذها مستعمرة ، وعندما سقطت مدن الجزائر كلها شرقياً وغربياً وجنوبياً ولم يبق إلا مدنهم اضطر الإباضية إلى نوع من التساهل كما اضطررت فرنسا أن تتنازل عن كبرياتها الاستعمارية ، وأن تقتصر على مد نفوذها الاسمى على تلك المدن ، وقبل بنو مصعب -

(١) الوثائق الآن ليست تحت يدى ولتلك فقد تركت التجديد ، وأحسب أن هذه الاتفاقية إنما عقدها وفد من بنى مصعب مع خير الدين فى أواخر الربع الأول من القرن العاشر الهجرى . ربما قيل أو أثناء الحركة التى قام بها أحمد بن القاضى وقاره حمدن قاضى خير الدين أن يخمدها بنفسه .

بعد كفاح مربر (سياسياً وعسكرياً) استمر اثنين وعشرين سنة وزيادة
- أن يعتقدوا معها معاهدة حامية شبيهة بالانفاقية التي كانت لهم مع تركيا .

من سنة ١٨٣٠ إلى سنة ١٨٥٣ بقيت هذه المنطقة حرة مستقلة لا تخضع
لأحد . وفي سنة ١٨٥٣ عقدت معاهدة الحماية بين فرنسا وبنى مصعب على أن
يعترف بنو مصعب بسيادة الدولة الفرنسية وأن يدفعوا لها نفس الضريبة التي
كانوا يدفعونها للدولة التركية ، وأن لا يساندوا أو يأووا إليهم من بثور
عليها . ولهم عليها أن لا تدخل بلادهم ، وأن لا تدخل في شئونهم ، وحتى
الضريبة المتفق عليها يقومون هم أنفسهم بجمعها ثم يحماها وفد منهم إلى مدينة
الأغواط التي افرنسا فيها مركز لأن مدن لإباضية إلى ذلك الحين ليس فيها
أى مركز حكومى ، ولا أى حاكم فرنسى والتي تنص المعاهدة أن تبقى
كذلك أيضاً .

على أن الاسمبار كالمرض انلييث قد يستكن ولكنه لايشفى ، ويتحرك
حين تواتيه الظروف الملائمة . ففي سنة ١٨٨٢ أعلنت فرنسا أنها ألحقت بلاد
بنى ميزاب بأملاك فرنسا . وبصورة شبه مفاجئة ، ودون أن يعرف الميزابيون
أنفسهم شيئاً عن الموضوع تحركت حامية عسكرية من الأغواط وانتصبت
في غارداية دون أى مقدمات ، فلم يتعرض لها السكان بالقوة ظناً منهم أن
المطالبة باحترام نصوص المعاهدة كفييلة بإرجاع الأمور إلى نصابها .
لاعتقادهم أن هذه الغامرة ليست من الدولة نفسها وإنما هي حركة من بعض
القواد العسكريين في الجنوب ، وعندما احتج الميزابيون على هذه الحركة لدى
الحكومة الفرنسية أجابتهم - بأسلوب المراوغات السياسية المعروفة - أنها
متميزة بنصوص المعاهدة وأنها حريصة على تنفيذها والمحافظة عليها . ولكن

الاستعمار لا يعرف الصدق ولا الوفاء ولم تخرج الحماية الفرنسية من غارداية إلى أن خرجت فرنسا من الجزائر . وقد جابه بنو مصعب هذا التصرف من الدولة الفرنسية من جهة بسلسلة من الاحتجاجات والمقاومة الدبلوماسية المبنية على احترام القوانين والمعاهدات والأعراف الدولية - لاسيما وأن فرنسا حينئذ كانت تدعى أنها حامية القانون وحارسة الحضارة - فكانت تود أن لا ينداع عنها في الأوساط العالمية ما يناقض دعواها ويكشفها على حقيقتها . ومن جهة أخرى نظموا مقاطعة سلمية^(١) ضد كل ما يتصل بالفرنسيين ولا سيما فيما يتعلق بمساعدتها على إدارة الأعمال . وقد أرادت بناء على استيلائها على المنظمة أن توظف كل مجموعة من الإداريين لمساعدتها فعرضت وظيف (قائد) على كل مدينة ولكن أحداً من أهل البلاد لم يتقدم لهذا الوظيف . ووقف المسلمون المجاورون - احتراماً لإخوانهم - نفس الموقف فلم يتقدم منهم أحد لشغل ذلك الوظيف المغربي مع حرص الحماية على شغله بعنصر وطني يكون بمثابة فتحة ثغرة في الصفوف وإحداث صدع فيها . فلما لم يتقدم أحد من المسلمين تقدم له يهودي من الأغواط وجاء فاستلم عمله في مركز غارداية - وبدأ عمله بنوع من التوقح والغلظة والكبرياء . وبينما كان يسير ذات يوم بين القرى - في انتفاخ وزهو - امتدت إليه يد فاغمالته . وقامت قيامة الدولة الفرنسية وارتسكبت من وسائل التعذيب والتفكيك ما ترتسكبه الدول الاستعمارية عادة في مثل هذه المواقف .

(١) قال الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى في رسالته إلى مالي : « وما كاد الاحتلال العسكري يتم حتى نظم الميزابيون المقاطعة السلمية ضد كل ما يتصل بالفرنسيين سيما الوظيف الذي يمنحون بموجبه اليد المطلقة في كل بلدة وهو وظيف القيادة وقد رفض الميزابيون هذه المسئولية مع ما فيها من نفوذ ولم يقبلوه حتى عيّنوا يهودياً يسمى (ففتح بشاعة) حاكماً بأمره ولكن انفدائين أعدموه في وادي مليكة أي خارج القرى . وعيّنوا حاول الفرنسيون العثور على قاتله . فطالبوا الميزابيون بدفع ديته » .

كما أن المقاومة السلبية لم تقف عند حد الرجال ، وإنما تقدمت المرأة إلى اتخاذ موقف رافع . فقد ذكر الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى في رسالته : « إن الجماعات الدينية للنساء نظمن مؤتمراً تحت رئاسة رئيسة الجماعة الدينية النسائية بغارداية وهى المسماة (مامة بنت سليمان) وقررن إصدار أوامر بمقاطعة كل ما يتصل بالفرنسيين من لباس ومواد وغيرها » . وكان هذا الموقف المشرف من هذه المرأة المؤمنة من المواقف التي رفعتها إلى مصاف زعيمات النساء المسلمات في العصر الحديث . فقد اعتبرها صاحب كتاب (ثورات النساء في الإسلام) واحدة من اثني عشرة امرأة اشتهرن بمواقف بطولية في العالم .

ورغم أن الحكومة الفرنسية أعلنت - عندما احتلت حاميتها العسكرية غارداية فاحتج مواطنو المنطقة على هذا التصرف الخالف لنصوص المعاهدة المبرمة بينهم وبينها - أنها ستحافظ على نصوص تلك المعاهدة وأنها ستفي بالتزاماتها ، ولكنها لم تفعل ذلك بل أنها في سنة (١٩١٢) - وشبح الحرب العالمية الأولى يطل عليها ، والدمار يهددها ، وكانت تشبث بكل ما تعتقد أنه يزيد في قوتها كما يشبث الفریق بذب الأفعى - فرضت التجنيد الإجبارى على الإباضية باعتبارهم خاضعين لسيادتها ، فقاموا لذلك وقعدوا ، ووقفوا في الرفض موقفاً مصمماً لا يتزحزون عنه ، وبعد صراع عنيف اقترح بعض ساسة فرنسا حلاً وسطاً وذلك بأن يدفعوا للدولة الفرنسية مبالغ من المال يمكن لها أن تستأجر بها مرتزقة بالعدد الذى فرضته عليهم بدلا عن أبنائهم ، فلم يقبلوا هذا الحل ، وكان مما استندوا إليه في رفضهم للتجنيد الإجبارى بالإضافة إلى تمسكهم بنصوص المعاهدة وعدم اعترافهم بأن لفرنسا هذا الحق . وأن ذلك الأمر ليس له أى أساس من الشرعية (٣٧ - الإباضية)

مهما كان مصدرها - ما يلي^(١):

« والآن نبين هنا بإيجاز منفاة الجندية لحلة ميزاب الدينية وناخصها

فما يلي :

أولاً : إن الجندية تجعل الجندي مجرمًا إزاء دينه حيث تضطره لقتل
أناس لا موجب لتعلمهم وقد قال الله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه
جهنم خالدًا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾^(٢) .

ثانيًا : تلزمه في صورة التعويض أن يستأجر بماله من يقتل - كذلك -
أحدًا بدون موجب شرعي ، والقائل بنفسه أو بماله سواء .

ثالثًا : تضطره لترك ركن عظيم من أركان دينه وهو الصلاة وليس
بين العبد والكافر إلا تركه الصلاة .

رابعًا : تجبره على أكل ما لا يحل له دينه أكله وعلى شرب ما لا يحل
له شربه .

خامسًا : تفسد له أخلاقه التي يوجب عايمه دينه أن يتصف بها .

هذا مجمل ما في الجندية من منفاة للدين الإسلامي ولذلك قال ذلك
الرجل الحر : (م . برونيل) : لأنه يستحيل تحقيق إجراء الخدمة العسكرية على
بني ميزاب بدون اعتداء على الفرائض الدينية بمقتضى المذهب الإباضي الذي
يوجب خمس صلوات في اليوم والليله مع وضوءاتها » .

وقد أخذت قضية التجنيد الإجباري من إباضية الجزائر حجمًا ضخماً
شغل المحافل السياسية والعسكرية والقانونية والقضائية فترة طويلة من الزمن

(١) منقول بالنص من كتاب (بيان حقيقة) مؤلفه عمر بن عيسى بن إبراهيم

طبعة سنة ١٣٥٠ هـ .

(٢) النساء : ٩٣

إذ استمر الصدام فيها إلى سنة ١٩٤٥ حين اعترفت فرنسا بخطئها وألغت قرارها ذلك - بعد أن تورطت في مواقف لم تكن تحب أن تورط فيها وعراها موقف الميزابين الذي احتفى بالقانون والعرف الدولي أمام أنظار العالم ديبلوماسياً وأظهرها على حقيقتها دواته استعمارية شرسة بعيدة عن معاني الحضارة والإنسانية .

ولست قضية التجنيد هي القضية الوحيدة التي شغلت الرأي العام الفرنسي والجزائري من كفاح إباضية الجزائر . بل هناك قضايا كثيرة منها قضية مقبرة قسنطينة التي شغلت الرأي العام عشر سنوات كاملة وكانت من القضايا الهامة التي تضاربت فيها رغبات السياسة والإدارة من جهة وآراء القضاء والقانون من جهة أخرى وبعد معارك طاحنة على الساحات الجزائرية ثم على الساحات الفرنسية في باريس نفسها استطاعت دور العدالة أن تقف في مواجهة السياسة والإدارة وأن تكبح جماحها ، وثبت الحق الذي دافع عنه هذا الشعب الإباضي الصغير بصمود واستماتة حتى ظفربه .

إن الإباضية حينما انتهكت فرنسا حرمة المعاهدة وعلّموا أنهم لا يستطيعون مجابهتها بالقوة العسكرية التجأوا إلى ميدان السياسة والقانون وكانوا يرفعون قضية في كل جزئية تنمّج عن انتهاك فرنسا لحرمة المعاهدة فأصبحت دور العدالة في كل من الجزائر وفرنسا مشغولة بالقضايا ضد الحكومة نفسها وكانت بعض الجرائد الحرة وبعض الجرائد المحلية لا سيما جرائد الشيخ أبي اليقظان - رحمه الله - شيخ الصحافة في ذلك الوقت تناول تلك القضايا بتعاليق تشجب فيها مواقف فرنسا وتحذر العدالة - وهي القيمة الوحيدة الباقية لفرنسا الاستعمارية - من الزيغ والانفكاس والوقوع في أحضان السياسة أو الخضوع لإجراءات الإدارة .

وقد أيدهم ووقف إلى جانبهم بعض أحرار الفرنسيين من المحامين والقضاة ورجال الصحافة ورجال السياسة . وهكذا لم تستطع فرنسا بما أوتيت من قوة أن ترغم أولئك الناس - مع قلة عددهم - على الخضوع لها فبقي الإباضية في تلك البقعة الصغيرة متميزين عن بقية السكان بأنهم تحت حماية وليسوا تحت نفوذ احتلال واستعمار . مما غل الأيدي الاستعمارية وحال دونها ودون التغلغل فيما بينهم . وبقية مجالس العزابة، ومجالس العشائر، ومجالس الحراسة، تتولى هي بنفسها جميع شؤونهم الدينية والاجتماعية والاقتصادية . ورغم محاولة فرنسا وبطشها لم يزد تأثيرها عليهم عن مبلغ من المال تأخذه منهم بتمتضي الانفاقية ، وحامية عسكرية صغيرة منتصبة في غارداية ليس لها من حقائق الحكم إلا راية ترفع على مركزها عند الصباح وتنزلها عند المساء .

ولعل مما يوضح هذا الموقف أن تقتطف صوراً مما قاله المؤرخون فقد جاء في كتاب (موجز التاريخ العام للجزائر) للأستاذ عثمان الكعاك ص ٤٥٥ ما يلي :

« ولا تزال بلادهم إلى الآن متمتعة باستقلالها الداخلي لا تربطها بفرنسا إلا روابط خفيفة » .

وقال الأستاذ أحمد توفيق المدني في (كتاب الجزائر) ص ١٨٤ ما يلي :

« واستمر الميزابيون يديرون بلادهم باستقلال حسب مذهبهم الإباضية وكان لهم بها نظام جمهوري متقن مدبوع . وكانوا يخضعون اسماً للدولة التركية وقد تطوعوا عندما استنفرهم حسين باشا للدفاع عن الجزائر بألف رجل . ثم اعترفت لهم فرنسا بذلك الاستقلال الداخلي المطلق بمعاهدة سنة ١٨٥٣

وأخيراً نقضتها برسالة سنة ١٨٨٢ بدعوى أن الميزابيين أووا إليهم النافرين على فرنسا وأمدوهم بالسلاح .

وقال في ص ٢٢٦ ما يلي :

« ولما أعلنت فرنسا تجنيس سائر اليهود في الجزائر لم يشمل يهود ميزاب ذلك الأمر ، لأن بلادهم ليست تابعة لفرنسا بل هي بلد حامية » .

وقال في صفحة ٦٥ ما يلي :

« ثم لما أعلنت فرنسا قانون فصل الدين عن الدولة سنة ١٩٠١ ضبطت كافة الأوقاف الإسلامية التي كانت تقوم بحياة المساجد ورجال الدين والقضاء الإسلامي ، وأدخلت كل ذلك ضمن أملاك الدولة ، ووزعت الأرض على الاستعمار فلم تبق بأرض الجزائر من أوقاف عامة إسلامية إلا ببلاد ميزاب وحدها نسأل الله أن يقي تلك الأوقاف عوادي الحدّثان » .

أحسب أن هذه المتعطفات كافية لإيضاح الكفاح الطويل الذي قام به الميزابيون - لحماية أنفسهم - في ميدان السياسة والقانون ، وأنهم استطاعوا أن يحفظوا عليهم استقلالهم رغم محاولات الاستعمار وحنق الجهات العسكرية .

وهكذا بقيت معاهدة الحماية نافذة المفعول رغم أن السلطة العسكرية اغتبتها بقرار . ولكن ذلك القرار بقي جبراً على ورق ، إذا استثنينا تلك الحامية التي انتصبت بالقوة في غارداية واستطاعت في الفترة الأخيرة وبعد اغتيال اليهودي (فتح) وما قامت به من تنكيل وتعذيب للمواطنين أن تجد أشخاصاً - ربما كان قصدهم حماية وطنهم من أمثال (فتح) فتحت

لهم هناك مكاتب وأسندت إليهم وظائف دون أن يكون لهم مع الجمهور شغل . لأن الجمهور بقي يرتفع بمشاكله كلها إلى الجهات التي ألفها منذ قرون واطمأن إلى كفاءتها ونزاهتها ومراعاتها للحق والمصلحة .

وإذا ما استثنينا سنتي ١٩٢٠ - ١٩٢١ من السكفاح الميزابي ضد التجنيد الإجباري التي أرغم فيها الشباب الميزابي - ولطالبتين السنتين فقط - على الخدمة العسكرية . فقد استطاع الشعب الميزابي من قبل ومن بعد أن يرفض هذا الأمر حتى اضطرت فرنسا أن تقنازل عن كبريائها وتعترف بخطئها وتلغى ذلك القرار في سنة ١٩٤٥ م .

ولعله مما يفيد القارئ الكريم أن أنقل له مقتطفات مما جاء في كتاب (بيان حقيقة) الذي يصور جزءاً من الصراع العنيف بين هذا الشعب الصغير القوي وقوى الشر في فرنسا الاستعمارية واحتماء هذا الشعب بالمبادئ والقانون والأعراف الدولية .

جاء في هذا الكتاب ما يلي :

« ولكن الاتفاق الواقع في ٢٩ أبريل سنة ١٨٥٣ بينهم وبين الوالي العام للجزائر الكونت (راندون) جعلهم تحت حماية فرنسا والتزموا لها مقابل ذلك بدفع خراج سنوي قدره (٤٥) ألف فرنك قيمة ما كانوا يؤدونه خراجاً للترك .

وقد كان الميزابيون يقولون جمع ذلك الخراج بأنفسهم ويبلغونه إلى مركز الحكومة بالأغواط بواسطة وفد منهم يشكل لهذا الغرض وهكذا كانت حالة ميزاب من سنة ١٨٥٣ إلى سنة ١٨٨٢ . وفي هذه السنة أتى الجنرال « دولاتور دو فيرنيو » إلى ميزاب بدون مقاومة وبدون هراق

قطرة دم ونصب في غارداية حامية عسكرية « و صدر أمر في ٢١ ديسمبر من سنة ١٨٨٢ وطد العلائق الموجودة بين فرنسا وميزاب بدون أن ينزع منه استقلاله الداخلي ، ولم يخرج ميزاب عن دائرة الحماية المنعصبة في سنة ١٨٥٣ .»

« وفي سنة ١٩١٩ أجبر ميزاب على الخدمة العسكرية .»

« ومن ذلك التاريخ يحتج الميزابيون بدون فتور على التجنيد ويعتبرونه غير قانوني .»

« ولكن ذلك الاحتلال لا يكون له نفس ذلك التأثير على بني ميزاب الذين كانوا يدفعون خراجاً فقط للترك كما شاهدناه وكانت بلادهم غير داخلة سياسياً في هموم الجزائر التي كانت خاضعة للداهي حسين . وهذا الأخير لم يكن له الحق الشرعي في العنصر لفرنسا إلا عن الحقوق التي كانت له في ميزاب أعني الحقوق المنجزة من الاتفاق السالف الذكر .»

« إن احتلال الجزائر لم ينشأ عنه جعل بني ميزاب رعية لفرنسا خلافاً لما تراه الحكومة الفرنسية . . . وليت شعري كيف يمكن ذلك وكيف يصح قبول هذا الأمر التشريعي بكونه ألحق ميزاب بالجزائر وجعل أهاليه رعايا فرنسيين لمجرد كونه تضمن أن الممالك الفرنسية بأفريقيا الشمالية تجعل تحت رعاية وال عام . وهل أن ميزاب كان إذ ذاك مملكة فرنسية مع أن الفرنسيين لم تكن لهم أدنى علاقة بميزاب ؟ .»

« إننا رأينا أنه لم يكن سوى بلاد تدفع خراجاً وبهذه الصفة لم تكن أرضاً فرنسية البتة .»

« وما زالوا يعيدون القول بأن هذا الاتفاق المؤرخ في ١٨٥٣ قد جعلهم في الحالة العدلية نفسها التي كانوا عليها في زمن احتلال الجزائر » .

« إن فرنسا التزمت لهم بعدم التدخل في شئونهم الداخلية بل صرحت لهم بـ مكتوب الكومندان ديراى في ٢٢ إبريل ١٨٥٣ بما يأتي : (إنهم يحافظون على عوائدهم القديمة ويحكون أنفسهم كما يظهر لهم ، وأن الأعوان الفرنسيون لا يذهبون إليهم » .

« لكن هل ميزاب وقع إلحاقه بفرنسا؟. لقد ارتكب من ظن ذلك غلطاً فاحشاً لأن الأمر المؤرخ في ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ وإن كان استعمل كلمة إلحاق إلا أن ذلك الأمر لم يصادق عليه إلا رئيس الجمهورية المعروض عليه من طرف وزير الداخلية والحربية في شأن ميزاب وهذا التقرير يتضمن ما يأتي : إن ميزاب هو عبارة عن قطعة أرض عائشة في حرية غير محدودة وقد حان الوقت لإدخال الميزابين تحت القاعدة العامة » .

« وهاته العبارة التي وقع استعمالها في الأمر المؤرخ في ١٨٨٢ تدل دلالة واضحة بلا نزاع أن هذه البلاد لم يقع إلحاقها قط بمقتضى الاتفاق المؤرخ في ٢٩ إبريل ١٨٥٣ ، وفي الحقيقة لم يقع إلحاق ميزاب أيضاً بمقتضى الأمر المؤرخ في ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ » .

على أننا من حسن حظنا قد اطلعنا على تقرير مؤرخ في ١٤ ماي ١٩٢٣ وجهه والى محوم الجزائر (م . ستيق) إلى مجلس الدولة وكتب فيه ما يأتي :

(إن الإلحاق المزعوم في ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ لا علاقة له بالعملية التي يقتضى القانون الدولي العام أن يتكون منها إلحاق ترابي) فإن السيد الوالي

العام للجزائر على تمام الوفاق مع الميزابيين الذين يحققون أن بلادهم لم يقع إلحاقها في سنة ١٨٥٣ ولا في سنة ١٨٨٢ وإن العلماء الذين وقع استفتاءهم عن حالة ميزاب الشرعية وهم السادة هانري روبر وميرنا روبييل قد أيدوا بفتواهم أن ميزاب لم يقع إلحاقه قط وذلك أنهم بينوا جميع الصور التي بمقتضى القانون الدولي العام يتكون منها إلحاق ترابي حسبما يأتي :

أولاً : فرض إلحاق بمجرد الفعل وهو الاحتلال أو الغزو وهذا الفرض ليس بصحيح إذ لا يسوغ احتلال الأراضى إلا إذا كانت خالية من الولاية أو من السكان أو تسكنها أمم خارجة عن حدود التمدن وهذه الصورة لا تنطبق على ميزاب الذي حافظ على تأسيساته القديمة رغمًا عن جعل قوة عسكرية بغارداية .

ثانيًا : فرض عملية الإلحاق بين فرنسا وميزاب .

ولنفرض أن الأمر المؤرخ في ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ ألحق ميزاب ولكن لنا الحق أن نبحث بتأمل، هل هذا الأمر يترتب عليه عملية الإلحاق، وبعبارة أخرى إن الموجبات اللازمة لأعمال من هذا النوع قد وقع إتمامها . الجواب لا شك بالنفي ، لأن ما يجب إجراؤه لصحة عملية الإلحاق قد وقع بيانه في الفصل الثامن من القانون الأساسى الدولى المؤرخ في ١٦ جويليه سنة ١٨٧٦ القاضى : (بأنه لا تقع حالة أو إبدال أو إلحاق أرض إلا بمقتضى قانون) .

كيف وأن الأمر المؤرخ في ٢١ ديسمبر ١٨٨٢ لم يقع عرضه تط على مجلسى الأمة الفرنسية ولا التوافق عليه منهما وقد بقى هذا الأمر مجرد مشروع وأن إلحاق ميزاب المزعوم لا يوجد بصفة قانونية .

« الفرض الثالث : فى الإلحاق الضمنى بميزاب بمعنى خارج النطاق

الاعتيادي من القانون وهو غير مقبول أيضاً ، وذلك أنه لم يوجد قط بين فرنسا وميزاب علائق متراصة حتى يثبتوا الاتحاد النهائي بإلحاق تلك البلاد لفرنسا .

« الفرض الرابع : وهو الإلحاق تحت عنوان الاحتمال والإدارة وهذا وقع في جزيرة قبرص والبوسنة والمزسك ، وأما ميزاب فولاة الأمور ليسوا فرنسيين فيه وإنما الأمة هي التي تحكم نفسها بنفسها وتقوم بالوظائف التي تخص المحتل أو المدير وأما من جهة الوجهة العدلية فالميزابيون يتقاضون لدى قضائهم الإباضية وينفذون أحكامهم بدون احتياج للسلطات الفرنسية . وهذه صفة خاصة بهيئة الحماية . »

« فالمركز العسكري بغارداية لا يتعاطى النظر إلا في النوازل بين الميزابين والفرنسيين . »

« وأما من جهة الإدارة فإن بلدان ميزاب خاضعة لسلطة هماله ، وهؤلاء هم الذين يشخصون النفوذ القائم ، وأن فرنسا تراقب حقيقة هذه الإدارة ولكن هذا النفوذ في المراقبة هو من قبيل الحماية . »

« وهذا الشكل في الإدارة يخالف تماماً غيره المعمول به في الواحات المجاورة لميزاب التي هي بتامها خاضعة لنفوذ فرنسا . »

« وهذه الفروض كلها تدل وتثبت أن ميزاب لم يقع إلحاقه قط وأن فقه القضاء كان مؤيداً لهاته الفكرة وأن الميزابين في نظرها أجنب أحياب . »

« وبذلك يتبين أن الميزابين ليسوا برعايا فرنسيين وغير ملزمين

والحالة ما ذكر بالخدمة العسكرية وأن جميع التدابير الإدارية التي اتخذت بعد القانون المؤرخ في ٣ فيفري ١٩١٢ بشأن التجنيد بميزاب غير قانونية .»

« ولنتخيم فصلنا هذا بما طرز به م برونيل كتابه (تجنيد الأهلى) الجزائريين حيث يقول : « إن الأمة المستقلة التي تدفع خراجاً لا تجب عليها الخدمة العسكرية إلا إذا التزمت بمقتضى اتفاق على ذلك مع الدولة الأخرى التي تعاقدت معها ، وهذه ليس هي حالة ميزاب ومن انظم داخلهم في الجندية » .

أخى القارىء الكريم .. لقد نقلت لك المقطعات السابقة بشيء تليل من التصرف من كتاب (بيان حقيقة) لمؤلفه همر بن عيسى أحد وكلاء الأمة الميزابية في قضيتها الوطنية ما بين صفحتى ٤٢ -- ٥٨ ، أرجو أننى بذلك وضعت بين يديك ملامح لصورة الصراع الذى تسلىح فيه إباضية الجزائر بقوة القانون والقضاء والسياسة الدولية أمام دولة استعمارية غاشمة ترى نفسها فى ذلك الحين ثانى دولة فى العالم قوة وأول دولة فيه علماً وحضارة فاستطاعوا أن يحرزوا عليها الفوز وأن يقفوا فى الميدان فى شموخ تمر بهم الزوابع والأعاصير وهم يزادون ثباتاً ورسوخاً .

٢ - فى النطاق العام :

ونعنى به كفاح بنى مصعب السياسى والسلاح فى سبيل الله من أجل حرية واستقلال وطنهم العام (الجزائر) ، ولكى نضع صورة واضحة ومختصرة من ذلك الكفاح أمام القارىء الكريم يمكن لنا أن نقسمه إلى فترتين :

الفترة الأولى : وتمتد من ابتداء استعداد فرنسا لنزو الجزائر وتتمام احتلالها إلى اندلاع ثورة التحرير الجزائرية .

الفترة الثانية : وتمتد من اندلاع الثورة الجزائرية إلى تحرر كامل التطر
الجزائري وخروج فرنسا منها نهائياً .

(١) وفي الفترة الأولى : كان الإباضية على المدى الطويل للكفاح في طرد
الاستعمار الفرنسي ظاهرين في الميدان . وقد كان منهم شخصيات واضحة
في جميع الثورات والمؤسسات والجمعيات والأحزاب التي قاومت الاستعمار .

ولعل مما يفيد القارئ الكريم أن أقتبس فقرات من رسالة الأخ
الأستاذ إبراهيم قرادى توضح مواقفهم في هذه الفترة قال ما يلي :

« ولقد اعتبروا الجهاد ضد المشركين واجباً دينياً قبل أن يكون واجباً
وطنياً » .

وقال :

« أما مشاركتهم^(١) مع الأمير عبد القادر حين نظم المقاومة في المغرب

(١) يبدو أنهم اشتركوا معه في مقاومة فرنسا ولو كانتهم رفضوا الخضوع لحكمه فنضب
بسبب ذلك فكانت هذه الصورة التي نعرضها عليك هلا من أستاذنا باكلى وقد ترجمها عن
كتاب (الصغراء الجزائرية) قال ما يلي :

« لما حاصر الأمير عبد القادر (عين ماضي) كتب للأمة الميزابية أن تعترف بحكومته
وتدخل تحت علمه لأنه كما قال : « قد أيدى الله بالنصر واختارني فالواجب على كل مسلم أن
يعترف بي » . ثم ختم رسالته بهذا التهديد : « فإن رفضتم الخضوع لسلطاني فسأعاقبكم بما أليمة
أقطع رأس كل ميزابي يقع بين يدي » . فأجابته الأمة الميزابية بما صورته : « نحن لا نعيد عن
طريقة أجدادنا ولا نبني سواها مسلحاً ، نعم تدفع إليك تجارتنا ومسافرونا الغرامة في بلدناك
التي يقطعونها أو يمكننا فيها مثل ما كانوا يفعلون مع الأتراك ، أما تسليم مدننا إليك فلا يقع
ولن يقع ونقسم لك أننا عندما تزحف بجيوشك ومدافعك نهدم أسوار بلداننا حتى لا يبقى
بين صدر شبابنا وجيوشك حاجز ، فإن هددتنا أن تتطع عنا الحبوب التي ترد علينا من النل
فقد فاتك أن لدينا من الذخيرة - باروداً وتمرأ - ما يكفيننا لمدة عشرين سنة وأتأ نزرع في
بلادنا من القمح ما يموتنا تقريباً . وإن توعدتنا بقتل كل ميزابي يقع بين يديك فلا يضرنا =

الجزائري فأمر معروف ودليلا على ذلك أذكر أن أحد المفاوضين باسم الأمير عبد القادر في معاهدة تافنة المعروفة كان ميزابيا من بني يستقن وكذا أمين الخزانة وإن كان سكان وادي ميزاب لم يدخلوا تحت طاعة الأمير لأسباب أخرى لا مجال لذكرها هنا .

أما مشاركتهم في ثورة المقراني وابن الحداد فقد كانت لهم فيها مواقف مشهودة ويمكن أن تعلم أن بولنعاش أحمد بن صالح قد استشهد أمام دار المقراني ، وقد صادرت فرنسا جميع ممتلكاته مع ما صادرت من أملاك الذين قاموا بدور فعال في هذه الثورات .

وقال :

« واستمر الميزابيون بعدها في مد المقاومة التي كانت منقظة بالصحراء بقيادة السيد محمد بن الأعلى بنواحي مقليلي ، كما ساندوا ثورة أولاد سيدي الشيخ لما كان بينهم وبين الميزابيين من علاقات حسن الجوار ، وحين تنبه الفرنسيون إلى تأييد الميزابيين لكل جيوب المقاومة سيما بالسلح والعتاد والإبواء قرروا احتلال ميزاب في سنة ١٨٨٢ ولعل الرسالة التي بعث بها الجنرال مرغريت قائد الحملة في احتلال ميزاب في نوفمبر سنة ١٨٨٢ إلى رئيسه الأعلى بالجزائر والتي يذكر فيها الأسباب التي دعت إلى الزحف والاحتلال

= ذلك . لأن الذين بارحوا بلادنا لا نعدهم من جيشنا . وإن شئت فذبحهم ذبحا . فإذا احتجت إلى كمية من الملح لدبغ جلودهم فنحن مستعدون أن نرسل إليك منه قناخير . إن كانت لك قوة فأت بها . »

وقال أستاذنا باكلي حفظه الله « فلما وصل - أي الأمير عبد القادر - (ناكدمت) مركز حكمه أمر بإلقاء القبض حالا على بني ميزاب الموجودين في المدن الآتية : المدية ، المليانة ، تازا ، بوفاز ، مسكر ، ناكدمت . وغيرها ، ثم ضرب عليهم غرامات فادحة أصبح كلهم بها فقراء » انتهى باختصار وقليل من التصرف .

العسكري لمنطقة من المفروض فيها أن لا تحتل لوجود اتفاقية . خير دليل على ما قام به الميزابيون من تأييد فعال لجميع جهات المقاومة في الصحراء ، وقد قال في الرسالة ما معناه :

(لقد قررت الزحف على غار داية لأن جميع المقاومة التي تعرضنا لهجماتها في الصحراء تستمد سلاحها من ميزاب . ومن المعلوم لدى جميع سكان الصحراء أن ميزاب يسمى (دار البارود) وذلك لأن الميزابيين يأتون بملاح البارود والرصاص من تونس ويصنعونه عندهم . ويمدون به الثوار . ولقد رأيت هؤلاء الناس يمسكون بنا باليد اليمنى ، ويمدون الثورة باليد اليسرى ، ثم إن الكثير من معاونينا قد لقوا حتفهم في ميزاب ولم نعر على قاتليهم . ولعل أشد عدااء لنا هم الطلبة الذين يسمون العزابة وقد كان أول حمل قمت به هو سجن شيخهم طفيش الذي أعلن الجهاد ضدنا وعرفتهم بهذا العمل أنه لا يستطيع أن يصنع معجزة ولا أن يقات من ساطاننا) . انتهى ما بقي عالقا بذهني من هذه الرسالة ، ولعل لها نظائر كما يشير إلى ذلك البيان الذي أصدره جول تيرمان إلى الجماعات الميزابية في مبررات احتلال الفرنسيين لميزاب رغم وجود اتفاقية » .

وقال :

« أما مشاركة الميزابيين في جميع الحركات الوطنية والسياسية منها والثقافية والدينية فهو أمر اعترف به الجميع . فقد ساندوا الكفاح السياسي الذي قام به الشيخ أبو اليتظان في ميدان الصحافة وقام ببعث الوعي السياسي ما بين الحربين العالميتين في كل من البلاد التي تصل إليها الجرائد ، ولم يهادنه الاستعمار لحظة من الزمن وسقطت جرائده الثمانية واحدة تلو الأخرى وكانت آخر جريدة هي جريدة الفرقان ، التي أقيمت قبل الحرب العالمية الثانية بشهرين .

وقام الميزابيون بدور فعال في تأسيس جمعية العلماء ومناقشة قانونها الأساسي وكان الشيوخ بيوض وأبو اليقظان عضوين بارزين من أعضاء إدارتها ، كما كان للشيخ باكلى عبد الرحمن والشيخ بن يوسف سليمان من جملة المؤسسين . وشارك الميزابيون مشاركة فعالة في حركة حزب النواب الجزائري الذي تزعمه الدكتور ابن جلول ، وكذلك حزب الشعب الذي تزعمه مصالى الحاج .

ولعله من المهم أن نذكر أول مجموعة من الجزائريين التي عليهم القبض في سنة ١٩٣٧ من أجل المطالبة بالاستقلال كان فيها غرانة إبراهيم ومقدي زكرياء مع مصالى الحاج والأحول الحسين وخليفة بن عمار .

ومن الجدير بالذكر أن جريدة (الأمة) التي كان يصدرها الشيخ أبو اليقظان هي الجريدة الوحيدة التي احتجت ضد اعتقال هذه المجموعة من المواطنين رغم وجود جرايد عديدة » .

وقال :

« وقد شارك الميزابيون في حركة بوراس التي كانت محاولة جريئة رغم ظروف الحرب كما شاركوا في حركة العقيد ابن داوود وكانت هي الأخرى حركة لنيل الاستقلال على يد الحلفاء بعد نزولهم بالجزائر » .

وقال :

« كل هذه الأهمال السياسية مضافة إلى ما قام به إخواننا من نشاط في ميدان الإصلاح الديني والاجتماعي قد لا يعد اليوم شيئاً مذكوراً ولكننا إذا جعلناه في إطاره التاريخي ودرسنا الظروف التي تمتازها هذه الحركات تحت الحكم الفرنسي والنسبة العددية لإباضة الجزائر يتضح لنا

مقدار ما بذله هذا الشعب الصغير من تضحيات وما قام به من نضال في سبيل الله .

وقال :

« لم يقتصر جهادهم على أرض الجزائر بل تعدى إلى كثير من المناطق » .

وقال :

« ولقد بذل الليزابيون بعد الحرب العالمية الأولى مجهوداً جباراً في مناصرة الحركات السياسية في شمال إفريقيا . وإليكم ما روينا عن شيو خنا الذين لا يزال بقية منهم على قيد الحياة :

١ - تأييدهم للجهاد الليبي ضد الغزو الإيطالي بالمال والتموين وإيواء المهاجرين منهم .

٢ - تأييدهم لحرب عبد الكريم بالريف بالعون المادي كما يذكر ذلك الشيخ حسن البغدادي وهو لا يزال حياً وكان كاتباً للأمير عجد الكريم .

٣ - مناصرتهم أو احتضانهم لحركة الزعيم الجزائري الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر وقد كانت أول حركة سياسية في الجزائر .

٤ - تأييدهم لحركة بعث الخلافة الإسلامية بعد سقوطها .

٥ - العمل الجدي الجريء في تأسيس الحزب الدستوري بتونس ، فقد كانوا أول المناصرين للشيخ عبد العزيز الثعالبي في تكوين أول وفد إلى باريس لعرض القضية التونسية ، وطبع كتابه (تونس الشهيدة) .

ولعلكم تعلمون أن نفي الشيخ أبي إسحاق إلى مصر كان بسبب الدور الفعال الذي قام به في ميدان السياسة وكان من أبرز أنصاره الشيخ أبو اليقظان والشيخ صالح بن يحيى والشيخ محمد الثميني والسيد صالح سميرسيو .

ومن أطرف ما نذكره من اعتراف الحكومة التونسية الحالية بجهاد إخواننا أن الرئيس بورقيبة حافظ على زيارة مكتبة الاستقامة بنونس كل ليلة السابع والعشرين من رمضان بعد الخروج من الحفل الرسمي الذي يقام في جامع الزيتونة .

ولم يقطع هذه العادة إلا بعد وفاة صاحب المكتبة الشيخ محمد التميني رحمه الله .

ونحن حين نستعرض كفاح الميزابيين في كل الميادين التي يتقنون فيها ضد الكفر والشرك نستخلص أن جهادهم تابع من إيمان راسخ بأن الوطن الإسلامي كله ميدان جهاد المؤمنين حيثما وجدوا من بلاد الإسلام وهذا ما يدفع في صدور الذين يرمونهم بالانعزالية والانطواء .

أحسب أن هذه المقطعات التي نقلتها عن رسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى كافية في إيضاح الصورة التي أردت عرضها من كفاح الإباضية في الجزائر ضد الاستعمار ، وجهادهم في سبيل الله طيلة الفترة التي تعد ما بين سنة ١٨٣٠ التي بدأ فيها احتلال فرنسا للجزائر إلى سنة ١٩٥٤ التي اندلعت فيها نيران الثورة الجزائرية المباركة .

(٢) الفترة الثانية :

هي التي ذهب فيها الشعب الجزائري بجميع عناصره لتحرير بلاده من الاستعمار الفرنسي سنة ١٩٥٤ إلى أن طردت فرنسا الطرد النهائي إلى غير رجعة . عندما اندلعت نيران الثورة الجزائرية المسلحة كان الإباضية من أشد وأهم العناصر الذين اشتغلوا في هذا الفضال ومن أصدق من أعدوا له وأثبتت (٣٨ - الإباضية)

من كالفوا بجد وإخلاص وتضحية في بعث الثورة والاستمرار فيها والسير بها إلى قمة النجاح . ولو أتيح لمؤرخ سياسى أن يستأهم الفن والأدب وقام بدراسة للأناشيد التي كان يتغنى بها الأطفال والشباب الإباضى في مدارسهم ومعاهدهم منذ الأربعينات لتكشفت له الروح النضالية العالية التي أعدت لثورة ورافقتها وتغننت بنجاحها .

فنى أواخر الأربعينات - وهم يعدون لثورة - كان الشباب الإباضى
يعنى بأمثال قولهم :

إن أُضْرِمَتْ نار الوغى قدّم لها الوقود
لا تَرْتَجِجْ أنْ تَجْلِفَا بدونها الأُمَمَـال

وفي الخمسينات والشباب الجزائرى مشتبك في المضال الفعلى المسلح مع قوات الاستعمار الفرنسى كان الشباب الإباضى يعنى بأمثال قولهم :

يا شباب المسلمين قد جنود الفاتحين

وتقدم لاتهمين

إنما المجد الحروب ولدى السلم الكروب والمعالى لاثوب

بسوى الحرب الزبون

وربما كانت الأناشيد التي تغنت بها المدارس والمعاهد الإباضية في هذه الفترة النضالية تبلغ المئات وكلها تدعو إلى التضحية والفداء والاستمرار في النضال وهي ولا شك تعطى صورة كاملة عن نفسية هذا الشعب الصغير . ولا شك أن السطحيين الذين ينظرون إلى الظواهر قد تحذهم قلة الأسماء في جهات القتال غافلا عن النسبة العددية . ومع ذلك فقد لمعت لهم هناك أسماء وذهب لهم شهداء . ورجع من جهات القتال بعد الانتصار

مناضلون شرفاء ، لم يمتنوا على الجزائر بنضالهم ، ولم يطلبوا من الدولة ثمنًا لوطنيتهم بمنعهم ألقابًا أو سلطة ، وإنما رجعوا في تواضع إلى أعمالهم الحرة في الميادين الحرة دون ضجيج ولا صخب .

وهؤلاء جميعًا يعرفهم زملاؤهم من رفقة السلاح ، أو من قادة النضال ومن مسيرى العمليات الفدائية والعمليات الحربية . وربما تولت ذكرهم سجلات الإحصاءات الرسمية - التي ثبتت للتاريخ والأجيال القادمة - ذلك الرصيد الغالي الذي دفعته الجزائر ثمنًا للحرية إذا تولته أقلام صادقة ومخلصة .
أما الدور الذي قام به الإباضية في هذا النضال - وأغلبهم تجار موزعون على جميع أنحاء القطر الجزائري - فلعله يتلخص في الخطوات الهامة الآتية :

١ - في جبهات القتال :

لاشك أن الوجه الواضح لثورة التحرير الجزائرية إنما يظهر في العمل البطولي الرائع الذي قام به المناضلون والفدائيون لمجابهة القوات الاستعمارية بمختلف تشكيلاتها في ساحات القتال وفي الأودية ورؤوس الجبال ، وبين الغابات والأدغال .

وقد أخذ الإباضية في هذا المجال قسطهم الذي يتناسب مع حجمهم وربما كان أكبر قليلا من الحجم الذي يقدر لهم ، ومن الأمثلة على ذلك أن الإباضية في الجزائر عند اندلاع الثورة كان عددهم يتراوح بين الستمين والسبعين ألفًا .

وقد التحقت أعداد من شبابهم يماثل الثوار على كل المستويات بل أن الشباب الإباضى على أرفع المستويات كان في مقدمة من التحق بالثورة

في الجبال ، ومن ذلك أنه لم يكن للإباضية في ذلك الحين إلا ثلاثة أطباء وقد التحقوا جميعاً بمعاقل الثورة فاستشهد منهم اثنان ، وتستطيع أن تقيس بقية الجوانب على هذا النمط وتحسب النسب .

٢ - التمويل :

لا شك أن تمويل الثورة لا يقل أهمية عن حمل السلاح فيها، وقد اعتمدت الثورة الجزائرية ضد الاستعمار اعتماداً كاملاً على المتاجر الإباضية . فقد كانت جميع الطلبات التي تقدمها العناصر المسئولة في الثورة إلى أي متاجر من متاجر الإباضية تحقق في الحال وفي صمت وفي هدوء كأنها عملية من عمليات البيع والشراء ولكنها دون مساومة .

ثم إن القيادة قد انفتحت مع شخصيات معينة منهم على أن تكون بعض متاجرهم في كل مكان مصدراً للتمويل ومركزاً لتزويد جبهات القتال بما تحتاج إليه .

وقد كان تجار الإباضية في مختلف المدن الجزائرية يعدون كل ما تحتاج إليه الثورة الجزائرية تحت أيد أمينة لتصل إلى أماكنها عند الحاجة . وإلا بقيت محفوزة أو مخزونة حتى يأتيها الطاب . ولعل ما دفعه إباضية الجزائر لتمويل الثورة في مرحلتها الطويلة يفوق كل ما دفعه غيرهم .

وهكذا قام الإباضية بجانب ثان هام من جوانب جهاد العدو . ولو لم يقوموا هم به على هذه الجدارة وبهذا الاستحقاق لما استطاعت الثورة أن تصمد أمام التحدي الاستعماري العنيف .

وقيادة الثورة الجزائرية تعرف هذا حق المعرفة وتقدره حق التقدير ، ولا يقلل من أهمية النضال أن بعض المناضلين ، لا يعرفون هذا - ولا يعرفون

الأسس السرية التي انبنى عليها النضال - لأنهم يمرون وسط شوارع المدن فيرون المتاجر مفتوحة ، والأعمال جارية في روتينية واضحة ، وأصحاب المتاجر يواصلون أعمالهم فيها في هدوء ونشاط ، فيعتمدون أن أولئك التجار غير مهتمين بالثورة ، فهم إما سلبيون ، وإما خونة ، وإما عملاء للاستعمار فيشيحون عنهم الأراجيف التي ليست من الحق في شيء والتي ربما سببت في إيذاء ناس كان إخلاصهم للثورة وبذلهم في الجهاد ، وعلمهم في سبيل الله لا يقل عن أولئك الذين عرضوا أنفسهم للموت في ميادين القتال .

والجهاد بالمال في سبيل الله قرين الجهاد بالنفس في جميع مراحل الجهاد .
وكثيراً ما قدم القرآن الكريم الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس .
المؤمنين بأهمية البذل في سبيل الله .

٣ - تأمين الأشخاص :

لا تخلو مدينة من مدن الجزائر من عدد من المتاجر أصحابها من الإباضية ، ولعل تسخير الإباضية لأعمال التجارة في جميع أنحاء الجزائر كان وفق مشيئة الله تعالى لحكم يعلمها وعرف الناس بعضها في هذه الظروف وهو تأمين المجاهدين في سبيل الله لإخراج المستعمرين من بلاد الإسلام .

بمجرد ما يحس أحد رجال الثورة - عند دخوله للمدن أو القرى للقيام بأعمال تقضيها مصلحة الثورة - برقابة الساطة الاستعمارية أو بتمتعها له فإن أول متجر للإباضية يقع في طريقه يكون صالحاً لأن يكون مخبأ أميناً له ، فيلجأ إليه في الحال لأنه يعرف أن لهم وسائل في إخفاء من يلجأ إليهم لا يمكن لشيطان الاستعمار أن يكشفها ، وهو أيضاً على يقين أن ذم أولئك الناس لا تحقر مهما كانت النتائج ، وهو يعرف أيضاً أن مجرد التجائه إليهم

يجهلهم يحسون بمقدار الخطر الذي يهدده ولذلك فهم حريون أن يوفروا له الحماية والأمن حتى ينجز المهمات التي جاء من أجلها .

وهم يعرفون فوق ذلك أن انكشافه عندهم يعرضهم ويعرضه لكثير من الأذى ويضعهم تحت الرقابة المستمرة .

وتروى في هذا الباب قصص ونوادير^(١) وبطولات تعتمد أولاً على صدق النية في الجهاد بكل الوسائل ، ثم على الذكاء واللباقة وحضور البديهة واتساع الخيلة وحسن التصرف ، وهي في مجموعها تكشف عن المعاناة الحقيقية لركائز الجهاد المجهولة التي كانت تعمل وهي لا تحتسب من أحد من الناس شكراً أو أجراً أو فخراً .

٤ - تأمين المواصلات :

بحكم اشتغال الإباضية بالتجارة في جميع أنحاء الجزائر فإن الحركة والتنقل من مكان إلى مكان وشحن السيارات بالبضائع من بلد إلى بلد مظهر طبيعي من مظاهر نشاطهم لا يثير - في عمومه - شكوك الاستعمار ، ولا يستدعي المراقبة والتتبع والتحقيق . ولذلك فقد كانت مطالب الثورة تنقل على أيديهم من بلد إلى بلد في صورة بضائع تجارية مطلوبة ، وتستقر تلك المطالب

(١) ذكر لي أحد أولئك التجار أنه أعد في متجره أنواعاً من الألبسة التنكرية واللحي والشعور المستعارة والعمائم الجاهزة والأبسة كالتي يلبسها عمال الإباضية في متجرهم . وعندما يدخل إليهم ملتجئ من منابذة العدو سرعان ما توضع على وجهه لحية وعلى رأسه عمامة وعلى ظهره ثوب من ثياب العمل ثم يبدأ في العمل من الجوانب الواضحة من المحل فإذا جاء المطاردون لم يخطر لهم أن طريدهم هو أحد الباطنيين في واجبة المحل واندفعوا - بغطرستهم - إلى الداخل يبحثون ويقلبون المحل تفتيحاً ولكنهم لا يهتمون على من يطلبون وهو قد يكون في ذلك الحين بين أيديهم وأعينهم يمد قطعة قماش إلى زبون أو يقشر البصل في المطبخ .

(في صورة بضائع) في متجر من متاجرهم لتصل بالتدريج حسب الخطط التي تضعها قيادة الثورة إلى أماكنها من جبهات القتال، في بطون الأودية وروؤوس الجبال ولربما كان أشد الطرق أمناً وأكثرها نشاطاً وحركة لإمداد الثورة بما تحتاجه من مؤن إلى أقصى مواقع الثورة إنما هي التي كانت تمر على متاجر الإباضية، ويتولون هم أنفسهم ترحيلها واستقبالها ثم إيصالها إلى أماكنها التي ينبغي أن تكون فيها في مواعيدها المحددة حيث تكون تحت تصرف المناضلين .

• - تأمين المخبرات :

إن الإباضية في الجزائر بطبيعة أعمالهم التجارية وتنقلهم بسببها بين جميع أطراف البلاد وخارج أطراف البلاد قاموا بأروع الأهمال في تأمين مخبرات الثورة سواء كان ذلك في إيصال المخبرات بين أجهزة الثورة نفسها أو في إبلاغ مخبرات الثورة إلى الشعب أو في إبلاغ مخبرات الشعب إلى الثورة . فقد ربطوا بين عناصر الثورة في كل مكان، وأمنوا مخبراتهم بحيث أصبحت الاتصالات بين أعضاء الثورة تتم في سرية ودقة تستدعي الإعجاب والتقدير . فما تريد جهة من جهات الثورة تبليغ أمر أو خبر إلى جهة أخرى بعيدة حتى ينطلق تاجر إباضى إلى تلك الجهة البعيدة ليعقد صفقة تجارية في الظاهر قد تتم أولاً وتم ولكن المهم من تلك الرحلة التجارية أن يتم فيها للثورة ما شاءت من مخبرات تصل في حينها، وقد قام التجار الإباضية في تونس وأفراد البعثة العلمية هناك بربط جميع الحلات بين الحكومة الجزائرية المؤقتة في تونس وقيادة البضال في داخل الجزائر بل إلى أي فرع من فروع القيادة في الأطراف . فعندما تفكر الحكومة

الجزائرية في تونس في إبلاغ شيء إلى الثوار أو الحصول على شيء منهم ينطلق فرد أو أفراد من الإباضية - تجار أو طلبة - لزيارة وطنهم إما لعمل تجارى أو لإطفاء لوائح الشوق . وفي حركتهم تلك يتم المقصود من الإبلاغ أو الحصول ، وهكذا تتم المخابرات بين أعين وآناف الاستعمار وأجهزته المتجسسة ولكنه لا يسمع ولا يرى ولا يشم .

وقد كانت بعض متاجر الإباضية في أغلب المدن الجزائرية بمثابة دور البريد أو مراكز المخابرات للثورة فهي مستودعات للرسائل والنشرات والبلاغات وكانت تلك المراكز معروفة عند عناصر القيادة . فيتردد عليها حملة البريد السرى للثورة أو توصل إليهم إذا خيف من التتبع والمطاردة . وفي أكثر الأحيان يردع هناك ما يراد نقله أو توزيعه إلى جهات فيصلها في أمان ودقة . وكانت تلك المتاجر تسلم وتستلم ما يمر بها إما لشخص معروف لديها وإما بكلمة سر هي مفتاح التعامل .

ولقد نال تجار الإباضية بسبب هذه الأعمال كلها كثير من الشر والأذى كالسجن والضرب والتعذيب بأنواعه المختلفة وبمصادرة الأموال .

ولكن الاستعمار - في جميع حالاته تلك - لم يستطع بجهازه التعديبي الجهنمي وبطاقه الوحشي أن ينتزع سراً واحداً من إباضى واحد ممن أوقعهم سوء حظهم تحت برائته، وإنما كان الواحد منهم يتلقى ما ينزل عليه في ألم وصبر محتسباً ذلك في الله . ولم يذكر عن واحد منهم أنه أشار لا من قريب أو بعيد إلى ما يضر بالثورة أو برجال الثورة، ولقد لقي بعضهم حتفه تحت التعذيب دون أن تنفجر شفته عن أى سر من أسرار الثورة وعنده منها مخبئات سلمها خلفاؤه إلى رجال الثورة كاملة سليمة .

هذا الموقف البطولي نفسه كان مدعاة للحيرة والاندحاش بالنسبة إلى الجانبين . فهو من جانب تكذيب لتحريرات رجال المباحث الاستعمارية فيما يعتقدون أنهم وضعوا عليه اليد وأمسكوه من كل أطرافه . وهو من جهة أخرى قتل من الشائعات والأخبار هما يقومون به من أهمال في صمت وإتقان حتى ظن السطحيون أن جهودهم في مكافحة الاستعمار ضئيلة . وكانت نتيجة هذا الموقف البطولي من تحمل العذاب وكتمان السر أنه لن يستطيع أحد أن يقف يوماً فيزعم - أن ضرراً ما لحق به أو بشخص ما أو بمرفق من مرافق الثورة بسبب اعتراف إباضى عليه بعملية الترغيب أو التهيب أو التعذيب . والسبب في هذا الموقف أن الإباضية لا يجيزون - شرعاً - لأي شخص أن يخفف عن نفسه العذاب بتوريط غيره . ولعل مما يوضح هذه الصورة أن أنقل فقرات من رسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى ، قال :

« ولا يفوتنا أن نشير في ختام هذه الرسالة^(١) إلى الدور الفعال الذي أسهم به الميزابيون في الثورة التحريرية ما بين سنة ١٩٥٤ إلى سنة ١٩٦٢ ولا يسعنا في هذا المقام أن نطيل بذكر كل التفاصيل ولكننا سنشير إلى بعض النقاط :

١ - اندلعت الثورة في فاتح نوفمبر ١٩٥٤ وكان نشيد الثورة الرسمي هو النشيد الرسمي للدولة الجزائرية حتى اليوم وهو من إنشاء شاعر الثورة الجزائرية مفدى زكرياء ، مثل نشيد فداء الجزائر الذي كان النشيد الرسمي

(١) كتب الأستاذ إبراهيم قرادى تلك الرسالة بما تضمنتها من معلومات بموافقة المؤرخ البجائة الشيخ سليمان بن الحاج داوود . وقد أكد لي الشيخ سليمان بأنه يملك مصادر موثوق بها ووثائق رسمية في جميع ما جاء برسالة الأخ الأستاذ إبراهيم قرادى .

لحزب الشعب الجزائري - ومعنى هذا أن الشعراء الإباضية استطاعوا أن يعبروا عن المشاعر الوطنية للشعب الجزائري بأحر وأصدق مما يعبر غيرهم ، وأنهم يحسون بالقضية الوطنية في كل أدوارها ومراحلها بأهمق مما يحسه غيرهم من الشعراء .»

ولعله لم يرتفع في إذاعة صوت العرب بالقاهرة - طيلة سنى النضال المسلح لثورة الجزائرية - صوت شاعر جزائري كما ارتفع صوت صالح الخرفي (وهو ميزابي إباضى) مبرأ عن وجدان الثورة الجزائرية وأحاسيسها ، وصاروخاً بصوتها القوي يهز مشاعر الأفراد والجمهير ، حتى خيل لكثير من معاصري صوت العرب أن صالحاً الخرفي كان هو الصوت الرسمى للثورة الجزائرية في القاهرة . وقد استطاع صالح أن يدخل بصوت الثورة إلى أبراج الأدباء والشعراء في العالم العربي . وقد استطاع هو أيضاً أن يعبر على الشعر الثورى العاطفى إلى مكانة في الأدب العربى ما كان ليمبلغها بالمتايس الأدبية المجردة .

ولو جاز لمسلم أن يستشهد لقضية الجهاد حتى بالأهمال التى تخالف شريعة الله لانت - حسب روايات أحد الأصدقاء - إن شياطين الإباضية أيضاً قد اشتركوا فى قضية تحرير الجزائر بمجهود واضح لدى الجماهير . فقد تعاون شيطان الشعر عند الخرفي مع شيطان الغناء عند وردة الجزائرية وجوقتها وقدموا عدداً من الأناشيد والأغاني الوطنية ، فكان أولئك الشياطين يحركون عواطف الناس بكلمات صالح وصوت وردة . ولكنى لا أعلم فى الحقيقة إلى أى اتجاه كانت تتحرك تلك العواطف (١) .

(١) الفقرة السابقة التى تحدثت عن شعر صالح الخرفي لم يكن مصدرها رسالة قرادى .

٢ - كان أول ثلاثة أطباء انضموا إلى صفوف الجيش في أول يوم من الميزابيين . استشهد منهم اثنان وهما : تيرشين إبراهيم في نواحي الونشريس قرب الأصنام . وقضى بكير في جبال سوق اهراس ، وتدسى باسمه مستشفى غارداية . أما الدكتور الثالث فهو لايزال حياً ، وهو الدكتور بابا مهر عبد الرحمن ولم يكن من أبناء الميزابيين طبيب غيرهم ، ومعنى هذا أنهم بعثوا بكل أطبائهم إلى صفوف الجيش الذي حرر الجزائر فاستشهد الثلثان في جبهة القتال .

٣ - أدار السيد الرئيس بن خدة والعربي بن المهيدى معركة الجزائر العاصمة من ثمانية عشر مركزاً كانت كلها للميزابيين ، قام فيها رجال الثورة بأدوار بطولية نادرة لم تكشف إلا بعد إضراب الثمانية أيام ، وكل هذه المراكز كانت للميزابيين في الأحياء الأوروبية من عاصمة الجزائر .

٤ - تكونت الولاية السادسة تحت قيادة مى حواس العقيد أحمد ابن عبد الرازق في مركزها الأول وهو غابة الحاجب التي هي ملك لآل الخبزي وانضم كل أبنائه إلى صفوف الثورة فكان منهم من صعد إلى الجبال ومنهم من قام بالعمل السيامى وتركيزه في منطقة الصحراء .

وقال :

« وقد توقف إطلاق النار في سنة ١٩٦٢م ومركز قيادة للمنطقة الخامسة من الولاية السادسة في العطف بوادي ميزاب، وكانت مساحة هذه المنطقة تمتد ما بين الحدود التونسية بوادي سوف شرقاً إلى الأغواط غرباً ، إلى تيمناست جنوباً ، وغنى عن الذكر أن اختيار القيادة الرشيدة لمركز هذه المنطقة لم يكن عبثاً ولا مصادفة . »

أحسب أن هذه المقطعات كافية لإيضاح الصورة التي أردنا عرضها

على القارئ الكريم بإيجاز شديد ، أما الصورة الكاملة فهي لا تزال مستقرة حتى ينتدب لها أحد الشباب المنقف من أبنائهم فيقول عرضها بأسلوب علمي يضع كل حقيقة في مكانها ويبنى كل لبنة فيها على أساس متين .

وبعد كل هذا .. فإن الإباضية جزء من الأمة الجزائرية قاموا بواجبهم في جهاد العدو استجابة لأمر الله تعالى لا منة لهم على أحد ، وليس لأحد عليهم منة . فإن شذ فيهم أفراد - كما يشذ من كل قوم - فلم يصدقوا في الجهاد في سبيل الله ، أو قصروا في جنب الله ، فإن ذلك ليس بدعاً في الأمم والشعوب ، وفي كل بلد مجموعة بشرية من أمثال أولئك الأفراد ولا عبرة بالشواذ . وإن كنا لم تبلغنا أية حالة من هذا النوع في هذا الشعب الكريم ، ولم أسمع من أحد أن أحداً منهم (أى أحد) اتهم بخيانة أو عمالة أو جوسسة أو تواطؤ مع العدو .

هذه صورة مختصرة جداً عن جهاد إباضية الجزائر في سبيل الله - وهم يحرضون شديد الحرص على عدم التحدث مما قاموا به لأنهم قاموا به لله ومنه وحده ينتظرون الجزاء .

عسى الله تبارك وتعالى أن يوحد بين جميع المسلمين في نظام حكم واحد عامل بدين الله متجه إلى محاربة أعداء الله . مجاهد في سبيل الله - حسب أمره تعالى - بالمال والنفس حتى يتم تبليغ رسالة الإسلام التي أوقف تقدمها اشتغال ساسة المسلمين بالنزاع على ما في أيديهم وإعراضهم عن السير قدماً في الطريق الذي سار فيه أبو عبيدة وسعد و خالد وهمرو وعقبة وموسى وطارق .

كلمة أخيرة

عزيزى القارىء :

فى سنة ١٩٦٦ رسمت الخطوط العريضة لهذه الحلقة من هذا الكتاب ، ثم بدأت فى كتابة الفصول ، وقد تناولت أغلبها . منها ما كتبه بصورة تكاد تكون نهائية ، ومنها ما يشبه أن يكون رموزاً أو علامات على مواضع . واستمر البحث والراجعة فى المصادر - المصادر المكتوبة والمصادر المصورة ، وللمصادر الحية المتجدثة - وكنت كثيراً ما أعود على ما كتبت بالتغيير والتصحيح حتى خيل إلى أننى وضعت الكتاب على شبه الصيغة النهائية ، ولم يبق على إلا أن أعرضه أو بعض فصول منه على أحد شيوخى لأطمئن إلى عملى . وركنته فى زاوية انظاراً لفرصة لقاء . وعندما أعلن أستاذنا الفاضل الإمام بيوض إبراهيم بن عمر عزمه على زيارة ليبيا فى صيف ١٣٩٤ هـ ، توقعت أن تتاح لى فرصة معه ، ولكن تلك الفرصة لم تسنح لى أبداً ، فقد كان وقتها - طيلة الأسبوعين - مزدحماً مشغولاً ، فلم يتم لى ما رجوت وكان ضياع هذه الفرصة منى داعياً لأن أعيد النظر فيها نظرة أخيرة فيما حسبت . وقد فعلت .

وفى صيف سنة ١٣٩٦ هـ أتيت لى أن أزور الجزائر وأن أبقى فى المواعظ لمدة أسبوعين وأن ألتقى بعدد من العلماء والمشائخ وأتيت لى فرص لقراءة بعض النصوص - ول على بعضهم واستفدت كثيراً من نصائحهم وتوجيهاتهم وتصحيحاتهم ، فقد قرأت كل ما يتعلق بالدولة الرستمية على كل من الشيوخ الفاضلين الإمام بيوض إبراهيم والشيخ باكلى عبد الرحمن حفظهما الله

ورعاها، وقرأت أكثر الفصول الأخرى على الشيخ باكلی عبدالرحمن وقرأت
الفصول المتعلقة بوارجلان على الأستاذ الشيخ أبي معقل همر بن داوود وعلى
الأخ لمؤرخ البجائة الشيخ سليمان بن الحاج داوود . وقرأت مسودة فصل
الجهاد على الشيوخ الثلاثة أفلح وابن يوسف وباكلی كما قرأته على الأخ
الشيخ إبراهيم قرادی .

أما الفصول : ميزاب في نظر مستغرب ، بنو مصعب والغربة ، المرأة
الميزابية والغربة ، المؤسساتان الثانية والثالثة . هذه الفصول لم يطلع عليها
أحد منهم لأنني كتبها بعد رجوعي من الرحلة .

ولاشك أن القارئ يعرف أنني بعد زيارتي أعدت صياغة بعض الفصول
وصححت بعض الآراء وحققت بعض المعلومات . ولكنني مع ذلك لم أستطع
أن أبانغ به مافي نفسي . وكل ما أستطيع أن أعتذر به في هذا المقام أن
أقول : أني بذلت جهداً غير قليل في إخراج هذا العمل إلى حيز الوجود .
ولو لم يكن فيه من جهد غير نقله عدداً من المرات لكان هملاً مضمناً . وقد
بقي بين يدي نيفاً وعشر سنوات وكنت كلما تناولته أو تناولت بمضه
بالصقل ظننت أنه صار أفضل وأحسب الآن أنه على وضعه الموجود هو أفضل
مما كان قبل ذلك ، ولو تناولته بالتحقيق والتصحيح من جديد لوجدت فيه
ما يستحق التغيير ولصار بعد ذلك أفضل مما هو عليه الآن . ولكننا لو سرنا
على هذا الأسلوب نشغل بالتصحيح والتحقيق حتى نصل إلى اللحظة التي نبلغ
فيها الكمال . ونحوز الرضا التام فيما نقدمه من عمل . لما وصلنا إلى تلك
اللحظة أبداً . ولما أنجزنا عمل أبداً .

وإذا وجد من يقول عن نفسه : إنه بلغ مرتبة الكمال ، في عمل من

الأعمال ، فذالك أحد رجلين : إما رجل يعرف عن نفسه القصور فهو ينفخ فيها بالشجاعة خوف الإحجام . وإما رجل لا يعرف معنى الكمال ولا يقدره . وقد عرفت أناساً يريدون أن يخرجوا أعمالاً يصلون فيها إلى الكمال فأمضوا زيادة عن عشرين سنة يجمعون الحقائق حتى ذهب نور أبصارهم ولم يخرج عملهم ذلك إلى النور . ولو أتيح له أن يخرج لكان صاحبه أول من يحس بالنقص فيه .

وإذا وجدنا من الكتّاب من يدعى الكمال ويزعم الوصول إلى عين اليقين . في كل ما يقول . فأننا لا أملك بهذه الجرأة ولا أحسن هذه الدعوى . وأعترف بصراحة صادقة أن في عملي هذا كثيراً من النقص منه ما أعرفه ولم أتمكن من إتمامه ، ومنه ما لا أعرفه وقد يعرفه القارئ ، ومنه ما قد يخفى عنى وعن القارئ إلى حين .

وعلى جميع الأحوال فهو محاولة أرجو أن يستفيد منها مع يقنن منهم بالبسيط وأن يجد فيه حملة الأقلام ما يستعينون به على شق طرق جديدة في منهج جديد لدراسة اجتماعية متكاملة مبنية على أحداث تاريخية في جانب من المجتمع الإسلامي لم يجد بعد العناية الكافية من أقلام صادقة تسكتب بالحق وتسعى وراء الحق . رغم ما كتبت عنه وفيه . .

فإذا لم يجد فيه القراء وحملة الأقلام جدوى ولو قليلة فهو ليس أول عمل تافه يقدمه إنسان وهو يعتز به وإبنى - على شدة الخجل من التصريح بالاعتزاز بعمل من أهالي - لأعتز به على ما فيه ، وأرجو أن يكون من حسناتي عند الله .

كلمة الختام

عزيزى القارىء :

إني أحمد الله تبارك وتعالى الذى ساعدنى حتى أنجزت هذا العمل وقدمته
إليك كما هو الآن . . .

وإن كل ما أطلقه منك - وقد قرأته - إذا لم يعجبك ، ولم يحزر رضاك .
أن تدعو اللهى مخلصاً حتى يوفقنى إلى تقديم ما يرضيه ويرضيك عنى مستقبلاً .
فإننى قد عازمت أن لا أتركك أيها القارىء الكريم مادمت أقوى على
الكتابة .

وما دمت لا تستطيع أن تتخلص من هذا العبء الثقيل الذى ألقيه على
عنقك فما عليك إلا أن تتجه إلى من بيده الأمور ليجمعه عبئاً يسيراً تقبل
عليه نفسك ويرتاح إليه مزاجك وتحصل منه على بعض الفائدة . .

وأخيراً أضرع إليه تبارك وتعالى كما يسر لى إنجاز هذا العمل الضئيل
أن يفيد به ، ويجعله دعوة إلى توحيد الصف ، وإلى الاقتداء بخير السلف ،
وإلى الاقتداء برسول الله ، وإلى الاعتزاز - فقط - بالله ، وأرجو منه تعالى
أن يتقبله منى خالصاً لوجهه الكريم ، فإنه نعم المولى ونعم النصير . وهو
حسبى وكفى به وكيلاً .

المراجع مرتبة حسب الحروف الهجائية

أبو اليقظان ابراهيم	(مخطوط)	الاباضية في شمال افريقيا
سلامة بن يوسف الجنائني	(مخطوط)	أخبار وتعاليق
قطب الأئمة		ازهاق الباطل
سليمان باشا الباروني		الأزهار الرياضية
عبد الرحمن بن خلدون		تاريخ ابن خلدون
ابن الصغير المالكي		تاريخ أئمة الدولة الرستمية
أبو جعفر الطبري		تاريخ الطبري
سعيد بن تعاريت	(مخطوط)	تاريخ علماء الجزيرة
محمد علي دبوز		تاريخ المغرب الكبير
أبو اليقظان ابراهيم	(مخطوط)	تراجم الأئمة
أبو الحسن علي بن بيان	(مخطوط)	تقاويد
أبو العباس البرادي		الجواهر المنتقاة
ابراهيم بن ثابت	(مخطوط)	حوادث الجزيرة
أبو اسحاق طفيش		الدعاية الى سبيل المؤمنين
قطب الأئمة	(مخطوط)	الرد على الصفرية والأزارقة
قطب الأئمة		الزد على العقبي
أبو يعقوب يوسف المصعبي		رسائل المصعبي - مجموعة رسائل مخطوطة
أبو اسحاق طفيش	(مخطوطة)	رسالة في التاريخ
محمد بن زكرياء الباروني	(مخطوطة)	رسالة طبقات العلماء
باكلي عبد الرحمن	(مخطوطة)	رسالة اجابة عن أسئلة
أبو العباس الشماخي		السير
أبو الربيع المزاتي		السير
أبو الربيع الوسياني	(نسخة مصورة)	سير الأئمة
عبد الله بن يحيى الباروني		سلم العامة والمبتدئين
محمد بن يوسف المصعبي		شرح تحريض الطلبة
العقيد توماس		صحراء الجزائر
أبو العباس الدرجيني		طبقات المشائخ
مجموعة من المؤلفين		عقيدة التوحيد وشروحها
ابراهيم أعزام	(مخطوط)	غصن البان
محمد المرزوقي		تابس جنة الدنيا

سعيد بن قاسم الشماخي	القول المتين في الرد على المخالفين
أحمد توفيق المدني	كتاب الجزائر
عامر بن موسى الشماخي	اللقط
نور الدين السالمي	اللمعة المرضية
أبو عبد الله محمد أبوراس	مؤنس الاحبة في أخبار جربة
أبو الربيع سليمان الباروني	مختصر تاريخ الاباضية
أبو الحسن المسعودي	مروج الذهب
رتبها قطب الأئمة	المعلقات « مؤلفها مجهول »
أبو الربيع الحيلاتي	مقتطفات من الأخبار والأحداث (مخطوط)
أبو اليقظان ابراهيم بن عيسى	ملحق السير (مخطوط)
عثمان الكعك	موجز التاريخ العام للجزائر
يحيى أبو عزيز	الموجز في تاريخ الجزائر
أبو اليقظان ابراهيم	نماذج امارات الدفاع (مخطوط)
أبو اسحاق طفيش	النقد الجليل
محمد علي دبوز	نهضة الجزائر الحديثة

وهناك مجموعة أخرى من الوثائق فانتتني عند ترتيب المراجع منها « بيان حقيقة » للسيد وكيل الأمة الميزابية في قضية التجنيد الاجباري ، ومنها رسالة الأخ الأستاذ ابراهيم قرادى في موضوع الجهاد في سبيل الله ، ومنها البحث الذي قدمه الى الأخ الأستاذ قحارحم في منظمة امسطوردان ، ومنها رسالة مطبوعة لقطب الأئمة سقطت منها الصفحة الأولى فلم أعرف اسمها ، ومنها بعض المراسلات التي كانت تجرى بين العلماء التي تتناول موضوعنا من طرف جانبي أو تشير الى أحداث معينة كان لها أثر في مجرى التاريخ وبالتالي في الرأي الذي كونته أو انتهيت اليه في بعض القضايا .

فهرس الاعلام (*)

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٤٠ ، ١٤٥ ،
 ١٤٦ ، ٢٣٩
 ابن القابلة : ٣١٩
 ابن النظر : ٢١٦
 ابن الواسطى : ١١٦
 ابن باديس : (انظر المعز بن باديس)
 ابن جلاب : ٣٢٥
 ابن جلول (الدكتور) : ٥٩١
 ابن خلدون : ١٣٧ ، ٣٧٢ ، ٣٨٤ ،
 ٤٢٥
 ابن خلف : ٤٤
 ابن خلفون : ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧
 ابن الحداد : ٥٨٩
 ابن داوود (العقيد) : ٥٩١
 ابن سلام : ١٣٣
 ابن صالح : ٢٩٤
 ابن طولون : ٤٩٠
 ابن عباس : ١٩٤
 ابن عرفة : ٤٢ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٥٩ ،
 ٦٠ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٧ ،
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ،
 ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١١٠ ، ١١١ ،
 ١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ،
 ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٩ ، ١٢٠ ،
 ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ،
 ١٢٥ ، ١٢٦
 ابن غانية : (انظر الميورقى)
 ابن فندين : ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤
 ابن ماطوس سليمان : ٢٥٧ ، ٢٥٨

(ل)

أبخت بن باديس اليشكنى : (انظر
 أبو باديس)
 أبد الله : ١٨٢ ، ١٨٣
 ابراهيم بن أبى بكر : ٢٣٥ ، ٤١٧
 ابراهيم بن أحمد : ٢٥٠
 ابراهيم بن سليمان : ٢٣٥
 ابراهيم بن صالح الأمين : ٣٣٣
 ابراهيم بن محمد بن بكر النفوسى :
 ٤١٦
 ابراهيم بن معاذ : ٣٤٥
 ابراهيم بن ويجمان : ٢٣٥
 ابراهيم بحيمان : ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٨
 ابراهيم قرادى (الأستاذ) : هـ ٥٧٦ ،
 ٥٧٧ ، ٥٨٨ ، ٥٩٣ ، ٦٠١ ،
 ٦٠٢ ، ٦٠٦
 ابن الأثير : ٣٩٥
 ابن الأغلب : (ابراهيم بن الأغلب) :
 ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥
 ابن الحاج مغيرة : ٤٠٠ ، ٤٠١
 ابن الخير : ٢٧٣
 ابن الصغير المالكى : ١٢ ، ١٤ ،
 ٢٥ ، ٥٦ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٢ ،
 ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٤ ، ٩١ ، ٩٢ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٦ ، ٩٧ ، ٩٨ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ،
 ١٠٤ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ،
 ١٠٨ ، ١١٢ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
 ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠

(*) تحذفت أداة التعريف

أبو العباس الدرجيني : (انظر
الدرجيني)

أبو العباس الشماخي : (انظر
الشماخي)

أبو العباس الوليلي : ٢٦٦ ، ٣١٨

أبو العباس بن الأغب : ٤٨

أبو العباس بن طولون : ٥٠١

أبو العز بن داوود : ١٩٧ ، ١٩٨

أبو القاسم الجراي : ٢٢٠ ، ٢٣٢

أبو القاسم البغطوري : ٢٦٩ ، ٢٧١

أبو القاسم يزيد بن مخلد : ٢٧٣ ،

٢٧٤ ، ٣٢٤

أبو اليقظان ابراهيم (الشيخ) :

٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ ، ٢٢١ ، ٢٣٥ ،

٢٣٧ ، ٢٣٩ ، ٢٤١ ، ٢٤٣ هـ ،

٢٤٥ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩

٢٩٩ ، ٣٠٠ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ ، ٣٢٦

٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٥١ ، ٣٥٤ ، ٣٩٨

٤٠٠ ، ٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٤٥٧ ، ٥٤٨

٥٥١ ، ٥٥٤ ، ٥٦٩ ، ٥٧٩ ، ٥٩٠

٥٩١ ، ٥٩٢

أبو اليقظان بن أفلح : ٢٨ ، ٥٣

٥٨ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٤ ،

٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ،

٨١ ، ٨٧ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩٤ ،

٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،

١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،

١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١١ ، ١١٤ ،

١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ،

١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٤٥ ،

١٥١

أبو باديس (أبخت بن باديس

اليشكني) : ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٦ ،

١٥٧ ، ١٧١ ، ٢٨٠

أبو بكر (الصديق) : ٢٨ ، ٦١ ، ٢٠٢

أبو بكر بن أفلح : ٢٢ ، ٥٣ ، ٥٩

ابن مسالة : ٨٣

ابن مغطير : ٦٨

ابن وردة : ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩

ابن وصاف : ٢١٦

ابن يوسف (الشيخ) : ٦٠٦

أبو اسحق : ٥٩٢

أبو اسحق طفيتي : ٢٣٧ ، ٢٤٠ ،

٣٥٤

أبو اسحق الأشارني : ٤٥٧ ، ٥٠٢

أبو اسماعيل مهدي بن اسماعيل

المليكي : ٣٠٧

أبو امحمد اليزقني : ٤٦٦

أبو الحسن الأبدلاني : ١٣٢

أبو الحسن أيوب بن العباس : ٤٢

أبو الحسن بن أفلح : ١٨٨ ، ١٨٩

أبو الحسن علي بن خزر الوسياني

النفوسي : ٢٩٦ ، ٢٩٧

أبو الخطاب عبد الأعلى المعافري (الامام)

٣٣ ، ٥٦ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،

١٣٥ ، ١٣٦ ، ٣٥٧ ، ٣٧٤ ،

٣٧٥ ، ٥٠١

أبو الخير : ١٨٩

أبو الخير توزين الزواغي : ٢٨٢ ،

٥٠٢

أبو الخير الوزيرفي : ٢٦٩

أبو الربيع سليمان بن يخلف : ١٨٠ ،

١٩٠ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢٥٩ ، ٢٩٧ ، ٣١٨ ،

٣٢٠ ، ٣٢١

أبو الربيع سليمان بن شاكر : ٣٥٤ ،

٣٥٥

أبو العباس أحمد بن محمد بن بكر :

١٢٧ ، ٢٣١ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،

٣٤٨ هـ ، ٣٨٥

أبو العباس أحمد بن أبي عبد الله

ابن بكر : ٣٤٨

- ٢٤٠ ، ٣١١ ، ٣٤٦ ، ٣٤٧
 أبو زكرياء يحيى بن صالح الأفضلي :
 هـ ٤٤٧ ، ٤٥٧ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ،
 ٤٦٤ ، ٤٦٦ ، ٤٦٨
 أبو زيان عبد العزيز : ٢٤٦ ، ٢٤٧
 أبو سابق : ٧٩ ، ٨٠
 أبو سهل الفارسي : ١٥٩ ، ١٦١ ،
 ٢١٨ ، ٤٩٥
 أبو سهل يحيى بن ابراهيم الورقلى :
 ٢٣٥ ، ٢٣٦
 أبو سليمان أيوب بن اسماعيل :
 ٢٣٤ ، ٢٤٠ ، ٥٠٢
 أبو صالح : ٤٩٨ ، ٣٦٣
 أبو صالح الياجرائى : ٣٨٣
 أبو صالح الیهراسنى : هـ ٢٧٤
 أبو صالح جنون بن يمریان : ١٥٠ ،
 ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ،
 ١٦٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ،
 ١٧٤ ، ٢٦٦ ، ٤٠٤
 أبو صفرة عبد الملك بن صفرة : ٢٠٣
 لأبو طاهر اسماعيل بن أبى زكرياء :
 ٢٩٥
 أبو طاهر اسماعيل الجيطالى : ٥٠٢
 أبو عبد الرحمن الكرثى المصعبى :
 ٢١٧ ، ٢٦٢
 أبو عبد الله الحجانى : ٤٣ ، ٥٤ ،
 ٦١ ، ٤٢١
 أبو عبد الله الشيعى : ٦١
 أبو عبد الله النفوسى : ٥٢٥ ، ٥٢٩
 أبو عبد الله بن سعيد : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
 ٢٢٩
 أبو عبد الله محمد بن الخير : ٣٢١
 أبو عبد الله محمد بن بكر النفوسى
 (الفرستائى) : ١٦٠ ، ١٧٦ ،
 ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١ ،
 ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٨٧ ،
 ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ،
 ٧٦ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ،
 ٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ،
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ،
 ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ،
 ١١٠ ، ١١١ ، ١١٢ ، ١١٣ ،
 ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١١٧ ،
 ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،
 ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٢٥
 أبو بكر بن يحيى : ٢٥٨
 أبو بكر عبد الله بن بكر : ٤٣٥
 أبو بلال مرداس : ٤٢٧
 أبو جعفر الوسلائى : ٢٦٦
 أبو حاتم الملوذى : ١٣٢ ، ١٣٣ ،
 ٢٧١ ، ٣٧٥ ، هـ ٤٢٠
 أبو حاتم يوسف بن محمد : ٣٣ ، ٤٢ ،
 ٤٤ ، ٥٤ ، ٦٠ ، ٦١ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٣ ، ١٢٤
 أبو خزر يغلا بن أيوب : ١٦٣ ، ١٦٤ ،
 ٢٣٢ ، ٣٢٥
 أبو داود القبلى : ٦٦ ، ١٣٠ ،
 ١٣٢ ، ١٣٣
 أبو دراد : ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٣
 أبو دنون : ١٢٤
 أبو رحمة الیشكنى : ٢٢٨ ، ٢٢٩ ،
 ٣٦٣
 أبو زكرياء : ١٣٣
 أبو زكرياء السمومنى : ٣٢٥
 أبو زكرياء بن أبى مسور : ١٧٧
 أبو زكرياء وكمين الهوارى : ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢١٤
 أبو زكرياء فضيل : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
 ٢٥٩ ، ٣٧٨
 أبو زكرياء يحيى بن أبى بكر : ٢٢٠
 أبو زكرياء يحيى بن أبى زكرياء :

- أبو محمد عبد الله بن عيسى : ٢٩٣ ، ١٨٨ ، ١٨٩ ، ١٩٠ ، ١٩١ ،
أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي : ٢٠٦ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ،
، ٢٠٢ ، ٢٦٦ ، ٢٦٩ ، ٢٧٥ ،
، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢١٣ ، ٢١٤ ، ٥٠١ ،
أبو محمد عبد الله محمد بن ناصر :
٢٠٧ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،
٥٠١ ، ٤٣٠ ،
أبو عبد الله محمد بن زكرياء الباروني
٥٠٢ ،
أبو عبد الله محمد بن سليمان
النفوسى : ٢٨٩ ،
أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن
أبخت : ١٥٣ ،
أبو عبيدة (بن الجراح) : ٦٠٤ ،
أبو عبيدة الأعرج : ١٤٥ ، ١٤٦ ،
أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة : ٦٨ ،
١٣٣ ، ١٣٠ ،
أبو عبيدة وشق : ٢٨٩ ،
أبو عثمان سعيد بن علي الخيري
الجربى : ٣١١ ،
أبو عزيز بن خواجة : ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
أبو عمار عبد الكافي بن أبي يعقوب :
، ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ،
٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٤٠ ، ٤١٦ ،
أبو عمران موسى النفوسى : ٢٢٩ ،
أبو عمرو عثمان بن خليفة السوفى
المارغنى : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٣٣ ،
٢٣٤ ،
أبو محمد الصيرفى : ١١٦ ،
أبو محمد الونزيرفى : ٢٧١ ،
أبو محمد عبد العزيز اليرقنى : ٢٤٥ ،
أبو محمد عبد الله اللنتى : ٣٢٠ ،
٣٤٦ ، ٣٤٧ ،
أبو محمد عبد الله بن جابر اليشكنى :
١٥٨ ، ١٧٧ ،
- أبو محمد عبد الله بن عيسى : ٢٩٣ ،
أبو محمد عبد الله بن محمد اللواتي :
، ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٧ ،
، ٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٢١٠ ، ٢١١ ،
٢١٣ ، ٢١٤ ، ٥٠١ ،
أبو محمد عبد الله محمد بن ناصر :
٢٠٧ ،
أبو محمد ماكسن بن الخير : (انظر
ماكسن) ،
أبو محمد ويسلان بن أبي صالح :
١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، هـ ٢٧٤ ،
أبو مرداس : ١٣٢ ،
أبو مساكن عامر بن علي الشماخي :
٣١١ ،
أبو مسعود : ١٢٤ ،
أبو مسور يسجا : ٢٥٦ ، هـ ٢٥٧ ،
٢٩٧ ، ٤٠٩ ،
أبو معروف : ٢٥٧ ، ٢٩٧ ،
أبو معقل عمر بن داوود (الأستاذ
الشيخ) : ٣٦٧ ، هـ ٣٦٨ ، هـ ٤٠٢ ،
٦٠٦ ،
أبو منصور العباس : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٣ ،
٥٤ ،
أبو منصور الياس : ٤٧ ، ٥٠١ ،
أبو مهدي عيسى بن اسماعيل المليكى
(المصعبى) : ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ،
، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٦٣ ،
٤٦٦ ،
أبو موسى عيسى بن أبي الحجاج :
١٩٧ ،
أبو موسى عيسى بن يرصوكسن : ٣١٩ ،
أبو موسى عيسى بن زكرياء : ٢١٦ ،
أبو مودود : ٢١٣ ،
أبو نصر التمصمى : ١٣٢ ،
أبو نصر فتح بن نوح : ٥٠٢ ، ٥٠٣ ،

٢٧ ، ٣٢ ، هـ ٢٦٥ ، ٣٣١ ،
٣٥٦ ، ٣٥٧ ، ٣٦٩ ، ٤٠٥ ، ٤١٠ ،
٤١١ ، ٥٣٩ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤ ،
٥٨٠

أحمد مختار عمر (الأستاذ) : ٥٠٠
اسماعيل بن العباس : ٢٩٤

أعزام (ابراهيم بن صالح) : ٣٧٠ ،
٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٧ ،
٣٧٨ ، ٣٨٣ ، ٣٩٣ ، ٣٩٤ ،
٣٩٥ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٤٠٠ ،
٤٠١

أفلق : ٥٣ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٧١ ، ٧٢ ،
٧٦ ، ٨٦ ، ١٠٧ ، ١٠٨ ، ١٢٢ ،
١٣٩ ، ١٥٩ ، ١٦١ ، ٢٠٧ ،
٤٥٨ ، ٤٩٣ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ،
٦٠٦

أفلق بن العباس : ٥٥
أفلق بن عبد الوهاب : ٥٩ ، ٧٠ ،
٧٣ ، ٩٣
الأغلب : ١١٨

أم ماطوس : ٣٥٠
أم ماكسن : ١٩٣
أم يوسف : ١٩٣
امرؤ القيس : ٤٩٨

أيوب بن أبي طاهر اسماعيل : ٢٩٥
أيوب بن أبي عمران : ٣٥٥
أيوب بن العباس : ١٣٢
أيوب بن حمو : ٢٠٥

(ب)

بابا عمر عبد الرحمن (الدكتور) :
٦٠٣

بابه عيسى العلواني : ٤٠٩
باديس : ١٥٧

الباروني (سليمان بأشأ الباروني) :
٢٥ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ٦٤ ، ٦٥ ، ٦٦ ،

أبو نوح سعيد بن زنگيل : ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٨ ، ١٧٤ ،
١٧٧ ، ٤٨٢

أبو نوح سعيد بن يخلف : ١٧١ ،
١٧٤ ، ١٧٥

أبو هارون موسى بن علي : ٣٤٦

أبو يزيد الخارجي : ١٥٩
أبو يزيد اليفرنى : ٣٦

أبو يعقوب محمد بن بدر : ١٩١
أبو يعقوب يوسف الطرفى : ١٤٧ ،
١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٦٨ ،
١٩٠

أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم
السدراتى الوارجلانى : ٢٣٧ ،
٢٤١ ، ٢٣٩

أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم :
٣٦٢ ، ٣٨٣ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣

أبو يعقوب يوسف بن خلفون : ٢٢٢ ،
٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ،
٢٢٧ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩

أبو يعقوب يوسف بن محمد المصعبى :
٣٣٩ ، ٤٥٣ ، ٤٥٦ ، ٤٦٣ ، ٤٦٦ ،
أبو يعقوب يوسف بن موسى : ٢٩٨ ،
٣١٧

أبو يعقوب يوسف بن يعقوب : ٣٥٥
أبو يوسف : ٥٥٣

أبو يوسف يعقوب بن أفلق : ٦١ ،
٦٢ ، ٦٣ ، ٨٧ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ،
٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٣٦٢

أبو يونس وسيم : ١٣٢
أحمد بن أفلق الوارجلانى : ٢٤٦

أحمد بن أيوب : ٢٥٠
أحمد بن بشير : ٧٩ ، ١٤٥

أحمد بن القاضى وقاره حسن : هـ ٥٧٤
أحمد توفيق المدنى (الأستاذ) :

- بولنعاش أحمد بن صالح : ٥٨٩ ، ٦٧ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٦٨ ، ٦٧
بيرم التونسي : ٣٧٢ ، ٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩١
بيلى : ٥٨٥ ، ٩٨ ، ١٢٩ هـ ، ١٣٤ هـ ، ١٣٨ هـ ، ١٤٠
بيوض ابراهيم بن عمر (الشيخ) ، ١٤٠ هـ ، ١٤٧ هـ ، ١٥١ هـ ، ١٥٩ هـ ، ١٦٢ هـ ، ١٧١ هـ ، ١٩٣ هـ ، ٢٠٢ هـ ، ٢٠٧ هـ ، ٢١٥ هـ ، ٢٢٢ هـ ، ٢٣١ هـ ، ٢٣٧ هـ ، ٢٤٢ هـ ، ٣٠٦ هـ ، ٣٠٧ هـ ، ٣٠٩ هـ ، ٤٥٣ هـ ، ٥٠٣ هـ
(ت)
تبغورين الملسوطى : ٢٩٤ ، ١٢٧ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩ ، ٣٤٧
توزر : ٣١٩
توزين : ٣٢٠
توماس (العقيد) : ٤٧٨ ، ٤٧٤
تيرشيين ابراهيم : ٦٠٣
(ث)
ثالا عيسى : ٣١٩
ثازوراغت : ١٨٩
(ج)
جابر بن زيد : ١٥
الجاحظ : ٢٣٨
جدليش اليجلانى : ٥٥٣
جلول بن باجمان : ٤٠٢ ، ٤٠٠
جول تيرمان : ٥٩٠
الجيطالى : ٥٠٣
(ح)
الحارث بن تليد : ٣٢
الحجاني : ٤٨ هـ ، ٤٢٠ هـ
حسن البغدادي (الشيخ) : ٥٩٢
حسن الدولاتلى : ٣٣٢
حسن حسنى عبد الوهاب (الأستاذ)
الشيخ) : ٥٣٩ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧
حسين باشا (الداى) : ٥٨٣ ، ٥٨٠
حماد بن بلقين : ٣٢١
حمو بن اللؤلؤ : ١٨٨
حمو بن باحمد باكلى : ٤٠٠ ، ٣٢٦
الحموى : ٣٧٢
- ٦٧ ، ٧٢ ، ٧١ ، ٦٨ ، ٦٧
٧٨ ، ٨٠ ، ٨٢ ، ٨٦ ، ٩١
٩٨ ، ١٢٩ هـ ، ١٣٤ هـ ، ١٣٨ هـ ، ١٤٠
١٤٠ هـ ، ١٤٧ هـ ، ١٥١ هـ ، ١٥٩ هـ ، ١٦٢ هـ ، ١٧١ هـ ، ١٩٣ هـ ، ٢٠٢ هـ ، ٢٠٧ هـ ، ٢١٥ هـ ، ٢٢٢ هـ ، ٢٣١ هـ ، ٢٣٧ هـ ، ٢٤٢ هـ ، ٣٠٦ هـ ، ٣٠٧ هـ ، ٣٠٩ هـ ، ٤٥٣ هـ ، ٥٠٣ هـ
باسه بن موسى بن داوود : ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٤٩
باعمور بن الحجاج : ٢٥٠
باكلى عبد الرحمن (الأستاذ) : ٢٧٨ ، ٢٥٥ هـ ، ٢٥٢ هـ ، ١٧٦ هـ ، ٢٧٩ هـ ، ٢٨٤ هـ ، ٢٨٧ هـ ، ٢٩١ هـ ، ٢٩٩ هـ ، ٣٠١ هـ ، ٣٠٢ هـ ، ٣٠٦ هـ ، ٣٠٩ هـ ، ٣١٣ هـ ، ٣١٦ هـ ، ٣٣٠ هـ ، ٣٣١ هـ ، ٣٣٧ هـ ، ٣٤٤ هـ ، ٣٥١ هـ ، ٣٥٨ هـ ، ٤١٠ هـ ، ٤١٤ هـ ، ٤١٧ هـ ، ٤٤٧ هـ ، ٤٧٠ هـ ، ٤٧١ هـ ، ٤٧٣ هـ ، ٤٧٤ هـ ، ٤٧٦ هـ ، ٥١٢ هـ ، ٥٢١ هـ ، ٥٨٨ هـ ، ٥٨٩ هـ ، ٥٩١ هـ ، ٦٠٦ هـ ، ٦٠٥ هـ
بالحاج محمد بن سعيد : ٣١١ ، ٣٠٨ ، ١٣٥ ، ١٣٤
البرادى : ٢٣٨
البغطورى : ٢٧٣ ، ٢٥٦
بكر بن أبى بكر النفوسى الفرسطائى : ٢٥٧
البكرى : ٣٧٢
بكير : ٦٠٣
بن خدة (الرئيس) : ٦٠٣
بن يوسف سليمان (الشيخ) : ٥٩١
بوراس : ٥٩١
بورقيبية (الرئيس) : ٥٩٣
بوشوشة : (انظر محمد بوشوشة)

الدمري : ١٤٩
دوسرا : ٤٢٠
دوق دى دالماسر (المارشال) : ٤٧٤
دولاتور دوفيرنيو (الجنرال) : ٥٨٢
دوماس (الجنرال) : هـ ٥٧٠
دييراى (الكومندان) : ٥٨٤

(ر)

راندون (الكونت) : ٥٨٢
الربيع بن حبيب : ٢٣٩ ، ٢٤٠
الرشيد : ١١٥

(ز)

زكرياء : ٢٥٨
زيد بن ثابت : ٣٨

(س)

سابق : ٧٩
السالى : ٣٧٢
سعد (بن أبى وقاص) : ٦٠٤
سعد بن يفاو : ٢٩٦ ، ٢٩٧
سعيد التعاريتى الجربى : ٢٢١ ، ٣٠٠

سعيد الزكارى : ١٦٠

سعيد بن ابراهيم : ١٨١

سعيد بن على الجادوى : ٢٥٠

سعيد بن على الخيرى الجربى (عمى)

سعيد (: ٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٤ ،

٢٦٢ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ،

٤٠٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ،

٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦

سلمة بن سعد : ١٥ ، ١٩ ، ٢١ ،

٢٣ ، ٢٤ ، ١٢٩

سليمان بن ابراهيم : ٢٣٥

سليمان بن الحاج داوود (الشيخ) :

١٤٤ ، هـ ٤١٠ ، هـ ٥٦٧ ، هـ ٥٦٩ ،

هـ ٥٧٠ ، هـ ٦٠١ ، هـ ٦٠٦

(خ)

خالد (الأمير) : ٥٩٢

خالد (بن الوليد) : ٦٠٤

خلف الخادم : ١١٦ ، ١١٨ ، ١٢١ ،

١٢٢ ، ١٢٣

خلف بن أحمد : هـ ٢٥٧

خلف بن السمح : ٤١ ، ٤٢ ، هـ ٢٥٧

خليفة بن أبغور : ٤١٠

خليفة بن عمار : ٥٩١

خير الدين : هـ ٤٤٨ ، هـ ٥٧٤

(د)

داوود (الأب داوود) : ٢٤٤

داوود بن أبى سهل : ٢٣٥ ، ٢٩٦ ،

داوود بن يوسف : ١٨١

الدبوز (الأستاذ محمد على الدبوز) :

٢٥ ، ٨٦ ، ٩١ ، ٩٨ ، ١٠٥ ،

١٣٣ ، ١٤٠ ، ٢٥٢ ، ٤٠٥ ،

٤٠٦ ، ٤١١ ، ٤١٤ ، ٤٢٠ ،

٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ،

٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ،

٤٦٧ ، ٤٦٩ ، هـ ٤٧٠ ، ٤٧١ ،

٤٧٣ ، ٥٤٩ ، ٥٥٤

دحمان (الشيخ) : ٣٠٨ ، ٣١١

الدرجيني (أبو العباس أحمد بن

سعيد الدرجيني) : ٨٩ ، ١٢٤ ،

١٤٠ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ،

١٥٦ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، ١٧٠ ،

١٧١ ، ١٧٥ ، ١٧٦ ، ١٨٦ ،

١٩٥ ، ٢٠٠ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،

٢١٨ ، ٢٢٠ ، ٢٢١ ، ٢٢٢ ،

٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٣٥ ،

٢٣٧ ، هـ ٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٦٦ ،

هـ ٢٧٥ ، ٢٩٢ ، ٢٩٧ ، ٣١٧ ،

٣١٨ ، ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٩٤ ،

٤٢٠ ، ٤٢١

صقر فارس (انظر عبد الرحمن بن
رستم الفارسي)
صقر قزوين : (انظر عبد الرحمن
الداخلي)
الصيرفي : ١١٧ .

(ض)

ضياء الدين التميني : ه ٤٤٧ ،
٤٦٦ ، ٤٥٧

(ط)

طارق (بن زياد) : ٦٠٤
طباخ بن داود بن ابراهيم : ٣٢٥
طفيش : (الشيخ طفيش : انظر
قطب الأئمة)

(ع)

عائشة بنت معاذ : ٣٤٥ ، ٣٤٦ ،
٣٥٠ ، ٣٤٨ ، ٣٤٧
عاصم السدراتي : ٢٤ ، ١٢٩ ،
١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ، ٣٧٤ ،
٣٧٥

العباس بن طولون : ٤٧ ، ٤٨ ،
٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥

عبد الرحمن الجيلالي : ٢٣٧
عبد الرحمن الداخل : ١٣٤ ، ١٣٥ ،
١٣٦ ، ١٣٧

عبد الرحمن بن رستم : ٣٥ ، ٥٣ ،

٥٦ ، ٥٧ ، ٦١ ، ٦٤ ، ٦٥ ،

٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ،

١٣٣ ، ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

١٣٧ ، ١٤٤ ، ١٥٩ ، ١٦٣ ،

٢٠٩

عبد الحميد بن مغطير : ١٩

عبد الخالق الفزاني : ١٣٢

عبد السلام بن وزجون : ٢٦٩

عبد العزيز (الشيخ) : ٣٣٣

عبد العزيز التميني : ٢٤٥ ، ٤٧١

سليمان بن عبد الله بن بكر : ٢٩٤

سليمان بن عيسى اليزقني : ٣٢٥

سليمان بن مدرار النفوسي : ٢٠٩

سليمان بن عبد الله المرزوقي : ٢٤٢

السمح بن أبي الخطاب : ٤١ ، ٤٢ ،

٥٠١

سمداسن : ٢٩٦

سني حواس (العقيد أحمد بن

عبد الرازق) : ٦٠٣

سيدي الشيخ : ٥٨٩

سيدي عيسى : ٢٤٣

(ش)

شارل الخامس (شارلكان) : ٥٦٩ ،

٥٧٠ ، ٥٧١

الشريف الادريسي : ٢٨٩

شريف بالحاج بن عبدون : ١٤٤

شعيب (عليه السلام) : ١٦٤

شعيب المصري : ٣٦

الشماعخي (أبو العباس) : ١٣٣ ،

١٤٠ ، ١٧٦ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ،

٢٢١ ، ٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٣٧ ،

٢٢٨ ، ٢٤٢ ، ٢٥٧ ، ٢٨٠ ،

٢٨٩ ، ٣٠٧ ، ٣١٧ ، ٣٢١ ،

٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٣

شوقي (أحمد شوقي) : ٤٩٤ ، ٤٩٨

(ص)

صالح (الشيخ) : ٢٩٤

صالح باي : ٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ،

٣٣٣ ، ٣٣٤

صالح بن الحاج ابراهيم : ٢٥٠

صالح بن يحيى : ٥٩٢

صالح الخرافي : ٦٠٢

صالح سيوسيو : ٥٩٢

صباح المزاتي : ٢٢٤

١٣ ، ٢٦ ، ٣٨ ، ٦١ ، ٢٠٢ ،
٤٨٣ ، ٢٠٣

علي بن أحمد العماني : ٥٠٢

علي عبد اللطيف (الشيخ) : ٣٣٣
عمر العوام : ٣٠٩

عمر بن الخطاب : ٥٧ ، ٦١ ، ٢٠٢ ،
٢٨٢ ، ٢٤٥

عمر بن عبد العزيز : ٢٢ ، ٣٢٣ ،
٣٣٧

عمر بن عيسى التندميرتي النفوسى :
٢٤٢

عمر بن عيسى بن ابراهيم : ٣٣٠ ،
هـ ٥٧٨ ، ٥٨٧

عمرو (بن العاص) : ٦٠٤

عمرو النامي (الدكتور) : ٢٣٠

عمرو (كاتب الميورقي) : ٣١٩

عمى سعيد : (انظر سعيد بن علي
الخيرى الجربى)

عثمان بن دليم الطرقي : ٣١٧ ، ٣١٨ ،
العياشى : ٣٧٢

عيسى العلوانى (عمى عيسى) : ٤٠٩ ،
عيسى بن أحمد : ٢٢١

عيسى بن حمو الواهج : هـ ٣١٠

عيسى بن قاسم : ٣٠٠

عيسى بن يرصوكسن : ٣١٨

(غ)

غرافة ابراهيم : ٥٩١

(ف)

فتح : ٥٨١

فخار حمو بن عمر : ٥٥٢ ، ٥٥٤

فرحات الجمبيري (الدكتور) : ٢٦٩

فرج النفوسى : ٤٣

فرويله بن الأدفونشى : ١٣٧

فقق بشاغة : هـ ٥٧٦

فلفل بن فلنار : ٣١٨

عبد العزيز الثعالبي : ٥٩٢

عبد العزيز بن الأوز : ١٠٦ ، ١١٦ ،
١١٧

عبد الغفار بن مولاي محمد بن مولاي
علاهم : ٣٨٧

عبد القادر (الأمير) : ٤٨٧ ، ٥٨٨ ،
٥٩٢ ، ٥٨٩

عبد الكريم (الأمير) : ٥٩٢

عبد الله البارونى : ٣٠٦

عبد الله الدمري : ٣١٨

عبد الله بن ابراهيم بن الأغب :
٤٦

عبد الله بن الأمير : ٢٩٧

عبد الله بن المنصور الورزمارى :
٣٢١

عبد الله بن جابر : ٢٨١

عبد الله بن مسعود التجيبي : ٢٧٠

عبد الله بن مسلم بن قتيبة : ١٤٦

عبد الله بن وهب الراسبى : ٥٧ ،
٤٨٣

عبد الوهاب الراسبى (الامام) :
٤٨٣

عبد الوهاب الرستمى : ٣٥ ، ٣٦ ،

٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٣ ،

٥٤ ، ٥٧ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ، ٦٦ ،

٦٧ ، ٦٨ ، ٦٩ ، ١٠٨ ، ٥٠١

عبد الوهاب الفارسى : ٥٧

عبود بن منار المزاتى : ٣٢٠

عثمان السوفى : ٢٣٢

عثمان الكعك : (الأستاذ : انظر
الكعك)

عثمان بن عفان (ذو النورين) :
٥٨ ، ٦١

العربى بن المهيدى : ٦٠٣

عقبة (بن نافع) : ٦٠٤

علوان بن علوان : ١٢٤

علي بن أبى طالب (أبو الحسن) :

٦٢ ، ٦٧ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ١٤٨ ،
 ١٦٢ ، ١٧٩ ، ١٨٢ ، ١٨٥ ،
 ١٨٨ ، ١٩٤ ، ١٩٦ ، ٢٠٢ ،
 ٢٠٣ ، ٢١١ ، ٢١٣ ، ٢١٧ ،
 ٢١٨ ، ٢١٩ ، ٢٣١ ، ٢٧٢ ،
 ٢٩٠ ، ٣٠٤ ، ٣٤٨ ، ٤٨٦ ،
 محمد المصعبى : ٢٤٨ ، ٢٥٠ ،
 ٤٥٣

محمد بيانو (الشيخ) : ٣٦١

محمد بن الأعلى : ٥٨٩

محمد بن الخير : ١٨٢

محمد بن بادريس : ١٥٧

محمد بن بكر : هـ : ٤١٠ ، ٤١٤ ،
 ٤٣٦

محمد بن زكرياء البارونى : ٢٤٢ ،
 ٣٠٧

محمد بن سدريين : ١٩١

محمد بن عبد الله بن أبخت : ١٥٢

محمد بن عرفة : ٨٥ ، ٨٩ ، ٩٠ ،

٩٣ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٣

محمد بن عصمة : ٢١١

محمد بن مسالة الهوارى : ٦٢ ،

١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨

محمد بن يانس : ١٣٢

محمد بو شوشة : ٣٢٥ ، ٣٢٦ ،

٤٠٠ ، ٤٠١ ، ٤٠٢

محمد التمينى (الشيخ) : ٥٩٢ ،

٥٩٣

محمد على الدبوز (الأستاذ) : انظر

الدبوز

محمود بن الوليد : ١١٢ ، ١١٦ ،

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ،

١٢٣

المرزوقى (الشيخ) : ٢٤٣

مرغريت (الجنرال) : ٥٨٩

مرنار : ٥٨٥

(ق)

قاسم الشماخى : ٣٠٠

قاسم بن بالحاج : ٣٠٧

قطب الأئمة (الشيخ طفيش) :

٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٤٥ ، ٣٠٠ ،

٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٩ ، ٣١١ ،

٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ، ٤٢٧ ،

هـ ٤٣٣ ، هـ ٤٥٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ،

٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٥٩٠

قطبان بن سلمة الزواغى : ٤٧ ، ٥٥

(ك)

الكعك (الأستاذ عثمان الكعك) :

٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٣٢ ، ٣٣ ، ٦٦ ،

٧٢ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ١٥٩ ، ٣٧٢ ،

٣٩٧ ، ٤٠٩ ، ٤١٢ ، ٤١٤ ،

٤٢٠ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٦ ،

٤٩٧ ، ٥٨٠

(ل)

لقمان (عليه السلام) : ٣١٨

(م)

م • برونيل : ٥٧٨ ، ٥٨٧

م • ستيق : ٥٨٤

مارغريت فان برشاييم : ٣٥٨

مامه بنت سليمان : ٥٧٧

ماكسن بن الخير : ١٩٣ ، ١٩٤ ،

١٩٦ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ،

٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢٠٦ ،

٢٠٨ ، ٢٠٩ ، ٣١٨ ، ٣٩٤

مالك : ٤٢٧

المتنبى : ٤٩٨

المحروق : ١٤٥

محكم الهوارى : ١٣٨ ، ١٣٩ ،

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٣

محمد (رسول الله : صلى الله عليه

وسلم) : ٣ ، ٥ ، ١٦ ، ١٨ ،

٣٧ ، ٣٨ ، ٥٨ ، ٥٩ ، ٦١ ،

- نلينو : ٤٨١
نوح بن أيوب : ٢٥٠
نور الدين السالمي : ٢٢٧
(ه)
هارون الجلال : ٣٠٦
هانري روبير : ٥٨٥
هود (عليه السلام) : ٣٦٦
هود بن محكم : ١٤٣ ، ١٤٤
هويدي : (أنظر يحيى هويدي)
(و)
الوارجلاني : ٦٤
وردة الجزائرية : ٦٠٢
الواسطي : ١١٧
وارسفلان بن مهدي النفوسي : ٣٥٥
الونزيرفي : ٢٥٦
ويجمان : ٢٣٥
(ي)
ياجرين بن جعفرانة : ١٨٧
يحيى بن صالح : ٣١٠
يحيى بن اسحاق : (انظر الميورقي)
يحيى بن ويجمين : ٢٩٦
يحيى بو عزيز : ٢٨ ، ٣٢
يحيى هويدي (الدكتور) : ٤٨٠ ،
٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٥ ،
٤٨٨ ، ٤٩٠ ، ٤٩١
يخلف بن يخلف : ٢٢٤ ، ٢٢٥ ،
٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩
يزيد بن يخلف الزواغي : ٢٠٧ ،
٢٠٨
يعقوب بن أبي القاسم : ١٨٩ ،
يعقوب بن أفلق : ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٣ ،
٨٣ ، ٢٧٣ ، ٤٠٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ،
٤٨٢ ، ٤٨٤ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩
يعقوب بن المنصور : ٣٧٣
مسعود الأندلسي : ٥٧ ، ٥٨
مسعود بن المنصور الورزماری : ٣٢١
المسيح (عليه السلام) : ٢٠٢ ،
٢١٧
مصالي الحاج : ٥٩١
مصعب بن سدمان : ٤١٢ ، ٤١٣ ،
٤١٤
مطهرة بن نفاض : ٣٢٠
معاذ بن جبل : ٣٨
معاذ بن أبي علي : ٣٤٥ ، ٣٤٦
المعز بن باديس الصنهاجي : ١٥٣ ،
١٥٤ ، ١٥٦ ، ١٥٧ ، ١٩٣ ،
٢٨٠ ، ٢٨٢
المعز لدين الله الفاطمي : ١٦٣ ،
١٦٤ ، ١٧٧ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
٢٧٥ هـ ، ٢٨٧ هـ ، ٣٢٤
مفدي زكرياء : ٥٩١ ، ٦٠١
منصور بن ملديك : ٣٢٠
موسى (عليه السلام) : ١٦٤ ،
٢٠٥
موسى بن أحمد الغارداوي : هـ ٣١٠
موسى بن علي : ٢٣٤
موسى (بن نصير) : ٦٠٤
مونتيسكيو (المسيو) : ٢٣٩
ميال بن يوسف : ٢٠٧
ميمون التكنيصي الورغمي : ٤٤ ،
٢٣٤
الميورقي : (ابن غانية : يحيى بن
اسحاق) : ٢٨٢ ، ٣١٩ ، ٣٧١ ،
٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٥ ،
٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٦
(ن)
ناجية بن ناجية : ٢٢٥
نزار (نزار قباني) : ٤٩٨
نفاث بن نصر : ٤٠٢

اليقظان : ٤٣ ، ٤٨ ، ٥٤ ، ٥٦ ،	يوسف المصعبي : هـ ٣١٠ ، ٤٥٣
٦١ ، ٦٣ ، ٧٧ ، ٨١ ، ٨٣ ،	يوسف بن حمو اليبسجني : هـ ٤٩٣
٤٢٠ هـ	يوسف بن خلفون : ٢٢٤
ينكول بن غيسى : ١٨١ ، ١٨٢	يوسف بن زييري : هـ ١٦٤ ، هـ ٢٨٧
يوسف : ٧٧	يوسف بن محمد : ١٥٩ ، ١٦١
يوسف العطاوى : ١٥ ، ١٨ ، ١٩	يونس : ٢٥٨
يوسف اللواتى : ٢٠٧	يونس بن أبى الحسن : ٢٩٦

* * *

فهرس البلدان(*)

١٣٧ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٤١ ،	(١)
٢٥٣ ، ٣٦٥ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ،	أجلو : ١٩٢ ، ١٩٧ ، ٢٠٣ ، ٢٠٥ ،
المانيا : ٢٣٩ ، ٢٤٠ ،	٢٠٦ ، ٢٠٨ ، ٢٥٣ ، ٢٦٨ ،
أواسط أفريقيا : ٢٣٨ ،	٣١٧ ، ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٥ ،
أوراس : (انظر جبال أوراس)	٣٤٦ ، ٣٥١ ، ٣٥٢ ، ٣٥٦ ،
أوروبا : ٢٣٩ ، ٣٣٦ ، ٣٦٥ ،	٣٥٨ ، ٤١٥ ، ٤٣٧ ، ٤٤٥ ،
ايفران (افران) : ١٨٣ ، ٢٢٩ ،	أرض الشبكة : (انظر الشبكة)
٣٥٨	أربغ (وادى أربغ) : ١٧٧ ، ١٨٣ ،
(ب)	١٨٤ ، ١٨٥ ، ١٩٧ ، ١٩٨ ،
بادية بنى مصعب : ١٧٧ ، ٢٣١ ،	٢٠١ ، ٢٠٧ ، ٢٣١ ، ٢٣٨ ،
٤١٣ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ ،	٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٨ ،
٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٥ ، ٤٢٨ ،	٢٥٩ ، ٢٦٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ،
٤٣١ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ،	٢٩٤ ، ٢٩٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ،
٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٣ ، ٤٤٥ ،	٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٤٥ ، ٣٥١ ،
٤٤٧	٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٥ ، ٣٩٧ ،
باريس : ٤٧٤ ، ٤٨٠ ، هـ ٥١٣ ،	٣٩٨ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٧ ،
٥٩٢ ، ٥٧٩	٤١٥ ، ٤١٨ ، ٤٢٧ ، ٤٣٧ ،
باغاي : ٢٥٢ ، ٢٥٤ ،	٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ،
بجاية : ٣٩١ ،	أسبانيا : ٣٨٩ ، ٣٩١ ، ٥٦٩ ،
البحرين : ٤٢٧ ،	٥٧٠
برج بوليلة : ٥٦٩ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ،	الأصنام : ٦٠٣ ،
برقة : ٢٠٧ ،	أفريقيا : ٢٥ ، ١٩٣ ، ٢١٠ ،
بريان : ٢٦٢ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٥٢ ،	٢٤١ ، ٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧٢ ،
٤٥٤	٣٨٩ ، ٣٩٥ ، ٤١٣ ، ٤٨٢ ،
بسكرة : ٤١٩ ،	أنفوسة (أنقوصة) : ٣٥٨ ، ٣٩٥ ،
البصرة : ١٢٩ ، ١٣٠ ،	٣٩٨ ، ٤١١ ،
بفايي : ٣٥٦ ،	الأغواط : ٢٥٣ ، ٣٣٠ ، ٣٥٨ ،
بغداد : ٧٦ ،	٤١٠ ، ٤١١ ، ٥٧٥ ، ٥٨٢ ،
بلدة عمر : ٣٤٤ ،	٦٠٣
البنديقية : ٣٩١ ،	الأنذلس : ١٣٤ ، ١٣٥ ، ١٣٦ ،

(*) حذفت أداة التعريف

٢٧٨ ، ٢٧٤ ، ٢٦٦ ، ٢٥٤
٣٨٤ ، ٣٧٥ ، ٣٧٣ ، ٣٤٠
٤٥٧ ، ٤١٩ ، ٤٠٩ ، ٣٩٦
٥٢١ ، ٥١٩ ، ٥١٣ ، ٥١٢
٥٩٩ ، ٥٩٣ ، ٥٩٢ ، ٥٩٠
٦٠٠

تونين : ٢٩٣

تيفست : ١٣١

تيفيت : ١٣١

تيمنراست : ٦٠٣

تين باماطوس : ٢٢٨ ، ٢٢٩

تين زارين : ٣٢٠

تينوال : ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٩

٢٩٤ ، ٢١٠

تينيسلى : ٢٥٩

(ج)

جادو : ٢٦٠

جامعة : ٣٥١

جبال أوراس : ١٢٩ ، ١٣١ ، ١٣٢

١٢٣ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢

٢٣١ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٣٧٤

جبال بنى راشد : ٤١٦

جبال بنى مصعب : ٢٥٣ ، ٢٨٧

٣٥٨ (وانظر ميزاب)

جبال دمر : ١٤٧ ، ١٧٧ ، ٢٣٢

٢٨٧

جبال سوق اهراس : ٦٠٣

جبال عمور : ٣٣٢

الجبل : ٤١٩ ، ٤٢٧ ، ٤٤٧

جبل اباظ : ٤١٠

جبل الشيخ بو عميد : ٢٤٥

جبل العباد : ٢٤٣ ، ٣٥٨ ، ٣٦٣

٣٦٥ ، ٣٩٥

جبل الكريمة : ٣٩٥

جبل سوفجج : ١٣٦

جبل نفوسة : (انظر نفوسة)

جدة : ٥١٣

بنورة : ٣٠٨ ، ٣١١ ، ٤٠٨ ، ٤١٠ ، ٤٣٩ ، ٤١١

البوسنة : ٥٨٦

بوشوشة : ٤٥٧

بوغاز : هـ ٥٨٩

بونة : ٢٨٠

(ت)

تاجديت (تاجديت) : ٢٥٣ ، ٢٦٨

٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٣٤٣ ، ٣٥١

٣٥٢ ، ٣٥٤ ، ٣٥٨ ، ٤٤٥

تازا : هـ ٥٨٩

تافنة : ٥٨٩

تاكدمت : هـ ٥٨٩

تاهرت (تيهرت) : ٢٩٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٠

٤٨٠ ، ٥٥ ، ٥٨ ، ٦١ ، ٦٢

٦٤ ، ٦٥ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٣

٨٥ ، ٩٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ، ١٣٩

١٤٠ ، ١٤٢ ، ١٤٧ ، ١٦٣

٢٥٤ ، ٢٦٥ ، ٢٧٢ ، ٢٧٥ هـ

٢٢٣ ، ٣٥١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

٣٧٥ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٤ هـ

٤١٦ هـ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢

٤٢٦ هـ ، ٤٣٣ ، ٤٨٢ ، ٤٨٤

٤٨٨ ، ٥٦٧

تركيا : ٨٦ ، ٣٣٠ ، ٣٣٧ ، ٥٧٥

تسلونت : ٧٩

تقبوس : ٢٥٨

تقرت : ٣٢٥ ، ٣٤٣ ، ٣٥٦ ، ٣٥٧

٣٦٧ ، ٣٩٧ ، ٣٩٨ ، ٣٩٩

تكسينت : ٣٢٠

تلمسان : ٢٨ ، ٣٢ ، ٢٦٥ هـ ، ٣٩١

تهامة : ٤٩٣

توزر : ٢٣١

تونس : ٥ ، ٧ ، ٢٤ هـ ، ١٣٤

١٣٦ ، ١٧١ ، ١٧٤ ، ١٩٣

٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢٣٩ ، ٢٥٢

٤٩٢ ، ٤٩٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٩	جربة : ٤٤ ، ١٧٧ ، ١٩٣ ، ١٩٦
٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٩	٢٣١ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠
٥٢١ ، ٥٤٤ ، ٥٤٧ ، ٥٤٩	٢٥٧ ، ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦١
٥٥١ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨	٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦
٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٣	٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧
٥٧٤ ، ٥٧٦ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩	٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١
٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣	٣١٢ ، ٣٢٥ ، ٣٥٧ ، ٣٧٥
٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٧ ، ٥٨٩	٣٧٨ ، ٣٨٩ ، ٤٠٤ ، ٤٠٧
٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٥	٤٠٩ ، ٤١٩ ، ٤٢٧ ، ٤٤٧
٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩	٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٥٣٩
٦٠٠ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥	٥٤٥
جزائر بنى مزغتان : ١٦١	الجريد : ٢٣١ ، ٢٦٨ ، ٢٠٧
جزيرة العرب : ٤٩٣	٣٧٢ ، ٣٥٦
جعراف : هـ ٣٤٤	الجزائر : ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ٩
الجنوب التونسي : ٢٥٧	هـ ١٢ ، ١٥ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩
الجنوب الجزائري : ٢٣٧	٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٢
(ح)	٣٦ ، ٣٨ ، ٤٢ ، ٦٦ ، ٧٢ ، ٧٨
الحامة : ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٢٧٤	٨٢ ، ١٢٩ ، ١٣٢ ، ١٣٧ ، ١٥٩
الحراش : ٥٧٠ ، ٥٦٩	١٦١ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٤
حصرموت : ٢١٣	١٧٧ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ، ٢٥٤
الحمة : ١٦٤ ، ١٦٥ ، ٣٢٤	٢٦٥ ، ٢٦٦ ، ٢٦٨ ، ٢٧١
(خ)	٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨ ، ٢٨٧
خط الاستواء : ٢٣٨	٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٢ ، ٣٠٦
(د)	٣٠٨ ، ٣٢٣ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠
درج : ١٣١	٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
درجين : ٢٣١	٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩
دريوط : ٥٧١	٣٤٠ ، ٣٤١ ، ٣٥٠ ، ٣٥٦
دمر : ٣١١ (وانظر جبال دمر)	٣٥٧ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ ، ٣٦٩
(ر)	٣٧٣ ، ٣٧٤ ، ٣٧٥ ، ٣٨٤
رأس الوادى : ٣٠٨	٣٨٩ ، ٣٩٠ ، ٣٩١ ، ٣٩٦
الرحيبات : هـ ٣١٠	٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
رقلة : ٢٨٩	٤١١ ، ٤١٣ ، ٤١٤ ، ٤١٩
الرمال : ٢٥٣ ، ٢٩١ ، ٣٥٦	٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٣٢ ، ٤٣٤
٤٣٥ ، ٣٥٨	٤٤٨ ، ٤٥٤ ، ٤٥٧ ، ٤٥٩
الرحامنة : ٢٤٦	٤٧٠ ، ٤٧٤ ، ٤٧٧ ، ٤٨١
	٤٨٢ ، ٤٨٧ ، ٤٩٠ ، ٤٩١

شروس : ٢٩٧ ، ٢٥٦

شمال أفريقيا : ٢٣٩ ، ٣٤١ ،
٣٥٨ ، ٤٠٤ ، ٤١٥ ، ٥٨٣ ،
٥٩٢

(هـ)

صحراة (انظر صحراة)

الصحراء : ٣٧٣

الصحراء الكبرى : ٤١١

(ط)

طينة : ٣٨٤

طرابلس : ٤١ ، ٤٦ ، ٥٤ ، ١٣٠ ،

١٣١ ، ١٣٢ ، ٢٢٩ ، ٢٨٧ ،

٣٥٧ ، ٣٧٤ ، ٤٠٩ ، ٥٠١

(ع)

العراق : ١٥ ، ٢٣ ، ٧٦ ، ٩٩ ،

١٠٧ ، ١٢٩

العطف : ٣٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ،

٤١١ ، ٤١٤ هـ ، ٤١٦ هـ ، ٤١٧ ،

٤٢٣ ، ٤٣٧ ، ٤٣٩ ، ٤٤١ ،

٦٠٣

عقاب : ٢٢٤

عمان : ١٣٠ ، ٢٢٥ ، ٤٢٧

عنابة : ١٥٧ ، ٣٩١ ، ٥١٩

عين الصفا : ٣٩٥

عين ماضي : هـ ٥٨٨

(غ)

غابة الحاجب : ٦٠٣

غارداية : ٢٤٤ ، ٣٠٦ ، ٣٠٨ ،

٣١١ ، ٣٥٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠ ، ٤١١

٤٣٩ ، ٥٤٩ ، ٥٥١ ، ٥٥٨ ،

٥٦٣ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ،

٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ،

٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٩٠ ، ٦٠٣

غانة : ٢٨٩

غدامس : ١٣١ ، ١٣٢ ، ٣٦١ ،

٥٤٥

(ز)

الزاب : ٢٨ ، ٣٢ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٩١ ، ٢٨٧ ، ٢٦٥ هـ ، ٢٥٤

٣٢٠ ، ٣٥٨ ، ٤٨٢

زريق : ٣٢٠

زنجبار : ٤٢٧

زواره : ١٧٤ ، ٢٦٠ ، ٢٦٤ ، ٢٧٨ ،

٣١٠ هـ

زواغة : ٦٠ ، ٦١ ، ٨٢ ، ٢٥٧ هـ

(س)

سحراة (سحراة) : ١٢٩ ، ١٣١ ،

١٣٢ ، ١٣٣ ، ٢٥٤ ، ٢٨٢ ،

٢٩١ ، ٣٦٤ ، ٣٥٨ ، ٣٦٥ ،

٣٦٧ هـ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٥ ،

٣٨٠ ، ٣٨٥ ، ٣٩٥ ، ٤٠٣ ،

٤٠٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٧ ، ٤٠٨ ،

٤١٠ ، ٤١٥ ، ٤١٧ ، ٤١٨ ،

٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢١ ، ٤٢٢ ،

٤٢٣ ، ٤٢٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٥ ،

٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٥٠٧

سرت : ٨٠ ، ٨١

سلجماسة : ١٤٦ ، ٤٤٥

سهل الجفارة : ٤٦ ، ١٣١

سهل مصطفى باشا : ٥٧١

السودان : ٦٧ ، ٨٥ ، ٩٣ ، ٢٨٩ ،

٣٨٢

سوف (وادي سوف) : ٢١٣ ،

٢٣١ ، ٢٣٤ ، ٢٥٢ ، ٢٥٣ ،

٢٥٤ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ، ٣١٧ ،

٣٢٠ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٥ ،

٤٤٥ ، ٦٠٣

(ش)

الشبكة (أرض الشبكة) : ٤١٠ ،

٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٨ ،

٤٣٠ ، ٤٣١ ، ٤٣٩ ، ٤٤٧ ،

٤٥٢ ، ٤٥٤ ، ٤٨١

(ك)

كديّة مفراوة : ٣٢١
كريمة (الكريمة) : ٣٥٨ ، ٣٩٥ ،
٤١٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢
الكنيسة : ١١٢ ، ١٢٠

(ل)

لبدة : ٤٧
لمطة : ١٨٢ هـ
لواتة : ١٨٢
ليبيا : ٥ ، ٧ ، ٢٤ ، ٣٣ ، ٤٢ ،
٥٥ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣٦ ،
١٧١ ، ١٧٢ ، ١٨١ ، ٢٥٢ ،
٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٨ ،
٣٠٨ ، ٣٢٣ ، ٣٤٠ ، ٣٥٠ ،
٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٤ ، ٤٤٢ ،
٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٨٧ ، ٥٠٠ ،
٥٥٤ ، ٦٠٥

(م)

مانو : ٥٥
مقليلي : ٢٥٣ ، ٣٥٨ ، ٥٨٩
المدينة المنورة : ٤٨٦ ، ٥١٣
المحية : ٥٨٩ هـ
مراكش : ٣٨٧
مرسى الحجاج : ١٦١
مزاثة : ١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٥٧ ، ١٧١ ،
٣٥٤
المسييلة : ٣٨٤
مصر : ٣٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٣ ، ٢٣٨
مصعب : ٢٤٢ (وانظر ميزاب)
معسكر : ٥٨٩ هـ
مفراوة : ٢٩٦ ، ٣١٧
المغرب : ٢٥ ، ٣٧ ، ٦٤ ، ٧٣ ، ٨٠ ،
١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ،
١٩٢ ، ٢٤٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٧ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٦٦ ، ٢٦٧ ،
٢٦٨ ، ٢٧٠ ، ٢٧٢ ، ٢٧٦

غريان : ٥٤٥

غمانة : ٢٨٩

(ف)

فحوص بونة : ١٥١
فرسطاء : ١٧٧ ، ١٩١ ، ٢٥٧
فرنسا : ٣٣١ ، ٣٥٦ ، ٣٥٨ ، ٣٩٠ ،
٤١٣ ، ٤٩١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ،
٥١٩ ، ٥٢١ ، ٥٧٠ ، ٥٧٤ ،
٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٩ ،
٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ،
٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ،
٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٣
فساطو : ٤٠٩
فلسطين : ٤٨٧
فنظار : ٣٢٠

(ق)

قابس : ٤٧ ، ٥٥ ، ١٥٨ ، ٢٨١
القاهرة : ١٦٣ هـ ، ١٦٤ هـ ، ٢٨٧ هـ ،
٣٨٤ ، ٦٠٢
قبرص : ٥٨٦
القرارة : ٢٦٢ ، ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤٥١ ،
٤٥٤
قرطبة : ٢٣٧ ، ٢٣٨
قرمطاء : ١٧٦
قسطنطينية : ٣٢٦ ، ٤١٩
قسطنطينة : ٣٢٥ ، ٣٥٦ ، ٥٦٩ ،
٥٧٠ ، ٥٧٩
قصر الصوف : ٤٤٠
قصر بنى وليل : ٣٤٥
قصطالية (قصطيلية) : ١٧٧ ،
٢٥٤ ، ٢٨٧ ، ٣١٧ ، ٣٢٠ ، ٣٥٦
قلعة بنى درجين : ١٦٠
قلعة بنى حماد : ٢٠٩ ، ٢١٠
القيروان : ٤٧ ، ٤٨ ، ١٣٢ ، ١٣٣ ،
١٣٥ ، ١٣٦ ، ١٧٧ ، ١٩٦ ،
٢٥٨ ، ٣٧٥

٥٧٠ ، ٥٥٠ ، ٥٤٩ ، ٥٤٤	٤٠٤ ، ٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٢١
٥٨٢ ، ٥٨١ ، ٥٧٨ ، ٥٧٤	٤٢٧ ، ٤١٩ ، ٤٠٩ ، ٤٠٥
٥٨٦ ، ٥٨٥ ، ٥٨٤ ، ٥٨٣	٥٦٢ ، ٥١٣ ، ٥١٢
٦٠٣ ، ٥٩٠ ، ٥٨٩ ، ٥٨٧	المغرب الأدنى : ٤٢٢
٦٠٦	المغرب الأقصى : ٢٥ ، ٣٠٨ ، ٤٢٢
ميورقة : ٣٩٥	المغرب الأوسط : ٢٥
(ن)	مكة : ٥١٣ ، ٤٨٧
فالتوت : ١٣١ ، ٣١٦	اللبانة : ه ٥٨٩
نجد : ٤٩٣	مليكة (وادي مليكة) : ٢٤٣ ، ٢٤٥
نفزاوة : ٢٠٧	٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٤١٠ ، ٤١١
نفطة : ٢٣١ ، ٣٥٦	٤٣٨ ، ٤٤٤ ، ه ٥٧٦
نفوسة (جبل نفوسة) : ١٣	منى : ٥١٣
٤١ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥٨ ، ٦٧	المنيعة : ٢٥٣ ، ٣٥٨
٦٨ ، ٦٩ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٧٨	ميزاب (وادي ميزاب) : ٢٣٦
٨٧ ، ٩٩ ، ١٠٣ ، ١٠٨ ، ١١٤	٢٤٢ ، ٢٤٣ ، ٢٤٥ ، ٢٤٩
١١٦ ، ١٢٣ ، ١٧٤ ، ١٧٦	٢٥٠ ، ٢٥٢ ، ٢٥٤ ، ٢٥٩
١٧٧ ، ٢٢٩ ، ٢٣٢ ، ٢٦٠	٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٧٦
٢٦٢ ، ٢٦٣ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩	٢٧٨ ، ٢٧٩ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧
٢٧١ ، ٢٧٤ ، ٢٧٦ ، ٢٧٨	٢٩١ ، ٢٩٩ ، ٣٠٥ ، ٣٠٧
٢٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨	٣٠٨ ، ٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١
٣٠٩ ، ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢	٣١٤ ، ٣١٦ ، ٣٢٢ ، ٣٢٥
٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٨٩ ، ٣٩٥	٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ ، ٣٣٠
٤٠٤ ، ٤٠٦ ، ٤٠٩ ، ٤١٨	٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤
٤٢٠ ، ٤٣٤ ، ٤٥٠ ، ٤٥٢	٣٣٥ ، ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٤١
٤٥٣ ، ٥٥٣	٣٤٣ ، ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩
نقارة : ٢٨٩	٣٦٠ ، ٣٦١ ، ٣٧١ ، ٣٩٥
نيلي : ٤١١	٣٩٩ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٥ ، ٤٠٦
(ه)	٤٠٧ ، ٤٠٨ ، ٤٠٩ ، ٤١٠
الهرسك : ٥٨٦	٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٣ ، ٤٢٠
هكارة : ٢٨٩	٤٢٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٤ ، ٤٢٥
(و)	٤٢٦ ، ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٣٧
الواحات : ٦٠٥	٤٣٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤
وادي أريخ : (أنظر أريخ)	٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥١ ، ٤٦١
وادي ايغارغار : ٣٥٦	٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦
وادي زقيرير : ٤٤٥ ، ٤٤٧ ، ٤٥١	٤٦٧ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٧
وادي زناتة : ٤٢٣	٤٧٩ ، ٤٨٢ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠
وادي سوف : (أنظر سوف)	٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٨

٣٧٩ ، ٣٧٨ ، ٣٧٧ ، ٣٧٦	وادي مصاب : ٤٢٥ (انظر ميزاب)
٣٨٤ ، ٣٨٣ ، ٣٨٢ ، ٣٨٠	وادي ملوية : ٣٩٥ ، ٣٧١
٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٨٦ ، ٣٨٥	وادي مليكة : (انظر مليكة)
٣٩٢ ، ٣٩١ ، ٣٩٠ ، ٣٨٩	وادي مية : ٤٢٠ ، ٤١٠ ، ٤٠٩
٣٩٦ ، ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣	وادي النساء : ٤٥١ ، ٤٤٧ ، ٤٤٥
٤٠٠ ، ٣٩٩ ، ٣٩٨ ، ٣٩٧	وارجلان : ١٤٩ ، ١٤٧ ، ٦١
٤٠٤ ، ٤٠٣ ، ٤٠٢ ، ٤٠١	١٥٠ ، ١٦٤ ، ١٦٣ ، ١٦٢
٤٠٨ ، ٤٠٧ ، ٤٠٦ ، ٤٠٥	١٦٨ ، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٥
٤١٥ ، ٤١١ ، ٤١٠ ، ٤٠٩	١٩٦ ، ١٨٣ ، ١٧٧ ، ١٧٤
٤٢٠ ، ٤١٨ ، ٤١٧ ، ٤١٦	٢٠٩ ، ٢٠١ ، ١٩٨ ، ١٩٧
٤٣٧ ، ٤٢٧ ، ٤٢٣ ، ٤٢١	٢١٨ ، ٢١٧ ، ٢١٦ ، ٢١٥
٤٨١ ، ٤٤٥ ، ٤٤٢ ، ٤٣٩	٢٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٢٩ ، ٢٢٨
٥٤٥ ، ٥٣٩ ، ٤٨٨ ، ٤٨٢	٢٤٠ ، ٢٣٩ ، ٢٣٧ ، ٢٣٦
٦٠٦ ، ٥٨٦	٢٥٢ ، ٢٤٨ ، ٢٤٦ ، ٢٤٣
واغلانت : ١٨٢ ، ١٧٧ ، ٢٠٦	٢٦٤ ، ٢٥٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٣
٤٤٥ ، ٣٥٦ ، ٢١٣ ، ٢١٠	٢٧٣ ، ٢٧٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٦
ورقلة : ٣٠٩ ، ٣٠٦ ، ٢٣٨ ، ٢٣٧	٢٨٢ ، ٢٧٩ ، ٢٧٨ ، ٢٧٦
٣٧٢ ، ٣٧١ ، ٣٦٩ ، ٣٥٦	٢٩١ ، ٢٨٩ ، ٢٨٧ ، ٢٨٣
٣٧٣	٣٠٦ ، ٣٠٥ ، ٢٩٩ ، ٢٩٥
الونشريش : ٦٠٣	٣١٩ ، ٣١٧ ، ٣١٠ ، ٣٠٩
وهران : ٥١٩ ، ٤٢٦ ، ٣٩١ ، ٣٣٠	٣٢٦ ، ٣٢٥ ، ٣٢٢ ، ٣٢٠
(ي)	٣٣٥ ، ٣٣٤ ، ٣٢٩ ، ٣٢٧
يزقن : ٤١٠ ، ٣٠٨ ، ٣٠٦ ، ٢٤٥	٣٤٣ ، ٣٣٩ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧
يسجن (يسقن) : ٣٢٣ ، ٣١١	٣٦١ ، ٣٦٠ ، ٣٥٨ ، ٣٥٧
٤١١ ، ٤٠٩	٣٦٧ ، ٣٦٥ ، ٣٦٤ ، ٣٦٢
يفرن : ٣٩٥ ، ٣١١	٣٧١ ، ٣٧٠ ، ٣٦٩ ، ٣٦٨
اليمن : ٤٢٧	٣٧٥ ، ٣٧٤ ، ٣٧٣ ، ٣٧٢

محتويات الكتاب

الصفحة

- من خطبة الرسول صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع ٣
تمهيد : الجزائر ٥

الباب الأول : الدولة الرستمية

(١١ - ١٢٦)

كيف وصل الأئمة الرستميون	١٢	ابن الصغير يرسم صورتين
الى الحكم ٥٦		دخول المذهب الاباضي الى
أئمة الدولة الرستمية ٦٤	١٥	الجزائر
الامام أبو بكر بن أفلح ٨٤	٢٠	بعثة علمية
أبو بكر بن أفلح وروايات	٢٥	الدولة الرستمية
ابن الصغير ٩١		الدولة الرستمية : صورة
التناقض في أخبار ابن الصغير	٣٠	للخلافة الرشيدة
هل كان أبو بكر ضعيفا ١٠٥	٣٥	الثورات في عهد الدولة الرستمية
أبو بكر وابن عرفة ١١٠	٤٦	الحروب في عهد الدولة الرستمية
من القاتل ؟ ١١٥	٥٠	الدولة الرستمية بين الحرب
		والسلام

الباب الثاني : صور عن شخصيات

(١٢٧ - ٢٥٠)

أبو زكرياء الهوارى ٢٠٢	١٢٩	عاصم السدراتى
أبو محمد اللواتى ٢٠٧	١٣٤	صقر فارس
أبو عمار عبد الكافي ٢١٥	١٣٨	محكم الهوارى
أبو يعقوب بن خلفون ٢٢٢	١٤٥	أبو عبيدة الأعرج
أبو عمرو السوفى ٢٣١	١٤٧	أبو يوسف الطرفى
أبو سهل بن ابراهيم ٢٣٥	١٥١	أبو باديس أبخت بن باديس
أبو يعقوب الوارجلانى ٢٣٧	١٥٩	أبو سهل الفارسى
أبو مهدى بن اسماعيل ٢٤٢	١٦٢	أبو صالح جنون بن يمرىان
أبو محمد اليزقنى ٢٤٥	١٧١	أبو نوح سعيد بن يخلف
أحمد بن أفلح ٢٤٦	١٧٦	أبو عبد الله محمد بن بكر
باسة بن موسى ٢٤٨	١٩٣	أبو محمد ماكسن بن الخير

الصفحة

الباب الثالث : صور مختلفات عن مشهد واحد

(٢٥١ - ٣٤١)

٢٩٩	• • • • • الاباضية مع جيرانهم	٢٥٢	• • • • • الاباضية في الجزائر
	العلاقة بين الاباضية في المغرب	٢٦٥	تجمعات اباضية في الجزائر
٣٠٦	• • • • • الاسلامي		تجنّب اباضية المغرب للنزاع
٣١٣	موقف العزابة في كفاح الباطل	٢٧٠	• • • • • على السلطة
٣١٧	• • • • • فتن متوالية	٢٧٨	انتشار الاباضية ثم انحصارهم
٣٢٣	• • • • • امارات الدفاع		صورة مصغرة لحياة الاباضية
	اباضية الجزائر تحت الحكم	٢٨٧	• • • • • في الجزائر
٣٢٩	• • • • • العثماني	٢٩٢	• • • • • البراءة والهجران

الباب الرابع : صور عن مدن وبلدان

(٣٤٣ - ٤٥٨)

٣٩٠	• • • • • العهد الرابع	٣٤٤	• • • • • آجاو
٣٩٣	• • • • • فتن ساحقة في وارجلان	٣٥١	• • • • • تجديت
٤٠٣	• • • • • بين وارجلان ووادي ميزاب	٣٥٦	• • • • • اراضى تقرت
٤٠٩	• • • • • وادى ميزاب	٣٦٠	• • • • • رحلة وزيارة
٤٢٥	• • • • • من هم بنو ميزاب	٣٦٩	• • • • • قبيل عن أهل وارجلان
٤٢٨	• • • • • العهود التاريخية لبنى مصعب	٣٧٠	• • • • • وارجلان
٤٣٠	• • • • • العهد الأول	٣٧٤	• • • • • العهد الأول
٤٣٨	• • • • • العهد الثانى	٣٨٠	• • • • • العهد الثانى
٤٤٧	• • • • • العهد الثالث	٣٨٥	• • • • • العهد الثالث

الباب الخامس : صور عن نقود ورددود

(٤٥٩ - ٥٤٥)

٥٠٠	• • • • • مع الدكتور أحمد مختار عمرا	٤٦١	• • • • • لا يا أخى
		٤٧٤	• • • • • ميزاب في نظر مستشرق
٥٠٥	• • • • • بنو مصعب والغربة	٤٧٩	• • • • • ميزاب في نظر مستغرب
٥٢٧	• • • • • المرأة الميزابية والغربة	٤٩٢	• • • • • وقفة مع الأسقاة الكعالك

الصفحة

الباب السادس : المؤسستان الثانية والثالثة

(٥٤٧ - ٦٠٤)

٥٥٠	• • •	مجلس أمسطوردان	٥٤٧	• • •	مجلس العزابة
٥٦٤	• • •	الاباضية والجهاد في سبيل الله	٥٤٧	• • •	مجلس العشيرة

٦٠٥	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	كلمة أخيرة
٦٠٨	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	كلمة الختام
٦٠٩	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	المراجع
٦١١	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	فهرس الأعلام
٦٢٣	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	فهرس البلدان
٦٣٠	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	• • •	محتويات الكتاب

